عبد الرحمن مجيد الربيعي

نحيب الرافدين

رواية

مكتبة بغداد

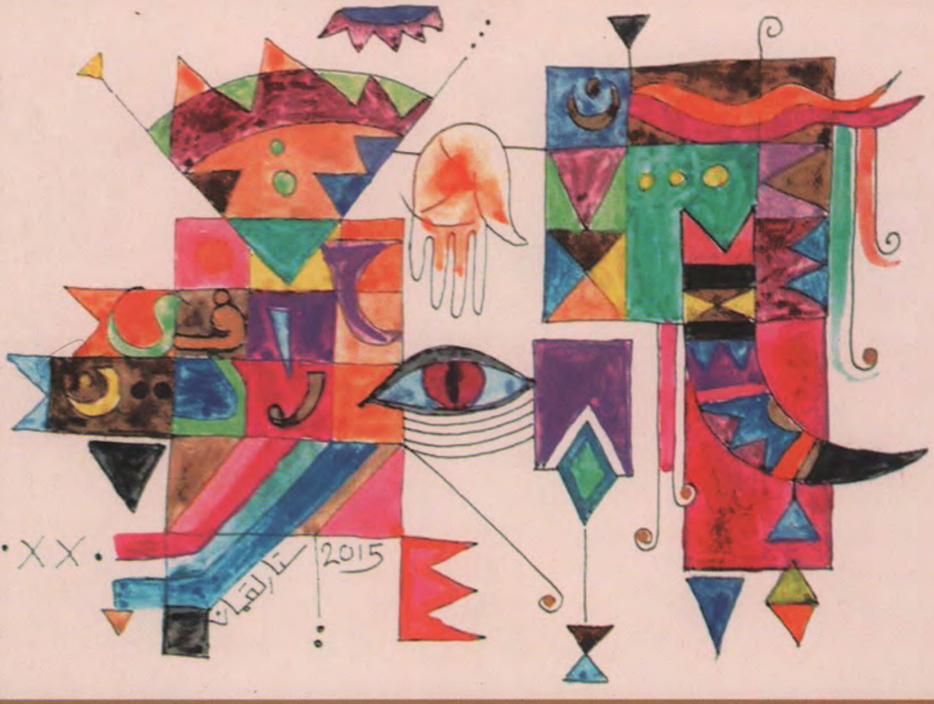

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

دار اوما
DAR OMA

كلمة
KALIMA

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

نحيب الرافدين

رواية

عبد الرحمن مجيد الربيعي

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
دار أوما
DAR OMA
كلمة
منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الطبعة الأولى: 1437 هـ - 2016 م

ردمك 978-614-02-1364-7

ردمك 978-9938-90-233-4

جميع الحقوق محفوظة

دار أوما
DAR OMA

omapublishing@hotmail.com

omapublishing@gmail.com

هاتف: 009647800450065‪6

العراق- بغداد شارع المتنبي، الناصرية - شارع الحبوبي

كلمة
KALIMA

كلمة للنشر والتوزيع

12 نهج بيروت، 2080 أريانة - تونس

الهاتف: 0021671703355 - الفاكس: 0021671706253

البريد الإلكتروني: info@kalima-edition.com

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

149 شارع حسيبة بن بوعلي

الجزائر العاصمة - الجزائر

هاتف/فاكس: 21676179 213+

e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

هاتف بيروت: 9613223227+

editions.difaf@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيّة وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

الإهداء

إلى أصدقائي الذين رحلوا، ذكرى أيّام خلت.

إلى خالد حبيب الراوي، لطفي الخيّاط، غازي العبادي، أحمد فيّاض المفرجي، عزيز عبد الصاحب وعزيز السيد جاسم.

المؤلف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أقرب إلى المقدمة

"تحيب الرافدين" في أعماقنا وعلى الأرض

بقلم: ماجد صالح السامرائي

(لا يمكنك ان تتصور كم من المغامرات الفاشلة، وكم من المآسي المنسية في مدينة الألم هذه! كم من الأشياء المرعبة والجميلة! لن تدرك المخيلة الحقيقة التي تختبيء فيها والتي لن يحاول أحد الكشف عنها، يجب الهبوط إلى الأسفل لإيجاد هذه المشاهد الرائعة، المأسوية أو الهزلية، روائع ولدها الصدفة).

بلزاك

عزيزي عبد الرحمن

وأنا أقرأ عملك الجديد هذا (الذي اخترت له عنواناً مستمداً من أيامنا التي يزداد فيها الألم وينمو إحساس الفجيعة) لفتتني طريقة كتابته التي اعتمدت فيها الحكاية والسرد المسند إليك والى أسماء أخرى من الأصحاب والأصدقاء، إن كنت غيرت في ترتيب حروفها أو بدلت في ألفاظها فإنك لم تستطع إخفاءها أو تمويهها.. فهو كتاب يتضمن جانباً مهماً من وعيك ذاتك وذوات الآخرين، وكأنك توصلت إليهم وتواصلت معهم عبر هذا الوعي، ومن خلاله، وقد أتيت على كل ماعندك وعندهم وكأنك تقف بهم، وبنفسك، عند تخوم نهاية التاريخ، واضعاً الاعتراف الأخير لاحتجاجك، واحتجاجهم.

وأجدك وأنت تدوّن هذه السيرة – المسار الحياتي والثقافي في مرحلة لعلها من أعقد مراحل حياتنا وأكثرها شدة وقسوة على إنسانيتنا كمن يؤلف قصصاً أقرب إلى القصص

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المتخيلة منها إلى الواقع لفداحة وقائعها ومضامينها، وهي قصص عن مسيرة ذات طابع متمرد، محاولاً استعادة تمرد شبابك الأول وأنت اليوم في حقبة وقوفك على مشارف الكهولة، إن لم تكن قد دخلتها بمفاجآتها غير السارة. إنك تستعيد، هنا، أطرافاً من طفولتك التي تجدها جميلة، وربما أجمل مما كانت، وأنت تنظر إليها اليوم نظرة استعادة.. كما تستعيد حقبة شبابك الثاني الذي كان، كشبابنا جميعاً، شباباً مدمراً، ومنتهكاً على نحو فادح الثمن، كما دفعناه.. تاركاً كل شيء للعراء، وفي العراء.. ثم تعمد إلى تعرية ذاتك، وذواتنا معك، أمام قرائك/قارئنا، مع كل ما لحق بحياتنا هذه من دمار، وما أحاطها من تدمير.. فأنت هنا وإن حاولت أن تبدو صافياً، مرحاً، ومحباً.. مشعاً وجميلاً، لم تستطع إخفاء الجراح التي كشفت عنها صور وحالات ومواقف لم تستطع انتزاعها من عقلك ولا فصدها من دمك.

ولكني ألاحظ هنا أن التذكر، الذي أقمت عليه الجانب الأكبر من عملك هذا، يقترب من "التذكر الأدبي" أكثر من التذكر الحياتي - اليومي. وما يبعث الألم في النفس ويستثير الشجن أن كل ما مرّ بتلك الحياة، أو مرت به، قد تحول في الأخير إلى خيبة. أما الفرح القليل، إن بدا هنا أو ظهر هناك، فهو عابر أو وهمي، ما يجعلني أتساءل: هل وقع كل ما وقع لحياتنا مصادفة؟

أنا أدرك أن الخيبة طاعنة في حياتنا، وادرك معها انها كانت رفيقة جيلنا الذي ما كانت تريد أن تتركه لوحده. فانت لست وحدك في هذا، بل نحن جميعاً معك، وإن بدرجات وأسباب مختلفة ومتفاوتة.. ولكن يبقى السبب الأساس هو أن حلمنا كان أكبر من واقعنا.. بل قل إن واقعنا، الذي حاصرنا بامتثالاته التي أراد إملاءها علينا، كان واقعاً يتراجع بينما كنا نحن نريد أن نتقدم، لا بانفسنا وحدها وإنما بالواقع كذلك... نحن الذين اقتبسنا جوهر الحقيقة من أنفسنا، ولم يكن واحدنا ذا تكوين هش أو عابر، ولا محدود الرؤية. ولذلك حين كتبنا كنا قد عكسنا ذواتنا في ما نكتب، وكانت هذه الذوات على جانب غير يسير من خصب التصور الشعري وغناه. قرأنا قصيدة حيواتنا قراءة درامية منفعلة بأزمة العصر، وكتبنا القصيدة التي لم تكن تبحث عن التوازي مع ما قرأنا قدر سعينا إلى كتابة ما يمثل خروجاً عليها. وقرأنا القصة ففسرنا دلالاتها بما كنا نستعين به على ذلك مما عرفنا وعشنا فأدركنا. ويوم كتب البعض منا "قصته" عمد إلى أن يجعل منها جوهراً آخر للحقيقة. أما حين قرأنا الرواية فبقدر ما فتنتنا بعض الشخصيات فيها عمدنا إلى إحالة تلك الشخصيات إلى أحلامنا والواقع، وإن يكن

هذا الواقع هو من أجهض أحلامنا - وقد وجدنا بين شخصيات تلك الروايات من يتقدم، أو يمشي، على أرض الواقع بتوجس واحتراز، أو يتراجع منكسراً ومهزوماً... إلاّ أننا كنا نجتمع إلى هؤلاء لنقول لهم، من باب العزاء: لأمثالكم تشرق الشمس. وإذا بنا، في الآخر، نتبعثر حيث تبعثروا قبلنا: متمزقين رؤى، ومشتتين متشتتين على كل أرض، ولم يبق من أحلامنا تلك سوى الذكريات، هذه التي تكتب أنت اليوم طرفاً منها في عملك هذا.

- من أين، وكيف بدأنا؟ هل كانت البداية بذاتها خطأ ارتكبناه أو وقعنا إليه بعفوية وحسن نية؟ مهما يكن الجواب، أشعر أن الخسران كان كبيراً، وكذلك الثمن الذي دفعناه. هذا كل ما لديّ اليوم من جواب.

وأمضي في قراءتك لأجد السؤال ينهض أمامي ويقول: لماذا تكتب عن الماضي؟ أمن أجل المصالحة معه؟ أم لتعمّق هوة الخلاف بينك وبينه كي تقطع على نفسك طريق العودة إليه؟ ولكن لاأكتمك القول إنني وجدت هذا الماضي الذي عنه كتبت ماضيين: واحد تحن إليه وتتعلق به تعلقك بطفولتك التي تبدو وكأنك لاتريد الإنفكاك عنها.. وآخر تشكوه لفداحة خسائرك فيه حتى بتّ لاتجد أمامك إلاّ الإنسحاب منه. وفي الحالتين لم تتخل عن ذاتك، بل أقول: إن هذه الذات هي التي حركتك باتجاه كلا الموقفين. وفي غير صورة من صور التعبير أجد كلماتك تقول متسائلة: لَم حدث ما حدث؟ وفي الوقت ذاته تتساءل: وكيف حدث؟ هل في غفلة من الواقع أم في لحظة غفلة من النفس والذات؟ لأجد أن ما قد يحمل لك العزاء ويواسيك هو أن يكون لك من الأصدقاء، في محيطك المهزوم هذا، من التقى دربهم دربك.

مع ذلك وجدتك، كما قد يكون قارئك وجدك، وأنت في لحظات، يمكن أن أسميها لحظات العبور الصعب، "خارجياً" تهتف مع المتنبي: "وأنّى شئت ياطرقي فكوني..." مندفعاً بكلماتك، وفي حالات عديدة تقولها بسخرية بالغة، مع إدراكك ان السخرية سبيل هرب لاوسيلة مواجهة.

هذا كله يعيدني ثانية إلى البدايات. فأنت يوم بدأت الكتابة كنت بدأتها بلغة الحداثة. ينبغي أن تتذكر ذلك، ونتذكر معك كتاباتك الأولى.. كانت بلغة الشعر، وذات تاثير شعري.. وكنا، نحن الجيل، مستلبين للشعر وماهو شعري. واجدني اليوم افسر تلك اللغة بخصائصها الفنية هذه بأنها كانت تمثل "هروباً آخر"، ولكن من "لغة الواقع" وليس من الواقع.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في تلك السنوات، سنوات الستينات، أصدر الروائي السوري هاني الراهب روايته الأولى "المهزومون" فاقتنيت نسخة منها و لم اقرأها في حينه خشية أن لايكون "مضمونها" حاملاً الدلالة التي تكونت عندي من خلال العنوان الذي رحت أنسج حوله، في تلك السن المبكرة من الإحساس بالهزيمة، "موضوعات" وأفترض "شخصيات" تتوافق واحساسي المبكر، يومذاك، بالهزيمة.

كانت الهزيمة تتكرس احساساً، ثم غدت واقعاً. ويوم التقيتك، اول مرة، ربيع العام 1964، وكنت قرأت لك كتابات متناثرة، كحياتك التي عرفتها من بعد، وجدتك كمن يحاول الإنتصار على هزيمته بالكتابة. إلاّ ان الهزيمة غالبتك فتغلبت عليك يوم تسللت إلى عمق ما تكتب.

أذكر يومها: كان كتاب آخر مهم قد صدر في الحقبة ذاتها (1963) هو "العرب وتجربة المأساة" لصدقي اسماعيل، ليأخذ من اهتمامي ما لم يأخذه كتاب آخر قرأته في تلك الحقبة، وقد تناول تجربة المأساة من الجاهلية إلى عصرنا - الذي حين بلغه ركز الكلام فيه على أوهام أربعة هي: وهم الحقيقة، ووهم الإستقرار، ووهم الفردية، ووهم الذاتية. وبقدر ما وجدت هذا الكتاب يحفزني إلى تجاوز "أوهامي" وجدته يشلني، لأنه وضعني وجهاً لوجه أمام ما كنت أعتقد أنه حقيقة، و لم تكن سوى وهم.

أذكر هذا لأقول: إن المشترك بيننا، جيلاً وأصدقاء، كان يستوي عند عذابات الروح واعتمالات الفكر هذه. و لم يكن كل ما فعلناه أو خضنا غماره، حتى تجارب الحب الخائبة، أكثر من عملية هرب من مواجهة ما كنا ندعوه "مصيراً". وقد اكتشفنا، ونحن على تلك الطريق، الكثير من الكذب، وهو ما آلمنا أكثر من سواه.

ومررنا بفترات أخرى، أو كانت متداخلة معها، كان همنا الأكبر فيها المحافظة على يقيننا الذاتي، وكان يهمنا أن يظل هذا "اليقين" متطابقاً مع ما نجد فيه "حقيقة موضوعية"، أو ما يدعى بهذه التسمية. إلاّ أننا وجدنا أنفسنا في/أمام واقع مشطور إلى شطرين: فواقع تعلنه اللغة، وآخر كان حتمياً. وحين تأملنا فيهما لم نجد أياً منهما مكتملاً، بحسب رؤيتنا له.

ولكن الأسوأ من هذا كله هو ما أعقب الحقبة التي ينقل عملك هذا طرفاً، قد يبدو شخصياً، منها، يوم انغلقت دائرة الوجود والوعي الإنساني دوننا، وأنجز البؤس احتمالاته كلها معنا/ومن خلالنا يوم أصبح "مثاله" متحققاً في حياتنا وما حولها. إنها حقبة الفقر المرعب التي وجدنا "التاريخ" يعيدنا فيها إلى ماكنا قرأناه يوماً فيه عن حالات، كنا نرتعش

لها ونحن نقرأها، مرت بها الإنسانية في بعض أزمنة دمارها، لنجد مثالها متحققاً في حياتنا. صرنا نسأل عن "الغاية الأخيرة" من عمليات الجوع والتجويع التي طاولتنا بشراسة، متى تتم دورة وتنتهي حالة ووضعاً؟ ونتساءل: هل يمكن من بعد كل الذي عشناه أن تبدأ حياة جديدة للبشر العراقيين، نحن؟ لقد أصبحنا خارج التاريخ، وجرى النظر إلينا على أننا كذلك. إن أحد الذين تحدثت عنهم في عملك هذا، أو وضعتهم ضمن "أبطال الهزيمة"، عاش، من بعد مغادرتك البلد، ثمانية أعوام ببذلة شتوية واحدة. وكان حين يسأله أحد، من باب الفضول، عن دواعي "تمسكه" بها رغم استحالة لونها يقول مازحاً، وهو يحاول إخفاء الجرح، بان فيها صفتين محببتين: الفرادة والقدم – مستعيراً القول من حافظ ابراهيم يوم كان يسأله من لايدرك حال من يسأل عن تمسكه بجبته التي شابهها "صاحبنا" ببذلته موضوع السؤال. ويوم وجدها قد بليت و لم تنته سنوات الحصار لم يجد من سبيل سالكة أمامه "للتعويض" عنها إلاّ "سوق البالات" فقصده مكرهاً. و لم يكن هو الوحيد الذي فعل ذلك... ما يجعلني أقول لك هنا ما قاله لي أحد الأصحاب في تلك الحقبة: لقد اهتزت في نفوسنا وعقولنا "قوانين" الفكر الذي قرأنا، يوم أصبح الكثيرون منا يعيشون ما أسماه صاحبي "سكينة المعرفة".

كنت تخشى على كتبك، كما تقول، أن تباع من بعدك في "سوق السراي"؟ ربما بلغك الخبر- الحال من بعد أن هذه السوق لم تعد تستوعب ما كان يخرج إليها من بيوت الأدباء والمثقفين العراقيين من كتب كانت تباع لتغطية متطلبات البقاء على قيد الحياة بأثمانها. وقد فتح شارع المتنبي، المجاور للسراي والمكمل له، ضفتيه لاستقبال الكتب التي كان أصحابها يخرجون بها مع دموعهم وآهاتهم وكأنهم يودعون عزيزاً عليهم رحل. كنت أترقب صباح كل جمعة، حيث يكون الشارع على اختناقه بالكتب والبشر، أن أرى أحد هؤلاء المثقفين الذين باعوا كتبهم مكرهين، وبينهم أسماء معروفة، ان يدعو اصحابه ذات جمعة ليخرجوا معه من بيته وهم يحملون نعشاً مليئاً بالكتب يصلون به معه إلى شارع المتنبي، وهناك تُوارى "الجنازة" بما تحمل بين آلاف الكتب التي سبقته إلى الشارع الذي أصبح مكتبة عرضها ما امتد عليها من أرض. ولكن أحداً لم يفعل ذلك: خوفاً؟ خشية؟ أم تجنباً للإعلان عن أسمائهم "خوف الفضيحة"، رغم أن الكثير من هذه الأسماء أصبحت معروفة من خلال وجود الأسماء، أسماؤهم، مدونة على الكتب المباعة، وقد فعلوا ذلك يوم كان التفكير بحق الملكية الشخصية شأن الجميع، حتى لو كانت الملكية كتاباً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إنني أكلمك في "سنوات الحصار" العجاف التي لم تكتو بنيرانها كما اكتوينا.. يوم لم يعد لوجودنا، كبشر، أي بعد إنساني أو تاريخي.. بل أكاد أقول: إن التاريخ لم يعد معنياً بشأننا، وهو بالنسبة لنا ليس فقط لم يعد يتطور، بل توقف!

فماذا كانت المحصلة من هذا كله؟ كانت الغزو، والإحتلال، والموت المضاعف آلاف المرات، وخيانات لاتعد ولاتحصى، وخونة يتباهون بخياناتهم لبلدهم وناسه، وشعب مشرد، وآخر ضائع أو مضيّع، ومتاجرة بالبشر دماءً وأرواحاً، حتى بات الناس يسمون بلدهم بـ "ولاية همجستان" لفرط ماشهدنا من استباحات لدماء البشر وممتلكاتهم وأعراضهم. فإلى أين تريد للثقافة والمثقف أن ينتهيا في واقع كهذا؟

إن "نحيب الرافدين" أصبح في واقع كهذا صراخاً ونواحاً وعويلاً.. ولا من يسمع أو يصغي.

ولو أتيح لك أن تعود اليوم إلى بلدك، والى بغداد، فتعايشنا شهراً أو بعض شهر (هذا إن استطعت) فإني لا أشك في أنك ستخرج بجزء من الكتاب آخر، مكمل، وستسميه "الجنون الأخير"، أو "الانتحار الأخير". قد تسألني: ولماذا لم يكتب زملاؤنا شيئاً من هذا، وهم يعيشون ويعايشون؟ فاجيبك بالتأكيد: إن البعض منهم كتب ونشر، والبعض الآخر كتب و لم ينشر ما كتبه بعد.. وبعض ثالث التهمته "المؤسسات – الواجهات" وقد أغرته بأموالها، فلم يعد يرى إلاّ الجانب الذي تريد منه أن لايرى سواه – وهو مكتوب على الورق، وليس على أرض الواقع!

لايدهشنك هذا.. فأنت تعرف ماذا كانوا من قبل يفعلون؟! بل إن البعض منهم راح يصرّح بملء الفم بأنه لم يجد "الحرية" من قبل لتنفيذ "مشروعاته" في الكتابة، وهاهو يريد اليوم أن يبدأ "معوضاً".. ومنهم الكاتبة التي وجدت نفسها، كما قالت بأعلى صوتها لإحدى إذاعات الإحتلال، تعيش الحرية لأول مرة بعد أن افتقدتها أربعين عاماً (أي منذ 1963 وحتى العام 2003 عام الإحتلال)، وهي اليسارية التي باعت اليسار في لحظة إنكساره، وعاشت سنواتها الأخرى في ظل المؤسسة الثقافية ورعايتها، وبغنج ودلال. فتأمل!

ماذا بقي من "وعي الذات"، الذي نتكلم عنه، لدى هؤلاء؟ فاليوم، في هذا البلد، قد دُمِّرَ التاريخ والواقع تدميراً كاملاً. فالغزاة الذين فعلوا هذا لهم شكل البشر، ولكنهم مفرغون من كل روح إنساني، وليس لديهم شيء من "الروح الخلاقة" التي يدعون. أما من جاؤوا معهم على متن دباباتهم فهم غرباء في كل شيء عن البلد وناسه.. حيويتهم في

غرائزهم، وقد فجروا هذه الغرائز دماراً، وإحراقاً لكل ما يمثل وجوداً على لأرض، وسلباً، ونهباً، محتمين بما يحملون من "وثائق الإنتماء" إلى "البلد الآخر".. وبينهم ممن كنا نعرف من كتاب وصحفيين وشعراء ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا "أدلاء" و"مستشارين" للغازي المحتل... والى ماذا؟ إلى التدمير والتخريب.

قد يقول قاريء يقرأ عملك هذا، وهو لايعرف أو يدرك فداحة الحقبة التي تتحدث عنها والمأساوية التي عاشتها "شخصياتك" واكتوت بنارها: إنك رحت في كتابك هذا "تلهو" على هواك، وبحرية تامة. وهذه نظرة سطحية إلى العمل لو حصلت.. فالمسألة أكثر عمقاً وأشد تعقيداً.. فأنت تدعونا إلى إعادة قراءة ما حصل.. وقد يجد قاريء في ما كتبت ضرباً من ضروب الإنفجار الذاتي، وهو كذلك. فما أتيتنا به ليس قصصاً متخيلة، وإنما هي وقائع كتبت في حينه بكلمات من جمر. أما اليوم فهي نظرة استعادية.. وهي هذه العلاقة بين خطاب أدبي وتشظيات حياتية. ليس هناك ماهو خفي في ما يستند إليه عملك هذا.. إن كل شيء فيه مكشوف، وقد كاشفت به قارئك، وهو معروض بطريقة دالة، إشاراتها الأسماء التي لم يستطع التحوير الذي اعتمدته فيها والتغيير أن يخفيها، وكذلك الأماكن والحالات. وقد جعلت الإنتباه يتوجه إليك أولاً، فأنت اللاعب الفعلي في هذا العمل، على الرغم من أنك في عالمك الشخصي هذا قد منحت "حق الدخول" إليه للآخرين، فدخلوه معك، وبصحبتك، وأنت تبحث، أو ترجو كلاً منهم "المشاركة" التي تساعدك في دعم "معانيك" التي يهمك تأكيدها من بعد التأكيد عليها.

وأنت بوصفك "بطلاً" لهذا العمل/الرواية لم تتمكن من تحرير نفسك من الصراعات التي سادت تلك الحقبة وما بعدها، ولكن من دون أن تقع في أوهامها أو تنجرّ إلى عتماتها.. بل قد يجدك القاريء، كما وجدتك، في غير موضع ومكان من العمل وقد حرصت على التعريف بنفسك بما هو أقوى من الميزات الذاتية وأكبر أثراً. فأنت "الشاعر" الذي لم يتحرر من رغباته (نزواته) الشخصية، إلاّ أنه، في الوقت نفسه، عرف كيف يعيش تلك الرغبات، وإن بطيش ونزق أحياناً!

وعلى ما يبدو فإنه لم يكن يهمك في هذا العمل، وأنت تكتبه، لعب لفظي أو بناء شكلي، وإنما كنت مأخوذاً بأن تتجه به نحو مصيرين: مصيرك، ومصير الآخرين الذين لم تكن تتجه بهم اتجاهاً واحداً، أو تأخذهم في مسار مشترك لك معهم، وإن جاء سردك القصص، عنهم ومعهم، محاولة إيهام بالتوافق بين المصيرين: مصيرك الشخصي، ومصائرهم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التي وضعتها في كفة واحدة. وقد تجد التبرير لنفسك في أن الواقع من حولكم كان واقعاً متحركاً حركة اضطراب وتمزق.

من هنا، وبهذا أكثر من سواه، يمكن أن نفهم حركة هروبك إلى الماضي، الذي لم يعد فسحة للذكرى وحدها، وإنما هو مصدر للتضاد مع الحاضر الذي أنت فيه. لقد وقفت مثل هذا الموقف وأنت تتحرك ذاتاً حركة شعرية الروح والجوهر. ولعل الغريب في هذا هو نهوضك من حياتك الأولى، على كل ما لها من طابع بدائي، والتوجه بكليتك إلى حياة ذات طابع برجوازي ظلت تطوقك سنوات، طالت أم قصرت، ربما شعرت معها أنك تتملك عالمك وتحكم السيطرة عليه بقوة ذاتك الإبداعية. ولا أريد القول هنا إن ذلك لم يكن أكثر من وهم ربما تملكنا جميعاً، وإن بدرجات متفاوتة، فكان واحداً من الخسائر التي منينا بها، وإن لم تنقلنا، تلك الخسائر على فداحتها، إلى حاضرة اليأس التي عاش كثيرون فيها قبلنا ومن بعدنا.

هل يمكن القول إن هذه العودة منك إلى الحياة الأولى جاءت من قبيل المحاولة لإنقاذ الطفولة في داخلك؟ أم أنك وجدت فيها، وأنت في تلك الحقبة الصعبة والحياة العسيرة، ما ينقذ رموز ذلك العالم المثالي في داخلك، والذي كان صلة الوصل/كما كان الحاجز في بعض المواقف والحالات، بين ذاتك والعالم؟ أم هو لا هذا ولا ذاك، وإنما بعض من عذابات الضمير جراء ما ألحقتَ بتلك الطفولة من شقاء يوم كبرت؟

أجد كلماتك في هذا العمل وقد انبعثت من هذا كله، أنت الذي حاولت الخروج من "الأسطورة" لأنك وجدتها أسطورة انطوت على رؤى محطمة.. حتى أصبح القبض على رؤيا بحجم ما عاشه الواحد منا من أحلام مسألة صعبة، إن لم تكن مستحيلة.. وما من يقين إيجابي، بل أصبح كل ما حولنا مثاراً للرعب، ودافع هرب إلى الأمام نحو غربة ذاتية راحت تلتهم كل ما للإنسان من تطلعات - وهي التطلعات التي كنا نشاهدها وهي تتحطم وتتلاشى، ونحن لا نملك إزاءها حتى مصائر أنفسنا.. ومع هذا الذي يحدث لم نعد نمسك بالكلمات كما ينبغي. وصار إحساسنا بالمكان ضعيفاً لأن "المكين"، الذي أخبرتنا الكتب الأولى أن المكان لايكون إلاّ به، لم يعد مستقراً فيه استقرار وجود. ولم يسلمنا هذا إلى بحث لاينتهي، كما قد يتصور، وإنما ألقانا إلى تيه لم نعرف له حدوداً، فإذا نحن نجر الحياة وراءنا بديل أن تندفع بنا إلى أمام، حتى أثقلتنا، أو هكذا أحسسنا.

أجد هذا كله في النسق المهشم داخلياً لعبارتك.. في انسيابها وسقطاتها، وفي تسارعها وهي تغالب وصف ما يحدث ويحصل. أحياناً تخترق ما يمكن أن ندعوه

بالرخاوة العادية لأشكال الكتابة وصنوف القول، وفي أحيان تستسلم تحت ضغط ما تعيش من انكسار داخلي. وكما أدخلتنا في الأعماق من حياتك أدخلتنا معك في أعماق حيوات الآخرين. كنت منفياً في ذاتك والخارج، وعبارتك هي الأخرى.. وكنت تقع إلى هذه العبارة علك تجد فيها ما يعيد التوازن إلى حياتك، التي وجدتها، فجأة، حياة مستلبة، فلم تنجدك.. بل وجدتها في أكثر المرات كانت تخذلك لفرط ما يتعالى منها من أنين.

إلاّ أن ما قد نحمده لأنفسنا أننا لم نكف عن الكلام، وبقينا نكتب، وقد وجدنا في دواخلنا، وفي الواقع، أنهاراً لم تجف، وفي نفوسنا ظمأ للقول لايرتوي.. فكتبنا.

هنا أفهم قصدك وأنت تصوغ ماحدث بفجاجته وقسوة معناه. ربما كنت تدرك وأنت تفعل هذا أن القبض على الإنفعال لايكون إلاّ بإثارته. ولكنك إذ أخضعت كل شيء للغتك بدا الواقع الذي تكتبه شبه متخيّل، والأشخاص أشباه أبطال الأساطير، حتى وهم يتكلمون بتلك اللغة العابثة.

وكتبت بصوت عال بعد أن وجدت ان الصوت الخفيض لم يعد مجدياً، فضربت في كل اتجاه، وكشفت عما قد لاينبغي الكشف عنه، بلا تحفّظ، وبطريقة ينقصها "الأدب" في بعض ما تقول.. مندفعاً نحو نهايات وجدت، بعد أن اصبحت بعيداً في المكان والزمان، أن "البوح" بها أصبح ممكناً. فهل هو كلامك وحدك أم "للشركاء" فيه نصيب؟

لماذا تكتب هذا (ومثله الكثير ينتظر الكتابة) وأنت/نحن ندرك أننا ليس في مقدورنا أن نعيد خلق الواقع من جديد لينتج عنه ما نريد. فعلى الرغم من أننا كنا قرأنا عند من كتبوا قبلنا الخيبة ذاتها أو ما هو أشبه بها، إلاّ أننا لم نأخذ عنهم شيئاً من العبرة والتجربة، فغصنا في أوحال الزمن كما غاصوا.

لقد كانت لكل منا "أساطيره" التي صنعها في رحلة عمر وجد في الآخر أنها كانت شقية. إلاّ أننا فوجئنا بأساطيرنا وقد امحت، وبشكل موجَّه. كنا نريد لأنفسنا دور الريادة في جيلنا، وقد أعددنا أنفسنا له واهلناها لمثل ذلك الدور بقدراتنا الذاتية، وليس بشيء آخر سواها، فإذا بنا نجد أنفسنا، في غفلة منا، موضوعين في عداد العابرين!

هنا بدأت المدينة، التي كانت الحياة فيها حلمنا الجماعي، تفقد بعدها ومعناها وتتلاشى ظلالها في نفوسنا. صرنا نراها وكأن لاشكل لها بفعل ما لحقها من تشويه من الداخل.. وراح بعض منا يبحث عن "مشكلة ضياعه" فإذا هو، في الآخر، متمزق بين حيرة ويأس في واقع هو نفسه واقع بين الحيرة واليأس.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فماذا تفعل حين تجد "مدينة الحلم" تتهاوى بحلمك فيها، وتصبح هي نفسها بلا معنى بالنسبة لك بعد ان فقدت "رموزها" أمامك، وعلى مرأى منك؟ هل تحتفي بحاضر لم يعد لك أو منك؟ أم تنتظر مستقبلاً لاتعرف عنه شيئاً؟ أم تعود إلى الماضي وأنت الذي أدركت أن للتاريخ معنى ودلالة، فماذا بقي لك من التاريخ؟

كان صديقك، العزيري، على حق إذاً في سخريته المريرة.. لم تكن رؤيته ساذجة أو تخلو من الإستشراف لما سيأتي، بل يبدو أنه كان يأخذ الأمور بنتائجها، ويدرك بشكل مباشر واقعه - واقعنا وقد جرى اختزال التاريخ فيه على مرأى ومسمع منه، وأريد له أن يكون شاهداً على ما يحدث - وهنا المفارقة القاتلة - وربما هي التي قتلته يوم راح يحصي الخسائر والخسارات في ليلة غربة مبهمة!

وشيئاً فشيئاً بدأنا ندرك أن البيت يحترق. كنا لانصدق ما يقال حين يقال لنا. كان البعض منا لايريد أن يستجيب لما كان يسمع، شأننا شأن ذلك الذي قيل له إن بيته يحترق فردّ: إن المفتاح في جيبي!

كأني بك في هذا الكتاب، وفي كتاب لك آخر سبقه (أية حياة هي) كمن يريد القول: هذه هي الحياة التي حييت، أنا الكاتب الذي كرست عمري للكتابة، فكتبت أعمالاً عديدة توزعت بين القصة والرواية والشعر... وما قد يكون من "عبث الحياة" أحياناً.. وإن ما أكتبه اليوم ليس اهتماماً أدبياً جديداً يأخذني في مساره ومسراه بقدر ما هو من قبيل كشف المستور من تلك الحياة والمكاشفة به. فبعد أن لعبت كل الأدوار مع أبطالي، من الرجال والنساء، لماذا لا ألعب الدور في هذه المرة مع نفسي؟

فإذا كان ما يحرك الكتابة هنا هو الرغبة في الإعتراف، فإن هذه الكتابة، في وجه آخر من وجوهها، وعي للذات، ومواجهة لها في آن واحد.

لقد جمعت تشظيات تلك الحياة من عالم مدمّر، هو عالمك الشخصي في حقبة عسيرة من حقب العمر، حتى بدت في اجتماعها هذا وكأنها عالم أشباح ليس من السهل الركون إليه وتصديق ما يجري فيه، فكيف باحتماله؟! وتحت هذا الضوء القاسي، والساخر أيضاً، أعدت صياغة واقع نتساءل اليوم أمامه بمزيد العجب والإستغراب: كيف عشناه فاحتملناه؟!

ولكن... ماذا عنا اليوم؟ ربما كنت قد تساءلت غير مرة وأنت تعيش في مغرب الوطن بينما نمكث نحن في أقصى مشرقه.. فأقول لك، لكي لا تذهب في شيء من عثرات التاريخ: لقد حل الليل في بيوتنا والدروب، ونال من بعض الأعماق فاستقر.. وغدا البحث

عن النهار أشبه بحالة غياب المعنى من النص. ولكن – وهنا السؤال الأهم – هل استسلمنا لما نحن فيه؟ لقد علمتنا الكتابة أن هناك صيغاً متعددة للحياة واللغة، فليست "لغة الليـــل" وحدها التي يمكن أن تكون، وإنما هناك "لغات أخرى" علينا أن نحشدها بالحياة وندفع إليها كلماتنا، فللغة الكثير الذي تريد اليوم أن تقوله، وما تقوله لابدّ أن يكون جوهرياً بالنســبة للتاريخ.. لذلك ينبغي أن نقول ونكتب دون أن نأبه لهذه الأحجار، فاقدة الكينونة، الــتي رماها هذا الغريب، والغرباء عن حياتنا وتاريخنا، في الطرقات لتصدنا عن المسار.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مدخل

هذه الرواية- شيء من الإيضاح

تتحدّث روايتي هذه عن العراق في ظلّ الحرب العراقية الإيرانية، وقد بدأت كتابتها ببغداد بعد عودتي إليها من بيروت عام 1986، وفرغت من كتابتها بتونس عام 2006، وأعلنت عن قرب صدورها تحت اسم "كلام الليل"، لكنّ الظروف لم تسمح لي بنشرها ووجدت أنّ نشرها في سنوات الحصار الدامية غير مجدٍ ولا أخلاقي رغم وجودي خارج العراق، وكان النظام القائم آنذاك يعدّني من بين معارضيه ونشر اسمي في قائمة أعدائه الذين وصفهم بالمرتدّين بإحدى صحفه، لذا أرجأت النشر كي لا توظّف روايتي في سياق لا أريده لها.. فربما سيراها البعض دعوة لمواصلة الحصار وهذا ما يناقض موقفي الوطني والأخلاقي المعلن في مقالاتي التي كنت انشرها في تونس ولندن والجزائر.

وبعد الحصار جاء الاحتلال بكل ما حمل من تدمير وتقتيل وتمزيق للهويّة الوطنيّة وإحلال الطائفية بديلا، فتحوّل العراقيون إلى لاجئين سواء في بلدان الجوار كسوريا والأردن وبعض بلدان الخليج أو إلى لاجئين في وطنهم. وأكرّر هنا أنّني، وكما رفضت الحصار وكتبت ضدّه، رفضت الاحتلال أيضا ومن جاء بهم ليحكموا، وقد أكّدت ذلك في مقالاتي والحوارات التلفزيونية والإذاعية التي أُجريت معي.

وهكذا، أصبح العراق بعيدا عنّا نحن الذين كنّا نمنّي النفس بالعودة إليه، وقد فتح لنا صدره الواسع الذي لا يعرف الأنانية السّياسية والاستئثار بكلّ الأدوار كما كان عليه النظام السابق أو التبعيّة والعمالة للأجنبي بالنسبة للنظام الحالي الذي أقامه الاحتلال.

لكن هذا العمل الروائي الذي كتبته بكلّ صدق وكلّ محبّة للعراق ولشعبه ولمستقبله لا يمكنني أن أبقيه مخبأ بين أدراجي.

ومادمت قد كتبته فلابدّ من نشره، فهو وثيقة عن مرحلة، لم أزيّف فيها و لم أصفّ أي حساب مع أحد فهذا ليس من صفاتي أبدا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكان رأي أصدقائي المقرّبين الذين أثق بهم هو أن يُنشر هذا العمل وبهذا التقـــديم-الإيضاح القصير.

وأضيف هنا أنّني لم أقم إلاّ ببعض التشذيب بعد إعداده للنشر، ممّـــا تطلّبـــه الواقـــع الجديد الذي أصبح العراق عليه، وأردّد دعاءنا الشعبـــي ختاما: اللهم لا شماتة.

المؤلف

تونس/صيف 2010

مــن مبلــغ المنصــور عــن بغـدادِهِ

خبـــرا تفـــيض لمثلــــه العبـــراتُ

لا دجلــــةٌ يــــا للرزيــــة دجلــــةٌ

بعـــد الرشـــيد ولا الفـــرات فـــراتُ

معروف الرصافي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- 1 -

يتطلّع إلى جدار رصاصيّ، فيه مصباح مطفأ وكذلك صورته المؤطرة بإطار ثمين، التقطها له مصوّر أرمنيّ بارع اسمه زكريان هاجر فيما بعد إلى أميركا، وهناك افتتح ستوديو تصوير أيضا اسمه "ستوديو آشور" أصبح جلّ زبائنه من العراقيين الذين استوطنوا أميركا، يعلّق في واجهته صورا تعود إلى الثلاثينات من هذا القرن، كان قد التقطها عندما كان فتى يافعا واحتفظ بها ونقلها معه إلى أميركا عندما قرّر الهجرة إليها.

ولو عاد غسّان العامري وبحث عن مكان ستوديو زكريان ببغداد قبالة مكانه جسرا جديدا يربط بين ضفّتي بغداد الكرخ والرصافة، أمّا المكان نفسه فقد شُيّد فيه مرآب للسيّارات ومبنى للبريد وأزيحت كافّة المحلات والدكاكين، بما في ذلك فندق سميراميس الذي كان أعرق فنادق بغداد والذي كان يحلو لزكريان أن يرتاد باره لشرب بضعة كؤوس من الويسكي ورؤية كبار رجالات البلد والضيوف القادمين.

وفي صورته المعلّقة قبالته كان وجهه باسما وهو يرتدي ربطة عنق نحيفة وفق موضة تلك الأيّام، وجوار الصّورة وعلى امتداد الحائط صفّت رفوف من الكتب، وثمّة تحفيّات خشبيّة كان قد اشتراها منذ أشهر من مدينة كركوك ذات الخليط العرقي من السّكان، عرب، أكراد، تركمان، آشوريون.. إضافة إلى خليط من الأديان وما تحوي من طوائف: مسلمون، كلدانيّون، يزيديّون، وجلّهم ارتبطت وسائل عيشهم بشكل أو بآخر بشركة النفط.

لقد دخل دكّانا مجاورا لنادي الضبّاط ومقابلا لمبنى البريد، هذا ما يتذكّره، ويتذكّر أنه اشترى عصا لصديقه عدنان العزيري الذي ألحّ عليه بان لا يعود إلاّ وهو يحمل له هديّة تليق بمقامه، فلم يجد غير هذه العصا، كانت غصنا ذات يوم في شجرة جبليّة وقد بقيت فيها كلّ نتوءات ذلك الغصن وقد طُليت بدهان أسود.

وعندما احتجّ عدنان العزيري وهو يتساءل:

- ما هذه؟
- عصا.
- وماذا أفعل بها؟
- تهشّ بها على غنمك ولك فيها مآرب أخرى.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وضحك عدنان العزيري وهو يسأله:

- ألا تخبرني أيّه مآرب لي في هذا الغصن القبيح؟

ردّد غسان العامري ببساطة:

- هي مفيدة لعلاج البواسير.

وقد اشترى غسّان لبيته مدقّا ومزهرية وشمعدانا، وكلّها من الخشب الأبيض ورسمت عليها زخارف بدائيّة بسيطة، لكنّها ليس سيئة في استقرارها أمام عينيه على الرفّ.

كان صوت أم كلثوم يأتيه من النافذة العلويّة التي فتحها ليدخل الهواء إلى الغرفة، إذ كانت المروحة المنضديّة التي تدور على مقربة منه بصوت مسموع عاجزة على الإتيان بأيّ نسمة.

صوت أم كلثوم وهي تردّد "دليلي احتار" يرجمه من النافذة، وكأنّ كلّ الشقق مستباحة أو تستبيح بعضها، لا أحد يفكّر بمن هم في الشقق الأخرى، يأخذ حريته على مداها، يفتح الراديو بأعلى صوته وخاصّة إذا راق المزاج مع كأس عرق. أمّا الآن وفي أيّام رمضان فقد تحوّل الجميع إلى الصّيام، ولكن ضوضاء إعداد طعام الإفطار تبدأ من الواحدة ظهرًا، فكأنّ الناس يصومون ليأكلوا. تنطلق روائح الطبيخ، زيوت ولحم، ثمّ هناك من يرتّل القرآن أو يضع كاسيتا للشعشاعي أو عبد الباسط عبد الصّمد، وهناك أيضا من يستمع إلى أم كلثوم، لأن صوتها يوقد الحنين إلى وطنهم مصر الذي غادروه وجاؤوا إلى بغداد للعمل.

وبعضهم غادر قريته في الصعيد إلى بغداد رأسا ولم يعرف من القاهرة إلاّ اسمها، والصور التي تظهرها الأفلام والمسلسلات التلفزيّة عن الحياة فيها.

لقد انتشروا في مدن العراق وقراه البعيدة من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال، وقيل إنّ بعضهم تعلّموا اللغة الكردية وتعايشوا مع عوالم الجبال بعد أن ارتدوا الملابس الكرديّة، وانتموا إلى فرق الفرسان من الأكراد الموالية للحكومة في وجه البيشمركة المتمرّدين عليها. شبّان وشيوخ جاؤوا ليعملوا علّهم يعودون ببعض المال. يعملون في المقاهي والمطاعم ونوادي الليل وبيع الخضار وقيادة السيّارات والنجارة والحدادة والسمكرة والزراعة ودفن الموتى وأفران الخبز.. "أي حاجة" كما يقولون لمن يسألهم عن مهنتهم.

وكانوا يجتمعون كلّ سبعة أو ثمانية ليستأجروا شقّة واحدة، وفي الليل ينسدحون على الأرض على فرش من الإسفنج الرخيص، وخيرهم من استطاع شراء سرير حديدي ليرمي عليه جسده المكدود، أمّا على جدران هذه الشقق فقد ألصقوا صور ليلى علوي ولوسي وإلهام شاهين وصابرين أو عادل امام ونور الشريف وعبد الحليم حافظ.

وبالتأكيد فإنّ عمليّات استمناء بائسة تتمّ نخب جسد هذه الممثّلة أو تلك.

في هذه العمارة المحتشدة بالشقق الصغيرة، التي بنيت أصلا لتكون مكاتب شركات وأطبّاء في بداية الطريق ومحامين مغمورين، يقيم غسّان العامري.

وفي نهاية كلّ شهر يحمل صلاح بوّاب العمارة، الذي لا يعرف منه غسّان العامري إلاّ اسمه الأول، القائمة التي يسلّمها له مالك العمارة ليجمع الإيجارات.

ويبدأ صلاح عمله بطرق أبواب الشقق واحدة واحدة ويقول لكلّ من يدفع له: اكتب اسمك، فهذا الفتى الصّعيدي الطّيب لا يعرف القراءة والكتابة، ولكنّه يتميّز بأمانة نادرة لذا أوكل إليه الحاج عبد الصّمد - وهذا هو اسم المالك- شؤون العمارة كلّها وانصرف هو إلى مشاريعه الأخرى.

وكان صلاح يستيقظ باكرا ويبدأ بكنس سلالم العمارة بطوابقها الثلاثة وكذلك المساحات بين الشقق.

وكان يؤدي عمله بانسجام لا يبدو عليه شيء من التذمّر فكأنّ له فيه متعة. أمّا إذا حلّ موعد الصلاة فإنّه يدخل مكتب الحاج الذي ترك لديه مفتاحه ليصلّي، ثمّ يكلّم الحاج بشأن العمارة وإن كانت هناك أمور تستوجب الحلّ.

أم كلثوم ودليلها الذي احتار وحيّرها معه. وحيّر أمّة العرب كلّها بشأن ما لحق بها وما سيلحق من مصائب، وبلد ينحر الألوف من أبنائه كل يوم في حرب غامضة، لم تفلح كلّ الشعارات والخطب وصور الجثث والأشلاء التي يبثّها التلفزيون في نشرة الأخبار المسائيّة من إقناع أحد بها، ومع هذا لا قدرة لأيّ عراقي على النطق بشيء، كانت العيون وحدها تقول كلّ شيء، ولكن بصمت، هذا الصمت الذي إن تحوّل إلى كلمة احتجاج فمعناه انتحار قائلها.

وكان غسّان العامري ورغم قيظ الظهيرة يهرب إلى الخدر مع كأس من زجاجة "الأوزو" اليوناني الذي يذكّره بعرق لبنان، لقد حملها له صديق يقيم في أثينا منذ سنوات، عيناه تعبّأتا بمرأى الأوكروبول وطلّته التي تقاوم الدّهر، وغسّان العامري قد رآه أيضا أكثر من مرّة وشرب تلك الطلّة الهرمة التي رآها في أعمدة بعلبك وصخور جبيل وفي جدران قرطاج ومهابة التاريخ في آثار مدينة الجمّ، ورآها أيضا في حصن الأخيضر وطاق كسرى ومنائر الذهب في كربلاء والنجف والكاظميّة وسامرّاء.

وتذكّر غسّان العامري أنّ صديقا له هاجر ذات يوم ليكتب الشعر دون خوف ويعرف المزيد من الشقراوات العابثات، ولكنّه ما إن رأى الأوكروبول ذات زيارة لأثينا حتّى كتب ديوانا سمّاه "الحياة قرب الأوكروبول".

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يذكر غسّان العامري أيضا أنّه وفي أوّل زيارة له لأثينا مع صديقين له، وكانوا قادمين من طرابلس بعد أن حضروا ندوة أدبية عن الأدب الثوري وقرأوا شعرا ثوريّا ألهب أكـف الحاضرين، قد مارسوا حياة السيّاح وركبوا باخرة صغيرة اسمها "أفروديت" أخذهم مـع أكوام من السيّاح إلى جزر يونانية صغيرة وعلى مدى نهار كامل، وقد قرّروا أن يسـكروا بعد أن حرمتهم ندوة الأدب الثوري من ذلك.. ومادامو في اليونان فالأوزو هـو سـيّد المشروبات، لذا كرعوا عدّة زجاجات منه ورقصوا كما يرقص العجوز زوربـا ورمـوا بدزّينة صحون لتتكسّر على سطح الباخرة.

أمّا الآن وفي مثل هذه الظهيرة القائظة، وحيث الحرب مشتعلة، فإنّ غسّان العـامري يقارع الزّمن والخوف بكأس من "الأوزو" وأمامه صحنان، في أحدهما قطـع خيـار وفي الآخر بيضتان مسلوقتان هما مازته التي يكافح بها لفح مشروبه الحادّ.

كان قد تخلّص من بيجامته وبقي بملابسه الداخلّية فقط علّ هذا يكون أنسب لمقاومة الحرارة، كما أنّه لم يغادر شقّته هذا اليوم، فقد سمع أنّ المفارز تملأ الشوارع لاقتناص المارّة من قبل أفراد مسلّحين من الحزب الحاكم وهم يرتدون زيّ الجيش الشعبـي، وإيداع كل من يلقون عليه القبض بسيّارات عسكرية تحملهم إلى المقرّات الحزبيّة ومن هناك ترسـلهم إلى معسكر النهروان ليزجّ بهم بعد تدريب بسيط في مواجهة الجيش الإيراني وقوّات الحرس الثوري.

كما أنّ عدنان العزيري لم يمرّ به على غير عادته، كأنّه قرأ ما يجري في الشوارع من استنفار فآثر أن لا يأتي رغم أنّه في مأمن منه إلى حدّ ما، حيث كان يحمل معـه تقـارير الأطبّاء في سيّارته وكلّها تدلّل على أنّه مريض في القلب ولا قدرة له على أداء أيّ جهد.

كان من عادة عدنان العزيري أن يمرّ به كل صباح ويوقف سيّارته "الفوكس واغن" الزرقاء تحت العمارة، ويطلق صوت منبّهها بالضغط عليه ثلاث مرّات فيطلّ عليـه مـن النافذة العلويّة ويؤشّر له بيده لينتظره.

وكان عدنان العزيري يمضي دقائق الانتظار في المكتبة الصغيرة متحدّثا مع صـاحبها العجوز حتّى يحضر غسّان لتبدأ جولتهما اليوميّة.

لم يكن بمقدور عدنان العزيري صعود الطوابق الثلاثة حيث شقّة صاحبه، لقد خانـه قلبه، ضعف وانغلقت الشرايين التي تحمل الدم منه، وكادت تلك النوبة أن تقضي عليه.

لذا لم يعد بمقدوره التحرّك إلاّ وعلبة الدواء معه ليسعف بهـا قلبـه كلّمـا أحـسّ باضطرابه.

كان عدنان العزيري طيّبا مثل ناقة، صادقا مثل الصبر، صافيا مثل النبيذ، وعندما يسمع صوت منبّه سيّارته يحسّ غسّان بأنّه ليس وحيدا في هذه المدينة المنكوبة بالحرب والخوف، وأنّ هناك من يسأل عنه ويهتمّ به.

وبعد أن يأخذ مكانه جواره في السيّارة تبدأ مناكدتهما وتستمرّ هذه المناكدة كأنّها الوسيلة الوحيدة للتعبير عن هذه الحميميّة التي تجمع بينهما.

يتساءل عدنان العزيري:

- إلى أين نذهب؟

فيجيبه:

- حيثما شئت، المهمّ أن لا تضعنا وجها لوجه أمام مفرزة جيش شعبي.
- اطمئنّ، لقد انتهى موعد القاطع، لديّ قريب لزوجتي يحذّرني قبل يومين فأخوك حذر منهم. لا أحد يأتمنهم، ألم أخبرك أنّهم أرادوا انتزاعي من سيّارتي غير آبهين بالتقارير الطبيّة؟
- نحن عاطلان في أوج العطاء، أو قل معطّلين فهذا أنسب. فكيف يضعوننا في جحيم حربهم؟

ويهبّ عدنان العزيري محتجّا:

- أنت العاطل، أمّا أنا فلديّ مهمّات كثيرة.
- قلت لك إنّنا معطّلان، أو متقاعدان قبل سنّ التقاعد بخمسة عشر عاما، انظر إلى هذه الذراع المفتولة! هذا عدا الامتلاء بالعناوين الكثيرة التي لم تجد فرصتها في الانطلاق.

يصفن عدنان العزيري قليلا ثم يقترح على صاحبه:

- لنذهب إلى كشك مقداد أوّلا ونقلّب الصحف لنرى من كتب أو نشر من الأدباء الجهابذة؟
- لا بأس، شراء الصحف داء، ماذا تتوقّع أن تقرأ فيها غير الهراء! أستغفر الله.

ويردّد عدنان بلهجته الساخرة:

- لعلّ أحدا انتبه إلى عظمة قصصي ورواياتي التي تتلمذتم عليها، فكتب عن عبقريّتي المتألّقة يومًا بعد يوم أيّها المتخلّفون.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حلم أجرد، طرائد لاهثة فزعة، أفواه مكفهّرة من الحقد، عيون يقليها الخوف، لتنعم أبقار الحقول البائرة بهؤلاء المغرمين الأراذل، كانت بدينة بشكل مقرف تلك المرأة التي رآها في تلك اللّيلة، ترتدي "الهاشمي" العراقي المطرّز بخيوط من الذهب الصافي، وكانت تغنّي أغاني ممجوجة تافهة هابطة، تلائم ذائقة روّاد النادي الذين دخلوا المدينة وأصبحوا سادتها الجدد بأسلحتهم وأموالهم ونفوذهم.. ومعهم ازدهرت الرداءة وهبط الفنّ إلى الحضيض!

وكانت النقود الورقيّة من فئة العشرة أو الخمسة وعشرين دينارا تنهال عليها من هؤلاء البُلهاء الذين يأخذهم الطرب والانتشاء، فينزلون إلى المساحة المهيأة لنزواتهم وتنطلق أكتافهم بالارتجاف مع إيقاع الدرابك.

كان السكر والانسجام مع صوت المغنيّة يضعانهم في أريحيّة مفرطة ولا تصبح للنقود أيّة قيمة ماداموا قد ربحوها بسهولة في مقاولات أو صفقات وحتّى رشوات، لذا يتمادى البعض في إلقائها مشدودة دون أن ينثرها على رأس المغنيّة.

وكان هناك صبيّ مخنّث يجمعها في دفّ كبير وكانت هذه مهمتّه، وينسى أنّه يحمله من أجل أن يضرب عليه، وبعد أن يفرغ من عمله يدسّ النقود في كيس من البلاستيك وُضع قرب عازف القانون الذي يبدو أنّه زوجها أو عشيقها رغم أنّه لا يمانع إن رغب بها أحدهم مادام يدفع بسخاء.

وقد انتبه غسّان العامري إلى أنّ الروّاد ينادون هذه المغنيّة أم أحمد.

هي البطلة ونجمة السّهرة في هذا الحفل الذي تقيمه جمعية التراث، وكان غسّان منغرسا فيه دون أن تكون له رغبة بذلك، ظنّه حفلا عاديّا فإذا به وسط فضيحة تدلّل على التدنّي الذي آلت إليه الأمور، كأنّ البلد لا يحترق بحرب عجيبة، تحوّله حرائقها تدريجيّا إلى رماد.

لقد أصرّ الدكتور منعم البصري صديقه وعضو الهيئة الإدارية لهذه الجمعية أن يصطحبه معه لحضور هذا الحفل، وكان غسّان العامري ساكتا طيلة السهرة وهو يتأمّل ما يجري أمامه في هذا السيرك العجيب الذي تبرز فيه سفاهة هذه الفئة الطفيليّة التي زحفت على كل المواقع، وكان ثالثهما المحامي طارق المنصور الذي تربطه علاقة قديمة بغسّان تمتدّ إلى المدرسة الثانويّة، وعن طريقه تعرّف بالدكتور منعم البصري، وكان طارق المنصور يحاول الانغراس في بلاهة هذا الجوّ ولذا يترك لحنجرته الرخيمة حريّة القهقهة.

يذكر غسّان أوّل مرّة التقى فيها طارق المنصور يوم كانا معلّمين في مدرسة واحدة. لقد قرّب بينهما العمر وتلاقي الأفكار، وكانا يشكّلان نغمتين ناشزتين وسط المعلّمين

الآخرين المهمومين بمشاكل أسرهم بقمصانهما الملوّنة وأحذيتهما ذات اللّونين وفق موضة تلك الأيّام، ويذكر غسّان أيضا أنّ مدير المدرسة قد أرسل في طلبهما ذات يوم وألقى عليهما محاضرة عن سلوك المربّين ولباسهم، وقال مستنكرا:

- أمّا لباسكما فلا يليق بمعلّمين هم قدوة لطلاّبهم.

ويومها ولدت فكرة في رأس طارق المنصور سرعان ما وجدت قبولا من غسّان، وهي أن يستقيلا ويذهبا إلى بغداد ليكملا دراستهما الجامعيّة وقد نفّذا ما اتفقا عليه في فترتين متقاربتين.

كان طارق المنصور يجلس قبالة غسّان باسترخاء كامل وأمام كل واحد منهما كأسه ولا صوت يعلو على صوت أمّ أحمد.

قال غسّان للدكتور منعم:

- لماذا لا ترمي لها بالنقود وأنت الطبيب المعروف؟

وقد ردّ منعم على الفور:

- أنا أتعب وأشقى من أجل النقود، أمّا هؤلاء فتأتيهم بدون وجع قلب، دعهم يرموها لعاهرة! فهل تظنّ أنهم سيبنون بها مركزا ثقافيا أو قاعة عرض أو مدرسة؟

وعلّق طارق المنصور:

- هؤلاء يحسّون بالعداء لكلّ ماهو نور، ثقافة، امتيازهم بغبائهم. ولذا يسيرون بنا نحو الهاوية بتشجيعهم لكلّ ماهو هابط وساذج.

ورفع منعم البصري إصبعه بحركة أراد فيها من صاحبه أن يوطّئ صوته:

ثمّ مدّ يده إلى كأسه ورفعه إلى أعلى، وقال:

- في صحّتكما.

ثمّ غرس فمه في أذن غسّان وهمس له:

- أمّ أحمد تحكم بما لها من نفوذ.

وقد وصلت الكلمات إلى طارق المنصور فأطلق ضحكة عالية وهو يردّد:

- نخب زمن أم أحمد.

وبعد أن أخذ جرعة ثانية من كأسه قال منعم الذي كان يعرف جلّ هؤلاء:

- أغلب الذين تروهم من روّاد عيادتي، وكلّهم يأتون من أجل أمر واحد هو أن أصف لهم دواء يزيد من همّتهم في الفراش.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقال غسّان:

- أكاد أجزم بأنّ ذلك الأصلع ذا الرأس الكبير له علاقة بصفقة الجوارب الكوريّة التي غمرت الأسواق، وكنت أحد ضحاياها حيث اشتريت ثلاثة أزواج، ولكن ما إن أُدخل قدمي بالجورب حتّى تخرج أصابعي مثل رؤوس العصافير.

وهزّ طارق المنصور كتفه وهو يبرم شفتيه ويتساءل:

- ولماذا لا تكون له علاقة بالملابس التايوانية التي تعرض كبضاعة أجنبيّة وسعرها عشرون ضعف سعرها الذي استوردت به، هم على عجلة من أمرهم، يريدون أن يغتنوا بسرعة وبدون رحمة.

وعاد غسّان ليقول:

- أو أنّ ذاك المكوّر مثل تنّور جدّتي رحمها الله له علاقة بارتفاع أسعار الفواكه والخضروات.

وردّد الدكتور منعم:

- كل ما تقولونه جائز، ولكن ماهو صحيح ومؤكد أنّهم أمامكم يرقصون مثل الكباش المتناطحة.

وتمتم المحامي طارق المنصور:

- رغم أنّ ما حصدته الحرب حتّى اللحظة قد زاد على المليون!

كان الليل يتقدّم وأمّ أحمد تلمّ المزيد من النقود التي يرمي بها لصوص الحرب وتجّارها هؤلاء.

وصرّح غسّان بدون وعي:

- البركة في أمّ أحمد، هيّا ارموا لها المزيد.

لكن أمّ احمد انتقلت إلى مرحلة أخرى من مراحل ترويض هؤلاء البلهاء تجّار القطاع الخاص من أجل سلب ما في جيوبهم، بعد أن عرفت بعين الخبيرة العريقة إلى أين وصلوا في سكرهم، وصارت تفاخر بمدن وعشائر الراقصين وما إن يسمع الواحد منهم اسم مدينته إلاّ وانتشى وأخذته الأريحيّة، وبدأ برشّ حزم الدّنانير التي تطعم حيّا كاملا في "الشعلة" أو "الثورة" أو "الطوبجي" وغيرها من أحياء الفقراء وصغار الموظفين ببغداد.

وبدا لغسّان وكأنّ هؤلاء عندما قدموا لهذه السهرة قد عبّأوا جيوبهم بالنقود، هي سلاحهم في هذه الجولة التي يتنافسون فيها على إرضاء مومس قبيحة.

وكادت الكؤوس أن تطفئ صحو طارق المنصور، لذا لكزه غسّان بكوعه وهو يسأله:

- ماذا يقول محامي الشعب؟

وردّد بهمس وهو يتلفّت مخافة أن تكون آلة تسجيل تضبط صوته:

- لصوص، أولاد قحاب، لوكانت لي سلطة لأمرت باعتقالهم وجلدهم على مؤخّراتهم، ثم أرسلهم إلى جبهة الحرب ليفطسوا هناك غير مأسوف عليهم بدلا من الشبّان الرائعين الذين يتساقطون بالعشرات كلّ لحظة.

واستمرّ الرقص وسط ثغاء أمّ أحمد التي التحق بها ثلاث فتيات محترفات، لا يعرفن من الرقص غير هزّ صدورهنّ أو مؤخّراتهنّ السمينة.

وانتبه غسّان إلى أنّ الفتى المخنّث المكلّف بجمع النقود كان يدسّ بعض الأوراق النقديّة في جيبه.

قال طارق المنصور:

- أغنياء العالم المتحضّر يبنون الجامعات ويشترون اللّوحات ويقدّمون جوائز للأدباء والفنّانين، أمّا هؤلاء فلا يعرفون غير أمّ أحمد وما شابهها وفروج القحاب الفيليبينيّات في الملاهي الليليّة.

ثمّ أضاف:

- إنني أتخيّل منافسة آخر السّهرة حول الفتيات وأم أحمد، وكيف سيتوزّعونهنّ ويحملونهنّ إلى مزارعهم وشققهم المرفّهة بسيّاراتهم المرسيدس والسوبر، وخيرهم لم يكن يملك حمارا يركبه قبل خمس أو ستّ سنوات.

وقال غسّان:

- هؤلاء أصدقاؤك يا منعم؟

- ليسوا أصدقائي ولن يكونوا.. فأصدقائي من معدن آخر، لكن مادام بعض هؤلاء في الواجهة فعن طريق علاقاتهم بالرؤوس الحاكمة أستطيع أن أحلّ بعض مشاكل الأصدقاء.

وتساءل طارق المنصور:

- وهم أليسوا رؤوسا؟

ردّ الدكتور منعم:

- أبدا، إنّهم أذناب، أتباع، وكلاء، شيء من هذا القبيل أمّا أن يكونوا رؤوسا فلا.

وتساءل غسّان هو الآخر الذي كان ينصت جيّدا لهذا الحديث:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- وهل في بلدك رؤوس؟

رفع منعم إصبعه بحركة أراد أن ينهي بها الحديث، ثمّ غمز بعينه وهو يقول:

- لو أنّ آلة تسجيل سجّلت ما فهنا به لعلّقونا في ساحة التحرير.

ثمّ ضحكوا ورفعوا كؤوسهم من جديد، وقال غسّان:

- اسمعا يا صديقيّ المرموقين، أيّها الطبيب النطاسي والمحامي اللوذعي، إنّ ما سُكب هذه اللّيلة على رأس هذه البقرة البلهاء من أجل خوارها القبيح يساوي ما أستلمه في ثلاث سنوات أجورا لكتابات أدبّجها بأعصابي ودمي.

وقال طارق المنصور:

- أيّ كتابات؟ "شوف" أمّ أحمد "شدا تسوّي"(*)

* * *

استرجع غسّان العامري هذه الحكاية التي عاشها اللّيلة الفائتة وهو يعوم مع نشوة كأس "الأوزو" غير آبه بحرارة الطقس ونواح أم كلثوم التي احتار دليلها وحيّرها وحيّر أمّة محمّد معها.

(*) باللهجة العراقية: ماذا تعمل؟

- 2 -

مازال في ذاكرة غسّان العامري ذلك اليوم الذي كانت الحرارة فيه قد بدأت بالاشتداد إثر انسحاب ساعات الصباح الأولى، وقد هبط من غرفته في الطابق العلوي حيث يمارس وحدته بين كتبه وأوراقه ومذياعه الترانزستور الذي لا يستطيع أن يغمض عينيه ما لم يستمع منه إلى آخر ما في إذاعات الدنيا من أخبار.

أمّا في إذاعة وتلفزيون بغداد فحديث الحرب والانتصارات هو المهيمن، وقد توقّف منذ أشهر عن فتح التلفزيون الذي كان يتباهى بعرض أكداس من الجثث التي تسقط في الحرب من الجانب الإيراني.

وغالبا ما يأتي بثّها في وقت تكون الأسر مجتمعة لتناول طعام العشاء فيتحوّل إلى علقم مرّ في الأفواه.

أيّ مجد بربريّ هذا باستعراض قتلى من البشر الذين لهم ارتباطاتهم وأسرهم وأعمالهم وأحمالهم؟ أيّ همجيّة هذه؟ أيّ بطولة؟

هذه تساؤلات غسّان العامري التي أراح نفسه منها بغلق جهاز التلفزة.

وعندما هبط سلالم الدار باتّجاه المطبخ ليتناول كأس ماء لم يكن يعرف أنّ زوجته لم تغادر الدّار. كانت أمامه داخل المطبخ بهيكلها الذي لم يعد قادرا على احتمال رؤيته، ولم يدر كيف تزوّجها وأنجب منها بنتين؟

كان منظرها يرعبه عندما يتطلّع إليها وهي ترقد بجانبه في السّرير.

لقد عرف قبلها وبعدها نساء لهنّ رائحة العشب البريّ، طليقات ورشيقات بدون مشدّات كريهة لأجسامهنّ المترهّلة، ومن شعورهنّ وأناملهنّ ينثال عطر نادر هو هبة السماء لهنّ وليس هبة آلهة العطور في باريس.

أين امرأته هذه من رانيا خليل مثلا، تلك اللّبنانيّة السّاحرة التي كان يثمل من رائحة البراري السمحاء التي تفوح من شعرها الطويل وهي تجلس جواره في سيّارته وقد أنزلا زجاجها ليأخذ الهواء حريّته في الولوج داخل السيّارة.

لقد عشقها بموت تلك الآلهة القادمة من سحر جبيل، وكم قاومها حتّى لا تفسد دمه. حتّى لا تقتله.

إنّ باستطاعته أن يسترجع وجهها الصافي، بل يسترجع وجوههنّ وألوان شعورهنّ، وطول قاماتهنّ ورنين أصواتهنّ، لبنانيّاته الفاتنات، ولكن كلّ تلك الحياة العابثة المتأججة قد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

توقّفت عند امرأة اقترن بها، امرأة لم يعرفها، لم يعش لحظة شوق واحدة من أجلها، وكم حاول أن يقترب منها، لكن كلّ اقتراب كان ابتعادا!

وكم رفع صوته بالشتيمة لقريبته سميرة الشاهين التي زيّنت له الأمر وشجّعته على إنجاز عمليّة الزواج بسرعة، قام بها وكأنّه مخدّر لا يعي أبعاد ما يفعله.

يذكر أنّه قال لها مرّة وهو يزورها في مكتبها:

- لقد مللت من الوحدة وسكنى شقق العزّاب وطعام المطاعم والفوضى والغراميّات العابرة.

وسألته سميرة الشاهين بودّ الأخت الكبرى:

- هل فكّرت في الزواج؟

صفن قليلا ثمّ تمتم:

- أحيانا، ولكن من هي التي أتزوّجها؟

- كثيرات.

- كلّهنّ يطمعن بالمال والمنصب والجاه، وأنا والحمد لله لا أملك شيئا من هذا كلّه، كل ما أملكه اسم أدبي بدأ الظهور مقرونا بقصائد، معظمها مراثٍ لوطن يتناهبه مرتزقة السياسة ومحترفو الإنقلابات التي يسمّونها بكل وقاحة ثورات.

ونبرت وهي تضرب بيدها على مكتبها:

- يا للصدفة العجيبة، انظر.

وأشارت بيدها إلى فتاة تعبر الممرّ وأعلنت:

- ما رأيك بها؟

قال مستفزّا:

- وهل تعرضين عليّ شراء بقرة؟ أنا رجل أدب وفكر وعليّ أن أكون دقيقا في اختياري للمرأة التي ستكون زوجتي.

ومطّت سميرة شفتيها ثمّ هزّت يدها، وقالت:

- كفّ عن كلام الأوهام هذا، أنت الآن بحاجة إلى زوجة، تطبخ لك وتغسل ثيابك وتهيّئ لك فراشا نظيفا.. هذا هو المهمّ. وهذه الفتاة قادرة على توفير هذا، فماذا تريد أكثر منه؟

لكن صورة الفتاة تأكّدت له من جديد أمام عينيه وهي تمرّ راجعة بعد دقائق، وإذا بصوت سميرة يناديها:

- سلمى، سلمى.

فانتبهت وحوّلت خطواتها باتجاه مكتب سميرة الذي كان بابه مشرّعا. وبعد سؤال عن الصحّة والأحوال عرفتها به:

- غسّان العامري قريب لي. وهو أديب وكاتب.

ثمّ التفتت نحو غسّان وأشارت إلى الفتاة وهي تقول:

- سلمى عبد الرزّاق زميلتي وصديقتي أيضا.

ثمّ استأذنت سلمى وانصرفت، آنذاك التفتت نحو غسّان وسألته:

- هه، ما رأيك بها؟

- سمينة.

- ليس كثيرا، ثمّ إنّكم أيّها الرّجال تحبّون النساء السمينات، لم أجد واحدا يمتدح المرأة النحيفة عدا زوجي.

- ولذا تزوّجك.

وضحكا بصوت عال.

وعندما غادر مكتب سميرة كانت صورة الفتاة في مخيّلته. إنّها بيضاء، فائضة اللّحم، سيعوم في هذه النعمة. كان يسترجع صورتها بعيني حيوان ينشد طريدة، فظنّ أنّها ستكون له بهذا الجسد الذي من الممكن توزيعه على ثلاث نساء، وتذكّر أن والده المزواج كان مقياس جمال المرأة عنده يتمثّل في كبر مؤخرتها. ورغم أنّه رجل متديّن وحجّ إلى بيت الله مرّتين إلاّ أنّه لا يتوانى عن إعلان رأيه هذا عندما يضمّه مجلس أصدقائه.

ولقد تم الزواج بسرعة.

تزوّج غسّان العامري! فمن يصدّق هذا من أصحابه؟ وانسحب من مقاهي الباب الشرقي وشارع الرّشيد وحانات شارع أبي نوّاس، وكأنّ زواجه قد شجّع كل المحجمين والمتردّدين على خوض التجربة. وخلال عام واحد تزوّجت مجموعته كلّها، عبد اللّطيف الموصلي، حمدي السعدون، كامل الخزاعي، معن الماجد، جليل الواسطي وسليم الحامدي، ولم يبق أعزب إلاّ خالد الحليّ.

وانتهت تلك الجلسات الليليّة التي تأخذهم صيفا إلى حانات ومقاهي أبي نوّاس وشتاء إلى مقاهي شارع الرشيد، الزهاوي، حسن عجمي، البرلمان، البلدية، عارف آغا..

أمّا عدنان العزيري فكان قد غادرهم في بعثة إلى موسكو ليدرس الأدب الروسي في معهد غوركي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يومذاك كان نشر قصيدة في صحيفة حدثًا غير عابر، مادامت هناك مكافأة مقبولة تقدّمها الجريدة للشاعر سرعان ما تتحوّل إلى سكرة مشتركة ظهرا يتبعها غداء ثمين في مطعم "علي شيش" المختصّ بتقديم الدجاج المشويّ، وصاحبه كاميران حسني القادم من أميركا بشهادة في الإخراج السينمائي، أوّل من أدخل هذه الطريقة في شيّ الدجاج بعد عجزه عن إيجاد مموّل لمشاريعه السينمائيّة.

وإذا كانت السرقة هواية كامل الخزاعي الليلّية، فإنّ لخالد الحليّ هوايته الأخرى وهي النطّ على ظهور السيّارات المتوقّفة متراصفة.. يفعل هذا بخفّة نادرة لا يبدو أنّ جسده الطويل والنحيف قادر على القيام بها.

وكان أثناء القفز يطلق صفيرا موحشًا، ومرّة سقط والتوى كاحله وظلّ يعرج لعدّة أيّام، ولكنّه لم يكفّ وسرعان ما عاود ممارسة هوايته.

لكن أولئك الصحب شرّدهم احتدام الحياة السياسيّة العراقيّة!

وماهي إلاّ بضعة شهور حتّى وجد غسّان العامري نفسه أبا، وفرح بهذا كلّ الفرح، لكن ما كان يؤرقه هو شعوره بأنّ قصائده صارت مروضة، وأسريّة، وليس فيها الجموح والعصيان اللّذان عرفت بهما قصائده الأولى في مرحلة ما قبل الزّواج.

سألته زوجته بصوتها الذي لم يعد يتحمّل نبراته، كأنّها دبابيس تشكّه في رئته:

- أتريد فطورك؟

ولم يردّ عليها. كان يتمنّى أن يصحو ويراها قد غادرت إلى عملها، آنذاك يستطيع أن يعدّ لنفسه فطورا بسيطا قبل أن يخرج.

لكن هاهي أمامه مؤتزرة بمئزر المطبخ، وقد فتحت صنبور الماء وراحت تغسل الصّحون المتسّخة.. امرأة لا همّ لها إلاّ بيتها.

وأعادت عليه تساؤلها:

- سألتك إن كنت تريد فطورك؟

ردّ متجهّما:

- ليس الآن.

ثم توجّه نحو الحمّام وأغلق الباب عليه وبدأ بحلاقة ذقنه، وما إن فرغ من ذلك فتح المرشّ وراح يتمتّع بانسكاب الماء فوق يافوخه المحموم.

وأحسّ بأنّ شيئا من التوتّر قد بدأ بمغادرة أعصابه مع تزايد انسكاب الماء، ثم أغلق الصنبور وراح ينشّف جسمه معطيًا لنفسه المجال لأن يتمتّع بهذه اللّذة الصباحية التي تبعده لبعض الوقت عن إيقاع حياة تحولّت إلى كابوس مريع لا قدرة له على تحمّله.

وما إن خرج من الحمّام حتّى داهمه صوتها الصارخ:

- ماذا بك؟

فواصل صمته وكأنّ السؤال لا يعنيه، وتوجّه نحو السلّم ليمضي صوب غرفته. فعاد صوتها إلى الصراخ:

- أتتصوّر أنّك بهذا تستطيع التخلّص منّي؟ أنا نائمة على قلبك ولا مفرّ منّي، انتظر ماذا سأفعل بك، لا تتصوّرني هيّنة، سأجعلك لا ترى غير بغداد وأدوس على كلّ أحلامك في السّفر والشهرة، أفهمت؟

ثم عاودت الصراخ بعد أن اختنقت بلعابها:

- ستكون مقبرتك هنا.

ووجد نفسه يطلق ضحكة عالية وهو يسألها بصوت حاول أن يبقيه هادئا:

- ومن أين لك القوّة على النطق بأقوال كهذه؟ تتحدّثين وكأنّك الحاكمة بأمرها لا موظّفة تعيسة في واحدة من آلاف الدوائر الحكوميّة.

ثمّ واصل صعود السلّم وصوتها وراءه:

- ولكن هذه الموظّفة التعيسة تعرف كيف تتصرّف معك وترسلك إلى الجحيم.

وواصل صوته الساخر:

- أعترف بأنّك حاذقة في كتابة الرسائل للمسؤولين عنّي، ولفرط غبائهم قد أخذوا بها فلم يتركوا لي فرصة للاستمرار، لذا طلبت الإحالة على التقاعد قبل خمس عشرة سنة من موعد استحقاقي له. صدّقوا أنّني معاد للنظام ولكن كيف؟

ولعلع صوتها أكثر:

- ومازال المخفي أعظم.

هزّ يده بلا مبالاة وهو يدلف إلى الغرفة متمتمًا:

- ليس الذنب ذنبك بل ذنب من يشجّع النساء على الوشاية بأزواجهنّ والآباء بأبنائهم، والمؤسف أنّ هذه الوشايات يؤخذ بها ولا تراجع.

وقد تذكّر غسّان ما سمعه من صديق له عن امرأة لفّقت تهمة لزوجها، ولم تكن غايتها وطنيّة إذ انتهى الرجل إعدامًا، بل لرفضه تطليقها، وبعد إعدامه اكتشفوا أنّها فعلت ذلك لتتخلّص منه وتنصرف لعشيقها، أمّا التهمة فهي شتمه لرئيس البلد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وحكايات أخرى تبدو مثل الأساطير التي لا يمكن أن يحكم أحداثها إلاّ خيال خصب، ولكنّها حصلت فعلا.

وعندما أصبح غسّان في الشارع أطلق ضحكة عالية وهو يتساءل بمرارة:

- أين الشعر في كل هذا؟ بل وأين غسّان العامري وأحلامه المجنونة؟

- 3 -

صورته أمامه، عمرها امتدّ به الزمن، وزكريان لم يعد في بغداد، واختفى فندق سمير أميس الجاثم على دجلة وجاء زمن فنادق أخرى.. بغداد فالامباسادور ومن ثمّ ذلك الفوج من الفنادق التي جاء بها ارتفاع أسعار النفط بعد حرب أكتوبر 1973. فمن شيراتون إلى ميريديان وميليا منصور وبابل والرشيد وفنادق أخرى وأخرى.

بعضهم قال إنّ زكريان قد هجر التصوير وافتتح مطعما في "ديترويت" مستقرّه الأميركي، اختصّ بتقديم الأكلات العراقيّة الشائعة.. الكبّة الموصلية، كبّة حلب، قوزي وتمّن، تشريب، دولمة، كباب وتكّة، باجة.

وأنّ جلّ زبائنه من العراقيين ومن يدعوهم من أصدقائهم الأميركيين، حيث يحلو لهم تناول وجبة صحيّة تبعدهم عن الهبمورغر والهوت دوغ وكل هذه الأكلات السّريعة، ولكنّها العسيرة الهضم والمحمّلة بالشحوم الحيوانية التي تنام في الدم ولا تغادره.

كما أنّه حرص على تقديم الخبز العراقي بأرغفته العريضة مع وجبة شهريّة من السمك "المسكوف"(*)

كان لغسّان العامري في صورته المعلّقة أمامه سالفان طويلان وهما من موضة أوائل السبعينات، وقد رتشها زكريان بحيث بدا فيها وكأنّه فتى شرّدته مجازر الأرمن التي اقترفت هناك.

ثمّ يضحك غسّان بقهقهة عالية وهو يتساءل: ولكن ما العلاقة بين أرمينيا وقريتي "أبو هاون"؟

واكتسى وجهه بالحنين الجارف عندما تذكّر قريته التي تربض هناك على ضفّة نهر الغراف في متاهات الجنوب العراقي الحزين.

وقد استمرّ عدنان العزيري على مناكدته وسخريته من هذا الاسم مدّعيا أن قريته "العزير" أفضل منها، إذ إنّها قريبة من التقاء دجلة والفرات ليكوّنا نهرا واحدا كما، أنّها تضمّ قبر العزير وهو من رسل الله.

كما أنّ عدنان العزيري يتعمّد قلب الاسم إلى أمّ هاون فيردّ عليه غسّان ببرود:

(*) مسكوف: مشويّ بطريقة خاصّة مشهورة في العراق.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ولا أن اسمها أبو هاون وليس أم هاون، وإذا كانت عندكم في العزير أمّ عانس أو أرملة بشرط أن تكون جميلة تليق بالأب الذي عندنا فسننظر في أمر تزويجها له. هذا إذا أعجبته، آنذاك سينكحكم أبو هاون بطريقة شرعيّة، وانّ اسم قريتي أيّها المتخلّف في استيعاب دلالات المعاني رغم ادّعائك بأنّك كاتب قصّة ورواية، هو دليل على الكرم وقد اشتقّ من هاون جدّي بدر النعمة العامري رحمة الله الواسعة عليه، الذي كان صوت الهاون يتردّد من مضيفه ساحقا حبّات القهوة وهي دعوة مفتوحة لأهل القرية أو المارّين بها لأن يأتوا ويحطّوا رحالهم.. أفهمت؟

وكان عدنان العزيري يصغي، بينما تواصل يده إعادة خصلة شعره التي تصرّ على الانحدار فوق جبينه، لذا يواصل مشاكسته:

- مّا العزير "بتاعتكم" فهو مجرّد نبيّ مهمل مزعوم.

* * *

"أبو هاون" اليوم قرية عصريّة بنيت أغلب بيوتها من الطابوق والإسمنت، وأزيحت تلك الأكواخ الطينيّة والقصبيّة، وأصبح القادم في الطريق السريع لا يرى من هذه القرية إلاّ قصورا واسعة بدأ تشييدها منذ أواسط السبعينات، وأصبح نهر الغرّاف الهادئ الجريان محاطا ببيوت أخرى زحفت نحو ضفّته الثانية.

وانطلاقا من "أبو هاون" يمكن للمرء أن يتجوّل مشيا على قدميه أو بواسطة درّاجة هوائيّة إلى ناحية النصر الأكثر عصرية، والتي كان اسمها في أيّام الحكم الملكي "سويج غازي" أو "الغازيّة" نسبة إلى الملك غازي ثاني ملوك العراق.. ومادام كلّ ما له علاقة بالملوك قد انتهى فإنّ الأسماء استُبدلت بأخرى كلّها ثورة ونضال ونصر ووحدة وعروبة، لذا أصبح اسم واحد من أشهر شوارع بغداد شارع الكفاح بعد أن كان اسمه شارع غازي، وبهذا تمّ بغباء وجهل إعدام الذاكرة العراقيّة.

صورة غسّان العامري ترتبط بذكرى هو الآن يرتعش هلعا كلّما استرجعها إذا التقطها في ليلة عرسه من هذه المرأة. وظلّت وعلى مدى سنوات معلّقة في غرفة الضيوف. وكان توقيع زكريان واضحا في أسفل زاويتها اليسرى مع تاريخ التقاطها.

كانت عيناه تدوران في فضاء غرفته المحتقنة بالهواء الرطب ثمّ تعودان لتستقرّا عند الصورة، وابتسم عندما استعاد أحد حواراته مع عدنان العزيري عنها إذ نطق بسخريّته البيضاء وهو يشير إليها:

- انظر إلى صورتك الكريمة وتأمّلها.
- ما بها صورتي؟
- لقد حوّلك زكريان بفيض رتوشه إلى أرمني، لقد "أرمنك" تماما، فأصبحت تشبه صديقا لي قادما من يريفان ليدرس الأدب في معهد غوركي بموسكو.

وضحك غسّان العامري من تعليق صاحبه وهو يضع أمامه فنجان قهوة بدون سكّر سرعان ما حلاّها عدنان بحبّة سكّرين.

ثمّ تمتم غسّان متسائلا:

- ألسنا أرمنيّي هذا الزمن الزنيم؟

ثمّ غيّر عدنان لهجته وهو يقول:

- على فكرة! الأرمنيّات رائعات في الفراش، بضّات وفيهنّ لحم كثير، لقد ضاجعت عددا معقولا منهنّ، أمّا أنت فلم تعرفهنّ بالتأكيد، لأنّ أمّ هاون ليس فيها غير المعيديّات.
- وماذا في المعيديّات؟ ألست ابن واحدة منهنّ؟ وحتما أمّك الله يرحمها "شيلتها" السوداء تصل إلى ما تحت سرّتها.
- لكنّها أمّ عظيمة لأنّها أنجبت عبقريّا مثلي.

ثمّ حرّك يده الممسكة بفنجان القهوة إلى أعلى منسجما مع حماسته للكلام إذ بدا بمزاج رائق لا َيعرف له غسّان سببا، وكادت القهوة أن تنسكب على ثيابه، ثمّ قال بشيء من الأسى:

- لقد ذهبت إلى موسكو وعمري إحدى وعشرون سنة وعدت منها وعمري إحدى وثلاثون، هناك عشت عشر سنوات من النيك المحترم، أفهمت؟

ولكنّه ما أن يتذكّر أيامه تلك حتّى تنتابه الكآبة فيطلق حسرة طويلة من أعماقه ويردّد جملته الخالدة:

- من الذي أتى بي؟ لماذا جئت؟ كنت هناك أعيش مثل الأوادم؟!

ثمّ أكمل ارتشاف فنجانه وعاد لمراقبة الصورة من جديد وعلّق بشيء من الجديّة:

- خذ صورة جديدة وكبّرها إذا كنت نرجسيّا لهذا الحدّ، صورة غير "مؤرمنة" وبلا سالفين قبيحين، ثمّ إنّ فوديك قد اشتعلا بياضا.

وردّ غسّان على تعليقه:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- لكنّني لن أتخلّى عن الوجه الذي كنته مع كل جاذبيّة هذا الوجه الذي أحمله، وأجده أكثر قدرة على النفاذ إلى قلوب النساء، إنّني أقرأ ذلك في عيونهنّ عندما يتأمّلنني.

وتمتم عدنان:

- أنت خوش طيز(*).
- على ماذا تشكرني وأنت بالنتيجة لا تنكح غير الفراغ؟ فمن تتجرأ وتصعد إلى شقّتك الحقيرة هذه أو بيت الضبع كما يسمّيها غيّاث الإبراهيمي، أيّة واحدة ما إن تضع قدمها على سلّم العمارة حتّى تفتح الأبواب والشبابيك ومعها تنتصب عشرات الأيور المصريّة التي تحتشد بها هذه العمارة.

كان غسّان يسترجع حديثه هذا مع عدنان العزيري وهو يتساءل عن مصير مئات الصور التي التقطها زكريان، وكان يعلّق البعض منها في الواجهة الزجاجيّة للإستوديو كما أنّه يحتفظ في الداخل بصورة كبيرة لأجاتا كريستي صوّرها لها في بهو فندق سمير أميس، ثمّ هناك صورة للملك غازي وهو يتهيّأ لركوب سيّارته التي لقي حتفه فيها.

وتساءل إن كان قد حمل كل هذه الصّور إلى أميركا؟ وحاول أن يستجمع صورة الإستوديو من الداخل مركّزا على الصور المميّزة المعلّقة فيها، وبينها صورة للمغنّية اليهودية سليمة مراد في شبابها وحيث كانت تسمّى سليمة باشا لأنّ الحكومة كانت تستدين منها عندما يشحّ المال في خزينتها، وقبل أن تغرم بالمطرب ناظم الغزالي الذي يصغرها سنّا فتعلن إسلامها من أجل أن تقترن به. وهناك صورة أخرى لمغنّية كانت تنافسها هي عفيفة اسكندر التي مازالت حيّة، ومازالت الإذاعة تعيد بثّ أغانيها ضمن طلبات المستمعين وقد نسجت حولها حكايات كالأساطير.

* * *

غسّان بالشوق إلى "أبو هاون" وإلى الناصريّة والشطرة، أبو هاون التي لن تكون أمّ هاون كما يريد لها عدنان العزيري.

كانت آخر مرّة زارها في الرّبيع الماضي، ولكن هواء الربيع الذي يعرفه لم يعد على نقائه، فقد أصبح مضمّخا بروائح برك الماء الآسنة التي لم تجفّ بعد.. لذا تحوّلت إلى مستعمرات للبعوض الذي ما إن يحلّ المساء حتّى تبدأ غاراته على القرية فتجعل سكّانها أرقين لا ينعمون بالنوم ويصبح شاغلهم حكّ جلودهم التي ينهشها.

(*) خوش بمعنى جيّد، وما فاه به عدنان لازمة يحبّ ترديدها.. وهي مثل عراقي شائع بين العوام.

وكان أثر عقصاته يظهر على وجوه الكبار والصغار معا، وغالبا ما يتحوّل إلى أورام متقيّحة على جلود الأطفال.

في وجه غسّان المعلّق على الجدار نصف ابتسامة، تشعّ من وجه ما زال فيه كثير من الأمل الذي لم يتوقّع انّه سيغتصب منه، ويحلّ بدلا عنه في وجهه الذي يحمله اليوم همّ كثير يهدّ جسدًا تغرقه أمواج الحزن.

تمتم: شكرًا لزكريان ذاك الذي التقط لي هذه الصورة.

لقد ترك غسّان أشياء كثيرة وهدايا ثمينة في بيت الزّوجية الذي هجره بعد الطلاق. ولا يدري لماذا حمل هذه الصورة تحت إبطه وترك لوحات مهمّة أهداها له رسّامون معروفون كانت قصائده تعني لهم الكثير؟

وبعد أن اكترى هذه الشقّة التي لولا صديقه اللبناني الطيّب "أبو ريتا" الذي استنفر عمّال مقهاه فعثروا عليها بسرعة، لما تسنّى له وحده أن يجدها.

ولم يكتف بذلك بل حمل إليها بعض اللوازم الضروريّة مثل السّرير وبعض الكراسي وطاولة كتابة، في حين جاءه صديقه اللّبناني الآخر غيّاث الابراهيمي بثلاّجة صغيرة ومروحة منضديّة.

وهكذا وجد له مأوى مناسبا، وعندما جاءه سؤال من عدنان العزيري:

- والآن ماذا ستفعل؟

فأجابه:

- لقد خرجت من كابوس، ولا أدري هل تحرّرت تماما من تلك العلاقة أم أنّها تبيّت لي أمرا ولا تتركني أنعم بهدوئي! أريد أن أكتب شعرا كثيرا، لديّ مشاريع قصائد، كما أنّني منذ ثلاثة أعوام لم أصدر ديوانا جديدًا.

وقال عدنان:

- كابوسك هو جزء من كابوس بلد حتّى ربّ العالمين نفسه لا يعرف إلى أين يمضي؟

كانت الشقّة صغيرة جدًا مكوّنة من مدخل وغرفة نوم واحدة، وكان أوّل عمل قام به غسّان هو تعليق الصورة أمامه بحيث تظلّ شاخصة لا تغيب عن عينيه، ثمّ رتّب محتويات مكتبته الكبيرة في رفوف اشتراها من نجّار يقع محلّه قبالة العمارة.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

غسّان جابر بدر نعمة طعمة درويش العامري، هذا ما حفظه من أسماء أجداده الذين ولدوا وعاشوا في هذه المساحة من الأرض التي تحاذي ضفّتي نهر الغراف من الكوت حتى الشطرة فالناصريّة.

وليس هناك مدينة أو قرية في هذه المنطقة إلاّ وله قريب يسكنها أو أكثر، في الحيّ، في قلعة سكّر، أو الرفاعي والدواية و"سويج غازي" التي أصبحت تحمل اسما ثوريًّا هو "النصر".

وقد وصل جابر العامري والد غسّان إلى الناصريّة فاختارها مكان إقامة له وانتقل إليها مع أسرته، ولكنّه رغم إقامته في المدينة فإنّ علاقته بقريته ظلّت قويّة، ولم يقطع الصلة بها، كان التنقّل بين الناصريّة ومدن الغراف في سنوات الخمسينات والستينات صعبا، فالطرق كلّها ترابية، وما إن تهطل الأمطار حتّى تتحوّل إلى برك من الوحل والماء ولن يعود بمقدور السيّارات الخشبية الكبيرة أن تشقّ طريقها فيها، وقد تتوقّف الحركة لعدّة أيّام، وغالبا ما كان السّائقون يلجأون إلى وضع سلاسل حديديّة على العجلات الخلفيّة لتسهّل حركتها ولا تجعلها تلتصق بالوحل.

وقد عرف غسّان العامري هذا الطريق جيّدا لكثرة ما رافق والده في رحلاته إلى "أبو هاون".

وعندما غادر للدراسة في بغداد ثمّ الإقامة فيها فإنّه ذهب إليها وحده، وبقيت أسرته في الناصريّة على العكس من أسرة عدنان العزيري التي غادرت كلّها ناحية العزير إلى بغداد. وكان عدنان لا يزال صغيرا عندما حلّ ببغداد وسكنت الأسرة منطقة "خلف السدّة" حيث تجمّعات الفقراء النازحين من الجنوب العراقي، وقبل أن تهدم بعد سقوط النظام الملكي وقيام النظام الجمهوري، حينها أمر الزعيم عبد الكريم قاسم بتعويض جميع هؤلاء ببيوت وقطع أراض ملائمة، يتوافر فيها ما لم يتوافر في تلك التجمّعات البائدة من ماء وضوء في مدينة سمّاها مدينة الثورة تقع شرق بغداد.

وكلّما ذهب غسّان إلى الناصريّة، في تلك الزيارات التي أصبحت متباعدة بعد انتقاله إلى بغداد وزواجه وانهماكه في العمل وركام المسؤوليات، لابدّ له أن يتوقّف في قريته ويبيت في دار ابن عمّه الكبير الذي أصبح شيخا للعشيرة خلفا لوالده الذي اعتذر عن مغادرة الناصريّة والعودة إلى القرية، لذا رشّح ابن اخيه الذي وجده مؤهلاً للقيام بهذه المهمّة.

ما أن يصل القرية حتّى يتخلّى عن ثيابه الرسميّة السترة والبنطلون وربطة العنق، ليرتدي الدشداشة البيضاء، ويضع على رأسه اليشماغ الجنوبي المزركش والعقال

الشطري المتين، وكان يمارس بهذا عمليّة استرخاء كاملة حيث يحمل كرّاسته وقلمه ويمضي بعيدا في حقول القمح والشعير مراقبا الرعاة وانهماك الفلاحين بأرضهم، وغالبا ما يخرج بعدّة قصائد يعود بها إلى بغداد ليوزّعها على المجلات المعروفة.

كان يلذّ له أن ينحشر مساء في مضيف ابن عمّه الطويل الذي أسّسه جدّه بدر العامري أوائل القرن، ورغم أنّ القصب والبواري التي شيّد بها تستهلك بسرعة إلاّ أنّه يعاد بناؤه في المكان نفسه.

كان غسّان يسند جذعه المكدود إلى عمود من القصب الملتوي على شكل نصف قوس، يكوّن مع العمود الذي يقابله قوسا متكاملا بين عدّة أقواس تغطّى بالبواري، وهي حصران مصنوعة من القصب.

كان الدخان يعلو من النار التي غرست فيها الدلال الكبيرة المليئة بالقهوة، بحيث يتعذّر على المرء مقاومة الدّموع التي تصرّ على الانهمار بفعل الدخان.

وقد انتبه غسّان وقتذاك إلى أنّ المضيف أصبح واقفا بمفرده في طرف القرية، إذ لا بدّ للمضيف أن يكون أوّل ما تصله أقدام القادمين سواء كانوا غرباء أو معارف، وإن دخلوه سيجدون الطعام وفراش النوم، رغم أنّ هذه العادة قد تراجعت لكثرة الفنادق وسهولة المواصلات بين المدن التي صارت كلّ الطرق الرابطة بينها مبلّطة.

لقد حضر غسّان آنذاك لقريته من أجل تهنئة ابن عمّه بمناسبة إطلاق سراح شقيقه كامل من الأسر الإيراني، حيث أمضى هناك حوالي سبعة أعوام في معسكر على الحدود الإيرانيّة السوفييتيّة. وكان قد وقع في الأسر وعمره خمسة وخمسون عاما وعاد منه وعمره اثنان وستّون عاما، بعد أن قرّرت إيران إطلاق سراح بعض الأسرى المرضى والمسنّين.

لقد أعطوه رشّاشه ورموا به في مدينة المحمّرة، بعد احتلالها في أيّام الحرب الأولى من قبل الجيش العراقي الذي ترك مهمّة حراستها لمجموعات من الجيش الشعبي، ولم يكونوا قد تدرّبوا كفاية وجلّهم من أبناء قرى الجنوب ومدنه.

وعندما استعاد الجيش الإيراني المدينة فإنّ جلّ من كان فيها من أفراد الجيش الشعبي قد وقعوا في الأسر. ومن أراد المقاومة دفع حياته ثمنا.

يذكر غسّان أنّه لم ير ابن عمّه هذا منذ خمسة عشر عاما، وهاهو الآن أمامه في الجهة المقابلة ملتفّا بعباءته الصوفيّة الخفيفة بينما يمدّد رجليه اللّتين مازالتا متميّزتين بأصابعهما الخشنة، حيث تدلّلان على أنّهما قدما فلاّح.. كم رفستا الأرض حافيتين حتّى اخشوشنتا بهذا الشكل!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وهنا تذكّر غسّان واحدة من حكايات عدنان العزيري عن أحد أقربائه القادمين من "العزير"، وكادت الضحكة أن تنطّ من فمه، وقد تماسك بصعوبة حتّى لا تبدو ضحكته بلهاء خالية من المعنى في هذه الجلسة الجادّة حيث يتوافد المهنّئون على المضيف لتهنئة الشيخ هاشم الأخ الأكبر بمناسبة إطلاق سراح شقيقه كامل، وبعد أن يصافحوه يتوجّهون نحو كامل الذي مازال مهدودا غير قادر على التركيز، فكأنّ المكان ليس مكانه والأهل ليسوا أهله، فيصافحونه هو الآخر ثمّ يحتضنونه وبعضهم يسأله عن أبناء وأقارب لهم كانوا ضحيّة عمليّة الأسر الكبيرة، التي تمّت بعد عودة المحمّرة لإيران أو ما تلاها من معارك.

لقد ذكر عدنان العزيري في تلك الحكاية أنّ قريبه الذي وصل إلى بيته ليلا قد صحا فجر اليوم التالي، وطلب أن يقضي حاجته فأشار عدنان إلى المرحاض، ولكنّه رفض دخوله وحجّته أنّه لا يعرف كيف يجلس عليه ولا كيف يغتسل، ثم إنّه أبدى استغرابه من أهل المدن الذين يتغوّطون ويتبوّلون في المكان نفسه الذي يأكلون وينامون فيه مثل البهائم. وقد سأل عدنان قريبه عن الحلّ الذي يراه مناسبا لهذه المسألة، فقال القريب آتني بإبريق ماء واحملني بسيّارتك إلى الخلاء. وهكذا قضى قريبه، وهو ابن خالة أبيه، حاجته في الهواء الطلق وهو ينتظره في السيّارة وكلّه خوف من أن تلحق به سيّارة الشرطة لمعرفة سبب وجوده هنا في هذا الوقت المبكر. وقد ختم الحديث بقوله: ومن حسن حظّي أنّه غادر لزيارة المراقد المقدسة في الكاظميّة حيث ينتظره أصحابه هناك وإلاّ أصبح خراؤه همّا لي.

ثمّ ضحك بعد أن أمر غسّانا بأن يخرج من شقته وهو يحذره:

- واغلق الباب وراءك ولا تعد إلاّ بعد نصف ساعة، أفهمت؟ أريد أن يدشّن طيزي الكريم مرحاضك الحقير، ففي قفصك الصغير هذا من الممكن لك أن تسمع حتّى فسائي فكيف بضراطي، وهي فرصة لن أتيحها لك لتتندّر على موسيقى إستي.

وقد امتثل غسّان لما يريد وخرج من الشقّة وتمشّى باتجاه شارع 14 رمضان متمهّلا، وعندما وصله استدار عائدا متوجّها نحو ساحة أبـي جعفر المنصور التي لا تبعد عن شقّته إلاّ حوالي الخمسمائة مترا، تلك الساحة التي يتوسّطها رأس كبير من النحاس لباني بغداد أبـي جعفر المنصور وهو يجثم فوق قاعدة عالية.

وعندما عاد سأل صاحبه:

- هل حُلّت أمور إستك؟

قال عدنان:

- إلى حدّ ما؟
- وماذا تقصد إلى حدّ ما؟
- علينا أن نغيّر من المازات التي نعبّئ بها بطوننا مع العرق. في موسكو كنت أتناول الكافيار مثلا، أمّا هنا وفي مثل هذه السنوات العجاف فليس أمامنا غير الحمّص والباقلاء، رغم أنّهم في موسكو لا يأكلونها وكانوا يضحكون منّا عندما يروننا نحوّشها من الحقول، والنتيجة عسر في الهضم فتعصر نصف ساعة ولا يخرج منك حتّى الفساء.
- هذا لأنّ استك قد خرّب.
- ماذا تقصد؟ هي عمليّة بواسير صغيرة، نتوءات لحميّة وأزيلت.

***

كان عدنان العزيري يميل إلى الطول مع استدارة في بطنه لا يمكن عدّها سمنة، أمّا امتلاء وجهه وكتفيه فلا يبدو ملائما لهذه النحافة المفرطة في عجيزته وساقيه، وكان يحلق وجهه وشاربيه فيبدو شعره الذي أخذ عقصته من الروس وكأنّه واحد منهم لا سليل قرية تقع على ضفاف الهور. كان يشبه إلى حدّ كبير روائيّا سوفييتيّا من الذين أنجبهم العهد الشيوعي، والذي تصرّ دار التقدّم على إظهار صورته على غلاف مؤلفاته التي تترجمها.

وكان عدنان يمارس ترجمة بعض النصوص عن اللغة الروسية، وهي ترجمات يعتبرها مساهمة صغيرة منه في التعريف بأدب بلدان الإتحاد السوفييتي الذي لا ينطقه إلاّ بعد إضافة (العظيم) إليه، فهكذا كان يراه.. وهذا هو الإنطباع الذي عاد به من هناك.

يقول عدنان مردّدا:

- إنّني الإبن الوحيد للحاج محسن عبّاس العزيري، ذلك الفارس الحقيقي وليس مثل جدّك القاطن "أم هاون" أو حتّة "أبو هاون" إن شئت. لقد تزوّج ثلاث مرّات بحثا عن الذريّة ولم يحصل عليها إلاّ في الرابعة التي كانت أمّي كاظميّة رحمها الله، أخبرني ذات يوم أنّه كان على استعداد للزواج من عشر نساء، ولم يعترف بهزيمته. فالعقم يعدّه البعض مساسا برجولتهم، كذلك لم يذعن لنصيحة أحد رجال الدين المحترمين من قريتنا وهو الشيخ صالح الذي يردّد أمامه بأنّها مشيئة الله والبركة في أولاد أخوته الكثيرين.

ثمّ ابتلع ريقه وهو ينتشي من الحديث عن سيرة والده:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- لقد قاتل الحاج محسن عبّاس العزيري عليه رحمة الله من أجل أن تنبت نطفته في رحم امرأة، فيأتي وريثه الحامل لذكراه، وهكذا ولد ابنه العظيم عدنان العزيري.. أفهمت؟
- أنت خوش... وريث.

* * *

عندما دخل غسّان إلى بيت ابن عمّه كامل العامري كان ذلك بعد يومين من سماعه نبأ إطلاق سراحه، حيث تلفن له أحد أشقّائه من الناصريّة، فما كان منه إلاّ أن توجّه إلى دار أخيه الوحيد الذي يقيم ببغداد عبد الجبّار العامري ليتفقّا على موعد السفر للتهنئة وتأدية واجب تتطلّبه منهما هذه العلاقات العشائرية والأسريّة الحميمة، التي لم تصادرها الأيّام أو تنل منها العلاقات المخرّبة في المدن.

لقد انطلقا من محطّة السيّارات في ساحة النهضة باتجاه قريتهما، وهاهو الآن في المضيف، كامل أمامه وأخوه عبد الجبّار خرج لزيارة أخواته المتزوّجات من أقارب لهنّ وانتقلن إلى القرية حيث يقيمون.

كان غسّان يضحك في سرّه وهو يسترجع حكايات عدنان العزيري، تلك التي يرويها بتلقائية عجيبة منطلقها الصدق الصافي وهو مسترخ على الوسائد الصوفيّة المزركشة التي صفّت داخل المضيف.

ولم تكن عيناه تغادران كاملا الذي رأى الأعاجيب حتمًا في سنوات الأسر التي لم تكن ترد في حسابه، ولذا بقي مكهربًا بالذهول. أجوبته قصيرة مقتضبة وكأنّه يتملّص من شيء.

أمّا غسّان فمتعب هو الآخر، إذ كانت الرحلة مرهقة بالنسبة له وهو يحشر مع شقيقه في الحوض الخلفي من سيّارة التاكسي التي كان سائقها يقصفهم بالأغاني الشعبيّة المسجّلة في حفلات خاصّة لمطربين لم يسمع بهم أحد، ولكن أشرطتهم تباع أكثر من أشرطة المغنّين المحترفين الذين تبثّ الإذاعة أغانيهم، أصوات مبحوحة وشجيّة مع درابك تقرع بنشاز.

وكان السائق منشغلا عن ركّاب سيّارته غائبا عنهم مع مغنييه المغمورين، ولم يعرف غسّان إلاّ واحدا منهم هو سعد الحلّي الذي تقترن به عشرات الحكايات الغلمانية التي صارت تركّبها المخيّلة الشعبيّة وتنسبها إليه. وقد سمع غسّان أنّه ذهب ذات مرّة إلى وزير الثقافة شاكيا ممّا يحصل له، فكان سؤال الوزير له:

- وماذا بإمكاني أن أفعل؟

وهمهم مجيبًا:

- أيّ شيء، لقد أصبح أولادي محرجين أمام أصدقائهم. لماذا أنا؟ هل أنا الوحيد الذي نكح الغلمان؟ آلاف العراقيين يفعلون ذلك؟

وقد ضحك وزير الثقافة من قلبه من هذه الحكاية التي أوصلها إلى كلّ المقرّبين منه، وقيل إنّها وصلت إلى من هم أعلى.

ولكنّ "المطرب المحبوب سعد الحلّي" في الكاسيت الذي وضعه السائق كان يغنّي في حفلة عرس، لذا أخذ حرّيته في قول ما شاء من الكلام المباح وغير المباح.

وهمس غسّان في أذن شقيقه:

- كأنّ هذه الأغاني قدرٌ لا مهرب منه، مثل هذه الحرب التي أكلتنا.

ثمّ رفع من حدّة صوته قليلا وهو يروي له ما سمعه من صاحبه الدكتور زيد الحبيب أنّه ركب مرّة سيّارة تاكسي، وما إن تحرّكت حتّى كبس السائق على شريط الكاسيت فانطلق منه صوت كأنّه يغنّي من إسته، وهمّ الدكتور زيد بان يرجوه إيقاف هذا الزئير، لكنّ السائق عاجله ليعلمه باعتزاز أنّه من يغنّي وإن كان غناؤه قد أعجبه؟ فأجاب على الفور: ولماذا لا تذهب إلى الإذاعة؟ فردّ عليه: لقد ذهبت ورفضوني، إنّهم لا يبحثون عن الأصالة بل عن هذه "القشمريّات" والطقاطيق التي يقدّمها شبّان مخنّثون. لو كان الأمر بيدي لسلّمتهم لسعد الحلّي ليلقّنهم الغناء على أصوله! وقد ضحك الدكتور زيد من قلبه. وبعد أن أوصله إلى المكان الذي يقصده سأله عن الأجرة فطلب ضعف المبلغ المعتاد، فما كان منه إلاّ أن صرخ فيه: كان عليك أن تدفع لي أنت مقابل اضطهادي بصوتك القبيح الشبيه بخوار ثور.

وعندما انفضّ الجالسون في المضيف انسحب كامل وغسّان، وكان هاشم الأخ الأكبر قد سبقهم ودخلوا إلى البيت الذي أصبح فيلا كبيرة، فيها غرفة ضيوف وتليفيزيون وثلاّجة ومبرّدة وراديو كاسيت، وكلّها من مقتنيات أولاد هاشم الذين كبروا وصاروا موظفين في دوائر الحكومة.

كانت غرفة الضيوف كبيرة، فيها أرائك موزّعة بمحاذاة جدرانها الأربعة، بحيث تتسّع لأكثر من ثلاثين زائرا.

وقد استقلّ كلّ واحد بأريكة طويلة تمدّد فوقها وأسند رأسه إلى كوعه بحيث يصبح بإمكانه مواجهة جميع الجالسين لمواصلة الحديث.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كأنّ جلستهم تلك لم تكن على أرائك بل على السجاجيد المفروشة علـــى الأرض، وكل واحد يتدثّر بعباءته نافثا دخان سيجارته بتناغم عجيب رغم نوبات السعال التي تنهدّ من الصدور.

لم يعد أحد يزرع أرضه بعد أن أصبح الأولاد مـــوظّفين يتقاضـــون رواتـــب مـــن الحكومة، واكتفوا بزراعة مساحات صغيرة بالخضروات التي يحتاجونها لبيوتهم، أمّا تلـــك المساحات الشاسعة فقد هجرت وزحف عليها السبخ.

كان هاشم وهو شيخ القرية ومرجعها قد استخرج دكّانا من بيته وجـــاء بعـــاملين مصريين وحوّله إلى محل لتصليح عجلات السيّارات، ولم يبق له إلاّ أن يجلس على كرسي وأصابعه تنقر حبّات مسبحته ليراقب العاملين ويقبض بنفسه أجور ما يقومان به من عمل، ولّما كانت الدار على مقربة من الشارع العام الرابط بين الكوت والناصريّة، فـــإنّ العمـــل وفير والمردود كثير لا يجعله يشعر بأيّ ندم لأنّه ترك أرضه نهبا للجفاف والسبخ.

كانت عينا كامل الساهمتان تواصلان التطلّع إلى وجوه أقربائه وأبناء عشيرته كأنّـــه يحاول اكتشافها من جديد.

لقد فعلت به سنوات الأسر ما فعلت، في معسكر "جورجان" على الحدود الإيرانيـــة السوفييتية حيث الجبال المكللة بالثلج، وعندما حاول البعض الفرار وقعوا ضحايا الـــثلج إذ تجمّدت أطرافهم ممّا سهّل اصطيادهم من قبل الحرّاس من جديد، وبعضهم أصيب بالغنغرينا فبترت أطرافه. قال أحدهم:

- لقد ترك كامل ابنه الصغير وهو رضيع على صدر أمّه، وعندما عاد وجده تلميذا في المدرسة الإبتدائية.

وعلّق ثان:

- لم يعرف الطفل أباه، وبقي يتطلّع إليه وكأنّه يتساءل من أين جاءنا هذا الرجـــل الغريب؟

وهنا جاء صوت هاشم ليقول:

- لكنّه كان يعرف أنّ أباه أسير عند ايران، وكنّا نعده بأنّه سيعود بعد أن تنتـــهي الحرب. وزفّر رجل عجوز كان نصف نائم وقال:

- ستأخذ هذه الحرب أعمارنا قبل أن تنتهي، لا حول ولا قـــوّة إلاّ بـــالله، دمـــاء المسلمين تسيح ولا أحد يفكّر بإيقافها، والسؤال هل يحصل هذا لأنّهـــا دمـــاء مسلمين؟

ورفع شيخ آخر رأسه وكأنّه يتوجّه بالدعاء ونطق:

- لعنة من الله حلّت علينا، ماذا فعلنا؟ لماذا يعاقبنا الله هكذا؟

ودخل أحد أبناء هاشم وهو يحمل صينيّة مليئة بإستكانات الشاي وصار يوزّعها على الحاضرين بحسب أعمارهم، الكبير قبل الصغير.

وأصبح صوت احتساء الأفواه للشاي مسموعا وعادوا لحديث الحرب، وتبرّع البعض للحديث عن كامل نيابة عنه فكأنهم هم كانوا الأسرى لا هو.

ومن خلال هذه الأحاديث عرف غسّان العامري أنّ الأسرى ما إن يصلوا إلى أرض الوطن حتّى يوضعوا في مصحّ خاصّ مهيّأ لاستقبالهم، وأوّل عمل يطلبونه منهم هو أن يتخلّصوا من الملابس التي جاؤوا بها حيث يتمّ حرقها، ثمّ يرتدون ثيابا وضعت في كيس فوق سرير كلّ واحد منهم فيه دشداشة ونعال ومنشفة وآلة حلاقة وصابونة وملابس داخليّة، وبعد أن يتحمّموا ويرتدوا ثيابهم الجديدة يخضعونهم للفحص الطبّي ولا يطلقون سراحهم إلاّ بعد ثلاثة أسابيع.

كما علم غسّان أنّ بعض الأسرى العائدين ممّن تصل وشاية عنهم بأنّهم قد تعاونوا مع آسريهم، أو أنّهم لبّوا ما أرادوه منهم فشتموا الرئيس، هؤلاء يجري حقنهم بإبر تقضي عليهم فورا وتسلّم جثثهم إلى ذويهم على أساس أنّهم عادوا مرضى وأمراضهم من النوع الخطير.

وعندما وصل كامل العامري إلى أهله لم يصدّق أن الأسر قد أصبح حكاية من الماضي، وأنّه الآن فوق ثرى قريته حيث أسرته وعشيرته.

وبعد أن غادر الجميع و لم يبق مع كامل إلا ابن عمه غسان، خرج عن ذهوله وهمس له:

- لقد أمرونا بعد أن وصلنا بأن لا نتحدث، أن نسكت، ومن لا يفعل، ما يريدونه منه. أنت أعلم مني بالجماعة وما يمكن أن يفعلوه، حياة البشر لديهم مثل عقب السيجارة.

وأراد غسان أن يستزيد عن عملية الهروب التي أشار إليها أحدهم، فأوضح له:

- إنها ليست العملية الأولى، فقد سمعنا عن عمليات أخرى بعضها نجح، لذا نقلونا إلى حدود الإتحاد السوفييتي، ومع هذا نظم بعض الأسرى عملية هروب عن طريق مواسير المجاري الكبيرة، وكادت عمليتهم تنجح لو لم يكن الهاربون لا يعرفون شيئا عن جغرافيا المكان الذين هم فيه، كانت الثلوج تغطي الأرض وهم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لا يضعون في أقدامهم إلا صنادل نايلون سرعان ما تقطعت وأصبحوا يمشون فوق الثلج حفاة فأمسكوا بهم قرب الحدود الروسية، وقد جرى لهم ما جرى، ثم بتروا أقدامهم.

كان غسان ذاهلا مما يسمعه رغم أن هذه الأعمال ليست جديدة على العراقيين ولكنها نفذت في سجون العراق من قبل ضد سجناء سياسيين متعلمين وبإشراف مهندسين معروفين، وذكر لابن عمه عمليات الهروب الشهيرة من سجن الكوت وسجن الحلّة، وكذلك سجن نقرة السلمان الصحراوي حيث فتح السجناء أنفاقا تحت الأرض وفروا منها هاربين.

ثم انسحب الحديث إلى الطعام الذي كانوا يتناولونه في أيام اعتقالهم، فأخبره كامل:

- بطاطا غير مغسولة أو مقشرة يسلقونها ويقدمونها لنا، ولكن عندما يتناهى إليهم أنّ ممثلي الصليب الأحمر سيأتون لزيارتنا والتعرف على أحوالنا، فإنهم يأتون لنا بالبرتقال والدجاج وما إن يخرجوا حتى يحملونها ليأكلوها هم.

وتساءل غسان:

- ولماذا لم تخبروا ممثلي الصليب الأحمر بهذا؟

- من يفعل ذلك سيجعلونه يدفع الثمن غاليا، ولذا نبتعد عن شرهم ونصمت.

كان غسان يحس أن ابن عمه مازال مرهقا، دائخا. وأنه بحاجة إلى أسابيع طويلة حتى يلتمّ من جديد وتلتئم كل جراحات أعماقه.

تساءل عدنان العزيري وكأنه يختبر معلومات غسّان العامري الدينيّة:

- أيهما أكثر ثوابا أن تغسل إستك بعد قضاء حاجتك بيدك اليمين أم الشمال؟

فضحك غسان من هذا السؤال الذي فاجأه به واجتهد في أن يجيب:

- بالشمال.

- و كيف عرفت؟

- لأني أفعل ذلك.. وهو أسهل بالنسبة لي.

ويندرج سؤال عدنان هذا ضمن حالة التديّن التي هو فيها الآن، بعد أن بدأ الصيام بمناسبة شهر رمضان وهو يفعل هذا للمرة الأولى في حياته.

ثم أسهب في الحديث عن فوائد الصيام وكيف يخرج السموم من جسم المرء ويؤكد:

- إلاّ أنني لا أشرب غير السوائل، ولا آكل غير الفواكه والخضراوات. أما الحلويات والدهون فلن أقترب منها، في جسدي كمية زائدة من الكولسترول والسكر والأملاح عليّ أن أقضي عليها كلّها، رغم قلبي وتعب شرايينه فإنني أريد أن أعيش مائة عام حتّى أنفذ كل مشاريعي الروائية والقصصية التي سيقرأها الأميّون أمثالك ليتعلموا منها.

واهدّ غسان:

- وما ذنبي أنا إن غسلت إستك بيمناك أو شمالك أو حتى إن جلست على هذا؟

وراقص إصبعه الوسطى أمامه ثم تابع:

- وما دخلي إن أكلت الحلويات والدهون أو لم تأكلها؟ أمّا حكاية قصصك ورواياتك فهي وهمك الذي تحلّق على أجنحته.

وصار يحرك رأسه وهو يدفعه إلى الخلف مردّدًا باستهزاء:

- وماذا تقول عن قصائدك؟

ثم أضاف وهو يشير إلى وسطه:

- بهذا الذي تراه خاملا نائمًا الآن أستطيع أن أكتب ما يبزّها ويتجاوزها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ويعود إلى القول بلهجة أخرى:

- اسمع، الشيء الوحيد الذي لا أستطيع ممارسته بحرّيّة في رمضان هو الجنس: إذ عليّ أن أغتسل وأتطهر في ساعة متأخّرة من اللّيل ما دام الأولاد يحبون السهر لمتابعة الأفلام والمسلسلات، وهاهو صاحبي وكأنه قد حدس كل شيء لذا نام وغاب في سابع نومة.
- و من أدراك أنّها لا تكون نومته الأبدية إن شاء الله؟

وانتفض صارخاً:

- أتدعو عليه بهذا الشكل؟ أتقبل أن أدعو أنا على صاحبك؟ اسم الله حارسه، هو فقط يمتثل لورعي وتقواي، هذا كل شيء، إنّه يفهمني.

ثم تمتم وكأنّه ينتزع المرارة من داخله:

- ما الذي جرى لنا يا غسّان؟ لماذا يحصل كل هذا؟ ألا ترى بأن كل ما نفعله هو هروب من أمر واحد، الخوف، الخوف يا غسّان، من كل شيء.. من يتصور أننا سنصل إلى هذا الحدّ؟

وتساءل غسّان:

- ألا تخشى أن يرمي بنا هذا الخوف إلى حالة انكفاء غريبة كأن نطيل لحانا ونرابط في الجوامع، نصلّي انتظارًا للموت؟
- أرجوك غسّان لا تقل هذا، يجب أن يكون لنا شيء من العناد.

وقاطعه:

- بل إنّ لنا كثيرًا من العناد ولولاه لاندثرنا. عنادنا الباقي في الكتابة، سأكتب شعرًا كثيرًا به أفقأ عيون من نحرونا، أفهمت؟
- اسمع، ها أنا أرتجف عندما أسمعك تتفوه بقول كهذا، كيف أصبحنا جبناء لهذا الحدّ؟
- أوقف سيل أسئلتك أرجوك. ما دمنا أحياء فإن أشياء كثيرة ستظل بمنأى عن القبح الذي لطّخوا به وجه الوطن الجميل.

ثم أطلق غسان إحدى ضحكاته الصباحية الخليّة وهو يضع فنجان القهوة المرّة أمامه ثم يتوجّه بالسؤال لصاحبه الصائم:

- لكنّك لم تخبرني لو أنّ الله سهّل أمرك وأيقظ صاحبك في ليلة من ليالي رمضان المبارك وقمت بواجبك العائلي، فبأيّ يد تغسله اليمنى أم الشمال؟

ويضحك عدنان وهو يقول:

- عليك أن تعرف بأنه "درنفيس"(*) عظيم، يدخل كل ثقب ويخترقه بجدارة، في رمضان أو في ذي الحجة، لا فرق.

* * *

رغم أن الوقت هو الظهيرة الآن، وأغلبيّة سكّان العمارة من الصائمين إلاّ أنّهم لا يتمتّعون بقيلولتهم حيث أخذ كل واحد منهم يهيّئ فطوره، وكانت الروائح تدلف إلى داخل شقّة غسّان من النّافذة التي يضطر إلى فتحها حتّى يتغيّر الهواء، ولكنّها بدلا من أن تأتيه بالهواء المطلوب ترمي عليه بروائح الثوم والزيت المحترق إضافة إلى روائح الشواء.

كان اليوم يوم جمعة وعدنان العزيزي لم يزره على غير عادته، لا بدّ أنّ امرأته قد احتجزته، منعته من المغادرة، أو اقترحت عليه زيارة وليّ أو قريب، فمنذ أن أحيلت على التقاعد صارت تتردّد على زيارة أضرحة أولياء.

كما أنها لا تشجّع زوجها على مواصلة علاقته بصديقه غسّان العامري ومبرّرها أنّه مطلق، ولذا تخاف على زوجها من الاقتداء به، ومادام الرجال لا أمان لهم فإن زوجها قد يفعلها ويقترن بأخرى.

و لم تفد كل مرافعات عدنان في الدفاع عن نفسه أو عن صاحبه.

قبل حوالي نصف ساعة نزل غسّان وجاء بالصحف الأربع التي تصدر في البلد، و لم يكن همه أن يقرأ ما فيها من أخبار سياسيّة بل الصفحات الثقافية التي قد تفلت منها قصيدة مقنعة أو مقالة مقبولة وسط كتابات شعاريّة، وقصائد مديح عموديّة يحترفها مجموعة من الشعراء الذين نالوا الحظوة وانهالت عليهم الهدايا، سيّارات، قطع أراض، شقق سكنيّة، مبالغ مالية..

كان هناك خليط من الأصوات تنبعث من أبواب ونوافذ الشقق، ومادام جميع قاطنيها من الذكور ويعرفون بعضهم بعضا فإنّهم يأخذون حرّيّتهم بالتحرّك في ممرات العمارة أو بين شقّة وأخرى وهم حفاة أو في ملابسهم الداخليّة، وقد علّقوا أمام الشقق حبالا نشروا عليها ملابسهم المغسولة حتى تجفّ غير آبهين مما يسبّبه منظرها من قرف.

وكان غسّان لا يعرف أيّ واحد منهم باسمه سوى البوّاب صلاح، ولكنه يعرف أغلبهم في الوجوه، يجدهم في المطاعم والمقاهي وأفران الخبز المجاورة، كلّهم شبّان، يجهدون من أجل جمع بعض المال يعودون به إلى أسرهم في قرى مصر المترامية.

(*) الدرنفيس: المفك الحديدي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكانوا يعرفونه فقد رأوه في التلفزيون متحدّثا عن الشعر أو رأوا صورته في الصحف، لذا كانوا يبادرون إلى تحيّته والترحيب به، ولعلّ بعضهم يتساءل: ما الذي زرعه وسطنا؟ لماذا يعيش بيننا وهو ليس مصريّا؟

لكنهم مجمعون أن وجوده بينهم هو وجود ناعم، لا يقلق أحدا أو يثير حفيظته، ما إن يدخل شقّته يغلق الباب ولا يعود أحد يسمع له صوتا، حتى أصدقاؤه لا يزورونه إلاّ لماما ويفضّل الالتقاء هم في كافتريا المنصور هناك حيث تنتظرهم ابتسامة مالكها "أبو ريتا".

وكان صلاح بوّاب العمارة يسمّي غسّانًا ((دا الأستاذ الصحفي))

وفي ذلك احترام له، إذ أن صورة الصحفي مبجّلة لديهم وهي تقترن بأسماء كبيرة ذات انتشار بين الشعب المصري بكل فئاته.

وإذا لم يأت عدنان العزيري فان غسّانا يتوجّه مشيا على قدميه إلى كافتريا المنصور، حيث استحصل أبو ريتا موافقة السلطات البلدية على فتحها في رمضان ولكن شريطة ألاّ يقدّم المشروبات الكحوليّة.

وعندما يأخذ مجلسه في الكافتريا التي لا تكون مكتظّة في ساعات الصباح الأولى، فإنّ بعض عمّالها من اللبنانيّين الذين شرّدهم الحرب أو بعض المصريّين ممّن لهم خبرة العمل في المرافق السياحيّة يتجمّعون حوله، ليستمعوا إليه وهم يتوجّهون إليه بأسئلتهم ظنًّا منهم أنه لديه أجوبة على كل ما يشغلهم من أسئلة.

رحلة غسّان من الشقّة إلى الكافتريا، أو من البيت إلى الكابريه كما يعلّق غيّاث الإبراهيمي، وهو مثل حفظه ويداعب به صديقه المقيم في "بيت الضبع" كما يحبّ أن يسمي شقّته الصّغيرة وحيث تتكدّس فيها الكتب والملابس بشكل فوضوي.

مسافة ليست بعيدة، ينزل سلالم العمارة ويستدير يمينًا ثم يمضي حاثّا خطاه متطلّعا إلى رأس أبي جعفر المنصور المستقرّ على قاعدته في ساحة تحمل اسمه، ساحة جانبيّة رغم أنّه باني المدينة كلّها ومؤسسّها عاصمة لخلافته.

ومن ساحة أبي جعفر المنصور ينعطف يمينًا مارّا ببيوت ذات حدائق أماميّة مسيّجة، تأتي بعدها محطّة البنزين ثم مبنى الأسواق المركزيّة التي تتجمّع أمامها السيارات وعدد من البشر الذين ينشدون الحصول على حاجياتهم اليوميّة، هناك من يخرج من بين الجموع وهو يحمل طبقة بيض أو كيسًا فيه معلّبات أو ثياب، وكان من يخرج تبدو عليه سيماء المنتصر فقد أفلح رغم الزحام في الحصول على شيء يعود به لأسرته، وهو انتصار

يداري فيه هؤلاء الناس ذلّهم وانكسارهم اليومي وخوفهم ممّا قد تؤول إليه الحرب، أو ارتيابهم من كل من يصادفهم فيكبحون ما فيهم ولا يبدون أيّ تذمّر أو تأفّف.

كان هذا الكمّ من البشر لا يستطيع الشّراء إلا بدفاتر اشتراك خاصّة تمنحهم أحقيّة الشراء بمبالغ محدّدة، وبعضهم يشتري حاجيات مدعومة ليبيعها بثمن أغلى للعمّال المصريين.

وبعد ضجيج "الأسواق المركزية" يتوجه إلى مكتبة "الرفيف"، وهي عبارة عن كشك وضعه أحد كبار ممثّلي المسرح والتليفزيون في مدخل كاراج السيّارات الذي يشغل المساحة الفارغة أمام مدرسة الموسيقى والباليه.

لقد اضطرّ هذا الممثّل المرموق لإنشاء هذا الكشك الذي تعمل فيه زوجته طيلة فترة ما بعد الظهر، أمّا الممثّل واسمه مقداد عبد الرّضا فكان يقوم بالمهمّة مساء.

ومرة سأله غسّان العامري:

- من أين جئت بهذا الاسم الجميل الرفيف؟ هو اسم ديوان شعر أكثر منه اسم لكشك بيع صحف موزعٍ في فسحة تلعب بها الرّيح الترابيّة شتاء وصيفًا.

وردّ عليه مقداد وهو يخوص إحدى عينيه فكأنّه يؤدي دورا في مسرحيّة.

- إنّه رفيف قلبي، ثم والأهم إنه اسم ابنتي.

وكان عدنان يعلّق:

- هذا بلدك! ممثّل كبير يفتح كشكا للصحف وأدباء معروفون يحوّلون سيّاراتهم الخاصّة إلى سيّارات تاكسي، أيّة فجيعة هذه؟!

- إنّها الحرب، لقد قلبت كل شيء. وما هذه إلاّ البداية والآتي أعظم.

ويصفّق عدنان بيديه وهو يصرخ بصوته اللاّهث:

- لا حول ولا قوة إلاّ بالله، من الذي أتى بي؟ كيف رجعت؟ لقد كنت هناك أعيش مثل ملك، وعرضوا عليّ العمل مترجمًا في دار التقدّم، ولكنّني قلت عليّ أن أعود لأخدم الوطن، والنتيجة كما ترى!

- لا تصدع رأسي بخطبك هذه.

- جئت ملهوفا للزواج والإنجاب ليستمرّ النسل، وما أن رأيتها وأنا أستكمل أوراقي في وزارة التربية ورأيت اهتمامها بي حتى قلت هذه هي، وأصبحت أختلق الأعذار لأراها وعندما جنّدت كضابط احتياط ذهبت إليها مثل طاووس متباهيا ببدلتي العسكرية، وعرضت عليها الزواج وتمّ كلّ شيء بسرعة وتسلسل أولادنا الأربعة بفارق عام واحد بين الواحد والآخر.. شغل مضبوط.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- أكيد، لأنّك فحل، وبعد أن فشلت قصصك في الوصول إلى الناس والحصول على المجد المزعوم، ها أنت تحقّق الذكر الحسن من خلال نسلك الميمون بعونه تعالى.
- أنت خوش... هل أكمل أم لا؟

كان مقداد صاحب الكشك المسمّى مكتبة الرفيف يفرح بلقاء غسّان أو من معه، فكلّهم من أصحابه، ويعتبر مرورهم به دليل احترام لما قام به مضطراً، وفي الوقت نفسه لم يكن يمانع من تقليبهم لكل الصحف والمجلاّت وخاصّة القادمة من الخارج بأموال عراقيّة، وكانت السياسة فيها فجّة ومباشرة تثير القرف فيقول غسّان بصوت مسموع:

- من المغفّل في هذه اللّعبة؟

ويضيف:

- إن أسوأ شيء أراه هو اللّهاث على طلب التزكية ونيل المديح من الآخرين، وهم غالبا مأجورون، ولا مانع لديهم من التخلي عنك إذا جاء من يدفع لهم أكثر.
- الرائع هو أن تأتيك التزكية من أهل بيتك، من مواطنيك، فهي وحدها شهادة صدق، المهمّ أنّ الأمور تسير هكذا.. فما العمل؟
- و بعد أن يغادر غسّان مكتبة الرفيف يعبر زحمة الواقفين أمام مطعم "المشوار" الذي يقدّم وجبات لبنانية سريعة، وجلّهم من الشبّان الضّائعين الذين يبدون لمن يراهم وكأنهم هم أيضا وجبة مهيّأة لأن تلتهمها الحرب، جيل لا يعيش عمره ولا ينطلق في تحقيق رغباته، يسيّسونه رغما عنه، يعبّئونه بالشعارات، ويبعثون به إلى الحرب، وعندما يتطلع المرء إلى عيون هؤلاء الشبّان يرى فيهم شيئًا منطفئًا، كأنهم ليسوا بشرًا ينبضون بزهو الحياة وفيضها، هم مجرد هياكل منقادة إلى المجهول.

وبعد مطعم المشوار تأتي سلسلة من محلاّت بيع الأحذية، وكم حاول غسّان ومعه بعض أصحابه أمثال عدنان العزيري ومعن الماجد وغيّاث الإبراهيمي أن يعثروا على سرّ ازدهار محلاّت الأحذية، ما إن يفتتح سوق جديد أو تشيّد عمارة جديدة حتى تصبح المحلات والدكاكين التي تضمّها واجهات زجاجيّة تعرض الأحذية وبأسماء غاية في الابتذال، أحدهم ويقع محلّه مقابل كافتريا المنصور سمّاه "أحذية الهناء"، وفي شارع الرشيد محلّ سمّاه صاحبه "أحذية الفارابي".

ثم يقطع غسّان الشّارع وصولاً إلى كافتريا المنصور، وغالبًا ما يجد صاحبها "أبو ريتا" الذي ما إن يراه حتّى ينهض مرحّبًا به، وفي فترات بعد الظهر فإن غيّاث الإبراهيمي

لا مكان له غير هذه الكافتريا.. فربّما يجد فيها بعضًا من رائحة وطن غادره مضطرًّا ليقيم في أكثر من بلد قبل أن يستقرّ في بغداد منذ اثني عشر عامًا، بعد أن أحبّ فتاة منها وتزوّج بها، وأنجب ولدين أصبحا محور عالمه وضعفه بقدر ما هما نقطة قوته أيضًا.

وأبو ريتا الذي كان مهتمًّا بمحلّه وراحة زبائنه إلى أقصى الحدود لم يفعل هذا كله إلاّ من أجل راحة طفلتيه اللّتين هما ثمرة زواج متأخر.. لقد وضع الكبيرة في مدرسة خاصّة، ويدفع أجورها بالدولار، ورغم أنّها لم تبلغ الثامنة من عمرها إلاّ أنها أصبحت عازفة بيانو ماهرة، وقد اشترى لها آلة بيانو من دبلوماسي غادر العراق وجاءها بأستاذة لتعلّمها العزف، ولها أستاذة أخرى تعلّمها الرسم، وكم تكبر فرحته عندما تعزف على البيانو أمام أصدقائه المقرّبين أو تريهم رسومها، كانت لحيته البيضاء ترتعش فرحًا وتعبق فتوّة نادرة من دكنة عينيه الثاقبتي النظرات.

وغالبا ما كان يصطحب إحداهما إلى الكافتريا أو يصطحبهما معًا، يحمل الصغرى فتدسّ وجهها في كتفه، أمّا الكبرى فتمسك بيده.

وكان بوجهه الملتحي وملابسه التي يختارها غالبا بيضاء، يبدو وكأنّه خارج من كتب أسفار قديمة.

وعندما يجد غسّان غيّاث الإبراهيمي قد سبقه ينضم إلى جلسته لتبدأ أحاديثهما التي تحفر كل أركان الدنيا.

عدنان العزيري وحده لا يخرج مساء إلاّ في حالات نادرة، يفضّل أن يلبس دشداشته ويتوسّط أولاده، وقبيل العشاء يعدّ لنفسه كأسا من الويسكي بناء على نصيحة من طبيبه وهو كأس لا يتوفر غالبا فيعوّضه بالعرق العراقي، وبعد أن ينام أولاده يدخل إلى مكتبته ليقرأ أو يكتب حتى ساعة متأخرة من الليل.

كان غيّاث الإبراهيمي متحفّزًا في جلساته تلك، سكائره تتعاقب، وكان يطرد الهواء من صدره بصوت كالتأوّه.

أعصابه المتوتّرة لا تهدأ إلاّ في حالات الصفاء التي تتوافر له عندما يكون محاطًا بأصدقاء يحبّهم، وفي مقدمتهم غسّان العامري الذي يلومه مرّات، لأنه عرّفه على هذه المجموعة المنكوبة من الأدباء الذين يبدون وكأنّهم نغمة نشاز في هذا الإيقاع المصبوب بشكل يصعب الخروج عليه.

ولعلّ محنتهم قد بدأت من هنا رغم أنهم قد أصبحوا جزءًا من هذا الإيقاع سواء رضوا به أم لم يرضوا. وربما كان غسّان العامري أكثرهم تمردا على هذا الإيقاع الذي قاده

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لأن يصبح في المدينة التي أحبّها مثل مسافر، أو شبيه بهؤلاء الفتية المصريين الذين سيغادرون ذات يوم.

هو مثلهم اليوم، كل ما يفكر به أن يغادر في أقرب فرصة، اليوم لو أن بإمكانه ذلك.

لكن إلى أين؟ ليس أمامه وجهة غير لبنان رغم كل ما فيه.. فهناك حنان عوّاد بكل محبّتها وزخمها الجميل، كانت رسائلها إليه يحملها المسافرون وهداياه ورسائله لها وهداياها له تشكّل معنى رائعًا وسط هذا الخراب الدامي.

وقد لبّت دعوتين للمجيء إلى العراق في مناسبتين، إحداهما مهرجان المربد الذي لم يكن غسّان العامري من شعرائه، وعندما تعتلي المنصّة فإنّها تقرأ قصائدها له، عنه. تناديه بها، ومن منفاها إلى منفاه حيث أصبحت الأوطان المحترقة منافي نُزَجّ بها مرغمين، أو من منآها إلى منآه كما يحبّ صديقه الشاعر اللبناني نصري الأسمر أن يقول مخفّفًا من حدِّيّة كلمة منفى وقسوتها.

وهنا في بغداد يواصل معايشة الجوّ اللبناني مع غيّاث الإبراهيمي وأبي ريتا وكافتريا المنصور والنادي الاجتماعي اللبناني الذي منح عضويّة فخرية فيه، وفي مطعم أبي ياسر في الوزيريّة ذلك اللبناني المهاجر من قريته الحدوديّة التي احتلتها إسرائيل، ومع صوت فيروز ووديع الصافي وماجدة الرومي وملحم بركات وغيرهم. مع الأصدقاء القادمين بهذه المناسبة أو تلك.

كأنّ لبنان حلمه الذي يتمنى أن يراه متجسّداً، أن يرى نفسه فيه، فعن طريق صحفه ودور نشره سيصل إلى كل القرّاء العرب، ثم إنّ في لبنان حنان عوّاد التي سكبت عليه حبّها بسخاء نادر.

- غيّاث الإبراهيمي يستوعب كل ما يحسه يقول له بدعابة: لقد سحرك اللبنانيّون يا أخو الشلّيتة، فعليك السلام.

ويضحك من تعليقه ثم يجيب:

- قل سحرك لبنان، أو سحرتك لبنانية مثلاً.. فهذا أدقّ.
- غيّاث الإبراهيمي النائم على فوهة حزن عريق غادر لبنان بعد أن عاش فصول الفاجعة التي حلت ببلده، وكانت ذروتها بالنسبة له عندما ذبح أبوه وخاله على الهويّة وأمام أحد الحواجز التي تنصبها الفئات المتقاتلة، إن في داخله حقدًا مثل الإعصار على عدوّ لا يعرف كيف يستدلّ عليه، لأنّه يجهل من هو، ولو عرفه يومًا لزرع في صدره طنًّا من الرصاص، آنذاك فقط سيستسلم للهدوء حتى ولو كان هدوء الموت! هذا ما كان يردّده وهو يكزّ على أسنانه.

- 5 -

وصل غسان العامري إلى كافتريا المنصور أبكر من غيّاث الإبراهيمي، ولذا جلس على الشرفة المطلّة على الشارع متأمّلا "أمّ فوزي" تلك المرأة المسنة المتلفّعة بثيابها السوداء التي ألفها أصحاب المحلاّت لأنّها تأتي إلى هذه المنطقة وتبدأ بكنس واجهات الدكاكين وصولاً إلى الرصيف، تفعل ذلك تطوّعًا وهي تسكب من فمها مونولوغًا طويلا غير مترابط، تورد فيه أسماء وأحداثًا، وكان أصحاب هذه المحلاّت يقدّمون لها مبالغ ماليّة بسيطة تضعها في جيب ثوبها الأسود دون أن تهتمّ بقيمة هذه المبالغ، وعندما تفرغ من الكنس تفتح صرّة فيها فتات خبز وبقايا رزّ هي طعام عدد من الحمائم التي اتّخذت لها مكانًا في سطح العمارة، ترفع رأسها إلى أعلى وتنادي فتسرع الحمائم بالهبوط فور سماع صوتها، وتبدأ برشّ محتويات الصرّة.

وكان رواد الكافتريا يستغربون من هذه العلاقة الحميمة بين "أم فوزي" وهذه الحمائم المتوحّشة.

كانت ضامرة طويلة، تقف بعد أن تنتهي من عملها صافنة وكأنّها مشجب ثياب، وكان ضمورها لافتا حتى تبدو كأنّ وزنها لا يزيد على الأربعين كيلوغراما، رغم أنّها تستطيع الحصول على الطعام الذي تريده سواء من كافتريا المنصور أو مطاعم الكباب القريبة، لكنّها لا تأخذ إلاّ بعض الفضلات ومن أجل الحمائم فقط.

ولا يدري غسّان العامري كم من الشهور مرّت عليها وهي تتردّد على هذا المكان.

ومرة همس أحد عمّال الكافتريا المصريين في أذن غسّان أنّه سمع بأنّ لها ابنًا وحيدًا هو فوزي الذي تكنّى به، وقد قتل في الحرب في بداية اندلاعها، وقد فقدت صوابها منذ أن علمت بالخبر، وتاهت في الشوارع نادبة قبل أن تألف ارتياد هذا المكان.

ولم يجد غسّان ما يردّ به على ما فاه به العامل المصري، وحالتها شبيهة بحالة صديقه "أبو عماد" الذي ليس له غير ولده عماد وقد جنّد بعد تخرجه من الكلية مباشرة، ثم هرب من الجبهة واختفى في بيت قريبة لأمّه، ولكنّ المطالبة ازدادت على أبيه بأن يأتي به وإلاّ وضعوه مكانه في السجن، وقد وعدوه "وعد شرف" - كما ذكروا - بأن يكتفوا بحبسه لبضعة أيّام فقط، وقد سلّمه لهم، ولكن.. بعد يومين رموا جثته أمام الباب وهم ينذرونه بعدم إقامة مجلس عزاء له فهو جبان خائن للوطن. ولكن "أبو عماد" لم يسمع ما فاهوا به وصار يجري حافيا في شوارع المدينة وهو يصرخ موجوعًا وملتاعًا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان أبو عماد أحد أصدقاء غسّان العامري عندما كان يقيم في مدينته، يغنّي ويمثّل ويشارك في كلّ الفعاليّات الثقافيّة بحيويّته النادرة.

أمّا غيّاث الإبراهيمي فقد صار صديقًا لغسّان العامري منذ لقائهما الأول في بيت "أبو ريتا". يومها كان يو لم لعدد من المثقّفين اللبنانيين القادمين لزيارة بغداد للمساهمة في إحدى الندوات التي تعقد فيها.

وكانت حنان عوّاد هناك أيضا. ونصري الأسمر وميشال صايغ.

لقد قال أبو ريتا لغسّان:

- ميشال مثل أخي، نشأنا معا، فاعتبرني أنا أخًا لك أيضًا.

أمّا غيّاث الإبراهيمي فكان يميل إلى الصمت في تلك الجلسة الصيفيّة التي تمّت في حديقة بيت أبي ريتا في المنصور المترف، أمامه كأس ويسكي ودخان سيكارته المارلبورو يتعالى وكأنّه ينفثه من قلبه.

وقد أمسك أبو ريتا بيد غسّان وقاده إلى المكان الذي اختلى فيه غيّاث الإبراهيمي مع كأسه ودخان سيكارته وقدّمهما لبعضهما، وهو يردّد:

- بينكما ما هو مشترك حبّ الأدب، أمّا أنا فلا علاقة لي بهذا، إنّني مجرّد صديق للأدباء، أصاحبهم وأحضر جلساقم إن كان لديّ الوقت، مع أنّني لا أفهم غالبًا ما يقولون أو ما يكتبون.

قال لغسّان:

- فرصة طيبة كنت أنتظرها فأنا أحترم كتاباتك سواء الشعريّة أو المواقف التي تنشرها.

أمّا غسّان فقال له:

- لقد قرأت ترجمتك لرواية جورج أمادو تريزا باتيسيا، هي واحدة من العلامات الروائية المميّزة في الأدب العالمي.

وأخذ غيّاث رشفة من كأسه وهو يعلّق:

- أمضيت في ترجمتها حوالي الأربع سنوات، عندما قرأها قبل أن أقدم على ترجمتها فكّرت بالقارئ العربي وقلت عليّ أن أقدّمها له، وقد صدرت بطبعة تعبانة هنا، ومع هذا نفدت كلّ نسخها.

وعرف غسّان منه أنّه قد ولد في البرازيل وفي ريو دي جانيرو العاصمة، وقد شبّ هناك وأتقن اللغة البرتغالية التي هي لغة البلاد، وعندما عاد إلى لبنان لم يترك القراءة بهذه اللّغة.

ثم استطرد:

- الأدب هوايتي، أمّا عقلي فهو اقتصادي بحت، وعندما أريد أن أريح عقلي من عناء الأرقام ألجأ إلى الأدب فهو فسحتي التي أتنفّس فيها وأستعيد قواي.

* * *

ومنذ ذلك اللقاء في دار أبو ريتا أو "الخواجا" كما يناديه عمّال الكافتريا من لبنانيين ومصريين احترامًا، أصبح غسّان العامري وغيّاث الإبراهيمي صديقين حميمين يلتقيان كل يوم تقريبا.

أمّا الكافتريا فصارت ملجأ غسّان، ومن شرفتها المطلّة على صخب الشارع يتأمّل العالم ويراجع أيّامه ويشيّد مشاريعه القادمة.

لقد أصبحت هذه الكافتريا عنوانه أيضا، وكل الذين يريدون الإتصال به من أصدقائه ومن الأدباء والصحفيين الذين يزورون العراق يقصدون هذه الكافتريا، فإن لم يجدوه تركوا له رسالة عند أحد الندل.

حتى رقم هاتفها أعطاه لبعض أصحابه ليتّصلوا به مادام ملازمًا فيها أغلب وقته، حيث يمضي الساعات الطوال وهو يقرأ ويكتب ويحلم.

كان بقاؤه في الشقّة مرهقًا له، فهي ليست شقّة بقدر ما هي مكتب يندسّ بين مكاتب أخرى تغصّ بالمستأجرين العابرين أو الماكثين.. فإرادة الحاجّ هي التي تقرر ذلك مادامت العقود غير مصدّقة في دوائر الدولة فلا تلزمه بشيء تجاه ساكنيها.

وكان البوّاب صلاح يمتثل لنوبات الحاج الدنانيريّة ويطوف على الشقق كل شهرين أو ثلاثة ليخبر أصحابها أنّ الحاج قرّر زيادة الإيجار عشرة دنانير، ومن لا يرغب بهذه الزيادة عليه أن يحمل أغراضه ويرحل.

وليس أمام غسّان العامري إلاّ أن يلبّي ما يريده الحاج في انتظار حصول معجزة ما، كأن تتوقّف الحرب وتفتح أبواب السفر للمواطنين الذين مُنع عليهم ذلك، فيولي وجهه صوب جهة ما من جهات الأرض.

كان يحسّ بالشلل التامّ غالبًا، وهذا الخوف المنتشر مثل الوباء بين الناس يضعه في حالة من العجز، كم مرّة حاول أن يذلّها ويهزمها بالشعر فلم يستطع، حتى كلمات قصائده صارت خائفة مرتجفة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ومع هذا كان يكتب، له حالات انتصار على ما هو فيه، والثمرة قصائد تشكّل ديوانًا منّى نفسه بأنّه سينشره ذات يوم عندما يستعيد أجنحته، في بيروت أو تونس أو القاهرة، في أيّ مكان عدا هذا الجحيم الذي لا متنفّس فيه إلاّ لأردأ أنواع القصائد العموديّة التي تمدح بتسوّل وذلّ.

وقد قال مرّة للدكتور منعم البصري، وكان قد رافقه إلى نادي التراث والتحق بهما هناك محامي الشعب المقهور طارق المنصور. كما يحب أن يداعبه:

- إن مبلغ مكافأة أربعة مقالات في الشهر، وهو أقصى ما أستطيع كتابته، لا يسد ثمن إيجار شقّة البؤس أو بيت الضبع.

ويضحك كلّ من طارق المنصور ومنعم البصري من هذا التشبيه الغريب، ويقترح عليه طارق المنصور بأن يدوّن يوميّاته وينشرها تحت عنوان "بيت الضبع".

ثم يسأله منعم:

- و لماذا لا تكاتب بعض المجلاّت الخليجيّة المعروفة التي تدفع بالدّولار!

ويضحك غسّان باقتضاب ساخر ثم يجيبه:

- لقد فعلت، ونشرت أكثر من مرّة، ولكن أتدري ما الذي حصل؟ إن رقابة البريد تستولي على الشيك وتحوّله إلى البنك لتستلمه بالدينار وبالسعر الرسمي، وهكذا تصبح المائة دولار ثلاثين دينارا في حين أن ثمنها خارج البنك أكثر من مئتين.

ويقول طارق معلّقا:

- و كيف انتبهوا حتى لهذا؟

وردّ منعم:

- إنّهم يعرفون عدد شعرات طيزك أستاذ.

ثم يصفن قليلا، ينفث من قرارته حرقة مرة. بعد ذلك خلع سترته ووضعها على الكرسي جواره ثم أرخى رباط عنقه وتمتم:

- ما قاله غسّان دوّخني فعلا وإنّني أتساءل لماذا يحصل كل هذا؟ يلحقون الأديب الفقير حتى على مبلغ تافه مثل هذا، في حين أنّ ثمن صاروخ واحد من هذه التي تلقي بها الطائرات بالآلاف يوميّا كذا مليون من الدولارات؟

وقد صار كل من منعم وغسّان في حالة وجوم أمام هذا التساؤل، وبعد برهة قال منعم:

- على أية حال لقد جئنا إلى هنا لنسكر وإنّ "قَنْدَلَ"(*) الأستاذ غسّان فلعلّه يقرأ لنا شعرًا.

ويخلع هو الآخر سترته التي لبسها على قميص قصير الكمّين ويواصل:

- لا أدري لدي شعور كلّما ضمتني جلسة مع غسّان أحس كأنّها حفلة وداع له وفي الغد ستحمله الطائرة إلى مكان ما، لا أدري لماذا أحس بأنه زائر لبضعة أيام؟!

وبدا شيء من العبوس على وجه غسان وهو يتناول دفّة الحديث:

- ولكنّهم قد يبقوني هنا رغمًا عنّي، يبدو أن تقارير كثيرة كُتبت عنّي قد فعلت فعلها، وهكذا أصبحت مثار تساؤل منهم، كأنني لم أكن موظّفا في هذه الدولة منذ عشرين سنة، وعملت في أجهزة الثقافة والإعلام في داخل البلد وخارجه.. تصوّروا حتى الدعوات التي تصلني لحضور مهرجانات أدبيّة تحجب إن جاءت عن طريق الوزارة، وإن وصلتني مباشرة وقدّمتها يتمّ الاعتذار ولأسباب واهية! ليتهم يقولون لي بشكل واضح وصريح إنّك ممنوع من السفر لأتدبّر أمري وأهرب من طريق الشمال أو الجنوب.

ويتابع وقد انفتحت شهيّته للبوح الجريح:

- إنها مسخرة أو قل إنّها عملية خسيسة، يرموننا أمام ألغاز عصيّة ولا يتركون لنا الجواب الواضح! قولوا: ممنوع وانتهى الأمر.

وأراد أن يقول أيضا:

- لقد قبلت العيش في قفصي مجترًّا موتي، مصادرًا بخوف أجهله، خوف أنتظره مع كل طرقة على باب شقّتي، في نظرات هؤلاء الرعاة الزاحفين على كبرياء المدينة بجهلهم وشرههم وجرائمهم، في سيّارة طائشة، في كلمة أكتبها وأراجعها ألف مرّة حتى لا يتمُّ تأويلها أو إيقاظ هوى التفسيرات فيها.

* * *

(*) قندل باللهجة العراقيّة تقال لمن يتألّق سكرًا فيشع دون أن يسيء.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كل هذه الأفكار تنهال عليه مثل رذاذ مطر صيفي، يستسلم له ويمضي، رغم أنّه ينقع ثيابه وقد يسلّمه إلى نوبة زكام أو التهاب رئوي.

يتحرك قلمه، يرسم حروف قصيدة، مشروع قصيدة لكنّ الكلمات سرعان ما تختنق فالأوكسجين غير كاف، يترك القلم على الطاولة.

في داخل الكافتريا ورغم قلّة عدد موائدها جلس البعض أزواجا، يتحدثون ويتحدثون، ويستغرب غسّان من كل هذا ويتساءل: بماذا يتحدثون؟.

ثم يتراجع عن تساؤله، فقد كان يفعل هذا مع حنان عوّاد أيضا، وتمرّ بهما السّاعات وهما تائهان في عالمهما وأحاديثهما الملأى التي لا تنتهي.

من مقاهي برمانا، بكفيّا، أنطلياس، ذوق مكايل، ومن عنّايا إلى جبيل.

ثم تلك الجلسات التي يحبّاها في مطعم "برج الحمام" بأنطلياس، حيث يكون أوّل صحن يطلبه غسّان "المجدرة" التي يحبّها كثيرا. وكان هذا مثار ضحك وتعليق حنان عوّاد، ويقول لها:

- عندما كنّا صغارا وفقراء كانت أمهاتنا يطبخن الرز بالعدس أو بحبوب إسمها "الماش" شبيهة به ولكنها مكوّرة، وكنّا نمزج دبس التمر مع الرزّ ونشرب بعده اللبن، كل هذا ما زال طعمه في فمي وكأنّني لم أتناول أفخر الأطعمة في عواصم الدنيا، و"المجدّرة" تعيدني إلى تلك الوجبة الفقيرة الخالدة.

جاء حسام نادل الكافتريا وهمس في أذن غسّان:

- الأستاذ غيّاث إتصل يسأل إن كنت هنا، وقد طلب منّي أن أخبرك أنه قادم خلال دقائق لتنتظره.

وردّ غسّان:

- شكرا يا حسام.

وقد هيأ غسان نفسه للدخول إلى بهو الكافتريا، فصاحبه لا يحب الجلوس مكشوفا أمام العابرين، وكم مرّة دخل إلى الكافتريا ووجده يدير ظهره للروّاد ليكون بمواجهة الحائط وهو يلتقط حبات الزيتون مع كأس الوسكي.

وعندما حضر دخلا، ولم يكن من الصعب العثور على مكان في الداخل، وقد اهتمّ بهما النادل إذ أنّ غيّاثا إضافة إلى صداقته لأبي ريتا، فهو كريم معهم إلى أبعد الحدود ويصغي إلى مشاكلهم إن سألوه المشورة أو المعونة.

وكان السؤال الذي يطلقه غيّاث:

- كيفك غسّان؟
- عظيم وأنت؟

مثل كل يوم، ملل على ملل على كس أخت هالدنيا..

ويضحك غسّان من قرارته.

وقد ينسحب الحديث إلى آخر أخبار لبنان أو مستجدات الحرب، وكان غيّاث حريصا على سماع نشرة أخبار إذاعة مونت كارلو قبل أن يغادر بيته.

قال لغسّان بعد فترة صمت:

- مرّات أقول لو لم أعرف غسّان العامري لكان هذا أفضل حالاً وأهدأ بالاً؟ إنّ وجودك يحيي فيّ أمورًا ظننت أنّني أوشكت على الشفاء منها والانصراف إلى خياري المجزي الاقتصاد والأرقام، أنت تعيدني إلى داء الكتابة الذي أردت جعله نزوة من نزوات الماضي كالانضواء تحت راية حزب مثلاً.

وأرّث سيكارة مارلبورو وتركه غسّان يتمهّل في ارتشاف دخانها بشهيّة لم يعرفها عند مدخّنين آخرين، وواصل:

- وفوق هذا عرّفتني على معظم مبدعي البلد، من معن الماجد الناقد وعدنان العزيري الروائي إضافة إلى آخرين، ولم أجد في هذا البلد أديبا إلاّ والبؤس يقطر من وجهه، وخاصّة عدنان العزيري الذي يصيبني بداء الكآبة، لكنّني مع كل هذا أحبّكم فأنتم البقيّة الباقية من الأنقياء الذين لا يعرفون الغش أو التدليس، وبإمكان المرء أن يخوض معكم أيّ حديث أو الجهر بأيّ رأي دون خوف. وهكذا بفضلكم يا أخوات "الشليتة"(*) عدت أديبا رغمًا عنّي، وصار بعض الصحفيين يرغبون بإجراء حوارات معي لأتحدث عن مشاريعي القادمة، خذوها منّي، لقد بدأت بكتابة رواية، فيها العراق ولبنان وسأبزّ بها هذا الدعيّ عدنان العزيري.

ويطلق غسّان ضحكة خليّة:

- ألم تجد غيره؟ قل نجيب محفوظ أو توفيق يوسف عواد مثلاً؟ أمّا عدنان العزيري فهذا مثال ليس في صالحك.
- أريد أن أُخرسه فقط.
- ستتلقّى منه التعليق الخالد إن كاشفته بهذا، سيبتعد قليلا ويهزّ رأسه ثم يشير إلى وسطه وهو يقول:

(*) شتيمة لبنانية لكنّها تظلّ مقبولة بين الأصدقاء.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- بهذا أستطيع أن أكتب رواية أفضل من روايتك.

ويطلق غيّاث ضحكة حرّة هو الآخر، يتبعها بسعلة مادام دخان السيكارة يدور أمامه.

- لقد ورّطتموني من جديد، ولا فائدة.

وكان غيّاث يسمّي عشق الأدب والفنّ بـ (السوسة) التي تظل تنخر في العظم، وقد ورثها من أفراد عائلته، شقيقه شاعر، وابن عمّه روائي، والده يكتب الشعر باللّهجة اللبنانيّة وكان صديقًا لعمر الزعنّي. ويؤكّد أن هذه (السوسة) قد وصلت إلى ابنه الكبير رغم أنه لم يتجاوز العاشرة من عمره بعد، فهو حالم إلى أبعد الحدود، يغلق عليه باب غرفته ويمضي الساعات في الرسم أو الإصغاء للموسيقى الغربية وأغاني مادونا ومايكل جاكسون وخوليو إيغلسياس وديمس روسس وغيرهم. وكان تعليق غسّان على ما يتفوّه به:

- و هل تستغرب مادام مثلنا العربي يقول من شابه أباه ما ظلم؟

ثمّ مدّ غيّاث يده بسرعة إلى جيبه وكأنّه تذكّر شيئًا مهمًّا فاته أن يحدّثه عنه واستخرج منه رسالة، قدمها لصاحبه وهو يقول:

- هذه رسالة، هي باللغة البرتغالية، ولكن اقرأ اسم المرسل وعنوانه.

وتناولها منه وعرف أنّها من جورجي أمادو. وعلّق غيّاث:

- مكتوبة باللّغة البرتغاليّة التي لا تعرف بالتأكيد شيئًا منها، واللّغة عندكم في قريتكم "أبو هاون" اسكندنافية؟ أليس كذلك؟
- يكفي أبو هاون فخرا أنّها أنجبت أحد أهمّ شعراء العراق غسّان العامري، شاعر له شأن! أَفَهِمْتِ؟

ويضحك غيّاث ويتابع:

- لقد أرسلت له نسخة من ترجمتي العربيّة لروايته "تريزا باتيستا تعبة من الحرب" وهو يبدي اعتزازه بهذا العمل ويسألني إن كانت قد وجدت صدى من لدن القرّاء. وكنت قد أخبرته أنّ الرّقيب هنا ارتأى أن تظهر الرواية تحت عنوان "تريزا باتيستا" فقط مع شطب بقية العنوان "تعبة من الحرب"، لأنّ الناس هنا يعيشون حربًا وقد تعبوا منها فعلاً وقد لا تفهم المسألة، ولكن أمادو استغرب من هذا وقال في رسالته: لقد كانت الحرب التي تعبت منها حربها هي، حرب تريزا ضد كل ما يواجهها، ولا علاقة لها بالحرب بين العراق وإيران.

ثم أعاد الرسالة إلى المظروف ووضعه في جيبه، وعلّق غسّان:

- هذا خبر يستحق النشر وعليك أن تخصّ به أخاك معن الماجد ليعزز به صفحته الثقافيّة، هل هناك شيء آخر فيها غير هذا؟

- نعم، إنّه يخبرني بأنّه سمع بظهور تراجم عديدة لرواياته منذ الخمسينات ولكن لم يصله شيء منها، وهو يعتب على المترجمين ودور النشر.

وهبّ غيّاث فجأة قاطعًا هذا الحديث وهو يعلن:

- شو بدّنا نعمل هون؟ خلّينا نمشي.

وهكذا ارتميا في سيّارته اليابانيّة فانطلقت بهما، وتوجّها خارجين من منطقة المنصور، ثم سلكا شارع الزيتون ومرّا بمحاذاة نصب الجندي المجهول الذي كان غسّان معجبا به ويرى أنّه ذروة عبقريّة النحّات خالد الرحال، ثم استدارا متوجهين نحو الجسر المعلّق.. بعد ذلك باتجاه فندق بابل.

وفي حالات كهذه لا يسأل غسّان عن الوجهة، كان يترك كل شيء لغيّاث، وهو الذي يقرّر.

هنا نطق غيّاث:

- ما رأيك بكأس ويسكي في فندق بابل؟

وردّ غسّان:

- فكرة.

كان يقود السيّارة بعصبيّة وكأنّه يتشاجر معها، ولكنّه كان منتبها إلى أبعد الحدود.

هو يقود بانفعال وغسّان مستسلم لهدوئه وتآكله، يجلس مفكّرا ومنتظرًا "غودو" الذي ينتظره غيّاث الإبراهيمي ما إن يراه الجميع حتى يقطعه بأسنانه. وآنذاك فقط سيشفى ويبرأ من مشهد الموت المعتوه الذي يطارده، مشهد موت والده وخاله برصاص ذئاب شرهة أجيرة ليست من البشر بشيء، نفّذوا جريمتم وهم ملثّمون تحت جناح ليلة لا قمر فيها.

مرّة صرخ غيّاث:

- لم أؤمن يومًا بالثّأر، ولكن ما حصل لا بدّ له من عقاب أكبر منه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نظر عدنان العزيري إلى صورة غسّان العامري المعلّقة على الجدار، و لم يكن غسّان قد انتبه له إذ تركه يقلّب صفحات الجريدة التي حملها معه، وأطال النظر إليها بتأمّل ثم نطق:

- صورة جميلة.

وفهم غسّان مقصده وعلّق:

- أعِدْتَ إليها؟ دعها وشأنها، اعتبرها غير موجودة.
- مادامت أمام وجهي فلا بدّ من عودات وليس عودة واحدة، ولكن قل لي كم كان عمرك فيها؟
- حوالي الثلاثين.

ثم نهض واقترب منها وهو يخوص عينيه قليلا ليقرأ اسم من صوّرها فلم يفلح، وعاد يسأل:

- ما اسم المصوّر؟
- هل أصابك العمى؟ حروف اسمه واضحة زكريان، أرأيته؟
- لا يهمّ فأسماء الأرمن غالبًا ما تنتهي بهذه اليان، كولبنكيان أو مستر خمسة بالمائة الذي نهب العراق. أو خاتشادوريان الموسيقار العظيم أو كاكافيان والد أرداش ذكره الله بالخير صديقي الرسّام المقيم في باريس، وإن شئت أيضا ومن أجل أن تتّهمني بالبذاءة وقلة الذوق فلنقل خصْيان وهي على الوزن نفسه.

ويضحك غسّان من قلبه، يطلق واحدة من الضحكات الخليّة التي لا يفلح إلاّ عدنان في انتزاعها من مكمنها هناك في أعماقه.

ثم يقول:

- الأرمن شعب عظيم، وعليك وأنت الأممي الذي لا يحدّك حدّ مادمت تؤمن بتعاليم لينين وروايات غوركي وقصائد مايكوفيسكي ويسينين وأخماتوفا أن تحترم الشعوب.

وهبّ عدنان مقاطعًا:

- لا أممي ولا هم يحزنون، أتريد أن تحبسني!

- هذا وقت متأخّر للجبن، أفهمت؟ لا فائدة من قفز ماضيك، ماذا كنت تفعل في موسكو طيلة عشر سنوات؟
- كنت أنكح النساء، يومها كان صاحبي في أوجّ عنفوانه و لم يكن راقدًا خاملاً كما هي حاله الآن، ولا يتحرّك من مكانه لأداء مهمّاته الأساسيّة إلاّ في المناسبات الوطنية!

ويضحك غسّان ويتساءل:

- معنى هذا أنّه مرهق من العمل إذ ليس هناك بلد في العالم لديه مناسبات وطنيّة مثل التي توجد في بلدنا، كل حركة، زيارة، ضحكة تتحوّل إلى مناسبة وطنيّة أيضًا يجبر الناس على الاحتفال بها؟

وسكت عدنان برهة بعدها تابع تأمّل الصورة، ونطق بشيء من الاستخفاف:

- مليئة بالرتوش.

وأردف:

- حاول المصوّر أن يصلح وجهك فصقله ونعّمه، أنا لا أحبّ هذا النوع من الصور بل أحبّ الصور الطبيعيّة الخالية من الرتوش أما هذه الصورة أعتبرها مثل الغشّ.

بعد ذلك عاد وجلس على الأريكة ليقلب الجريدة من جديد ثم انتبه إلى أنّ صاحبه يرتدي بنطلونا قصيرًا، فأطلق ضحكة ساخرة ثم قال:

- هل تتشبّه بهمنغواي؟
- و هل همنغواي وحده يرتدي البنطلون القصير؟ الدنيا تغلي من الحرّ فلماذا لا أريح ساقيّ؟
- أنت خوش.

ثم دخل غسّان مطبخه الصغير ليهيئ القهوة وجاءه صوت عدنان المحمّل بالذكريات الموسكويّة.

- هل حدّثتك عن تلك الأرمنيّة التي عرفتها في موسكو؟

وردّ غسّان من الداخل:

- ربّما.
- لقد عرفتها في السنة الثانية من إقامتي بموسكو، كانت تدرس الموسيقى وكانت ذات جمال شرقي على غربي، لا أدري ماذا أسمّيه، كانت معلّمتي في كيفيّة تحويل العلاقة الجسدية إلى شيء له عطر الصلاة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- و ماذا كانت خبرتك النسائية عندما ذهبت إلى موسكو؟
- صفر، أقسم بالله، مرّة واحدة ذهبت مع ابن خالتي إلى دار للبغاء في البصرة هذا كل شيء. لكن هناك تلقّيت الدروس على الأصول.

وأضاف:

- و برعت. صرت فارسا، يالها من رحلة بدأت من الاستمناء إلى معاشرة امرأة لها زهو الأشجار الحبلى بالثمار. كانت غابة، والله يا غسّان، بعضهنّ عشن معـــي مثل زوجين، ثم عدت، ما الذي جاء بـــي؟ أيّ حظ تعيس؟

وسيطرت لهجة الأسف الجريح على صوته وهو يواصل القول:

- تلك الأرمنية الهائلة كانت في سنتها الدراسية الأخيرة عندما عرفتها، عشنا معًـــا قرابة العام ثم غادرت إلى العاصمة الأرمنيّة يريفان لتقيم مـــع أســـرها في قريـــة فلاحيّة قريبة منها، كتبت لي مرّة أنّها أصبحت مدرّسة للموسيقى في مدرســـة القرية، وقد دعتني لزيارها إن وجدت الوقت، ولكن هذا الوقت ســـرعان مـــا استحوذت عليه أخرى، هذه المرّة كازاخيّة، ولهـــؤلاء الكازاخيّـــات طعمهـــنّ المختلف، يا عيني عليهنّ!

وقال غسّان:

- لو كنت مكانك لذهبت وراء تلك الأرمنيّة، هي دعوة وكان عليك أن تلبّيها.
- كان صاحبـــي في ذلك الوقت عملة صعبة، ين ياباني، مارك ألماني أو حتى دولا ر أمريكي.

وجاء غسّان بالقهوة ووضعها أمامه:

- مُرّة كما تريد.

وتقدّم غسّان وقبّله على جبينه، وهو يقول:

- أنت تمتلك أروع شيء يا عدنان يا عزيزي، هو الرغبـــة في الحيـــاة، وتنفيـــذ مشاريعك الكتابيّة.

وبدأ بارتشاف قهوته والشيء نفسه فعله غسّان الذي جلس قبالته في بداية هذا النهار حيث وجد عدنان في نفسه القدرة على تسلّق سلالم العمارة ليصل إلى شقة صاحبه مادام قد غادر البيت مبكّرا بعد شجار مع زوجته، ثم واصل الحديث بحنين وحسرة:

- كانت تزورني في غرفتي بمبنى القسم الداخلي التابع لمعهد غوركي.
- أعرفه وقد زرت فيه صديقنا برهان الخطيب الذي كان الروس يسمّونه برخان.

- والشاعر حسب الشيخ جعفر الذي كانوا يسمّونه خسب، ولكنّهـــا جميلـــة في أفواههم تلك الخاء رغم أنّها تحيل في لغتنا إلى أقذر الأشياء.

وصفن مستردًّا أنفاسه ومرتشفا آخر ما تبقى من قهوة في فنجانه.

- كنّا نحن الطلبة الأجانب نعامل معاملة مميّزة، ويُعطى كلّ واحد منّا غرفة مستقلّة علمًا أنّ الداخلي مختلط فقد تكون جارتك فتاة جاءت من طشقند أو الهند أو الكونغـــو، وأنت وهمّتك في التقريب بين الشعوب المناضلة ضدّ الإمبريالية الأمريكيّـــة وأنظمـــة القمع في العالم الثالث الذي نحن منه، وهو في الحقيقة عالم عاشر إن تحرّينا الدقّة.

وصاح غسّان:

- ألا تكفّ عن هذا الحديث؟ ألا تعرف بأنّه يهيّجني ويوقد نيراني وليست لي امرأة في هذه المدينة، فحرام عليك أن تلجئني لجلد عميرة بعد هذا العمر؟

وتمتم:

- صحيح، صحيح، فاتني هذا.
- إنّك تستمني الماضي؟

ورفع رأسه باحتجاج متسائلاً:

- أتذكر ذلك الإعلان الذي كانت تنشره مجلّة الكلمة عن مجمـــوعتي القصصـــية الأولى؟ كان نصّه: (عائد من موسكو يحمل هموم جيله)
- و هل صدقته؟
- بالتأكيد، لأنّه تشخيص دقيق لحالتي، أنا حامل همومكم يا أوغاد.
- التشخيص الدقيق أن تقول المجلّة (ذهب إلى موسكو وعلى كتفه أيره وعاد منها وأيره يختفي بين ساقيه مثل ذيل كلب خائف).
- لقد عدت لأواجه هموم جيلي، بل قل مصائب جيلي، ولكن مالذي جاء بـــي؟

ثم قال بعد أن استعاد هدوءه:

- رغم أن الطبيب منعني من الإكثار من شرب القهوة إلاّ أنّني بحاجـــة إلى فنجـــان جديد، فهوتك مختلفة.
- لقد علّمني ذلك اللبنانيّون، هم أصحاب مزاج في شرب القهوة، بعد يوم من سكناك في بيت تسمع صرخة جارك وهو يناديك: جار، ثم يدلف عليك وبيده ركوة قهوة. بالنسبة لي قهوة الصباح طقس أهيأ له، وبدونها لن أبدأ نهاري بمزاج طيّب.

ثم دخل المطبخ الصغير ليهيئ قهوتهما. ولحق به صوت عدنان:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- في الصورة لك سالفان طويلان أشبه بسالفي نادل في أحد بــارات العاصــمة، وليس بسالفي شاعر مزعوم.
- هل أصبحت هذه الصورة هاجسك؟
- مادامت أمامي.

وأحسّ عدنان وكأنّ دقّة من قلبه قد خرجت على الإيقاع نهض وفتح الثلاجة وصبّ لنفسه كأس ماء.

- قل لي وأنا آتيك به. لماذا تتعب نفسك؟
- حان موعد ابتلاع حبّة دواء لتسعف هذا القلب اللّعين حتى لا يخذلني ويتوقّف، أريد أن أعيش لأكتب قصصًا أخرى وأرى ابنتي وقد تخرّجــت مــن الجامعــة وتزوّجت بشابّ مناسب.

وبعد أن ابتلع الحبّة عاد إلى مكانه وعندما حضر غسّان سأله:

- صعدت إلى هنا مبكّرا، أردت أن أفاجئك، فلعلّ واحدة تسلّلت خفية إلى قــن الدجاج هذا فأمضيت معها ليلتك.
- و هل تعتقد ذلك؟ أنت إذن حسن الظنّ بــي جيّدًا، ثم إنّ هذه الشقّة ليســت قنّ دجاج كما تقول أو بيت ضبع كما يقول غيّاث الإبراهيمي، بل هي مشروع متحف، أتفهم؟ ستوضع ببابها ذات يوم قطعة تقول للفترة من... إلى... أقام هنا الشاعر الكبير غسّان العامري ألا يفعلون ذلك في موسكو؟
- سأكون أوّل من يطالب بهذا.
- الآن لن يسمعك أحد. كل الحقائق غائبة أو مغيّبة، والحرب هي الحقيقة الوحيدة التي لن نستطيع الابتعاد عن حرائقها.
- هل أعدتني لهذا الحديث؟ أريد أن أنسى، آتي إليك لننشغل بحديث آخر.
- و لكنّ الحرب في الشوارع، في المسلّحين الذين يداهمون عليك بيتك ليبعثوا بك إلى جبهتها. في الخوف، في الممنوع، في الملابس العســكريّة، في الأناشــيد، في غضب السماء، في الصواريخ التي تسقط على المدن. ومن حسن حظّي أنّ هــذه الشقّة أو العمارة كلّها بعيدة عن الأعين، إذ أنّ الانطباع عنها بأنّها محلّ ســكنى المصريين ولا أحد يصدّق أو يتصوّر أنّ الشاعر غسّان العامري يقيم فيها. لــذا أخرج وأعود كالمتسلّل لأتذكّر دائمًا بأنّني قد يئست من هذا البلد، أتواجد فيــه كالزائر الذي لا بدّ أن تنتهي زيارته ويغادر.

وتساءل عدنان وهو يغمض عينيه مستسلمًا لمفعول حبّة الدواء المهدّئ:

- و إذا لم تستطع ذلك؟

وأجاب غسّان على الفور:

- سأنتحر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- 7 -

يذكر غسّان العامري أنّه لم يخرج من بيت الزوجيّة إلاّ ببعض ثيابه وجميع ما حـوت مكتبته من كتب، لأنّه لم يلمس لدى ابنتيه أيّة رغبة في دخول المكتبة والإطـلاع علـى الكتب التي تحتويها.

لذا خاف على هذه الكتب من أن تُباع يومًا في شارع المتنبّي بأرخص الأثمان، وهـو مصير لم يرتضه لها وقد جمعها كتابًا كتابًا، وأكثر من ربعها مهدى لـه وعليهـا تواقيـع مؤلفيها.

حملها معه إلى الشقّة وعداها لم تكن له رغبة في شيء ممّا حواه البيت.

لقد أحسّ بكُرهٍ غريب تجاه كلّ أثاث بيته، لقد كره حتى التحف الصغيرة النادرة التي كان يحملها من أسفاره، لذا أبقاها فوق رفوفها والغبار يجثم عليها، كما ترك اللّوحـات التي أهداها له أصدقاؤه من فنّاني البلد المرموقين، محمد مهر الدّين، سعدي الكعبـي، نزار الهنداوي، عزام البزاز، خضير الشكرجي وأسماء أخرى.

عندما وجد بيته مغلقًا عليه، وليس بينه وبين زوجته رابط إلاّ ابنتاه قـرّر أن يعـيش حياته مع المحافظة على هذا الكيان الذي أسّسه من أجل أن يمضي كل شيء بهدوء حـتى تبقى ابنتاه في كنفه.

ولكن زوجته بالغت وعملت على تصعيد كل شيء، فحكمت على ارتباطهـا بـه بالإعدام.

كانت ردّة فعلها انتقامًا وخاصّة بعد أن عرفت معنى حنان عوّاد في حياته.

حنان عوّاد التي التقاها بغير موعد، كان مع نصري الأسمر الذي يعرفها قبلـه، وقـد قدّمها له بثناء، وذهبوا معًا لزيارة معرض للنحت في محترف نحّات معروف أقيم رغم كـل الخراب الأمني الذي كانت تعيشه بيروت.

ومن الصدف أنّه لم يكن هناك في حفل الافتتاح غير نصري الأسمر وحنـان عـوّاد وغسّان العامري. ثلاثة فقط، فرح بهم النحّات وأخرج كل محتويات ثلاّجته وجاء بنبيـذ كثير، فسكروا وغنّوا وتألّقوا رغم أنّ القذائف كانت تتساقط حول المكان.

ولا يدري غسّان يومها كيف وصل إلى بيته في "مار تقلا" بعد أن أوصل كلاًّ مـن حنان ونصري إلى بيتيهما.

لكنّه عاد وقد ولد في داخله شيء جميل، شيء تمناه وأراده، وهاهو يأتيه مجسّدا في كيان امرأة عذبة كشربة ماء في صيف عراقي.

وما أن علمت امرأته بحنان عوّاد حتّى بدأت حربها ضدّها، وهي حربها ضدّ نفسها أيضًا.

مازال غسّان يتذكّر ما قالته له مرّة أثناء مناقراتهما المتواصلة:

- أريد زوجًا مثل أبي، تناديه أمي وتضع بيده قائمة طلباتها وما عليه إلاّ أن يذهب للسوق ليشتريها، ولا تقبل منه أيّ اعتذار، وهذا ما سأفعله بك، أمّا قصائدك فسأجعلك تكف عن كتابتها وتلعن اليوم الذي كتبت فيه أوّل قصيدة مادام الشعر يقدّمك لنساء أخريات يصدّقن كذبك الملفق مثل المسكينة حنان عوّاد والأخريات.

واسترجع صورة والدها الذي يعاني من مرض السكر وشيء من فقدان الذاكرة وعدم التركيز نظرا لكبر سنّه، وكيف كانت أمّها ترسله مرارًا إلى السوق ليشتري لها ما تحتاجه، وكان غالبا ما ينسى نفسه ويخرج ببيجامة النوم وخاصّة عندما تنتزعه من قرآنه وصلواته وترسله إلى السوق لأتفه الأسباب.

وتمتم في سرّه:

- أيّ مصير قميئ لي هذه المرأة؟

ثم تصاعدت الأمور أكثر عندما كسرت حقيبة السمسونايت التي كانت تضم مذكراته ويوميّاته التي اعتاد على تدوينها حتى قبل إقترانه بها، مذكرات فيها كل إيقاع صوته الداخلي، فيها هو بكل صدقه الذي لم يُضعه التمويه أمام عسف الخوف، فيها آراؤه، بكلّ ما يجري في بلده، وفيها وجوه نساء عرفهنّ، هنا وهناك فكنّ نسغ قصائده.

قال لها:

- فعلتك هذه ضيّعت كل شيء، ضيّعت الأسرة التي حرصت على أن تبقى، ضيّعت ابنتينا.

- الحمد لله أنّني اهتديت إلى فكرة كسر الحقيبة، وقد صوّرت كل الأوراق التي فيها، وبعضها أرسلته إلى المسؤولين وإلى وزيرك مباشرة، أريد أن أفضحك.

***

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان الرعب يعمّ العاصمة كلّها، وكانت المداهمات تتمّ في وضح النهار. والصواريخ الإيرانيّة بدأت بالنزول على العاصمة ردًّا على الصواريخ العراقيّة التي كانوا يقصفون بها طهران وقم ومدن إيرانيّة أخرى، أحدثت إرباكًا في إيقاع الحياة. لقد تصاعدت الحرب بشكل أصبحت عبثًا لا طائل منه.

قال له أبو ريتا:

- قبل أن تأتي دخلوا إلى الكافتريا واقتادوا شابًا مهذّبا من زبائني، أظنّك رأيته، ذاك مكانه. لقد بدأوا بضربه، لكمات على الفكّ ورفسات على القفا والبطن حتى انطرح فاقد الوعي، ثم حملوه في سيّارة عسكريّة ومضوا به، وعندما سألت عن سبب كل هذا قيل لي إنه لم يؤدِّ الخدمة في الجيش الشعبي، وإنّه كان يتهرّب كلّما حلّ موعد تجنيد وجبة جديدة.

ثم تساءل أبو ريتا بشيء من الهمس:

- و لكن يا أستاذ غسّان بأيّ روح سيقاتل هذا الفتى المُهان الإيرانيّين؟ إنّي واثق بأنه سيفرّ في أول فرصة إن لم أقل سيسلم نفسه لهم. لماذا يحصل كل هذا وبهذا الشكل؟

وحار غسّان بماذا يردّ لأنّه مازال يعيش غصّة اعتقال صديق طفولته عبّاس السيّد. وهو اعتقال دفع بعشرات الأسئلة نحو المجهول.

لقد أصبح هذا الاعتقال حديث الناس وليس حديث الأدباء فقط، إذ أنّ الرجل له مكانته المهمة في بلده.

والأنكى من كل هذا أنّه أحد مثقّفي اليسار الذين اقتنعوا بالمشروع السياسي الذي طرحه الحزب الحاكم، وأخذ يكتب وينظّر لأفكاره، وأصدر عدة كتب في هذا المجال ما بين بيروت وبغداد كان المكتب الثقافي للحزب يتولّى نشرها. وقد غادر عمله كمعلم في ناحية النصر، وجاء إلى بغداد مع أسرته وارتضى لبس البنطلون الذي كان يفضّل عليه الدشداشة رغم ما سبّبه له هذا من ضيق.

وهنا اندمج في الإعلام الرسميّ، وصار يكتب مقالات منتظمة في جريدة الحزب الحاكم، بعد أن منح درجة مدير عام في المنظّمات الشعبيّة.

وكان غسّان كلّما التقاه ليندسًا في أحد مقاهي بغداد يؤاخذه على اندفاعه هذا. وكان ردّه عليه:

- أرجوك يا غسّان! صحيح أنّنا أصدقاء طفولة وأنّك تستطيع أن تقول لي ما لم يقله أحد آخر، إلاّ أنّ عليك أن تعرف أن هذه قناعاتي الأكيدة وأنا آخر، من يفكّر في المكاسب الطارئة.

لكنّ الحرب كانت مثار حيرة ساخنة، لكثير من الأدباء والكتّاب. ولم تفلح هيجانات الإعلام الرسمي من إقناع الكثيرين بجدواها وبمبرّرات قيامها أصلا، إنّها الحرب المحرّمة التي يجب أن لا تكون تحت أيّ ذريعة. هذه هي قناعة الكثيرين.

في حمأة هذه الحرب واختلاطاتها جرى اقتراف كل المحرّمات، وانطلق كلّ الخبث الكامن والأحقاد المتوارثة وجشع الطبقة الصاعدة التي تمثّل قطاع طرق سابقين ولصوص وأشباه أميّين وبائعي ضمائرهم. فأصبح الأخ يقتل أخاه والمرأة تنحر زوجها والحزبي يطأ الحزبي في عمليّات مزايدة على كل شيء، على الوطن، على التاريخ، على الناس!

في هذا الحريق كان عبّاس السيّد يكتب ويكتب وكان ذكاؤه الحادُّ يرميه في نوبات متناقضة، من الماركسيّة إلى التصوّف، من القوميّة والحزبيّة إلى الدين، ولكنّه كان متجانسًا مع نفسه في كل هذا، إنّه الماركسيّ المتصوّف الحزبي المدافع عن النظام.

وكتب فيما كتب قراءة في فكر وحياة الإمام علي بن أبي طالب، وقدّمه للرقابة لغرض إجازته، لكن الرقابة ردّته بتقرير يقطع العنق. فما كان منه إلاّ أن بعث به إلى ناشر معروف بلبنان حيث قام بنشره بسرعة، وعندما وصلت النسخ الأولى منه إلى بغداد تمّ اعتقاله.

كان السؤال حول حقيقة أسباب الاعتقال يدور بدون جواب، ولم يجرؤ أحد على أن يرفع صوته حول ما حصل، وكبت غسّان العامري ألمه على صديق طفولته، ذلك الذي مازال يذكر منه رغبته في الجدال حيث تبرق عيناه بذكاء غريب، وسرعان ما كسبه الشيوعيّون إلى جانبهم فعرف الاعتقال وهو دون العشرين من عمره.

غسّان العامري وإن اختلف معه في أمور كثيرة إلاّ أنهما بقيا صديقين يدفعهما الحنين إلى أن يلتقيا، مع أصدقاء آخرين أو منفردين، وغالبًا في بار اعتاد عبّاس أن يرتاده كل ليلة تقريبا ليأتي على زجاجة عرق كاملة ثم يعود إلى بيته متمتّعًا بصحو ذهني عجيب للكتابة بشكل خاصّ.

يكتب قصصًا قصيرة، أو يواصل مشروع رواية، وكان غسّان يرى أنّه أكثر صميميّة في الأدب، وإن قال غير هذا وانشغل بالكتابات السياسيّة التي كان تعليق غسّان عليها أنّها عابرة وظرفيّة مهما كانت قيمتها، ومرّة قال له:

- اسمع يا عبّاس، في الأدب تستطيع أن تكون كبيرًا وكتاباتك المنشورة تدلّ على هذا، لقد قرأت روايتك "أشجان نضاليّة" عن تجربتك في الحزب الشيوعي، وقد أعجبتني لدرجة أنّني كتبت عنها مقالاً يثمّنها، ولكنّك لن تستطيع أن تكون

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كاتبًا سياسيًّا، لأنّك تعيش في العراق حيث لا يملك الكاتب أي منفذ للاجتهاد. كل ما يكتبه بتوجيه، حتى الخبر العادي في الصحف يظهر متشابهًا فيها كلها وكما حرّرته وكالة الأنباء العراقيّة، محمّد حسنين هيكل مثلاً كبر اسمه لأنّه مصري وللصحافة هناك تقاليدها ومساحتها، أمّا هنا فلا، سيظل الحجم المسموح به، وهو ما يحاولونه مع الأدباء ولكنّهم لم يفلحوا.

ولم يكن عباس يصغي لحديث كهذا. ولو أنّه فعل لما وقع بهذا الشكل مخلّفًا صليلاً ممضًّا في قلوب نفر من أصدقائه وبينهم غسّان العامري.

- 8 -

بعد أن فرغت أمّ فوزي من كنس الرصيف نادت على الحمائم وفتحت صرّتها وأخرجت منها بقايا الرزّ والخبز المنقوع بالماء، وأحطن بها ملتهمات ما تقدّمه لهنّ، يرفعن أجنحتهنّ أو يهفهفن بها وأحيانًا تنقر واحدة أخرى تزاحمها.

وكانت أمّ فوزي تضحك تارة أو تسبّهنّ تارة أخرى.

وكان غسّان العامري يتأمّل أم فوزي المنسجمة مع هذه المجموعة من الحمائم المتوحّشة التي استطاعت أن تدجّنها بهذا الشكل وتجعلها أليفة معها وحدها.

أمّا في الشارع فهناك حركة كثيفة، سيّارات، مارّة، وكان الزحام يغمر المكان كلّه، محلاّت بيع الأحذية، مطاعم الهمبرغر والشاورمة والكباب بالساطور وخبز التنور، محلاّت بيع المثلّجات، كانت الحياة تمضي وليس بمقدور أحد أن يكبحها. وكان معظم الرجال يرتدون الملابس العسكريّة وهذا يعني أنهم قادمون من جبهة الحرب في إجازة. ولا أحد فيهم يأمل بأن تكون له إجازة أخرى، مادامت النيران تحصد كل من يقف في مواجهتها، حرب لن يعود منها المرء سالما إلاّ بمعجزة، ومادامت المعجزات قد قلّت فإنّ الموت تكاثر وامتدّ.

مرّة أنصت غسّان إلى حديث رواه له بعض المجنّدين الشبّان عن كتائب الإعدام، وكانت هذه المرّة الأولى التي يتردّد فيها أمامه هذا الاسم المقرف، وعرف أنّ هذه الكتائب تضمّ جنودًا وضبّاطا لهم مهارتهم في التسديد والقتل، أمّا مهمتها فهي السير خلف الجنود والضبّاط الذين يكلفون بالهجوم، وكان معظم هؤلاء من أبناء الجنوب الذين جنّدوا بلا حساب، فإنّ تردّد أحد منهم أو تراجع فإنّ رصاص كتائب الإعدام سيرديه قتيلا في اللحظة وبلا رحمة ويترك جثمانه مرميًا في العراء حيث يعتبر جبانا، ولذا يفضّل الكثيرون أن يقتلوا برصاص الإيرانيين على أن يقتلوا برصاص أبناء وطنهم.

إنّها حرب تخوضها رغما عنك، فإن لم يقتلك من تقاتله قتلتك رصاصة جبانة خائفة من محترف قتل يتربص بك وهو يسير وراءك.

ممنوع عليك أن تكون إنسانا، تخاف، تتردّد، تتراجع، ثم تنشحن من جديد وتتقدّم، أنت مثل آلة ما عليك إلاّ أن تتقدّم، أمّا الأحاسيس الإنسانية مهما كانت فلا مكان لها.

أيّ فناء وضيع، رخيص هذا؟ أيّة سماء؟ أيّ غضب؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ويتساءل غسّان العامري: أيّ شعر من الممكن أن يكتب بعد؟ آيّة قصيدة تستوعب كل هذا الموت؟

يبرم شفتيه ويقول: طزّ في الشعر. ثم يصحو قليلا وينفض رأسه ويردّد في سرّه: ولكنّنا سنقاضي كتائب الإعدام هذه بالشعر، نعم، سنكتب شعرًا يكشف الجريمة.

* * *

انطلقت صفّارات الإنذار فجأة فأطفأت الأضواء، وهرع الناس للإختباء إذ أن هذا دليل على أنّ قصفًا صاروخيّا إيرانيّا سيشمل بغداد.

خرست المدينة وتوقفّت السيّارات، أمّا غسّان فقد بقي في مكانه، لم يتحرك منه، كان أمام حالات كهذه قدريّا إلى أبعد الحدود، كما أنّ الموت يصبح بالنسبة له مثل نكتة. لقد عاش لحظات أكثر صعوبة أثناء عمله في لبنان عندما كانت الحرب الأهليّة على أشدّها. وقد انغمس بين الناس و لم يتخبأ من صواريخ "غراد" الروسيّة ولا القذائف الطائشة التي ترمى لمجرّد الرمي، ولأنّ المتحاربين لا بدّ وأن يفرغوا إحتقان أعصابهم وتوتّرها الذي يسبّبه الإنتظار الطويل، لساعات، أو لأيّام قبل أن يتلقّوا أوامر بالرمي.

ثم سمع غسّان دويّ هبوط صاروخ، تبعه ثان بعد أقل من دقيقة ثم انطلقت صفّارة تعلن أنّ القصف قد انتهى لكنّ الصاروخين لا بدّ أن يكونا قد فعلا فعلهما لذا هرعت سيّارات الإسعاف والحريق والشرطة، كما تردّد صراخ نسائي مكلوم.

حضر أبو ريتا وبعد أن حيّى غسّان قال:

- يقولون إنّ الصاروخين استهدفا مصفى الدورة، ولكنّهما وقعا في محيطه وفوق بعض البيوت المجاورة.

كان القصف الصاروخي الإيرانيّ يستهدف أماكن معيّنة من بغداد، القصر الجمهوري، وزارة الدفاع، مصفى الدورة، ولو أنّ صاروخا أصاب المصفى لكان الأمر كارثة كبيرة.

علق غسّان:

- ما دمنا نقصف مدهم، ونستهدف عاصمتهم فإهم سيردّون بالمثل.

وردّ أبو ريتا:

- قبل هذا لم تكن لديهم صواريخ من هذا النوع، فمن أين أتوا بها؟

ثم سكت وكأنّه يستردّ أنفاسه، بعد ذلك نطق وكأنّه تذكّر شيئا هامّا كاد ينساه لإنشغاله بحديث القصف:

- لديّ لك رسالة غالية من لبنان.

وبرقت عيناه بالشوق، ونسي كل الحريق الذي هو فيه وهتف من قرارته:

- ممّن؟

وردّ أبو ريتا:

- من غيرها؟ حنان عوّاد طبعا.

ثم دخل وفتح دِرجه واستخرجها وجاءه بها:

- تفضّل، سأتركك معها.

وعرف خطّها وهو يرسم حروف اسمه على المظروف.إلى السيّد غسّان العامري - بواسطة أبو ريتا - كافتريا المنصور، ثم رقم هاتف الكافتريا.

حنان عوّاد بكلّ ألقها وضوعها، تلك الفتاة التي عرفها في أمسية حزيرانيّة قبل أربع سنوات حيث ابتدأ عهد اليأس وغاب حلم أمنية بفرح سيجيء وسط اختلاط مميت، تعيشه هناك في بلدها وكان يشاركها فيه، ثم هاهو يعيش الموت نفسه في بلده بعد أن عاد إليه، وتركها هناك.

أيّامه معها، كانت كالحلم الذي تمرّد على كل ايقاع التقاتل والاحتراب والخوف، حلم سكنهما معا فملأ حياتهما وجعل لها معنى مختلفا.

مازال كل شيءٍ ماثلاً، وحيّا، وقائمًا، كأنّه في خضمّه ولم يغادره.

كان بشوق لفتح الرسالة ليعرف ما فيها، ولكنّه تمهّل في هذا، لا بدّ من طقس خاصّ يواجه به كلماتها.

وضع الرسالة في حقيبته اليدويّة وانشغل بتدليك التنمّل في ساقه اليسرى، يحصل له هذا كلّما كفّ عن ممارسة الرياضة، وهي حالات تأتيه فيشعر بالرغبة في أن يظل ممدّدا، لا يفعل شيئا غير البحث في راديو "سوني" الصغير عن محطات بعيدة، تقدّم أغاني، برامج، أحاديث، تحاليل سياسيّة عن هذه الحرب التي لا تريد أن تنتهي. كان أبو ريتا أمامه بحلّته البيضاء يكلّم أحدهم في الهاتف، وبعد أن أغلقه تقدّم نحو غسّان وهو يقول:

- سبعة قتلى، كلّهم من عائلة واحدة سقط الصاروخ فوق بيتها، أمّا الثاني فوقع في بستان نخيل وخلّف حرائق فقط، هذه حصيلة القصف!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وبينما كانا يتحدّثان إذا بعدنان العزيري يدخل بشكل مفاجئ، إذ لم يعتد مغادرة بيته ليلا إلاّ في مناسبات قليلة.

وبعد أن سلّم عليهما، علما أنّه هو الآخر على معرفة بعدد الضحايا، وقال إنه سمع ذلك في بيان من راديو سيّارته عندما كان متوجّها نحو الكافتريا.

زفر بحرقة كبيرة وهو يجلس، فتح العلبة الصغيرة التي ترافقه في جيبه واستخرج منها حبّة دواء بيضاء ومستطيلة، ثم وضعها في فمه ودفعها إلى جوفه بجرعة ماء من كأس غسّان المتروكة أمامه.

قال:

- شعرت بالاختناق وقاومت رغبة غامضة في القيام بأيّ عمل، كأن أصرخ مثلا، ولكن حتى صوتي غاب، فقدته، أصبحت ألهث وأستردّ أنفاسي مرارا قبل أن أكمل جملة واحدة.

وربت غسّان بأصبعه على وجه الطاولة وكأنّه عازف يجلس أمام البيانو ليقدّم للآذان أكثر الألحان كآبة.

قدم النادل وسأل عدنان العزيري ماذا يرغب؟

- لا شيء.

وردّ النادل:

- الخواجة أبو ريتا يزعل.

وهنا قال:

- بيرة إذن؟

- حاضر.

ثم التفت إلى غسّان، وصفن قليلا وقال:

- ارتديت ملا بسي وخرجت، زوجتي ظلّت تصرخ ورائي بأنّ الإيرانيين لن يتوقّفوا عن القصف وعليّ أ ن ابقى في البيت مع أولادي، و لم أنصت إلى ما فاهت به. كلّ ما قلته لها ليت أحد الصواريخ ينزل على رأسي.

وشرب ما تبقّى في الكأس من ماء وتابع:

- بي رغبة قويّة في أن أنتهي من كلّ ما أنا فيه، الحرب، المرض، الأسرة، الأدب، لست يائسا ولكن هذا ما أحسّه، لست خائفا من الموت بل أرحّب به.

- أنت تريد الموت وأنا أريد الهجرة، فأي وطن هذا؟ هل هذا العراق حلمنا الجميل السرمدي؟

ورفع صوته إلى أعلى وكاد أن يحوّله إلى عويل:

- ماذا فعلوا بك أيها الوطن!

* * *

كانت معنويات عدنان العزيزي هابطة إلى درجة الصفر، وبذا طلب كأسا ثانية من البيرة فثالثة. وقد ذكّره غسّان بأنّه يقود سيّارته وعليه أن لا يكثر من الشراب فأجاب:

- دعني أسكر وإن لم أقو على قيادة السّيارة ستفعل أنت ذلك وتوصلني إلى بيتي، رغم أنّك لن تسلم من لسان زوجتي التي ترى أنّني مواطن صالح وأنت المسؤول عن إفسادي، فكأنّني كنت أمضي وقتي في موسكو بالصلاة والصوم ولم أرفع ساقي امرأة مرّة واحدة في حياتي قبل ان أرفع ساقيها.

وانطلق غسّان بالضحك الذي لا بدّ منه جوابا على ما يتفوّه به عدنان حتى وهو في ذروة أحزانه.

قال غسّان:

- اسكر، عمّك أبو ريتا لن يقبل أن ندفع، وهذا فقط ما يحرجنا هنا.

وجاءت الكأس الرابعة، فتح غسّان حقيبته وأخرج الرسالة وقال لعدنان:

- رغم الصواريخ وكآبتك المقرفة فإنّ في هذه الرسالة فرحة لي.
- من حنان عوّاد حتما؟
- و من غيرها؟
- غبيّة، قلت لها وجها لوجه وأمامك، عندما كانت هنا في آخر مهرجان للمربد، أنت مغشوشة بغسّان العامري.. ولذا كانت قصائدك تقطر حزنا من أجله، هو تلميذي غير النجيب، ولكنّها ضحكت و لم أستغرب فلو لم تكن سفيهة مثلك لما أحبّتك.

وأطلق غسّان ضحكة مدوّية انتبه لها باستغراب بعض الجالسين. فأخفى رأسه خجلا.

قال:

- يا عدنان يا عزيزي، يا سليل الأمجاد، لا أدري هل أبكي من أجلك! أم أضحك!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- هنا عبقريّتي أيّها الجاهل، وتجد ذلك حتى في قصصي ورواياتي التي حيّرت الدارسين والقرّاء!

وأخذ رشفة من الكأس وقال:

- نسيت أن أخبرك بأنّني كنت أقرأ في كتاب مترجم يرد فيه اسم "العازر"، وقد وضع شرح تحت الصفحة يقول إنّ العازر هذا هو الرجل الذي أعاده المسيح إلى الحياة بعد دفنه بأربعة أيام.

فصرخ غسّان:

- اللّهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد!
- و ما دخل محمّد وآله بهذا، المسيح جاء قبل محمّد... أنسيت؟
- إنّني اصلي فقط من أجل هذه المعجزة.
- هي كذلك فعلا، لأنّ العازر هذا ربما كان الرجل المبارك المدفون في العزير مدينتي الرائعة فسمّيت باسمه.
- أيّ مدينة هذه التي مازال اسمها مثل الأحجية؟
- و هذا سرّ عظمتها، أتريدها أم هاون أو أبو هاون حتى لا تزعل، أيّ اسم مقرف هذا؟ عندما أسمعه كأنّ إصبعا يندس في إستي.

وتكررت قهقهات غسّان التي حاول أن يكبحها فلم يستطع.

بعد برهة صمت تساءل عدنان:

- أين صاحبك اللبناني المتخلّف مثلك غيّاث الابراهيمي؟
- و ماذا تريد منه؟
- أن أهاجمه في عقر داره باعتبار هذه الكافتريا أرضا لبنانيّة لكونها ملكا للبناني.
- و ماذا فعل لك؟
- لم يفعل شيئا، ولكنه أنيق اكثر من اللازم، يتكلّم بحساب ويتحرك بحساب، ولا يتخلّى عن رباط العنق مرّة ولذا تنتابني الرغبة في بهدلته.
- و هل هذه مآخذك عليه؟
- لا، هو يضطهدني مرّات، لا يسمح لفوضويّتي الرائعة بأن تحلق، أحسّ بالقمع عندما أجلس معه، أ لا يكفيني كل هذا القمع المحيط بي، قمع السماء، قمع من تعرف، قمع امرأتي التي أصبحت أناديها هذه الأيام بكارثتي.. ثم ينضاف إلى كل هذا قمع غيّاث الابراهيمي، أيّ ظلم هذا؟

ورشف كل ما تبقّى من ثمالة في الكأس الخامسة، هنا صاح به غسّان:

- الآن كفى، أعطني مفتاح السيارة ولتفعل بـــي زوجتك ما تريد.

أخذ منه المفتاح ثم قاده وهو يترنّح ويصطدم بالموائد التي رصفت متقاربة نظرا لضيق باحة الكافتريا.

وعندما فتح له باب السيّارة وأجلسه هتف:

- غسّان أرجوك إقرأ لي شعرا.

ثم رفع قبضة شعره المنسدلة على جبينه وواصل:

- لست وحدك من أحبّ لبنانيّة أو لبنانيّات، فأنت عاهر حقيقي. أنا أيضا أحببت واحدة جاءت تعمل معي في الجريدة لفترة قصيرة ثم ذهبت، قيل لي إنّها في ألمانيا الآن.

وبعد أن جلس غسّان وراء المقود علّق:

- لماذا لا تلحق بها؟

وهب صارخا بصوته المخمور:

- و أمّة محمّد التي ورائي هنا لمن أتركها؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- 9 -

قال عدنان العزيري:

- كانت تجربة الصيام مهمة لي ولو أنّني لم أكمل الشهر.

وسأله غسّان:

- وما الذي ذكّرك بهذا الآن؟

- مجرّد تعليق على سكرتي الجهنّميّة في الكافتريا.

- لكنّ امرأتك كانت مؤدّبة، معي لم تتفوّه بكلمة رغم أنّها لم تردّ على تحيّتي.

- و لكن بعدما ذهبتَ انفجرت عليّ وعليك حتى كدت أخرج بدشداشتي لأنام في الشارع. ثم جاءتني ابنتي بالعشاء، وخلعت حذائي ومسّدت قدمي وساعدتني على النهوض، ابنتي العظيمة هي ظلّي الرائع، وهي أيضا نقطة ضعفي لأنّها فتاة.

كانا يخطوان ببطء متجهين نحو ساحة أبي جعفر المنصور، وكانت الشمس قد غربت منذ لحظات، لذا كانت بقيّة من نورها تنعكس على رأس أبي جعفر المنصور فيلتمع اللون الذهبي الذي طلي به.

وأعاد عدنان حديث الصيام:

- اعتبرت صيامي لثلاثة أسابيع تقريبا، انتصارًا على أشياء كثيرة ومنها الخمر، وعندما أجريت فحصًا لدمي أخبرني الطبيب أنّه أنقى ممّا كان عليه، وقلت له قد أحسست بهذا، كأنّ الكحول كلّها قد تبخّرت منه وبقايا السكّر والكولسترول. على أيّة حال وضعي الصحّي اعتدته وتآلفت معه، أمّا أنت يا عزيزي فتشكّل بالنسبة لي مشكلتي الأولى، وضعك هكذا لا يعجبني، لا بدّ أن تجد لك منفذا لتخرج، وسأكون أنا من يوصلك إلى المطار وبسيّارتي وأقول لك: رافقتك السلامة، انطلق، أمامك السماوات كلّها.

ويتمتم غسّان:

- أمر مؤلم أن يكون همّي ملخّصًا في رغبتي هذه، رغم أنّني أستطيع أن أفعل الكثير من أجل وطني.

- دعك من المثاليّات! فكل الثقافة قد خربت وتصدّرها وجوه النكرات والمدّاحين الذين يغلق الناس أجهزة التلفزة في بيوتهم كلّما أطلّت وجوههم وهي تلقي قصائد عموديّة فجّة مثل الخوازيق.

وروى غسّان حكاية سمعها محرّر يعمل في جريدة "الثورة"، وهـي حكايـة بـدت كالنادرة الطريفة أكثر ممّا هي حقيقة حصلت فعلاً، وتقول هذه الحكاية إنّ قصيدة عموديّة جنجلوتيّة وصلت للجريدة بالبريد من إحدى القرى القريبة من بغداد، وقد نشرتها الجريدة لأنّها تصبّ في الاتجاه الرسمي المطلوب رغم تفاهتها، وإذا بعين هناك من فوق تنتبـه لهـا وتقرر تكريم صاحبها بسيّارة "فولكس واغن" برازيلية مع بضعة آلاف من الدنانير، وعندما سألت الجريدة عن عنوان الشاعر قيل أنّه من الناحية الفلانيّة فأرسلت طيّارة هليوكـوبتر عسكريّة لتحضره، وعندما هبطت الطائرة كان الأمر حدثا لم تعرفه المنطقة من قبل. وكان السؤال عن صاحب القصيدة فإذا به معلّم في المدرسة الابتدائية كان قد كتب قصيدته هذه وقرأها في حفل نظّم في القرية، فاقترح عليه مأمور المركز الذي أعجب بهـا أن يرسـلها لجريدة "الثورة" ففعل ذلك، وهكذا نشرت. حملته الطائرة العسكريّة فكان ما حصل أمرًا جللاً وظنّت أسرته أنّهم أخذوه ليعدموه أو ليسجنوه، وبدأت المناحة ووقع اللّـوم علـى مأمور المركز الذي حثّه على إرسالها للجريدة، ولكن مأمور المركز كان يدافع عن نفسـه بأنّ قصيدته لو كان بها شيء مسيء لما نشرت في جريدة الحزب، ووعد بأن يتحقّق بنفسه لمعرفة السبب، ولكن بعد يومين عاد المعلّم وهو يجلس في سيّارة "فولكس واغـن" وقـد استأجر سائقا ليقودها فهو لا يعرف السياقة و لم يحلم بأنّه سيمتلك سـيّارة ذات يـوم. ودخل القرية كالفاتح وذهب إلى مأمور المركز ليشكره، فهو السبب في حصوله على هذه المكرمة التي لم يحلم بها، ووعد بأن يكتب كل يوم قصيدة.

وتساءل غسّان بعد أن فرغ من رواية الحكاية:

- إذا خلعت ثيابـي وركضت في الشوارع عاريًا وأنا ألطم رأسي هل سيلومني أحد؟!

* * *

توقّفا أمام محلّ لبيع الكاسيتات واشترى غسّان كاسيتًّا يضم أغـاني قديمـة لمطربـة شاميّة، لم يعد أحد يتذكّرها اسمها انصاف منير، ويذكر أنّه عندما كان طالبًا في المدرسـة الثانوية في الناصريّة كانت سينما البطحاء تضع أغنياتها فتصهل بصوتها الرائع "على شـطّ بحر الهوى"، أو "بغار عليك".

قال عدنان وهما يعودان للتمشّي البطيء رغم زحمة الناس المتجمهرين أمام المحلاّت:

- أتدري بأنّ زوجتي تلحّ عليّ منذ عامين بأن نذهب إلى الحجّ فهي راغبـة في أن تنادى بالحاجّة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- و أنت؟ فكّر كيف سيكون اسمك على غلاف كتبك الطليعيّة الحاجّ عدنان العزيري.

ضحك وقال:

- صحيح، هل يشكل الأمر فضيحة ما؟

ثم هزّ كتفه بلا مبالاة وهو يقول:

- و مع هذا، فالحجّ تجربة روحيّة مهمّة لأديب له أبناؤه وأتباعه أمثالك.
- أنا معك. قبل ثلاثة أعوام حضرت مهرجان الجنادريّة في السعوديّة، وعندما سألونا بعد اختتام المهرجان إن كنّا نودّ أداء العمرة تحمّسنا كلّنا لهذا، وأنّني شخصيّا أعتزّ بهذه التجربة ففيها ثراء كبير، خاصة وأنّني ترافقت فيها مع أسماء لامعة مثل يوسف إدريس ورجاء النقّاش وعبد الحميد العلوجي وغيرهم.
- و هذا ما سأفعله، بعد أن تتوقّف الحرب، سأذهب أنا وعقيلتي المصون لأداء العمرة فقط، وبهذا لن أسمح لأشباه الكتّاب والشعراء أمثالك بأن ينادوني بلقب الحاجّ فيفسدوا عليّ أحلامي الطليعيّة!

ثم انحنى قليلا ليحكّ كاحله وهو يشتم:

- مطّاط الجوارب ضيّق فيحصر الدّم ويجعل ساقيّ تتنمّلان دائمًا.

وبعد أن فرغ من ذلك، قال:

- أنا روائي أحتاج إلى السعة، إلى المدى الممتدّ، أمّا الشعراء فأجدهم وقد انتحى كل واحد في ركن وتحوّل إلى نادبة!
- أنا معك، ولذا تراني أهرّب من الحديث عن علاقتي بالشعر، وبدلاً من هذا أكتب الشعر.
- و المطلوب منك الآن أن تقرأ لي آخر ما كتبت فأنا مهيّأنفسيّا لذلك.

وامتثل غسّان العامري لما أراد صاحبه وقد استدار باتجاه شارع الأميرات لأنّ الحركة فيه قليلة، وكان عدنان يصغي جيّدًا لقصائد صاحبه القصار وهو يهمهم أحيانًا ممّا جعل غسّان يحسّ أن معانيها قد وصلته، وكان يفكّر في إرسالها لمجلّة الآداب اللبنانيّة التي عرفت بواكيره وقدّمتها لقرّائها، وظلّت علاقته بصاحبها طريّة على مدى أعوام.

بعد أن فرغ من الإلقاء سأل صاحبه:

- هه، ما رأيك؟

وتمتم وكأنّه يكلّم نفسه:

- أحيانًا أحسدكم أيّها الشعراء لا لنرجسيّتكم أو طاووسيّتكم اللعينة وأنتم تنفشون أجسادكم مثل الديكة الرّومية، بل لأنّكم تكتبون جنسًا أدبيًّا عظمته في تركيزه وعيبه في فضفضته، قصائدك على قصرها لخّصت كونًا، صدّقني.

وعاد غسّان إلى دعابته:

- هذا أمر يسعدني، فقد كنت أظنّك بطيء الفهم ودماغك المتحجّر غير قادر على الاستيعاب.

وضحك عدنان ثم نظر إلى ساعته وقال:

- أنت خوش مستوعب.

- علي أن أعود إلى البيت فابنة خالة زوجتي ستتزوّج ابنتها من ابن خال زوج أختها الثانية المقيم في الحلّة، وعلينا أن نتواجد هناك أنا والمدام.

وصفق غسان بيده:

- ومن يفهم هذه الأحجية المتداخلة؟.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- 10 -

من عادة غسّان العامري أن يؤشّر على ما يتوقّف عنده في الكتب التي يقرأها، وقد وقعت يده على ورقة سجّل فيها فقرة من "بالتازار" الكتاب الثاني في واحدة من أورع روايات العصر كما يعتقد بحماس هي "الرباعيّة الاسكندرانيّة" للورنس داريل.

وبدأ بقراءة الفقرة التي جاء فيها: (إنّني أعيش الآن حياتي متدنّيا حائرًا إلى حدّ ما، لكنّني أمارس في فنّي حرّيّتي كي أكون الشخص الذي أودّ أن أكونه تمامًا، إنسانًا يمكن أن يبعث العزم والتوافق في النفوس التي تموت من حوله).

وخمّن، ربما وجدت هذه الكلمات صداها في داخله فعمد إلى تدوينها، كلمات مازالت لها حياتها، كأنّه هو من قالها من وحي ما هو فيه لا ذلك الإيرلندي الطارئ على الاسكندريّة والذي ظلّ فيما كتب عنها سائحا. لكن هذا السائح شيّد معمارًا روائيًّا رباعيًّا ندر مثيله منذ مارسيل بروست وجيمس جويس.

ولكن ما يصفع المرء على وجهه هو عجزه عن أن يكون الشخص الذي يودّ أن يكونه، إذ أنّه يعيش في ظلّ نظام لا يعرف أحد كيف يصفه أو يصنّفه، نظام يعمل على مسخ البشر وتحويلهم إلى قطعان خائفة، متردّدة، تسير أينما وجّهتْها عصا الراعي ولاتتساءل إن كان يمضي بها نحو المجزرة أو نحو المرعى والكلأ!

أمّا الأديب فهو يخشى من كلماته حتى وهي على ورق ولم تأخذ طريقها للنشر، وإن حصل وأفلح في تسريب بعضها مع أحد معارفه من الصحفيّين أو الأدباء الذين يلبّون الدعوات الموجّهة لهم لحضور هذا المهرجان أو تلك الندوة، فإنّ نشرها سيجعله موضع مساءلة، وقد دشّن هذا العهد بإلقاء كاتب القصّة عبد الستّار ناصر بالسجن الانفراديّ لمدّة عام دون أن يعرف أحد حتى أسرته أيّ خبر عنه. وقد عرف زملاؤه ذلك بعد إطلاق سراحه، كل هذا من أجل قصّة كتبها عن محافظ العاصمة الذي أصدر أمرًا لرجال الشرطة بأن يحملوا علب ألوان وفراشي كبيرة لتلطيخ سيقان أي فتاة ترتدي القصير أو "المينيجيب" الذي كانت موضته شائعة. واضطرّوا إلى إيقاف هذه التصرّفات بعد أن تحوّلت إلى مسرحيّة هزليّة بائخة، شغلت الناس وأقلقت الفتيات وأسرهنّ.

ثم هاهو صديق طفولته عبّاس السيّد مغيّب في معتقل مديريّة الأمن لأنّه ألّف كتابًا عن أحد الخلفاء الراشدين، فُسّر أنّه يصب لصالح إيران في الحرب المدمّرة التي تدور بينها

وبين العراق منذ سنوات، وكان السؤال الحائر الذي يردده البعض بهمس: منذ متى أصبح علي ابن أبي طالب فارسيًّا؟

هو سؤال يتردّد كالهمس ولا أحد يجرؤ على إعلانه. حتى الجواهريّ الملقب بشاعر العرب الأكبر جيّروه للفرس وأبعدوا جلّ أسرته إلى إيران. لكن قضيّة عبّاس السيّد تؤرق غسّان العامري، تعيش معه، رغم أنّه يخفيها في داخله، ويحرص على أن يمضي كل شيء بسلام.. وعندما يتخطّى حدود وطنه ويرتمي في مجهوله الجديد فإنّه سيقول ما عنده، سيكتب ما رأى.

هناك في تلك "الناصريّة" الآمنة، الفقيرة، وفي أواسط الخمسينات من هذا القرن. كان في أحد فصول المدرسة الثانويّة الوحيدة أربعة فتية يتنافسون على تحصيل الدرجات العالية، كانوا شعلة من الذكاء كما وصفهم مدير المدرسة الذي اكتشفوا بعد قيام الثورة التقارير التي كان يرفعها عن تلاميذه، أو أبنائه الأعزّاء كما يخاطبهم في الاجتماعات.

هؤلاء الفتية هم غسّان العامري، عبّاس السيّد، حسين الصفّار وفاضل سلمان.

اتّجه الأوّلان إلى الأدب والفنّ، كتابة، مظاهرات، شعرا، قصّة، رسما.. واندمجا في غليان الحياة العراقيّة بكل ما فيها، لا بل إنّ عبّاس السيّد قد اختار الانتماء للحزب الشيوعي، وقرأ الماركسيّة واستوعبها جيّدا من كتب كان مجرّد اقتنائها يشكّل تهمة تؤدي به إلى السجن فهي تبشّر بـ "المبادئ الهدّامة" على حدّ تعبير أجهزة الأمن.

أما حسين الصفّار فذهب في بعثة لبريطانيا وبعد أن تخرّج وبقي في بريطانيا، لحقت به ابنة خالته التي كان قد عقد قرانه عليها قبل أن يغادر، وبقي فاضل سلمان في أمريكا بعد تخرجه وتزوّج من طبيبة أمريكيّة.

تفرّق الأربعة، وبقي غسّان وعبّاس فقط في بغداد، يلتقيان بين حين وآخر، وحتى إن لم يلتقيا فإنّ المحبّة هي المحبّة، خيط طويل يمتدّ منذ تلك السنوات حتى اليوم.

وأخذ حلم الرحيل زملاء آخرين لهم، مثل المحمد بن موسى والزهيري اللذين استوطنا أمريكا مدرسين في جامعاتها.

كان اليوم يوم جمعة، وهو عطلة البلاد الأسبوعيّة الرسميّة، وهو يوم ثقيل بالنسبة لغسّان، لا يعرف كيف يمضيه، أحيانًا يذهب إلى بيت أخيه، يتلفن لهم ويملي على زوجة أخيه ما يحب أن يأكله من طبخات عراقيّة، أو يمرّ به غيّاث الإبراهيمي ليتناول معه الغداء في بيته.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أمّا ابنتاه فلم يرهما منذ الطلاق، لقد منعت عليه أمّهما ذلك، وكانت رغبته أن تبقيا بعيدا عن دراما تلك الأحداث، تجعله يتجاوز عواطفه ويحاول أن يندمج في عالم ولدي غيّاث أو أبناء أخيه السبعة.. أربعة أولاد وثلاث بنات، تسلسلوا في ولادهم بفرق عام بين الواحد والآخر.

وإذا كان لديه مزاج جيّد فإنّه يتوجّه إلى محطّة سيّارات الأجرة ليمضي نحو المقداديّة، حيث يقيم صديقه سليم الحامدي الذي اختار البقاء في مدينته والعمل في التدريس بإحدى مدارسها الإبتدائيّة بعيدًا عن ضوضاء العاصمة، من هناك يرسل مقالاته النقديّة إلى الصحف والمجلاّت، وقد استطاع أن يحقّق لاسمه مكانة دون أن يتدافع بالأكتاف مع أحد، وصار يفرش أبوّته الأدبية على عدد كبير من أدباء المقداديّة وبعقوبة وبقيّة المدن الأخرى التي تضمّها محافظة ديالى.

لكن سليم الحامدي لم يكن منحازا لشاعر بقدر انحيازه إلى غسّان العامري، وكان أوّل من كرّس له كتابا كاملا ضمّ مجموعة مقالاته عن دواوينه الصادرة حتى أواسط السبعينات وقد تبنّى المركز الثقافي الاجتماعي لمدينة الموصل عمليّة طبعه.

لقد تعرّف على غسّان العامري في مقهى "أبو أحمد" الذي كان في وسط السوق الرئيسي لمدينة الناصريّة، كان ذلك في أوائل الستينات يومها كانت "موضة" الإبعاد السياسي رائجة في العراق، وقد ورثها النظام الجمهوري عن النظام الملكي الذي ثار عليه، حيث يبعد السياسيّون أو من يشتبه بأنّ لهم ميولاً سياسيّةً إلى مدن بعيدةٍ عن مدنهم الأصليّة، وقد بقي سليم الحامدي قرابة العامين في مدينة الناصريّة فأحبّها وأصبحت له صداقات عميقة مع مثقّفيها، وعندما جرى الانقلاب على نظام الزعيم عبد الكريم قاسم قائد الثورة ضدّ النظام الملكي، فإنّ سليم الحامدي اعتقل مع المئات الذين اعتقلوا وتم تسفيره إلى مدينة المقداديّة ليجري التحقيق معه هناك.

ومكث في الاعتقال عدة أشهر ما بين بعقوبة والمقداديّة، ثم أُطلق سراحه وأُعيد إلى عمله في مدينته، ولكن علاقته الوثيقة بغسّان العامري لم تنقطع.

وكان سليم الحامدي قد تزوّج مبكّرًا وأنجب وبنى دارًا صغيرة، أمّا غسّان فلم يفعل إلاّ بعد ذلك بسنوات.

وأحسّ غسّان بشوق لصاحبه، فما إن يصل حتى يغمره دفء هذه الأسرة الوادعة. يهيئون له ما يرغب به من طعام ويخلون له احدى الغرف ليأخذ راحته كاملة.

وكان يلذّ لغسّان أن يرافق سليما عصرًا إلى نادي المعلّمين ليكرع بضع زجاجات من البيرة، وهما محاطان بعدد من المعلّمين الذين يعتبرون من النخبة المثقّفة في المدينة، وجلّهم على معرفة بتجربة غسّان العامري الشعريّة.

ولكنه أرجأ فكرة الرّحلة إلى الجمعة اللاّحقة، فالوقت متأخّر وقرّر أن يتوجّه صوب بيت أخيه في محلّة "الطوبجي"، وهي محلّة شعبيّة جرى استبدال اسمها إلى "السلام" ولكن بين الناس ظلّ اسمها القديم هو المتداول.. ثم أيّ سلام هذا والبلد يشتعل في حرب دامية؟!

لم تكن الدار بعيدة بل هي على مسافة نصف ساعة من المشي على القدمين، وهكذا ارتدى ثيابه وغادر شقّته، وفي باب العمارة وجد صلاح البوّاب منهمكًا في رتق ثوب له فرجاه أن يسمح له بمكالمة هاتفيّة مع بيت أخيه، فهبّ صلاح بأريحيّة وفتح مكتب الحاجّ الذي لا يمرّ به إلاّ في فترات متباعدة، وأخبر أخاه أنّه قادم ثم أغلق التليفون.

***

كانت زوجة أخيه قد أعدّت الطعام قبل مجيئه، وعندما دخل أحاط به أولاد أخيه الصغار، وكان يلذّ له أن ينادي على صغرى بناته التي تشبه إلى حدّ كبير ابنته الصغرى، ويجلسها في حضنه ويسألها عن الدروس والمعلّمات.

وانتبه غسّان إلى أنّ ولديْ أخيه الكبيرين غائبان فسأله عنهما فأجاب:

– ذهبا ليصلّيا الجمعة، وليسا مثل عمّهما أو حتى أبيهما الذي يصلّي يومًا ويترك أسبوعًا.

– الله أدرى بما في القلوب ورحمته علينا واسعة يا عبد الرزّاق.

ثم غيّر من لهجته وهو يسأل من جديد:

– و أين يصلّيان؟

– في جامع بحيّ الإسكان.

– أليس الجامع قريبا منكما؟

– كأنّك يا أخي لست في هذا البلد ولا تدري ماذا يدور فيه، والمصيبة أنت شاعر بمعنى أنّك تشعر به قبل غيرك، بل تشمّ بأنفك.

– على مهلك عليّ، لا تهاجمني بهذا الشكل؟

– المسجد القريب من بيتنا لن يؤمّه أحد عدا كبار السنّ وإن دخله شابّ فتلك نهايته، إذ يتصوّر رجال الأمن المبثوثون في كل مكان والحزبيّون ولهم مهام مراقبة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الناس أنّ الشابّ الداخل لمثل هذه المساجد الحسينيّة هو عضو في تنظيم طائفي سرّي حتما؛ وكل شيء يمكن مناقشته إلاّ هذا التنظيم، فمن دخله أو اتّهم به حكم على نفسه بالإعدام وعليه أن يتوارى ليعمل في السرّ، هناك مرسوم جمهوري صريح بهذا. ألم تسمع به؟

وصفن غسّان قليلا وتساءل:

- وكما أعلم فإنّ ولديك قريبان من الحزب الحاكم، أو أنّ انتماءهما للجامعة تمّ بموافقة هذا الحزب أسوة بكلّ الطلبة الجامعيين، فكيف يشكّون بهما؟

- نعم. إذ لابدّ من هذا وإلاّ لما قُبلا في الجامعة، حزبيّان رغم أنفهما وليس باختيارهما، ومع هذا هما موضع شكّ، ثم لماذا تستغرب وأنت مثال واضح؟!

ودار حديث طويل ولكن تفاصيله جارحة لغسّان الذي يصطلي بأكثر من سؤال حول البلد والمآل الذي يمضي إليه، لاسيّما وأنّ كل هذا يتمّ في أتون حرب لا أحد يأمل بتوقّفها.

- 11 -

دخل أبو ريتا بوجهه النبوي ولحيته البيضاء ونظراته البرّاقة- وهو يقود ريتا التي ما إن رأت غسّان العامري حتّى أفلتت من يد أبيها وركضت نحوه، قدّمت له خـدّها الـيمين ليطبع عليه قبلة وهو يتمتم لها:

- ما أحلاكِ!

ثمّ صافح أبا ريتا وجلسا سويّة بعض الوقت تناول أثناءه فنجان قهوة قبل أن ينصرف إلى عمله ويتفقّد شؤون المكان، وكان من عادته ان يدخل المطبخ أوّلا إن كـان ينقصه شيء قبل أن يأخذ مكانه وراء مكتبه.

ورغم أنّ الساعة قد تجاوزت الخامسة إلاّ أنّ الستائر بقيت مسدلة حتّى لا تتسرّب الشّمس بحرارتها الحارقة، ومع هذا فإنّ غسّانا كان بمستطاعه متابعة الحركة في الشارع من بين الستائر المعدنيّة. ولكنّ التأمل لا يزيده إلاّ وحشة ويقوّي من وقع الأسئلة في داخله.

كان قد وصل مشيا كعادته، ولكنّه لم يسلك طريقه المعتاد بل مضى باتجاه بريد المنصور، وهناك وجد في صندوق بريده رسالة من صديق هو شاعر مغربي لم يكن يصحو من السكر، وكان يشكو صعوبة أيّام رمضان التي مرّت به حيث يُفرض حصار كامل في السوق السوداء، فيصبح شراء زجاجة واحدة فوق المستطاع.

ويتذكّر غسّان أنّه دخل المغرب في أواخر السبعينات ولكن في اليوم الأوّل من رمضان وبقي فيه حتّى آخر يوم منه، وكم كانت النهارات ثقيلة ممّا اضطره للصوم رغما عنه.. أمّا ليالي رمضان فما أجملها هناك!

و لم تكن الخمرة ما افتقده بل الطعام، لأنّه لم يعتد الصيام من قبل، لقد مرّن جسده على أن لا يدمن شيئا حتّى لا يبدو ضعيفا أمامه.

وفي هذه القاعدة هناك استثناء واحد هو حنان عوّاد التي اعتاد على كل ما فيها.. حضورها، صوتها، محبّتها، صدقها، شعرها، ولكنّه اعتاد منحه القوّة مادام قد ارتفع إلى مستوى الحب.

كان وجهها المنغرس في تلك القرية الجبليّة من لبنان الذي لم يسكت هدير المدافع فيه، يساكنه حتّى تحوّل إلى معنى يمنح حياته الباهتة زهو ألوان ضاحكة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إنّها هناك، وهو هنا ينتظر أن يلتحق بها يوما، أن يذهبا معا إلى أيّ مدينة لم تحرقها الحروب وتطفئ الضوء في عيون محبّيها.

لقد ارتضت ان تكون رفيقته، ولكن عليه أوّلا أن يغادر.

كان ينتظر وينتظر وينتظر، وكان زمنه ثقيلا وقاتلا ساديّا كأنّه يتلذّذ بما يعانيه.

لقد جاءهم بعقد عمل من مؤسسة لبنانية للإعلان، عقد اكتملت شروطه القانونيّة، عليه عدّة أختام لبنانيّة وعراقيّة، وقدّمه عن طريق وزارته التي غادرها لترفعه إلى لجنة لا وجود لمثيل لها إلاّ في بلده. إذ لا يسلم المرء حتّى بعد أن يتخلّى عن عمله، وإن تعاقد مع جهة خارجيّة فلابدّ من استحصال موافقات، ولهذا عبّأ عددا من الاستمارات المطلوبة في مثل هذه الحالات، وقد سأل الموظّفة المختصّة لعلّها أخطأت بتقديم كل هذه الاستمارات فأجابته بمكر:

- لا يا أستاذ غسّان أنا لم أخطئ، وعليك أن تعبّئ الاستمارات كلّها، ومن هنا تتوزّع على كل الجهات المسؤولة.

- ولكنّي لا أطلب التعيين في مؤسسة رسمية عراقيّة بل من أجل عقد مع جهة لبنانيّة؟

وردّت عليه:

- والله يا أستاذ هذا المطلوب، وهي قوانين وتعليمات لم أضعها أنا بل أنفّذها فقط معك ومع غيرك.

وضحك وهو يهمس لها:

- لا أعتقد بأنّ المؤسسة اللبنانيّة لها دخل بالاتجاه السياسي لأقربائي من الدرجة الأولى حتّى الموتى منهم.

وسكتت الفتاة وتظاهرت بعدم سماع ما فاه به، وأخذ يملأ الاستمارات والقلم يرتجف بين يديه إذ لم تقو أصابعه على شدّه! أيّ رعب هذا أن أُسأل عن الاتجاه السياسي للموتى من أقاربي وماذا يفعلون بها؟ وما أدراني أنا باتجاه عمّي الفلاح الأمّي الذي توفيّ قبل أربعين عامًا؟ وبماذا تفيدهم معلومة كهذه؟ ألا يكفيهم أن نكون نحن الأحياء في مصيدتهم؟

ونكاية بهم كتب أنّ خاله المتوفّي قبل العشرين عاما كان عضوا في حزب الأمّة لصالح جبر.

وضحك وهو يقول لطارق المنصور:

- دعهم يفتّشون في سجلاّت حزب الأمّة ولن يجدوا اسم هذا العضو، وربّما ظنّوا أنّه في الجناح السرّي لهذا الحزب الذي لا توجد أسماء أعضائه في الكشوفات العلنيّة.

وبعد انتظار حارق أبلغته الموظّفة نفسها أن طلبه للعمل خارج العراق قد رفض من قبل الجهات العليا، وحسمًا لأيّ نقاش أضافت شارحة:

- ولا تسألني عن الأسباب لأنّهم لا يذكرونها، لقد رفضوا طلبك، هذا كل ما أعرفه وأبلغتك به.

وأحسّ أنّه سجين حقيقي، وودّ أن يصرخ ماذا تريدون منّي؟ ماذا فعلت؟ وقد بقي عدّة ليال متوتّرا هائجا لا يستطيع النوم، وعندما فحصه الدكتور منعم البصري نصحه بتناول بعض المهدّئات لأنّ حاله ستكون أصعب إذا استمرّ ضغطه مرتفعا، وقد يسبّب له مضاعفات.

وهكذا عرف الحبوب المهدّئة من "الستلازين" إلى "الأتيفان".

وكان حائرا لا يعرف ماذا يفعل؟ فلو كان الأمر حكما قضائيا لاستأنفه، ولكنّه حكم من فوق، لا يدري من أين؟ من أيّ جهة من الجهات الأمنيّة التي تتناسل بمسمّيات جديدة تنضاف إلى القديمة.

أليس من حقّ المرء أن يسافر؟ أن يقيم في أيّ مكان يريد؟

ماذا تقول هيئات حقوق الإنسان أمام ظلم كهذا؟ وفكّر لو أنّه استطاع سرقة واحدة من الاستمارات التي يسأل فيها المواطن حتّى عن الاتجاه السياسي للموتى من أقربائه؟

وكان الدكتور منعم الذي يشرف على علاجه ومراقبة ضغطه قد نصحه بالهدوء والكفّ عن الحديث في الموضوع.

أمّا معن الماجد فكانت نصيحته الوحيدة له:

- اصبر، حاول أن تكتب شعرا، وإن توقّفت الحرب يومًا فلابدّ أن تجد منفذا للخروج.

ويضرب بقبضته على عمود الكهرباء وهو يصرخ:

- وهل تعتقد أنّ هذه الحرب المشؤومة ستتوقّف؟

- ولماذا لا؟ حتّى حرب داحس والغبراء انتهت.

ويحاول أن يستعيد شيئا من تماسكه وهو يبوح لصاحبه:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- اسمع يا معن.. أرجو أن لا يعرف أحد بما حصل لي، فأنا لم أخبر به إلاّ المقرّبين. إنّ حنان عوّاد تعيش الأمل مثلي، منغرسة في جحيم انتظارها هناك، ولو عرفت بالأمر لأصبحت حالتها صعبة، لقد ورّطتها معي.

وعاد معن للقول:

- لم يكن أحد يتوقّع أنّ كل هذا سيحدث؟ أتذكر كيف تفاءلنا في السبعينات، ارتفاع أسعار النفط، جبهة وطنيّة، حل المشكلة الكرديّة؟ ولكن إلى أين وصلنا؟

وارتفع صوت غسّان وهو يصرخ بغضب:

- نحن لسنا إرثا لأحد، والبلد ليس مزرعة، وعندما يحسّ المواطن بالخوف والذلّ فقل على البلد السلام، وسترى ماالذي سيكون؟ وحتّى إن توقّفت الحرب ستبقى آثارها وديونها ومآسيها لمئة سنة قادمة، سيلحق الأذى حتى بأحفاد أحفادنا.
- أنت لا تأتي بشيء جديد وهذه أمور معروفة، نعم البلد إرث استولوا عليه وانتهى الأمر، ربما كان بلدنا البلد الوحيد الذي لا تعرف ميزانيّته، وريع البترول لا يوضع تحت تصرّف لجنة وطنيّة بل تحت تصرّف شخصي، ولا أحد يحاسب أو يجرؤ على التّفوّه بكلمة.. أرجوك اغلق هذا الموضوع.
- وهنا شعر غسّان العامري برغبة في البكاء، بكاء على كل شيء جميل يداس بالأقدام، أحسّ أنّ جلده قد تحرشف أو أنّه أصبح خشنا كالوبر، وراح ينفث وهو يسير متمهّلا بجانب صديقه قاطعين شارع المنصور الرئيسي باتجاه شوارع فرعيّة، كلّ واحد منها يسلّمهما للآخر وهما يضربان على غير هدى وأحيانا يفزّان على صوت منبّه سيّارة يقودها فتى طائش.

***

وعندما خفّت حدّة الشمس أخذ ندل المقهى يزيحون الستائر التي كانت مسدلة، وارتأى غسّان أن يخرج إلى الشرفة، وقبل أن يفعل ذلك وجد صوته ينادي النادل:

- حسام.

فتقدّم النادل منه:

- أمرك أستاذ غسّان.

- هل لديك ورقة بيضاء؟
- نعم.
- اعطني واحدة أو أكثر.

لقد أحسّ بأنّه معبأ، ولابدّ أن ينفث على الورق بعضًا من سمّه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- 12 -

عندما عاد غسّان العامري إلى وطنه، عاد إليه برغبة كبيرة في أن يعمل شيئا للحركة الثقافيّة من الداخل بعد أن عمل لها أشياء كثيرة من بيروت حيث أقام هناك لعدّة سنوات.

رغم أنّه عانى من صعوبة إقناع الكثيرين بطبيعة النظام القائم في وطنه وممارساته وخاصّة بعد اشتعال الحرب بينه وبين النظام الجديد في إيران، وكثرة الخروقات لحقوق الإنسان ومصادرة الرأي الآخر وحملات الإعدام. وكان غسّان نفسه عاجزا عن إيجاد أجوبة للكثير من التساؤلات التي تشغله حول هذا الموضوع بالذات، وما يطرحه المعارضون العراقيّون من أدلّة على دكتاتوريّة النظام الحاكم، ولم ير غسّان انّ من شأنه الدخول في أيّة مواجهة مع أحد فهي مواجهة خاسرة لا محالة.. لذا انصرف إلى علاقاته الثقافيّة يوثّقها ويقوّيها حيث يجد دائما أصدقاء يلبّون الدعوة لحضور الندوات والملتقيات التي تعقد في بغداد، وغالبا يفعلون هذا محبّة شخصيّة له.

غسّان العامري في وطنه اليوم، ولكنّه ليس فيه أيضا حيث يحسّ بغربة قاحلة، إذ انقلبت كل المفاهيم ولم يعد هناك أيّ احترام للإبداع الجادّ. والمطلوب بإلحاح كتابات للمناسبات وبالأوامر وحفلات هتاف وتصفيق لا غير.

وقد حضر مرّة اجتماعا مع وزير الثقافة والإعلام الذي أبلغ فيه الحاضرين من الشعراء بأنّ هناك احتفالا بعد ثلاثة أيّام في مناسبة حدّدها لهم، وطلب منهم أن يكتبوا قصائد.. فماكان من أحدهم إلاّ أن قال:

- حاضر أستاذ.

فردّد البقيّة مافاه به، وهنا، قال لهم:

- دعوني على اتصال بكم، كلّما كتبتم شيئا اقرؤوه لي بالتلفون.

وعادت كلمة حاضر أستاذ التي صارت جاهزة على الأفواه للتردّد.

وانتبه غسّان العامري إلى أنّ الوزير يوجّه أوامره لشعراء محدّدين، يسمّيهم بأسمائهم وإن كان أحدهم غائبا فإنّه يطلب من أحد الحاضرين أن يخبره بالموضوع.

إنّهم الشعراء الذين منحهم النظام ما لم يمنحه لغيرهم، وبينهم الشاعر سهيل صبري الذي شكّل ظهوره الحدث الغامض الذي تحوّل إلى سؤال كبير. سهيل صبري وهو فتى في العشرينات من عمره وضع على رأس منظّمة شبابيّة ثقافيّة، ومُنح من الامتيازات ما لم يمنح

لرئيس اتحاد الأدباء.. وقيل أنّه مقرّب من القصر الرئاسي وأنّ تبريزه تمّ بإرادة عليا، وقد رووا عنه أنّه كان يحضر اجتماعات الهيئة الإدارية للمنظّمة التي تضمّ عددا من الأدباء والشعراء الشبّان، وهو يضع مسدّسه في حزامه، وعندما يجلس على كرسيه ينزع المسدّس من محزمه ويضعه على الطاولة أمامه، وإن أصبح عصبيّا على أحدهم يمسك بالمسدّس ويهدّده:

- اسكت، طلقة واحدة بخمسين فلسا كافية عليك!

فيسكت السامع مرتجفا. ولا أحد يصدّق إن كان جادّا في تهديداته أم لا؟ وهل منح حق قتل الأدباء إن عصوا أوامره؟

لهذا السهيل صبري أكثر من قصر فخم، وله أكثر من زوجة ولا يركب من السيّارات إلاّ المرسيدس.

لقد بزغ نجمه بينما كان غسّان العامري في بيروت، وسمع عنه الكثير قبل أن يراه. لقد حدّثه أحد الشّعراء عن تاريخ هذا الفتى وكيف نال هذه الحظوة.

أمّا غسّان العامري وآخرون غيره فمقصيّون. سهيل صبري في قصر منيف وغسّان في "بيت الضبع"، وإن لم يمرّ به عدنان العزيزي لا يصبح أمامه إلاّ أن يرمي بجسده في أحد الباصات المكتظة طيلة ساعات النهار.

***

كانت الحرب تزداد ضراوة، ولم يعد في شوارع المدن ومؤسساتها إلاّ المصريّون الذين تضاربت الآراء حول عددهم. وقد أصرّ البعض أنّهم قاربوا الخمسة ملايين، ولكنّ الرقم الرسمي يقول إنّهم حوالي المليونين.

ويهمس البعض أنّ الحكومة قد جاءت بهم لخلق موازنة طائفيّة في البلد، مادامت الحرب قد تواصلت وحتّى لا يحدث أيّ انفجار في الخلف، وهو رأي ضحك غسّان عندما سمع به إذ أنّ وطنيّة العراقيين لم تكن يوما موضع جدال، وهي وطنيّة لم تفلح حتّى بريطانيا في تحويلها إلى اقتتالات طائفيّة، لكنّها برعت في إيجاد وجوه عميلة من كلّ طائفة لتواصل بها لعبة الحكم من وراء الستّار. أمّا دوائر الدولة الرسميّة وهي الوحيدة التي لم تسلّم للمصريين، فقد كان أغلبيّة موظّفيها من النساء ومن الذين لم يجنّدوا لا في الجيش الشعبي ولا في الجيش النظامي لحصولهم على استثناءات من جهات عليا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعد رفض عقد العمل الذي قدّمه، تنمّر غسّان العامري، ودّ أن تكون لـــه مخالـــب وأنياب، أن ينسف الدّنيا، أن يصرخ، ولكنّه يكبح هيجانه ويمتثل لنصيحة بعض الأصحاب ومنهم غيّاث الإبراهيمي الذي قال له:

- تماسك ودعنا نفكّر قليلا.
- لقد تعبت من التفكير، هؤلاء أناس لا يحترمون ما في الرأس، لا يقرّون بالمشاعر، لقد سلكت الطريق الرسميّ الذي يريدونه، وأفكّر الآن جديّا بالهَرب عن طريـــق الشمال، ومن هناك إلى أوروبا، سأطلب اللجوء الإنســـانيّ وأعقـــد مـــؤتمرات صحفيّة أكشف فيها كلّ تفاصيل كابوس الداخل.

وصرخ غيّاث:

- اسكت، ماذا حلّ بك؟
- أنت تسألني ما الذي حلّ بـــي؟

وجعل صوته وديّا وهو يقول:

- يا غسّان يا عزيزي، اهدأ.

ثمّ أمسك بيده وهو يستحثّه على النهوض:

- هيّا، دعنا نذهب لمطعم المضيف، اشتقت لكأس عرق لبنانيّ.. هيّا.

وفي الطريق قال غيّاث:

- لديّ فكرة، يقال إن البعض ممّن تواجههم مشكلة يكتبون للرئيس مباشرة فتحلّ أمورهم.

وردّ غسّان على الفور:

- كثيرون قالوا لي هذا، ولكنّني أؤمن بالقانون وبالمسالك الطبيعيّة الـــتي توصـــل المواطن إلى ما يريد.
- وهل أنت متأكد من وجود قانون في بلدك؟!

ضحك غيّاث بعد ذلك وهو ينطلق عندما اشتعل الضوء الأخضر، واستدار بســـيارته حول ساحة النسور ودخل شارع الزّيتون ولم تقطع مسافة طويلة حتى أشار غسّان بإصبعه إلى بيت في طور التشييد، وقال:

- غسّان العامري وبتاريخ ربع قرن من الشّعر يريد أن يترك البلد ويخرج بثيابـــه، وهذه الفيلا لنجم الشعر المحظوظ الصّاعد سهيل صبري والتي بجوارها فيلا نائب رئيس الجمهوريّة!! فتصوّر!

وتساءل غيّاث:

- صحيح؟
- جدًّا جدًّا.

وضرب غيّاث بيده على المقود:

- غسّان العامري في فترات الخراب ترتبك كل المقاييس حتى الذوق يهبط. كان الله في عونكم، كنت أتصوّر أنّ حياتي ستكون هادئة هنا، ولكن ها أنا أجد نفسي مقحومًا في قلب الإشكال عن طريقكم يا أصحابي البؤساء. يا أخوات الشلّيتة:

وبعد أن وصل إلى القصر الجمهوري توجّه نحو الجسر المعلّق. كان الجنود قد وقفوا وهم يحملون رشّاشاتهم متصلّبين كالتماثيل ولا تتحرّك منهم إلاّ عيون صقريّة، ولا يفهمون شيئًا غير تنفيذ التعليمات بإطلاق النار على أيّة سيّارة تتوجّه باتجاه القصر ولو كان ذلك عن طريق الخطأ، وقد حصل أن أُبيدت أُسر كاملة نتيجة سهو بسيط وخاصّة بالنسبة للسيّارات القادمة من الجهة الأخرى، لذا فإنّ المواطنين يبتعدون عن المكان خوفا وحذرا، ويمضون عن طريق آخر أكثر طولا ولكنّه أكثر أمانا.

قال غيّاث:

- ومع هذا يا غسّان اكتب رسالة إلى الرئيس وضعها في استعلامات القصر الجمهوري.. لعلّ وعسى.

واستدرك مضيفا:

- هل تعرف الرسّامة لمياء العمّار؟.
- معرفة بسيطة.
- هي مديرة متحف الفنّ الحديث الذي يحمل اسم الرئيس، ولها علاقات قويّة مع أكبر المسؤولين وهم يمرّون لزيارة المتحف أو اقتناء لوحات باستمرار..

قال:

- لكن عدنان العزيري ومعن الماجد يعرفانها أكثر منّي.
- عظيم، استنفد كلّ الوسائل، فأنت عندما تغادر لا تريد أن تقطع الصلة ببلدك، تعود متى أردت وتخرج متى أردت، أليس كذلك؟
- نعم، ولكنّ العراقيين اليوم يشكّلون حالة مختلفة فمن يخرج لن يفكّر بالعودة. لا بل إنّ من يخرج يكون معبّأ بحقد كبير على النظام، ولذا يذهب رأسا لصفوف المعارضين له، أتدري بأنّني أحسد حتّى العمّال المصريين فهم يسافرون ويعودون

https://telegram.me/maktabatbaghdad

متى شاؤوا إلاّ نحن. يتحجّجون بالحرب وكأنّنا نحن من أشعلها، نحن لا نريد هذه الحرب التي عطّلت قدرات شعب وأوقفت كلّ مشاريع تنميته، وأكلت لحدّ الآن أكثر من مليون آدمي! حتّى أنتم أيّها اللبنانيون أفضل منّا، صحيح أنّكم مثلنا غير مرغوب فيكم ولكنّكم تملكون القدرة على الحركة، لكم أجنحة، أمّا نحن فقد كسروا أجنحتنا.. كسر الله أجنحتهم ورقابهم وقصف أعمارهم.

ذلك الحديث الذي دار بين غيّاث وغسّان دفعه جديًا إلى كتابة رسالة موجّهة إلى رئيس الجمهوريّة وفق الديباجة الشائعة، وهي ديباجة رسميّة ثابتة مثل أخبار وكالة الأنباء العراقيّة التي تنشر كما هي، وفق الصيغة التي تبثّها الوكالة وبالعناوين نفسها، لا كلمة زائدة ولا كلمة ناقصة.

رسالة من صفحة واحدة. وعندما حضر عدنان العزيري في صباح اليوم التالي وضغط على منبّه سيّارته ثلاث مرّات كعادته، كان غسّان مرتديا ثيابه وبيده الرسالة.

وعندما جلس بجانب صاحبه قال له:

- لنمضي إلى متحف الفنّ الحديث؟
- ولماذا؟

ثمّ أفهمه ما ينوي عمله، فوجدت الفكرة قبولا متحمّسا من عدنان الذي قال:

- إن شاء الله نجدها.

وقريبا من المتحف الذي يقع في شارع حيفا أوقف عدنان سيّارته، وهو يسأل:

- هل كتبتها على ورق نظيف؟
- جدًا.
- ووضعتها في مغلّف مناسب، هذه رسالة إلى رئيس الجمهوريّة وليس إلى أحد من أقاربك الحفاة المتخلّفين في أبو هاون؟
- فهمت.

رحّبت بهما لمياء العمّار وطلبت لهما فنجاني قهوة، وسرعان ما عرض عليها غسّان الموضوع فاعتذرت، وقالت:

- بإمكانك أن تضع الرسالة في استعلامات القصر الجمهوري، هناك مكتب خاص برسائل المواطنين.

كانت لمياء العمّار صغيرة الحجم لا تكاد تصل المتر والنصف طولا مع حـــذائها ذي الكعب العالي بشكل لافت، وبدأت لعيني غسّان مثل دمية جميلة وأنيقة تميّز وجهها عينان واسعتان تزيدانها جاذبيّة رغم أنّها تجاوزت الأربعين بعدّة سنوات.

***

وعندما أصبحا خارج المبنى سمع غسّان صاحبه يغنّي تلك الأغنية المصريّة الشـــائعة– على مين على مين على مين.

على مين يا سيد العارفين!

وبعد أن أخذ كل منهما مكانه في السيّارة، قال عدنان بتأكيد:

– سنذهب الآن إلى استعلامات القصر الجمهوري، ولكنّني أفكّر في أقرب مكـــان أستطيع أن أترك فيه السيّارة.

– في المرآب المقابل لوزارة الثقافة والإعلام.

– صحيح، ياالله.

وأدار محرّك السيّارة ثمّ عاد إلى القول:

– وعلينا أن نمشي على قدمينا نصف ساعة على الأقلّ، إذا حدث لي شيء وتوقّف قلبـــي فأنت ورئيسك المسؤولان!

وأردف وكأنّه يكلّم نفسه:

– ما الذي جاء بـــي؟ لماذا عدت؟ كنت هناك في أحسن حال!

– المهمّ عليك أن لا تندب ما مضى بل تفكّر في الآتي..

وتمتم:

– وهذا ما أفعله! ولكن لابدّ من التحسّر ففيه بعض التطهير.

– قل التطهّر.

– تطهير، تطهّر، أو طهور، إذا تحبّ أن أطهّرك أستاذ فأنا مستعدّ، ولكـــن علـــى شرط ان نقتلعه كلّه من عروقه.

– سفيه.

وصارا يضحكان رغم كل ما فيهما من خزين الأسى.

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة، وقد بدأ الجوّ بالسخونة وصار العرق يتقاطر منهما، قال عدنان:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- على مهلك، القصر الجمهوريّ لن يطير، أنت مثل الحصان، أمّا أنا فلم أعد كذلك. فامش على مهلك.
- حاضر.

وعندما دخلا استعلامات القصر الجمهوري سلّما الرسالة، وسأل عدنان الموظّف المسؤول:

- ألا تعطينا إيصالا؟

فردّ عليه بزجر وكأنّه يصفعه:

- ولماذا أعطيك؟ هيّا اذهب أنت في استعلامات الرئاسة وليس في دائرة البريد.

***

غسّانِ العامري يتثاءب في كافتريا المنصور، يطلّ على الحركة في الشارع ولكنّه لا يسبر أبعاد ما هو أمامه، يرتمي في عزلته لا علاقة له بشيء، يتعلّق بوهمه، بحلمه، علّ يوما يأتي فيجد جسده في طائرة مغادرة حتى لو كانت وجهتها.. جهنّم الحمراء.

- 13 -

تمرّ بغسّان العامري أيّام يخرج من بيته متسلّلا ويعود إليه متسلّلا أيضا، وبعد أن يتأكّد من أنّه في مأمن من العيون الكثيرة التي تترصّد حركة الناس.

لقد طلب من جاره في بيته القديم، الذي أصبح مهجورا الآن لن يقيم فيه أحد، أن يخبر من يأتي ليسأل عنه أنّه ذهب إلى أهله في الناصريّة ليقيم معهم.

وكانت البيوت تطرق عدّة مرّات في الشهر ليجيب أصحابها على استفسارات أو يعبّئوا استمارات.

لقد حمته الإقامة في عمارة بعيدة عن الأعين، وليس هناك من يعرف أنّ أحدا غير المصريين يقيم فيها.

أمّا عدنان العزيري فهو بالنسبة له بمثابة المستكشف الذي تحميه تقاريره الطبيّة التي يحملها أينما ذهب، وعندما يصله صباحا يكون على معرفة إن كانت الشوارع ملأى بمكامن اصطياد البشر ليضعوهم في مراكز الحزب، ومن ثمّ يحشروهم في سيّارات حمل عسكريّة تنقلهم إلى معسكر التدريب في النهروان.

وكان غسّان العامري مطلوبا، وإن أمسكوا به فلن تشفع له قصائده ولا دراسات النقّاد عن مكانته في الشعر العربي الحديث.

ومرّة نصحه الدكتور منعم البصري:

– ابق حذرا، لا تأمن أولاد القحبة هؤلاء.

وسأله:

– أنت من تقول لي هذا؟

– وماذا تريدني أن أقول؟ هل تريدني أن أنصحك بالتطوّع؟

– كلّ الأصدقاء جنّدوهم، وبعضهم مرارا، ودخل في الاستمارات التي توزّع على المواطنين الذكور سؤال جديد هو هل سبق لك المشاركة في الجيش الشعبي؟ وكم عدد القواطع التي ساهمت فيها؟ هكذا ببساطة، قاطع واحد لن أسمح لكم بزجّي فيه، والمصيبة أن كل قاطع مدّته ستة أشهر وغالبا ما تمدّد.

وضحك الدكتور منعم ثم تمتم بسخرية:

– إذا أمسكوا بك ستصبح في اليوم التالي مقاتلا في الجيش الشعبي، وستشهد ساحات الوغى بطولاتك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وصفّق بيده وهو يردّد:

- لا أستطيع أن أسمع عن هذا الموضوع حتى في مجال الفذلكة، ستكون كارثة بلا شكّ، بل قل إنّها نهايتي.

وكان من عادته أن يفتح قلبه لصاحبه هذا الذي أخطأ الطريق نحو الطبّ، فهو الآخر يكتب الشعر الشعبي ويؤلف المسرحيّات، وتعلّم عزف العود وجلّ أصدقائه وندماه من الأدباء والفنّانين.

أمّا غسّان فيلومه على هذه العلاقات، ويرى أنّها تستهلكه وقد تأتيه بالضرر أكثر من النفع في بلد لم يعد فيه أحد يأمن أحدًا، تكثر المزايدات وتنكسر رقاب بريئة بوشايات رخيصة أبطالها أراذل القوم.

وبعد كل هذا وذاك بقي غسّان العامري مصلوبا هنا على مقعده في كافتريا المنصور ينتظر أن يراه الله مرّة واحدة.

يتذكّر حنان عوّاد.. فقصائدها مع قلّة من الشعراء علمت المصفّقين في مهرجان المربد نعمة الصمت وبلاغة الإصغاء، أراحت أيديهم، أنقذهم من الضوضاء، وأبعدهم عن القوافي التي تنزل على الرؤوس كالحجارة.

ومن بين ما قرأت في زيارتها الأخيرة تلك القصيدة التي جعلت حتّى الأنفاس تكاد أن تنطفئ في الصدور.

لقد كان وجودها حياة له في تلك الأيّام المربديّة، ومع أنّ اللجنة المشرفة كانت تبرمجه إلاّ أنّه لم يجازف بالقراءة، يقينًا منه أنّ هذا ليس أوان شعره الذي علّق عليه محامي الشعب المقهور طارق المنصور بإحدى دعاباته الحيّة بقوله:

- شعرك البكائي هذا لن يأتيك بسيّارة تويوتا ولا حتّى درّاجة هوائية، خبّئه إلى يوم آخر قد لا يأتي.
- أتريد أن تساويني بسهيل صبري مثلا؟
- شعرك لا يهمّهم، وأرى أنّه يزعجهم ويقلقهم ولذا يغدقون على من يناقضونك ويناقضون من لهم قناعاتك، وأقصى ما يمكن أن تفكّر بنيله عند نشر قصيدة بضعة دنانير فقط؟
- رغم أنّ كلامك مرتّب، فهو كلام محام جهبذ، لكنّ الحقيقة تقول إنّ كل هذا الغثاء سيكنس إن لم يكن قد كنس فعلا، وأصبح الناس يغلقون جهاز التليفزيون عندما يطلّ عليهم شاعر من هؤلاء المرتزقة، لا بل إنّ هذا الغلق ملحوق بشتيمة من الشتائم العبقريّة للعراقيين.

ثمّ حرّك يده أمام وجهه وواصل القول بحسم:

- شعري هو الأبقى، اسمعها منّي أقولها بنرجسيّة الشعراء.

وارتأى طارق المنصور أن يواصل مشاكسته عندما علّق على ما فاه به:

- شعرك الأبقى للغد، أمّا المطلوب فهو شعر لمنابر اليوم، مدائح لحكّام اليوم. شعر يخاطب الأكفّ لتصفّق، أمّا شعرك فمجلبة للهمّ ولا يدفع أحدا للتصفيق وثلاثة أرباع قرّائه لا يفهمونه، اسكت ولا تدوّخ رأسي، فقد رافعت اليوم في ثـلاث قضايا كلّها من ثمار الحرب، قضايا تبدو غريبة عن المجتمع العراقي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

-14 -

عندما يأتي موعد مهرجان المربد ينسى غسّان نفسه، يتحوّل من فندق إلى آخر، من ميليا منصور إلى ميرديان إلى شيراتون، وتعقد الجلسات الأهمّ في الفنادق وبين رنين الكؤوس، وغالبًا ما يمضي ليلته في أحد الفنادق ولا يعود إلى شقّته! فما الذي ينتظره فيها؟

مئات الشعراء، من عموديين إلى أحرار إلى نثريين إلى كذّابين إلى كلاب وأبناء كلاب.

أمّا الشعراء والصحفيّون اللبنانيّون فيمنحونه محبّتهم المتفرّدة الخاصّة، وعندما تأتي حنان معهم يصبح كواحد منهم.

ومرّة قالت له:

- ما الذي يحصل لو أنّهم سمحوا لك بأن تغادر معنا؟
- حتى أنا أسأل هذا السؤال!
- أيّة مصيبة تحلّ عندما يتحوّل الوطن إلى سجن؟

وكان صديقه الشاعر نصري الأسمر من أكثر الشعراء حرصًا على الحضور، وكذلك صديقه الشاعر رعد الطويل.

وهما من أظرف أصدقائه اللبنانيين وأكثرهم قربًا إلى قلبه.

نصري الأسمر بلحيته الطويلة وعينيه السوداوين البرّاقتين وسمرته القانية التي تظهره وكأنّه مقاتل يمني لم يجد الوقت لتشذيب لحيته وقصّ شعر رأسه الذي تركه منسدلاً على كتفيه.

كان يتحرّك بحيويّة ولكن في حدود مساحة معيّنة من بلده المقسّم، يحضر المهرجانات، يقرأ الشعر، ويعدّ برامج إذاعيّة ويكتب كلمات أغان غاية في الرقّة، غنّت بغضها ماجدة الرومي وغنّت البعض الآخر سلوى القطريب.

أمّا رعد الطويل فهو اسم على مسمّى، الرعد في صوته عندما يلقي قصائده العموديّة الطويلة مثل قامته التي تكاد تبلغ المترين، يداه طويلتان، يحرّكهما بكثرة عندما يقرأ قصائده وعندما يلمّهما إليه من جديد تبدوان وكأنّهما قد غادرتاه في رحلة ثم عادتا إليه، وأنفه هو الآخر كان طويلاً وقدماه بحيث يبدو حذاؤه وكأنّ كل فردة منه زورق راس ينتظر الإبحار.

وكان يتمتّع بخفّة روحٍ لا يمكن لمن يراه أن يتوقّع أنّه يحملها بين جوانحه.

ومع هذا كان مناضلاً من أجل حقوق معلّمي المدارس الخاصّة الذين كانوا يشكّلون الأكثريّة في لبنان، وقد انتخب نقيبًا لهم عدّة مـرّات، انتخبه المسلمون والمسيحيّون متجاوزين بهذا منطق الطوائف الذي غذّاه الاقتتال ووجد الكثيرون أنفسهم مورّطين فيه.

وكان رعد الطويل بارعًا في كتابة القصائد الهجائيّة التي لم يسلم منها أحد من معارفه المقرّبين، ويلذّ لغسّان العامري أن يشاركه في بعض الأحيان كتابتها، أو استفزازه ليكتبها.

* * *

كانت تلك أيّامًا حلوة، لكن حتى أولئك الأصحاب تفرّقوا، غادروا لبنانهم، نصري الأسمر إلى كاليفورنيا ملتحقًا بزوجته وولده اللذين سبقاه إلى هناك، ورعد الطويل إلى قبرص ومن ثم إلى لندن بعد أن ضاقت به سبل العيش وتعرّض لمحاولة اغتيال لم يتوقّعها.

وهاهو غسّان في شقّته، في بيت الضبع بسرواله القصير يتمدّد على الأريكة، يحاول قراءة رواية وليام فولكنر "نور في آب"، ولكن ما إن يقرأ منها بضع صفحات حتى يرجئ قراءتها نظرًا لطولها.

كانت الأريكة موضوعة في مدخل الشقّة الذي يستعمله كغرفة لأصدقائه المعدودين.

أصبح يعرف الأماكن التي اعتاد أن يجلس كل واحد منهم فيها.

عدنان العزيري يحبّ الجلوس على طرف هذه الأريكة من ناحية الباب، بينما يجلس غيّاث الإبراهيمي على الكرسي المقابل، وربّما اختار جلوسه هناك ليستطيع وضع منفضة السكائر على طاولة الكتابة.

وهو المكان نفسه الذي يحبّ طارق المنصور الجلوس فيه، ولم يحدث أن اجتمعا معًا هو وغيّاث في هذا المكان، وآنذاك سيحصل الإشكال، وربما اضطر غسّان لإجراء قرعة والرابح فيها يجلس على الكرسي المرموق.

* * *

قلّب الرواية، ولم يجد رغبة في مواصلة قراءتها، لذا وضعها على الطاولة، وبدأ يؤدي بعض التمارين الرياضيّة، لعلّه يستعيد نشاطه فيرتدي ثيابه وعندما يحضر عدنان العزيزي سيجده جاهزًا.

لقد بدأ يحسّ في الأيام الأخيرة بدوار كلّما نهض، أمّا الصداع فلا يسامح رأسه إلاّ لمامًا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

منعم البصري يقول له:

- إنّه الضغط، ولن ينخفض ما دمت تعيش تحت طائلة الانفعال.

ثم اقترح عليه إجراء بعض الفحوص الطبيّة، وكتب له ورقة بذلك لكنّه نسيها.

يتذكّر أنّه علّق على ما قاله الدكتور منعم البصري:

- أتعرف يا منعم ما معنى أن ينتظر المرء؟

وأضاف:

- ربما تكون المسألة نسبيّة في أهمّيّة هذا الذي ينتظره، لكن ماذا لو كان يتعلّق بجدوى حياته كلّها؟

ثم ضحك وهو يهزّ رأسه الذي طأطأه وكأنّه ينقّب عن شيء سقط منه على الأرض.

- بلدك هذا كل ما فيه مغلق، النوافذ، الأبواب، الفتحات، الكوى.. فمن أين يأتي الضوء؟

***

هو في شقّته، يتحرّك في مساحتها المحدودة، من غرفة نومه المطلّة على الشارع العام، إلى الصالة الصغيرة، إلى الجحر الضيّق الذي هو حمّام ومرحاض ومطبخ في الوقت نفسه.

وكانت هناك نافذة أماميّة صغيرة هي التي يحرص على فتحها كلّما آوى إلى شقّته، وتتوسّط الصالة طاولة واطئة وعريضة صفّت عليها الكتب والمجلاّت والصحف وأوراق الكتابة.

هذه الكتب التي تحتلّ الطاولة هي المرشّحة للقراءة، لذا يضعها أمامه، يقرأ عدّة صفحات من كتاب، يقطع فيه شوطًا ثم يتركه ليقرأ في كتاب آخر. هذا ديدنه في القراءة منذ أن كان طالبًا وترسّخ الأمر حتى وهو شاعر معروف.

وكلّما فرغ من قراءة كتاب حمله 'لى الرفّ. وقد تزاحمت الرفوف الثلاثة بهذا الفيض من الكتب التي يشتري البعض منها ويصله البعض الآخر من أصدقائه في البلدان العربيّة بإهداءات حميمة. هذا عدا الكتب التي يستعيرها، وغالبًا يكون مصدره في هذا المجال معن الماجد الذي لا يمكن انتزاع كتاب منه إلاّ بأعجوبة.

وإضافة إلى الكتب، فإنّ هناك زحامًا في شرائط الكاسيت التي تضمّ موسيقى وأغاني عربيّة وأجنبيّة حديثة وكلاسيكيّة.

وكان غسّان غالبًا ما يهرب إلى هذه الكاسيتات من برامج الإذاعة والتلفزة المعبّأة بالأناشيد وقصائد المديح وصور الحرب والدمار.

يوم كانت له سيّارة كان يواصل العلاقة مع هذه الأغاني وهو يقودها لينعزل عن عالم الآخرين. أمّا الآن فإنّ الجهاز الذي حمله معه بعد الطلاق أصبح ضرورة لا غنى له عنه.

لم تكن له موسيقى مفضّلة ولا مغنّ مفضّل بل إنّ المزاج وحده يتحكّم.

ضاق الوطن الواسع الرحيم وتحوّل إلى سجن لا أحد ممّن هم بين جدرانه يعرف متى تنتهي عقوبته ويطلق سراحه.

ولم يبق لغسّان العامري إلاّ هذا القفص المعلّق في عمارة مستباحة ليلاً ونهارًا.

أمّا صدره المفتقد لأوكسجين الأعالي فلا يتعبّأ إلاّ بروائح احتراق العجين في الفرن الواقع تحت العمارة مباشرة.

ينظر إلى صورته المعلّقة على الحائط ويصرخ بها:

- لقد نجوت يا زكريان، ولولا ذلك لكنت الآن مجنّدًا في الجيش الشعبي، لا يعنيهم عمرك. الكلّ تحت السلاح. ولكان بعض أبنائك قد ذهبوا وقودًا لهذه الحرب!

وابتلع ريقه ونهض وهو مازال يصرخ:

- لقد مضيت وتركتني سجين هذا الإطار الأنيق بسالفيّ الطويلين ووجهي "المؤرمن"، فمتى يأتي دوري لأحطم هذا الإطار الطوق وأخرج؟

مرّة قال لطارق المنصور في إحدى زيارات الظهيرة التي يقوم بها لشقّته قبل أن يتوجّه إلى مكتبة في السوق الشعبي بحيّ البيّاع:

- ألسنا موجودين في أوطاننا اختيارًا؟ ولأنّها أوطاننا وملاذنا؟

ورفع طارق المنصور رأسه وهو يتساءل:

- من المفروض أن يكون هذا، ولكن ماذا تريد من وراء سؤالك؟

وهزّ يده قبل أن يسكب الشاي المهيّل في الاستكان الموضوع أمامه، ثم قال:

- لك أن تفهم سؤالي بالطريقة التي وصلتك؟

ولم يزل طارق حائرًا في قراءة أفكار صاحبه ليلهبه بواحد من أجوبته التي حذقها نتيجة تمرّسه في مهنة المحاماة.

قال وهو مازال يفكّر:

- صرت تجيد صنع الشاي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- هو شاي العصر، لا بدّ منه للعراقيين.. ولولاه لما صحت رؤوسهم من قيلولات الشتاء والصيف.

خاط الشاي بملعقته الخاصّة وبرنين متناغم بعد أن وضع في الاستكان مغرفة من السكّر.

وبعد أن ذهبت عنه لفحة السخونة بدأ باحتسائه متمهّلاً ومحاولاً أن يتلذّذ بطعمه السائغ الموقظ لخدر الرّأس.

- أتدري يا طارق أنّك بارع في تعليقاتك القصيرة هذه؟ ليت عدنان العزيري يتعلّم منك، من أجل أن يكون حوار قصصه ورواياته مختزلاً وثريًّا.

وردّد طارق ببساطة:

- لو أردت أن أكتب القصّة لفعلت. لديّ عشرات الأفكار وكلّها من وحي المهنة. من قبل كان المحامون يحبّون الإطالة والديباجات الفخمة، أمّا اليوم فلا، إن كنت تملك القدرة على قدح مجموعة من الفلاشات على قلب المشكلة ستنجح في كسب الدعوى، زمن المرحوم يوسف وهبي بك ولّى وهو يترافع بلغة المنفلوطي.

وضحك غسّان بكركرة خليّة وهو يبوح لصاحبه:

- أتدري بأنّي لا أقبضك كمحام بجدّ؟
- يبدو أنّك لا تعرف أنّني اليوم واحدًا من أبرز محامي بلدك التعيس؟

وأضاف:

- المحاماة فطنة وعلاقات، وكلا الأمرين أملكهما. وإن طال بنا العمر وقيّض لهذا الوطن أن يعرف الديموقراطيّة يومًا لوجدت صديقك طارق المنصور نائبًا يشار له بالبنان وبالبيان أيضًا بدلاً من جرار الفخّار الذين يعيّنونهم تعيينًا ليمثّلوا الشعب العراقي.
- لكنّ السؤال الذي يلحّ عليّ هو كيف رسوتَ عند المحاماة ويبدو أنّك لن تغادرها، فلا بلدك ستكون فيه ديموقراطيّة وتنتخب نائبًا مثلاً، لذا لم تبق لك إلاّ المحاماة. عندما عرفتك أوّل مرّة كنت معلّمًا للرياضة وأنا معلّم اللغة العربيّة في مدرسة الجمهوريّة بالناصريّة، بعد ذلك تحوّلت بدون سابق إنذار إلى ضابط ألعاب، ثم مديرًا في وزارة الشباب بعد أن رفدوك من الجيش، هيّا ساعدني لأعرف وظائفك الأخرى؟

قهقه طارق المنصور وعلّق:

- اللذّة في التجدّد. ثم إنّني وعندما كنت ضابط ألعاب انتميت إلى كليّة الحقوق في الجامعة المستنصريّة، ولعلمك فأنا لم أتوقّف عند الليسانس بل نلت الماجستير وأصبح لي الحقّ في التدريس بكليّة الحقوق مع دفعة وساطة صغيرة، فالعلم وحده لا يكفي في المنطق المعوجّ لهذا البلد.

صفّق غسّان بيديه وقال:

- لقد فعلت أشياء كثيرة وتركتني أكتب الشعر فقط. أمّا العمل الثقافي في لبنان فكان بدفعة صغيرة كما قلت. ومن حسن حظّي أنّها كانت صغيرة، ولولا ذلك لربّما خلعت كتفي أو ألقت بي على وجهي.

- أنت غاوي فقر، والبضاعة الكاسدة في بلدك هي الشعر والإبداع عمومًا؟

وعاد طارق المنصور إلى إطلاق قهقهته التي تميّزه قبل أن يقول:

- لو لم نكن في حماية إخواننا المصريين سكّان هذه العمارة، لكان حديثنا هذا يجعلهم يعدموننا إعدامات مكعّبة؟

* * *

أخذ يخربش بعض الأبيات بعد أن ملّ الاسترخاء، كانت في الزاوية على يمين الباب مروحة منضديّة تدور على أوطأ درجاتها، ولكن بصوت مسموع كأنّه صوت محرّك وقد جاءه بها غيّاث الإبراهيمي وهو يعلّق:

- هي أحسن من اللاشيء، أمّا صوتها فستعتاده ويصبح لك مثل الموسيقى!

كان هناك بعض الغبار المتراكم على قاعدتها، ولكنّه لا يملك المزاج المطلوب حتى يمسحه فهو يتراكم في اليوم نفسه كلّما أزاحه عن أثاث البيت بسبب تواصل تدفّق السيّارات في الشارع ممّا يثير هذا الغبار إضافة إلى ما ينطلق من دخان المخبز.

يحسّ بالهدوء الآن، وبشيء من السلام الذي يقترب من الاستسلام لقدر غامض صار يعيث بسفينته المبحرة وقد يحطّمها ويحوّلها إلى ألواح، أو يرميها بمعجزة إلى شاطئ سلام.

لقد تعب من متابعة الوساطات، رسالتان إلى رئيس الجمهوريّة بدون أن يتلقّى ردًّا.

وقد قرّر أن يصرف النظر عن متابعة هذا الموضوع. لقد أراد أن يطلب تدخّله في السماح له بالمغادرة، هذا كل شيء.

لحظات هدوء هو عليها الآن وعليه أن يستغلّها ليكتب.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان الصمت يخيّم على العمارة حتى تصوّر أنّ سكّانها قد غادروها. فلا عبد الحليم حافظ ولا أمّ كلثوم ودليلها الذي احتار وحيّرها معه، ولا عبد الباسط عبد الصمد حتى أنّه فكّر أن يسأل صلاح الحارس ما الذي جرى؟

نهض وجاء بدفتر الرسائل من الرفّ، وتخلّى عن مشروع القصيدة ليحوّل احتدامه إلى كلمات يوجّهها لحنان عوّاد.

وقد اعتاد أن يكتب لها باستمرار حيث اكترت صندوق بريد من أجل رسائله فقط، كما أعطى عنوانها إلى عدد من المجلاّت لترسل لها مباشرة رغبة منه في أن يضعها في الخضم لتلمّ بكلّ تفاصيل الحركة الأدبيّة العربيّة فاكًا عنها سنوات عزلتها التي سبّبها الاحتراب اللبناني.

يومًا ما وقبل أن يعرفها أنبهر برانيا خليل التي تعرّف عليها في بيت صديقه مروان الصافي، وإذا ما حاول البحث عن الاختلاف بين شخصيّتها وشخصيّة حنان عوّاد لوجد كل واحدة منهما تناقض الأخرى، ولكنّه أحبّهما، ولو أنّ حبّه لرانيا قد أخذ مداه لربما كانت في حياته الآن في الموقع نفسه الذي تحتلّه حنان.

رانيا خليل منفعلة دائمًا، تحبّ أن تقود سيّارتها بنفسها، لذا يمتثل لما تريد ويكتفي بالجلوس بجانبها ومراقبة انفعالاتها وشتائمها التي تنهدّ من فمها نتيجة لمخالفات السائقين الآخرين:

- كس أختك على أمّك...

وهي ثمار انفعال اللبنانيين الظريف الذي سرعان ما يتبدّد.

وكانت تميل إلى الشقرة، شعر كستنائي تفوح منه رائحة لم يشمّ أنفه أعذب منها، تذكّره بحقول القمح في قريته "أبو هاون"! مرّة واحدة فقط نسله بأصابعه وشمّه وهو يضمّها إليه، لكنّها لم تمض مع هذا الوئام إذ سرعان ما انتفضت وعادت إلى مكانها.

أمّا وجهها فصغير تميّزه عينان شهلاوان وفم دقيق، ثم هناك نمش طفيف على الوجنتين لن يراه أحد إلاّ إذا اقترب منها، وكان غسّان يرى فيه مسحة نادرة من الجمال تنضاف إلى وجهها الذي سرعان ما يشحب عندما تحزن، ولكنّه يتورّد في اللحظة نفسها إذا ما تبدّل مزاجها وانطلقت تضحك.

ورغم أنّ غسّانا قد أنهى هذه الحكاية عندما شعر بأنّها ستضيف إلى متاعبه متاعب أخرى، إلاّ أنّه لم يعرف وحتى هذه اللحظة إن كانت قد أحبّته أم لا؟

ثم جاءت حنان عوّاد بشعرها الطويل الفاحم السواد، والذي غالبًا ما تتركه سائبًا على كتفيها، وبوجهها الأسمر الضاحك ذي العينين الواسعتين.

كانت طيّبة إلى حدّ كبير، وأفلحت في انتزاع ما بقي من عـــروق غرســـة رانيـــا في أرضه، هي لم تتعمّد ذلك لأنّها لم تعرف حكايته معها التي دارت بعيدًا عن الأعين بنـــاء على رغبتها، أمّا حنان عوّاد فكانت شيئًا آخر، لقد جاءته بكلّ ما فيها.. وليس بمقـــدوره مهما كان بارعًا في العوم إلاّ أن يستسلم لمياهها حدّ الغرق.

بدأ يكتب لها رغم أنّ ما في قلبه عسير التدوين، ما دامت الرسائل تقرأ مـــن قبـــل الرقابة قبل أن تطلق، وغالبًا ما تصل رسالة إلى أحدهم وعليها تعليق ماجن أو وقح بقلـــم أحد هؤلاء الرقباء، وليس بإمكانه أن يحتجّ أو يقدّم شكوى إذ ليس لديه مـــا يثبـــت أنّ الرقيب هو الذي كتب التعليق.

كتب وكتب حتى تَعب، ثم أطبق الدفتر الذي عبّأ ستّ ورقات منه وبدأ بارتداء ثيابه ليغادر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

-15 -

إذا عاد غسّان إلى بيته بسيّارة تاكسي فإنّه يقول للسائق:

- قرب تمثال أبـــي جعفر المنصور.

وكان بعض السائقين يستوضحه:

- هذا أبو الرأس الكبير؟

أو:

- هذا أبو العمامة التي تشبه عشّ الغراب؟

ويتمنّى أن يطيل باله معهم ليعرفوا من هو هذا الذي يحوّلونـــه إلى نكتـــة، ولكنّـــة يسكت.

كان غسّان لا يعرف كيف يعود بالباص، ولايعرف أرقام الباصات التي تمرّ من أمــــام بيته، إضافة إلى عدم معرفته بمحطّة الانطلاق ومحطّة النهاية.

كما أنّه لا يملك القدرة على الصبر واقفا قرابة الساعة في محطّة الباص منتظرًا قدومه، وغالبًا ما يأتي وهو يغصّ بالركّاب.

هو في هذا نقيض صديقه معن الماجد الذي كيّف حياته مع هذه الباصات، ويعرفهـــا كلّها والطرق التي تسلكها ومواعيد قدومها، وكان يقفز من باص إلى آخر ما دامت لديه البطاقة الصحفيّة السنويّة التي تخوّله الركوب متى شاء وإلى أيّ جهة يذهب.

لكن معن الماجد كان أكبر مشّاء بين أصدقائه. بدأ بمسافات قصيرة عندما تسرّب إلى دمه السكّر، ثم أخذ يطيل المسافة تدريجيًّا حتى أصبح يمشي عدّة كيلومترات، من الصرافيّة حيث مبنى الجريدة التي يعمل فيها إلى القادسيّة حيث بيته.

ولهذا السبب احتفظ برشاقته رغم الانحناء الذي بدأ في ظهره. وقـــد علّـــق غيّـــاث الإبراهيمي ذات مرّة:

- إنّ أكياس الكتب التي تحملها هي التي تسبّبت في انحناء ظهرك.

وقد تلقّف عدنان العزيري هذا التعليق وقال هو الآخر:

- يا ليت المسألة تتوقّف عند انحناء ظهره، ولكنّها ستتسبّب في انحناء ذاك. هذا إذا افترضنا أنّه لم ينحن و لم يطأطئ رأسه لحدّ الآن!

ويصمت معن الماجد ويكتفي بزرع ابتسامة هادئة على وجهه.

ويتذكر غسّان أنّ معن الماجد قد حاول أن يشرح له فلسفته في ركوب الباصات بدلاً من التاكسيات الغالية الأجرة حيث قال:

- إنّني أنزل غالبًا في منطقة "علاوي الحلّة" وأغوص في أسواقها الشعبيّة لأشتري الفواكه والخضروات بنصف ثمنها.
- ثم تحمل الأكياس على صدرك ومعها حقيبتك المليئة بالكتب والأوراق لتندسّ في زحام باص آخر؟
- وما الضّير من ذلك؟ هي أربع محطّات وأكون في بيتي!

ثمّ أضاف مستحثًّا:

- افعل مثلي، تدرّب على ركوب الباصات وإلاّ فركوب قدميك، امش، كن مشّاء مثلي.
- إنّ رياضتك الوطنيّة الوحيدة والممكنة هي المشي أو القفز إلى داخل الباصات بأكياس مليئة بالخضروات والفواكه؟
- حلو تعبير رياضتي الوطنيّة، سأدخله في مقال وأشير إلى أنّك أوّل من انتبه إليه واستعمله.

وعلّق غسّان:

- ليس الأمر ملحًّا إلى هذا الحد، فأنا غالبًا ما أخرج مع أصدقاء لديهم سيّارات، غيّاث الإبراهيمي، عدنان العزيري، طارق المنصور، زيد الحبيب.. أنا وأنت فقط لا نملك سيّارات.

ثم استدرك بلهجة متسائلة:

- ولكن قل لي يا معن ألا يكفيني انتظار واحد؟ فلماذا يا صديقي تريد أن تراكم الانتظارات عليّ؟

وعاد معن إلى حديث الباصات وقال:

- من عادتي أن أركب الباص ذا الطّابقين، وأنا غالبًا ما أصعد إلى الطّابق الأعلى لأستخرج كتابًا وأقرأ، كما أنّني قد أصبح بمستطاعي كتابة بعض الأفكار الأساسيّة لمقالتي التي أنشرها في الجريدة، وهي أفكار تجعل الكتابة أسهل حيث أضعها أمامي وأكتب.

وواصل حديثه هذا عن عالم الباصات الذي أنهاه بإطلاق شتائم من العيار الثّقيل على سوّاق التاكسي، واصفًا إيّاهم بالحرامية ممّا أضحك غسّان وجعله يوجّه له سؤالاً ماكرًا:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- وهل هم وحدهم الحراميّة؟

فما كان من معن إلاّ أن صفن وهو يحكّ رأسه، فأتاح هذا الفرصة لغسّان أن يهمس:

- سرقاتهم صغيرة، نصف دينار، ثلاثمائة فلس، يالبؤس السرقة! ابحث ياصديقي عن الذين يهبرون هبرًا.

وكانت لغسّان تجارب محدودة في ركوب الباص منذ عودته إلى بغداد، ويفعل هذا في الحالات الاضطراريّة وعندما تكون سيّارته في التَصليح.

ولكنّه وبعد أن سكن هذه الشقّة وهو لا يملك شيئًا، لا سيّارة ولا مالاً، بدأ بركوب الباص، وعندما لا يمرّ به أحد من أصحابه الذين يعملون كلّهم نهارًا عدا عدنان العزيري، يعرف كيف يذهب به ولكنّه لا يعرف كيف يعود.

كان يتوقّف في المحطّة القريبة من شقّته ويرتمي في أوّل باص قادم، وكلها تتّجه إلى أحد مكانين، فإمّا باب المعظم أو الباب الشرقي.

يصعد إلى الطّابق الأعلى الذي يقلّ فيه عدد الرّكاب، وبعد أن يتحرّك الباص يلقي نظرة على رأس أبي جعفر المنصور وهو مثبّت على قاعدته العالية، ويتساءل في سرّه لماذا اكتفوا برأسه فقط؟ ولماذا لم ينجزوا له تمثالاً كاملاً؟ ويتذكّر أنّ هناك نموذجًا مصغّرًا منه في مدخل فندق ميليا منصور، وقد تمضي به هذه التداعيات فيحتجّ على غباء ذلك المسؤول الذي اختار هذه السّاحة الجانبيّة ليطلق عليها اسم باني بغداد ويرفع فيها تمثاله النصفي.

عندما يكون وحيدًا فإنّه يسلّم قدميه للتسكّع في أسواق شارع الرشيد، وعندما يتعب يندسّ في مقهى من المقاهي اللقيطة الحديثة النّشأة، والتي يديرها عمّال مصريّون وروّادها أغلبهم من المصريين أيضًا.

لقد ذهبت تلك المقاهي التي كانت تشكّل فضاءات اللّقاء لأدباء ومثقّفي البلد، مقهى البلديّة، مقهى عارف آغا، مقهى البرلمان.. ولم يبق إلاّ مقهى حسن عجمي استثناء.

حتى مقهى الزهاوي كادوا يدكّونه لولا مقالة كتبها الشّاعر حمادي السّعدي، فجعل بلديّة العاصمة تتدخّل وتوقف نية هدمه.

ولكن جولته هذه تنتهي بدخوله إلى أحد المطاعم الشّعبيّة ليأكل الرز والمرق أو صحنًا من الكباب المشوي، ليقفل عائدًا بعد ذلك في أوّل تاكسي فارغ.

***

كان الوقت حوالي الخامسة عصرًا، وقد وصل غسّان إلى الكافتريا فوجد سليم الحامدي هناك، وما إن رآه حتى هبّ واقفًا وتعانقا بحرارة.

- لو لم تأت لذهبت إلى شقّتك، لكنّني عندما سألت عنك أخبرني أبو ريتا أنّ هذا وقت مجيئك.
- ما الذي جاء بك؟
- لديّ بعض المكافآت في مجلّتي الأقلام وآفاق عربيّة زائدًا جريدة الجمهوريّة، وجئت لألّمها.. مصروف البيت، الأولاد كبروا..

كان غسّان عندما يرى سليم الحامدي يشعر بالأمان الكبير إذ هو إنسان يحبه فعلاً. ورغم أنّه يعيش بعيدًا عن العاصمة إلاّ أنّه ما إن يصلها يبحث عن غسّان فيها، وكأنّ زيارته تبقى ناقصة إذا لم يره.

وبعد حديث عن الأسرة وبعض العتب لأنّه لم يتوجّه إلى المقداديّة، حيث روّاد نادي المعلّمين يسألون عنه، قال وكأنّه تذكّر شيئًا:

- عندما وصلت إلى دار الشؤون الثقافيّة سمعت ما أثار دهشتي!
- وما هو؟
- وصلت يوم أمس أربعة كتب مخطوطة كلها تحمل اسم عبّاس السيّد.

وتساءل غسّان:

- وهل أطلق سراحه؟

وخفض سليم من صوته وأجاب:

- هنا المصيبة، حضرت الكتب التي من المفترض أن يكون مؤلفها، وطلب من مدير عام الدار أن يوقف كل ما في المطابع من كتب ومجلات لينصرف العمّال لطبع هذه الكتب لتنجز خلال أسبوع وتوزّع سويّة!
- أتمزح؟
- في أمر كهذا ليس هناك مجال للمزاح.
- وما هي هذه الكتب؟

ورشف سليم كأس الماء التي أمامه قبل أن يواصل:

- أنت تذكر كتابه إيّاه الذي تسبّب في اعتقاله؟

هزّ غسّان رأسه مؤكّدًا، وقال:

- نعم، عليّ ابن أبـي طالب سلطة الحق.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- عظيم، ثم هناك ثلاثة كتب أخرى كل واحد عن أحد الخلفاء الراشدين، عمر بن خطاب سلطة العدل، أبو بكر الصديق سلطة الصدق، وعثمان ابن عفّان سلطة الحكمة، وأتمنّى أن تكون التّسميات هذه دقيقة، وإن لم تكن فهي قريبة من هذا لكن..
- لكن ماذا؟

وهنا صفّق سليم الحامدي بيده وضحك علّه يخفّف من فعل الدهشة التي أخذت صاحبه. وكان النادل حسام قد وقف أمام غسّان ليسأله عن طلبه، فقال:

- شاي.
- حاضر.

بعد ذلك نطق غسّان مستحثًا صاحبه ليوضّح أكثر، قال سليم:

- أخبرني عيسى الجابري الذي اطلع على المخطوطات، باعتباره مدير النشر المسؤول عن تنفيذها، أنّ الكتاب الأوّل الذي بدأت به المشكلة قد جرى قلبه ولم يبق منه إلاّ الاسم، وفي مقدّمته إشارة تقول بأنّ هناك كتابًا مدسوسًا يحمل اسم المؤلّف، والكتاب صدر عن إحدى دور النّشر اللبنانيّة ولا علم للمؤلّف به.

وردّ غسّان:

- والله! لو علم الناشر بهذا لقلب الدنيا على رؤوسهم.

ولكن سليمًا علّق:

- وقد لا يفعل مراعاة لوضع عبّاس، إذ لعلّهم سيطلقون سراحه بعد صدور الكتب، كما يشاع!

وجاء حسام بالشّاي، وبآليّة وضع غسّان ملعقة سكّر في الفنجان، وصار يخوطه وهو مازال مفتوح الشهيّة لسماع المزيد عن هذه الحكاية.

قال سليم:

- وأخبرني عيسى الجابري أنّ هذه الكتب تربط بين شخصيّات الخلفاء الرّاشدين وخصالهم وبين شخصيّة وخصال رئيس الدولة. وأنّه الحاكم العربي والمسلم الذي جمع في شخصه خصالهم كلّهم.. هو أربعتهم مجتمعون.

وارتفعت يد غسّان ليصفع على جبينه، وعندما رمى بجوفه رشفة شاي غصّ بها، وصار يسعل حتى خرج الشاي من أنفه.

نهض وقال لسليم:

- هيّا بنا.
- إلى أين؟
- ليس مهمًّا.. علينا أن نخرج، فقد اختنقت.

* * *

ما جرى لعبّاس السيّد كان أمرًا محزنًا لغسّان العامري، إذ رأى فيه إذلالاً ما بعده إذلال لكلّ من تعاطى الكتابة في هذا البلد.

ربما يكون عبّاس السيّد قد أخطأ عندما قبل أن يوظّف قلمه في خدمة النّظام وصار أحد المبرّرين لكل فعل يقدم عليه، جعلوه في مواجهة الحزب الشّيوعي أوّل الأمر. ومادام قد عاش سنوات في صفوف هذا الحزب فإنّه يعرف الكثير من أسراره ووسائل عمله، كما أنّه أحد القلائل الذين استوعبوا الفكر الماركسي، وقد كانت ردوده على الشيوعيين قبل انهيار الائتلاف بينهم وبين النظام موجعة.

وروى أحد النقّاد العرب الذي كان يزور بغداد في مناسبة ثقافيّة أنّه مرّ بأحد البلدان العربيّة التي لجأ إليها عدد من المثقّفين الشيوعيين، وذكر أنّهم عندما سمعوا باعتقاله شمتوا به وهلّلوا فرحين وشربوا نخب هذا الاعتقال.

وعندما استمع غسّان إلى هذا الحديث لم يملك إلاّ أن يصرخ:

- كفى!

ولكنّه سرعان ما اعتذر من صديقه الناقد الجزائري الذي قال موضحًا:

- أنا لا أعرف عبّاس السيّد، بل ولم أقرأ له شيئًا، ولكنّني رويت ما سمعته في مجلس كنت فيه.

وردّد غسّان:

- عندما تقع البقرة تكثر السكاكين عليها، هكذا قالوا في الأمثال.. أليس كذلك؟

* * *

عندما جاء عبّاس السّيد إلى بغداد امتثل لانقلاب كامل في حياته، من ريف ذي قار إلى العاصمة دون تمهيد.

وكان يظنّ أنّه في مأمن من كل أذى، ثم هاهم يدوسونه بساديّة عجيبة وغريبة، ممّا يدلّ على أنّ لا أحد سيسلم إن هو حاد وإن لم يلبّ ما يراد منه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- 16 -

كلّما وصل غسّان العامري إلى الكافتريا يسأل إن كان أحد قد سأل عنه.

وغالبًا ما يكون السائل غيّاث الابراهيمي الذي يصبح متفرّغًا كل ساعات ما بعد الظّهر.

وعندما لا يكون أحد من أصدقائه قد سبقه فإنّه يفضّل الجلوس في الشّرفة الخارجيّة، وما إن يأتي غيّاث يسلّم عليه ويدخل، وقبل هذا يقول كلمته المعهودة:

- أنا في الداخل متى فرغت من تأمّل العابرين الحق بـي.

ولا يمكث طويلاً حتى يلحق به إلاّ في بعض الحالات التي يتقاتل فيها مـع جيشـان قصيدة ساخطة تلوك أعصابه.

قصائد، قصائد، ركام من القصائد، تتعبأ الدفاتر.. وما دام يتوقّع خطرًا ما فإنّه يحرص على أن يوصل نسخًا منها إلى حنان عوّاد، وقد أوصاها وصيّة واحدة هي أنه إذا حصل له شيء وهو في محرقة الوطن فعليها أن تعمل على نشرها، وكان يوزّعها على هيئة دواويـن ويضع أمام كل واحد منها أكثر من عنوان لتختار مع النّاشر العنوان الملائم منها.

كان يقرأ بعضها لغيّاث الإبراهيمي أو معن الماجد أو عدنان العزيري، وأحيانًا لسليم الحامدي في زياراته الخاطفة لبغداد، وكلهم كانوا متّفقين على رأي واحد هـو أنّ هـذه القصيدة لا مكان لها، والبلد يغرق في حرب سنواتها تتراكم، وكانت يافطـات الحـداد السّوداء التي تنعى هذا الشّهيد أو ذاك وتاريخ ومكان الاستشهاد تملأ الشوارع، كمـا أنّ الحكومة منعت الصّحف من نشر أخبار الوفيّات، ومعنى هذا أنّ عليها إصدار أعداد خاصّة ليس فيها غير أسماء موتى الحرب.

وكان غسّان يعلّق على رأي أصحابه هذا بقوله:

- أنتم محقّون، لكن الحديث عن حالة ما ليس بالضرورة أن يكون مباشرًا، يسـمّي الأشياء بأسمائها، ربّما أكون بعيدًا عن سخونة المشهد اليومي الـذي تحـوّل إلى قصائد مديح طرشت منها الأذان وانزعجت الأعين من وجوه شعرائها الـذين يبرزهم التليفزيون، لكن من يقرأني بانتباه سيجد أنّني لم أبتعد، وإنّني في حماة محنة أبناء شعبـي.

وعندما قرأ الانتباه في وجوه أصحابه قال:

- هناك قناعة رسميّة بأنّ الثقافة لعب وكلام فارغ إذا لم تتحوّل إلى إعلام. هي نظرة قصيرة وقاصرة لدلالة الإبداع ومدياته.

وهنا صرخ عدنان العزيري بعد أن تنهّد:

- أنت خوش..

ولم يكمل، صفن قليلاً ثم استدرك:

- خوش شاعر والله!

وحثّه معن الماجد:

- لماذا لم تقلها؟ هل خجلت منها؟

خفّض صوته ثم توجّه إلى معن بقوله:

- أنت خوش طيز.

وبعد أن قهقهوا هبّ غيّاث الإبراهيمي قائلاً:

- دعونا نخرج، سأدعوكم اليوم على أكلة سمك مسكوف. هيّا، ثم التفت إلى عدنان وقال له:

- اترك سيّارتك "المسكربة"(*) هنا، لا تخف، لا أحد يسرقها وتعال معي.

وفي السيارة تواصل الحديث حيث قال غسّان:

- أريد أن تبقى للقصيدة كبرياؤها، تمنّعها، عصيانها على السائد، وبدون ذلك لن أكون شاعرًا حقيقيًا.

وعلّق معن الماجد:

هناك دائمًا فرصة لنشر الشّعر الجيّد، وكما ترى فإنّني أمرّر بين حين وآخر بعض القصائد التي أراها صوت الشعر العراقي في هذه المرحلة، رغم أنّ هذا الصوت مجزّأ ما بين الداخل والخارج حيث تتناهب المنائي والمنافي عددًا من مبدعي وطننا الجادّين والأصلاء.

كان غيّاث الإبراهيمي يقود سيّارته وبجواره غسّان العامري، أمّا عدنان العزيري ومعن الماجد فقد جلسا في القسم الخلفي، ولكنّه كان منتبهًا للحديث منصتًا له وإن لم يكن مشاركًا فيه إذ كان حذرًا من هذا.

- نظر غيّاث في ساعته وبعد ذلك فتح الراديو وصار يبحث عن إذاعة مونتي كارلو التي تبثّ باللّغة العربيّة ليسمع منها أخبار لبنان والعراق.

(*) أي القديمة المكسّرة في الدارجة العراقية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقد ورد في النّشرة خبر عن معارك طاحنة تدور في منطقة الفاو جنوبي العراق التي احتلّتها إيران منذ شهور وأطلقت عليها اسمًا فارسيًا، وقيل إنّها نقلت لها بعض المعارضين للنظام الذين لجأوا إليها لتكون قاعدهم للانطلاق نحو أماكن أخرى، وكانت البصرة هدفهم الأوّل في هذا.

أنصتوا للخبر وعندما فرغ المذيع من قراءته علّق غيّاث جازمًا:

– إذا استطاع الجيش العراقي استرجاع الفاو ستنتهي الحرب.

وقال عدنان العزيري:

– ثم هناك منطقة" الشلامجة" التي تدور فيها معارك من أجل تحريرها.

وشارك غسّان في التعليق:

– انظروا أي مسارات بدأت تأخذها هذه الحرب نتيجة لتواصلها، فمن ذلك الاجتياح الكاسح للمحمرة ومناطق إيرانيّة أخرى إلى التراجع، ثم هاهي أراض عراقيّة تحتل وربّك يستر!

وعندما دخلوا شارع أبي نوّاس الفسيح العامر بالمقاهي والبارات والمطاعم ومحلّات السمك المسكوف اقترح غيّاث بأن يتناولوا كأسًا قبل أن يوصوا على سمكة.

ولكن عدنان العزيري قال بخبرة العارف:

– نختار السمكة أوّلاً، ونحدّد له الوقت التي نريدها فيه، فهذا هو الأنسب.

ثم داروا في الشارع بحثًا عن بار نظيف وغير مزدحم فوجدوا ذلك في "الكأس الذهبيّة".

طلبوا جميعهم العرق ما عدا معن الماجد الذي امتنع عن الشرب بإرادة عجيبة منذ أن ظهرت عليه بوادر مرض السكّر.

تذكّر عدنان أنّهم قد غيّروا اسم هذا الشارع كما سمع واستبدلوه باسم آخر، وحجّتهم أنّ أبا نوّاس من أصل فارسي وأنّه يتباهى بهذا، فقد جمع في شخصه (سؤدد الفرس ومجد العرب).

ورأى غسّان في عمل كهذا قصر نظر وشوفينيّة عمياء، لأنّ أبا نوّاس شاعر عربي، وكل شعره مكتوب باللغة العربيّة لا بالفارسيّة، وأنّ السذج الذين يروّجون لهذه التخريفات ليس فيهم من يعرف من أين أتى جدّه الثالث هذا إن لم نقل الأوّل.

وهنا أضاف معن:

– على فكرة، تمثاله الذي كان موضوعًا هناك على شاطئ دجلة الذي عرف سمره وزهو لياليه قد اقتلعوه، نقلوه من هنا ووضعوه في مكان منزوٍ بمتنزّه الزوراء.

وغضب غيّاث وهو يشعل سيكارته وصرخ:

- ما الذي يحصل؟ أكاد لا أصدّق ما أسمع، أرجوكم كفّوا عن هذا، لا أريد أن، تكبر خيبتي ببلد أحببته وتزوجت منه وخلّفت فيه حتى أصبحت غير قادر على مغادرته.

ثم أخذ نفسًا عميقًا من سيكارته تلاه بآخر قبل أن يواصل بوحه:

- منذ أن بدأت الحرب لم أغادر البلد، لم أرد أن أتمتّع بإجازة في مدينة بعيدة عن الحرب وانعكاساتها، وكم حاولت ولكن هذا فوق مستطاعي رغم إمكاناتي الماديّة، وما دام العراقيّون ممنوعين من السّفر فإنّني منعت نفسي من السفر أيضًا، كيف أترك غسّان العامري مثلاً وهو يبحث عن وسيلة للسفر وأسافر أنا؟

لقد تألّق غيّاث في حديثه الحميم هذا الذي يجعل محبّة أصدقائه له تتّسع وتكبر.

بعد ذلك سكب العرق في كأسه، وألحقه بقطعة ثلج وقليل من الماء، ورفعها وقال:

- نخبكم أيّها الجميلون في زمن القبح هذا؟

ثم غير من لهجته:

- يلعن... مالذي جمعني بكم حتى تعلّقت بكم كل هذا التعلّق؟ وفوق هذا كلّه مشاكل غسّان الذي يصرّ على مغادرتنا.

واقترح عدنان العزيري أن يصادق غسّان واحدة جديدة، وإن تطلّب الأمر سيحصل له على موافقة خطيّة من حنان عوّاد، وشرح وجهة نظره بهذه الواحدة عندما قال:

- هي للنّيك فقط.

ممّا جعل أصحابه يضحكون فاستغرب هذا منهم، وانتظر أن يتوقفوا عن الضحك ليقول:

- أنا لا أمزح، ليس هناك ما يزيل التوتّر إلاّ النّيك، وأخونا غسّان ليس له من هذا شيء، نحن نعود إلى بيوتنا ونقوم بما نقوم به هذا إن هدى الله زوجاتنا.

قال معن:

- والذي يسمع كلامك يقول إنّك قائم ولا قعود لك.

فشاكسه بقوله:

- انتبه لنفسك فالسكّر يميت الأير!

فصاح غيّاث وهو يعبّ ما تبقّى من كأسه بلهجته اللبنانيّة:

- يا أخوات الشليتة!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- 17 -

كأنّ غسّان العامري متواجد في بغداد ولكنّه غير متواجد فيها أيضًا.

كأنّ كل ما يدور حوله لا علاقة له به، وعندما يفتح التليفزيون فإنّه يخفي الصّوت، وحتى الصور التي تمرّ أمام عينيه فإنّه يراها ولا يراها.

صور لجثث مشوهة، في خنادق، على السواتر الترابيّة، بين أسلاك شائكة، آليات عسكريّة مدمّرة، أسرى يقادون.

ثم عمليات توسيم بالجملة لضبّاط من مختلف الرّتب، وجوه جهمة، ولكنّها كلّها خائفة. غياب الصوت يتيح له أن يتملىّ الملامح جيّدًا، أن يقرأها بتعمّق.

ثم الخطب الطويلة..

تستغرق نشرة الأخبار الرئيسيّة المسائية أحيانًا ساعتين أو أكثر، بحيث يحين موعد النشرة التالية والأولى لم تنته بعد. وهكذا تتغذى عيون المشاهدين بصور الحرب فقط.

البارحة كان التوسيم من نصيب الصهر العزيز، أوسمة كثيرة على صدره من قبل، وإشارة الأركان ورتبة عسكريّة عالية وهو لم يكمل الابتدائية وكان مجرّد جندي نفر من حماية الرئيس السابق.

ولعلّ من يشاهده سيتساءل من أيّة كليّة أركان تخرّج؟ وماذا يقول الضبّاط الذين درسوا العسكريّة في كلّيات خاصّة سواء داخل العراق أو خارجه؟

ماذا يقولون وهم يرون هذا الولد أمامهم محمّلاً بالنياشين ومصيرهم يتوقّف على إشارة منه؟ ولماذا كل هذا؟

مرّة كان غسّان في زيارة صديقه الدكتور زيد الحبيب الذي يترأس أحد الأقسام في كليّة الآداب، وفجأة دخل عليه ثلاثة شبّان لا تسعهم الأرض، بعطورهم الثمينة وقمصانهم الحريريّة وحركاتهم المتعالية.

فهبّ الدكتور زيد الحبيب للترحيب بهم وخرج بنفسه لينادي على الفرّاش ليأتي لهم بالشاي.

أمّا غسّان العامري فقد انكمش في مكانه ليتأمّل المشهد وحالة صاحبه المنخذلة المرتبكة.

وأخرج من الدرج مغلّفًا وقال لهم:

- فيه الأسئلة، اطلعوا عليها.

وأخذوها منه وغادروا بينما كان الفرّاش يهمّ بالدخول وهو يحمل صينيّة الشاي.

خرجوا بدون استئذان ولا اعتذار عن شرب الشاي.

هنا نادى غسّان على الفرّاش الحائر وقال:

- ضع الصينيّة هنا.

وممّن من هم؟ وفور عودة الدكتور زيد الحبيب الذي لحق بهم مودّعًا بادره بالسّؤال:

- من هؤلاء الذين طيّروا شياطين رأسك؟

وهمهم بروحه المرحة بمكر:

- تسألني عنهم كأنّك لا تعرف؟

وواصل غسّان إظهار جهله بهم ممّا دعا الدكتور زيد للقول:

- هؤلاء من أتباع الصهر المبجّل وتحت إمرته مباشرة، أعرفت؟ وهم جاهزون للطبطبة على مؤخرة أي مسؤول، لديهم الصلاحيّة لذلك. هم الأعلون، فوق كل شيء، هم الاصل، أمّا الوزراء والمدراء العامّون فمجرّد واجهات!

- وماذا يفعلون هنا؟

- هم تلاميذ مسجّلون لدينا، وستضحك إن قلت لك بأنّ لا أحد من العميد إلى رئيس الفرع الذي هو أنا إلى الأساتذة استطاع أن يسأل عندما جاءت أسماؤهم من فوق وبتوقيع الصهر عن أيّ وثيقة تخصّهم، حتى شهادة التخرّج من الثانويّة. وعلينا فوق هذا وذاك أن نسلّمهم الأسئلة قبل الامتحان وتأتي الأجوبة، وغالبًا ما يكلّف أحد الأساتذة بكتابتها.

وهبّ غسّان للسّؤال:

- وإن رفض؟

- لن يحصل هذا.

- افترض؟

وعلّق الدكتور زيد وهو يتناول أحد استكانات الشاي من الصينيّة:

- بسيطة، سيحوّلون طيزه إلى طبل ويعزفون عليه السيمفونية التّاسعة لبتهوفن.

- وصرخ غسّان:

- هل نحن في العراق أم في بلاد الواق واق؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- وارتشف الدكتور زيد شايه ببرود عجيب:
- في بلاد الواق واق طبعًا.

وتمتم غسّان كأنّه يكلّم نفسه:

- وقوق الله من وقوقنا.

وأراد أن يغادر ولكن الدكتور زيد أصرّ على أن يصحبه معه ليتغدّيا سويّة في بيته. ثم نهض ليكلّم زوجته ويوصيها بالرز ومرقة الباميا أكلة غسّان المفضّلة.

***

صور، صور، نهض وأطفأ التلفزيون، ثم عاد ليتمدّد على الكنبة.

كانت آلة التسجيل بجانبه، قلّب الكاسيتات الموضوعة جوارها واستخرج أوبريت "حكايات الربيع" الذي ضمّ فيه الرحابنة صوت كارم محمود إلى فيروز فجاء الأوبريت غاية في روعته.

لقد سمع غسّان هذا الأوبريت صدفة من إحدى الإذاعات اللبنانية التي تتراكم على بعضها وبأسماء مختلفة على موجتي أف. أم والمتوسطة.

وما إن انتهت حتى اتصل بمنصور الرحباني الذي تربطه به صداقة، وسأله عن هذه المفاجأة فأخبره أنهم استعانوا بكارم محمود في أكثر من عمل ووعده بأن يزوده بالاوبريت مسجّلاً على كاسيت وقد جاءه به في لقاء مساء السبت الأسبوعي الذي يتمّ في منزل زوج شقيقته الشاعر والمحامي وابن شاعر لبنان بشارة الخوري الذي لقّبه النقّاد الأخطل الصغير.

هذا هو الكاسيت نفسه الذي استنسخ غسّان نسخة أخرى منه وأخفاها تحسّبًا لتلف هذه لكثرة الاستعمال.

وعندما ينطرح على ظهره فإنّ عينيه تشخصان في فضاء الشقّة الصغيرة التي لا يدري كيف انبجس خيال غيّاث الإبراهيمي ليطلق عليها اسم بيت الضبع.

وفجأة تذكّر عبّاس السيّد الذي مازال رهن الاعتقال رغم أنّ الكتب الأربعة التي تحمل اسمه طبعت ووزّعت وبيعت بشكل لافت.

وكان الفضول الدافع الأوّل لمشتريها ليعرفوا ماذا فيها؟

وكان من رأي عدنان العزيزي أنّ الكتب أمليت عليه، أو أنّها كتبت ووضع عليها اسمه؟

لكن ما يهمّ غسّان هو أن يطلقوا سراحه بعد كلّ هذا الذي فعلوه به. والسّؤال الذي يتردّد بين الأدباء:

- ماذا يريدون منه بعد؟

وهو سؤال لم يجب عليه أ حد.

* * *

صحا غسّان من قيلولة قاسية ووجد نفسه غارقًا بعرقه وحتى آلة التبريد التي جاء بها أبو ريتا، وطلب من أحد عمّاله تركيبها على نافذة الشقّة لم تنجح في تبريد الهواء مادامت منغرسة تحت الشّمس القاتلة طيلة ساعات النّهار.

وقام بخلع ملابسه الدّاخليّة التي يفضّل النوم بها، ووقف تحت مرشّ الماء في الحمّام ليزيح عنه العرق والدبق.

ثم ارتدى ثيابه وخرج باتّجاه شارع الرّابع عشر من رمضان، وهو تاريخ يستفزّ بعض العراقيين إذ حصل فيه سبي كبير للناس عند الانقلاب على عبد الكريم قاسم الذي قاد الثورة ضدّ النّظام الملكي ونقل العراق إلى العهد الجمهوري.

وكان الكثيرون يكتفون بتسمية الشارع هذا بشارع رمضان للتعميم بدلاً من التخصيص حتى لا تنسرب الذكريات المؤلمة.

كان الشّارع مكتظاً بالمطاعم والدّكاكين، التي تبدأ من باعة الخضروات والجزّارين وتنتهي إلى مخازن بيع الثياب والأحذية وأشرطة الكاسيت.

كانت وجهته مكتب بريد المنصور حيث الصّندوق الذي اكتراه هناك فلعلّه يجد فيه رسالة، وغالبًا ما يحدث هذا إذ أنّ أصدقاءه لن ينسوه.. فهذا يرسل له كتابه الجديد وذاك مجلّته وثالث رسالة ليطمئنّ فيها على أخباره.

وأحيانًا يجد دعوة لحضور مهرجان أدبي في المغرب أو الخليج العربيين.

لكنّه كفّ عن حمل هذه الدعوات إلى وزارة الثقافة والإعلام للحصول على موافقتها في تلبية الدّعوة بعد أن تكرّر رفضها.

وذات مرّة قال له مدير الإدارة في الوزارة بشيء من المكاشفة:

- هناك انطباع عام أنّك ستهرب، وأنّ الدّعوة مجرّد تعلّة للخروج فلا تتعب نفسك!

وكان أن ردّ عليه:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ولماذا أهرب؟ هل أنا ملاحق قضائيًا؟ هل اقترفت جرمًا؟

وكان جواب مدير الإدارة:

- لم تفعل شيئًا، ولكن من يضمن أنّك لا تفعل أشياء وأشياء عندما تخرج؟

- وهل يتمّ التعامل مع الحقيقة القائمة؟ أم مع افتراض ما قبل وقوعه؟

كان الحوار عميقًا جعل غسّان العامري يسترجع بيتًا لمعروف الرصافي، وأخذ يهذي به وبعيده مرارًا:

(إذ لم يعش حرًّا بموطنه الفتى

فسمّ الفتى ميتًا وموطنه قبرًا)

لكن غسّان العامري كان يطلع أصدقاءه على هذه الدعوات قبل أن يضمّهافي ملف خاص سمّاه "أرشيف أيّام الموت والانتظار".

فتح الصندوق فلم يجد فيه شيئًا، ولذا غادر مكتب البريد متوجّهًا نحو الكافتريا.

***

لم يتّخذ الطريق القريب نحو الكافتريا لأنّ لذّة المشي قد أخذته، ودخل من جديد في الشارع الذي يقود باتّجاه مدرسة الموسيقى والباليه، ومرّ من أمام مكتبة الرفيف ولكنّه لم يجد في نفسه الرّغبة لتقليب الصّحف والمجلاّت.

واستدار يمينًا حيث مطعم "المشوار". وكان عدد من الشبّان مجتمعين في الفسحة أمامه، وبعضهم أوقفوا سيّاراتهم، وقسم منهم خرجوا بسندويشات "الشّاورمة" وصاروا يقضمونها بتلذّذ وهم يثرثرون أو يقهقهون بأعلى أصواتهم، ولا تفلح صفّارة شرطي المرور في تنظيم فوضى السيّارات المتجمّعة أمام المطعم أو في الشّارع الضيّق عن شماله، وغالبًا ما يترك ربّ أسرة أولاده وزوجته في السيّارة ليأتيهم بطلباتهم من الطعام.

إنّها المنطقة الأشدّ اكتظاظًا في حيّ المنصور الرّاقي هذا، وبعض الفتيات يستعرضن أناقتهنّ في هذه المنطقة ليلفتن أنظار الشباب الذين يتحرّكون في الطريق نفسه ذهابًا وإيابًا بعد أن يملّوا الوقوف أمام المطعم.

كان معظم الرّجال يرتدون ملابس عسكريّة وهو زيّ فُرض على مسؤولي الحزب والدّولة الكبار، وفرض عليهم أيضًا تخفيض أوزانهم بأوامر من رئيس الدّولة، وكان الدكتور منعم البصري وهو المختصّ بالطبّ الرّياضي يروي لغسّان نكاتًا عن بعض المسؤولين الذين صاروا يطلبون مشورته لتخفيف أوزانهم، وبعضهم يتساءل إن كان

تخفيض الوزن يؤثّر على قواهم الجنسيّة، ماداموا قد تزوجوا نساء صغيرات بأعمار بناهم بعد أن سمحت لهم القيادة بذلك، ليجدّدوا شباهم على أن لا يتخلّوا عن زوجاهم القديمات.

وقد أعطتهم القيادة مدّة شهرين لينفّذوا أوامرها بتخفيف أوزانهم، ووزّعت على الدّوائر الرّسميّة معلومات لتعمّم على الموظّفين حول نسبة الوزن المطلوبة قياسًا إلى طول الشّخص.

وما إن انتهى الشّهران حتى بدأت عمليّة وزن الوزراء وقياديي الحزب أوّلاً ليكونوا قدوة، وقد ترتّب على هذه العمليّة أن أطلقت نكات يجري تبادلها همس بين النّاس.

أمّا الدكتور زيد الحبيب الذي لم يستطع أن يزيح شيئًا من وزنه نظرًا لغرامه بالنشويّات والحلويّات، فقد ترك الأمر لما قبل إجراء الوزن له بليلة واحدة، حيث تناول زجاجة من زيت الخروع جعلته يسكن المرحاض لعدّة ساعات مفرغًا جوفه حتى أصيب هبوط في الدّورة الدّمويّة كاد أن يفقد حياته بعده.

ويترتّب على كلّ من لا ينقص وزنه وفق الأوامر الرئاسيّة تخفيض درجته الوظيفيّة أو الحزبيّة، وهكذا نحّي الدكتور زيد الحبيب من رئاسة القسم.

وقد خطب فيهم العميد مبلّغًا إيّاهم بأنّ دولتنا وحزبنا شابّان وفتيّان، ولذا وجب أن يكون أساتذتنا وموظّفونا رشيقين قادرين على تحمّل الأعباء.

أمّا عدنان العزيري فعلّق:

- من أين تأتي قيادتنا الرّشيدة الحكيمة بهذه الأفكار؟ ومن كان يتصوّر أنّ النّاس سيحاسبون يومًا على أوزانهم؟ هل نحن خرفان وعجول أم بشر؟

وذكّره غسّان العامري بما صدر قبل هذا من أوامر عليا أيضًا، حيث منع النّاس من كتابة ألقابهم التي عرفوا بها وخاصّة تلك التي تتعلّق بالمدن والعشائر.

وحدثت في البلد بلبلة كبيرة نتيجة لهذا، وظهرت أسماء كأنّها جديدة ولكنّها لأسماء معروفة، حتّى غسّان العامري صار يكتب غسّان جابر رغمًا عنه وشاعر العراق الكبير عبد الوهّاب البيّاتي صار عبد الوهّاب أحمد وعدنان العزيري صار عدنان عبّاس.

وقد اتّفق عدد من الكتّاب بأن لا ينشروا أيّ كلمة في صحف ومجلاّت البلد، وصرخ غسّان كالملدوغ:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- هل وصل الحدّ حتى إلى أسماء الناس ليصادروها وهي تشكّل تاريخهم؟ إنّهم يعنون حاملي ألقاب محدّدة لمسؤولين من مدن معيّنة، فليكتفوا برفع ألقابهم ويتركوا الآخرين!

ثم سرعان ما اكتشفت السّلطة حماقة هذا العمل، وبدأ التغاضي عن عودة الألقاب الأصليّة إلى أسمائها.

في بدايته كان غسّان العامري منبهرًا بقوة الشّاعر معروف الرصافي وبجرأته وانتصاره للحق، ولذا عاش مهمّشًا وفي حال من العوز والفاقة.

ولكنّه رغم هذا كان سيفًا قاطعًا، وقد حفظ غسّان الكثير من قصائده التي بدأ ينساها بمرور الأيّام، فلم يبق عالقا بذاكرته منها إلاّ بعض الأبيات المتناثرة.

تمتم غسّان ببيت عالق بالذّاكرة للرصافي:

(لقد ضيّعتْ بغداد سابق عزّها

وغدتْ تجيش بصدرها الحسراتْ)

وهذا البيت قاده إلى بيت آخر عن بغداد أيضًا ومن القصيدة نفسها:

(لا دجلةٌ يا للرزية دجلةٌ

بعد الرشيد ولا الفراتُ فراتُ)

أمّا دجلة، دجلة الخير كما سمّاه الشاعر الكبير الجواهري الذي أنجبته عبقريّة القول في هذا البلد فقد بدأ نهبه، حيث احتجزوا شاطئه من الأعظميّة وحتى جسر الصرافيّة المعلّق ليتحوّل إلى قصور للحاكمين وأتباعهم. و لم يعد الشاطئ طليقًا مثلما كان، يقصده المهمومون والمقهورون والعشّاق والأصدقاء وهواة العوم ليتمتّعوا بجريانه الجميل، وتأمّل نخيل ضفّته المقابلة من جهة الكرخ وزوارق صيّادي السّمك الذين يفعلون ذلك بشباك صغيرة.

وبدأوا بشراء كل البيوت سواء منها تلك التي تقع على الشاطئ مباشرة أو القريبة منه على الجهة المقابلة.

شراء قسري، رغم أنوف أصحاب البيوت، وليس هناك من يستطيع الاعتراض فمعنى هذا نهايته.

كانت المسألة في محصّلتها الأخيرة عمليّة تشويه كاملة، إذ ستتعالى جدران القصور السماويّة فيختفي وجه النّهر إلى الأبد، ويصبح ملك بضعة أفراد لا أحد يدري بأيّ حق يفعلون ذلك؟

وقد حصل ما يقابل هذا في منطقة ثانية من دجلة وفي شارع أبـــي نواس تحديـــدًا، حيث اعتاد العراقيون على طقوس صيفيّة ممتعة عندما ينخفض منسوب الماء وتظهر الجـــزر الصغيرة وسط النهر التي تنتصب فيها "الجراديغ"؟(*)

لقد منع الناس من الوصول إلى هذه الجزر أو السّباحة في هذه المنطقـــة مادامـــت في الجهة الأخرى مجموعة من المباني التابعة لرئاسة الدّولة.

هناك خوف يكبر من الأشياء التي تحيط بالحاكمين، وأسوارهم حول أنفسهم يزيدون في علوّها ليبقوا في مأمن من خطر الآخرين عليهم.

ممارسات لم يكن غسّان العامري يدرك أنّها قد حصلت في البلد وخلال الســنوات القليلة التي أمضاها بعيدًا عن بغداد. حتى زياراته كانت قصيرة ولذا لم يتسنّ له أن يعـــرف ما يجري، بداية من المتغيرات التي حصلت في سلوك الحاكمين، ثم جاءت الحـــرب ليكـــبر الخوف ومعه كبر العداء للناس، الذي بدا وكأنّ النّظام ينظر إليهم جميعهم بخشية ولكـــن بتعال واحتقار أيضًا.

لم يتركوا شيئًا على حاله، حتى الأسر العريقة اقتحموها، خربوا علائقها، مومســـوا بعض بناها.

وبدا الأمر وكأنّ هناك ثأرًا خبيئا ضد هؤلاء الناس الذين أزيحوا حتى مـــن نفـــوذهم الاقتصادي ليكونوا تابعين للأسياد الجدد.

كل هذا لم يكن غسّان يعرفه، ولكنّه عرفه بعد أن عاد، وعاش تفاصيله فاكتشف أنّ البلد ورغم كل المظاهر، وقصائد الشعراء ماض نحو الخراب.

(*) سقائف من القصب والحصران.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- 18 -

كلّما أحسّ غسّان بالتعب ارتدى ثيابه على عجل وغادر شقّته مخلّفًا هناك وجهه المعلّق على الحائط في تلك الصورة التي "أرمن" فيها زكريان ملامحه، حتى بدا وكأنّه صاحب مخزن للملابس الجاهزة من الذين يراهم في سوق الأرمن الخاصّ بـ (برج حمّود) حيث كان يتردّد عليه مرّة في الأسبوع على الأقلّ، وغالبًا ما كان يخرج وهو يحمل بعض المشتريات التي ثمنها أقلّ بكثير من ثمنها في الأسواق اللبنانيّة الأخرى.

وعندما يغادر الشقّة فإنّ نقطة تمركزه ستكون في كافتريا المنصور، رغم أنّه يشعر بالإحراج من الحفاوة التي يقدّمها له الخواجا أبو ريتا، إذ أمر عمّاله بأن ينفذوا كل طلباته إذا كان غائبًا.

ويزداد فرح أبي ريتا عندما يعرف أنّ من يسألون عن غسّان هم أدباء وفنّانون معروفون، صورهم تظهر في الجرائد والمجلاّت أو في برامج تليفزيونيّة.

وكلّما كان لديه فائض من الوقت فإنّه يجلس معهم مصدرًا تعليماته إلى عمّاله بأن يهتموا بالأساتذة كما يصفهم.

وفي هذه الجلسات يتذكّر أيّام بيروت في مجدها ذاك، وحيث كانت مقاهي الحمراء تعرفهم وتشهد جلساتهم ومسامراتهم الطويلة.

ولكنّه آثر الرحيل بعد أن قتلِ أخوه الأكبر في أحد الحواجز، وامتثل بهذا لما أرادته منه زوجته التي كانت مذعورة ممّا حصل وتتوقّع أن يكون الدّور القادم عليه.

وهكذا حلّ ببغداد ومعه مبلغ مالي مقبول افتتح به مشروع هذه الكافتريا الجديدة على بغداد، أو الأولى من نوعها فيها، إذ كان عالم المقاهي هنا غيره في لبنان، وكلّها مقاهٍ بسيطة تقدّم الشاي ولا يؤمها إلاّ الرّجال فقط.

عندما دخل غسّان الكافتريا كانت السّاعة تقترب من السّابعة مساء، ولكن الشمس مازالت تحتلّ القسم الأمامي من الكافتريا وتُنزل لسع سياطها الكاوية بشماتة ممّا يجعل مكيّفات الهواء عاجزة عن تبريد المكان تبريدًا مقبولاً.

وقد فوجئ بوجود عدنان العزيري الذي سبقه في الحضور، ولم يكن من عادته أن يغادر بيته في فترة ما بعد الظهر إلاّ لأمر ملحّ.

وعندما رآه مقبلاً بادره بالقول:

- لم أمرّ بك، توقّعت أنّك هنا، الحرارة الشّديدة تُخرجك من جحرك؟

وردّ عليه بصوت مسربل بلهجة ساخرة:

- يبدو أنّ امرأتك قد أطلقت سراحك اليوم؟

وحرّك يده ثم عدل من وضع شعره الذي غالبًا ما يهبط على جبينه:

- اسكت، إنّها ليست امرأتي بل قل كارثتي!

فأطلق غسّان أوّل قهقهة خليّة من أعماقه، لكن عدنان واصل الشرح:

- قالت لي أنت ذاهب لغسّان العامري حتمًا، ألم أنهك عن الذهاب إليه؟ لا أريدك أن تصاحبه والسّلام.. وعندما سألتها ولماذا؟ أجابتني بأنّه سيعلّمك على دروبه فتتأثّر به وتطلّقني كما طلّق هو زوجته! أيّ عقل خرافي تحمله هذه المرأة؟

وأخذ يهزّ رأسه، ثم قال:

- تتصورني مازلت ذلك الفتى الجامح الذي يركض وراء بنات موسكو وشعاره "نيك يا ديك"، رغم أنّها تعرف حدود قدراتي الجنسيّة!

وعاد صوت غسّان إلى قهقهته الخليّة، أمّا عدنان فقد انفتحت قريحته الهجائيّة لامرأته:

- تخاف نواياي ولا تأمن لي رغم زواج عشرين سنة وثلاثة أبناء!

وجاءت القهوة المسائيّة وأخذ غسّان يرتشفها بتأنّ متمتّعًا بلفحها المرّ اللاّذع.

ووقعت عيناه على كتاب وضعه عدنان على الطاولة وعرف الوجه الذي يحتلّ كل صفحة الغلاف، هو وجه الزّعيم عبد الكريم قاسم، كما كان العراقيّون يحبّون مناداته رغم أنّه قد رقّي إلى رتبة عسكريّة أعلى، فالتقط الكتاب وهو يسأل:

- هل اشتريته؟

وهزّ عدنان رأسه وتمتم:

- نعم

وهنا أوضح غسّان:

- علمت أنّ كلّ النّسخ المطبوعة نفدت بسرعة ممّا اضطرّني لأن أوصي هاشم العماري صاحب مكتبة النهضة علّه يعثر لي على واحدة.

- أمّا أنا فقد وجدتها صدفة مخبّأة في مكتبة جاسم المطير.

وصفن عدنان قليلاً وقال:

- مازال عبد الكريم قاسم لغزًا؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقاطعه غسّان بالقول:

- في رأيي أنّه كان رجلاً واضحًا وليس لغزًا أبدًا، تميّزه وطنيّة نقيّة ندر أن يملكها زعيم سياسي، وأعتقد لو أنّه أقدم على تأسيس حزب وضمّ إليه الشّخصيّات الديمقراطية في البلد لما استطاع أعداؤه أن يواصلوا التآمر عليه حتى أسقطوه!
- كان يعتقد أنّه أب العراقيين جميعًا وأنه ملكهم كلهم، وقد سمعت في وقتها أنّ أفكارًا من هذا النّوع قد طرحت عليه، أنا أحبّه شخصيًّا فهو أوّل من أنقذ مئات الأسر الوافدة على العاصمة من أكواخ الطّين والقصب ومنحهم منازل لائقة وأسرتي واحدة من هذه الأسر، أمّا ثانيًا فلولا عهده الذي فتح الباب لأبناء الفقراء للتّمتّع بالبعثات الدراسيّة لما ذهبت إلى موسكو وأصبحت أرى الدنيا بفهم أكبر.

وعاد غسّان إلى السؤال:

- ولكن بماذا تفسّر اهتمام الناس المتجدّد به؟
- هناك لدى الناس رغبة في معرفة ماذا كان يدور في بلدهم، فهذا الإعلام الأحادي قد أربك كل شيء، وهو إعلام جاهل وساذج وصفه صديق مثل "خيمة الكاوليّة"(*) لا تسمع منها إلاّ قرع الدرابك، فلا الصّحف تقول شيئًا ولا الإذاعات أو الكراريس التي يفرضها على المواطنين والي بغداد السابق، خال السماء والأرض ويروّجها له مجموعة من محترفي ابتزاز الناس وأخذ الأموال منهم.

وهنا صفّق غسّان بيديه وضحك بقهقهة طليقة، كأنّ في صدره لا يجثم أيّ همّ ثمّ قال:

- لديّ أحدها، وعندما وقع بين يدي ظننت أنّ في الأمر مزحة، وإلاّ كيف يكون هذا العنوان من وضع إنسان متوازن!
- عرفت، وهو الكرّاس الأشهر.
- نعم واسمه" ثلاثة كان على الله أن لا يخلقهم الفرس واليهود والذبّان" ولك أن تتصور!
- عبقري، فلماذا تستغرب وهو يؤاخذ حتى الله على خلقه؟!
- و لكن ما هي العلاقة بين كل هؤلاء؟ ولماذا الفرس أوّلاً؟

(*) الكاوليّة: الغجر باللهجة العراقية.

- بسيطة، لأنّهم تورّطوا في حرب معهم ولا أحد قادر على أن يخرجهم منها!

وهنا دخل إلى الكافيتريا رجلان مريبان انتحيا جانبًا وطلبا بيرة، وأحدهما أكّد على النادل بأن تكون باردة جدًّا، وخفض غسّان صوته:

- لم يعد بمقدورنا الآن الكلام، ولكن لنعد إلى موضوعنا والأهمّ أن تخفض صوتك فأنا أسمعك ولست أطرش مثلك!
- أنا أطرش؟ أذناي مازالتا قادرتين على سماع دبيب النمل، أفهمت؟
- دبيب النمل أم دبيب البعران؟

وهكذا يتواصل نقارهما اليومي الذي يختلط فيه الجدّ بالهزل، لكن غسّان العامري أعاده إلى حديث عبد الكريم قاسم حيث قال:

- يوم إعلان الانقلاب عليه، هبّ الآلاف متظاهرين هاتفين باسمه ورافعين صوره، وقد كدت أذهب ثلاث سنوات سجنا لولا أنّ من شاهدني في المظاهرة الكبيرة لم يبلّغ عنّي، كان اسمه يحيى سعد، مازلت أذكره، ولكنّه بعد ذلك وعندما استتبّ الأمر لهم همس لي بأنّه احترم الصداقة و لم يبلّغ عنّي!

وقال عدنان:

- رغم أنّني لم أقرأ الكتاب كاملاً بعد إلاّ أنّني أتوقّع بأنّ الكتاب لن يجيب على كل التساؤلات حول لغز هذا الرجل العظيم حقًّا!
- ربّما، ولكنّه لم يعد يثير خوف أحد فلم يترك وراءه ولدًا ولا حزبًا بل عاطفة في القلوب، هذا كل شيء.

واستمرّ عدنان في التوضيح:

- وصلت إلى الحديث عن عمليّة إعدامه، وما تلاها.
- لقد تعدّدت الروايات عنها، ومع هذا فكلانا كان حاضرًا عندما رواها رئيس الجمهوريّة السابق أحمد حسن البكر بنفسه، أتذكر؟

وراحا يستعيدان الأيّام الأخيرة من رئاسة البكر عندما وجّهت الدعوة من قبل المكتب الثقافي للحزب الحاكم لبعض الأدباء والشعراء المعروفين ليلتقوا بقادة الحزب الذين ساهموا في الإطاحة بنظام عبد الرحمن عارف، وبينهم عدنان وغسّان وعبد السميع الملاّ، وعندما أُخبروا بموعد اللقاء بالرئيس الحالي الذي كان يومذاك نائب الرئيس أو السيّد النائب كما عمّت تسميته لدى المسؤولين والحزبيين، كان غسّان يستعدّ للسفر إلى الجزائر لحضور ندوة هناك. ولذا لم ينصت لحديث النائب عن نفسه وعلاقته بالحزب.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لكنّه أنصت جيّدًا لما قاله البكر، ودوّن بعض الملاحظات، ولفت نظره أنّه كان يسمّي عبد الكريم قاسم "كريم قاسم"، ولكنّه لم يستطع إلاّ الإقرار بشجاعته الفائقة، وأنّهم عندما جاؤوا به لمبنى الإذاعة وأصدروا عليه حكم الإعدام رميًا بالرصاص قال لهم: (سيخسرني العراق)، ثم طلب منهم أن يسمحوا له بحلاقة ذقنه فهو عسكري، وعندما يعدم فيجب أن يكون نظيفًا ومرتّبًا، ولبّوا له رغبته، لكن عبد السلام عارف الذي عُيّن رئيسًا للجمهوريّة بعد أن أخرجوه من السجن ليجعلوا منه واجهة، كان يمسك بيده القرآن ويلحّ على عبد الكريم بأن يقسم لهم أنّ دوره كان أساسيًّا في الثورة على الملكيّة، ولكن عبد الكريم أهمله واكتفى بالتعليق: (أنّ هذا صار متأخرًا) وقد نُفّذ فيه حكم الإعدام، وقام جنديّ بالتمثيل به عندما أمسك بشعره ليري الناس أنّه مات. وكانت الصورة تنقل عبر شاشات التلفزة فتنصبّ اللعنات على هذا الجندي، وقد قيل إنّه قُتل على يد مجهولين بعد ذلك بأيّام.

أشار غسان بيده إلى النادل حسام ليأتيه بفنجان قهوة جديد، وأكد عليه:

- بدون سكر، كالعادة.

وعلّق عدنان:

- لو شربت ثلاثة فناجين من هذه القهوة لتوقف قلبي وخذلني.

وعندما حضرت القهوة لكز غسّانًا بكتفه وهو يقول:

- اشرب قهوتك، وبعد ذلك سأقرأ لك ما روى المؤلّف عن موت عبد الكريم قاسم، وستجد إن هذا الموت هو إحدى الذرى التراجيدية السوداء التي عرفها التاريخ العراقي المخضب بالدم.

وبدأ غسّان يتمطّق من مرارة القهوة اللاذعة بعد أن كرع كأس الماء الذي حمله النادل معها. نطق عدنان:

- بعد أن تستمع لما سأقرأ، لك أن تتساءل إن كنّا نحن العراقيين، أو فلنقل الوطنيين العراقيين، قد انصفنا هذا الزعيم الشريف أم لا؟

- أنا تظاهرت من أجله، ثم اعتقلوني في اليوم التالي لأمضي في التوقيف عدّة أشهر.

- أما أنا كنت في موسكو أواصل دراستي، ولو كنت في بغداد لا أدري ماذا كنت سأفعل، ولكن ربما سأكون بين أفواج المتظاهرين العزّل الذين زحفوا نحو وزارة الدفاع ليدافعوا عنه، فكان أن حصدهم الرشّاشات بلا ذرّة من رحمة.

ثم التقط الكتاب وأخذ يقلّب صفحاته حتى يعثر على الصّفحات التي يودّ قراءتها لصاحبه، وعندما عثر عليها هتف:

- سأقرأ لك لتعرف أنّ سوفوكليس لا يستطيع كتابة مأساة كهذه، إنـــي أسمّيهـــا التراجيديا العراقيّة!
- سمّها ما شئت مادام السّم مازال يزحف في عروقنا، وهناك من يقـــول إن هـــذه الحرب لعنة عبد الكريم قاسم! وآخر يقول: إنها لعنة أبـــي الشهداء الحسين بـــن علي وثالث يؤكد أنّها لعنة الملك الشاب فيصل الذي اغتيل مع أسرته.

رمى غسّان في جوفه آخر رشفة من فنجان القهوة، بعد ذلك أعاد الفنجان لصـــحنه وهو يقول:

- أليست لصاحبك غسّان العامري الماثل أمامك تراجيدياه أيضا؟ تراجيديا حارقـــة الفصول؟ ألا يكفي أني أصبحت حالة مريبة بالنسبة للحاكمين؟

وبدأت شفتا عدنان تتحرّكان فكأنّه يقرأ في سرّه قبل أن يرفع صوته.

أمّا غسّان فكادت عيناه تدمعان، ولا يدري لماذا لم تستطع الأحداث أن تنتزع منـــه محبّة هذا الرجل الذي أراد لوطنه السّمو فقدّم حياته ثمنًا.

وبين أوراقه شهادة من باحث جامعي عراقي كتبها متأخرا وفيها ذكر (أن العراق لم يشهد طيلة تاريخه الحديث حاكمًا عمل بشكل متواصل ودؤوب على إرساء دعائم حكمه على أساس المشروع الوطني العراقي كالزعيم عبد الكريم قاسم) كما ذكر هـــذا الباحـــث أيضًا: (لقد واجه قاسم قوى سياسيّة وأحزابًا لم تتعوّد على ممارسة الديمقراطيـــة وتـــدفعها رغبات جامحة للسلطة وانهيار أنماط سياسيّة وأخلاقية، وفي مثل هذه الفـــورة الاجتماعيّـــة الجامحة أثبت عبد الكريم قاسم مقدرته الفائقة على مواجهة تلك الظروف الصّعبة) واســـم الباحث د. عدنان فاضل.

لكنهم قتلوه، ولم يكتفوا بهذا بل مثّلوا به، أمسكت يد جندي أبله بـــذلك الـــرأس الطّاهر لتريه لمتفرّجي التّلفزيون وتؤكّد لهم أنّه قد مات.

ولكن هل مات حقًّا؟ أم أنّه مازال أكثر حياة وأرسخ حضورًا ممّن يظنّون أنفســـهم أحياء، صدورهم تغترف من هواء الله؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- 19 -

زكريان لم يعد هنا، رحل من هذه البلاد. لذا لا يمكنه الحديث عن تفاصيل ما يجري. ولو كان هنا لحمل غسّان العامري صورته إليه ولقال له بكثيرمن العتاب:

- لماذا فعلت هذا بي؟ لماذا أوطرت وجهي بهذا الكمّ من الرتوش؟ لقد غيّرتني، حتّى أصبحت وكأنّني لست أنا، كأنّني بائع قماش في سوق برج حمّود اللبناني، لماذا لا تحافظ على ملامحي؟ أعد لوجهي سمرته، بل أعد لي وجهي، أو أعدني إلى وجهي يا صديقي زكريان يا ابن دكران وحفيد كولبنكيان، يا فارس العصر والأوان، أعدني ابنًا لقرية أبو هاون، فتى حافيًا، يضرب في حقول القمح، يطارد الأفاعي وطيور الحجل، يرمي أحلامه بعيدًا إلى مدن لم يرها إلا في الأطلس، إلى نساء لم ير وجوههنّ إلا في مجلّتي "الكواكب" و"مسامرات الحبيب". بين وجهي في الصّورة ووجهي الحاضر هناك مسافة من الأعوام، فوداي لم يعودا أسودين وسالفاي قصّرهما، لقد انتهت تلك الموضة التي جاءتنا من ممثّلي السينما الأميركان، تأمّل وجهي اليوم والتقط له صورة لأعلّقها على الجدار المقابل الذي أبقيته عاريًا وليس فيه غير مصباح معلّق، أشعله أحيانًا أو أطفئه بحسب حاجتي إلى الضوء. لكن كيف أصل إليك؟ إلى أميركا مرة واحدة؟ لماذا فعلت ذلك؟ لماذا لم تبق لتنعم بهذه الحروب الجميلة التي تحصدنا واحدًا بعد الأخر؟ كيف هربت بجلدك؟ ثم انّك هجرت التّصوير لتنصرف إلى مطاعمك التي تقدّم الطّعام العراقي، حتى ولدك الذي أوكلت إليه مهمة إدارة الأستديو بعد أن، درّبته وعلّمته الصنعة على أصولها قد تخلّى عنها بعد تخرّجه مهندسًا الكترونيّا، فماذا بقي؟ كنت فتيًّا نشطًا في سنوات السبعينات، وأنت تلتقط الصّور في ليلة زفافي، صوّرت وصوّرت حتى قلنا لك كفى، ثم جلست بعد ذلك لتشرب كأسًا من البيرّة وتتمتّع بصوت حسين نعمة وفؤاد سالم صديقيّ اللذين أصرّا على إحياء الحفل مجانًا، إكراما لصديقهما الشاعر، فؤاد سالم مضى أيضًا، ارتحل عن هذه البلاد، أمّا حسين نعمة فقد عاد إلى الناصريّة ليقتل أيامه بالسكر والغناء، أربكته العاصمة فوجد نفسه نشازًا فيها لذا غادرها ولا يأتيها إلا لمامًا لغرض تسجيل إحدى أغانيه الجديدة. حسين نعمة رفيق أيّام الضنك والحلم في النّاصريّة الأم،

كنّا نتسكّع فتأخذنا خطواتنا بعيدًا حتى يطلق صوته الرخيم مقلّدًا أغاني فهد بلال أو بلبل الريف ابن مدينتنا حضيري أبو عزيز.

زكريان هناك، شعر رأسه الأحمر اشتعل شيبًا بعد هذه السنوات، وهذا أمر مؤكد، حتى جسده المليء قد ضمر ربما بسبب السكّري أو الضغط، هذا إذا لم يواصل تناول الوجبات العراقيّة الدّسمة المعبّأة بالبهارات التي اعتادت زوجته طبخها.

في أميركا تلك ضاع وجه زكريان، اختلط بوجوه حمراء وشقراء، ومن يراه لا يخمّن أنّ هذا الكيان الآدمي قد ولد في بغداد وأمضى سنوات عمره فيها، ومن قبله ولد أبوه فيها أيضًا. وقد عمّرت ذاكرته بأجمل الحكايا وبوجود الأصدقاء.

وفي فندق سمير أميس كان يلذّ له أن يشرب بضع زجاجات من بيرة" فريدة" أو" ديانا" ويثرثر باللغة الانكليزيّة التي يتقنها مع أحد خبراء الآثار الذين ينقبون عن ماضي هذه البلاد التليد. وإن لم يذهب إلى الفندق فستكون له لعبة طاولة حامية مع جاره الحاجّ عبد الودود القيسي بائع الموادّ الكهربائيّة.

لقد مات الحاجّ عبد الودود قبل أن يزاح دكّانه، ولكن بعد أن مرّت شهور على رحيل زكريان الذي لم ينس أن يكتب له رسالة كلّها شوق ومحبّة.

غادر زكريان مع زوجته ومعه ولدان وبنت واحدة هي أصغرهم، وربما تزوجوا كلهم وأنجبوا وجعلوا من زكريان جدًّا وقورًا يدخّن السيكار ويضع على رأسه قبّعة رعاة بقر.

أما غسّان العامري فمتخثّر هنا، في هذه المدينة، حنان عوّاد كتبت له أنها ربّما تغادر إلى أميركا للالتحاق بأخويها، الكبير منهما حصل على الجنسيّة الأميركيّة بعد أن تزوّج من فتاة أميركيّة من أصول مكسيكيّة.

حمل الرسالة إليه رعد الطويل الشاعر ونقيب المعلمين، أو النّقيب النقوب كما سمّاه نصري الأسمر بعد أن استمع إلى قصيدة الهجاء التي نظمها فيه وعنونها "توبة عرص".

كان هذا قبل يومين فقط عندما دخل عليه رعد الطويل إلى الكافتريا فكان عناق وكانت أسئلة:

- لم تخبرني أنّك آت؟
- هنا مؤتمر للمعلّمين، وقد دعوني فارتأيت المجيء لأشارك، هكذا بسرعة.

ثمّ سلّمه رسالة حنان وفيها الخبر الصّاعق أنّها تفكّر جدّيًا في السفر إلى أميركا والبحث عن فرص عمل طيّبة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقد أوضح له رعد بأنّ السّبب يعود إلى الاشتباكات بين قوّات قائد الجيش ميشال عون الذي عيّنه أمين الجميّل رئيسًا للوزراء وأوكل له أمر البلد، وبين قوّات سمير جعجع حيث أصبحت القذائف تتساقط على مناطق كانت دوما بعيدة عنها.

ويذكر غسّان العامري كيف حصلت حنان على تأشيرة الدخول لأميركا، حيث سافرت وبقيت عدّة أشهر هناك قبل أن تعود ثانية للبنان.

كان ذلك في أوجّ اشتداد حرب الجبل بين قوّات وليد جنبلاط والقوات اللبنانية، إذ استطاع غسّان أن يعبر معها البحر من ميناء جونيه إلى ميناء لارنكا القبرصي.

كان قد اتفق معها ليترافقا وهي تحمل دعوة أخيها التي ستعتمدها عندما تتقدم للقنصليّة الأميركية في العاصمة القبرصيّة نيقوسيا للحصول على التأشيرة، لأنّ السفارة الأميركيّة في بيروت كانت قد أغلقت بعد تفجير حصد المئات من جنود المارينز، وربما كانت هذه هزيمتهم المنكرة الثانية بعد فيتنام، وبأنّ الكاوبوي الدعيّ مجرّد هيكل من الزّور. لذا لم يبق لمن يريد السفر إلى أميركا من اللبنانيين إلا أن يقصد دمشق أو نيقوسيا.

عندما وصلا لارنكا اقترح عليها:

- قبل أن نذهب للسفارة الأميركيّة لابدّ أن نتمتّع بعطلة أسبوع، هل هؤلاء الأوغاد القادمون من أوروبا أفضل منّا؟

ووجد عرضه قبولاً منها. وهنا طرح فكرته بوضوح أكثر:

- هناك فندق خارج لارنكا ويقع على شاطئ البحر، هادئ إلى درجة غريبة، مرّة أمضيت فيه ليلة مع وفد من الأدباء اللبنانيين المدعوّين إلى بغداد.

وأضاف:

- مازلت أذكر اسمه، "ساندي بيج".

وهكذا مضت بهما سيّار التاكسي إلى هناك.

وفي فندق "ساندي بيج" هذا والغرفة 337 منه كانت إقامتهما، السيّد والسيّدة العامري، أو الآمري كما يقول موظّف الاستقبال.

عاشا أسبوعهما بامتلاء جميل، اشترى كل منهما مايوه سباحة. وفي المساء كانا يمضيان إلى أحد المطاعم البحريّة للعشاء وبعد ذلك يتوجّهان إلى أحد مرابع الرّقص ولا يعودان منه إلا في ساعة متأخرة من الليل.

لقد تعايشا بشكل كامل وتآلفا إلى أبعد الحدود، واندفعت نحوه تعطيه من أنوثتها الحميمة حتى أغرقته بها، ولكنّه أيضًا أغرقها به.

ذات يوم وبعد أيّام من تعارفهما أحسّت بأنّها مشدوهة به. وكانا في شرفة مطعم "بوليفار" في القليعات الذي اطمأنّا إليه لعدّة أسابيع، وبعد ضحكة صافية أطلقتها من قلبها هتفت بشكل غير متوقّع وبلهجتها اللبنانية المذيبة للصخر:

- بحبك بحبك بحبك.

هكذا أطلقتها وكررتها ثلاث مرّات لتؤكّدها، فما كان منه إلاّ أن أخذ يدها وأوطرها قبلاً.

بعد هذا الاعتراف بيومين هتفت له لتقرأ له مشروع قصيدة عنوانها "مسافة إليك".. فما كان منه إلا أن قال بعد أن سمعها:

- حلوة هل كنت بحاجة إلى الحبّ حتى تقدّمي لنا قصيدة كهذه؟

ثمّ اقترح عليها أن تنشرها، ولكنّها خافت من زجّ اسمها كاملاً للمرّة الأولى، ثم قالت له:

- سأنشرها كما تريد، ولكنّني سأوقّعها باسم "زهرة الغاردينيا" مثلاً وهي الزهرة التي أحبّها، ثم نبحث عن الأصداء فان كانت مشجعة سأنشر قصائدي اللاحقة إن حصل وكتبتها باسمي الصريح؟

- فكرة! اختاري الصحيفة، وفي رأيي أن تكون" الأنوار".

- ليكن ذلك.. فمحرّرها شاعر أيضًا وصديق أحترمه.

وبعد أن أتمّا أسبوعهما سافرا إلى العاصمة نيقوسيا لانجاز تأشيرتها، وقد توجّها نحو فندق سبق له أن أقام فيه مرارًا واسمه"كندي" ربّما تيمّنا باسم الرئيس الأميركي المغدور، وكانت إقامتهما في غرفة214منه.

ذات مرة قالت له:

- مهما كانت السلبيات في علاقتنا فأنا لا أستطيع أن أجد رجلاً أفضل منك..

نطقت بهذا القول بعد أن أصبحا يتداولان فكرة اقترانهما. وأحس أنّ اختلاف الدّين يؤرقهما، لا سيّما ولبنان يعيش وضعًا استثنائيًّا.. طوائف وأحزاب تتقاتل، وانكفأ كل واحد ليعيش في كانتونه الخاصّ عدا استثناءات قليلة. وذات مرّة أخبرته بشيء من الدهشة أنّ شقيقتها استغربت من هذه الصداقة بينها وبين غسان، وتساءلت الأخت وكانت لاتزال في المرحلة الثانويّة من دراستها:

- أليس الأستاذ غسّان مسلمًا؟

وهزّت حنان رأسها بنعم، وهنا عادت الأخت للتساؤل الحائر:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- بعض زملائي يقولون إن المسلمين أعداؤنا؟

وواصلت حنان الإجابة على هذه الأسئلة التي أرعبها مجرّد طرحها، ولكنّها كانت واثقة بأنها حصاد أخلاقيات الحرب والاقتتال الطائفي. أجابت:

- ما رأيك بغسّان؟
- هو إنسان لطيف ومهذّب ونحن نحبّه كلّنا بابا وماما وأنت، وأنا.
- عظيم، مادمنا نحبّه بهذا الشكل فهو ليس عدوّنا ولا يمكن أن يكون كذلك. انه مسالم إلى أبعد الحدود. وهو مجرّد نموذج من المسلمين غير المتزمّتين، وغيره مئات الألوف حتى في لبنان، متسامحون وقلوبهم لا تتسع إلا للمحبّة.

وعندما كانت تنقل له هذا الحوار الذي دار بينها وبين أختها الصغرى كانت تختنق رعبًا وتتمتم:

- أيّ لبنان سيكون في الغد، وهذا جيل يربّى على مفاهيم كهذه؟ ومع هذا قلت لأختي إن الدين لله ولكل واحد دينه الذي ولد عليه و لم يختره.

وحاول غسّان أن يخفّف عنها فداحة ما واجهته، رغم أنه هو الآخر قد ذهل ممّا سمع عندما قال لها:

- كل هذه الأفكار ستنتهي.

كانت تساؤلات حنان تتعبها وتجعلها متوتّرة، لقد انساقت في علاقة تعرف أنّها مرفوضة من قبل مجتمعها الصغير رغم أنها في داخلها ليست متديّنة، ولكنّها تراعي وضعها الخاصّ.

والحالة نفسها عاشتها رانيا خليل قبل أن تفكر بإقامة علاقة بغسّان، حيث كانت تخاف الاقتراب منه.. لذا صمّمت على أن تدوس على قلبها من أجل أن تكون هناك آيّة مأساة.

لكنّ حنان عوّاد جعلته رهين شكّ لا يخطئ بأنّها لم تحسم الأمر بعد، هل ستضع يدها بيده وليذهب العالم إلى الجحيم؟ أم ستهرب منه ومن نفسها بالسفر إلى أميركا؟ ولعلّ دخولها إلى ذلك العالم الواسع العجيب سيبعدها عن كل معاناتها، فيتحوّل غسّان إلى حلم جميل لكنّها صحت منه.

بعد أن وضعا حقيبتيهما في غرفتهما بفندق "كندي"، اقترحت عليه أن يذهبا إلى السفارة الأميركية فمضيا إلى هناك، حيث وجدا عشرات اللبنانيين الذين ينتظرون دورهم في الدخول، وعندما استفسرت عن الموضوع أخبرتها امرأة كانت برفقة ولديها الصّغيرين

بأنّ عليها أوّلاً أن تأخذ الاستمارات وتعبّئها، ثم تعود في الثّانية عشرة ظهرًا لتقف بالدور وتبقى في مكانها بقيّة النّهار، ثم تبيت ليلتها جالسة على الأرض أو واقفة.. وقد يأخذون منك الاستمارات ويدخلونك في مثل هذا الوقت في صباح اليوم التالي.

وصاحت حنان باستغراب كبير:

- ياه.. كل هذا!

ثم أردفت:

- هل يحتقرنا هؤلاء الأميركان إلى هذا الحد؟ ماذا يتصوّروننا؟

وربّت غسّان على كتفها وقد أصغى لما فاهت به المرأة، وقال محاولاً أن يهوّن عليها:

- مسألة بسيطة، وهي ليلة واحدة، ستقفين وعندما تتعبين سأقف مكانك وتذهبين إلى الفندق فهو قريب لتنامي وعندما تعودين أذهب أنا، دعينا نجدول الوقت، نعتبر أنفسنا حرّاساً ليليين لدى أجداد رونالد ريغن أتفه ممثّل رأيته في حياتي.

وانسحبا من أمام السفارة وقصدا مطعمًا قريبًا، ثم حملا معهما زجاجة ماء معدني، وعندما اقتربت السّاعة الثّانية عشرة قال لها مستحثًّا:

- هيّا إلى الطّابور الأميركي العتيد!

وهناك وقفت ورغم أنّها جاءت مبكرة فقد وجدت من سبقها وأخذ الدور قبلها.

والآن هاهي تخبره في رسالتها التي حملها رعد الطويل أنها ستسافر إلى أميركا. في تلك المرّة سافرت، وبقيت ثلاثة أشهر، ولكنّها عادت، وعندما تفكّر بالسّفر من جديد وسط خراب أمني لم يعد فيه أيّ مكان بمنأى عن مرمى القذائف المجنونة، فإنه لا حلّ إلاّ بالمغادرة، ولكنّها إن غادرت فلن يراها ثانية، إلاّ إذا لحق بها إلى هناك، ولكن كيف وهو لم يستطع أن يجتاز حدود بلده؟

وبحضور رعد الطويل النقيب النقوب كما يسمّيه نصري الأسمر أو النقيب المتنقّب الانقب النقوب الثقوب كما مدّد غسّان العامري هذه التسميات، فإنّ جوًّا من المرح يفرضه بحضوره النّاعم.

وقد دعاهم غيّاث الإبراهيمي ليسهروا في النّادي اللّبناني. ومع هذا لم يتناولوا عشاءهم فيه وخرجوا باتجاه شارع أبي نوّاس ليلتهموا سمكة مسكوفة ويمصمصوا حتى عظامها.. وكانت هذه مشيئة رعد الطويل.

وفي اليوم التالي كان التلفزيون ينقل لقاء وفود المعلّمين العرب برئيس الجمهوريّة، وقد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

راقب اللقاء كل من غسّان العامري وغيّاث الإبراهيمي وهما يجلسان في حديقة منزل الإبراهيمي وأمام كل منهما كأس من الويسكي.

قال غيّاث بعد أن سمع مدير الجلسة وهو يقدّم الشاعر رعد الطويل بأنّه ليس نقيبًا لمعلّمي لبنان فقط بل هو شاعر أيضًا، ونهض رعد بقامته المديدة وتوجّه نحو المنصّة ممّا دعا غيّاثًا للتعليق:

- هذا النقيب العكروت دائمًا يخفي المفاجآت؟

وألقى النقيب النقوب جنجلويّته العتيدة التي صال بها وجال وألهب الأكفّ بالتّصفيق، وبعد أن فرغ من إلقائها مضى ليصافح الرئيس الذي حيّاه وألقى تعليقا مسهبًا عن الشّعراء الذين لا ينكسرون.

أمّا غيّاث الإبراهيمي فقال:

- أخوك النقيب لن يرى لبنان بعد هذه القصيدة، وعليه أن يبحث عن ملاذ.

واقترب منهما إبراهيم وهو ابن غيّاث الأصغر ذو الخمسة أعوام، وكان غسّان يحبّ أن يضمّه إليه بقوة، فيقول له بتوسّل:

- عمّو غسّان لا تجعصني!

وهو هنا يستعمل مفردة عراقيّة صحيحة، تعلّمها من المدرسة.. حتى غيّاث رغم إلمامه باللّهجة العراقيّة فقد كان يجهلها إلاّ بعد أن سمع شرحًا لمعناها من زوجته، حيث قالت له:

- يجعص معناها يهرس أو يعصر أو شيء من هذا القبيل، ولكن يظلّ للكلمة معناها الأعمق الملتصق بالوجدان الشّعبي وهو المعنى الذي من الصّعوبة ترجمته.

ناداه غسّان فامتنع عن المجيء أوّل الأمر، وهو يقول:

- أنت تجعصني؟

- تعال، أبوسك أوّلاً ثم جعصة صغيرة بعدها!

وضمّه إليه بهدوء ثمّ قبّله، وتذكّر ابنتيه اللّتين لم يرهما منذ فترة وكبح عبرة أرادت أن تنفجر في أعماقه.

***

كان اللّقاء بالشاعر والنقيب النقوب رعد الطويل صاخبًا في كافتريا المنصور، حيث أصبح وجهه أليفًا لدى الجمهور الذي ليس أمامه إلاّ قناة تلفزية واحدة ينصلب أمامها ليتابع كل ما تبثّه من أشلاء القتلى وحطام الدبابات إلى الخطب إلى توسيم الجنود والضبّاط

إلى مدائح الشّعراء إلى أفلام السهرة التي تهلهلت من كثــرة العــرض.. وكــان عــدنان العزيري.. يصفها بأنّها أفلام من عهد "دقيانوس"، أمّا هذا الدقيانوس فليس هناك في كتب التاريخ أيّ إشارة له، لكنّه عهد اكتشفه العزيري في لحظة تجلّ، هذا كل ما في الأمر.

***

حمّله غسّان العامري رسالة إلى حنان يتمنى لها فيها رحلة موفّقة، وعسى الحظّ يحالفها في إيجاد عمل مذكّرًا إيّاها بأنّه مازال عالقًا مثل سمكة في شباك صيّاد.

ثم سجّل لها آخر قصيدة كتبها على شريط كاسيت وقال لها: اسمعيها واكتبــي لي رأيك فيها، وإن لم تستطيعي ذلك من لبنان فابعثيه من أميركا هذا إن فكّرت أن تكتبــي لي لأطمئنّ عليك.

قال غسّان مخاطبًا رعد الطويل:

- في داخل المظروف هناك قصيدة تقف على الضدّ من قصيدتك، فهي قصيدة نثر وقصيدتك عمودية وطويلة مثل قامتك ولقبك وأنفك وربما أشــياء أخــرى إذا أحببت أن تكشف عليها فلا مانع لدينا، ثم إنّ قصيدتك متفائلــة مادحــة أمّــا قصيدتي فيائسة وقادحة لكلّ الواقع الذي نعيشه، إنّها قراءة تحفر في العمــق ولا تتوقف عند الظاهر للعيان! أنت تبعث الحماسة وأنا اليأس.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- 20 -

امتثل غسّان العامري لرغبة صديقه عدنان العزيري الذي نقل له دعوة من ضياء الشطري لتناول طعام العشاء مع كأس من الصّهباء في بيته.

في بادئ الأمر لم تكن لغسّان أيّ رغبة ولكن أمام إلحاح صاحبه وإكرامًا لصديقه الذي يحتفل بصدور كتاب جديد له، هو في الأصل أطروحة الدكتوراه التي كتبها في باريس باللغة الفرنسيّة، وقد أخبره أنّ هناك ضيفين آخرين غيرهما هما الشّاعر عبد السّميع الملاّ رئيس اتحاد الأدباء ووكيل الوزارة والناقد قاسم الصافي الذي يرأس تحرير مجلّة الأقلام العريقة.

وقد جاء عدنان في الثّامنة مساء بحسب الموعد، فوجده واقفًا أمام باب العمارة وهو يتحدث مع صلاح الحارس الذي كان يريد التأكّد من صحّة الشّائعة التي تتردّد في أوساط المصريين بأنّ الحكومة ستبعد عددًا كبيرًا منهم، وكان غسّان يطمئنه أنّ هذا غير صحيح مادامت الحاجة ماسّة لهم وربما يحصل ذلك بعد توقّف الحرب.

وعندما وصلا إلى البيت رحّب بهما ضياء الشطري الذي قادهما إلى غرفة الضيوف وكان قاسم الصافي وعبد السميع الملاّ قد سبقاهما في الوصول.

وبدأت الجلسة بأن ملأ كل منهما كأسه وجلس مسترخيًا، ودارت الأحاديث وإن كان الأدب محورها إلاّ أنّها قد طرقت مواضيع أخرى منها الحرب.

وبعد أن أخذهم حديث الحرب بعيدًا، علّق ضياء الشطري ليوقّف مسار هذا الحديث المتعب:

- على مهلكما، فقد جئنا لنحتفل بصدور كتابي، وكنتم أوّل الأصدقاء الذين أخصّهم بنسخ مهداة منه، وقد حضّرتها لكم قبل مجيئكم.

وقاطعه قاسم الصافي:

- مبروك وسوف أبدأ بقراءته منذ الليلة هذا إذا عدت للبيت وفي الرأس بقيّة من صحو، أما إذا قضيتم عليّ فسأبدأ بقراءته غدًا.

وعلّق غسّان:

- وعلى رئيس إتحاد الأدباء صديقنا عبد السميع الملاّ أن يدعو إلى ندوة عنه ويدعو بعض المعنيين في النقد المسرحي لمناقشته.

وربت عبد السميع بيده على صدره وصاح:

- خذوها منّي، حدّدوا الموعد والأسماء، واعتبروا أنفسكم منظّمين لها.

ثم جاء ضياء بنسخ كتابه ووزعها على أصحابه، وعندما مدّ لعدنان بنسخته قال قبل أن يستلمها منه:

- لن أقبل منك النسخة إذا لم تنصّ في إهدائك إلى الروائي الكبير!

وضحك ضياء وأكّد له:

- اطمئن، لقد فعلت هذا. فأنت كبير عمرًا ومقامًا!

ثم شربوا نخب صدور الكتاب، وبعد أن شملهم الصمت انطلق صوت عدنان ليقول:

- أنا على وشك الانتهاء من روايتي "رجل الضوء" وإن صدرت وأحدثت الرجّة التي أنشدها في الواقع الأدبي سأقيم لكم احتفالاً، وسيكون غسّان العامري حاضرًا فيه رغم الحظر الذي مازالت زوجتي تفرضه عليه، سأخترق هذا الحظر وأجعله على رأس المدعوين.

ثم حضر العشاء وصار ضياء ينقل الصحون ويضعها على الطاولة يساعده في ذلك ولده الطالب في كليّة الهندسة، وقبل أن يدعو ضيوفه إلى المائدة رنّ الهاتف، وكان المتكلّم ابن عبد السّميع الذي نقل إلى والده خبرًا مهمًّا كما يبدو.

وبعد أن أغلق سمّاعة الهاتف قال بارتياح:

- لقد أطلقوا سراح عبّاس السيّد.

وانطلقت تعابير الفرح من أفواههم، وهمهم غسّان:

- وأخيرًا.

وهنا دعا ضياء إلى تناول كأس جديدة مهما كانت العواقب على الضعاف أمام سطوة الخمرة احتفاء بإطلاق سراح عبّاس السيّد.

وتساءل عدنان موجهًا كلامه إلى عبد السميع:

- ومن نقل الخبر إلى ولدك؟

- تلفن لي حمادي السعدي، وعندما لم يجدني قال له قل لوالدك إنّ عبّاس السيّد قد أطلق سراحه، وبذا فإنّ كتاب ضياء كان بشارة خير وجالبًا لفرحة ثانية.

وهنا اقترح عليه قاسم أن يتصل بحمادي ويستوضحه أكثر حول الموضوع فنظر في ساعته وأجاب:

- الوقت متأخر، سنعرف التفاصيل غدًا، والمهمّ أنّه مطلق السراح الآن.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وتمتم غسّان:

- لقد تفانى حمادي السعدي من أجل أن يرى عباس السيد طليقا.

وعلق عبد السّميع موافقا:

- هو الوحيد منا الذي تجرّأ على طرح موضوعه على الرئيس عندما استقبلنا رفقة وفد من الأدباء العرب قبل حوالي الشهر.

وكان قد وزّع في المكتبات قبل أيام كتاب باسم عباس السيد عنوانه "عملاق من الرافدين" الذي طبع بشكل باذخ بغلاف سميك وغطاء يمثّل صورة رئيس الدولة باللباس العربي.

وكان غسّان العامري قد قلّب الكتاب في مكتبة "بناي" ثم أعاده، التقت عيناه بعيني بناي. وقالت الأعين أشياء كثيرة.

- 21 -

وصل عدنان العزيزي مبكرًا، وأوقف سيارته بمواجهة نافذة غسّان العامري، وضغط على المنبه ثلاث مرّات، وفتح غسّان عينيه ومدّ رأسه ليتأكّد إن كان هذا صاحبه حقًا.

كان أثر السّكر باديًا عليه، لذا لوّح له بأن يصعد. وبعد أن دخل عدنان وهو يلهث ويضع يده على صدره:

- إذا متّ يومًا فشقّتك هذه ستكون السبب الرئيسي، وآنذاك قد تقتلك زوجتي وتشرب من دمك!

وضحك غسان وهو يتثاءب ويربت بيده على صدره:

- يا فتّاح يا رزّاق، ألم تجد غير حديث زوجتك؟

- هي زوجة عظيمة!

- على عيني وعلى رأسي، وبعد؟

أجاب وهو يغير لهجته:

- لقد ائترقت رغم أنّني تجاوزت المسموح به من العرق والبيرة، وها أنا أمامك لنذهب إلى دار الشؤون الثقافية لنعرف حكاية عبَاس السيّد.

- حاضر، ولكن اسمح لي أن أتدوش أي آخذ دوشًا، استفد من هذه الاشتقاقات التي أضعها أمامك بلا مقابل أيها الجهبذ الثبت.

- اذهب، تدوّش أو اغسل طيزك لكن بسرعة حتى تخرج وتهيئ لي فنجان قهوة! لقد أصبحت أحد مدمني قهوتك.

- جعلني السكر أنام كالقتيل!

- هيا ادخل إلى حمّامك ولك أن تترك الباب مفتوحًا لأتفرّج على طيزك المشعر بدلاً من تلك الأطيز الروسيّة. حلوة أطيزْ؟ أضفها إلى قاموسك الشعري الفقير.

***

كان ما علماه هناك أنّ عباس السيد قد أطلق سراحه فعلاً وهو الآن في بيته، ولكن لم يطلق سراحه إلاّ بعد صدور كتاب "عملاق الرافدين" المكرّس بكامله لحياة رئيس الجمهورية، وردّد غسّان:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- وإنني أتساءل ماذا يمكن أن يقال حول هذه الحياة؟ أيّ جديد؟

وصاح غسّان:

- قل لي يا عدنان هل هناك مسّ في الإيقاع العراقي؟ خلل؟ هوس؟ لماذا كل هذا؟
- مسّ أو لعنة أو خلل، أو... قل ما شئت فهو الخراب!
- هل نحن في العراق؟

وردّ عدنان على الفور:

- نحن في بلاد العجائب التي ذهبت إليها أليس في حكاية الأطفال المشهورة؟

وهنا قال غسّان بكثير من الهدوء:

- إذا خلعت الآن ثيابي أمام مبنى دار الشؤون الثقافية وما حوت من أدباء وموظّفين وصرت أتشقلب مثل شمبانزي، فهل يلومني أحد؟
- أبدًا، ولكن كل ما يفعلونه هو الاتصال بمستشفى الشمّاعيّة للأمراض العقليّة ويودعونك فيه لأستريح منك، وتكفّ زوجتي عن نقر رأسي لأقطع علاقتي بك.

* * *

أحسّ غسّان العامري بأنّ الأحداث تتركّب بلا معقوليّة غريبة، وبعضها يبدو له في منتهى السذاجة والبلاهة، وخاصّة ما تعلّق منها بالثقافة والإعلام.

وكان لبعض الصحفيين العرب من محترفي هذا النوع من الكتابات حاسّة شمّ غريبة، وبها يؤشرون نقاط الضعف فيرسمون المداخل لينالوا الأموال الطائلة. إنهم يجوبون فنادق الدرجة الأولى في بغداد، يطلبون اللقاءات، ويبدأون من فوق فإذا تعذّر يبدأ الهبوط درجات، ولكنّهم لن يرتضوا إلاّ بوزير على أقلّ تقدير.

أمّا الصواريخ الإيرانيّة فصارت خبر كل يوم، صافرات إنذار ببدء غارات، ثم بانتهائها. ودائمًا هناك قتلى وخراب.

وشاشة التلفزيون مسرح للجثث، حتى المذيع تلبّسته حالة من الساديّة العجيبة وهو يروي تفاصيل المعارك والأعداء الذين يتساقطون، والجرّافات التي تجرف أشلاء هم لتكدّسها في الحفر، وإذا فكّر المرء بالخروج إلى الطرق الخارجيّة فإنّه لا يرى إلاّ سيّارات تحمل جثثًا ملفوفة بالعلم العراقي، وكسيت الشّوارع بالمزيد من اليافطات السوداء المعلّقة على الجدران وأبواب البيوت وكلّها تنعى شهداء هذه الحرب الغريبة.

غسّان العامري يريد أن يبقى متماسكًا، محتفظًا بصحوه، وأن لا يبقى مخدّرًا ومع هذا فلا مجال أمامه إلاَ أن يطفئ مابه من لهيب بالسكر وبمزيد من السكر.

وعرفت خطواته طريقها نحو بار "المرايا"، ليعبّ البيرة الرديئة التي لم تخمر جيدًا نظرًا لكثرة الطلب عليها، لذا تورث الرأس صداعًا لا يهدأ.

كانت هناك وجوه لا تنقطع عن ارتياد هذا البار المبرّد، ونادرًا ما يغيب أحدهم، وهم حريصون على الدوام في مكاتب الصحف والمجلات التي يعملون فيها.

سامي، صلاح، منذر، سلمان، وغيرهم، كلهم مبدعون، طحنتهم الأحزان فبانت وجوههم صفراء شاحبة كأنّهم نزلاء في مستشفى. يتحدثون عن كل شيء، يسخرون، يطلقون السباب، ولكنّهم لا يقتربون من الموضوعات التي وراءها قطع الرأس رغم أنّها الماثلة والأكثر سخونة.

بعضهم كتب قصائد، وتغنّى بالأمجاد العتيدة لسلالة الله، ولكنها لم تصل. غيرهم وصلت كلماهم ونالوا "المكرمات".

أحدهم كان يكتب في المناسبة الواحدة ثلاث قصائد مختلفة، يحمل كلّ واحدة إلى جريدة، ثم تظهر سويّة، و لم يستطع أحد كبح عبارات التّندّر عليه التي صارت معروفة حتى لدى رؤساء التحرير أنفسهم.

وعندما نصح غسّان هذا الشّاعر بأنّ ما يفعله غير صحيح ويجعل قصائده مبتذلة، قال شارحًا وجهة نظره:

- لعل عينْ ذلك الرّجل الذي فوق"فوق" تقع على إحداها، إن لم يكن ذلك في "الجمهورية" ففي "الثورة" وإلاّ في "القادسية" فتهبط المكرمة، لديّ خمسة أولاد وكلّهم في الجامعة ولا سيّارة لديّ ولا بيت، ولست المسؤول عن هذا السلوك بل هم الذين جعلوني أفعل هكذا، كما جعلوا الشعراء الآخرين، هذه الوسيلة الوحيدة.. أمدح وأمدح.. وأعجبته هذه الصّراحة رغم أنّها صفعته أيضًا، فقال:
- ولكنّك بعملك هذا تستهين بشعرك، تصبح وكأنك متسول ليس إلاّ؟
- ألم يجعلونا مثل المتسوّلين الذين ينتظرون المكرمة كما تسمّى، هي هذه المكرمة بحق الله وجميع الأنبياء والأئمّة والأولياء؟

ذاك الحديث أصابه بالذعر. هذا الرجل أشعر من سهيل صبري مدلّلهم، ولكن حظه عاثر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وهنا يستحضر غسّان آخر لقاء له مع سهيل صبري، حيث دخل إلى فندق شيراتون مساء لزيارة إذاعي لبناني صديق له يقيم فيه تلفن له إلى كافتريا المنصور فلم يجده، وطلب من النّدّل أن يخبروه بأنّه قد سأل عنه، وحدّد لهم مكان إقامته ورقم غرفته. ولّما كان غسّان قد حضر بدون اتصال فإنّه وجد صاحبه خارج الفندق فهمّ بالمغادرة، ولكنّه سمع صوتًا يناديه:

- أستاذ غسّان، يا عامريّ!

فالتفت فإذا به أمام فتى يرتدي الزيّ العربي، العقال والكوفيّة البيضاء ثمّ تأكّد له أنّه سهيل صبري الذي أصرّ على أن يسحبه من يده لتناول شيء من الشراب.

كان لدى غسّان وقت فائض لايعرف كيف يبدّده، فامتثل لدعوة سهيل.

وتوجّها إلى البار وأخذا لهما مكانًا، وكان النّدّل قد احتفوا به ممّا يؤكّد أنّه زبون لديهم.

ودار حديث كان غسّان فيه حذرًا إلى أبعد الحدود، وكأنّه بهذا الحديث يحاول التّعرّف على هذا النموذج ذي الخطوة أكثر فأكثر.

سأله سهيل:

- كم دينارا راتبك التقاعدي؟

أجابه بعد أن تردّد قليلاً لما حمل السؤال من مفاجأة:

- حوالي المائة وخمسين دينارًا.

وعندما سمع الرقم صار يقهقه بطريقة يحاول فيها أن يقلّد قهقهة الذي فوق والتي صارت شائعة ومعروفة. ثم قال:

- هذا مبلغ أضعه في جلسة صغيرة بهذا البار.

كان سهيل صبري قصيرًا، جاحظ العينين، تحوّلت مكرمات قصائده الطائلة إلى أكثر من عمارة ومعمل للنجارة ومعرض للموبيليا، ومشاريع أخرى.

وعندما سمع غسّان بهذا قال لمعن الماجد في وقتها:

- إنّها أغلى قصائد في تاريخ العالم، هي عشر قصائد أو أكثر بقليل بحيث لا تشكّل ديوانًا ولا كرّاسًا صغيرًا يبلغ حصادها أكثر من مليون دينار وأسطول من سيّارات المرسيدس والسوبر إضافة إلى البيوت والمزارع؟!

وتذكّر صوت عدنان العزيزي اللاّهث المتعب، عندما شرع في قراءة الفقرة الأساسيّة من الكتاب الصادر عن عبد الكريم قاسم وكيف أعفاه من المهمّة بعد أن رأى حالته،

وطلب منه أن يؤشّر له مايرشّحه للقراءة ليتولّى ذلك بنفسه، وقد نهض في وقتها وتوجّه نحو المكتبة المواجهة للكافتريا وصوّر الصفحات وعاد مسرعًا ليعيد الكتاب لصاحبه.

طبّق غسّان الأوراق ووضعها في جيبه وهو يقول لصاحبه:

- كان الرجل أسطورة الناس المغلوبين البسطاء.

وراح يشرح:

- كيف يمكن للشّعوب المتخلّفة أنْ تخلق أساطيرها؟ وعلى الرّغم من أنّهم قد قتلوه ومثّلوا به وأظهروا صورته في التلفزيون، إلاّ أنّ جموع الفقراء لم يصدقوا ذلك، كان أسطورتهم ولذا لم يسمحوا لأحد بإعدامها، ولذا تناسلت عنها عشرات الحكايات.

وقد كان عدنان يصغي، لذا قال:

- مرّة قالوا إنّهم شاهدوه في القمر، وكأنّ القمر مقصورة في سينما، وثانية قالوا إنه وصل إلى إيران وقد حلّ ضيفًا على الشاه، وتلفزيون إيران بث لقاءه بالشاه، وكان رأي غسّان:

- هي أحلام الوهم ليس إلاّ، وعبد الكريم أعدم بإصرار من قبل خصومه.

تلك الأوراق التي صوّرها غسّان عن الكتاب نسيها في جيبه بعد أن استبدل سترته، ولكنّه اليوم وهو يعود لهذه السترة من جديد وجدها فبدأ في قراءتها على الفور وفيها جاء:

(بقي جسد عبد الكريم قاسم وجماعته الذين نفّذ فيهم حكم الإعدام حتى الساعة الثالثة بعد الظهر، بعد أن التقطت لهم صور وشريط سينمائي عرض على شاشة التلفزيون يشاهد فيه عبد الكريم قاسم جالسًا على كرسي خيزران ورأسه يتدلّى إلى الأسفل وقد فارق الحياة.

كما عرضت أجساد الثلاثة الآخرين وقد سقطوا على الأرض مضرّجين بدمائهم، كما عرضت صورة لوصفي طاهر مرافق عبد الكريم وهو ملقى على أرض في حديقة الإذاعة مفارقًا الحياة، ثم نقلت الجثث إلى مشرحة الطبّ العدلي في باب المعظّم.

ويروي لنا الدكتور كمال السامرّائي قائلاً:"لقد شاهدت أنا وزميلي الدكتور إسماعيل ناجي الجثث فوق المشرحة، وكان عبد الكريم قاسم يبدو قصيرًا ونحن ننظر إليه، وكان شاحب الوجه شحوبًا مريعًا، أمّا ملابسه فكانت خالية من بقع الدم إلاّ من ثلاث بقع صغيرة في قمصلته العسكريّة عند الصّدر. وكانت ملابسه نظيفة حتى أنّ حذاءه كان لونه قهوائيًا يلمع، أمّا الآخرون فكانت وجوههم مهشمة لا يعرف أصحابها".

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وفي ساعة متأخرة من تلك الليلة نقلت جثّة عبد الكريم قاسم بصحبة ضابط وجنود بسيارة عسكريّة إلى منطقة معامل الطابوق الواقعة بين بغداد وبعقوبة ودفن في حفرة وقد اختيرت الحفرة في مكان بعيد عن رصد النّاس ثم وارت المفرّزة العسكريّة التراب عليه. ولكن بعض العمّال الذين يسكنون معامل الطابوق وممّن يحبّون عبد الكريم قاسم- كما يقول إسماعيل العارف-شاهدوا ماجرى، فعندما ابتعدت المفرزة العسكرية تسلّل إلى المنطقة بعض هؤلاء العمّال واستخرجوا الجثّة من الحفرة وحملوها على أكتافهم إلى مكان يقع بين المجمعات السّكنيّة للعمّال فحفروا لها قبرًا جديدًا ودفنوها فيه. وسرعان ماسرى الخبر بين العمّال وتسرّب إلى سلطات الأمن التي داهمت دور العمّال وألقت القبض على الفاعلين، ثم قام رجال الأمن باستخراج الجثّة بحراسة ثلّة من الجيش ووضعوها في كيس من الجنفاص أثقل بكتل الحديد الصلب، وألقيت الجثّة من على جسر نهر ديالي الذي يصل بغداد بسلمان باك إلى النهر لتكون طعامًا للأسماك وهكذا تلاشى عبد الكريم قاسم في قاع النهر ولم يجد له قبرًا يدفن فيه) أما مؤلف هذا الكتاب فهو أحمد فوزي وقد عنونه بـ "عبد الكريم قاسم وساعاته الأخيرة".

وأخذ غسّان يكوّر الأوراق وهو يهمهم بعبارات بهيميّة لا يستطيع إتمام أية واحدة منها.

نهض وهو يصرخ:

- ياربّ السماء! لماذا كلّ هذا يدور في العراق؟ ماذا فعلنا؟ أية لعنة لحقت بنا؟.

- 22 -

كان صدور كتاب عبّاس السيّد الجديد"عملاق الرافدين" وبالحجم الكبير الذي اعتادت دائرة الآثار أن تطبع كتبها التاريخيّة فيه حديث الناس الهامس، هل كتبه حقًّا؟ أم أنّه كتب له ووضع اسمه عليه؟ لكنّ الأسئلة تظلّ بلا جواب.

أمّا غسّان العامري فلم ير صاحبه بعد، أراد أن يتركه ليرتاح بضعة أيّام قبل أن يزوره، لكن معن الماجد الذي قام بزيارته نقل له أنّه سأل عنه وعتب عليه لأنّه لم يزره لحدّ الآن.

وكان تردّد الزّائرين على بيته وعدم المساءلة لأحد منهم دليلاً على أنّه ليس متابعًا، وأنّ موضوعه قد انتهى باعتقال ثمانية أشهر وتأليف خمسة كتب.

* * *

استقلّ غسّان سيّارة تاكسي أوصلته إلى منزل عبّاس السيّد، وكانت الساعة حوالي العاشرة صباحًا، وضغط على جرس الباب، ولم يكن من عادته أن يستقبل أحدًا في بيته، وكل الذين يوجّه لهم الدعوة فإنّما يفعل ذلك في بعض البارات أو المطاعم، وكان يغيّر مكانات جلوسه، وقبيل اعتقاله كان "الكأس الذهبية" مشربه المفضل.

لم ينتظر طويلاً عندما فتح له الباب أحد أولاده وعندما سأله عنه أجاب:

- إنّه موجود.

ثم أدخله إلى غرفة الضيوف التي كانت معدّة لاستقبال زوّاره وجلّهم من الأصدقاء والأقارب.

ثم دخل عليه عبّاس السيّد وهو يرتدي دشداشته فلم يصدّق عينيه. لقد بدا له مثل شبح وبدت قامته وكأنّها قد ازدادت طولاً بعد أن فقد الكثير من ذلك الامتلاء الذي كان يبدو فيه أفتى وحيويّته أكبر.

وتعانقا بدون أن ينبسا بأية كلمة، ثم وجدا نفسيهما ينفجران بالدموع التي تحولت إلى نشيج، وصار كل واحد منهما يحاول أن يواسي الآخر بكلمة أو بحركة من يده.

ودخل عليهما ولد عبّاس الذي فتح له الباب وهو يحمل صينيّة عليها فنجانا قهوة وصحن صغير وضعت فيه بعض قطع "الكليجة" العراقية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وانتبه غسّان إلى أنّ عبّاس السيّد كان يتكلم بلهجة متعبة تسببت في وهن صوته، وكان يحاول أن يستردّ أنفاسه بين فترة وأخرى مع زفرة حرقة.

وكلّما همّ غسّان بالكلام كان عبّاس يشير إليه بالصّمت ويمدّ إصبعه باتجاه السقف والنوافذ بحركة خائفة.

قال له:

– هل تنتظر أحدًا؟

– أبدًا

– ما رأيك بأن نخرج ونتمشّى على النهر ثم نجلس في مقهى، أنت بحاجة إلى هذا؟

ووجد اقتراحه قبولاً فاستأذن بالدّخول ليرتدي ثيابه.

ذات يوم عندما كان عبّاس السيّد في النّاصريّة كان مصرًا على ارتداء الدشداشة، ولم تفد معه كل تقارير المفتّشين الذين يطالبونه بارتداء السروال، وحجّته أنّه ليس هناك في القانون ما يمنعه من ارتداء الدشداشة مادام مرتاحًا فيها وهي من اللباس الوطني العراقي. أمّا اليوم فقد حصل ما حصل في حياته وأصبح يرتدي السروال لكن رباط العنق لم يضعه مرّة، ولم يعرف حتى كيف يعقده.

ورغم مرور أكثر من خمس عشرة سنة له في بغداد إلاّ أنّ حياته ظلّت ريفيّة الطابع، وأنّ منطقة السعدون ببغداد هي مدى حياته الجغرافي الذي لا يخرج منه، كل دورانه فيه.

وعندما أصبح عبّاس جاهزًا خرجا. وبحذر السياسي القديم ألقى نظرات متفحصة على الشارع ليعرف إن كان بيته مراقبًا أم لا، وعندما اطمأن إلى أن لاشيء هناك انشرحت أساريره المنقبضة.

كان يمشي ببطء وكأنّه مريض في فترة نقاهة، وما إن يتلفظ بكلمة حتى يتبعها بآية قرآنية أو كلمات استغفار ودعاء.

سأله غسّان:

– لم أفهم حركات يديك في الدّار؟

– للحذر فقط. فربما يكونون قد زرعوا لاقطات فيها ليسمعوا ما أتفوه به.

وحاول غسّان أن يخفّف عنه:

– ليس إلى هذا الحدّ، لقد أطلقوا سراحك وانتهى الأمر.

وأراد غسّان أن يستفسر منه عن أمور كثيرة ولكنّه كان يجيبه:

– سأحدّثك وأردّ على أسئلتك، لكن ليس الآن؟

فعاد ليلحّ عليه:

- قل لي، هل صحيح ما يشاع أنّك بعثت إلى الرئيس بنسخة من كتابك "علي بن أبـي طالب سلطة الحق" فأمر باعتقالك؟

- خذه وعدًا منّي بأنّني سأحدّثك عن كلّ ما مرّ بـي، ولكن ليس الآن.

ثم تطلّع إلى الجهة الأخرى من النّهر وحيث مكاتب كثيرة تابعة للقصر الجمهوري وملاحقه، وتمتم وكأنّه انتبه لشيء فاته:

- غسّان غيّر الموضوع، أرجوك فقد يسمعوننا، لأنّ لديهم أجهزة قادرة على ذلك.

- مادام الأمر هكذا دعنا نذهب إلى المقهى.

وسارا باتّجاه الباب الشّرقي ووجدا مقهى خاليًا من الزبائن إلاّ بضعة عمّال مصريين فسأله:

- ما رأيك؟

- لنجلس، المكان مناسب.

وهكذا أخذا مكانهما بعيدين بحيث يصبح بمقدورهما مواصلة حديثهما.

قال عبّاس:

- خرجت شبحًا كما تراني، أصبت بالسكري وارتفاع الضغط وقرحة في المعدة، هذا عدا ما في الدّاخل من خراب!

- اسمع يا عبّاس، لقد حصل الذي حصل، ومشكلتك أنك كنت تظنّ بأنّك ستبقى بمنأى عن كلّ أذى، ولم تأخذ درسًا ممّا تراه حتى لقادة في الحزب، أين عبد الخالق السامرائي الذي كانوا يسمّونه راهب الحزب؟ وأين غانم عبد الجليل وبدن فاضل وعدنان الحمداني؟ لقد تحوّلوا إلى متّهمين وعوقبوا بالإعدام، فمن أنت بالنسبة لهم؟

وكان عبّاس يتمتم بمطالع آيات قرآنية ويهزّ رأسه موافقًا، وقد راحت أصابعه تنقر حبّات مسبحته، ممّا أفسح المجال لغسّان لأن يقول له بحرص:

- اعتبر ما مر تجربة، بل وتجربة مريرة، وعليك أن تتّعظ وتتعلّم منها، ابتعد عنهم، لا تقترب أبدًا، انصرف إلى الكتابة الجادّة فهي التي ستبقى، اكتب النقد الأدبـي، اكتب الرواية، البحوث الفكريّة، فأنت طاقة كبيرة لك القدرة على الإبداع في أيّ مجال تكتب فيه.

ودمعت عينا عبّاس من جديد وهو يخوط استكان الشّاي وتمتم:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- كأنّ كل هذا الذي حدث مثل كابوس مريع، وكأنني لم أخرج منه. أسألك ياغسّان، هل كنت على حق عندما جئت إلى هنا؟ أم أنّني أخطأت؟ كان عليّ أن أبقى هناك في قريتي، هادئ البال، قرير العينين، لكنّني تورّطت، الإغراء قوي جدًا.
- هي تجربة لا بدّ أن تقترب من العاصمة وتعرف إيقاع الحياة فيها، إذ ليس من المعقول أن تبقى هناك في "ناحية النصر" كل عمرك وعلى مبعدة أربعمائة كيلومتر عن بغداد؟ والنّاصريّة هي المدينة الوحيدة التي تعرفها من مدن العراق.

وعاد يتساءل:

- من فينا الأذكى؟ أنت أم أنا؟
- كلانا أنسيت منافستنا في الثّانويّة؟
- كيف لم تتورط مثل ورطتي!
- هذا لكوني وضعت حدودًا، و لم أصدّق الإغراء الوقتي، ومع هذا لم أسلم منهم. وها أنا محاصر هنا، ممنوع من السفر، متقاعد قبل موعد السّن التقاعدي. حلمي الوحيد هو المغادرة!

قدّم شايه إلى غسّان وقال له:

- لقد نسيت ووضعت فيه قطعة سكر، اشربه أنت وسأطلب آخر غيره.
- حاضر.

وأخذ غسّان يتأمّله وهو يقول:

- يبدو أنّهم كانوا يبحثون عن أدوات، أمّا نحن الأذكياء والنابغون من أبناء الجنوب فاختاروا لنا دورًا محرجًا هو الإعلام. حاول أن تستعرض أسماء رؤساء تحرير الصحف مثلا تتأكد من هذا كأننا صاغة مدائح ليس إلاّ.

وتساءل عبّاس:

- ألا تعتقد بأن الناس قد فهموا الحقيقة بشأن الكتب الأخيرة تحديدًا التي تحمل اسمي؟
- بالتأكيد، ولمعلوماتك لا أحد يؤاخذك عليها، والإشاعة هي أنّهم كتبوها ووضعوا اسمك عليها.

وتمتم عبّاس:

- الحمد لله!

ثم أتم احتساء شايه وسأله غسّان بشيء من الودّ:

- لكن قل لي يا عبّاس، هل أنت مورّط معهم إلى درجة لا تستطيع فيها أن تتحرّر منهم؟ أن تخرج عليهم؟

وهنا زفّر بحرقة وقال:

- أيّ سؤال لعين هذا؟ كأنّك قتلتني به!

وقبل أن يتفوّه غسّان بأيّ كلمة أخرى جاء صوت المؤذّن من مكبّر الصّوت في جوامع المنطقة:

- الله أكبر!

فنهض عبّاس وهو يردّد:

- الله أكبر.

واعتذر من غسّان لأنّه ماض للصلاة وإن أحبّ أن ينتظره فسيعود إليه بعد أن يفرغ منها.

* * *

من عادة غسّان العامري أن يقتطع مايرد في الصحف اليوميّة من تحقيقات حول مدينته "الناصرية" والقرى والأقضية المحيطة بها ويحتفظ بهذه القصاصات في مظاريف خاصّة، وكان يلذّ له أن يعود إليها بين فترة وأخرى لأنّها وكما يسميها "منعشات الذاكرة" التي تحتاج إلى الشحذ دائمًا، صديقه وابن مدينته الشّاعر صلاح نيّازي غادر الناصريّة منذ ربع قرن ولكنّها مازالت حاضرة في قصائده، وكذا الشّاعر عبد اللطيف إطميش.

صحا من قيلولة مرهقة ووجد نفسه يغطّ في العرق، وفكّر بالذهاب إلى عيادة صديقه الدكتور منعم البصري الذي لم يره منذ فترة حتى يقيس له ضغطه، وبعد ذلك قد يرافقه إلى بيته الذي لا يخلو من زوّار أو إلى جمعيّة التراث، ولكنّه لم يجد في نفسه القدرة على النهوض وأقصى ما يستطيعه أن يتوجه صوب كافتريا المنصور.

استل بعض الأوراق والقصاصات من أحد المظاريف حول النّاصريّة، فوقعت عيناه على حوار قصير سبق أن اقتطعه من جريدة "الثورة" ويضمّ لقاء مع أحد أصدقائه وهو المكتبي جبر غفوري الذي يعدّ صاحب أوّل مكتبة في مدينة النّاصريّة، حيث أنشأها قبل أكثر من خمسين عامًا.

أخذ يتأمل صورة صديقه القديم الذي كان يقصد مكتبته وهو فتى يافع ليبحث عن مجلّة "الأديب" أو "الآداب" ومؤلفات نجيب محفوظ والحكيم والعقّاد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كأنّه لم يتغيّر بوجهه الضامر المجدور وعقاله وبشماغه المــزركش وقامتــه القصــيرة النّحيفة، ولكنّه كان ذا حيويّة بحيث تجعل المرء عاجزًا عن تقدير عمره الحقيقي.

هذا الرجل هو الذي جاء بالثقافة إلى المدينة، لذا فإنّ كل أدبائها مرّوا به وعرفوه بل وصار بعضهم من أصدقائه الذين يكاتبونه من أيّ مدينة يحلّون فيها.

وفي هذا الحوار يتحدّث أبو كامل وهذه كنيته، عن مكتبته التي أسّسها عــام 1935 وكان اسمها الأهالي اعتزازًا منه باسم جريدة الحزب الذي انتمى إليــه، وصــار هــؤلاء المتحزّبون يلقّبون بجماعة الأهالي.

تعلّم القراءة والكتابة عند الملاّ ليعمل مع والده تاجر التمور قبل أن يفتتح مكتبتــه، وحيث كانت الجرائد اليوميّة لا تصل إلى المدينة إلاّ بعد يومين أو ثلاثة، يأتي بها من محطّــة القطار بدرّاجته الهوائيّة كما يقوم بتوزيعها على المشتركين بهذه الدرّاجة أيضًا.

وفي هذا الحوار الذي كان غسّان يقرأه وهو يبتسم في قرارته تحدّث عن أهمّ ذكرى عاشها، فقال:(أتذكر جيّدًا كيف قام الثوّار بقتل الجنرال البريطاني "جيفــرد" في مقهــى التجّار قرب مكتبتي في شارع الجمهوريّة الآن. وقد فعل الثوّار ذلك لأنهم اقتنعــوا بــأن البريطانيين قتلة وسارقو خيرات الشعوب).

مقهى التجار هذا مازال مائلاً في المدينة، وكان غسّان العــامري وكــذلك عبّــاس السيّد وعزيز عبد الصاحب وأحمد الباقري وقيس لفتة مراد وعبد الرزّاق رشــيد ومحســن الخفاجي وحسين الهلالي وغيرهم من أدباء المدينة من روّاده، حيث ينزوون علــى تخوتــه العريقة المفروشة بالسجّاد ليشربوا الشّاي السّاخن ويقلبوا الدنيا بأحلامهم التي لا تعــرف الحدود.

وكأنّ أبا كامل أحسّ بأنّ العمر لم يعد فيه متّسع لكثير من الأماني، لذا ذكر في هذا الحوار أنّ أمنيته الأخيرة هي أن يحتفظوا بمكتبته فهي جزء مهمّ من الذاكرة الثّقافيّة للمدينة، وحتى لا تتحوّل بعد موته إلى محلّ لبيع الأحذية.

وتساءل غسّان:

- ترى من سيعمل على تحقيق أمنيته؟

وفكّر أن يكتب لبعض أصدقائه من الأدباء الذين مازالوا مــرابطين في المدينــة و لم يهجروها، لأن يتحرّكوا ويحوّلوا أمنية جبر غفوري أبو كامل إلى حقيقة.

كما أنّه لم يدر إن كان مقهى "التجّار" ذو التاريخ العريق المرتبط بضمير المدينة قــد هدّم أم أنّه مازال ماثلاً؟

ووجد في نفسه الهمّة لأن ينهض ويكتب رسالة إلى فرع اتحاد الأدباء في المدينة، وإلى أصدقائه من الأدباء الذين لم يغادروا بأن يبذلوا المستحيل حتى لا تبقى مدينتهم العريقة بلا ذاكرة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- 23 -

تنضاف الأيّام إلى الأسابيع لتكون أشهرًا من الانتظار الماحق الذي يعيشه غسّان العامري. كأنّ هناك فمًا كبيرًا منفغرًا يزدرده بتمهّل وهو يحاول أن يبحث له عن منفذ لكنّه لم يجده.

صحا على صوت طرق باب شقّته، وظنّ أنّه عدنان العزيزي جاءه هاربًا من ليلة أرق أو شجار مع امرأته.

وعندما فتحه طالعه وجه صلاح البوّاب، حيّاه وهو يقول:

- يا بيه دي فاتورة الكهرباء، الحاجّ يسلّم عليك ويقول تدفع لي سبعة دنانير وخمسمائة فلس.

وردّ عليه:

- حاضر، تفضّل اجلس.

ودخل ليجلس على الكنبة بينما دخل غسّان إلى غرفة نومه وراح يقلّب ما في جيبه، واستخرج المبلغ المطلوب وعندما سلّمه له عاد صلاح للقول:

- اشطب على رقم شقتك.

وفعل ما أراد، ثم خرج ليطرق باب الشقّة المجاورة التي تضمّ أربعة شبّان، اكتشف غسّان أنّهم يعملون في نادي المعلّمين عندما رافق رعد الطويل إلى هناك.

وحاول غسّان أن يعود إلى فراشه ثانية، لكنّه لم يستطع المكوث فيه.

دخل الحمّام الذي لم يكن بابه ينغلق بسبب الصدأ الذي استعمر حديد ضلفتيه.

ضحك بأعلى صوته، هكذا أطلق إحدى قهقهاته المخبولة وهو يسلّم يافوخه لرذاذ الماء المنسكب من المرشّ.

تمتم:

- من حقّه عدنان العزيزي أن يخرجني من الشقّة إذا أراد أن يقضي حاجته هنا. كما أنّ من حقّ قريبه أن لا يرتضي إلاّ بالفضاء الطلق ميدانًا لإطلاق خبايا إسته.

مكث عدّة دقائق متمتعًا بالماء، وتذكّر أيّامه الصيفيّة في تلك السنوات حيث كان يقطع الفرات سباحة عدة مرّات، وقبلها نهر الغراف المارّ بقريته وإن كان صغير العرض قياسًا إلى بهاء الفرات.

أوقف انسكاب الماء وبدأ بتنشيف جسده متمهلاً، ثمّ فرك بأطراف أنامله لحيته فلم يجدها خشنة، وتأكّد من ذلك عندما تأمّل وجهه في المرآة. وارتفع صوته من جديد:

- لا داعي للحلاقة، لم تمرّ أربع وعشرون ساعة على حلاقتها يوم أمس، عندما ذهبت إلى فندق الرشيد تلبية لدعوة اتحاد المرأة لحضور أمسية الشّاعرة الأميرة القادمة من الخليج.

جلس على الكنبة بعد أن اكتفى بارتداء ملابسه الداخليّة فقط وأخذ يمرر أصابعه على ساقيه المشعرين، ثمّ بدأ يطبطب على فخذيه، حركات هي مجرّد ردود أفعال على الغليان الذي يعتلق في جوفه.

ثم استرخى واضعًا رأسه على ذراع الكنبة متذكرًا الليلة الماضية العجيبة التي عاشها عندما استقل سيّارة تاكسي وتوجّه بها إلى فندق الرّشيد، وبيده بطاقة الدعوة التي وجدها في بريده.

تلك الشّاعرة التي كان لها حضورها في أيّام مهرجان المربد الشعري الذي يقام سنويًّا في بغداد، حيث كانت تبرمج مع الشعراء الذين يقرأون في حفل الافتتاح.

لقد وجدت نفسها مع الشعراء الكبار ودون أن تمرّ بالمراحل التي يمرّ بها الشّعراء الآخرون. وكان هذا يثير حفيظة بعض شعراء بلدها وكان يسمع همسهم عندما تعتلي المنصّة لتقرأ قصيدتها.

هكذا هي في بغداد منذ أن جاءتها كشاعرة لأول مرّة في مهرجان الأمّة الشعري وأخذت مكانها بين الكبار. وكان سهيل صبري وبقدرته الهائلة على الشّم قد أخذ منها مخطوطة ديوان لها لينشره على حساب المنتدى الأدبي الشبابي الذي يترأسه. وقد ظهر بأناقة لافتة.

لقد ذهب غسّان العامري إلى فندق الرشيد بدافع الفضول وقتلاً للفراغ المرعب الذي يبتلعه وتغييرا لروتين كافتريا المنصور حيث يتجمّع أصحابه، أقيمت الأمسية في أكبر قاعة من قاعات الفندق الفخم، وقد انتبه إلى الكم الهائل من السيارات التي يمتلئ بها مرآبه، بحيث لم تسمح شرطة المرور لسيّارة التاكسي البائسة التي أقلّته بالدخول لذا دفع الأجرة ودخل ماشيًا على قدميه.

وعندما دخل القاعة جوبه بمئات النساء اللواتي يرتدين أحلى وأغلى ثيابهنّ وحليهنّ، وقد توزّعت الملابس ما بين أحدث الموديلات الأوروبية إلى الزيّ التقليدي المسمّى بالهاشمي، كما كان هناك نساء مسنّات احتفظن بعباءاتهن السوداء ولم يخلعنها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقد زيّنت جدران القاعة باليافطات التي ترحّب بالشاّعرة الكبيرة. أما على المسرح وحيث ستقف لتقرأ قصائدها فقد صفّت أعداد من باقات الزهور الاصطناعية التي أصبح استعمالها شائعًا في بغداد بديلاً عن الزّهور الطبيعيّة التي شحّت إلى أبعد الحدود.

وقف غسّان مشدوهًا وقد رأى نفسه وسط هذا الفيض من النساء والعطور ومهرجان الأزياء.

وانتبه إلى يد تلوّح له فعرف صاحبها إنّه أحد النقّاد المخضرمين في البلد، وقد كان الأدباء يلقّبونه بالحاجّ رغم أنّه قد ذهب إلى الحجّ مع البعثة الإعلامية لوزارة الثقافة والإعلام.

وخطا باتجاهه فوجد أنّه ليس الرجل الوحيد الذي يجلس هناك، بل في معيّته آخرون من الصحفيين والشّعراء الشبّان الذين كانت مفاجأة ما يجري تصادرهم.

وجلس بجوار الحاج الذي كان يمدّ يده أمامه وهو ينحني قليلاً بمسبحة حمراء طويلة يتسلّى بالتقاط حبّاها متمهّلاً.

- هل هذه أمسية شعريّة أم عرس؟

وأجاب الحاج الذي كان يلثغ بحرف الراء:

- أكثر من عرس، وأكثر من أمسية شعريّة، ولا تنس أنّ الضيفة المبجّلة أميرة!

وردّ غسّان:

- من حسن الحظّ أنّ لغط أمارة الشعر قد توقف بعد رحيل أحمد شوقي آخر الأمراء!.

ثم قرّب الحاجّ فمه من أذنه ووشوش له:

- من كانت أميرة في الموقع والحياة فهي أميرة في الشّعر أيضًا، ومن لا تعجبه هذه المعادلة ليضرب رأسه في الحائط.

وداعبه بقوله:

- أنا لا تعجبني هذه المعادلة فاختر لي الحائط المناسب لأضرب به رأسي.

فحسم الحاجّ الموضوع بخفّة دمه التي عرف بها:

- احتفظ برأسك فنحن نحتاجك شاعرًا وصديقًا، أمّا هي فلديها من المال والجاه ما يغني عن صداع الشّعر، ولكن وجودها شاعرة مكسب للشّعر.

وهنا هبت عليهم الهلاهل العراقيّة الشهيرة بكثافة، وما إن تتوقف من جهة حتى تنطلق من جهة أخرى وكان هذا إيذانًا بأنّ الشّاعرة الأميرة قد وصلت القاعة.

وآنذاك نهض الجميع مصفقين لها، وصارت تؤشر بيدها ردًا على هـــذه التحيّـــات، وأخذ بعض النّسوة يلقين عليها قطع الحلوى من قفاف صغيرة يحملنها تصعيدًا لجوّ الفـــرح هذا، وهو ما يسمّى بـــ "الواهلية" في العراق التي تنذرها النســـاء لوجـــه الله أو الأئمـــة والأولياء الصالحين إن تحقّق مرادهنّ في شأن ما.

كانت الأميرة ترتدي فستانًا عربيًا مطرّزًا بالذهب وهي تواصل الابتســـام بوجههـــا الأسمر الذي يجعل الناظر إليها يحسّ بالألفة معها.

وكان بعض النسوة يتدافعن من أجل الوصول إليها ومصافحتها لتلتقط الكـــاميرات التي تلاحقها هذه الصورة، عدا كاميرا التلفزيون المطلّة من زاوية لتسجّل المشهد كلّـــه.. ولمح غسّان وراء الكاميرا وجه مصوّر معروف.

وكل هذا أخذ وقتًا طويلاً قبل أن تتوجّه نحو المسرح لتعتلي المنصّة المعدّة لها.

وكانت وهي تتوجّه إلى هناك محاطة بعدد من النّسوة اللواتي يضعن على رؤوســـهنّ أطباق الحلوى والحنّاء وسط عدد من الشّموع المشتعلة، أمّا الهلاهل فلم تتوقّف.

كأن المشهد لا علاقة له بالشعر بل هو حفل عرس عراقي حميم تقيمه أسرة موســـرة في واحدة من محلاّت بغداد العريقة.

ثم طافت في القاعة فتيات وبأيديهنّ مرشّات ماء الورد والمباخر التي تعبق منها روائح البخور الهندي.

همس الحاجّ:

- لقد دخت ممّا رأيت؟ ولكن، ألسنا بلد ألف ليلة وليلة، فلنعد ذلك المجد الـــذي كان؟

- ولكنّنا في حرب والإيرانيون عند الحدود، أنسيت هذا؟

- لم أنسه ولكن هذا غير ذاك.

ولم تتوقّف الزهلاهل حتى والشاعرة تستقرّ على المنصّة والنسوة ينزلن أطباق الشّموع والحنّاء والحلوى ويوزّعنها حولها.

ويبدو أنهنّ قد تمرّنّ على هذا المشهد من قبل، إذ أنّه بدا منظّمًا ومرتّبًا وخاليًا من أيّ ارتجال.

كان الهوس النّسائي قد بلغ مداه، زغاريد، حلوى تنثر، بخور يعبق، تصفيق.

هوس يجتاح وقار هذا الفندق الذي لا يخلو يومًا من الضّيوف الكبار الذين يحلّون في البلاد، وزراء، صحفيّون، تجّار سلاح، فنّانون، مراسلون لمحطّات تلفزيون عربيّة وغربيّة!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وبعد أن أتمّت مقدّمة الحفل كلمتها جاء وقت الشّاعرة لتكون وجهًا لوجه مع هـذا الجمهور النسائي الباذخ.

وهمس له غسّان:

- ماذا لو كانت الضيفة نازك الملائكة التي كتبت عنها كتابًا أو فدوى طوقان مثلاً يا حاجّ؟

ورفع الحاجّ إصبعه ووضعه على فمه هامسًا:

- إش. كل شاعرة ولها مكانتها.
- ثم استدرك:
- أتريد أن تحبسنا؟.

وعاد ليترنّم ببيت شعر:

على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ وتأتي على قدر الكرام المكارمُ

ثم أضاف:

- يا غسّان، يا عزيزي، دعنا نسمع، لقد جئنا لنسمع ثم ونتفرّج، وها نحن نحقّق الهدفين، بشرفك أليس هذا أفضل من قعدة نادي اتحاد الأدباء حيث لا ترى إلا الوجوه المحتقنة؟.

كان حضورها على المنصّة جميلاً ومهيبًا، كأنّها ابنة العشرين وليست في العقد الخامس من عمرها، عيناها سوداوان نافذتان وسط سمرة وجهها القانية.

وضعت يديها على المنصّة وتمهلت قليلاً حتى تكفّ النسوة عن اللغط وإطلاق الهلاهل التي تحولت إلى نغمة نشاز.

وتركت عينيها تدوران بين الجمهور الواسع الذي تعبأت به القاعة، وشملت بنظرتها الماسحة الجهة التي تكدّس فيها بعض الرّجال ليخرجوا الحفل من حريميّته المطلقة، ومنحتهم ابتسامة عريضة مع هزّة من رأسها:

وبدأت تقرأ من الوطنيات إلى الغزل، وكان هناك فيض من التصفيق، في مكانه أو في غير مكانه، وكذلك الأمر مع الهلاهل المجانية وكلها تقاطعها قبل أن تتمّ إلقاء بيت الشعر.

كان الرجال المنزوون في المقدمة من جهة القاعة اليسرى ساكتين تمام السكوت، يريدون أن يسمعوا، وكانت الشاعرة توجّه نظراتها المبتسمة نحوهم بين فترة وأخرى فكأنّها تشكرهم على صمتهم، وربماتلومهم على تخشّب أيديهم وعدم تسليمها لموجات التصفيق أسوة بالنساء.

همس الحاجّ بأذن غسّان:

- رائع أن تكون الشاعرة جميلة مثل شعرها، مرّة استمعت إلى نازك الملائكة قبل عامين وهي تضع عمّة التدين على رأسها فشعرت بأنّ ما أراه كارثة، أمّا الذي أراه الآن فهو أمر مختلف!.

وعلّق غسّان:

- لكنّي منشده بهذا الجوّ الذي زاده حضورها بهجة بل وروحًا أسطوريّة، كأنّنا نستعيد شيئًا كان من أعماق الماضي المرتحل في الفناء!.

وعادا للإصغاء الذي لم يدم طويلا عندما تدّفق التصفيق من جديد وتعالت الزغاريد، بينما كانت الشاعرة تنحني قليلا بين الفترة والأخرى وهي تردّد كلمة:

- شكرا.

ووجدت الكثيرات بعد انتهاء قراءتها فرصة في الصعود إلى المسرح ليصافحنها أو يقبلنها ويطلبن من المصوّرين التقاط الصور معها.

وانسحب غسّان العامري والحاجّ وشقّا طريقهما بصعوبة حتى يغادرا القاعة، وكان الحاجّ يمسك بيد غسّان ويسحبه نحو الكافتريا المواجهة للقاعة وهو يقول له:

- أريد أن ادعوك على بيرة، لم أرك منذ شهر، كما لم أقرآ لك، أين أنت؟

- في بغداد، ولكن قل لي هل الدعوة على زجاجة واحدة؟

- لا، مفتوحة، على أن لا تتجاوز الثلاث زجاجات، ولكن عندما نطلب البيرة لا تناديني بالحاج فالحاج والبيرة لا يتلاءمان.

وبعد أن جلسا سأله غسّان:

- و لماذا أجلستنا هنا؟ الزجاجة سعرها ثلاثة أضعاف البارات الأخرى.

وحرّك يده بلا مبالاة وهو يقول:

- لا يهم، الفرق في نوع الجلسة، هنا جلسة أوادم.. هل أولاد القحاب الذين يجلسون أفضل منّا؟ شاعر كبير وناقد كبير؟ ومن حولنا تجّار أو ما يشبه ذلك.

ومثل النادل أمامهما بسرعة وجاءهما بما طلبا، وعلّق الحاج:

- أرأيت كيف تكون الخدمة هنا؟ انظر نظافة الكؤوس والطاولة وقارن بينها وبين بار اتحاد الأدباء مثلا، تصرخ حتى يبحّ صوتك ولا يأتيك بمنام بما تريد؟

ثم ردّد الحّاج بعد أن استرخى بصوت مستريح:

- يا أخي يا غسّان أنا مازلت تحت تأثير ما رأيت، دائخًا ومشدوهًا!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ثم كرع كأسه وقال:

- لنشرب نخب الجمال، البذخ، الرفاهية، على الأقل أنسانا الجوّ الذي كنّا فيه أنّنا في حرب وأنّ اثنين من أبنائي مجنّدان في جبهتها، ولا أعرف متى يدقّون عليّ الباب وهم يحملون جثمان أحدهما أو كليهما.

لقد عمل غسّان العامري قبل سنوات محرّرًا في مجلة الأقلام التي كان الحّاج رئيسًا لتحريرها، وكان وجودهما معًا في مجلة واحدة يشكّل صراعًا بين مفهومين مختلفين للكتابة، ومع هذا فالحاجّ كان متفتحًا ولم يوقف طموح الشبّان الذين يبحثون عن تجاوز السائد.

وكان يقول لهم في اجتماعات هيئة التحرير:

- ستتذكّرون بأنّ وجودي معكم هو في صالحكم، فأنا أعرف متى أقي عجلة المجلة من الاصطدام، ولم يكن لديّ أي مانع في تعليق أخطائكم عليّ، فأنا في سنّ التقاعد وأنتم في بداية الطريق!

وبعد صدور كل عدد يبدأ شجارهما الودي هو وغسّان بشكل خاصّ الذي أصبح سكرتيرًا التحرير، وذلك عند تقدير مكافآت الكتّاب المساهمين في العدد. إذ كان الحاجّ يريدها شحيحة ملتزمة بتعليمات وزارة الماليّة أمّا غسّان فعلى العكس منه.

ويكبر الخلاف بينهما بشأن مكافآت الكتّاب المقيمين في أوروبا، حيث يصرّ الحاجّ على تقليلها معلنًا:

- وماذا يفعلون بالفلوس؟ إنهم يشربون الويسكي والشمبانيا وينكحون النسوان الشقراوات؟

ويسأله غسّان:

- وما الذي يهمّنا نحن أن يشربوا أو ينكحوا من شاؤوا؟ نحن نكافئهم على كتابتهم وهم أحرار بأموالهم؟

أنهى الحاج زجاجته الثانية وأشعل سيكارة، وكان الانتشاء قد وضح على وجهه. خلع نظّارته الطّبيّة ووضعها على الطاولة وقال:

- هكذا أنا، أشرب زجاجتين متتاليتين وفي الثالثة أتأنّى كثيرًا، الرغوة تثيرني جدًّا.

ومجّ نَفَسًا طويلا من سيكارته وواصل اعترافه:

- وحتى مع المرأة، ولا أقصد هنا الزوجة بل أيّ امرأة لم أعرفها جسديًا من قبل، أنفّذ عمليتي الأولى بسرعة كأنّني أفرغ منها لأستعد لما هو أهمّ وأعني بذلك

النيكة الثانية، وإن أنعم اللّه عليّ بالقوة والعافية فلا بأس من نيكة ثالثة أخر بعدها صريعًا.

وقهقه غسّان وهو يعلّق:

- أنت بلاء يا حاجّ؟

- أنا مغرم بالأوروبيات فقط، وخاصّة من هنّ في الخمسينات من عمرهنّ، ستجد أنّهنّ ينكحنك ولا يكتفين بفتح سيقانهنّ لتنكحهنّ أنت، أمّا مع نسائنا كأنّك تنكح نفسك!.

وجاءت الزجاجة الثالثة، وأخذ الحاجّ يراقبها من وراء دخان سيكارته، ونطق:

- غسّان، أتذكر شجاراتنا على مكافآت الكتاب ماذا كنت تقول عنّي في داخلك؟

وبشّ غسّان في وجهه وهو يجيبه:

- كنت أستعيد هذه الأحاديث بيني وبين نفسي حتى ونحن نغادر القاعة، هي أمور لا تنسى، لكنّني أعترف لك بأنّك كنت فعلا كابحًا لجماحنا، فأنت أعلم منّا بالمسارب وقد استطعت أن تمرّ من خرم الآبرة رغم تعدّد العهود التي مرّت بك وأنت موظّف في وزارة الثقافة، ربما كان في داخلنا شيء من الطيش ولكنّها أمور لابدّ منها لمن هم في مقتبل أعمارهم!.

أدار في كأسه شيئًا من البيرة ورشف الرغوة فقط قبل أن يقول:

- كنت أخاف عليكم وأحسدكم في الوقت نفسه، أنتم على موعد مع الدنيا ومع نساء لم تروهنّ بعد وأنا تقلّصت طموحاتي، تزّوجت في الرابعة عشرة من ابنة عمّي وفقًا لقانون الأسرة وكانت تكبرني بثلاثة أعوام... ولم أعرف جسد امرأة أخرى إلاّ بعد الأربعين، حيث أصبحوا يتكرّمون عليّ ويضمّون اسمي لهذا الوفد أو ذاك وهكذا نكحت أوّل عجوز ألمانية، وبعدها بحوالي عام أوّل عجوز بولنديّة... وهكذا تكاثرت من حولي العجائز فاستطاب لي نكاحهنّ. أمّا في السنوات الأخيرة وقبل أن أحال على التقاعد فاقتصروا على إيفادي إلى بلدان لا يرغب أحد بالذهاب إليها، ومرّة عدت من أفغانستان وكانوا يسألونني عن الأفغانيّات اللواتي تحدّث ابن بطوطة عن أشيائهنّ التي جعلها الله بالعرض، فقلت لهم أيّ طول؟ وأيّ عرض؟ عليّ أن أحمد الله على سلامة عفافي؟.

وانطلقت ضحكة غسّان قويّة خليّة دون أن يأبه لاكتظاظ المكان.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قال الحاجّ:

- اشرب ما شئت ولا تتوقف بعد الزجاجة الثالثة، دعنا نسكر ومن ثم فالتاكسيات جاهزة!

وعلّق غسّان:

- أرأيت يا حاج، هذه ليست أريحيّة السكر بل صدق الإنسان الدافئ الذي في داخلك رغم أنّني أؤاخذك أحيانا؟
- مثلا؟
- لقد كنت موظّفًا مطيعًا حدّ الخنوع.
- و ماذا تريدني أن أكون وقد تركت في البيت سبعة أولاد وزوجة لم تخرج من بيتها إلاّ للتسوّق؟

وهنا تذكّر غسّان أحد المديرين العامّين الذين تولّوا إدارة الثقافة، وما قاله الحاجّ له في أحد الاجتماعات:

- أستاذ أنا طوع أمرك، ما تريده أنفّذه في الحال، حتى إذا أحببت أن تركبني فليس لديّ مانع؟

وضحك الحاجّ وهو يؤرث سيكارة جديدة وقال:

- كنت أمزح معه، هذا أوّلاً، ولكنّ المهمّ هو ثانيا، فالسيّد المدير العامّ كان ما بين ساقيه عاطلاً ومحالاً على المعاش. لقد باح لي مرّة وكنّا في برلين صحبة فتاتين وسألني إن كنت أعرف دواء ينهضه فنصحته بالكافيار، وقد أكل عدّة علب فعلاً، ولكن لا حياة لمن تنادي فصار يعاتبني وكأنني السبب:
- أكلت ثلاث علب وماكو شي؟

وعندما غادرا فندق الرشيد ثملين، كانا يملأهما حبور لم يعرفاه، كانا يحلّقان، كأنّ أقدامهما في الغيم.

***

رفع رأسه من مسند الكنبة بعد أن أحسّ بألم في رقبته.

ونظر إلى ساعته فوجدها تقترب من الثامنة، واتجه نحو الراديو وفتحه لينصت إلى ما يبثّه من أغان بين فترة وأخرى لإعطاء المستمع فترة استرخاء، بعد عمليات شدّ الأعصاب التي تمارسها معه الأناشيد والأغنيات الوطنيّة والتعليقات السياسيّة الزاعقة.

كان على الرّغم من الاستحمام بالماء الدافئ لا يزال يحسّ بالوهن، وبدأ يسترجع كل ما رآه في الليلة المنصرمة، الأمسية الشعرية ثم اللقاء الحميم مع الحاجّ الذي فتح له قلبه وباح بأشياء كثيرة.

وعاد ليأخذ دشّا ثانيًا بينما المذياع يطلق أغنية ناعمة لشادية وعبد الحليم حافظ "إحنا كنّا فين".

نشّف جسده وعاد من جديد ليجلس على الكنبة، وهو يمدّد ساقيه العاريين وراح يتأمّل باستغراب كثافة الشعر الذي يغطّيهما وكأنّهما ليستا ساقيه، غريبتان عنه يتعرّف عليهما للمرّة الأولى.

وتساءل لماذا أحبّ بعض النساء اللواتي عرفهنّ هذا الشعر؟ إحداهنّ كانت تمرغ وجهها في شعر صدره. كانت تستنشقه وهي تهذي رغم أنّها قد قالت له وهي تنفرد به في فراش واحد للمرة الأولى:

- أرجو أن لا تصاب بالخيبة إذا اكتشفت أنني امرأة باردة.

وعلّق على ما فاهت به:

- هذا لأنك لم تلتق بالرجل الذي يوقدك؟

- و هل أنت هو؟

- ربّما. رغم أنّني لا أدّعي فحولة خارقة، ولكن على قدر أهل العزم تأتي العزائم.

وأضاف موضحًا لها:

- إنّني راغب فيك حتّى لو كنت تمثالاً من ثلج!

ويذكر أنّه عاش معها أسابيع رأيا فيها كيف يذوب الجليد ويتحوّل إلى كؤوس من الشهد الأبيض.

واستغرب أن يكون مداهمًا بالشوق لجسد امرأة بهذا الشكل، وما الذي أتى بحكاية هذه الفتاة بالذات، ثم جاءت ذكرى فتاة أخرى تعرّف عليها وهي تعدّ دراسة جامعية عن الشاعر الرائد عبد الوهاب البيّاتي، ولمّا كان الشاعر مقيمًا في مدريد فقد استعانت به وحاول مساعدتها إلاّ أنّها وقعت فيه، وكانت لها أمنية واحدة كما أخبرته وهما يجلسان قبالة بعضهما في مقهى هي أن تراه عاريًا، وضحك من هذه الأمنية وهو يسألها:

- و هل ستتفرّجين عليّ وأنت بكامل ثيابك؟

أجابت ببساطة:

- لا.. بالطبع، سأكون عارية مثلك أيضًا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حكايات تترى عن نساء مررن به ومرّ بهنّ، وتساءل في سرّه إن كان الرجل الوحيد الذي حصلت له هذه الأمور أم معظم الرجال؟.

يتذكّر أيضًا امرأة كانت تلاحقه، وقد خاف إصرارها، ظنّ أنّ هناك شيئًا مخبّأ وراء هذه الملاحقة فيذهب ضحيّة زوج غيور ولن تشفع له دواوينه، وذات يوم كلّمته بالهاتف وحدّدت له المكان الذي تنتظره فيه وتريده أن يكون عندها خلال نصف ساعة.. وإلاّ قلبت الدنيا على رأسه.

وعندما ذهب إليها وجدها مزروعة في المكان، فتح لها باب السيّارة وبعد أن صعدت قالت له:

- لو لم تأت لعرفت ما سأفعل بك، والآن خذني إلى بيتك أريدك أن تضاجعني الآن، أو خذني إلى أيّ مكان تريد وتستطيع أن تضاجعني حتى في السيارة.

كان طعم البيرة مازال في فمه حيث تجاوز حدوده، وكرع خمس زجاجات من فيض كرم الحاجّ عليه الذي أخبره أنّه قبض اليوم من مجلّة الأقلام سبعين دينارًا ثمن مقالة عن ديوان شعر، ولا مانع لديه من قتل هذا المبلغ كلّه، مجلّة الأقلام التي كانت ابنتنا المشتركة ذات يوم، كما أردف موضّحًا.

وعندما يكثر من شرب البيرة فإنّ عذابه يكون في اليوم التالي، مغصًا وكثيرًا من الصداع في الرأس.

وانتبه إلى أنّ هذا النائم بين فخذيه قد أخذ حدوده القصوى في الانتصاب، وضربه على رأسه لكي يقمعه ولكنّه أصرّ على تحدّيه فكأنّه يطالبه بحقّ صادره منه، وهنا خاطبه:

- نم واستر علينا، كفى فضائح، ليس هناك أيّة فرصة لك، حتى المبغى العامّ أغلقوه منذ سنوات حفاظًا على الأخلاق الوطنيّة، وحماية لمجتمع ثوري وعقائدي سليم.

ونهض ليأتي بكتاب أفلح في استعارته من معن الماجد، وهذا ما لم يحصل إلاّ نادرًا فالكتاب الذي يدخل بيته لا يراه أحد، كان الكتاب حول الأساطير السومريّة ألّفه أحد علماء السومريّات الكبار في العالم صموئيل نوح كريمر الذي شارك في أعمال التنقيبات الأثريّة في العراق.

وكان والد غسّان يعرفه شخصيًّا كما أخبره، وكذلك عدد كبير من شيوخ المدينة، عندما كان يتوجّه إلى الناصريّة مرّة أو أكثر في الشهر لشراء بعض الحاجيات قبل أن يعود إلى مقرّ إقامة البعثة الآثاريّة التي يشرف عليها في أور، وهي لا تبعد عن الناصريّة إلاّ بضعة كيلومترات.

قال له معن الماجد وهو يسلّمه الكتاب:

- لولا معرفتي بأنّك مهتمّ اهتمامًا بتاريخ أجدادك لما أعرتك إيّاه!

وكان عدنان العز يري ينصت، ولذا بادر بالقول:

- من سوء الحظّ أنّ أجداده العظام هم أجدادي أيضًا، لكنّني حامل إرثهم بجدارة، أمّا هذا الشويعر فلا يحمل منهم شيئًا.

وضحك معن وهو يعود إلى حديث الكتاب:

- هل تذكر مقالتي في مجلّة الآداب التي نشرتها قبل عددين، لقد استعرضت كيف استهلك شعراؤنا الأساطير والرموز الإغريقيّة واليونانيّة، ويسجّل لعبد الوهاب البيّاتي انتباهته المبكرة للرموز العربيّة والإسلاميّة وتراث المتصوّفة ممّا جعل شعره محتفى به حتى من قبل المستعربين.

- أنا معك في ما ذهبت إليه، لكنّني أشتغل على إيقاع الحياة اليوميّة، ورموزي هي رموزي التي قد لا يعرفها أحد، مجاذيب، حواة، مناضلون، شغّيلة، من حصاد واقع أعرف تفاصيله!

كان الكتاب ضخم الحجم، وما إن بدأ بقراءة مقدّمته حتى شعر بعدم الرغبة، إذ لم يكن مهيّأ لقراءة جادّة متفحّصة، كان هاربًا فقط من هذا الذي بين ساقيه والذي انكفأ خائبًا ليلتمّ على نفسه مثل كنار مذعور.

وعندما توجّه نحو آلة الطبخ ليعدّ فنجان قهوة داهمة صوت منبّه سيّارة عدنان العز يري في دفقاته المنغّمة الثلاث.

مدّ رأسه من النافذة، وهو يفرد أصابعه الخمس، ومعنى هذا خمس دقائق فقط. فهزّ عدنان العز يري رأسه دليلاً على فهمه لما أراد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- 24 -

(يا سومر

أيّها البلد العظيم

يا أعظم بلد في العالم

لقد غمرتك الأضواء المستديمة

والناس من مشرق الشمس إلى مغربها

هم طوع شرائعك المقدّسة

إنّ شرائعك سامية لا يمكن إدراكها

وقلبك عميق لا يمكن سبر أغواره)

قرأ غسّان العامري هذا المفتتح الشعري لكتاب "الأساطير السومريّة" وهو كما عرّف به المترجم من نظم شاعر سومري في الألف الثالث قبل الميلاد.

هذا الشاعر الذي ربما لم يهمّه تدوين اسمه بقدر ما كان يهمّه الوطن، من أجل أن يتذكّر من يأتون بعد قرون أنّ الوطن هو الأغلى والأهمّ، وطن سومر، وأنّ الناس من مشرق الشمس إلى مغربها هم طوع شرائعه (المقدّسة).

لكن هذا الوطن مخضّب بالدم، أبناؤه ينحرون، يعيشون منذ سنوات كابوس حرب مقفلة، حرب مديدة كالدهر.

مرّات يحاول غسّان العامري أن ينتزع أفكاره من حريق الحاضر، يهاجر بها كما يتمنّى أن يهاجر بجسده، ولكنّ الوقائع حجارة تحطّم جمجمته.

يريد المغادرة من محرقة إلى محرقة، ومن مجزرة إلى مجزرة.

فما الذي يجد أمامه في لبنان الذي شكّل هاجسه؟ حنان عوّاد ستغادر، رعد الطويل غادر فعلا إلى قبرص كما كتب له، ونصري الأسمر ينتظر نتائج امتحان البكالوريا لولده الوحيد ليغادر إلى كاليفورنيا نهائيًا حيث سبقته زوجته إلى هناك، بينما تركا ولدهما الوحيد ليتمّ دراسته في لبنان.

كتب له رسالة قصيرة منذ أيّام بهذا الشأن، وإن غادر نصري الأسمر وهو المصرّ على البقاء ليعيش وهم مجد شعري لن يجده في مكان غير بلده، فكيف وهو ينتقل من بلد إلى بلد ومن لغة إلى لغة؟.

لعلّه يحاول إصلاح علاقة زوجيّة أصبحت في النزع الأخير، كما ذكر في رسالته أيضًا، وكان غسّان ملمًّا ببعض هذه التفاصيل بحكم صلته الوثيقة بهما.

كان نصري عاشقًا منفلتًا، تخدّره عطور النساء، ومعدته هاضمة، لا تتخلّى عن واحدة يمكن ضمّها إلى فراش تمامًا كما ورد في هجائيّة رعد الطويل.

ومرّة قالت له زوجته:

- أنت تأتيني وفي ثيابك رائحة امرأة كلّ أسبوع، كلّ شهر، فمن أنت؟ وماذا تريد منّي؟ أو حتّى منهنّ؟.

نقل هذا القول إلى غسّان العامري وهما يجلسان ذات ظهيرة في مكتبه الصغير، الذي يقصده كل يوم صباحًا ليكتب ويترجم بعد أن تخلّى عن التدريس.

موت في بغداد وموت في بيروت، حالة يعيشها غيّاث الإبراهيمي، وها هو يسلك الطريق نفسه ولكن معكوسًا.

كانت آثار الحرب في الجانب العراقي تبدو أكبر منها في الجانب الإيراني، إذ سكّان العراق هم قرابة ثلث سكّان إيران ومساحة الأرض كذلك.

هم قادرون بفتاوى ونداءات دينيّة على تجنيد مئات الألوف، يشدّون جباههم بأربطة خضراء أو سوداء ويتوجّهون نحو جبهة القتال وهم لا ينشدون إلاّ أمرًا واحدًا هو الاستشهاد حتى يدخلوا الجنّة التي تتدلّى مفاتيحها في صدورهم وكلّها صنعت في الصّين.

صواريخهم تصل إلى أيّ مكان يريدون وصواريخ العراق احتاجت إلى تطوير حتى تعطب أعصابهم، توجعهم، وتجعل إمكانيّة وضع حدّ لهذه الحرب واردة.

أمّا الحصاد فهو الموت، هنا أو هناك، الموت البشع، وليس الموت الوادع المطمئن، الموت الذي يحيل الآدمي الجميل أشلاء، ينثره مزقًا، فتتحرّك الجرّافات بأسنانها الفولاذيّة لتواري في حفر جماعيّة آلاف الجثث المحترقة والمقطّعة التي من الصعب معرفة أصحابها.

ويتحوّل المشهد إلى بكاء كالضحك أو ضحك كالبكاء عندما لا يسلم حتى معن الماجد الذي يقترب من خمسينه من الالتحاق بالجيش بعد أن تمّ استدعاء مواليده.

عندما نطق بهذا في جلستهم بكافتريا المنصور ظنّ غيّاث الإبراهيمي أنّه يمزح، ونطق غسّان العامري وهو يحاول أن يستوعب ما قاله:

- وماذا بقي فيك وأكياس الكتب قد جعلت ظهرك منحنيًا وقبلك طايحة؟

أمّا غيّاث فقال بعد أن صفن قليلا:

- أقترح أن تطلب ضمّك إلى جنود المظلاّت؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وجعلهم هذا التعليق ينطلقون ضاحكين.

لكنّ الغصّة نبتت في قلب غسّان العامري، وعبثًا يحاول تحويل هذا المشهد الفادح إلى موضوع للتندّر.

ماذا يحصل لأولاده الخمسة الذين أنجبهم تباعًا وتقاطروا من الروضة إلى الثانويّة؟.

هو أب مكافح، يركض من أجلهم ويوثرهم على نفسه، يكتب مقالة هنا ومقابلة مع أديب هناك، ينجز برامج وتعاليق للإذاعة.. وكل هذا من أجل أن يوفّر لأبنائه مطالبهم التي تكثر وتزداد كل يوم.

ثم يكتمل المشهد بتجنيده، ومع ما فيه من مفارقة تدعو إلى الألم، إلاّ أنّ صورة معن الماجد وهو بزيّة العسكري تبدو كاريكاتوريّة.

وقد جعل هو الآخر من نفسه موضوعًا لمجموعة من التعليقات، حيث ذكر لهم أنّ أولاده رغم الوجوم الذي أصابهم وهم يسمعون الخبر من فمه إلاّ أنّهم لم يستطيعوا كبح تعليقاتهم على أبيهم.

بدا كلّ شيء مضحكًا إذ إنّ معن الماجد نفسه لم يتصوّر هذا و لم يخطر بباله، وقد سلم من الاصطياد من قبل المكلّفين بتهيئة قواطع الجيش الشعبي، فإذا به مدعوًا للتجنيد في الجيش النظامي!

قال غسّان العامري:

- أتعرف ما هو اسم جنود المظلاّت باللغة الفارسيّة؟.
- أتتوقّع لي أن أكون جندي مظلاّت؟.
- اسمهم شياطين هوائي، وأنت ستكون شيطان هوائي!.

وانفجروا بالضحك محاولين أن يقلبوا الفجيعة التي تنخر الوطن إلى نكتة.

لم يستوعب معن الماجد فكرة أن يكون جنديًا، كان هذا أمرًا لم يخطر بباله، وهو من بين قلّة لا يرتدون الملابس الكاكيّة التي صار الكثيرون يتباهون بها ما دامت فرضت على كبار المسؤولين، والناس على دين ملوكهم.

وحاول غيّاث الإبراهيمي ترطيب الجوّ وجعل تجنيد معن الماجد فرصة للإلحاح على مداعبته. قال:

- عندما ترتدي الزيّ العسكري توجّه إلى هنا، فالكافيتريا هي ثكنتك وأبو ريتا قائد سريّتك، وسيكون أوّل عمل نقوم به هو التقاط صور تذكاريّة معك.

أعاهدك على أن أقوم بنشرها في كافّة الصحف إذا ما استشهدت في ساحات الوغى مع كلمة رثاء تبيّن دورك الثقافي على الصعيدين القومي والوطني.

أمّا غسّان فقال:

- ستبدو عسكريًّا مهيبًا بقامتك الطويلة، لكن خسارة أن لا تمنح أيّ رتبة عسكريّة وتبقى مجرّد جندي قد يجعلك أحد الضبّاط، ورأفة لحالتك، مراسلاً له تقوم بتلميع حذائه العسكري كل صباح إضافة إلى غسل جواربه وملابسه الداخليّة!.

وردّد معن جادًّا:

- جماعتي صاروا عقداء، وبعضهم أحيل على التقاعد بعد أن أتمّوا الخدمة وأنا أجنّد اليوم؟ ابن عمّي مثلاً هو الآن عقيد ركن وربما قد رقّي إلى زعيم، ويوم كنّا معًا في المدرسة الثانويّة كان يسخر من اهتماماتي الأدبيّة، واليوم فكّرت في أن أذهب إليه ليسحبني إلى وحدته، وبهذا سأعطيه الفرصة في أن يقول إنّه كان على حقّ عندما سخر من انشغالي بالأدب والكتابة وتأليف تسعة كتب نقديّة أصبحت من مصادر دراسة التجربة الأدبيّة الحديثة عراقيًّا وعربيًّا.

بعد ذلك نهض فجأة، فسأله غيّاث:

- إلى أين؟.

أجاب:

- لديّ موعد مع الأستاذ.

وأشار بيده إلى الجهة التي يقع فيها منزل جبرا ابراهيم جبرا الأديب المعروف، والذي يمكن اعتبار معن الماجد أكبر المعجبين به على امتداد الوطن العربي بل والعالم.

وحذّره غيّاث:

- لا تخبره بأمر تجنيدك.

وهزّ معن يده بلا مبالاة، وقال:

- و لماذا لا أخبره؟ إنّني ذاهب لأخبره بذلك، ثمّ لإجراء حوار معه لمجلّة تصدر في الإمارات.

وقال غسّان:

- هل هو الحوار المائة؟

و لم يذعن للمناكدة بل قال:

- لم تصل حواراتي معه إلى هذا الرقم، وعندما تصله سيكون ذلك مناسبة للاحتفال.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وغادرهما متوجّهًا نحو دار الأستاذ جبرا القريبة من شارع الأميرات وبقيا صامتين لبعض الوقت، وكان غيّاث ينفث دخان سيكارته، وما إن تنتهي حتى يؤرث الأخرى، وكان يفعل ذلك بعصبيّة، ثم انهدّ فجأة بكلمات ساخطة صبّها على الدنيا ومن يدبّ فوقها.

وكان غسّان خبيرًا بنوبات غضبه هذا، فيتركه يفرغ كل ما اختزنه من حيف وقهر رغم رفاهية حياته المميّزة، وبعد أن يكلّ يهبّ واقفًا وهو يقول:

- يا الله غسّان، دعنا نخرج من هنا، أصبح المكان خانقًا جدًّا.

وليس أمامه إلاّ أن يطاوعه فهو الأخر يحسّ الإحساس نفسه، وكانت المدينة على سعتها تبدو ضيقة، قاتلة، لا بهجة حقيقيّة فيها، والناس كفّوا عن الابتسام فصارت الملامح جهمة كقبضات القتلة.

ومع هذا كلّه، مع فداحة ما يجري فإنّ غسّان العامري يجهد حتى يبقى متماسكًا، متكتّمًا على ما فيه حتى لا "يضيع بشربة ماء" كما يردّد العراقيّون في مثلهم الشعبي لمن يذهب بسهولة وينتهي أمره.

همس له قبل أيّام عدنان العزيري وأسنانه تصطك خوفًا، ورغم أنّهما كانا في السيارة إلاّ أنّه كان يتكلّم ويبتلع نصف الكلمات:

- أوصلت زوجتي مساء أمس إلى العمارة التي تقع فيها عيادة طبيب الأمراض النسائيّة في الكاظميّة وأركنت السيّارة قريبًا من المكان، وذهبت إلى مقهى اعتدت أن أنتظرها فيه، ولكنّها لم تتأخّر كثيرًا إذ سرعان ما عادت وقبل أن أكمل استكان الشاي، وقد تصوّرت أنّ العيادة فارغة وهذا ما لم أعهده، ولكن زوجتي لم تردّ على سؤالي الملحّ: ما الذي حصل؟ وبعد فترة انفجرت لتقول لي إنّ الرجل غيّبوه، محوا كل أثر له، وجدت عيادته مغلقة وظهر لي رجل وقال إنّه لا يعرف طبيبًا بهذا الإسم الذي أعطيته له، كما لم أجد يافطته لا في الشارع ولا بباب العمارة، سألت الحلاّق القريب فأنكر أنّه يعرفه، حتى بدأت أشكّ بعقلي، وهل دار رأسي؟ أم رأسك وأنت توصلني؟ لكن صاحب دكّان قريب تمتم لي بذعر أن أذهب ولا أعود، فالرجل أخذوه وحتى أسرته لا تعرف بما حصل له؟.

كان المشهد مثارًا للرعب إذ لم يحصل مثيل له إلاّ هنا، أجهزة أمن الدولة تتحوّل إلى عصابات تسرق الناس وتمنع الحديث عنهم، رغم أنّ ما حصل لهذا الطبيب أصبح معروفًا، فهو طبيب مسنّ ومن الأسر المعروفة في المنطقة وعيادته لم يتغيّر مكانها منذ سنوات!.

ولم يستطع أن يخبر غيّاث الإبراهيمي بهذا الذي يحدث حتى لا ترتبك حياته، وهو الذي لا علاقة له بما يجري، وكل همّه أن يحافظ على أسرته ويربّي ولديه، ويظلّ بالنسبة لأصدقائه ذلك الشهم الكريم الذي يقدّم لهم كل ما في استطاعته أن يقدّمه وهم على انسحاقهم وخوفهم.

ورغم كل جهد النظام في الإبقاء على صورته مقبولة في محيطها العربي والإنساني، وذلك بصرف ملايين الدنانير على صحف وإعلاميين مرتزقة، إلاّ أنّ هذه الصورة اهتزّت بل وتلطّخت أيضًا.

وما يعانيه غسّان العامري أصبح أمرًا شائعًا، يتحدّثون عنه في المغرب وتونس ومصر وباريس ولندن حتى كاد أن يتحوّل إلى فضيحة، وصار كل مسؤول إعلامي يغادر في زيارة يواجه بسؤال عن سبب ما يحصل لغسّان العامري فيعجز عن إعطاء الجواب.

عندما يكون غسّان مع غيّاث في سيّارته يحسّ بكثير من الأمان الذي يأتي بديلاً عن الخوف الذي لا يفارقه وهو مع عدنان العزيري، والسبب أنّ رقم سيّارته أجنبيّ ولذا لا توقفه مفارز الجيش الشعبي لتستلّه وترمي به بعيدًا في معسكرات التدريب مع أناس من مختلف الأعمار والمستوى الثقافي، ينتزعونهم انتزاعًا بشعارات ومزايدات لا أحد يقتنع بها.

سلكا طريق شارع الزيتون الذي اعتاد غيّاث أن يسلكه، ومرّا بفيلاّ الشاعر سهيل صبري التي أخذ هيكلها يتكامل، تأمّلها غسّان ثم لوى شفتيه وهو يتمتم بلهجة مصريّة:

- يا أولاد الإيه..

ثم استدرك بقوله:

- أضعتمونا!

قال غيّاث:

- ما رأيك بمطعم المضيف؟ أنا مشتاق لكأس عرق مع شويّة تبّولة وحمص ودجاج مسحّب!

وأحسّ غسّان بأنّ لعابه قد سال وهو الذي كان غذاؤه علبة سردين ورغيف خبز وثلاث حبّات طماطم!

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت فنادق الدرجة الأولى في بغداد تعجّ بالحركة الدائمة، وفود، زوّار مريبون، تجّار سلاح، كلاب صيد، صحافيّون، ومن النادر لغسّان أن لا يلتقي بشخص يعرفه في زياراته لهذه الفنادق التي يفضّل غيّاث الإبراهيمي أن يتناول كأسه فيها، حيث يكون المرء بمأمن من أيّ تصرّف أحمق رعوي يقوم به أحد روّاد بارات ومشارب شارع "أبي نوّاس".

وحدث ما توقّعه غسّان. فما إن توجّها نحو المقهى والبار وإذا به وجهًا لوجه مع سعيد السامر الصحافي اللبناني المقيم في باريس، وقدّم له رفيقه:

- غيّاث الإبراهيمي.

وهنا انتبه سعيد السامر للاسم لذا سأله:

- ألست مترجم تريزا باتيستا لجورج أمادو؟.

وردّ غيّاث:

- نعم، أنا هو.

- رواية مهمّة، أدهشتني جدًّا، وكنت أتمنّى أن تطبع بشكل أكثر أناقة!

علّق غيّاث:

- المهمّ أنّها طبعت وفي بغداد رغم أنّ البلاد في حرب، وربما في وقت آخر أعيد طباعتها في بيروت.

ثم التفت إلى غسّان وهو يسأله:

- كيف أنت؟.

- كما ترى، ماذا تقول فيَّ؟.

- علمت أين تكمن، قيل لي في كافتريا المنصور، وقد برمجت أن أراك غدًا ثم ها أنت أمامي.

وعقدت جلستهم الثلاثيّة، طلب غيّاث كأس ويسكي بالصودا، أمّا غسّان فزجاجة بيرة، واكتفى سعيد السامر بما تبقّى في فنجانه من القهوة وهو يقول:

- لديّ لخبطة مواعيد، ولذا أفضّل أن أبقى بعيدًا عن الخمرة.

ثم قال لغسّان:

- أريد أن أجري حوارًا معك!.

أجابه غسّان:

- هذا أمر يسعدني، ولكن بماذا نتحدّث؟ ثم إنّني احتجت لكثير من الوقت حتى مرّت زوبعة رأيي حول الحريّة والإبداع الذي نشرته مجلّة "اليوم السابع".

- لا بدّ أن نجد ما نتحدّث فيه وبمجرّد أن نضع أمامنا آلة التسجيل.

ردّ غسّان:

- أرى الصمت أجدى، ولكنّني أستطيع أن أعطيك بعض قصائدي غير المنشورة!.

ووافق على المقترح وهو يعلن:

- اتفقنا.. رغم أنّها لا تغني عن الحديث، كثيرون يربدون أن يسمعوا صوتك، إذ يدور حولك كلام كثير في الخارج.

- و متى تسافر؟.

- بعد غد مبكرًا.

وتسأل غسّان:

- بهذه السرعة؟.

- ليس لديّ ما أفعله، والمهمّة التي أوفدت من أجلها سأنتهي منها غدًا، مهرجان أو ندوة، لا أدري حول تقاسم المياه، أمر لا يهمّني، ولكنّ الدعوة وصلت للمجلّة فاقترحوا أن أسافر وآتيهم بالبرنامج وبعض المحاضرات وهم سيتصرّفون بها.

واستأذن غيّاث إذ لمح صديقًا مرّ في بهو الفندق أمامهم وهنا التفت سعيد السامر إلى غسّان وقال له:

- اسمع، لن أحابيك أو أجاملك. عندما أقول لك بأنّ هذه الندوة وكل مدعويها ومنظّميها لا يعنوني بشيء!.

واستغرب غسّان ممّا سمعه منه فسأله:

- لماذا؟.

- لأمر يتعلّق بك وليس بي.

- و كيف؟.

- لأنّني أعرف أنّ ظلمًا كبيرًا قد لحق بك، نعم. هذا ما أعرفه، وقد أكّده لي بعض من التقيتهم هنا.

وسكت غسّان برهة قبل أن يقول:

- مأساة كبيرة عندما تحسّ أنّ وطنك الجميل يتحوّل إلى سجن ومحرقة، إنّني أنظر إليكم أيّها القادمون والمغادرون بحيويّتكم وحرّيّة حركتكم، فأحسّ بشيء من الحسد تجاهكم كما يحسّ به مثقّفو البلد الآخرون.

ويهزّ سعيد السامر رأسه موافقًا وهو يؤكّد بقوله:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- أعرف هذا، لقد تعلّمت قراءة العيون فهي تنطق بصمتها، ولذا سأغادر. أحسّ حتى الطعام لا يستقرّ في جوفي، صدّقني.

ثم غيّر مسار حديثه عندما قال:

- سأنتظرك غدًا في العاشرة صباحًا، أو قبل هذا إن شئت لنفطر معًا، جئني بقصائدك، وقد تغيّر رأيك وتوافق على إجراء الحديث.

ثم نهض مستأذنًا بالانصراف، وقال:

- هناك سائق ينتظرني بسيّارة فارهة وتحت تصرّفي ليلاً ونهارًا، أنتم كرماء مع القادمين!.

ومضى متحركا بحيويته التي لم تفارقه.

لقد تعرّف عليه غسّان عندما كان يعمل في مجلّة "الأسبوع العربي" أيّام مجدها، وكان محبًّا لغسّان، لا يتوانى عن عبور الحواجز بين بيروت الغربيّة حيث يقيم وبين بيروت الشرقيّة حيث يقيم غسّان بعد نسف السفارة العراقيّة في منطقة الرملة البيضاء عام 1980، ليمرّ في مكتب المجلّة الرئيسي في الأشرفيّة ومن هناك يتلفن لغسّان ليشربا البيرة في مقهى الكاستيل، وبعد ذلك يمضيان نحو مطعم "كريب ري" أو مطعم "مستر باو" الصيني ليتناولا طعام الغداء.

وذات يوم فاجأ غسّان عندما أخبره أنّه لم يعد قادرًا على الاستمرار في لبنان، ولذا سيغادر.

وتساءل غسّان:

- هكذا مرّة واحدة؟.
- نعم، لم أعد أحتمل، وصلت إلى حدّي الأقصى.
- و لكن إلى أين؟.
- لديّ عقد عمل مع صحيفة عربيّة جديدة ستصدر في أوروبا.

وبعد أيّام قليلة تلفن لغسّان مودّعًا ومعتذرًا عن عدم زيارته في مكتبه لتوديعه.

غسّان العامري يعتبره أحد القلائل الذين حفظوا الودّ و لم تكن علاقته به علاقة ارتزاق، وكان يردّد دومًا:

- هناك أدباء وصحافيّون كسبهم العراق من خلال تعاملي معهم وهو تعامل لا دفع فيه، وهناك آخرون هم أشبه بكلاب الصيد، لصوص وعديمو ذمّة بثياب أنيقة وعطور باريسيّة، وهؤلاء شأنهم آخر.. فإن أوقفت الدفع عنهم سينقلبون عليك!.

ويؤكّد:

- أنا أعتزّ بأصدقائي الشرفاء وهم مثار فخري دائمًا.

ثم جلس صافنًا يراقب غيّاث الابراهيمي المنشغل بالحديث مع الشخص الذي التقاه، ولا يدري كيف قادته خواطره إلى عبّاس السيّد الذي فاجأه بمقال في جريدة "العراق" غطّى صفحة كاملة منها حول التصنيع العسكري.

هذا المقال جاءهم به معن الماجد وهو يفرش الجريدة أمامه، فما كان من غسّان إلاّ أن قال:

- أكيد إنّه مجرّد إنشاء ليس إلاّ، إذ ما هي علاقته بالتصنيع العسكري؟.

ثم أضاف بألم:

لا أجد الأمر إلاّ عمليّة ابتزاز متواصلة له، كأنّهم لم ينتهوا منه بعد كل ما حصل! لقد سحقوه فماذا يريدون منه بعد؟.

***

سأله غيّاث:

- هل تريد أن نستمرّ في الجلوس هنا؟.

أجابه:

- أفضّل التمشّي على الشاطئ، ما رأيك؟.
- هيّا. أحسّ أنّ في الجوّ نسمة!.
- و لكن لنتحدّث عندما نصل إلى هناك عن أيّ موضوع إلاّ الحرب، فلا تنس أنّ مباني الرئاسة في الجهة الأخرى من النهر وقيل إنّهم قد جاؤوا بأجهزة تنصّت تلتقط الأصوات من مسافة عدّة كيلومترات.

وصفن غيّاث و لم يعلّق واكتفى بمجّ نفس سيكارته.

انطلقت بهما السيّارة، تمتم غسّان وكأنّه يكلّم نفسه:

- رحم الله أيّام"عتيوي"!.

وتساءل غيّاث:

- و من هذا العتيوي؟.
- مخبر شرطة في الناصريّة، مهمّته ملاحقة التلاميذ الذين يحملون كتبهم ويمضون إلى أطراف بستان زامل أو حديقة غازي أو شاطئ النهر، كان طويلاً ونحيفًا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ومن أصول زنجيّة كما يبدو ويرتدي اليشماغ والعقال على أساس أنّه متنكّـــر، ويتحرّك على درّاجة هوائيّة تظهر ساقيه النحيفتين وهو يحاول تحريكهما بصعوبة خاصّة عندما تكون ريح السموم الصيفيّة قويّة! ورغم أنّه شرطي سرّي فإنّه علنيّ جدًّا ويتباهى بذلك. وعندما يكتب تقريرًا عن تلميذ فإنّ المكتوب عنه يجلد على مؤخرته ثم يطلق سراحه حتى لا يحدث هيجان في المدينة. أمّا هؤلاء فقد طـــوّروا أجهزة التنصّت والتعذيب ثم لم يعد يهمّهم رأي عام أو وساطة وجهاء القـــوم. كل شيء داسوه حتى لم تعد لأحد هيبة، لذا أصبح النـــاس كالخرســـان! هـــو الخوف القاتل الذي شلّ البلد كلّه! فإلى أين؟.

وتمتم غيّاث وبنغمة ساخرة:

- إلى مطعم المضيف.

- 25 -

كان غسّان العامري في حالة هذيان، بداية خبل، خلل في الجسد المترنّح قبل أن يشمّ رائحة الخمرة.

حائر، حائر، يا أرض، يا سماوات، يا دنيا، يا آخرة، يا أشراف، يا قتلة، يا صغار، يا كبار، يا أفارقة، يا آسيويين، حائر يا عرب دوّخوا الدنيا فدوّختهم، دوّخوهم، وضعوهم في دوّامة الموت الذي لا ينتهي.

حائر، حائر، لكنّه لا يدري ماذا يفعل؟ وفكّر في الفرار، يتوجّه شمالاً وهناك سيفرجها الله، ولكن كيف وكل الحدود ملتهبة، مزروعة بالألغام التي تينع أشلاء أجساد لا أحد يقدر على جمعها لدفنها في حفرة، تتحوّل إلى جيف لا أحد يقاوم روائحها، فطائس تهنأ بها الثعالب وبنات آوى والقطط المتنمّرة.

وودّ لو امتلك جملاً يقطع به الفيافي والقفار نحو موته أو حياته.

لكن صراخه، هذيانه لن يسمعه أحد، وهو متكسّر في هذه الشقّة التي يشكّل حصوله على إيجارها الشهري هاجسه المخيف، فماذا لو أخرجوه منها؟ إلى أين يذهب؟.

هل سيعود إلى الناصريّة ثانية؟ إلى قريته الوادعة "أبو هاون"؟ إلى بيت أبيه؟ إلى أصدقاء تلك الأيام الذين تخثّروا في قاع المدينة و لم يغادروها؟ إلى الباقري والخفاجي والهلالي؟.

وتمتم: إن عدت ستتحقّق نبوءة حسين نعمة، ذلك المغنّي الجميل الذي لمع بأغنية واحدة، اختطفته بغداد بعدها، فأربكته، لم يستطع أن يتماسك فداسوه، فرضوا عليه أناشيد وأغاني مادحة، تحوّل إلى سكير تنتهي كل سهرة من سهراته في أحد مراكز الشرطة، ارتبط بأوّل امرأة عرف معها طعم الجسد فكبرت مصيبته بهذا الزواج، وكاد أن يكون نزيل مستشفى الشماعيّة للأمراض العقليّة، جاءه أخوته وأصدقاؤه واقترحوا عليه العودة، إن احتاجوه في حفل أو لتسجيل أغنية يذهب إليهم.

كان هذا الحلّ الوحيد والممكن، طلّق تلك المرأة التي ارتبط بها لتتحوّل إلى مطربة أعراس، رصيدها أنّها كانت زوجة ذلك المغنّي ذات يوم.

تقول الأغنية فيما تول:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(وأردّ للناصريّة ردود
محروق بألف حسرة).(*)

ُقد عاد، ولكن كاتب كلمات هذه الأغنية الذي هجر الناصريّة لم يعد إليها، فبعد أغان عديدة وعلاقات ليل وسهر مع مغنّيات ومغنّين وعازفين وملحّنين رمته إحدى الحانات ثملاً، فتلقّفته عجلات سيّارة فارهة أنهت حياته.

ذلك المغنّي الذي يلتقيه غسّان بين فترة وأخرى في بغداد بدا أكثر تماسكًا بعد عودته إلى الناصريّة.

إنّه أحد رفاق الأيّام الخوالي، الأيّام الملأى، وكانت الناصريّة أصغر من أحلامهم، ولذا كان كل واحد منهم يهيّئ خارطة سفره، مشروعه للرحيل، إلى بغداد كخطوة أولى ومن ثم إلى أرجاء الدنيا الفسيحة.

وهكذا فرّت تلك الطيور الفتيّة، فرّت من سينما البطحاء وسينما الأندلس وأفلامها التافهة التي لم يفلح "شنشيل" ولا" كوزان" رغم خفّة دمّهما في جلب الروّاد لمشاهدهًا.

فرّت من مقهى التجّار ومقهى كاظم شكير ومقهى أبو أحمد، وأبو العود، والعروبة والوحدة وعبيد أبو ديّة، وغيرها من المقاهي التي يلتمّ فيها الناس والمخبرون ليشربوا الشاي الساخن ويسعلوا ويبصقوا ويكفروا ويستغفروا ويكتبوا التقارير.

فرّت من سوق الصفاة، ومن أغاني "الكاولية" الغجر، من حفلات الأعراس والختان التي كان يحييها غلمان يطيلون شعر رؤوسهم ويرتدون ثياب النساء، وكان كل واحد منهم تابعًا للوطي شهير بارع في القرع على الدرابك ويعاشر هذا الغلام الذي يلقّب بـ (الفرخ) معاشرة الزوجة، حيث عرفت المدينة فرخ علي سويريج، وفرخ أبو نوري، وذاك فرخ البط عوّام، وشوف عندك يا سلام.

فرّوا من أنين مغنّي الرّيف الحزانى، حضيري أبو عزيز، داخل حسن، ناصر حكيم، جبّار ونيسة، خضير مفطورة.

كان أسبقهم إلى تنفيذ فكرته عبّاس الظاهر الذي أغرم بأغنية أسمهان "ليالي الأنس في فيينا"، وقرّر أن تكون فيينا أوّل مدينة يزورها، شدّ حزامه وتقشّف وجمع من راتبه وأجور محاضراته مبلغًا أمضى فيه شهرين هنيئين هناك، وعندما عاد كان مذهولاً ولكنّه يحمل قرارًا بأن يرحل وهذه المرّة لن يعود، ونفّذ فكرته، وترك والده ذا الأصل التركي مع نسائه، يطلّق هذه ويتزوّج تلك وغالبًا ما يجمع ثلاثًا أو أربعًا في الوقت نفسه.

(*) أي أرجع للناصريّة من جديد محترقا بألف حسرة.

فرّوا كلّهم و لم يبق هناك إلاّ أحمد الباقري صنو روح غسّان العامري وقرين مراهقته، المترف ذو الصوت الجذلان الذي كان رفيقه في دخول عروض الساعة الرابعة عصرًا من سينما البطحاء أو الأندلس، وهو الوقت المسموح به للفتيات وخاصة الطالبات اللواتي جئن من القرى القريبة التي لم تكن تتوافر فيها يومذاك مدارس متوسّطة أو ثانويّة، حيث ينمن في قسم داخلي خاصّ بهنّ، صار الشارع الذي يقع فيه ممرًّا مفضّلا للشباب المكبوتين أو المتعلقين بنيران حبّ أوقدته النظرات أوالرسائل، وحيث كانت مديرة القسم الداخلي تحظّر عليهنّ فتح النوافذ وتطفئ النور عند العاشرة لينمن مرغمات.

كان أحمد الباقري شغوفًا بأغاني عبد الحليم حافظ التي غذّت الأحلام الأولى، على قدّ الشوق، صافيني مرّة، بيني وبينك إيه، يا مواعدني بكره، حزن يخاطب حزنًا، وأحلام تقارع أحلامًا.

الممكن والمستحيل في ذلك التوق البكر لاختطاف أكثر من نجمة من سماوات تبدو مقفلة، عنيدة كقرون الأيل البرّي.

ذهبا معًا إلى بغداد، بعد تخرّجهما عادا، تزوّج أحمد الباقري من ابنة عمّه التي ولدت في الهند، كان أبوها يتاجر بالخيول بين البصرة وبومباي، ينقلها في سفن خاصّة ليجري إعدادها كخيول للسباق.

وعندما طابت له الإقامة في بومباي نقل زوجته معه وأمضى عدّة سنوات، وعندما شاخ ومرض وأحسّ بقرب نهايته عاد بأسرته التي كبرت، سبعة أبناء، ثلاث فتيات وأربعة شبّان واختار أحمد ابنته الكبرى التي ذكّرته ببطلات الأفلام الهنديّة التي أغرم بها لبعض الوقت.

بقي الباقري في الناصريّة، وفي دار أبيه الواقعة في شارع الهواء الذي أصبح اسمه اليوم شارع الحبوبي، أعطاه أبوه غرفة ثانية إضافة إلى غرفته الأولى، اشترى أثاث غرفة نوم جديدًا، وبدأ يمارس الجنس الشرعي مع امرأة هي الأولى في حياته عدا بعض التجارب الخجولة مع بغايا وقد فشل فيها إذ إنّ ارتباكه تسبّب في عدم انتصاب عضوه حتى خاف من كونه مصابا بالعنّة، ولكنّ الطبيب طمأنه، وها هو يقوم بالواجب مع ابنة عمّه لدرجة أنّ أولاده صاروا يتقاطرون تباعًا ممّا دعا غسّان لأن يقول له:

- هذه الهنديّة أرنبة.

بعد غسّان قرّر عزيز عبد الصاحب المغادرة إلى بغداد، فقد تعب من إخراج مسرحيّات لا يشاهدها أحد، وقد أصبح عضوًا في فرقة المسرح الوطني. وبدأ سكّان الناصريّة يشاهدونه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وهو يمثّل في مسلسلات تلفزيّة وأفلام سينمائيّة، وفي أحد لقاءاته بغسّان سأله:

- ما رأيك في أعمالي؟.
- حسنًا فعلت، لو بقيت هناك لنامت عليك الطابوقة كما يقول أهلنا في مثلهم، أي لا يعرفك أحد، أمّا اليوم فأنت معروف.
- كانت المسرحيّات التي قدمتها هناك هي رصيدي إذ شاهدها بعض المخرجين المعروفين وزكّوا انتقالي إلى الفرقة الوطنيّة للتمثيل.

في تلك الأيّام الناصريّة، كان عزيز قريبًا جدًّا من غسّان الذي جمعته به صداقة حميمة، كما كان الشعر الذي بدأ عزيز حياته به عامل توثيق لهذه الصداقة.

في تلك الأيّام، ويا لها من أيّام! كانت لعزيز نوباته فتضربه نوبة تديّن مرّة، وأخرى نقيضة، خيّاميّة، يصيح فيها قيس لفتة مراد نديمه وهو يعاقر الخمرة، وثالثة أتى فيها إلى مقهى التجّار صباحًا وبيده وردة عبّاد شمس، وعندما يسأله أصحابه عنها يكون جوابه أنّ أوسكار وايلد كان يفعل ذلك.

لكنّه مرّة جاء ورائحة الزيت تنضح من قميصه، فيعلّق أحمد:

- قميصك متّسخ، لماذا؟ أين كنت؟.

ويردّ عليه:

- لقد دهنت جسدي بزيت الزيتون، كان الرسول عليه الصلاة والسلام ينصح المؤمنين بذلك.

وفي كل تصرّفاته هذه لم يسلم من تعليقات أصحابه التي يجعله بعضها يزعل فيغادر المقهى.

أينهم؟ لقد أخذهم المدينة الكبيرة وبعثرتهم، سرقت منهم الفرح والمزاح، أصبحت الصدفة وحدها هي التي تقرّر متى يلتقي هذا بذاك. آخر مرّة التقى غسّان وعزيز شكا له ما في قلبه من ألم، إذ إنّ ابنه الكبير مجنّد في الجبهة وإنّه في أكثر جبهات الحرب خطرًا هي جبهة الفاو المحتلّة من قبل إيران، والتي يجاهد الجانب العراقي من أجل استرجاعها بأيّ ثمن.. إذ بعد ذلك فقط يصبح إيقاف القتال ممكنًا.

ومرّة وعندما كان غسّان في بيروت جاءته فكرة مجنونة بأن يستقيل ويترك كل شيء ويعود إلى الناصريّة، يلبس الدشداشة والنعال، ينام كثيرًا، يكتب شعرًا كثيرًا، ويوقف نزيف الأحلام الماحلة، وقد كتب أفكاره في رسالة بعث بها إلى عزيز، وممّا قاله في تلك الرسالة التي مازال يحتفظ بنسخة منها:

اسمع يا عزيز "لديّ مقترح بأن نعود إلى الناصريّة، نذهب إلى هناك حتى قبل أن ننهدّ ونشيخ، نسكن متقاربين كما كنّا، نلتقي في مقهى صباح مساء، نثرثر عن أيّام مضت وأحلام انطفأت وعمر ضاع، ومن يموت منّا تخرج جنازته من هناك، نرثي بعضنا، نبكي بعضنا، نتلقّى العزاء عن بعضنا؟.

لكنّ الرسالة لم تصله عندما عاتبه على عدم كتابة ردّ لها، ولذا آثر غسّان أن لا يخبره ماذا كتب فيها؟ ولماذا كتبها أصلاً؟ وهل كان جادًّا في دعوته تلك؟.

وبعد كل هذا وذاك، بعد التي واللتيّا.. ها هو غسّان العامري في بغداد، أحد نجوم الستينات الأدبيّة الساطعة، العاشق، الأنيق الذي قالت له رانيا خليل: أنت أكثر الرجال الذين عرفتهم أناقة، ولك أن تتفاخر بأنّك تفوّقت بأناقتك على الرجال اللبنانيين في عقر دارهم.

ها هو غسّان العامري نزيل هذه الشقّة المركونة في الشمس، وكأنّه يعيد سيرة شعراء كانوا هنا ماضين مثل السيوف ثم رحلوا.

فماذا سيقول الصحافي النابه سعيد السامر الذي غادر بغداد وهو يحمل معه بعض قصائد غسّان التي من الممكن نشرها ولا تثير أيّ التباس.

وأخذ يتطلّع إلى صورته المعلّقة أمامه وكأنّه يسألها عمّا يمكن فعله؟.

صفّق بيده وتمتم محاولا تجاوز انهياره الوشيك، وقال كأنّه يجيب على سؤال وُجّه له:

- لا، ليس هذا الوقت الذي أعود به إلى الناصريّة، ليس الآن، مازالت هناك مفازة من السنوات العاهرة عليّ أن أذلّها، أتبوّل فوقها، فتوّة الجسد والفكر لم تغادرني، وقصائدي مازالت قادرة على إشعال الحرائق.

ثم نهض وأخذ يؤدي بعض الحركات الرياضيّة ونظراته مازالت تخاطب صورته:

- حتى إن غادرت سأحملك معي، كما حملتك قبل هذا من بيت الزوجيّة الذي تخلّيت عنه إلى شقّة العزوبيّة المطلقة! ثم نظر إلى ساعته فوجدها تشير إلى السادسة مساء وبضعة دقائق ومع هذا كان الوقت ظهرًا، وفكّر أن يستقلّ سيّارة تاكسي ويمضي إلى عيادة منعم البصري الذي لم يزره منذ قرابة الأسبوعين كما لم يتلفن له، ولذا سينهدّ بوجهه عتابًا فور أن يراه.

وعندما وضع أمامه هذا المشروع دبّ الحماس في جسده اللائب المطبوخ بحرارة الظهيرة، ارتدى ثيابه وخرج.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ما إن رآه منعم حتى شتمه وهو ما توقّعه تمامًا، وتركه يفرغ شتائمه، وبعد أن هـدأ خفّف من لهجته لكن دون أن يغادره اللوم:

- لماذا لا تسأل؟ تكلم بالتليفون، قل أنا حيّ، حتى أحلام تسألني عنك وتقول ما الذي حصل لغسّان؟ لماذا اختفى؟.
- هل انتهيت؟.
- لا، لم أنته، لديّ شتائم أخرى كثيرة، وإن فرغت من شتائمي ستأتيك شتائم أحلام.

أجابه:

- حسنًا، سأتقبّل شتائمكما بصدر رحب، وليس لديّ أيّ عذر، لا أعذار عندي.

وقهقه منعم وهو يردّد:

- أنتم الشّعراء ضائعون في متاهاتكم، أمّا أنا فطبيب أؤمن بالمبضع أكثر من القصيدة.
- أستغرب هذا منك! هل عدت لأصلك؟.
- ولماذا هذا الاستغراب؟
- لأنّ ما جمعني بك محبتك للشّعر، كما أنّ إيمانك بالعلم لا يتقاطع مع إيمانك بالشّعر ثم قل لي هل تريد بهذا أن تتبرّأ ممّا فيك؟ ألم تطلعني على محاولاتك الكثيرة في كتابة الشعر الشّعبي ومثلك الأعلى قصائد مظفر النوّاب؟.

ومدّ يده ليلتقط سمّاعة التليفون وأخذ يدير الرّقم الذي يريده وهو يقول:

- شعر مظفر النوّاب ليس شعبيًّا وإن كتبه باللهجة الدارجة، ما أطمح أن أكتبه هو شعر السليقة، بلغة الناس حقًّا رغم محبّتي لشعر النوّاب، ففيه تشذيب وتهذيب كثيران.

وعندما سمع الرّد على هاتفه نطق:

- احزري من عندي؟ إني، الأستاذ غسّان بقضّه وقضيضه شرّف قبل قليل، سآتي به مخفورًا.. آه، علينا أن لا نطعمه، ومع هذا سأسأله.

ووجّه كلامه إلى غسّان:

- أحلام تسألك ماذا تحب "تِتْزَقْنَب"(*)

(*) مثل عراقي، يقول: تتزقنب (الفعل)، زقنبوت (الاسم) وربّما كانت تعني السمّ وتقال عن الطّعام في لحظات الغضب!

- قل لها، أكلك لذيذ كلّه، المهمّ أنّ معدتي تخشّبت من أكل الدّجاج والكباب؟.

ثم عاد ليقول لزوجته قبل أن يطبق التليفون:

- سنطعمه سمًّا حتى نرتاح منه.

أعقب ذلك بضحكة.

قال له غسّان:

- سأتركك لمرضاك وأقوم بدورة في المنطقة وأعود إليك بعد ساعة.

- لا، اجلس، ستحضر مسرحيّة، ولكن عليك أن لا تضحك وعندما أسألك طالبًا التأييد منك فوافقني على ما أقول.

- لا تتكلم في المعميّات!.

- ستدخل السكرتيرة عليّ الأسطة جاسم وهو صاحب محلّ تصليح سيّارات، مصاب بآلام في الظّهر، وسأجعله يلاقي جزاء عمله معي إذ لا يمسّ السيّارة كلّما ذهبت إليه إلاّ بخمسين دينارًا.

ثم ضغط على الجرس فدخلت السكرتيرة وطلب منها أن تدخل أسطة جاسم.

- حاضر.

ودخل الأسطة وهو بملابس العمل المزيّتة، كان ضخمًا ولحيمًا بحيث يتجاوز وزنه المائتي كيلو غرامًا. وعاط صوته الفخيم:

- السّلام عليكم.

- وعليكم السّلام.

- شلونك دكتور؟.

- الحمد لله.

وأرشده إلى المكان الذي عليه أن يتمدّد فوقه بعد أن طلب منه أن يخلع قميصه وسرواله. فخلع القميص وتوقّف عن خلع السّروال وهو يتطلّع إلى غسّان، فقال له منعم:

- ما بك؟.

- أستحي دكتور، عندك ضيف، تريدني أتعرين قدّامه؟.

- لا تستح، هذا طبيب مثلي وربما أستعين به لتشخيص حالتك!.

وتمتم:

- حاضر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وبقي في ملابسه الداخليّة. وبدا أنّ سرواله الداخلي قد خيط من قبل أحد الخيّـــاطين وليس من الجاهز الذي يباع، عدا إنّ ضخامة كرشه ومؤخرته تجعل من المتعذّر العثور على سروال داخلي بمقاسه.

ثم قال له منعم:

- إسطة جاسم لا أحد يستحي من الطبيب، فالمثل يقول الطبيـــب أب وأخ حـــتى النساء يخلعن ثيابهن أمامه، وإذا اضطرني الفحص لأن أطلب منك خلع ثيابـــك فعليك أن تطيع.

وتمتم:

- دكتور الله يحفظك ليس لهذا الحد، الله وكيلك حتى أم الأولاد لم ترني عاريًـــا، كما أنني لم أرها عارية، لقد أوصى الله بالستر!.
- وغير أم الأولاد؟.

وضحك وهو يحكّ رأسه:

- دكتور لا تحرجني أمام صديقك!.

وواصل منعم النطق بجدّ:

- ليس في الأمر أي حرج.

وأضاف:

- من حسن حظك أنت غير مشمول بتخفيف الوزن مثـــل الـــوزراء والمـــوظّفين والضّباط وإلاّ أحالوك على المعاش لأنّ في وزنك زيادة أكثر من مائـــة كيلـــو، وهذه الزّيادة هي التي سبّبت لك الآلام!
- دكتور، لقد أعطانا الله.. فماذا نفعـــل بـــالفلوس غـــير أن نأكـــل ونشـــرب و...

وتوقّف قبل أن يكمل فأكمل منعم بدلاً عنه:

- وننيك؟ أليس هذا ما أردت قوله؟.
- نعم.
- قرار الحكومة بتخفيف وزن الجميع قرار صائب وحكيم أنا شخصيًّا اســتفدت منه، نصف الوزراء والمسؤولين رشّقتهم وجعلتهم مثل الغـــزلان، ألم تـــرهم في التلفزيون كيف أصبحوا؟.

ونطق غير راض:

- دكتور، هل تعجبك أشكالهم؟ أصبحوا مثل الخارجين من مستشفى، أيّ عيشة هذه؟ لو كنت مكانهم لاستقلت، أترك خيرات ربي لمن؟.
- ممنوع الاستقالة، ألا تعرف هذا؟ لا أحد يستقيل بل يقال في الوقت المناسب. نحن في دولة كل شيء يمشي فيها مثل السّاعة!.
- وأنا لا دخل لي في هذا، أنا رجل على باب الله، لي محلّ أصلّح فيه السيّارات، والرزق يأتيني.

ثم طلب منه أن يتمدّد على بطنه، فوجد صعوبة في ذلك وقال:

- دكتور، لا أقدر.
- حسنًا.

واقترب منه وأخذ يضغط على أماكن الألم في عموده الفقري وهو يتأوّه.

- أي دكتور، هنا.

وأشار الدكتور منعم إلى صورة طبيّة معلّقة على الحائط وقد التقطت لرجل من الخلف وبانت فيها خيوط الأعصاب في مؤخرة الإنسان.

- انظر للصورة، مركز أعصاب الإنسان في طيزه، الصورة واضحة.

ولم يتمالك غسّان نفسه من الضحك، لذا قال وسط انشداه أسطة جاسم:

- هذه النظريّة لا يؤيّدها علماء سنغافورة!.
- غير مهمّ، أنا أجدها صحيحة، ولذا وجب عليك أن تزيح بضعة كيلوات من مؤخرتك حتى يخفّ الحمل على الأعصاب!.

وتساءل الأسطة مشدوهًا:

- وكيف؟.
- عمليّة جراحيّة، تكلّفك في حدود الألفين، ولكن ليس في بغداد بل في لندن!.

وعلّق:

- دكتور، والله لو توقّفت حياتي على هذه العمليّة لما أجريتها!.

وهنا انطلق الدكتور منعم بالضحك وهو يربت بيده على كتفه:

- هيّا، ارتد ثيابك، في العمليّة يشفطون كل لحم وشحم طيزك وترتاح.

ففعل ذلك بسرعة، ثم تقدّم ليجلس على الكرسي المقابل له وهو يلهث، وعاد الدكتور منعم ليقول له:

- اسمع، أسطة جاسم، أقول لك بجدّ إن أردت أن تأخذ بنصيحتي ستخفّ آلامك!.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- دكتور، لا أستطيع النوم من الوجع والله!.
- مشكلتك الوزن، خفّف من الأكل، تحرّك، امش كل يوم أكثر من ساعة، أمّا إذا بقيت هكذا فلا فائدة، والحبوب والإبر ستتعب معدتك دون أن تعالجك، هي تهدّئ الألم لبعض الوقت فقط.

***

وبعد أن خرج أسطة جاسم نهض غسّان وهو يقول له:
- ماذا فعلت بالرجل؟.
- أحيانًا، يحتاج المرء لكثير من المزاح، والرجل طيّب ولا يزعل، وعشرات المرضى الذين يراجعونني ليس فيهم أيّ مرض عدا السمنة، وأسطة جاسم عيّنة منهم! لا همّ لهم غير الأكل والشّرب وربحهم كثير من أعمال يدويّة عاديّة. تصور أسطة جاسم هذا يتعشّى برأسين "باجة" وتوابعهما!.

وخرج غسّان بعد أن قال له:
- سأعود في السابعة، من حسن حظي أنّني رشيق رغم أنّ لا أحد يطالبني بأن أزن نفسي!.

وتمتم الدكتور منعم:
- دعني ساكتًا، كلّهم امتثلوا وأسرعوا ليخفّفوا أوزانهم و لم يعترض واحد منهم، فإذا اعترض يعرف أنّهم سيطهّرونه، أو يقصّون زبّه من العرق.

***

غادر غسّان العامري عيادة صاحبه وهو مازال معبّأ بضحكة ظلّت حنجرته تقهقه بها بين فترة وأخرى، حتى وهو ينزل سلالم العمارة ثم يسلّم خطواته للشّارع.

تمتم:
- لقد اختبطت مصارين أسطة جاسم المسكين! ولكن هكذا هو منعم، سفيه دائمًا!.

تقع العيادة في ساحة التحرير المكتظّة بالمطاعم والدكاكين وعيادات الأطبّاء.

توقّف غسّان أمام دكّان صغير في شارع السعدون يبيع المسابح والحلي الفضّيّة القديمة، وسأل صاحبه إن كان يرغب في شراء ثلاث مسابح من خرز "الكهرب" سبق له

أن جلبها معه في إحدى زياراته لموسكو قبل أكثر من عشر سنوات، فأجابه صاحب الدّكّان:

- هناك كهرب مغشوش وكهرب حقيقي، كما أنّ الكهرب أنواع وإذا لم أر المسابح بعينيّ لا أستطيع أن أقول شيئًا.

ثم واصل الخطو باتجاه بائع كتب كان يهبّ مرحّبًا كلّما أطلّ عليه غسّان، ولا يلبث أن يردّد:

- أنتم أدباء العراق الحقيقيّون وليس هؤلاء المنتشرين مثل الهم على القلب. وبعد أن رحل الكثيرون أصبح بقاؤكم يدلّل على أنّ الدنيا لا زالت بخير!.

ويذكر غسّان أنّه قد همس له مرّة جوابًا على أقواله هذه:

- ولكنّني سأرحل أيضًا.

فيخرس أبو طه - وهذا اسمه - ويمتقع وجهه، تتلألأ الدموع في مآقيه ويقول:

- وتتركون البلد لسهيل صبري والصبيان الذين يركضون وراءه مثل الذباب؟.

- هم الشعراء المطلوبون اليوم، بضاعتهم هي الرائجة، فماذا نقول نحن؟.

ثم طلب من ابنه أن يأتيه باستكان شاي، وقدّم له الكرسي الذي كان يجلس عليه والذي لم تتسع مساحة الدكّان الصّغيرة المكتظّة بالكتب لان يضع آخر غيره.

وجلس غسّان وهو يقول:

- لن أطيل، عليّ العودة إلى عيادة الدّكتور منعم!.

ثم شكا أبو طه من وضع الكتاب:

- كل ما نعرضه قديم أو من منشورات وزارة الثقافة ودار المأمون، الاستيراد ممنوع بناء على هذه الحرب التي لا ندري متى ستنتهي!.

* * *

تحرّكت سيّارة الدكتور منعم المرسيدس من المر آب المكتظّ في ساحة النصر، وبدأت تشقّ طريقها بصعوبة وهي تدور حول الساحة لتدخل شارع السعدون.

ورغم أنّ الشمس قد غربت منذ بعض الوقت إلاّ أنّ الحرارة مازالت تفرض هيمنتها.

نطق منعم موجّهًا السؤال لغسّان الجالس بجانبه:

- أتحبّ أن افتح المكيّف؟.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- لا، أرجوك، هذه الحساسيّة في صدري التي تتحوّل بسرعة إلى تشنّج من الأفضل أن أقاومها بالجوّ الطبيعي.

وأصبحت السيّارة فوق جسر الجمهورية بعد أن ألقى غسّان نظرة متأملة ومعجبة بنصب الحرّية المهيب الذي أنجزه جواد سليم أكبر فنّاني العراق، ومات قبل أن يراه بشكله النهائي في المكان الذي خصّص له.

ثم استدارت السّيارة باتّجاه فندق ميليا منصور، ومرّت به قبل أن تدخل شارع حيفا الذي يضم مجموعة من العمارات السكنيّة الراقية التي تزين جانبي الشّارع حيث اكترى شقة لسكن زوجته الجديدة أحلام وترك الفيلا الكبيرة لزوجته الفرنسيّة وولديه منها، وكان كبيرهما يدرس في كلّية التّربية الرياضيّة والثاني مازال في المدرسة الابتدائية.

أوقف السيّارة أمام العمارة وهو يقول:

- تفضّل انزل، جئت بك مخفورًا!.

وعندما وقفا أمام المصعد ينتظران نزوله قال منعم وكأنّه تذكّر شيئًا فاته أن يخبره به:

- وزير الصّحة بعث في طلبي قبل يومين وطلب منّي ان أكون مديرًا لإعلام الوزارة، دون أن يكون في هذا تأثير على عملي في عيادتي الخاصّة!.
- وما رأيك أنت؟.
- طلبت أن يمهلني يومين، ثلاثة، حتى أفكر.
- لماذا لا؟ جرّب.
- هو يعتبر أنّ في هذا العمل تكريمًا لي بعد برنامجي التلفزي الناجح حول اللياقة البدنيّة وتخفيف الوزن، ثم امتنان بعض زملائه الوزراء الذين جعلتهم يرون أيورهم التي لم يروها منذ سنوات بسبب كروشهم المتهدّلة!.

وقهقه غسّان وهو يتبع منعم داخل المصعد، ثم علّق:

- لسانك الفالت هذا سيأتيك بالمصائب، يا أخي اضبطه قليلاً، تحكم فيه.

وخرجا من المصعد وتوجّها إلى باب الشّقة وجاء صوت منعم معلّقًا على ما فاه به صاحبه:

- كلّهم أمازحهم، ويقبلون هذا منّي فانا هكذا.
- ولكنّهم ليسوا هكذا، لا أمان لهم. فخذ حذرك ولا تأمن لأحد منهم.
- أنت متشائم جدًّا، ليس كلّ شيء سيّئًا إلى هذا الحد، هناك دائمًا إمكانيّة للنفاذ، بل والوصول أيضًا.

ثم دسّ المفتاح بالباب بعد أن ضغط على الجرس ليعلم امرأته بأنهما قد وصلا.

كانت أحلام منشغلة في المطبخ وقد جاءت لتسلّم على غسّان وهي تقول له:

- حسابك معي عسير، لماذا تهرب منّا؟.

- أنتما عريسان جديدان ويجب أن نترككما تنعمان بأيّام الهناء.

- نحن نعرف بعضنا عشر سنوات وأكثر قبل أن نتزوج!.

هكذا قال منعم وهو يمضي نحو البار الصّغير ليسحب زجاجة ويسكي مع كأسين.

وجاء ببضعة صحون فيها مكسّرات، وخيار مقشّر ومقطّع. وأدار في الكأسين وهو يقول:

- لم أظنّ أنّ زواجي بأحلام سيحمل معه السّعادة والأمان!.

- لقد قاتلت هذه المرأة عشر سنوات من أجل الاقتران بك وتحمّلت ما تحمّلته من أهلها والناس ومن الدكتورة سوزان زوجتك!.

- المهم، أنّني غير نادم، زواجي من سوزان حتّمته ظروفي الخاصّة عندما كنت في فرنسا، ويوم حملت منّي كان لابدّ من الزّواج، وهكذا عدت بها وبالطفل، وتراكمت السنوات، ومع هذا كان بداخلي إحساس بأنّ هناك فراغًا بيني وبين هذه المرأة الأوروبية ازدادت حدّته رغم أنّها تخلّت عن جنسيّتها وأصبحت تحمل الجنسيّة العراقيّة، ومع هذا فأنا لم أطلقها وبقيت في بيتها الذي حوّلت قسمًا منه إلى عيادة خاصة بها.

ثم نهض غسّان وأطلّ على الشّارع من النّافذة المفتوحة. كانت الحركة فيه لا تنقطع.

لقد بني على أنقاض إحدى أعرق المحلات الشعبية ببغداد واسمها "الشوّاكة" وما جاورها. حيث تمّ شراء الدّور الآيلة للسّقوط من أصحابها بمبالغ مغرية لتأتي عليها الجرّافات وتمسحها مسحًا. وقد ارتعب غسّان شخصيًّا عندما رأى ما يحصل ورأى فيه قتلاً لذاكرة الناس ولذاكرة المدينة، إنّها ساديّة المحو والمحق حتى لو كان البديل عمارات شاهقة!.

وقد قال كلامًا مشابهًا في إحدى الندوات، ولكن ناقدًا فنيًّا معروفًا برّر ماحصل بوصفه له بأنّه القتل الذي لابدّ منه، رصاصة الرّحمة.

وأراد أن يقول له:

- هو قتل متعمّد جدًّا؟.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لكنّه سكت، خاف من المتنصّتين الذي يرفعون تقارير عن كلّ ما يقال. كانت الأطواق والممرّات والمداخل عربيّة الطراز روعي فيها مناخ بغداد وتقلّبه المتطرّف بين البرد والحرّ حيث لا فصول وسطًا، ربما لبضعة أيام فقط من شيء يشبه الربيع.

ومع هذا كان المنجز المعماري أخّاذًا، وليس لدى غسّان من ملاحظة بهذا الشأن إلاّ الزيادة في ارتفاع العمارات وهو أمر لا داعي له من وجهة نظره.

ولو خُيّر في الإقامة لما اختار إلاّ بيتًا مستقلاً، حتى لو كان صغيرًا مثل بيته في "حيّ الجامعة" الذي تركه لمطلّقته لغرض سكناها مع ابنتيها، ولكنّها لم تسكنه وأبقته مغلقًا نكاية به.

تبدو له الشقق رغم جمال بناء العمارات وهو يتطلّع من النّافذة وبيده كأس الويسكي وكأنّها أقفاص معلّقة، لذا لم يتحمّس العراقيون لهذا النمط من السّكنى فهم مازالوا يؤمنون بالأرض، أبناء الفلاحين، سليلو مئات السنوات من حراثة الأرض وزرعها، وهناك قلّة يرتضون شراء جدران معلّقة فأصبحت الشّقق الأرضيّة هي المطلوبة وسعرها ضعف الشّقق في الطّوابق الأخرى على عكس ما هو حاصل في أوروبّا. واستعاد غسّان تعبيره "قتل الذاكرة" وصار يردّده في سرّه وكأنّه يحاول التّأكّد من أنّه ينطقه بشكل صحيح، ثم وجّه السؤال إلى منعم:

- قتل الذّاكرة، ألا تجد هذا المصطلح مثيرًا بل مرعبًا؟.
- وهل كنت في شكّ من هذا؟ في العقود الأخيرة جرت عمليّة ردم وإطفاء وإحلال بدائل، كأنّ الأشياء كلّها بلا ماض، ولذا يقول المرء في سرّه أحيانًا أودّ لو كنت بلا ذاكرة حتى لا يجدون فيّ ما يقتلونه! فماذا تفعل وأنت في اصطلاء ذاكرة منتبهة، متلصّصة، مختزنة، ثاقبة مثل مبضعي الذي أجري به العمليّات الجراحيّة لإعادة العظام إلى ما كانت عليه!.

عادت أحلام من جديد وهي تسأله عن حنان عوّاد فقد تعرّفت عليها من قبل في إحدى زياراتها إلى بغداد، وأخبرها أنّها تتهيّأ للسفر إلى أميركا للمرّة الثانية، ولكنّها قد تزور بغداد قبل ذلك.

وهنا تساءلت:

- وأنت؟.
- يبدو أن لا مخرج لي، إذا عثر أحدنا على جناحيه فلماذا يمنعه الآخر من الطّيران؟.
- ولكنّها تحبّك؟.

- وأنا أحبّها أيضًا، ولكن هذه مسألة أخرى.

وهزّت رأسها وكأنها لم تستوعب جيدًا تعليقاته هذه، ثم انسحبت نحو المطبخ بعد أن وضعت صحنًا كبيرًا من"السلاطة" على طاولة الطعام.

حمل منعم التليفون ناحية غسّان الذي عاد للجّلوس وهو يقول له:

- حاول أن تكلمها، لعلّك تفلح في التقاط لبنان، جرب ذلك.

وقد حاول فعلاً، أدار الرقم مرارًا، ولكنّه لم يستطع، ترك التليفون وهو يردّد:

- وماذا سأقول لها؟.

وتساءل منعم باستغراب:

- أيّ شيء، ما بالك اليوم؟.

وكانا كلّما فرغ كأساهما ملآهما من جديد ومنعم يستحثّه:

- أشرب، وستنام ليلتك على هذه الكنبة، لأنّني لم أسكر مثل هذه السكرة منذ أيّام.

ثم رنّ جرس الهاتف، وعرف غسّان أنّ المتكلّم شقيق أحلام الذي يستفسر منه إن كان التليفزيون مفتوحًا أم لا، واستغرب منعم هذا السؤال. وبعد أن أطبق التليفون توجّه نحو التلفزيون وفتحه فإذا به يعرض لقاء لرئيس الدولة مع أحد المواطنين، وكان هذا المواطن قد تجاوز الستين من عمره، ويتحدّث بيديه وحاجبيه وكأنّه ممثّل محترف وكان موضوع حديثه ولده الفارّ من العسكريّة وقد حثّه على تسليم نفسه، ولكنّ الولد لم يذعن لما أراد، فما كان من الأب - بحسب روايته - إلاّ أن أخرج مسدّسه وأفرغه في رأسه لأنّه يعتبره خائنًا للوطن، والخائن يستحقّ القتل.

وبدلاً من أن يلقى بهذا القاتل في السّجن لأنّه أخذ دور القانون وحاكم وأصدر الحكم، هاهو في حضرة رئيس الدّولة الذي ثمّن وطنيّته العالية التي دلّل بها أنّ العراقيين يقدّمون أغلى ما عندهم من أجل الانتصار على الأعداء. ثمّ قدّم له هديّة.

وأطفأ منعم التلفزيون وهو يردّد:

- يا إلهي! هل كان ما شاهدته بعينيّ هاتين مجرّد كابوس أم أنّه الواقع؟.

وانفجر غسّان بالبكاء وصار يلطم وجهه بكلتا يديه وتركه منعم يفعل ذلك، وبعد أن تعب رفع رأسه إلى الأعلى وهو يتمتم:

- ما الذي فعله العراقيّون حتى تعذّبهم هذا العذاب؟ لماذا تحلّ لعناتك علينا تباعًا يا ربّ العالمين؟ لماذا؟ نعم، نحن من ورّطنا الحسين فجاء لائذًا إلى حمانا ثم خذلناه، لكن ألا يشفع لنا أكثر من ألف عام من اللّطم والعويل؟.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- 26 -

شغل حديث استقبال رئيس الدّولة للأب القاتل الناس، وأصبحوا يتهامسون به على مدى أيّام، وانتشرت بموازاة هذا الحديث معلومة تقول إنّ الابن حديث الزّواج بفتاة شابّة، وأنّ الأب الأرمل أقام معها علاقة لا أحد يدري تحت أي ظرف تمّت.

وقد فاجأ أباه وزوجته في الفراش فانهار، و لم يصدّق ما رآه، ولكنّ الأب انتزع مسدّسه ووجّه نيرانه نحو ابنه فأرداه قتيلاً ثم ابتدع حكاية فراره من الجيش.

ورغم كل الخوف كان الاشمئزاز واضحًا على كل الذين يلتقيهم غسّان، ثم كبرت هذه الإشاعة، وتردّدت أخبار بعد ذلك أنّ الرّجل اعتقل للتأكّد من صحّة ما ادعاه، وقد استدعيت زوجة الابن للإدلاء بأقوالها فاعترفت بالحقيقة، ولذا أعدم الرّجل ووضعت زوجة الابن في السّجن.

وربما كان في هذا الإجراء - إن صحّ - محاولة للملمة هذه الفضيحة التي رجّت البلد من شماله إلى جنوبه.

***

يحسّ غسّان العامري باغتراب كامل أمام كلّ هذا الذي يحصل أمامه، ولو كان الأمر بيده لأوقف زحف هذه المآسي التي طاردت الناس في بيوتهم وأعمالهم، وقلبت تلك الأخلاقيّة الرّفيعة التي جبل عليها العراقيّون وحافظت على وحدتهم رغم التّنوع الدّيني والعرقي والطائفي.

أصبح كل شيء متوقّعًا، لا شيء يثير الاستغراب، وتساءل مع نفسه مرارًا كيف عملت في المؤسّسات الإعلاميّة والثّقافيّة الرسميّة إذن؟.

ويجيب نفسه بأنّ الأشياء لم تتردّ إلى هذا الوضع، و لم تسفّ بهذا الشّكل المشين إلاّ في سنوات الحرب، لقد جاءت هذه الحرب بأخلاقها التي هي في حقيقتها لا أخلاق، سقوط، حضيض، وسخ، قرف.

يذكر أنّه وبعد تخرّجه من الجامعة طولب بالإنخراط في سلك التعليم، و لم يكن هذا ما يريده، ولكنّه مرتبط بكفالة ماليّة تلزمه بهذا رغم أنّ الصّحافة كانت هواه.

وعندما سقط نظام عبد الرّحمن عارف في السّابع عشر من تمّوز عام 1968 وتسلّمت البلد سلطة جديدة وضع الكثيرون أيديهم على قلوبهم خوفًا من أن يتكرّر ما حصل عام 1963 من مذابح على يد المنقلبين الجدد الذي هم أنفسهم انقلابيّو الأمس.

وكأنّهم انتبهوا لحالة الوجوم التي أصابت الناس لمجيئهم ومن كان قادرًا منهم على المغادرة سرعان ما غادر، ومن كانت لديه أموال بإمكانه تحويلها إلى الخارج لم يتردّد في تحويلها.

لذا أرادوا أن يثبتوا منذ اليوم الأوّل أنّهم مختلفون، وأنّهم جاؤوا هذه المرّة متّعظين من تجربتهم تلك، وتظاهروا بمظاهر الحملان.

كان عددهم قليلاً وتفاصيل حركتهم استمع غسّان العامري جيّدًا إلى وقائعها من أحمد حسن البكر الذي عيّن رئيسًا للجمهوريّة.

اتّفقوا مع آمر حراسة الإذاعة والتلفزيون بأن لا يقاومهم ويسمح لهم بالدّخول ليذيعوا بيانهم ومقابل هذا سيعيّنونه وزيرًا للدّفاع، خاطبوا فيه حلم العسكري المغبون الذي لا يريد أن يُحال على التّقاعد برتبة صغيرة. كما اتفقوا مع آمر حراسة القصر الجمهوري بأن لا يقاومهم ويفتح لهم باب القصر ومقابل هذا سيجري تعيينه وزيرًا للدّاخليّة.

وهكذا تحرّكت بالمنقلبين بضعة دبابات أخذت طريقها باتجاهين أحدهما القصر الجمهوري والثاني مبنى الإذاعة والتلفزيون.

توزّعوا على مجموعتين فيهما مدنيّون حزبيّون ارتدوا ملابس عسكريّة وضبّاط متقاعدون من رتب مختلفة وتمّ كلّ شيء بسهولة.

دخلوا على رئيس الجمهوريّة ووضعوه في طائرة وخيّروه إلى أيّ بلد يريد الذّهاب، فاختار تركيا، وأذاعوا بيانهم بعد أن أصبحت الطّائرة في الجوّ.

وبعد أن استتبّ لهم الأمر بدأوا التحرّك لكسب مناصرين لحركتهم، من حزبيين قدامى قطعوا علاقتهم بالحزب سنوات، إلى ضبّاط متقاعدين.

كما أبدوا انفتاحًا باتّجاه المثقّفين، وقد استجاب غسّان العامري عندما عرضوا عليه فكرة نقله إلى وزارة الثقافة، وكان من عرض عليه الأمر وزير الثّقافة شخصيًا الذي كانت بداية علاقة غسّان به في النّاصريّة، إذ كان مبعدًا إليها في فترة حكم عبد الكريم قاسم.

وعندما صار تقسيم وزارة الثّقافة والإعلام إلى وزارتين إحداهما للثّقافة والأخرى للإعلام وأسندت الوزارة الثّانية لصحفي معروف وابن صحفي رائد له دوره الواضح منذ الفترة الملكيّة. وكان الوزير يحترم غسّان العامري فذهب إليه وطلب أن ينقل إلى وزارته، وهنا انتبه الوزير إلى أمر وقال له:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- لقد جئت في وقتك، اسمع، لدينا خطّة فتح مجموعة من المراكز الثّقافيّة في عـــدد من البلدان العربيّة، تونس، المغرب، بيروت، صنعاء، القاهرة، ثم في المرحلة التّالية مراكز أخرى في بقيّة البلدان العربيّة التي تسمح لنا بهذا وسنبادلها بالمثل.

وهنا تساءل غسّان:

- وما المطلوب منّي؟.
- ربما تجد إدارة أحد هذه المراكز ملائمة لك؟.

وكأنّ ما سمعه أجمل مفاجأة من هذا الإنسان الدافئ والصافي، قبل استيزاره وبعده.

وأضاف الوزير:

- اسمك مهمّ، اعتبر نفسك مرشّحًا، وسنعرض القائمة بعد استكمالها على المكتب الثقافي والإعلامي للحزب لإقرارها، ورغم أنّك لست حزبيًا ولكن لا أظـــنّ أنّ أحدًا سيعترض عليك!.

وخرج من عنده وهو يحلّق بجناحي هذا الوعد، وزفّ البشرى إلى زوجته التي كانت الإقامة للعمل خارج العراق أمنية تنتزعها من عملها الإداري لتستريح بضع سنوات.

***

وهكذا بدأت الوساطات والتّدخّلات للتعيين في العواصم المرغوبة، ولم تبق إلاّ بيروت التي أحجم الجميع حتى عن التّفكير في زيارتها بعد أن تحوّلت إلى ساحة حـــرب. وعنـــدما عرضوها عليه وافق على الفور.

وهكذا صدر أمر تعيينه في بيروت التي كانت قبل اعتلاق نيران الحرب الأهليّة فيهـــا المطلوبة الاولى والمرغوبة أكثر من غيرها من قبل الدبلوماسيين.

والتقى غسّان بصديقه الدكتور زيد الحبيب الذي كان في زيارة له بمكتبه في الوزارة، فنقل إليه الخبر فما كان منه إلاّ أن قال محذّرًا:

- الذهاب إلى بيروت في مثل هذه الظّروف انتحار.

وهنا ردّ غسّان عليه ببساطة:

- ليكن، هنا وجوه لا أريد أن أراها والابتعاد عنها مكسب لي.
- أنت مسؤول عن إبداعك فقط، عن شعرك، أمّا ما يحصل خارج هذا فلا علاقة لك به.

وقد ردّ غسّان معلّقًا على هذا القول:

- من الصّعوبة تجزيء الأشياء أمام عمل كهذا، دعني أذهب وأجرب، هي مغامرة.
- وزوجتك وابنتاك؟.
- سأذهب وحدي أوّل الأمر.

وجاء عدنان العزيري محاولاً أن يثنيه وكذلك معن الماجد، وقدم سليم الحامدي من المقداديّة خصّيصًا لإقناعه بالتّراجع.. حتى الدكتور منعم البصري ومحامي الشّعب طارق المنصور لم يفلحا، وكان آخر ما قاله له طارق المنصور:

- اذهب ما دمت تريد الذّهاب. انتحر على طريقتك.

وهكذا تحوّلت لهجة منعم إلى سخريّته المعروفة ليقول له:

- ولا تستغرب إن جئتك يومًا ومعي واحدة، هناك فنادق محميّة لا أحد يقترب منها، أخبرني ذات يوم صديق فلسطيني، فندق الكومودور مثلاً.

***

وهكذا سافر غسّان العامري ليدير المركز الثقافي الكائن في شارع الحمراء، واكترى شقّة في عمارة "بوتاجي" بشارع السّادات، وتخلّى عن فكرة شراء سيّارة فإذا لم تسرق ستفخّخ وتنفجر به ليكون أشلاء. حذّروه بأنّه سيدفع الثمن لا لذنب اقترفه. بل لأنّه عراقيّ فقط.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- 27 -

قتل الذّاكرة.

كانت هذه الجملة تعيش مثل تمتمة مبهمة يردّدها غسّان العامري مرارًا كلّ يوم منذ أن سمعها من منعم البصري. ويحاول أن يتلاعب بها فيجعلـــها مرّة"اغتيـــال الـــذّاكرة" أو "إعدام الذاكرة" ولكنّه يعود إليها من جديد لأنّ أذنه استساغت سماعها هكذا.

ها هو غسّان العامري، مواطن من هذا البلد، من تلك المدينة، من تلك القرية الغرّافيّة "أبو هاون". ها هو يرفل بثياب الحداد، حداد القلب، حداد الوطن، حداد الأهل.

يتعذّر بكآبة لا تنفرج أمامها أبواب سماء، كآبة مزمنة كوباء، منسحب من كلّ مـــا حوله، باك على كل ما حوله.

لكن المتّقد فيه ذاكرته، والمشتعل فيه حروف قصائده، كل شيء بإمكانهم أن ينـــهوه إلاّ هذه الذّاكرة، هي التي ترى وتخزن ما تراه، لا تهمل حتى تفاصيل التفاصيل.

إنّه يستعرض سنوات التّعب كأنّها ماثلة في عرض سينمائي لم يتوقّف، عرض لـــيس هو المشاهد فيه بل والممثّل والمخرج والمنتج وكاتب القصّة، كأنّه أبو السّعود الأبياري ذلك السينمائي المصري الذي عرف آيّام السينما الأبيض والأسود إذ يردّد اسمه بصـــيغة "قصّـــة وسيناريو وحوار وإخراج وإنتاج أبو السّعود الأبياري" وتساءل: أين هو؟ ولماذا لم يعـــد أحد يتذكّره؟ فهل مات أبو السّعود الأبياري؟.

لقد أطلقوا اسمه على عزيز عبد الصّاحب عندما ألّـــف وأخـــرج ومثّـــل إحـــدى المسرحيّات في الناصريّة، وقد زعل عندما انطلقت الدعابة للمرّة الأولى من أحمد الباقري، وكانوا يحيطون بطاولتهم المنزوية في مقهى التجّار التي وضعوا فوقها كتبـــهم وجرائـــدهم وأوراقهم ومشاريع قصصهم وقصائدهم إضافة إلى استكانات الشّاي العراقـــي السّـــاخن الذي كانت كل رشفة منه تبعد الخدر عن الرأس، وكذلك بقايا عـــرق الماســـتكي الـــتي يكرعونها في اللّيل في بيت أحدهم أو فوق الرّمل على شاطئ الفرات، وأحيانًا عندما تعمر الجيوب في نادي الموظّفين. تلك كانت سنوات الأحلام رغم أنّهم شبّان مفلســـون مـــن الطّراز الذي لا مثيل له إلاّ أنّ ثراءهم كان بأحلامهم.

وأيّ تناقض كان بين إفلاسهم وبين المقهى الذي ألفوه وهو مقهى التجّـــار، الـــذي كان زبائنه من التجّارالذين يكملون صفقاتهم وهم يتصايحون بأعلى أصواتهم، حتى أنّ من

يسمعهم يظنّهم على وشك الشّجار وأنّ العُقُل الجائمة على اليشاميغ المزركشة فوق الرؤوس ستنزعها الأيدي لتكون أداة الضرب التي لها مفعول السياط، وهي وسيلة العراك الشّائعة حيث يقال (ضرب العقال صار على فلس)(*) لكن شيئاً من هذا لن يحدث، وسرعان ما تخفت الأصوات لتأتي صينيّة الشّاي ومعها لعبة الطّاولة أو الدومينو.

وقد اختار الحاجّ صبّار وهو خال عزيز ومختار "محلّة السّيف" أن يمارس عمله وهو ينفخ نرجيلته في هذا المقهى حيث لا يخرج ختمه إلاّ بعد أن يستلم المبلغ المعلوم من أحد أبناء المحلّة الذين يقصدونه لتمشية معاملاتهم.

وكان وجوده كالدّوام الرسمي في صدر المقهى ماكثًا طيلة ساعات يرتشف خلالها أكثر من خمسة استكانات شاي وعلبتي سجائر "لوكس" هذا عدا فناجين القهوة والنرجيلة.

ولذا سمّاه صلاح رشيد بأسد أريدو الذي وضع تمثال مصغّر له أمام الحديقة الموازية لمبنى السراي حيث تتجمّع معظم دوائر الحكومة وعلى رأسها الشرطة والأمن والمعتقل.

كان عزيز وأسرته الكبيرة، وكذلك أخواله الثّلاثة وأولادهم وأعمامه الأربعة وما لحقهم من زوجات وأبناء في أعمار مختلفة من الرضيع حتى ابن العشرين يقيمون في دار واسعة من طابقين بناها الجدّ على مساحة ألف متر لتكون مقرّ سكنى أبنائه وزوجاتهم إضافة إلى عدد من الأقرباء.

وقد ترتّب على هذا زيجات متداخلة، وليس بينهم من شذّ عن هذه القاعدة، الزّواج بابنة العم أو الخال، لذا جاءت ملامحهم متشابهة، ومن الصّعوبة على الغريب أن يميّزهم عن بعضهم إلاّ بعد أن يخالطهم لفترة طويلة.

بيت الجدّ الذي رحل بعد أن اطمأنّ عليهم ومات قرير العين كان أكبر من فنادق المدينة الثلاثة، وعدد غرفه ضعف غرف فندق "وجنة الشّارع" وأيّ شارع يقع فيه حتى تكون له وجنة؟.

غسّان العامري يتذكر تلك الأيّام كأنّه مازال فيها، ومازالت الوجوه القديمة ماثلة أمامه وهو بدشداشته البيضاء ونعاله الجلدي ونزهاته على شاطئ الفرات، والنظرات المسروقة لصبايا يواريهن الخجل.

بيت جدّ عزيز كان بابه يظلّ مفتوحًا ليلاً ونهارًا إذ تكسّرت مفاتيحه ومغاليقه وحركة القاطنين فيه لا أحد يستطيع ضبطها.

(*) مثل شعبي عراقي مشهور في الجنوب خاصّة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وهناك حادثة تروى عن جدّ عزيز الكبير، وقد حصلت قبل سنوات، عندما كان الجدّ على قيد الحياة حيث دخل لصّ إلى البيت، ويبدو أنّه كان لصًّا مبتدئًا ولا يعرف المنطقة جيّدًا.

وما أن لمحته إحدى النّسوة حتى صرخت فألقوا عليه القبض، وجاؤوا به إلى الجدّ مكتّفًا وسألوه ماذا يفعلون به؟ وإن كان عليهم تسليمه للشّرطة؟.

وهنا أصدر الجدّ حكمه بقوله:

- انكحوه.(*)

وتصوّر أبناؤه الأمر مزحة، ولكنّه أصرّ على ما أمر به، بقوله: لأنّ هذا سيكون درسًا لكل من يحاول الاقتراب من بيتنا، نحن نعاقب اللّص على طريقتنا.

ثمّ سمّى اثنين من أبنائه العزّاب ليقوما بالمهمة.

وصار اللّص يصرخ ويتوسّل ويدعو للحاجّ بالجنّة، فرقّ له قلبه وأخلى سبيله..

لم يعرف أحد من الأبناء ذلك اللّص الذي آثر أن يختفي وربّما غادر المدينة حتى يكم فم الفضيحة، ولكن حكايته انتشرت في أسواق النّاصريّة وبيوها وأصبحت مثار تندّر، ومادام الأب قد أمر بمعاقبة اللّص بهذه الطريقة رغم عدم تنفيذها فإنّ عمله زرع الخوف في نفوس الكثيرين.. مرّة سمع غسّان أحدهم يقول لخال عزيز المختار صبّار:

- من يجرؤ على الشّجار معكم؟ لن يفعل هذا إلاّ من كان غير خائف على عفافه!

ذلك كان قانون الجدّ.. وحتى عندما آخذه أحد أصدقائه الشيوخ الذين يسامرونه على فعلته بقوله:

- كان عليك أن تسلّمه للشّرطة.

صرخ فيه بغضب:

- أيّ شرطة؟ يدفع لهم خمسة دنانير رشوة فيطلقون سراحه؟

لكن عزيزًا لا يؤكّد هذه الرواية ولا ينفيها كلّما سئل عنها.

كانت النّاصريّة في تلك السّنوات مدينة صغيرة ووادعة، عرف بعض أبنائها طريقهم إلى المعتقلات والسجون، ولكن كانت هناك حالة تضامن عجيبة، حيث يتصرّف الجميع وكأنّهم أسرة واحدة، يشكّل الوجهاء وفودًا ويذهبون إلى بغداد ليقابلوا الوزراء والمسؤولين متوسّطين من أجل تخفيف أحكام سجناء أو إطلاق سراح معتقلين، وكانت كلمتهم مسموعة.

(*) بمعنى نيكوه حيث يقلب الكاف باللهجة العراقية الشائعة إلى ج.

مدينة مفتوحة بطيبتها، غنيّة بما أعطت، لكنّها مدينة لها أسرارها، تتكتّم على شيء خفي، وتتكئ إلى إرث روحي لا حدود لثرائه، فعلى لوح من أديم أرضها كتبت أوديسة العراق القديم "ملحمة جلجامش" ومن أور عاصمة السومريين بدأت رحلة أبي الأنبياء إبراهيم الخليل.

كيف يمكن لمن يقرأ حتى تاريخها القريب أن يفسّر ظهور "فهد" مؤسّس الحزب الشيوعي منها، كان ينتمي إلى إحدى الأسر المسيحيّة القليلة التي تضمّها المدينة، مثل أسرة طوبيّا التي اختصّت بامتلاك مكائن طحن الحبوب التي كان هديرها لا يتوقّف على نهر الفرات شرقي المدينة، أو جورج حدّاد الموظّف الإداري في مستشفى المدينة، أو الصيدلي يوسف جبريل برلزيز صاحب أوّل صيدليّة في المدينة وصديق الزعيم عبد الكريم قاسم، وهناك أيضًا وديع باكوس وجوزيف حنّا من باعة المشروبات الكحوليّة.

ومن هذه المدينة أيضًا يخرج فتى من قبائل بني ركاب ليكون أوّل أمين عام لحزب البعث وأوّل وزير عن هذا الحزب في حكومة العهد الجمهوري. لكنّه وبعد سنوات أودع السّجن على يد أبناء الحزب الذي أسّس فرعه في العراق ليقتل على يد مجرم بطعنة رغم أنّ السّجين أمانة لدى سجّانيه.

وقبله انتهت حياة فهد معلّقًا على مشنقة مع اثنين من رفاقه.

لقد ارتفع منسوب الدم والقهر في هذه المدينة فاختبط ماؤها وعكّره الدم بدءًا من شباط 1963 وما تلاه.

هذه المدينة أعطت للعراق أيضًا أجمل أصواته الغنائيّة، وخاصّة المغنّين الريفيّين الذين يطلقون عليهم لقب "بلابل الريف" أولئك الذين كانوا يصوغون الجمال والسّموّ والخضرة وغيرهم يعاقر الحفر متآمرًا، قاتلاً، سافحًا حتى دم أقرب الناس إليه من أجل أن يجلس على كرسي الحكم مداريًا خللاً في حياته فيختلّ الحكم كله، ولن ينصلح شيء.

كلّهم جاؤوا من هناك، داخل حسن، حضيري أبو عزيز، خضير حسن، شخير سلطان، ناصر حكيم، جبّار ونيسه.

خضير حسن وطور (الشطيت) الصعب الذي لا يقدر عليه إلاّ المغنّون الأفذاذ بحناجرهم الصافية العريضة المعطّرة بخضرة بساتين النّخيل وفضاءات سنابل القمح الذهبية.

جبّار ونيسة وطور (الحياوي) الموحي بالفرح الجنوبي، وطور (الصبّي) الذي يحتاج إلى نفس مطاوع يقرب من الصّهيل.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وحضيري أبو عزيز الذي كان صبيّ خيّاط في سوق النّاصريّة المسمّى بسوق "العبايجيّة" الذين يخيطون العباءات التي يرتديها الرجال.

وفي رحلة إلى بغداد اكتشف صوته متصرّفها كان ذلك عام 1927، ولذا ارتأى أن يعيّنه شرطيًا حتى يبقيه قريبًا منه ينصت إلى صوته متى أراد.

ومن شرطي إلى نجم إذاعي تتسابق عليه شركات الأسطوانات، حتى السينما المصريّة لم تنسه فقدّمته في استعراض غنائي يردّد فيه أغنيته الشّهيرة "عمّي يا بيّاع الورد.. كَلّي الورد بيش" وربما كان اسم الفيلم "القاهرة بغداد".

كانت ذاكرة غسّان تتدفّق بهذه الصّور والأحداث فمن يطيق قتلها؟ محوها؟ إلغاءها؟.

ذاكرة ملتصقة بمدينة وبوجوه تناثرت، ما بين الموت والرّحيل إلى مدن الله.

مدينة تنام على خزين من المجد والإبداع، على كنوز من التألّق والمحبّة، ومن يتعمّق فيها منقبًا باحثًا سيكتشف الجديد والرائع.

لكنّ المدينة تمّ اختراقها، غادرتها أسر عريقة، أو أبعدت، وحلّت فيها وجوه غريبة، ناشفة، متربّصة كأنّها وجوه ثعالب وذئاب.

جاءت لتفترسها، لتقوّضها، لتُخلّيها، لتحوّلها إلى أنقاض.

لكنّ الذّاكرة كانت تقاومهم، تعيد بناء كلّ ما يهدمونه، تشمخ بالوجوه المباركة التي عمّرتها.

بين أوراق غسّان قصاصة من جريدة فيها رسالة من أحد سكّان النّاصريّة الذين آلمهم ماحلّ بتمثال الشاعر الشّيخ محمد سعيد الحبوبي الذي يتوسّط ساحة باسمه، وفيها يذكر أنّ (هذه الساحة بدأت ملامح الإهمال تبدو عليها حيث تحوّلت الحديقة الجميلة المحيطة بالتمثال إلى مكان لرمي النّفايات) ومع الرسالة صورة ليؤكّد فيها صاحب الرّسالة ما ذهب إليه.

ترى كم من أبناء الجيل الجديد يعرف هذا الرجل؟ من المؤكّد أنّهم لا يعرفون عنه شيئًا، وأنّه بالنّسبة لهم مجرّد رجل معمّم ربما لا يعجب بعضهم وجوده في هذا المكان ويفضّلون عليه تمثالاً آخر.

إنّ الجهل هو نوع آخر من أنواع قتل الذاكرة أيضًا، ترى هل يعرف أولئك الرّعاع الذين حوّلوا السّاحة إلى مزبلة من هو هذا الرجل؟ من هو الحبوبي؟.

لم يكن شاعرًا متصوّفًا قال أجمل الشّعر في المرأة والخمرة وهو المتبتّل الورع فقط، ولم يكن رجل دين ولا سيّدًا من سلالة الرسول فقط، بل هو فارس مجاهد لحق بوالده في مدينة حائل السّعوديّة، وهناك تدرّب على الفروسيّة على يد مدرّبين ماهرين.

زامل جمال الدين الأفغاني الذي أقام في النجف الأشرف أربع سنوات لتلقّي العلم ودروس التصوّف.

وعندما اختمرت فكرة إعلان الجهاد عند علماء الدين ضد الإنكليز الذين احتلّوا الفاو جنوبي العراق عام 1914 وبدأوا يتقدّمون باتّجاه البصرة لاحتلالها. تحرّك المجاهد الحبوبي في سفن وصلت النّاصريّة التي اتخذت مركزًا لتجمّع كلّ المجاهدين.

وقد وصلها عام 1915 وأراد سكّان المدينة أن يميّزوه لمكانته ويقيم في دار أحد الموسرين منهم، فقال مخاطبًا إيّاهم: (إنّي نفر من هؤلاء المتطوّعة، لا ميزة لي عليهم، وشتّان الحرب والتّرف).

ومن النّاصريّة تحرّكوا نحو الشّعيبة، ولكنّهم خسروا المعركة ضد الجيش النظامي الإنكليزي، وقد مرض الحبوبي ومات في النّاصريّة.

ويرى المؤرّخون أنّ حملته تلك كانت البذرة الأولى لثورة العشرين الخالدة.

وقد غنّى المغنّون العديد من قصائده، ومازال غسّان العامري بذاكرته الضاجّة ولكن المتّقدة يحفظ بعض أبيات من قصيدته التي غنّتها مطربة العراق الأولى في خمسينات القرن الماضي عفيفة إسكندر ومنها:

(طرز خدّيك العذارانِ

تطريزة الورد بريحانِ

خدّاك من وردٍ ومن نرجسٍ

عيناك والقامة من بانِ

مرائر العشّاق شقّقته

فاخضرّ منكَ الأحمر القاني)

وتساءل غسّان هو يرفع صوته وكأنّه يلوم أحداً يقف أمامه.

- ياه! كيف يقتل كل هذا الجمال؟

لذا يصرّ على أن يكتب عن مدينة الذّاكرة، عن شرفائها، أقمارها، فرسانها، مغنييها ونخيلها برطبه الجنيّ.

يعيد بناءها من جديد ولو كان هذا البناء من كلمات فهي أبقى من حجارتهم وآجرّهم.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قتل الذّاكرة.

كاد هذا العنوان المريع يتسلّل ليكون عنوان قصيدة جديدة بدأ غسّان العامري بالاشتغال عليها، وهذه من المرّات النادرة التي يكتب فيها عنوان القصيدة قبل أن يشرع في كتابتها. حيث كانت معظم قصائده تظلّ بلا عناوين، حتى أنّه أطلق على أحد دواوينه الأولى اسم" قصائد غير مسمّاة" واكتفى بوضع أرقام لها.

وكان لمعن الماجد رأي مخالف إذ كان يصرّ على تسمية القصائد حتى يتذكّرها القارئ، فالأرقام قد تختلط ولكنّ الأسماء تتميّز ولا يحصل لها هذا.

وكلّما انتزع منه قصيدة لغرض نشرها في صفحته الثقافيّة بجريدة "الجمهوريّة" اختار لها اسمًا مستوحى من أجوائها وكان غالبًا ما يوفّق في هذا، وغسّان راضٍ بما يفعله صاحبه وإن كان ذلك على مضض.

كانت أصوات السيارات تقتحم عالم غسّان من نافذة غرفته، وكان مضطرًّا لتركها مفتوحة طلبًا لنسمة هواء، ولكنّ الضوضاء أزعجته فأغلق النّافذة وفتح باب الشقّة الذي يحمل له رائحة العجين المحترق من الفرن الذي يقع تحت العمارة مباشرة.

دخل الحمّام لتفريغ ما اختزن في أحشائه ومثانته وما إن جلس حتى جاءه صوت منبّه سيارة عدنان العزيري في ثلاث تزميرات فما كان منه إلاّ أن نهض ورفع ثيابه ومضى نحو النّافذة وفتحها وأشّر له بيده أن يستمهله خمس دقائق.

ولكن عدنان العزيري لم ينتظره في السيّارة بل توجّه نحو العمارة متسلّقًا سلالمها. دقّ الباب وهو يمدّ لسانه لا هثًا ممّا جعل صاحبه يؤاخذه على فعلته.

وبعد أن استردّ أنفاسه قال:

- هات كأس ماء قبل كلّ شيء. وبعد ذلك فنجان قهوة مهيّل، احتف بي أيّها النّكرة!.

وردّ غسّان:

أمرك.

- فكّرت أن أدخلك التاريخ، ولكن ليس بأشعارك الرديئة!.
- كيف إذن؟.
- بأن أجعلك أحد أبطال روايتي الجديدة التي أفكّر بكتابتها.

وأوضح بعد أن شرب كأس الماء وهدأ قليلاً:

- ألا ترى بأنّ هذه الدوار الذي يلفّنا من الممكن أن يكون موضوعًا لرواية؟.

- أكيد، ولكنّها رواية مخيفة، قد لا تطبع ما دامت ستمضي بالضّد، وتدين كلّ هذا الذي يحصل بدءًا من حرب لا معنى لها رغم كلّ الشّعارات والتّحليلات!.
- المهمّ أن أكتبها. هذا هاجسي الأوّل.

ثمّ تحوّلت لهجته إلى الحثّ:

- هيّا ارتد ثيابك واخف عنّي ساقيك القبيحتين!.
- يبدو أنّ لديك مشروعًا اليوم؟.
- سنذهب أ ولاً إلى جريدة الثورة، لديّ مكافأتان عن ترجمة مقالين، ومن هناك سنتوجّه نحو مجلّة الأقلام لننتزع حيدر الخلف، نأخذ له إجازة من قاسم الصافي رئيس تحريره. اليوم هو يوم الجباية، يوم جمع الرّيع البائس!.
- وبعد ذلك؟.
- نتوجّه لشرب البيرة المثلّجة في ذلك البار المطلّ على دجلة في الأعظميّة، لقد جلسنا فيه من قبل، ما اسمه؟.
- لم أحفظ اسمه، ولكن مكانه رائع، كأنك راكب في سفينة طافية على سطح النهر العظيم إن جلست فيه.
- سأغدق عليكما بكرمي، دم أجدادي العظام يستفيق فيّ.

وارتدى غسّان ثيابه على عجل وقال وهو يمرّر أطراف أصابعه على شعيرات لحيته الناتئة:

- ولكنّي لم أحلق ذقني بعد؟.
- ولماذا تحلق؟ هل نحن ذاهبان إلى حفل، ابق في السيّارة وأنا سأنزل لآتي بالنقود، وفي مجلّة الأقلام من ترى؟ لا أحد فيهم يحلق ذقنه ولا حتى شعر أماكنه السرية.

وبادره غسّان بالقول:

- أنت خوش طيز.
- طبعًا، ومن ينكر ذلك؟

وتحرّكا خارجين.

***

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قبل أن يدخلوا البار قرأ غسّان اسمه وقال لعدنان:

- لقد سألتني عن اسم البار، اسمه الأفراح.

فعلّق:

- أسماء فجّة، الأفراح، الهناء، السعادة، يا سلام، وكل هذا تعويض عن بؤسنا اليومي، حيث لا أفراح ولا هناء ولا سعادة.

اختاروا مائدة منزوية لكنّها تطلّ على النّهر مباشرة بحيث يستطيعون التمتع بمرأى الشاطئ الذي ينفرش أمام أبصارهم متلألئ الرمل.

وهناك بعض السابحين الذين يحاولون قتل لفح الحرارة بمعانقة الماء.

قال حيدر الخلف:

- لي ذكريات مع هذا النهر ولكن من ضفّته المواجهة حيث كنّا نأتيه مشيًا على الأقدام من مدينة الحريّة، وذات مرّة غرق أحد أصحابي، أخذه حادور الماء وكان الأمر فاجعًا.

أمّا عدنان العزيري فقال:

- رغم أنّني ابن الماء، من دجلة إلى الأهوار، إلاّ أنّني لا أعرف السّباحة، ولا تعتبروا هذا مأخذًا عليّ!.

وقال غسّان:

- والدي أطال الله عمره كان يردّد مثلاً ينسبه إلى أحد الأئمّة الصّالحين، ويقول علّموا أولادكم الخطّ والنّط والسّباحة بالشّط:

نطق حيدر:

- الخط الكتابة والنط ركوب الخيل والسباحة واضحة، أليس هكذا؟.

وهزّ غسّان رأسه موافقًا على شرحه، لكن عدنان العزيري قال:

- لم أدخل النهر منذ ذلك العهد الذي كانت فيه السلحفاة تطير.

وقهقه غسّان:

- هذه سلاحف العزير، أمّا سلاحف أبو هاون فتزحف على بطنها.

وهنا جاء صوت النادل وطلبوا بيرة عندما سألهم بلهجته المصريّة الطريفة:

- بتشربوا ايه يا بهوات!.

أمّا المازة فأمروه بأن ينوعها: "جاجيك"، تبّولة، حمّص، بطحينة، لبلبي.

وأخذ النادل يوزّع صحون المازة وهو يسألهم:

- عاوزين ايه تاني يا بهوات؟.

فأجابه حيدر:

- متشكّرين أوي.

وبعد ذلك قال مخاطبًا صاحبيه:

- أرأيتما نحن بهوات، يعني الأستاذ عدنان مثل يوسف وهبي بك.

وردّ عدنان:

- أكيد فإنّ منظري بينكم هيبة وهو الذي دفع النادل لأن ينادينا بالبهوات.

وفاه غسّان:

- هناك مثل تعرفه يقول فحل التوث بالبستان هيبة. لكنّك لست فحل توث، وإذا تساهلنا معك وجبرنا بخاطرك نقول: فحل سابقًا.

فما كان منه إلاّ أن انتفض قائلاً:

- أنا فحل وسأظلّ.. أفهمت؟!.

وحثّهم غسّان على ملء كؤوسهم قبل أن تذهب برودة البيرة، ومن ثم رفع كأسه وقال:

- نخب العزيز عدنان الداعي لهذه الوليمة.

وكركرت البيرة في حلوقهم، بعدها قال عدنان:

- كرّروا نخب أستاذ الجيل أستاذكما أيها التلميذان غير النجيبين.

وسأله غسّان:

- ومن هو أستاذ الجيل هذا الذي تعنيه؟.

أجاب وهو ينفخ صدره:

- أنا بالطبع، وهل فكّرت بآخر غيري؟.

فما كان من غسّان إلاّ أن قال:

- أنت خوش جيل.

وكركروا بالضحك. بعد ذلك تحركت الملاعق نحو صحون المازة وأخذ كل واحد منهم يمضغ لتخفيف لفح البيرة.

مسح عدنان فمه وسأل:

- هل قرأتما قصتي "الأفعى"؟.

فجوبه سؤاله بالصمت. ولذا وجّه كلامه إلى حيدر الخلف:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- لم تقرأها وقد نشرت في المجلّة التي تعمل بها؟.
- ليس بالضرورة أن أقرأها أنا، أنت اسم معروف وكتاباتك تـذهب إلى المطبعـة رأسًا، ولا بدّ أن أقرأها لاحقًا، المجلّة صدرت قبل يومين فقط.

وهنا قال باعتداد وهو يدفع جذعه إلى الوراء كعادته:

- إذ لم تقرأا هذه القصة فماذا تقرأان؟ عودا إليها بسرعة لتعرفا كيف يخلق عدنان العزيري بعبقريته الجبارة رموزًا عصيّة ولكنّها مليئة ودالّة! لكن "عـرب ويـن؟ طنبورة وين؟" أنتما جاهلان بامتياز.

ثم كرع ما بقي في كأسه من بيرة تبعها بملعقة "حمّص بطحينة"، مسح فمـه بمنـديل "الكلينكس" وتابع متسلطنًا:

- بهذه القصّة ابتدأت مرحلة جديدة، ودّعت الواقعيّة الاشتراكيّة لأكون غرائبيًا.

ثم ابتلع ريقه وواصل:

- واقعنا غرائبـي، ولذا يجب أن تكون قصصنا غرائبيّة كذلك!.

وهنا نطق حيدر بهدوء:

- لكن احذر، فالأفعى قد تدخل في إحدى فتحات جسمك.

وكان هذا التعليق مفجرًا لقهقهات لم تتوقف. وجاءت الوجبة الثانية من زجاجـات البيرة حيث انشغل كل واحد بتعبئة كأسه منها.

كان حيدر الخلف أحد كتّاب القصّة المعروفين، وقد بدأ اسمـه بـالظّهور في فتـرة الستّينات خالقًا نمطًا من الكتابة القصصيّة التي جوبهت لغموضها وعدم وضـوح الرؤيـة الفكرية فيها، كما كتب نقّاد الإيديولوجيا القوميّة والماركسيّة، ولكنّه لم يهـتم وواصـل الاشتغال وفق قناعاته وفهمه للكتابة القصصيّة لذا حظيت قصصه باهتمام عربـي، وكتب عنه نقّاد معروفون من مصر وسوريا ولبنان.

ويسجّل لحيدر الخلف أنّه كاتب غير متنطّع، زاهد في كل الهموم والمكاسب الطارئة، ارتضى العمل محرّرًا في مجلّة الأقلام. وله متابعات نقديّة يسجّل فيها اهتمامـه بتجـارب القصّاصين الشّبان الذين يحسّونه قريبًا منهم، وكان وراء نشر الكثير من تجاربهم في هـذه المجلّة العريقة "الأقلام" كما فعل قبله غسّان. لم يسافر خارج العراق، ولم يكمـل تعليمـه الثانوي، تزوّج مبكّرًا وصادرته هموم الأسرة، مكتف بما هو عليه، غيره يصعدون وينزلون وهو باق في مكانه. سعادته في أولاده وقراءاته النابهة وما يكتبه من قصص ثم لقاءاته بـين حين وآخر ببعض أصدقائه الذين يحبهم ولا يشك في محبّتهم له.

ومن هؤلاء الأصدقاء غسّان العامري وعدنان العزيري اللذين كانا يفاجئانه أحيانا في زيارات مسائيّة لبيته ليشربا الشّاي ويثرثرا معه، ومرّات ينتزعانه من بين أولاده ليحملاه إلى سهرة شرب أو مشاهدة عرض مسرحي.

وكان غسّان قد أطلق على أولاده وبناته اسم "الحبرْبش" ومعناها باللّهجة الجنوبيّة الخليط، مادام عددهم ستّة وأعمارهم متقاربة وحيدر الخلف أكّد لهم أنّه استغلّ وقت فراغه أحسن استغلال دون أن يفكّر بتحديد النسل مرّة.

تطلّع حيدر إلى النهر وقال:

- لعلّ هذا آخر صيف نرى فيه دجلة، فقصورهم تزحف عليه وقد تصل حتى جسر الصرافيّة، آنذاك يصبح النهر لهم فقط!.

واصفرّ وجه عدنان وهو يقول:

- إلجأ إلى الترميز، لا تتكلّم بهذا الشكل المكشوف الذي يجعل رقابنا تحت رحمتهم.

وهنا صفع حيدر جبينه براحة يده وكأنّه تذكّر شيئًا فاته أن يخبرهما به:

- أتعرفان حسن مطلّك؟.

وأجاب غسّان:

- صاحب رواية دابادا؟.

- نعم.

- لقد كتبت عنها مقالاً إبان صدورها، ما به؟.

- أعدموه.

ووجد غسّان نفسه يقف مشدودًا دون وعيه وهو يردّد:

- يا للسّماء! ياللسّماء!.

وسحبه عدنان من يده وأجلسه، في حين واصل حيدر روايته للخبر:

- ربما سئم الحرب التي جنّد فيها سنوات طوالاً وحاول الفرار، لكنّهم قبضوا عليه ونفّذوا فيه الحكم رأسا ورموا جثّته أمام داره مطالبين والده بثمن الرّصاصة التي أطلقوها عليه، كما منعوه من إقامة مجلس عزاء له فهو خائن للوطن في عرفهم!.

وسأله عدنان:

- ومن أخبرك؟.

- ابن خالته يعمل مع زوجتي في شركة واحدة.

وكزّ غسّان على أسنانه:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- حرام، هو مشروع روائي كبير، وفوق هذا إنسان غاية في التهذيب والتواضع.

أحسّ غسّان أنّ السمّ قد تسرّب إلى عروقه من هذا الخبر الذي لم يراعِ فيه وضعه كفنّان، له مزاجه وجنونه وسأمه وتساؤلاته، فأطلقوا عليه الرّصاص وانتهوا منه.

وحاول عدنان أن يغيّر الحديث بعد أن طلب ثلاث زجاجات جديدة للمرّة الرابعة، عندما قال:

- قبل أيّام جاء ابن عمّي من البصرة وأخبرني أنّ مدينتنا العزير قد أصبحت مهجورة والقصف حوّل بيوتها إلى أنقاض.

وسأله غسّان:

- والنتيجة؟.

وأخذ حيدر المبادرة بالجواب:

- العزير والقرنة التي يلتقي فيها نهرا دجلة والفرات ليكوّنا شطّ العرب مهجورتان منذ زمن، فهما على مرمى المدفعيّة الإيرانيّة اليومي. ومرّة قام الإيرانيون بإنزال خلف خطوطنا في المنطقة نفسها ممّا خلق حالة فزع كبيرة، كنت يا غسّان في بيروت وقتذاك. أمّا أنا فمجنّد للمرّة الثّالثة رغم أنفي وأنف والديّ في الجيش الشّعبي!.

وهنا سأله غسّان محاولاً أن ينتزع نفسه من الحالة التي أصبح عليها بعد سماع نبأ إعدام الروائي الشّاب حسن مطلك:

- وماذا ترى؟.

أجاب حيدر:

- مسار الحرب صار يرسم مؤشّرًا واضحًا بأنّ الكفّة العراقيّة صارت راجحة، والدليل استعادة القسم الأكبر من الأراضي التي احتلّها الإيرانيون!.

وتدخّل عدنان بالقول:

- التّقارير السّوفييتيّة التي أستمع إليها من إذاعة موسكو تؤكّد أنّ استعادة الفاو من قبل الجيش العراقي، وهي وشيكة جدًّا، ستكون نهاية هذه الحرب.

وأيّده حيدر:

- جاري عقيد وفي المنطقة نفسها أكّد لي هذا أيضًا قبل أيّام. واعتبر أنّ الحرب في عداد المنتهية، وأنّ التّصعيد الذي تشهده جبهاتها هو بمثابة الجولة الأخيرة.

وقال غسّان:

- إلى الآن نحن خاسرون أرضًا بل وأرضًا مهمّة وهي الفاو، الإنكليز عندما احتلّوا العراق بدأوا باحتلال الفاو ثم زحفوا نحو البصرة، وإذا افترضنا أنّ الجيش سيعيدها فهذا يعني أنّ الحرب ستنتهي مثلما ابتدأت، والخسائر الماديّة والبشريّة عبث في عبث.

وبدأ البار يمتلئ بالزبائن لذا عضّ عدنان على شفتيه وهو يقول بصوت واطئ:

- دعوا هذه الجلسة تمرّ بسلام أرجوكم! العراق بحاجة إلينا في السلم أكثر ممّا هو في حاجة إلينا في حرب لا يريدها أحد.

ثم أخذ جرعة من كأسه ونطق:

- العزير صارت خرائب! واأسفي عليك يا مسقط رأسي ومربط خيل أجدادي ثوّار العشرين الأفذاذ.

ورفع غسّان يده وهو يسأل:

- هل عدنا إلى مبالغاتك؟.

- أيّ مبالغات؟ هذه العزير وليست أبو هاون!.

وعلّق حيدر:

- ماذا بها العزير؟ ثلاث قنابل إيرانيّة جعلت سكّانها شذر مذر.

وهنا قال عدنان مازحًا:

- أتعرفون من اخترع مادّة الجاجيك المعتبرة هذه؟.

وكرع بقيّة الكأس وهو يقول:

- جدّ غسّان، نعم، ظهر الجاجيك لأوّل مرّة في قرية أبو هاون ثمّ انتشر في أنحاء الدنيا.

وتصنّعوا الضحك من فداحة الجرح. انطلقت قهقهاتهم المدماة محتجّة على قتامة عالم لم يعد فيه متّسع لفرح حقيقي أصيل.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- 28 -

أصبح لدى غسّان العامري كثير من الحنين لتدوين يوميّاته، وهو ما اعتاده من قبل حيث يسجّل وقائع يومه، مشاهداته، مناقشاته، لقاءاته.

ولكنّه توقّف عن ذلك بعد أن استغلّت زوجته سفره إلى الموصل وكسرت حقيبته اليدويّة التي كان يحتفظ فيها بهذه الأوراق واستخرجتها كلها. مئات الأوراق التي يعود قسم منها لفترة سبقت اقترانه بها.

وبعد أن قرأتها قامت باستنساخها كاملة رغم أنّه لم يفكّر يومًا بأنّ هذه الأوراق ستأخذ طريقها للنشر، وقد فكّر مرارًا بإتلافها لكنّه كان يتراجع عن ذلك في اللحظة الأخيرة.

ومن خلال هذه الأوراق عرفت تفاصيل كثيرة عنه، من عرف من النساء، وأين كان يلتقي بهنّ، وأيّهنّ أكثر تأثيرًا عليه من غيرها.

تلك الفعلة التي يحقّ له أن يصفها بالشنعاء أو الجريمة النكراء، وفقًا لمتطلّبات السجع الذي يمارسه في بعض مكاتباته مع أصدقائه المقرّبين، كانت الضربة الأخيرة التي أنهت علاقته الزوجيّة بها والتي كانت ثمرتها بنتين بريئتين يتّمهما الطلاق.

كانت بيروت مثار خوفها وجنونها، بيروت رانيا خليل ومن ثم حنان عوّاد.

أفرد العديد من الصفحات للحديث عن هذه الفتاة التي أعطت لخواء حياته معنى، وفجّرت عيناها نبع الشعر الوجداني الصافي الذي سجّله في ديوانين كاملين لولا حنان لما كتبهما. وقبلها كتب ديوانًا من أجل رانيا خليل، هوسه الأوّل التي آثرت الانسحاب كما آثر هو ذلك أيضًا، كأنّهما اتّفقا على ذلك ما دامت حنان قد حضرت لتكون المحور ومرفأ المثول.

وبعد قراءة زوجته للأوراق أدركت أنّ هذه العلاقة من الصعوبة أن تبعثر أعواد عشّها. وقد بدا فيها كل منهما وكأنّه قد عاش في انتظار الآخر، ثم حصلت «المعجزة» عندما التقيا.

وكانت لغسّان قصيدة متميّزة تحمل هذا الاسم، وأدركت أنّ محورها هو «معجزة» هذه العلاقة بين رجل متزوّج ومسلم وفتاة عزباء مسيحيّة ومن لبنان تحديدًا، حيث عمّقت الحرب الهوّة بين الطوائف فكيف بين الأديان؟

إنّ المعجزة في حصول المستحيل. ولكنّ المستحيل يظلّ مستحيلاً. وإنّ الأمر بالتالي يحمل الكثير من حلم الشعراء. ومن الأجمل للأحلام أن تبقى أحلامًا. أن تبقى شعرًا. أو موحية للشعر.

كانت حنان عوّاد في حياة الزوجة مجرّد شكّ، حدس، لكنّها تحوّلت إلى انشغال وهاجس بل وتوتّر أعصاب أو هزيمة امرأة جسدًا ومشاعر أمام امرأة أخرى.

وذات مساء، وكانت لا تزال معه في بيروت، جاءها تليفون من إحداهنّ، لم تخبرها عن اسمها ولكنّها أخبرتها أنّ زوجها غارق في حبّ الشاعرة حنان عوّاد.

ثم أطبقت التليفون بعد أن ألقت بهذه المتفجّرة التي بعثرتها ونثرتها أشلاء.

وبدأت تلحّ عليه في أسئلتها عن حنان عوّاد هذه ومدى معرفته بها، وذات يوم فتحت دفتر التليفونات الخاصّ به والتقطت رقم تليفون بيتها، أدارت الرقم فجاءها صوت رجّالي، سألته عنها فأخبرها أنّها خرجت منذ ساعة. وهنا ردّت عليه:

- لا بدّ أنّها مع عشيقها.

وقد صُعق الرّجل الذي هو والدها ممّا سمع وظلّ يتأتئ ثم انهدّ عليها بالسباب، فما كان منها إلاّ أن ردّت وكأنّها تنتقم من غريمتها:

- إذا لم تصدّقني اسألها عن غسّان العامري.

ثم أغلقت الهاتف وجلست وحرائقها ما زالت بحاجة إلى الكثير من الحطب.

لكنّ الرجل الذي كلّمته كاد أن يُغمى عليه وهو يسمع هذا الخبر الذي لم يتوقّعه. إنّ ابنته حرّة في أن تحبّ رجلاً، ولكن ليس بهذه الصورة، فما الذي جعلها ترتكب هذا الخطأ الذي هو بمثابة الفضيحة له ولأسرته.

وعندما حضرت انهدّ فيها:

- هل كنت مع غسّان العامري؟.

وقد استغربت لهجته التي لم تعتدها منه.

- ولماذا تسألني؟.

ورفس الأرض بقدمه وهو يعلن:

- لأنّه عشيقك؟.

وقد وضعها ما فاه به في حالة ذهول، قالت له:

- أيّ كلام هذا؟.

ورفس الأرض من جديد، وهذه عادته عندما يكون في أقصى حالات الغضب:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- امرأة، عيّرتني بك، ويبدو من لهجتها أنّها غير لبنانيّة!.

وحاولت أن تهدّئ الأمور عندما قالت:

- غسّان أصبح صديقكم كما هو صديقي، وأنت شخصيًّا تحبّه وتحترمه!.

- هذا شيء.. والارتباط بعلاقة معه شيء آخر؟.

وجلست على أقرب كرسي لها وهي تضمّ رأسها بين كفّيها وقد أحسّت وكأنّ صفيرًا يتردّد فيه، وكانت قد خمّنت أنّ من فعلت هذا زوجته.

وهنا جاء صوت الأب وكأنّه اكتشف سرًّا:

- إن كان صديقًا فقط، فلماذا لا يأتي بزوجته ليعرّفنا عليها؟.

أجابته متظاهرة باللامبالاة:

- هذه مسألة تخصّه، وأنا لا أعرف طبيعة علاقته بزوجته، كما أنّني لا أحبّ أن أُقحم نفسي في موضوع كهذا.

وعاد الأب إلى رفس الأرض بقوّة، وهو يصدر الأمر لها، وقد احتقنت شرايينه ولم يعد صوته يسعفه على النطق:

- لا أريدك أن تلتقي به بعد، ما دام لقاؤكما قد أصبح مثارًا للشكوك، أفهمت؟.

وتدخّلت الأمّ لتهدئة ثورة غضبه وقد جاءته بكأس ماء مع حبّة دواء اعتاد تناوله في حالات كهذه.

أخذ الحبّة منها وابتلعها بسرعة، بينما انسحبت حنان إلى غرفتها وهي تشعر بأنّ الدم الذي يجري في عروقها أخذ يغلي كمرجل.

وقد بقيت مرابطة في غرفتها لثلاثة أيّام، انتابتها خلالها الحمّى فجفّ ريقها ولم تعد تقوى على مضغ الطعام.

كان ما سمعته من والدها يشكّل إهانة لها لم تعرفها منه قبل هذا.

ولكنّها في داخلها كانت مقرّة أنّه وفي ظلّ الظروف التي يعيشها بلدها هناك كثير من الحقّ لوالدها في أن يطالبها بقطع هذه العلاقة.

هناك اشتباك وتداخل غير طبيعيين، وأمامهما لا سلاح لها أو مسوغ إلاّ المحبّة التي جمعتهما ولم يكونا قد خطّطا لها. وجدا نفسيهما فيها.. هذا كل شيء.

حدّثها عن رانيا خليل ولم ينكر أنّها اجتذبته، وحدّثته عن عازف كمان ارتبطت معه بخطوبة ثم اكتشفا عدم قدرتهما على الاستمرار.

قالت له:

- أظلّ في عالم واحد، هو عالمي اليومي والناس الذين ألتقيهم خلال عملي كصحافيّة معنيّة بالشأن الثقافي.. ألتقي رسّامين، قصّاصين، شعراء، موسيقيّين، مغنّين، صحافيّين، وليس من الوارد أن أقع في هوى طبيب أو تاجر أو موظّف بنك، وحتى عندما تحوّلت إلى الإذاعة بقيت في عالمي نفسه.

فيعلّق على ما قالته:

- هناك شيء أهمّ.. هو أن يكون الإنسان فنّانًا في سلوكه ناعمًا مثل أنين الكمان ورقيقًا مثل حروف القصائد!.

وقد افتقدها غسّان وطلبها أكثر من مرّة، لكن أمّها تردّ أنّها ليست هنا.

ومن لهجة الجفاء التي يحملها صوتها خمّن أنّ هناك شيئًا قد حصل.

وذهب إلى مكتب نصري الأسمر الذي كان منشغلاً بمراجعة بروفات العدد الجديد من مجلّته. ووجد عنده شاعرة متصابية.

ففرح به وقدّم له ضيفته التي تذكّر أنّه قد التقاها مرارًا.. آخرها في الحفل الكبير الذي أُقيم في منطقة «عين كفاع» مسقط رأس مارون عبّود، وحيث يوجد متحفه الصغير الذي أقامته أسرته.

كانت المناسبة صدور الأعمال الكاملة لجرجي زيدان عن دار النشر التي يملكها مختار عين كفاع وابن أخ مارون عبّود.

و لم تمكث الشاعرة إلاّ بضع دقائق انصرفت بعدها. وهنا التفت إلى غسّان يسأله:

- ما رأيك بها؟

- من أيّة ناحية؟

- دعنا من شعرها فحسابه آخر، لكن كامرأة؟.

- وهل هي امرأة!؟

- يعجبني في مثل هذا العمر.

وهنا قهقه غسّان وهو يعلن:

- يبدو أنّ معدتك تجيد الهضم بما في ذلك الحصى؟.

وشاركه نصري الضحك، بعد ذلك طلب منه أن يكلّم حنان عوّاد، واستغرب منه هذا الطلب فعلّق:

- هناك شيء حصل لها و لم أفهمه حتى أنّها لم تذهب إلى عملها!.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأدار نصري الرّقم وكانت أختها من ردّت عليه فأخبرته أنّها متعبة قليلاً وهي نائمة الآن، فما كان منه إلاّ أن قال لها:

- إذا استيقظت أخبريها أنّ نصري الأسمر اتّصل بها، وليتها تكلّمني، أنا في المكتب.

ثم انسحبا إلى مقهى «الكاستيل» بعد إلحاح من غسّان، إذ كان نصري يكره الجلوس في المقاهي.

قال له مستحثًّا:

- أحبّ أن نشرب البيرة ونقرأ الشعر. في حالات اختناق كهذه لا تعيد لي توازني إلاّ قراءة الشعر أو كتابته!.

* * *

كانت زوجته تراقب ارتباكه. وعيناها وراءه فكأنّها حزرت ما وقع لحنان بسبب مكالمتها لوالدها.

وعندما كان يدير رقم التليفون أو يردّ على مكالمة فإنّها تنتبه محاولة أن تعرف مع من يتكلّم.

كان هاجسها آنذاك أنّ له عدّة عشيقات وأنّ كل الأسماء النسويّة التي حواها دفتر تليفوناته لصحافيّات وأديبات ما هنّ إلاّ عشيقات له.

ذلك الهاتف المجهول الذي جعلها تقوم هي الأخرى بمهاتفة والد حنان قد غرسها في حالة من الاختلال، بحيث لا تعرف كيف تتصرّف بشكل متوازن.

كانت آنذاك قد قدمت في زيارة له لتمكث بضعة أيّام ثم تعود إلى بغداد حيث تركت بنتيها لدى أسرتها بعد أن أدخلتهما المدرسة هناك. فالأحداث في لبنان تعيق انتظام دوام المدارس، والقذائف العشوائيّة المتهاطلة قد قتلت الكثير من الطلبة الصغار، إضافة إلى حادث الاختطاف الذي تعرّضوا له ونجوا منه بأعجوبة ومازالت وقائعه تخضّ عظامها.

لقد حصل هذا الحادث أيّام ما سُمّي بحرب الجبل عندما بدأ قصف المنطقة الشرقيّة، وكانوا يقيمون في «مار تقلا» أحد أحيائها الراقية، وقد استمرّ هذا القصف لعدّة أيّام تعلّموا فيها كيف ينحبسون في ملاجئ رطبة تحت بعض عمارت الحيّ السكنيّة.

عندما وصل غسّان العامري إلى بيروت للمرّة الثانية، كان عائدًا إليها بعد أن نقل منها إلى عمان.

في عمان مكث فترة أقلّ من عام، كانت متعبة له رغم أنّه قد جاءها من أجل أن يرتاح قليلاً.

ولّما كانت الحرب العراقيّة الإيرانيّة في سنوات البداية فإنّ عمان كانت تشكّل بوّابة مهمّة للعراق، زوّار كثيرون، لقاءات.

وعن طريق ميناء العقبة الذي استعيض به عن موانئ العراق الصغيرة في الخليج كانت تدخل للعراق البضائع والمعدّات والأسلحة، وكل هذا يجعل من السفارة عالمًا من الضجيج القاتل.

وعندما عرضوا عليه العودة إلى بيروت ثانية، إذ إنّ مكانه بقي شاغرًا و لم يملأه موظّف آخر، قَبِلَ على الفور وبدون مناقشة. فهو شاعر أوّلاً وعاشرًا قبل أن يكون إعلاميًّا، وبيروت أقرب إليه ما دام يعرفها أكثر، كما أنّ العرض يدلّ على أنّهم جهّزوا بديلاً عنه.. وهكذا ودّع عمان التي ترك فيها عددًا من الأصدقاء المقرّبين، وتوجّه نحو بيروت ليقيم هذه المرّة في قسمها الشرقي بعد أن أمضى فترته الأولى في قسمها الغربي.

وقد أحسّ بأنّه وفي هذه الإقامة سيتعرّف على كل جغرافيا الحرب وأفكار المتحاربين.

لقد أبدت بعض الأحزاب السياسيّة المسيحيّة الفاعلة في هذه المنطقة استعدادها لاستضافة السفارة العراقيّة بعد أن نسف بناؤها الفخم وأصبح أنقاضًا. واستجابت الحكومة العراقيّة واتّخذت من بيت تملكه في «الريحانيّة» لسكنى السفير العراقي سفارة مؤقّتة يديرها قائم بأعمال ومعه عدد قليل من الموظّفين.

أحسّ غسّان العامري بأنّ هناك قدرًا غامضًا يربطه بهذه المدينة التي فتحت صدرها لكتاباته المبكرة ونشرها في مجلاّتها العريقة ذات التاريخ.

ثم كانت دُور نشرها متحمّسة لنشر دواوينه وترويجها في كافّة البلدان العربيّة. ولولا بيروت لما انتشر اسمه ليكون شاعرًا ذا حضور عربي ولظلّ شاعرًا محلّيًّا مقموع الصوت، إذا لم يتورّط في كتابة القصائد العموديّة إيّاها التي تخاطب ذائقة المتخلّفين، وهي جزء من ثقافة النظام التي يدعو إليها ويحاول أن يجعل الشعراء والكتّاب ينخرطون فيها.

عندما وصل استقبله ثلاثة من موظّفي السفارة في المطار، وكانت في انتظارهم سيّارة مصفّحة لا يخترقها الرصاص، لا تحمل رقمًا دبلوماسيًّا حتى لا تحدّد هويّتها وتصبح مستهدفة.

وفي السيّارة كان هناك سائق شابّ ينتظر قدومهم إضافة إلى سيّارة حماية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وابتسم غسّان في قرارته وتساءل: هل أنا مهمّ لهذا الحدّ؟

كان الموظّفون الشبّان الذين لم يتجاوزوا الأربعينات من عمرهم يعرفون واجبهم فيؤدّونه بهدوء وعلى أتمّ وجه كما بدا له.

جاؤوا بحقائبه الثلاث بسرعة وانطلقت السيّارتان بعد أن نطق أحدهم:

- توكّلوا على الله!

جلس بجانب غسّان شابّ يميل إلى الطول، يميّز وجهه شاربان كثّان وسمرة قاتمة. وقدّم نفسه:

- باسل شلاّل.

ثم أضاف:

- المطار منطقة خطرة جدًّا ومستهدفة دومًا، أمّا إذا دخلنا الحازميّة فهناك الأمان الكامل. ميزة المنطقة الشرقيّة أنّك تعرف مع من تتعامل إذ الأحزاب والحركات التي تسيطر عليها معروفة، أمّا في الغربيّة فهناك عشرات التنظيمات والأحزاب المسلّحة.

قال له غسّان:

- أعرف هذا، لقد مكثت في الغربيّة حوالى الثلاث سنوات.

- أخبرني القائم بالأعمال، وقتذاك كنت مقاتلاً في صفوف فتح، ثم أحسست بحاجة السفارة لي بعد انتقالها إلى المنطقة الشرقيّة ولذا انتقلت إلى هنا، كأنّني كنت أشمّ ما سيأتي حيث اجتاح الإسرائيليّون لبنان، وبقيّة الحكاية تعرفها.. ولا أنكر أنّ أبا جهاد قد فهم وضعي ودافعي الوطني.

سأله بعد برهة من الصمت وهم يتأمّلون السواتر الترابيّة التي تحدّ طريق المطار من جانبيه وخلفها قبع المسلّحون. وعندما تأمّلهم:

- من هؤلاء المسلّحون؟.

قال باسل:

- أغلبهم من الجيش.

ثم عاد ليقول بعد برهة:

- هناك شقّة فارغة قريبة من السفارة، كان يقيم فيها مُلحق نُقل إلى لندن، وبقي مفتاحها لدى محاسب السفارة إذ إنّ إيجارها مسدّد للشهور الأربعة القادمة. شقّة موقّتة وممتازة وسنأخذك إليها.

أشعل سيكارة وأوضح:

- ليست هناك مشكلة إذا لم تعجبك يمكنك أن تستأجر غيرها.

ثم مرّت السيّارة بحواجز، تُحيط بها أكوام من الرمل والحصى، وأبنية مهدّمة، ومسلّحون، وظلام.

سلكوا طريق الضاحية، وهنا انتبه غسّان إلى أنّ كل الذين معه في السيّارة مسلّحون بالرشّاشات، وربّما كان تسليح راكبي سيّارة الحماية بأسلحة أخرى غير الرشّاشات.

وبعد الضاحية توجّهوا نحو «غاليري سمعان» الذي كان اسمه مشهورًا لكثرة ما تردّد في نشرات أنباء الاقتتال اليومي.

ثم وصلت السيّارتان إلى مستديرة الصيّاد، وقال باسل بلهجة ارتياح بعد أن غادرته حالة الترقّب التي كان عليها:

- بدأ الأمان من هنا. حمدًا لله على السلامة.

وكأنّهم تحرّروا من توتّرهم وجلساتهم المقرفصة بعد أن استمعوا لما فاه به باسل، وأشعل السائق سيكارة وطرح ظهره على متّكأ كرسي القيادة بعد أن زفر زفرة طويلة كمن تخلّص من عبء كان ينوء به.

وبعد مستديرة الصيّاد دخلت السيّارتان طريق الشام وكانت هناك يافطة مع سهم يشير إلى القصر الجمهوري، وبعده سهم آخر يشير إلى وزارة الدفاع.

وهنا نطق السائق:

- أستاذ غسّان، أنا اسمي فارس الخفّاجي، أهوى قراءة الشعر وشقيقي شاعر أيضًا.

- من هو؟

- طالب الخفّاجي.

ونطق غسّان:

- أعرفه، كان من روّاد مقهى البلديّة أيّام زمان، في ذلك الوقت كانت موجة شعر العاميّة لها حضورها، وقد ألّف عددًا من الأغنيات.

وهزّ فارس رأسه:

- نعم.

ثم عاد ليقول:

- بين فترة وأخرى أقرأ لك قصيدة في جريدة «الأنوار».

- نعم، أو في «النهار». هو نوع من التواصل الذي لا بدّ منه مع بيروت، هذا عدا مجلّة «الآداب» الشهريّة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ثم استدارت السيّارتان يمينًا في طريق ضيّق أشبه بالوادي. وقد قال باسل:

- سنمرّ في السفارة أوّلاً لتسلّم على القائم بالأعمال وبعد ذلك نأخذك إلى الشقّة.

* * *

أحسّ غسّان وكأنّه يمثّل دورًا في فيلم بوليسي مثير، يجعل المتفرّجين يكتمون أنفاسهم خوفًا، وتساءل ما الذي يدفعه إلى الارتماء في هذه التجربة؟ لماذا يتقدّم طائعًا نحو ساحات الفناء والاغتيال؟.

كان جوابه الوحيد الذي اقتنع به بينه وبين نفسه لكثرة ما ردّده أنّه يبحث عن التجربة. وإذا ما قُيّض له وخرج حيًّا فإنّها ستشكّل عامل ثراء لقصائده الآتية.

لكنّ السؤال الذي وجّهه له الدكتور زيد الحبيب:

- وماذا لو انتهيت هناك في مطحنة تقاتل لا ناقة لك فيها ولا جمل؟

ولم يعرف بماذا يردّ وهو يسترجع وجه ذلك الشابّ الموصلي المندفع بحماس والمعبّأ بشعارات الحزب والذي استقبله في عمان وكان مارًّا منها في طريقه إلى بيروت ليكون ملحقًا صحفيًّا في سفارة العراق هناك.

كان أنيقًا واثقًا من نفسه رغم قصر قامته، تميّز وجهه عينان كبيرتان فيهما بريق وجحوظ وذكاء.. وقد أولم له غسّان، وقبل أن يودّعه تعانقا.

قال غسّان:

- أنا خارج من المحرقة وأنت ذاهب إليها؟.

وما دام هذا الشابّ يحسّ بأنّه يؤدّي دورًا للحزب الذي انتمى إليه منذ سنوات فإنّه لم يأبه لهذا التعليق، ولكنّه أجاب بشيء من الإذعان القدري:

- الأعمار بيد الله!.

لكن ذلك الشابّ قضى نحبه تحت مبنى السفارة مع السفير وموظّفين آخرين وبينهم سوسن العراقية قرينة شاعر المرأة والحبّ التي انشدّ إليها عندما حضرت إحدى أمسياته الشعريّة في بغداد.

وأصرّ عليها كما أصرّت عليه وشكّل الشاعر وفدًا لخطبتها ضمّ عددًا من الوزراء والمسؤولين.

ولم يخرج من بغداد إلاّ وهما متزوّجان.

* * *

ولكن ها هو غسّان العامري يعود إلى بيروت وكأنّه لم يرعوِ أو يرتدع ممّا حصل.

أحسّ وكأنّ هناك صوتًا مثلومًا، منهدًّا، يناديه من تلك المدينة ولا بدّ له أن يتبعه، يتّجه نحوه، علّه يصل.

كان لقاء غسّان بالقائم بالأعمال وديًّا، ولكنّه أحسّ بهاجس الخوف الذي يحكم تصرّفات جميع العاملين.

وردّد غسّان في سرّه:

- كيف أتلاءم مع جوّ كهذا وأنا الطليق مثل عصفور؟

***

كانت الشقّة التي اتّخذها سكنًا تطلّ على ساحة مار تقلا، هذه الساحة الصغيرة التي تتفرّع منها عدّة طرق تتكاثف فيها العمارات السكنيّة العالية.

وكان مدخل كل عمارة أشبه بموقع عسكري حيث أكياس الرمل من أجل حجب شظايا القنابل والإطلاقات الطائشة التي يذهب ضحيّتها كثير من الأبرياء.

وبدت له الحياة في إصرارها على المضيّ عندما شاهد الساحة تكتظّ في ساعات الصباح الأولى بممارسي رياضة الجري. فأخذ هو الآخر يمارس بعض التمارين ويستنشق الهواء بعمق ولكن داخل شقّته.

بعد ذلك دخل الحمّام ليحلق ذقنه ومن ثم ارتدى ثيابه في انتظار أن يمرّ به السائق فارس الخفاجي في الساعة الثامنة، كما اتفقا بعد أن أوصله وأطلعه على الشقّة عند وصوله.

كان الشتاء على وشك الرحيل ولكن برودته ما زالت مخيّمة، وهي برودة منعشة، تجعل المرء متحمّسًا للقيام بعمل.

لقد نام بعمق غير آبه بما يسمع من رشق الرصاص البعيد ودويّ المدافع في الجبال المحيطة.

وها هو يستيقظ مبكرًا كعادته، لم يفته انبلاج صبح على امتداد سنوات عمره التي غادرت عقدها الرابع.

دقّ الجرس، وقد خمّن أنّ القادم فارس، ونظر من عين الباب للتأكّد كما طلبوا منه وفق التعليمات الأمنيّة السريعة التي أملاها عليه القائم بالأعمال وهو يقول ضاحكًا:

- ليس في العراق إلاّ غسّان عامري واحد. شاعر له من المحبّة كمّ كبير، ولذا لا نفرّط بك لكن عليك أن لا تفرّط بنفسك أيضًا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فتح الباب ودخل فارس وهو يحمل زجاجة حليب وكيسًا توجّه به إلى طاولة المطبخ واستخرج منه جبنًا ومربّى وخبزًا وقهوة وشايًا.

قال غسّان:

- لماذا أتعبت نفسك هكذا؟.
- أستاذ! أيّ تعب؟.
- اسمع فارس، هل في المنطقة محلّ «مناقيش»؟.
- في مدخل الساحة.
- أتدري كم أشتهيها؟ منقوشة واحدة بالزعتر تساوي الدنيا. دع كل ما حملت ولنذهب إلى محلّ المناقيش.
- يا الله. وأنا أيضًا أحبّ المناقيش ولكن باللّحم.

وخرجا. استقلاّ السيّارة وتوقّفا عند بائع المناقيش ونزل فارس وأتى باثنتين ملفوفتين بالورق ورائحة زيت الزيتون والزعتر تفوح منهما.

وقدّم واحدة لغسّان الذي باشر بالتهامها غير عابئ بسخونتها التي تلهب الفم.

وبعد أن أكملا الأكل تحرّكت بهما السيّارة. كان فارس قوي البنية، يتحرّك بتوثّب، يميل إلى القصر ولكنّه كان منتبهًا إلى درجة غريبة. يتأمّل كل ما حوله بما في ذلك حركات الناس في الطرق الخلفيّة الملتوية التي يمرّان بها قبل الوصول إلى طريق الشام.

تمتم فارس:

- أكيد أنّك مشتاق الآن لإستكان شاي؟.
- كأنّك حزرت ما أريد؟.
- هي معادلة، بعد المناقيش يأتي شاي خالتك ليلى.

وانتبه غسّان للاسم:

- ومن هي ليلى هذه؟.
- هي أرملة عجوز لكن حكايتها حكاية يا أستاذ. تصوّر أنّها نجت من حادث نسف السفارة عندما ذهبت لشراء بعض الحاجيّات من السوبر ماركت، أمّا سكرتيرتك سهام فقد أخرجوها حيّة من تحت الأنقاض بعد يومين. هي شابّة طيّبة، ستتعرّف عليها عندما نصل السفارة. وأردف موضحًا بعد أن استدار ليدخل طريق الشام:

- لكن ليلى هذه وفيّة لنا. لم تشأ أن تفارقنا، لذا تقطع الحواجز كل يوم بين الغربيّة والشرقيّة لتكنس وتنظّف وتعدّ الشاي والقهوة. وكانت ترافقها قريبة لها بين حين وآخر ولكنّها اختطفت عند أحد الحواجز ولا أحد يعرف عنها شيئًا لحدّ الآن، ونحن مستعدّون حتى لدفع فدية عنها إن طلب الخاطفون ذلك.

- منذ متى؟.

- حوالى الشهرين تقريبًا.

كان طريق الشام مكتظًّا بالسيّارات وبينها رتل من السيّارات العسكريّة.

ولم يأبه غسّان بما يرى إذ أنّ لبنان ما زال في حريقه، كما أنّه جاء من بلد أصبح فيه اللباس العسكري موضة، الجميع يرتدونه عدا العمّال المصريين وبعض العراقيين الذين ترفض جلودهم رائحة الكاكي. وكان غسّان أحدهم.

هنا نطق فارس:

- هل رأيت الجنود الإسرائيليّين من قبل؟.

واستغرب من هذا السؤال الذي جعله يوجّه هو الآخر سؤالاً مقابلاً:

- ولماذا؟.

فردّ ببساطة:

- لأنّ السيّارة العسكريّة التي أمامنا إسرائيليّة.

وأحسّ غسّان بالشلل الذي حوّله إلى لوح هامد، وصار يفأفئ ويتأتئ وهو يحرّك أصابع يديه، بعد ذلك انتابته رغبة في التقيّؤ إذ تحوّلت منقوشة الزعتر التي التهمها بالتذاذ إلى مرارة ملتصقة ببلعومه وتتسرّب إلى جوفه.

وكأنّ فارسًا قد أحسّ بما حصل له فالتفت إليه:

- هل هناك شيء؟.

كانت عينا غسّان قد تركّزتا على الجنود المتكدّسين في القسم الخلفي من سيّارة الجيب فوجدهم جميعهم شبّانًا. يبدو على وجوههم التعب والإرهاق.

وكان أحدهم يجلس على حافّة القسم الخلفي من السيّارة وقد تدلّت ساقاه بحذاءيهما الكبيرين وقد أمسك برشّاشته بكلتي يديه، وهو يغمض عينيه تارة ويفتحهما تارة أخرى.

أجاب غسّان بصعوبة:

- المشهد أشبه بالصاعقة، صدّقني، لقد تسمّم يومي الأوّل في هذا البلد الذي أحبّه.

وهنا ردّد فارس:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ولكن ماذا كنت ستقول لو عشت أيّام الاجتياح الإسرائيلي للبنان؟.

ولم يجب على هذا السؤال. لأنّه لم يكن هنا. ولو كان هنا لما عرف كيف سيكون ردّ فعله؟.

لكنّه قال وكأنّه يكلّم نفسه:

- قد أبكي، أو أنتحر كما فعل صديقي الشاعر الرائد الجميل خليل حاوي! هي حالة لم أعشها؛ لذا من الصعوبة أن أتحدّث عن ردّ فعلي.

***

دخل مكتبه، وجاءته ليلى محيية باسمة، سيّدة قصيرة بدينة. تجاوزت الخمسين من عمرها، وعلى ملامحها شيء من البلاهة. طلب منها استكان شاي.

استلّ ورقة بيضاء وبدأ يكتب.

في البداية لم يكن يعرف ماذا سيكتب؟ هناك شحنة مخبّأة في داخله ولا بدّ أن يفرغها.

وجد القلم يخطّ عنوانًا «في صباح بيروتي». وكان من الممكن أن يكون عنوانًا لقصيدة، ولكنّه أصبح عنوانًا لخاطرة. وممّا جاء فيها:

أيّة لعنة أحاقت بجيلنا؟ وأيّ عذاب كبير ما زلنا نصطلي به دون أن نجد الهدوء حتى توهّمًا؟

لا أريد أن أذكر الأمثلة فقد شربتها جرعات، ولم يبخل عليّ بها بلد عربي ألقيت فيه رحالي ولو لأيّام معدودات.

أحد تلك الأيّام لن يبرح ذاكرتي مهما بقيت حيًّا. هو اليوم الأوّل لي من عودتي الثانية للعمل ببيروت.

سأحدّثكم عنه، وسأختصر، فاسمعوا حكايته القصيرة جدًّا. ولكن المؤلمة جدًّا.

حكايته التي ستضرب في مديات المستقبل لعدّة سنوات، عنوانها الدم والصديد والمدى والانهيارات والهزائم والخيبات والانكسارات والانتحارات.

في هذا اليوم حملني زميل في سيّارته من بيتي ماضيًا بي نحو مقرّ عملي لأبدأ.

كان الصباح رائقًا يتحدّى كل أحقاد المدينة المتأجّجة منذ سنوات.

لكنّ الشارع كان مزدحمًا بالسيّارات العسكريّة التي انحشرت سيّارتنا بينها محاولة أن تجد منفذًا.

لكزني الزميل وهو يقول:

- أعرفت هؤلاء الجنود؟.

- لا، إنَّهم جنود صهاينة.

وما إن فاه بهذا زميلي أحسست وكأنّ رصاصة غدر انطلقت من مسدّس آثم لتستقرّ في صدري وترديني.

ومعي قتلت جيلاً كاملاً بأحلامه وطموحه وقصائده وشعاراته وأحزابه وتنظيراته.

ما الذي سيبقى لنا وقد وصل الأمر لهذا الحدّ؟.

أيّها الناس!

يا نسل يعرب،

لينطق بجواب من بقي حيًّا منكم؟».

* * *

بعد أن فرغ من كتابة هذه الخاطرة، طلب من ليلى شايًا ثانيًا.

وحاول أن يستعيد شيئًا من هدوئه وهو يعيد قراءة ما كتب.

لكنّه أحسّ بكلماته باردة، ينقصها الكثير من النار، دعك الورقة بغضب ورماها في سلّة المهملات.

حضر الشاي الثاني وتمنّى أن يتلذّذ بارتشافه، مصمص شفتيه اللتين ما زال طعم منقوشة الزعتر عالقًا فيهما.

ثم طرقت الباب سهام، وبعد أن صافحته سألته إن كان بإمكانها أن تحمل له الصحف والمجلاّت اللبنانيّة الصادرة هذا اليوم.

فردّ عليها:

- هاتيها، بي شوق إليها، صدّقيني، في عمّان انشغلت بصحافة الأردن!.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- 29 -

كان غسّان العامري يهمهم وهو جالس في التواليت، أصبح غلق الباب متعذّرًا، كما أنّ الحرّ يحوّل مساحته الصغيرة إلى فرن، لذا كان يترك الباب مفتوحًا.

مؤخّرته تطحر من أجل أن يخرج ما فيها إذ أصبح معرّضًا للإمساك نتيجة انعدام السوائل في طعامه.

أمامه صورته، كأنّها أصبحت في عدّة نسخ موزّعة على كل الجدران.

أيّ اطمئنان وأيّ أمل كان على ذلك الوجه الذي أَرْمَنَهُ زكريان ومضى؟!

تكلّم بصوت عال وكأنّه في مواجهة زكريان بنظّارتيه الطبّيتين اللتين يضعهما على عينيه كلّما انهمك بالعمل:

- قل لي، هل حملت معك أفلام صوَري في ليلة عرسي المنقرضة تلك؟ أتذكر كيف قادك صديقاي المغنّيان المشهوران إلى السكر؟ أصرّا على الكأس الأولى فوصلت إلى الكأس العشرين، بعد ذلك تجلّت عبقريّتك الفوتوغرافيّة وهات يا صور، وقد جعلتني أدفع ثمنها كلها وأوزّعها على أصحابها.

وحده فؤاد سالم ذلك المغنّي الحنون رفض السكر. اكتفى بكأس صغيرة وهو يعلن:

- إنّني مخمور بما فيّ من وجع جنوبيّ! وعندما أُغنّي فأفضّل أن أكون في أوجّ صحوي، الغناء صلاة والطاهر وحده من تقبل صلاته.

لكن أين فؤاد سالم اليوم؟

لقد سمع أنّه في الخليج، ولكن هناك من قال له إنّه في موسكو. بعد ذلك سمع أنّه في اليمن.

لقد ترك كل تلك الصور عند مطلّقته ولم يخرج إلاّ بواحدة هي صورته وحده.

نهض بعد أن تعب من عصر أمعائه ثم اغتسل وجلس على الكنبة مقلّبًا الصحف البائتة من اليوم السابق. وكان كلّما اختلى بنفسه يستعيد تلك الأيّام اللبنانيّة، ولم يدر أنّ زوجته بعد أن كلّمت والد حنان وتسبّبت في إيجاد شرخ عريض بينه وبين هذه الأسرة الوادعة عادت إلى بغداد، وهي مصرّة على أمر واحد هو أن تعيده إلى بغداد بأيّ ثمن.

وقد بدأت خطوتها الأولى بأن ذهبت إلى المدير العام الذي يتبعه. وقد أحالها إلى الوزير، ماذا قالت له؟ بماذا ادّعت؟.

غسّان العامري لا يدري بكل هذا، ولكن أمر نقله جاء وهو لم يتمّ المدّة القانونيّة، كما أنّ بيروت وفي ظروفها تلك لا أحد يخطر بباله الذهاب إليها.

أحسّ بأنّه انتُزِعَ انتزاعًا في وقت لم يكن مهيّأً لهذه العودة التي كان يراها مؤجّلة لسنوات أخرى، وأصاب الذهول أصحابه المقرّبين، وقد فوجئ حتى القائم بالأعمال الذي لم يجد جوابًا شافيًا على سؤاله عندما اتّصل بالوزير مبديًا رغبته في بقائه.

أمّا حنان عوّاد فأصيبت بالوجوم، وظلّت على وجومها وهما يدوران في الطرق الجبليّة بعيدًا عن الحقد والقصف الأعمى. ولم تردّ على تعليقاته ونكاته التي حاول أن يتظارف بها. لكنّها انفجرت في البكاء.

أوقف السيّارة بحيث تطلّ على واد مليء بأشجار الصنوبر، وحيث يبدو البحر بعدها هادئًا كحيوان عظيم يخلد للراحة بعد أن شبع وارتوى.

***

قام بتأدية بعض الحركات الرياضيّة وهو يشهق ويزفر بسرعة ومن جديد واجهته صورته.

مرّة حدّثه زكريان أنّه مهتمّ بتصوير المعالم والحرف وإيقاع الحياة العراقيّة. وأوضح أنّ تلك هوايته، أمّا مهنته التي يعتاش بها فهي التقاط الصور من أجل المعاملات الرسميّة أو في الحفلات.

وذكر له أنّ لديه خزينًا من الأفلام التي صوّر فيها بغداد الثلاثينيّات والأربعينيّات والخمسينيّات. جسور وعربات تجرّها الخيول، أزقّة هدمت وأزيحت، كما صوّر الجرار والسجاجيد والأزياء المتنوّعة، العربيّة والكرديّة والتركمانيّة، وجوه اليزيديين والصاغة الصابئة بلحيّهم الطويلة البيضاء ويشاميغهم الحمراء، هذا عدا صور نادرة للزعماء والفنّانين المشاهير.

كما حدّثه أنّه صوّر عودة القائد الكردي المُلاّ مصطفى البرزاني إلى بغداد بعد أن أنهى الزعيم عبد الكريم قاسم الحكم الملكي ليصبح العراق جمهوريّة.

وأخبره أنّ المُلاّ مصطفى البرزاني قد نزل هو وأتباعه في فندق سميراميس الذي لم يعد موجودًا الآن، ومن شرفة الفندق أطلّ على الجماهير المرحّبة بقامته القصيرة وهو بزيّه الكردي ووجهه الصقري القوي، وكان الهتاف يتردّد للوحدة العربيّة الكرديّة التي هي صخرة تتحطّم عليها مؤامرات الاستعمار، كما جاء في أحد الشعارات التي كانت تؤكّد عليها قوى اليسار.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقد قال له غسّان في وقتها:

- لم أكن أعرفك آنذاك، ولو كان ذلك لربّما التقينا وتحدّثنا. وسأله زكريان:
- وكيف؟
- لأنّني كنت حاضرًا. ووقفت في الساحة لأصفّق له وأحييه.
- يا للذاكرة الوطنيّة وكم فيها من العجائب والغرائب! واستدرك:
- الصور ليست بين يديّ الآن وإلاّ لأطلعتك عليها. أخرجت نسخًا منها ووضعتها في ألبوم وحملتها إليه فأدخلوني عليه ورحّب بي وشكرني. وأصرّ على أن يقدّم لي مبلغًا ماليًّا، ولكنّني رفضته، وقلت له إنّني أطلب منك شيئًا واحدًا، فقال اطلب «كاكا»(*). وكان طلبي هو أن أتصوّر معه. ورحّب بذلك، وعندما علم منّي أنّني أرمني وأنّ جدّي احتمى بإحدى القرى الكرديّة لائذًا من المجازر كَبُر ترحيبه بي.

وكان غسّان العامري عندما يتردّد على منطقة برج حمّود - الحيّ التجاري الأرمني المعروف في لبنان، ويدور بين الأسواق العامرة بكل بضاعة الدنيا، قمصان من تايوان، أربطة عنق من باريس، أحذية من إيطاليا، ساعات من اليابان، كهربائيّات من الشرق والغرب، حلي، «باسطرما»، معلّبات.

في تلك الأسواق كان هناك عشرات «الزكريانات» بوجوههم المورّدة وقاماتهم الضخمة، وشواربهم الكثّة.

لقد حوّلوا السوق إلى خليّة تضجّ بالحركة رغم الحرب والقصف. ومرّة تحدّث غسّان عن «برج حمّود» فهبّ زكريان إلى القول، وكان هذا قبيل رحلته إلى أميركا:

- لديّ أقارب كثيرون هناك، قبل الحرب كنت أزورهم مرّة في العام أو أكثر، ولكن ماذا أفعل اليوم والحرب هنا مثلما هي هناك؟ بلاء يا أستاذ غسّان، لماذا؟ لماذا؟ أنا أرمني شرّدتني الحرب، كان من الممكن أن لا آتي لهذه الدنيا لو لم يسلم جدّي من المذبحة.

ومرّة كشف زكريان لغسّان سرًّا كان يتكتّم عليه إذ قال بصوت واطئ وكأنّه خائف من أن يسمعه أحد:

- أتدري؟
- ماذا؟

(*)

- أنا أحبّ عبد الكريم قاسم.

وتمتم غسّان:

- أرى الخوف على وجهك عندما تقول هذا، لماذا؟ أنا أيضًا أحبّه فقد كان زعيمًا وطنيًا وشجاعًا، وهذا ما لا ينكره عليه حتى الذين انقلبوا عليه، وكل اتهامهم له أنّه كان ديكتاتورًا، يا سلام سلّم. وها نحن نرفل الآن بنعم الديموقراطيّة! ألا ترى بأمّ عينك؟.

ولكن زكريان كان يحبّ أن يقول شيئًا غير هذا حيث أوضح:

- بعد أن جُنّدت إثر رسوبي ثلاث سنوات في الدراسة المتوسّطة، توسّط لي ضابط كبير كنت المصوّر الخاصّ لعائلته رغم صغر سنّي وقتذاك، وألحقني مراسلاً بالمرحوم عبد الكريم قاسم الذي كان عقيدًا، وكم كنت مرتاحًا معه، كأنّني لست مجرّد جندي نفر، طلباته قليلة، لا يرهقني بالتسوّق أو تنزيه أولاده كما يطلب هذا بعض الضبّاط من مراسليهم، كما أنّه لم يكن سكّيرًا ولا وسخًا ولا مقامرًا بل كان ضابطًا بكل ما في هذه الكلمة من قوّة وسطوة واحتمال.

ثم نهض وقال:

- سأطلب الشاي وأرجع.. دقيقة.

وكان هناك دكّان صغير قرب الاستديو حوّله معلّم متقاعد إلى مقهى يوزّع الشاي على أصحاب المحلاّت المجاورة.

عاد زكريان وهو يواصل:

- لكن كان يلفت نظري فيه شيء مهمّ، معه أحسست أنّه ليس رجلاً هيّنًا، وهو أنّه كان كثير الصمت، كأنّه يحمل همًّا يحاول أن يجد لنفسه مخرجًا منه.

وأضاف وهو يؤشّر بإبهامه وسبابته:

- كلامه قليل، أوامره قليلة! حتى طعامه قليل.

وقاطعه غسّان:

- ولكن ما فعله صبيحة ذلك اليوم كان كبيرًا.

- لقد فاجأتني صورته بالجرائد بعد إعلان اسمه قائدًا للثورة ورئيسًا للوزراء.

وعاد ليقسم بالمسيح ومحمّد أنّه لم يستغلّ هذه العلاقة. وقد تردّد كثيرًا قبل أن يذهب مرّة واحدة لوزارة الدفاع من أجل تهنئته، وما إن قدّم له السكرتير اسمي حتى دعاني للدخول ورحّب بي، وسألني إن كنت بحاجة لمساعدة، فأجبته:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- أدعو لك بطول العمر سيّدي، وفقّك الله.

وهنا تذكّر غسّان العامري المرّة الوحيدة التي رآه فيها عن قرب وقد صافحه وحيّاه.

كان ذلك في شهور الثورة الأولى عندما أقيم معرض كبير للفنّ الصيني في معهد الفنون الجميلة ببغداد، المعرض الذي افتتحه عبد الكريم قاسم بنفسه وطاف في أرجائه متحدّثًا مع بعض الفنّانين العراقيّين المعروفين.

كانت ملابسه العسكريّة نظيفة نظافة فائقة ومكويّة بحيث لا يظهر فيها أيّ جزء غير مرتّب.

وكانت النجوم تبرق على كتفيه ومعها سيوف وأشياء أخرى لم يفقه دلالاتها العسكريّة.

ولكن الذي يتذكّره أكثر هو لون بشرة وجهه الوردي الصافي وتلك الضحكة نفسها التي سيراها في صور كثيرة له، لكنّها لا توصلها كما توصلها النظرة المباشرة لها.

ثم قتلوه، أضاعوه. ليقتلونا معه، ويسحقوا البلد. كان غسّان يحبّ الإصغاء لزكريان الذي بدا له وكأنّه لم يجد من يتحدّث إليه باطمئنان، لقد تحوّلت ذاكرته إلى حشد هائل من الصور.

صور حمل مسوداتها معه إلى هناك، إلى أميركا، إلى ديترويت، إلى...

وهناك ربما بدأ بفرزها دون خوف من أيّة مداهمة، فقتل الذاكرة يشمل أيضًا إتلاف الصور والكتب والوثائق، وهدم الشوارع والمحلاّت العريقة. وتبديل الأسماء، أو قطع الأعناق.. والتهم ما أكثرها، وما أسهلها!

أرمينياكُم هناك. يا زكريان يا ابن دكران، لماذا لا تذهبون إليها؟ لماذا كل منفى يسلّمكم إلى منفى؟ متى تنتهي تغريبتكم؟

مرّة سأله غسّان:

- يبدو لي أنّ الأرمن قوم منغلقون.

وكان تبريره:

- نخاف من أننا إذا انفتحنا سنذوب في موج الآخرين الكبير، نحن أمّة مهدّدة بالانقراض، حتى الدولة التي تحمل اسمنا لم تستطع جمع شملنا، لأنّها لم تصنع وفق مقاساتنا بل وفق مقاسات شيوعيّة أو روسيّة، ولو كانت غير ذلك لكنت أنا وأسرتي قد عدنا إليها منذ قيامها.

وقد حكم عليه غسّان بأنّه رجل ذكي وعارف بالمجريات، ملمّ بكل ما حوله، إنّه ليس مصوّرًا فقط.

ولا يدري كيف تذكّر صديقه الشاعر رشيد الذي يقارب زكريان في العمر.

لقد فشل في الدراسة لذا افتتح ستوديو تصوير سمّاه ستوديو «الأندلس»، وقد وضع في واجهته صور أدباء المدينة، عبد القادر رشيد الناصري، صبري العميري، فاضل مهدي، قيس لفتة مراد وغيرهم. كما وضع صور بعض المغنّين الذين غزت أصواقم الإذاعات العربيّة، ناصر حكيم، داخل حسن، حضيري أبو عزيز، جبّار ونيسه، حسين نعمة.

وذات مرّة همس في أذن غسّان:

- هؤلاء، أولى بالواجهة، أمّا السياسيّون فلن أجعل وجه أحدهم يطلّ منها. في العهد الملكي قالوا لي لماذا لا تضع صورة صالح جبر وهو ابن المدينة الذي أصبح رئيسًا للوزراء؟ ولكنّني أجبتهم أنّني لا مصلحة لي مع السياسيّين، مصلحتي مع الأدباء والفنّانين فقط. أنّا منهم وهم منّي.

وهنا نهض غسّان لينتزع رأسه من فيض التداعيات، ومدّ يديه وكأنّه يهمّ بانتزاع صورته من الجدار.

وتمتم:

- لأريح وأستريح، وأوّل الذين أريحهم عدنان العزيري.

لكنّه رفع يديه عن الصورة وتراجع إلى الوراء قليلاً وهو يتساءل بصوت مسموع:

- كيف حصل لي وجريت وراء موضة تلك السنوات فأطلقت سالفيّ ليكونا بهذا الطول وكأنّهما ذيلا نورسين؟ وكيف اقتنعت بارتداء هذا الرباط النحيف كخيط؟

وصار يقهقه ويضرب بيديه، ثم صفن قليلاً وفكّر:

- هل كنت أبدو أنيقًا وحداثيًا بهذه الهيئة؟ ماذا لو عدت إليها فأطلقت السالفين ووضعت في صدري ربطة عنق شبيهة بهذه؟ هل سيضحك منّي العابرون؟ لم يجد جوابًا. لذا عاد وجلس على الكنبة من جديد، أسند رأسه إلى ذراعيه اللتين وضعهما خلف عنقه.

وعاد إلى الصورة وفكّر لو أنّه قام برفعها فماذا يضع بدلاً عنها؟ هل سيترك الجدار عاريًا؟

وفكّر.. وفكّر حتى تعب، ثم توصّل إلى حلّ هو أن يُحلّ صورة أخرى بدلاً عنها، صورة له، حديثة تمثّل وجهه الحالي لا وجهه الذي كان، وبالحجم نفسه، ويمنحها هذا الإطار الثمين الذي لم يعد متوفرًا في بغداد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لا بدّ من رفع وجه العريس الخليّ الأبله الذي ليس في رأسه شيء غير كيفيّة مضاجعة امرأته المضاجعة الأولى لجعل طريقه سالكًا نحو مضاجعات أخرى وأخرى تثمر أبناء وبنات وتطفئ رغائب وشهوات.

وحاول أن يسترجع حالته وقتذاك وبماذا كان يفكّر حقًّا؟.

لقد اقترن بامرأة، قالوا له هذا زواج عقل، كل شيء تمّ باتفاق مسبق، الحاضر والمتأخّر من الصداق. الهدايا، موظّف يقترن بموظّفة وهما في بداية طريقهما، طموحان، يريدان بيتًا وسيّارة وأولادًا وهدوءًا.

لكنّه كان يريد شعرًا وجنونًا، وصخبًا، وصراخًا، ونساء، ومغامرات.

وهكذا تجمّع الأهل في بيت الأخ ببغداد، جاء الوالد من الناصريّة، وحضر الخال من البصرة، وكل واحد منهما كان مصحوبًا ببعض أبنائه.

تمّت الخطوبة، قرأوا الفاتحة، وشربوا «الشربات» اللذيذة.

وردّد والدها المؤمن وكان ما زال يمتلك بعض حيويّته قبل أن يستفحل عليه السكّري ويتركه شبه ذاهل عمّا حوله، كليل البصر، ضعيف الذاكرة:

- الخير فيما اختاره الله!

كانت هذه الكلمات ترنّ في أذن غسّان حتى اللحظة هذه.

ولكن هل الله هو الذي اختار أم نحن الذين اخترنا؟.

انطلقت الزغاريد وجاء العرس بعد ثلاثة أشهر.

* * *

بعد أن عاد غسّان إلى بغداد كان يحسّ بغربة كبيرة مع كل هذا الذي حوله حيث بدّلت الحرب الإيقاع، وقد انتبه إلى أنّ الناس أنفسهم قد تغيّروا، اختلفوا.

وحاول أن يذوب في دوّامة العمل من جديد، لكنّه لم يستطع، كان عليه أن يبقى متأمّلاً من أجل أن يكون جزءًا من المشهد، وليس هذا سهلاً.

هناك ركض، جري، خلط، تداع، انهيار، خوف ثم خوف، فكيف يتعامل مع كل هذا؟.

وعلى العكس منه كانت زوجته إذ هي فرحة إلى أبعد الحدود، وظنّت أنّها قد انتصرت ما دامت قد أفلحت في إرجاعه إلى بغداد.

لكن ما أفزعه معرفته بعد بضعة أشهر من عودته أنّ زوجته هي التي كانت وراء ما حصل له.

همست له موظّفة زوجها صديق له بشيء من الأسى:

- من المؤسف يا أخ غسّان أنّهم يخسرونك بهذا الشكل! وسألها:
- ولماذا يخسرونني؟.
- لأنّهم سمعوا ادّعاءات زوجتك عنك!.

وهنا انتبه إلى الذي لّمحت به:

- أوضحي لي؟.
- ماذا أوضح لك؟ كل موظّفي الوزارة يعلمون أنّ زوجتك هي التي أعادتك! إحدى رسائلها إلى الوزير جرى تداولها بين الموظّفين باستغراب وفضول.

ساعتها هبّ منتفضًا، وغادر الوزارة ومضى إلى حيث تعمل زوجته ودخل عليها بشكل فاجأها، وقبل أن يتفوّه بكلمة تحيّة سألها بجفاء:

- قولي، هل أنت حقًّا من كتبتِ إلى الوزير مطالبةً بإعادتي إلى بغداد؟.

ودفعتها لهجته الساخطة المتوعّدة إلى الجواب:

- إذا أجبتك بنعم، فما الذي ستفعله لي؟ تقطع رأسي؟ ثم أضافت بفخر:
- كفّ عن أحلامك وانصرف لعملك، ولبنان أزحه من رأسك تمامًا. فمهما فعلت لن تراه عيناك بعد.

ووجد نفسه يصرخ:

- بماذا أصفك؟ من المؤسف أنّك أمّ ابنيّ!

* * *

لكن لبنان بقي فيه، وحنان عوّاد عنوانه والتي لم تكفّ عن الكتابة له، كأنّها لا تفعل شيئًا هناك غير هذا، وهو ما يفعله أيضًا أو يدوّن لها كل أحاسيسه ومعاناته.

وقد سهّل أمر التواصل كثرة توافد الصحافيّين من لبنان الذين يتابعون مسار الحرب حيث توالي وزارة الثقافة والإعلام توجيه الدعوات. ومعظمهم من معارف حنان وغسّان لذا لا يتوانون عن حمل الرسائل بينهما.

في أوّل مربد ساهمت فيه حنان لتقرأ شعرًا عنه، استقبلها في المطار، تجاوزت كل ما قيل وسيقال وارتمت على صدره، شمّها فأحسّ أنّ بمقدوره المضيّ والمواصلة.

وقفت أمام جمهور مهيّأ للتصفيق، أكفّه جاهزة ومعدّة لهذه المناسبات، لكنّها أخرسته، علّمته أن لا يصفّق كالأبله، وأعطته درسًا بأنّ الشعر الحقيقي لا نصفّق له ونصفّر مثل جمهور

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكرة بل نصغي له. شعر لا يخدّر بإيقاعه الرتيب، لا يجعل سامعه يستبق الشاعر في إتمام عجز البيت حتى قبل أن يتمّ إلقاء صدره، شعر يختفي فيه رنين القوافي لتحلّ محلّها سمفونيّة تصفع الذين يلحّنون على أوتار شرقيّة باهتة وقرع درابك تمزّق الآذان.

ما زال غسّان العامري يتذكّر ما عانته هذه الفتاة من أجله.

وممّا يتذكّره جيّدًا أصداء مكالمة زوجته لوالدها حيث اختبط كل شيء.

وبعد أن عجز عن الاتّصال بها بادرت هي بالاتّصال بصديقهما المشترك نصري الأسمر وطلبت منه أن يخبر غسّان أنّها مريضة وأنّ هناك أسبابًا تمنعها من الاتّصال به وستحاول ذلك بعد أن تستردّ عافيتها، كان ذلك بعد أن أخبرها أخوها أنّ نصري الأسمر اتّصل بها ويودّ أن تكلّمه. وعلمت أنّ غسّانًا كان عنده. وبعد أن غادرت زوجته لبنان لاستكمال الفصل التالي من مؤامرتها عليه اتّصلت به من الإذاعة حيث تعمل وأحسّ بالخذلان في صوتها، وعندما سألها:

- ما الذي حصل؟ لماذا اختفيت عنّي؟ قلبت الدنيا بحثًا عنك.

أجابته:

- عندما نلتقي سأخبرك.

وقد أقلقته مكالمتها أكثر ممّا طمأنته، وعرف أنّ أمرًا ما قد حصل لها، أو لأحد أفراد أسرتها، ولكن ما لم يفهمه لماذا تحاشت الاتّصال به، وتهرّب أهلها من الردّ على مكالماته؟.

ثم اتّصلت به ثانية وخمّن أنّ صوتها قد بدأ يعود إلى طبيعته واتّفقا على اللقاء ظهرًا في مطعم «برج الحمام» في أنطلياس والذي يقع على الطريق العام الذي يمضي صُعُدًا نحو «جبيل»، أو طرابلس، هذا الطريق الذي يفصله عن البحر والذي يظلّ مكتظًّا بالسيّارات في أغلب الأوقات، ولا تخفّ الحركة فيه إلاّ عندما يكون هناك قصف يستهدف منطقة أنطلياس وما جاورها.

لقد سبقها إلى المطعم بربع ساعة واختار مائدة جانبيّة قال للنادل بأنّها لشخصين.

وقد رحّب به ندل المطعم لكثرة تردّده عليه سواء مع حنان أو مع ضيوفه من الإعلاميّين والأدباء الذين يبادر بدعوتهم أو يلبّي دعوة توجّه إليه من أحدهم.

أمّا حنان فتسمّي هذا المطعم مطعمنا. وكان لهما أيضًا مطعمهما الثاني في هذه المنطقة ويفضّلان الذهاب إليه ليلاً هو المطعم الصيني «مستر باو»، أمّا عندما يحسّان برغبة في تبديد الصخب النائم في عروقهما بالرقص فيمضيان نحو المطعم الإيطالي «دون».. وكلّها مطاعم قريبة من بعضها.

لقد اندسّا في مطعم «دون» ذات مرّة بينما القنابل تتساقط على المنطقة، وكان من الممكن جدًّا أن تخترق إحداها نافذة المطعم فتقتل كل من فيه، ومع هذا لم تتوقّف الفرقة عن العزف ولا الراقصون عن الرقص.

كانت الحياة تبارز الموت وجهًا لوجه في عراء لا يُستر، ولا بدّ للحياة أن تكون المنتصرة والداحرة لكل ما يأتي به الموت من كمد وسواد.

أمّا البحر فله حصّته من لقاءاقمما هذه من «كازينو لبنان» وحتى «جبيل».

يمضيان إلى هناك كلّما كان الهدوء كبيرًا والطقس مناسبًا، ليحتسيا العرق الرائق ومعه صحن من سمك «السلطان إبراهيم» المقلي بحذق ترافقه رقائق الخبز اللبناني المقليّة بزيت السمك.

ومن عادهّا أن تترك سيّارهّا في مرآب أمين ثم تصعد معه إلى سيّارته اليابانيّة البيضاء من طراز «تويوتا كريسيدا» التي تحبّ أن تسمّيها «بيتنا» لكثرة ما ألفا الجلوس فيها معًا لتحملهما من أنطلياس إلى بكفيّا، أو إلى «غزير» و«جبيل» أو إلى «القليعات».

ومرّات يحثّها إلى التوقّف عند مطعم هناك لفت انتباه غسّان اسمه «غوغول»، وسألها إن كان لهذا الاسم علاقة بالكاتب الروسي صاحب الرواية القصيرة الأخّاذة «المعطف» التي وصفها أحد النقّاد بقوله «إنّ الرواية الروسيّة خرجت من معطف غوغول» وذهب هذا القول مثلاً.

كانا مصرّيْن على العيش بامتلاء، شعرًا، طعامًا، رقصًا، حبًّا.

وبهذا فقط تصبح للحياة معانيها الأوسع والأثرى. وفي كل هذا كانا يبحثان عن خصوصيّتهما كعاشقين وكشاعرين، حنان مثلاً تحبّ شرب البيرة بالثلج، ومع الزجاجة التي تطلبها لا بدّ من بعض قطع الثلج الأمر الذي يثير دهشة الندل. ولكنّهم يلبّون ما تريد بتلك الكلمة السياحيّة التي لم تحذفها الحرب من قاموس المقاهي والمطاعم:

- أمرك.

ولذلك كان يمازحها على هذا عندما يخاطبها:

- ربّما أنت المرأة الوحيدة في العالم التي لا تشرب البيرة إلاّ وقطع الثلج تغطس في رغوهّا؟.

وتقول مدافعة:

- أحبّ رؤية قطع الثلج عائمة على سطح الكأس وسط الرغوة البيضاء!

وكان أيضًا يعلّق على سمرهّا وشعرها السارح الطويل ودكنة سواد عينيها:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- من يصدّق أنّك ابنة الجبال ولست سليلة إحدى قبائل البدو في صحارى العرب؟

ولمحها وهي تدخل المطعم الذي جاء على شكل بهو واسع بحيث يتّسع لعدد كبير من الروّاد ولذا غالبًا ما يكتظّ في أوقات الظهيرة إذ يولم فيه بعض الأفراد أو الشركات، أمّا عدا هذا فهو هادئ ويستريح غسّان لطعامه وكذلك حنان التي اعتادت أكل ما تطبخه أمّها.

واتّجهت نحوه، كأنّها تعرف أنّه قد وصل قبلها وأنّه يجلس في ركنهما المفضّل.

كانت تلفّ شعرها بمنديل وتضع على عينيها نظّارة سوداء. نهض وضمّها إليه وقبّلها على خدّيها وهو يسألها:

- هل أنت متنكّرة أم مريضة؟

وردّت:

- الاثنان معًا.

كان وجهها قد شحب، وعندما رفعت النظّارة عن عينيها طالعه التعب الممسك بأجفانهما.

وقد أسرع النادل في وضع قائمة الطعام أمامهما. وسألهما إن كانا يطلبان الشراب فقال له غسّان:

- زجاجة ماء صحّة، وكأس ويسكي مضاعف لي وزجاجة بيرة مع قليل من الثلج.

وقد أكّد على النادل:

- لا تنس الثلج. فهو أهمّ من البيرة.

- حاضر.

ممّا جعلها تضحك، وأحسّ أنّ كل شيء سيكون مثلما يريد.

وأخذ يتأمّلها منتظرًا أن تبادر بقول شيء، ولكنّها بقيت ساكتة وعندما حضر المشروب حرص على وضع قطعتي ثلج في كأسها قبل أن يسكب فيها البيرة.

نطق وهو يرفع كأسه:

- في صحّتك.

ورفعت هي الأخرى كأسها وأخذت منها رشفة صغيرة.

وكانت عيناه لا تزالان تجوبان في وجهها، وكانت التساؤلات تحتجب في داخله منتظرًا أن تتفوّه بما لديها ما دامت قد جاءت، وذهبت به الأفكار بعيدًا إذ تصوّر أنّها جاءت من أجل أن تنهي علاقتها به، لا بدّ أنّ أمرًا حاسمًا يجبرها على هذا.

لكنّه أبعد عنه هذا النوع من الأفكار فالذي بينهما لا يمكن أن ينتهي لأيّ سبب، ما بينهما يصحّ فيه ما يقوله العامّة من الناس أنّه من ترتيب القدر ولذا لا يمكن ردّه أو الوقوف بوجهه، وما تأتي به الأقدار لا تنهيه إلاّ الأقدار وعلى طريقتها الفاجعة.

ما زال يتذكّر جيّدًا لقاءه الأوّل بها، كانت عقابيل داء رانيا خليل ما زالت في جسده وملامحه، محاولاً أن يتجاوز فترة النقاهة تلك ليشتدّ من جديد ويصبح قادرًا على المواصلة بالهمّة نفسها والقوّة نفسها التي كان عليها قبل أن يعرفها ويرتمي معها في علاقة مرتبكة متوتّرة، لحظات الصفاء فيها تكاد لا تذكر.

كان اللقاء الأوّل في يوم حزيراني من ظهيرة قائظة فاض فيها البحر برطوبة عالية تكاد تجعل التنفّس عسيرًا. ولذا ما إن تلفن له نصري الأسمر وأخبره أنّ الشاعر اللبناني المرموق سعيد عقل سيقدّم قراءات شعريّة في كنيسة أثريّة بمنطقة جبيل حتى قال له:

- متى؟
- في السابعة.
- انتظرني في مكتبك. سأمرّ بك قبل هذا الوقت لنمضي معًا.

قال نصري الأسمر بعد أن وصله في حوالى السادسة وقد أخذ مكان غسّان في قيادة السيّارة:

- هناك صديقة شاعرة تلفنت لها اليوم لتزوّدني بقصيدة للمجلّة وعلمت منّي بنبأ هذه الأمسية وأحبّت أن ترافقنا. تنتظرنا الآن في مقهى الكاستيل.

وما إن تحرّكت السيّارة حتى أضاف:

- على فكرة، هي تحبّ التعرّف عليك.
- وما اسمها؟
- حنان عوّاد، شاعرة مهمّة، لكنّها تتكتّم على ما تكتب، ولولا بعض الأصحاب الذين يلحّون عليها للنشر أو المساهمة في القراءات الشعريّة لربّما بقيت مجهولة.

وعلّق غسّان:

- أتدري يا نصري، يعجبني هذا النوع من الأدباء.

وضغط نصري على منبّه السيّارة من أجل أن يعطيه السائق المتباطئ أمامه مجالاً للمرور. ثم قال:

- كل شيء في أوانه، كلام بسيط وجميل، الأوان يعني النضج، وقبل هذا يعني أنّ الثمرة فجّة، مرّة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وبقي غسّان في السيّارة بينما نزل نصري ليأتي بها، وجلست في المقعد الخلفي بينما قام نصري بتقديمها لصاحبه:

- حنان عوّاد.

ومدّ يده مصافحًا وهو يتمتم:

- غسّان العامري.

وقهقه نصري وهو يواصل التعريف:

- الملحق الثقافي في سفارة العراق.

فقاطعه جادًّا:

- قل الشاعر، أمّا الملحق الثقافي فعندما أكون وراء مكتبي في السفارة فقط.

وتمتمت حنان مبتهجة ممّا سمعت:

- الوظائف تذهب، أمّا الشاعر فيبقى.

وهنا روى نصري لحنان ما سمعه هو وغسّان من الأديب اللبناني الرائد توفيق يوسف عوّاد الذي يشبه اسم عائلته اسم عائلتها رغم أنّهما ليسا قريبين:

- ذكر لي بأنّه بعد أن فرغ من كتابة روايته طواحين بيروت عن الحرب الأهليّة اللبنانيّة كان لا يزال سفيرًا لبلاده في اليابان، وكان نشرها يحرجه ويؤثّر على وضعه وربّما خسارته لمنصبه، وقد أشرك أولاده معه في إبداء آرائهم فأجابوه متّفقين بأنّ ما يهمّنا هو والدنا الروائي لأنّه الباقي، أمّا السفير فهو منصب زائل إن طال الزمن أو قصُر، وقد حمّسته آراؤهم على نشر الرواية التي لقيت صدى كبيرًا كما نعلم، بعد أن تحمّس لنشرها الدكتور سهيل إدريس، وعاد غسّان ليعلّق حول الموضوع نفسه:

- معكم أنا شاعر، ولا يمكنني أن أكون غير هذا، حتى ملابسي أغيّرها لأرتدي ما يريحني، كأنّ الوظيفة سجني والشعر حرّيّتي وانعتاقي.

وجه حنان عوّاد في ذلك اللقاء الأوّل ثم جلوسها بجانبه في الحفل حيث انشغل بها عن ما عداها، وربّما طبيعة نصري الأسمر المتفتّحة هو وعثنونه الأسود وشعره الذي يغطّي أعلى كتفيه أتاحت له الفرصة لأن يقترب منها أكثر.

ولكن ها هو وجهها أمامه الآن في هذه الظهيرة حيث الساعة تقترب من الثانية، في مطعم «برج الحمام» وقد هصره خذلان لم يره عليه من قبل.

ثم روت له الحكاية، والمرأة المجهولة التي تلفنت لوالدها بلهجتها التي تشي بأنّها غير لبنانيّة.

وكان سؤالها:

- كيف عرفت بعلاقتنا؟

أجابها:

- ليس الأمر صعبًا، فما دمت دبلوماسيًّا فأنا مراقب. لا أجزم بهذا، ولكن أتوقّعه. من أجل حمايتي على الأقلّ، رغم أنّني موقن جدًّا بأنّ لا أحد يفكّر بإلحاق أيّ أذى بي.

ثم حاول أن يشعرها بأنّه غير مهتمّ أو خائف من معرفة الآخرين بطبيعة علاقتهما ما داما يلتقيان في أماكن عامّة وفي مناسبات عامّة أيضًا!.

ثم ضحك وهو يقول:

- لذا جئت متنكّرة بالنظّارة والمنديل. لأوّل مرّة أكتشف الجانب البوليسي في شخصيّتك!.

فجعلها تعليقه تضحك من قلبها ومن ثم لتقول:

- لقد حذّرني والدي من الالتقاء بك!.

- وبماذا أجبته؟.

- بالموافقة طبعًا، ولكن ما إن غادرت البيت حتى كان أوّل شيء فكّرت به هو الالتقاء بك.

ورفع كأسه:

- في صحّة أحلى حبيبة متخفّية ومتنكّرة وراء نظّارة سوداء كأيّ مخبر سرّي!.

ورفعت هي الأخرى كأسها التي ما زالت بقايا قطع الثلج تعوم على سطحها.

سألها:

- هل أصبح من المتعذّر عليّ زيارتك في بيتك؟.

- أكيد.

وأسند ظهره إلى متّكأ الكرسي:

- سأفتقد جوّ بيتك الحميم. خاصّة في الشتاء حيث نجلس قرب موقد الحطب وأمام كل منّا كأس العرق، وأمّك المنتبهة المصغية إليّ أو إلى والدك، ورغم أنّها سمعت حكاياته هذه للمرّة الألف أو أكثر إلاّ أنّ انبهارها به لم يغادرها!.

قالت:

- هكذا الحال فماذا نعمل؟.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ارتباك إيقاع لبنان ثم ارتباك إيقاع العراق أربكنا نحن، أربك الحبّ كله كعاطفة إنسانيّة عظيمة.

وارتشفت ما بقي في كأسها ثم ردّت عليه:

- ومن هنا أصبحت علاقتنا اقترافًا للمحرّم في عرف هذه المساحة من لبنان المفروزة دينيًّا وإلى حدّ ما طائفيًّا، وأسألك هل كنت تتوقّع أن يكون ردّ فعل والدي مختلفًا عندما يكتشف أنّ ابنته الكبيرة على علاقة برجل من غير بلدها ودينها، وإضافة إلى هذا هناك كبيرة الكبائر التي تقضي على كل منفذ نحو النور لظلام مغلق هو أنّ هذا الرجل متزوّج وله بنتان.

وعندما سكت محاولاً إيجاد جواب يعلّق به على ما فاهت به استمرّت متكلّمة بهدوء يعكس تعب صوتها:

- هذا بلد جعلوا طوائفه وأديانه تتقاتل بينها أو نيابة عن آخرين خارج حدوده يغذّون هذا التقاتل.. لذا علينا أن لا نستغرب موقف والدي!.

ووجد نفسه يقول:

- في البداية ظننتك علاقة ستمرّ، وما أكثر العلاقات التي انغمست فيها، حتى من تقيم علاقة معي ليس لها أيّ طموح أبعد من حدود العلاقة، فوضعي العائلي معروف وحياتي مستقرّة بشكل ما.

وقاطعته:

- عندما عرفتك كنت آخر رجل أفكّر أن أقترن به، لم أكن طامحة منك بشيء. لكنّك فاجأتني، أتدري بماذا؟ بأن جعلتني أحبّك، محوتَ ظلال ما عداك لتكون الوضوح الوحيد! لم أسأل نفسي وماذا بعد هذا الحبّ؟.

ردّ عليها:

- ثم حصل لي ما حصل لك، رغم أنّني لم أرد هذا، ولكنّه عندما جاء قبلته، فرحت به، هلّلت له، فعندما يستطيع الإنسان أن يحبّ فهذا حدث كبير، عليه أن يحتفل به، وإن تجرّأ يعلنه، وقد فعلت هذا في قصائدي!.
- وفعلت هذا أنا أيضًا في قصائدي.
- هناك قدريّة ما في هذه العلاقة، هذا ما أقوله، أنا الإنسان والشاعر المتجاوز لكل ما حولي، الباحث عن مطلقيّة الإنسان. لماذا أنتِ؟ ولماذا ليست أخرى؟ ولماذا اليوم وليس الأمس؟.

قالت:

- لقد انجرفنا، نسينا أين نحن؟ ومن نحن؟ ويبدو أنّ هذه العلاقة القدريّة كما تسمّيها قد أصبحت حكاية يتداولها من حولنا ونحن لا نعلم. لكن رغم كل شيء أنا غير مهتمّة، ولا بدّ أن أتجاوز خذلاني هذا.

ورقّ صوته وكأنّه يقرأ إحدى قصائده أمام جمهور يحبّه:

- أنت امرأة الممكن وامرأة المستحيل أيضًا، ربّما انتظرتك، أو توهّمتك في أخريات. لكن حصل وأن جئتِ إليّ بنفسك ولذا لن أتخلّى عنكِ.

***

في أوّل زيارة لها لبغداد حضرت ومعها آخرون من شعراء لبنان، من الشمال والجنوب، من الغربيّة والشرقيّة، كلّهم حضروا، كل شيء يتعلّق بالجرح الوطني ظلّ هناك. ها هم متآلفون، يحبّون بعضهم، يعانقون بعضهم.

الشعر ضدّ الكراهية دائمًا، وهذا ما يقوله غسّان العامري أمام من يأتمنهم من أصدقائه جوابًا على ما يتردّد عنه بأنّه لم يكتب قصيدة واحدة عن الحرب.

أمّا الشعر الآخر الذي يأتي بالسيّارات والشقق فقد تركه لمن احترفوه، وانضاف إليهم شعراء آخرون يأتي بهم كل مربد، هم وقصائدهم العصماء التي تقطر مديحًا وثناء فينالون ما جاؤوا من أجله.

أراد أن يريها كلّ بغداد ويعرّفها على كل أصدقائه، وأن يأخذها إلى المواقع المهمّة التي ينشدها الزائر للعراق.

وفي شارع الجمهوريّة أوقفها أمام مسجد وأمامه في الجهة المقابلة كنيسة، لا يفصلهما عن بعضهما خمسون مترًا، لقد بُنيا في وقت واحد ووفق طراز واحد. أشار إليهما وقال:

- انظري، هذا هو العراق، قلب مفتوح، أمّا الدين فلله، والوطن للجميع.

وقد بكت تأثّرًا.

زارت معه الكاظميّين ومسجد أبي حنيفة وضريح الشيخ عبد القادر الكيلاني، وفي يوم آخر وقد رافقهما نصري الأسمر وأياد موسى زاروا النجف وكربلاء.

كان الذهول يمسك بهم وهم يرون هذا البهاء المختلف، في الريازة والزخرفة، وفيض الذهب والأحجار الكريمة، قباب ومنائر من ذهب تلهث تحت الشمس، وأناس يبكون، رجالاً ونساءً، يفرغون همومهم، أحزانهم، يدعون الله وهؤلاء الصالحين بأن ينقذ الوطن من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

البلاء الذي يسحقه فتتوقّف الحرب، ويكفّ زحف آلاف الجنائز الملفوفة بالعلم العراقي التي يدورون بها حول ضريح الإمام علي قبل أن تدفن في صحراء النجف.

***

عند وصولها كان العراق كله يتحدّث بجهر عن قيام ابن رئيس الدولة بقتل أحد المكلّفين بخدمة أبيه، ضربه على رأسه فأرداه قتيلاً أمام العشرات، ولذا تعذّرت لملمة الموضوع.

وكان غسّان يسمع الحكايات عن هذا الفتى لدرجة أنّه لم يعد قادرًا على تأشير كمّيّة الخيال فيها، قتل على اغتصاب على اختطاف، على نهب أموال، على معتقلات خاصّة.

أشياء كثيرة يجري الحديث فيها همسًا إلاّ هذه الحادثة التي وقعت أمام الأنظار و لم يستطيعوا إخفاءها.

وكان على الوالد أن يتصرّف، بعضهم قال إنّه وضعه تحت الإقامة الجبريّة وآخر ذكر أنّه في السجن وثالث أنّه رحل إلى عاصمة أوروبيّة.

ولكن غسّانًا لم يصدّق أنّ شيئًا من هذا قد حصل، وأنّ الفتى طليق حتمًا يمارس حياته مثلما يريد، فهو الابن الأكبر الذي يعدّونه وريثًا، لكن رعد الطويل الذي كان حاضرًا هو الآخر وقد خصّ بحفاوة خاصّة لكونه نقيب المعلّمين اللبنانيّين قد انفرد بغسّان وأخبره بما لم يصدّقه.

قال رعد الطويل:

- أليس في علمك أنّ عريضة موجّهة لرئيس الدولة وبإيعاز من وزير الثقافة لجمع تواقيع بعض الشعراء المعروفين يطالبونه فيها بالعفو عن ولده وعدم محاسبته.

وصفع غسّان جبينه براحته وهو يستشيط غضبًا:

- لماذا يحرجون الناس؟.
- أكيد أنّنا محرجون من هذا. في كلا الحالتين عندما نوقع أو عندما نعتذر.

قال غسّان:

- ولد اقترف جريمة قتل فليحاكم، يحال على المحاكم، فما دخلكم أنتم؟.
- وأزيدك علمًا أنّ هناك أكثر من شاعر قد أعدّ قصيدة بهذا المعنى فالعفو من شيم الكرام وما شابه ذلك.
- نعم، ولكن لا عن قاتل.

وقد تمّت فصول هذه المسرحيّة، و لم يسأل غسّان رعد الطويل ولا نصري الأسمر إن كانا قد وقّعا، لكنّه علم أنّ جُلّ من قدّمت لهم وقّعوا عليها.

أمّا حنان عوّاد فلا علم لها بهذا لو لم يخبرها به غسّان العامري، وذكرت أنّها حتى لو جاؤوها بهذه العريضة لرفضت التوقيع عليها.

* * *

فكّر غسّان بأن يدير وجه صورته إلى الحائط ويبقيها معلّقة في مكانها.

ونهض باتّجاهها لتنفيذ فكرته، ولكنّه أحسّ وكأنّ هناك شيئًا من العتاب في عينيـــه، لذا تراجع وارتدى ثيابه على عجل وغادر الشقّة.

كان يحسّ برغبة في الجري وهو بكامل ثيابه، ولكن من يضمن أنّ صبية الشارع لـــن يجروا وراءه وهم يحصبونه بالحصى والحجارة؟.

- غسّان العامري انتبه! فبينك وبين الجنون هناك شعرة؛ فحاذر أن لا تنقطع.

هكذا قال لنفسه وهو يستحثّ خطاه المخدّرة ليبعد التنمّل عن قدميه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- 30 -

صحا غسّان العامري مبكرًا على عادته، وكان عدنان العزيري قد أخبره بأنّه لن يمرّ به هذا اليوم فزوجته لديها نذر للحسين ويجب أن يحملها معه بسيّارته إلى كربلاء. وذكر له أنّها فرصة للقاء بعض أصدقائه من أدباء المدينة، حيث تلفن لأحدهم الذي اقترح عليه إمضاء ليلته ضيفًا عليهم بعد أن يقدّمه للمعنيّين بالأدب في لقاء ودّي.

وعلّق غسّان:

- شيء جميل، أنا مع الحوارات المفتوحة إذ هي تساعد الكاتب على معرفة آراء الآخرين وانطباعاتهم عمّا يُكتب، وهذا مهمّ جدًّا.. ودعنا من النقّاد فوضعهم مختلف وتعاملهم مع النصّ له ثوابته.
- لكنّ النقد هو الذي يساعد على تلميع صورة الكاتب.
- ولهذا أراك تجامل النقّاد و لم ينقصك إلاّ أن تحلّ سروالك لهم.
- مضطر، فالمجموعة القصصيّة الجديدة في المطبعة، وأنا مضطرّ لكسب ودّهم.
- أتسخر من نقّاد بلدك؟.
- لا أسخر فلدينا بارت العراق، وجيرار جينيت وتودوروف وألبريس و... و... وهكذا، ولا بدّ من كسب ودّ كل «قحف» من هؤلاء حتى يكتبوا عن المجموعة، وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم.

وقد قهقه غسّان كالخليّ وهو يدفعه من كتفه:

- يا الله امش لامرأتك، افرنقع، أرحني منك ومنها.

فالتفت إليه عدنان ومطّ شفتيه ثم قال:

- أنت خوش طيز.

* * *

لم يزر غسّان صديقه الدكتور منعم البصري في مكتبه بوزارة الصحّة التي أصبح مديرًا لإعلامها، وارتأى أن يذهب إليه في زيارة تهنئة، لذا حلق ذقنه ثم قام ببعض التمارين الرياضيّة للحفاظ على حيويّته، وعندما انتهى تعرّى ودخل الحمّام واستسلم للماء المنسكب الذي يمدّه بالصحو الكامل رغم سخونته التي لم تخفّفها ساعات الليل إلاّ بمقدار.

ارتدى ثيابه وتناول بيضة مسلوقة أعقبها باستكانين من الشاي «السنگين» وأصبح جاهزًا للخروج.

هبط السلالم، وسلك طريقه المعتاد، توقّف أمام مكتبة الرفيف، كانت زوجة الفنّان مقداد عبد الرضا تديرها صباحًا حتى ينتهي عمله في مديريّة المسرح ليأخذ مكانها.

وقد انتبه غسّان إلى طفلها الذي كان يصرخ في الداخل وعندما سألها عنه أجابته بأن ليس لديها من يهتمّ به لذا تحمله معها.

– لكنّ الجوّ حارّ جدًّا؟.

– لديّ مروحة، وهي تحرّك الهواء قليلاً.

قلّب الجرائد، ثم اشترى جريدة «الجمهوريّة» وطواها قبل أن يرى ما فيها.

كان من عادته أن يقرأ صحف بلاده من الخلف إذ الصفحة الأخيرة عادة للمنوّعات وفيها أخبار فنّيّة وأدبيّة، أمّا الصفحة ما قبل الأخيرة فمخصّصة للأدب واحتمال العثور على موضوع يمكن قراءته وارد، لا سيّما أنّ هذه الصفحة يحرّرها في جريدة «الجمهوريّة» معن الماجد المجنّد الآن إلاّ أنّه يهيّئ موادّها بعد الظهر. أمّا في النهار فقد نُسِّب كما نُسِّب عدد آخر من الأدباء والفنّانين إلى مديريّة التوجيه السياسي التي تصدر عنها عدّة مطبوعات عسكريّة وتعدّ بعض البرامج العسكريّة والسياسيّة الملأى بالشعارات والإنشاء المجلجل.

وكان في هذا حلّ لهم بدل إرسالهم إلى جبهات القتال التي استشهد فيها الكثيرون، وبينهم صحافيّون وأدباء معروفون من الشباب.

* * *

فرح الدكتور منعم عندما رأى غسّانًا يدخل عليه وهبّ مطلقًا صيحته:

– أهلاً.

وقد مطّها مطًّا.. تعانقا ثم أجلسه بجانبه.

وصار غسّان يتطلّع إلى مكتب صاحبه، ثم قال:

– هل أنت راض بهذا العمل؟.

– إلى حدّ ما، تعبه قليل ومع هذا هناك إمكانيّة لعمل شيء في التوعية الصحّيّة بشكل خاصّ، أفلام قصيرة، ملصقات، برامج إذاعيّة وتلفزيّة، إصدار مجلّة، ومن حسن الحظّ أنّ في هذا القسم بعض من لهم ممارسة صحفيّة.

– جيّد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ولكن قل لي لماذا لم تزرني من قبل؟ كم مرّة وعدت؟.
- أكره زيارة الوزارات والدوائر الرسميّة. أصبحت أختنق عندما أدخلها، أنا ابن المقاهي والخمّارات والشوارع!.

وأكمل منعم:

- وبيوت القحاب؟.

وابتسم وردّ:

- الله يسمع من فمك، أين بيوت القحاب؟ كانت لهنّ بيوت. وعلى فكرة مبنى وزارتك هذه قائم على أنقاض أكبر مباغي بغداد.

وانطلقت قهقهاهما، ولكن غسّانًا عاد ليكمل:

- وزارتكم واقفة على أنهار من المني وفوق ثراها رفعت آلاف السيقان وانتصبت باقات من الأيور التي لا تحصى.
- ولو كان المنيُّ ينبت لحصلنا على مزرعة كبيرة أشجارها أيور منتصبة نُقعد من يزورنا على أحدها!.
- استحِ، أنت مدير إعلام؟.
- أليس هذا جزءًا من عملي وفضل اكتشافه يعود لك.

ثم ضغط على زرّ الجرس فدخل عليه الفرّاش. التفت ليسأل ضيفه ماذا يحبّ أن يشرب؟.

- وماذا لديكم؟
- شاي وقهوة عربيّة من الدلّة!
- إذن قهوة، مُرّة بدون سكّر.

وردّد الفرّاش:

- حاضر، نحن لا نضع فيها السكّر، وإلاّ لما أصبحت قهوة عربيّة!.

ودار بينهما حديث كثير أخبره منعم أثناءه أنّ ولده الكبير من زوجته الفرنسيّة وهو طالب في كلّيّة التربية الرياضيّة لديه مشاكل مع العميد، ووصفه بأنّه وغد لا يحترم الزمالة فقد كان مدرّسًا هو وزوجته في الكلّيّة نفسها قبل أن يسجّل اسمه في الحزب ليكون عميدًا.

- كن هادئًا، ولا تحتدّ.
- ابن كلب، سأعلّمه.

- يا أخي يا منعم لماذا تكون حسن الظنّ بصداقاتك مع هـذا المسؤول أو ذاك الحزبي، في ساعة الضيق كلهم يهربون، هم خائفون يريدون أن يسلموا بريشهم، دع صديقًا يكون واسطة خير لحلّ الموضوع.

وحضرت القهوة، وقف الفرّاش وهو يحمل الدلّة، وصار يسكب له وهو يرتشفها متلذّذًا بطعمها المرّ اللافح، و لم يهزّ فنجانه دليل اكتفائه إلاّ بعد أن ارتشف خمسة فناجين ممّا جعل منعم يعلّق:

- خذ بالك، القهوة ترفع الضغط، وكذلك قلّة النيك.

فقهقه غسّان من جديد وقال:

- أجدادنا يقولون في أمثالهم: ذهب منه الأطيبان، أمّا الأطيبان اللذان ذهبا فهما الأكل والنكاح.

- بالنسبة للأكل سنحلّها اليوم سأتّصل بأحلام لتطبخ لك ما تريد، بقي النكاح فيجب أن تتدبّر أمرك فيه من غير المعقول أن تبقى هكذا؟ كل يوم يمرّ بدون النكاح لا يعوّض، انظرني أنا، زوجتان ولا أتوانى عن الصيد.

- أنت فحل، أمّا أنا فقد أعطيته إجازة، أليس من حقّه أن يرتاح؟ لقد أتعبته من قبل!.

وكانا يضحكان كالخليّين بينما يدخل بين فترة وأخرى موظّف من العاملين بإمرة منعم فيعرّف بغسّان من لم يعرفه من قبل.

وانهمك منعم بعض الوقت في مراجعة بعض الأوراق التي تتطلّب وضع توقيعه عليها.

آنذاك فتح غسّان جريدة الجمهوريّة وأخذ يقلّبها، وقرأ حكاية تراثيّة، وتساءل كيف مرّت وسُمح بنشرها، هل هذا لأنّها من التراث؟.

التفت إلى منعم وقال له:

- هل أنت على استعداد لأقرأ لك أربعة أسطر فقط.

- هيّا.

وترك القلم واستدار ليستمع لصاحبه الذي قرأ:

- أرسل عثمان بن عفّان ثمانين ألف دينار إلى أبـي ذرّ الغفاري مع أحد عبيده وقال له: إن قبلها منك أبو ذرّ فأنت حرّ. ذهب الرجل إلى أبـي ذرّ وعرضها عليه قائلاً: يا أبا ذرّ اقبلها فإنّ فيها عتقي. فأجابه أبو ذرّ: إن كان فيها عتقك فإنّ فيها رقّي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وهتف منعم:

- الله، جميل، أرأيت؟.

وأخذ غسّان يدير عينيه في أرجاء المكتب ثم تساءل:

- هل أنت متأكّد من أنّ مكتبك ليس فيه آلات تنصّت أو كاميرات؟.
- والله لا أدري! ولماذا يضعونها؟ أنا مكشوف مثل مؤخّرة المعزى، نسواني وعيادتي وأصحابي وقشمريّاتي، فلماذا يتعبون أنفسهم؟
- لساعة أو من أجل شيء قد لا يخطر ببالك؟
- ولكن لماذا سألتني هذا السؤال؟
- سأقول لك لماذا بعد أن نخرج.

ونظر في ساعته:

- لدينا حوالى الساعة، ولكن مع هذا أستطيع أن أخرج بمجرّد مكالمة مع مدير مكتب الوزير.
- إن لم يكن لديك شغل مهمّ، كلّمه لنخرج.

***

عندما أصبحا في سيّارة الدكتور منعم تساءل غسّان:

- هل أنت متأكّد أنّ سيّارتك خالية من آلات تسجيل أو تنصّت لا علم لك بها؟
- ما بالك اليوم مرتابًا بهذا الشكل؟.

وكأنّه قد انتبه إلى أنّه قد مضى بعيدًا في مخاوفه هذه، لأنّ ما يسمعه يوميًّا يعطيه الحقّ في هذا، لذا قال:

- ربّما أكون بالغت.
- أكيد. لكن قل لي ما الذي أردت أن تقوله؟
- شيء بسيط، البارحة عدت إلى البيت وفتحت التلفزيون، وكان المذيع يقرأ أسماء المتبرّعين ومقدار ما تبرّعوا به، ذهب ونقود من أجل الحرب، ولكن لفت نظري أمر واحد من كلّ حفل الزار هذا هو المبلغ الذي تبرّع به أحد أخوة... ثم توقّف وصار يشير بيده إلى أعلى، ممّا جعل منعم يردّد:
- صار معلوم، أكمل.

- لقد تبرّع بثلاثة ملايين دينار من ماله الخاصّ على حدّ تعبير المذيع، فإذا كان ما يتبرّع به هذا المبلغ فكم يملك؟
- كل عائدات العراق تحت تصرّفهم، هم يقبضونها، وهم يوزّعونها، فمن يسألهم؟
- لقد ربطت هذه الحادثة بحادثة أخرى، فقبل أشهر ظهر... وعاد من جديد ليشير إلى أعلى. ثم واصل:
- وتحدّث عن ظروف الفقر التي عاش فيها هو وأسرته، وأنّه عندما كان معتقلاً لم يكن في بيته غير خمسين فلسًا، وكان كل من زوجته وأخيه إيّاه يريدان الخروج، فتنازل لها الأخ عن هذه الخمسين لتركب الباص، أمّا هو فقد مشى على قدميه. فأيّ تجارة هذه وفي هذه الفترة الوجيزة جمعت لديه كل الملايين!.

ولم يكن منعم مستغربًا أبدًا ممّا يسمع، بل كان استغرابه من تساؤلات صاحبه الذي بدا له كأنّ كلّ شيء في البلد يجب أن يكون موضع مساءلة، ولكن من يسأل من؟

قال منعم:

- يا غسّان يا عزيزي! هل ترى في هذا البلد المخصيّ من يقدر على طرح ذلك السؤال القديم من أين لك هذا؟.

وهزّ غسّان كتفه وقال:

- ولماذا لا؟
- أحلام الشعراء تنسفها الوقائع، تحرقها نيران الحرب المتّقدة.
- اسمع منعم، هذا البلد يجب أن يتغيّر كل شيء فيه، وإلاّ فالآتي أعظم، ولن تكون هذه القادسيّة المجيدة كما يسمّونها بل هناك قادسيّات أخرى ليبقى البلد خرائب وأنقاضًا وأيتامًا وأرامل.

وبلع ريقه بصعوبة وهو يختنق انفعالاً:

- أحلم بعراق لكل العراقيين، برلمان حقيقي، وانتخابات رئاسة حقيقيّة، من تنتهي فترته يمضي ليأتي آخر غيره، أحزاب وصحف، مجتمع مدني بكل معنى الكلمة، لا أحد يجرؤ على تجاوز القانون، يا أخي هل هذا بمستغرب أو كثير على بلد ظهرت فوق أرضه أقدم الشرائع الإنسانيّة؟.

وأخذ منعم يلاعب إصبع يده الوسطى بحركة بذيئة ممّا جعل غسّانًا يخاطبه:

- أنت بالذات لا فائدة منك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- والله، كل الفائدة منّي، لكنّ الإعصار قويّ، يجرف كل شيء أمامه، ولا بدّ أن يأخذ مداه، بعد ذلك يأتي الذي سيأتي، أمّا الآن فما عليك إلاّ أن تتماسك، وعندما تصل إلى البيت ستشرب ثلاث زجاجات بيرة، والرزّ ومرقة البامية جاهزان لتحشو بطنك وتنام. ثم ترافقني إلى العيادة، أنت اليوم مقبوض عليك من قبلي ولن أفلتك.
- سأشرب البيرة وآكل البامية والرزّ وقد أنام.. فأنت لديك مكيّف هواء أيّها البرجوازي المأفون. أمّا أنا فلا أملك إلاّ مروحة عندما أشغّلها كأنّها تراكتور، أمّا المبرّدة فيجب أن أسمّيها مسخّنة! بعد ذلك سأغادر وسأمرّ بك في العيادة آخر الأسبوع، وإن استطعت كلّم محامي الشعب طارق المنصور فلم أره منذ أسابيع.

ثم سكت برهة وكأنّه يستجمع الكلمات التي ما زالت على سخونتها في داخله ليجد لها الصيغة الدقيقة للبوح بما يريد أن يقوله. واستأنف كلامه:

- ألا تعجب من بعض الحكّام الفرحين بأنفسهم بحيث يجثمون على صدور المواطنين في البلدان التي ابتليت بهم عقودًا محميّين بحراب الأتباع والمأجورين، إنّهم وراءنا وراءنا في التلفزة والإذاعة وتلاحقنا صورهم الكريهة في الصحف والمجلاّت، وعلى المواطنين البائسين أن يحتفلوا بكل وقائع حياتهم حتى إن عطسوا، أو أجروا عمليّة لبواسيرهم نتيجة جلوسهم الطويل على كرسي واحد؟

ولم يتوقّف إلاّ لحظة ابتلع فيها ريقه ليواصل إطلاق غضبه الكامن:

- في البلدان المتحضّرة يبقى الرئيس مثلاً أربع سنوات وقد يجدّد له بأربع أخرى ثم يمضي ليأتي غيره. ليتني أعيش يا منعم حتى اليوم الذي أرى فيه عراقنا ديموقراطيًّا حقًّا، حكّامه ليسوا كوابيس، هناك برلمان يسحب الثقة من الحكومة، ووزير لا يعجبه أمر فيعلن استقالته ويعود إلى بيته سالمًا، رئيس يعرف جيّدًا أنّه ليس القانون بل إنّ القانون عليه إن هو أخلّ بشيء، ثم يُحاسَب وقد يُطرد أو يُسجن.

قهقه منعم وقال:

- لو لم تكن والدتك متوفاة لقلت لك كسّ أمّك.

وهنا استجاب غسّان لدعابته وعلّق:

- ولكنّك قلتها أيّها السليط؟

- 31 -

اختلطت البيانات العسكريّة التي تتحدّث عن قصف مواقع في كل من إيران والعراق بالصواريخ أو بالطائرات.

وقد استطاعت الطائرات العراقيّة بعد إجراء تعديلات عليها من الطيران لمسافة أطول لتصل إلى أهداف في العمق الإيراني.

وسقط صاروخ إيراني في شارع الرشيد وأحدث أضرارًا كبيرة.

وقبله سقط آخر على مدرسة ابتدائيّة قريبة من مصفى الدورة المستهدف دائمًا. ولو أنّ صاروخًا أصابه لكانت كارثة الكوارث.

كما جرت معارك طاحنة في منطقة الفاو التي احتلّتها إيران بعد أن استعادت كل المواقع والمدن التي احتلّها العراق في بداية الحرب بعمليّة شبيهة بالاجتياح غير المتوقّع، ومنها مدينة المحمّرة الشهيرة.

ثم أصبح العراق يدافع عن حدوده، ولكن ما حصل في الفاو اعتبر انتكاسة عسكريّة إذ إنّها أصبحت بمثابة قاعدة لفصائل من المعارضة العراقيّة ذات الولاء الإيراني، تتجمّع فيها باعتبارها أرضًا انتزعتها من النظام الذي تعارضه لتنطلق منها نحو مواقع أخرى تسمّيها محرّرة في بياناتها!.

ولذا كان المراقبون مقتنعين تمامًا بأنّ العراقيّين لن يقبلوا بالقرار الصادر عن مجلس الأمن برقم 598 الذي يدعو لإيقاف الحرب ما لم يستعيدوا الفاو.

وهكذا يجمع آلاف الجنود بكل الأسلحة الممكنة استعدادًا لخوض عمليّة تحريرها.

وتكرّر ما كان يقال من أنّ عودة الفاو تعني وقف الحرب، وأنّ الإيرانيّين سيكونون متأكّدين من لا جدوى مواصلتها.

وصحا غسّان العامري على أصوات إطلاق رصاص وتكبيرات في المساجد، وكذلك قرع أجراس بعيد يأتي من الكنائس المتناثرة في منطقتي «الكرادة الشرقيّة» و«كرادة مريم» بشكل خاصّ.

وعندما فتح باب الشقّة ليسأل ما الذي حصل قابله أحد جيرانه الذين يسكنون الشقّة المجاورة وهو يقول له:

- مبروك يا أستاذ، لقد تحرّرت الفاو.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- وهذا السبب يجري رفع التكبير من الجوامع؟
- نعم.
- الحمد لله، ولكن البشرى الكبرى عندما تتوقّف هذه الحرب الملعونة بشكل كامل.

وتمتم الشابّ قبل أن يدلف إلى شقّته بلهجته المصريّة الناعمة:

- ربّنا يسهّل.

* * *

أصبح تحرير الفاو الحدث الكبير الذي يعيشه البلد، وقد أقيمت الاحتفالات والندوات حول الأهمّيّة العسكريّة لهذا الانتصار، وأثره على مسار الحرب.

ثم سمع غسّان البيان من الراديو والذي كانت تتمّ إعادته بين فترة وأخرى.

لقد أمضى ليلته مع غيّاث الإبراهيمي بعد أن انطلقا من كافتريا المنصور باتّجاه النادي اللبناني في منطقة الكسرة.

وهناك شربا العرق اللبناني وتلذّذا بطعم المازات قبل أن ينطلقا باتّجاه شارع أبي نوّاس ليأتيا على سمكة كبيرة راقبا طقوس شيّها على الطريقة العراقيّة الفريدة، إذ يتمّ ذلك لا على النار بل على لهبها وبطريقة بطيئة آخر مراحلها أن يوضع ظهرها على ما يتبقّى من جمر لتوضع في صينيّة عريضة ومعها الخبز والطماطم والبصل و«العمبة» الهنديّة.

وارتكنا زاوية ليبدأا الأكل حيث يلذّ لغسّان أن «يتمزمز» برأس السمكة، يمصمصه بصوت مسموع ممّا يجعل صاحبه يردّد:

- عدنان العزيري مصيب عندما يتّهمك بالتخلّف؟
- كبار القوم نصيبهم الرأس من كل شيء، ورأس السمكة يدخل في هذا المجال. ولكن لماذا تستغرب، وأنتم هناك في لبنان تلتهمون سمكة السلطان إبراهيم كاملة هي وعظامها، ولن يسلم من أسنانكم لا رأس ولا ذيل.
- أتقيس السلطان إبراهيم بهذه السمكة العجوز؟
- قبل أن نشويها كانت ترقص في الحوض، ألم ترها؟

وهنا انتبه غيّاث للوصف وقال:

- يا الله! أتدري هذا أجمل وصف سمعته! ولذا سأرفع عنك تهمة التخلّف.
- بعد أن تنتهي اذهب لتغسل يديك، ودعني أنعم وحدي بالقضاء على أيّ أثر دالّ على أنّ هذا الطعام كان في يوم من الأيّام شيئًا اسمه سمكة.

ومن الصدف أنّهما في تلك الليلة وهما عائدان قد أخذهما الحديث، بحيث نسي غيّاث أن يفتح الراديو كما يفعل عادة وإلاّ لسمعا بنبأ تحرير الفاو هذا.

جلس غسّان على الكنبة الأثيرة ووجد نفسه يردّد آيات من القرآن الكريم انطلقت من قلبه إلى شفتيه، وكان يعود ليردّد:

- الحمد لله ربّ العالمين، الرحمن الرحيم.

ويكرّرها بشكل هامس تتحرّك له شفتاه فقط. ثم يتذكّر أنّ الحرب ما زالت قائمة وإن كان ما حصل حدًّا فاصلاً فيها.

فتح الراديو وهجمت عليه الأناشيد والقصائد، وكلها ترجع الفضل إلى قائد البلد الذي وضع خطّة التحرير وورد أنّ أفرادًا من أسرة الرئيس وعلى رأسهم ابناه كانوا هناك، ساهموا في التحرير، هكذا، شبلان، فارسان، سليلا المجد والعنفوان إلى آخر هذه الأوصاف.

عاد ليسكت الراديو ويمدّد ساقيه العاريين على الطاولة أمامه، لماذا كل هذه المبالغات؟ وأين ذهب العسكريّون المحترفون؟ ومع هذا لقد تحرّك في داخله قليل من التفاؤل، كذبالة تنوس من شمعة صغيرة، تعارك ظلامًا خانقًا.

كانت حرب الصواريخ قد أرهبت الناس وأربكتهم وجعلتهم في حالة ذعر إذ لا أحد يعرف أين سيسقط هذا الصاروخ أو ذاك.

واحتمى البعض بالملاجئ التي لا تتوافر إلاّ في عمارات قليلة، فبيوت البلد أغلبها من طابق واحد أو طابقين عدا المباني الحكوميّة.

أمّا غسّان العامري فلا يفكّر في شيء من هذا، لقد جعلته سنواته اللبنانيّة يردّد بخبرة من رأى وعاش وسلم أنّ من يحين يومه لن يفيد معه ملجأ، ويستحضر حالة دخلت فيها قذيفة مدفع في فوهة ملجأ فقتلت أكثر المحتمين به فكان هذا مفارقة عجيبة تحدّثت عنها وسائل الإعلام اللبنانيّة في وقتها، ونشرت الصحف صورًا لهذا الملجأ وضحاياه.

ذهب إلى الثلاّجة وأتى بزجاجة ماء وصار يسكب في الكأس ويفرغه في جوفه حتى أنهى كل ما في الزجاجة الملأى.

بعد ذلك خلع ملابسه الداخليّة التي دفعه الحرّ إلى النوم فيها، واتّجه نحو الحمّام، جلس في المرحاض أوّلاً ليفرغ ما في جوفه ومثانته، ثم أطلق ماء «الدشّ» لينسكب على يافوخه.

ترك الماء ينسكب وهو يردّد مطلع أغنية جديدة لسعدون جابر لا يدري كيف أفلتت من بين أهازيج الحرب وأناشيد الثناء للفارس الحكيم والقائد المظفر (حفظه الله)، وهي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اللازمة التي فرضت على الجميع بأن يطلقوها كلّما ورد ذكره، وبالنسبة للعامّة تتحوّل في أحاديثهم إلى (الله يحفظه).

تقول الأغنية:

- تسرق النوم منّي
وتكَول لي لا تسهرّ

وربّما جاء بعد ذلك:

- ترى السهر يا ذيك (يؤذيك).

ومن الواضع أنّها باللهجة البدويّة لا باللهجة العراقيّة ولكن الحنوّ في صوت سعدون جعلها ناعمة رومانسيّة إلى حدّ كبير.

كان هذا كل ما يحفظه منها، لذا صار يكرّرها والماء الدافئ يمدّه بشيء من النشاط الذي هو بحاجة إليه ليبدأ نهاره.

نشّف جسده ثم ارتدى ثيابه وخرج مبكرًا ليقف في محطّة الباص. وما إن جاء حتى صعد فيه، ونزل في شارع الرشيد، وأخذ يمشي بين أفواج المشاة.

وكان تحرير الفاو مرتسمًا على وجوه الناس أملاً منهم في أنّ ذلك سيكون مؤشّرًا لتوقّف الحرب ما دام كل طرف قد أصبح في حدوده التي كان عليها قبل بدايتها، أمّا الدمار والخسائر فهي لا تعني شيئًا.

وعندما وصل إلى ساحة الرصافي تطلّع إلى تمثاله الشاهق وهو يقف وسط الساحة، وتمتم مخاطبًا إيّاه:

- مرحبًا يا رصافي، أسمعت بآخر الأخبار؟ لقد كنت تقارع وتهجو وتناطح الوزراء والمسؤولين ولم يسلم منك أحد، كان ذلك زمانك حيث فسحة الضوء وفسحة القلوب، أمّا لو كنت في زماننا لما أبقوا لك لسانًا! سلام عليك! ابق حيث أنت شاهدًا على الحاضر والآتي الذي كل ما أخشاه أن يكون أعظم!.

وتمعّن في التمثال أكثر وتساءل في سرّه:

- هل كان اختيار مكان التمثال هنا متعمّدًا إذ هو لا يبعد كثيرًا عن محلّة البغاء الشهيرة التي مات في غرفة من أحد بيوتها؟.

وردّد:

- ما لك يا غسّان، لقد أصبحت مرتابًا في كل شيء؟ لماذا تكثر أسئلتك الحارقة بهذا الشكل؟.

وكانت نظراته نحو التمثال قد أكّدت له أنّ الفنّان الذي أنجزه لم يوفّق فيه رغم أنّه من أبرز نحّاتي العراق، وقد واجهه برأيه هذا عندما جمعتهما جلسة قبل أشهر في نادي جمعيّة الفنّانين التشكيليّين.

وقد برّر النحّات ما يمكن أن يسجّل من مآخذ على التمثال بأنّه لم يجد ما يستعين به إلاّ بضعة صور لا تشكّل مادّة مهمّة لصنع تمثال عن إنسان مات قبل أن يولد.

وقال:

– ومع هذا استعنت ببعض من بقي حيًّا من معاصريه خصوصًا بالنسبة لهيئته، وهذا كل ما استطعته.

انسحب من أمام التمثال ودخل مطعمًا يقدّم «الكاهي» مع «القيمر» وطلب صحنًا أتى عليه بتلذّذ.

ثم واصل طريقه في شارع الرشيد متوجّهًا نحو مقهى «حسن عجمي» ليشرب الشاي وربّما يلتقي بأحد معارفه الذين لم يرهم منذ فترة.

وفي طريقه إلى المقهى تطلّع إلى واجهات مخازن تعرض قمصانًا وبنطلونات وأربطة عنق وأحذية.

وتوقّف أمام واجهة مخزن مختصّ ببيع القمصان، وعندما قرأ الأسعار انسحب بهدوء.

كان بحاجة إلى وجبة جديدة من القمصان والأحذية والملابس الداخليّة، وما حمله من لبنان قد استهلك لكن مردود كتاباته يبقيه على الحافّة، حافّة الجوع، حافّة العراء، حافّة الفقر.

وواصل الخطو ليجد نفسه وجهًا لوجه مع معن الماجد، ولكنّ المفاجأة أنّه كان يرتدي ثيابه العسكريّة، وقد بان فيها أكثر نحافة وأكثر طولاً، هتف فيه:

– أكيد أنّك وضعت خطّة تحرير الفاو؟.

وخفض معن صوته حتى كاد يقترب من الهمس:

– الخطط الكبيرة لا يضعها إلاّ هو، أما سمعت بالأخبار؟ وأشار بيده إلى أعلى ثم ابتسم وقال:

– أنت أوّل من يراني جنديًّا، ما رأيك بي؟

– صحيح أنّك جندي، ولكنّك تبدو لي وكأنّك هارب من المعركة!.

فضحك وشاركه غسّان ضحكه، ثم قال:

– أعرف أنّ أبا ريتا يدفع أيّ مبلغ لمن يصوّرني له بهذا الزيّ، أمّا إذا أفلح وقادني إلى الكافتريا بكامل قيافتي فربّما يقدّم له سيّارة مكافأة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- بسيطة، سنختطفك كما أنت ونحملك إليه.

وكان معن الماجد كعادته يحمل رزمة من الكتب والصحف تحت إبطه. وجّه السؤال إلى غسّان:

- ما الذي جاء بك إلى هنا؟

- لم أنم، صحوت مبكرًا إثر الضجيج الذي أعقب إعلان تحرير الفاو، ركبت الباصّ، ونزلت في شارع الرشيد، تعال رافقني إلى مقهى حسن عجمي.

نظر في ساعته ثم قال:

- لا بأس، لديّ بعض الوقت.

وبحثا عن مكان فارغ ليجلسا، وكان معن زبونًا دائمًا لهذا المقهى، فعندما أمر غسّان النادل بأن يأتي بشايين التفت النادل نحو معن وهو يسأله:

- بدون سكّر كالعادة؟

فأجابه معن:

- نعم.

ثم استكمل الحديث مع صاحبه عندما قال له:

- في أوقات الظهيرة إذا كنت متعبًا أندسّ هنا لأقرأ وألتقي ببعض الأدباء الفارّين من بيوتهم ومشاكلهم الأسريّة.

وحدّث غسّانًا عن مشاريع ثقافيّة يعدّ لها، إنّه دائمًا مزمع على القيام بشيء، أفكاره كثيرة ولكنّه لا ينفّذ إلاّ القليل منها، حتى أنّ أحد أصحاب دور النشر اللبنانيّة الذي يتعاون معه عندما يطلّ عليه معن كلّما زار بغداد يبادره بالسؤال:

- هيّا أخبرني عن كل مشاريعك أوّلاً، لننتقل بعد ذلك إلى أحاديث أخرى.

وعندما وضع النادل أمام كل منهما شايه ردّد:

- وبدون سكّر للأستاذ معن الماجد كاتبنا القدير.

ممّا جعل غسّانًا يعلّق:

- يقال إنّ المصابين بالسكّر تقلّ حوافزهم الجنسيّة وأشياؤهم لا تنهض بكلّ همّتها بل بمجرّد تحرّك نسبي؟.

فانطلق معن ضاحكًا وكان قد خلع «البيريه» العسكريّة ووضعها فوق ما حمل من كتب ومجلاّت.

- اطمئن يا عزيزي، ما زال رغم السكّر والعسكريّة وأشياء أخرى كالدرنفيس، مفكّ قدير على حدّ تعبير صديقنا عدنان العزيري.

- ولكن عدنان مدّع. فمفكّه سيّئ الصّيت والفعل والسمعة، إنّه «درّ نفيس» من شمع يذوب من الحرارة فكيف يدخل في...

وعادا إلى الضحك، كأنَّ هذه السخرية الفاقعة التي تعتمد الجنس هي الآن وسيلة شعب كامل في مواجهة محنته ومصائبه، ما دام الاقتراب من أيّ شخصيّة سياسيّة ضمن تشكيلة النظام عقوبتها الإعدام وفي «قوانين» منشورة، هم هنا ليسوا مثل الشعب المصري الذي أصبح عبقريّ النكتة السياسيّة التي ليس بمقدور أحد أن يواجهها حتى النظام نفسه.

نكتة واحدة تردّدت هنا وقد ألبسوها رداء المغنّي الشعبي ذائع الصيت سعد الحلّي، ولكن تعميمًا نزل على كل أجهزة الحزب الحاكم يمنع تداولها، ومن يخالف ذلك يعرّض نفسه لأقصى العقوبات وكان أوّل من التقطها من فم قريب له عدنان العزيري، وفيها أنَّ المغنّي سعد الحلّي المشهور بغلمانيّته قد جنّد في الجيش الشعبي وأُرسل إلى البصرة وهناك فرّ وبحثوا عنه فلم يجدوه فجاءت فكرة في رأس آمر المعسكر ونفّذها فورًا، وبينما كان أحد القادة يفتّش المواقع التي عهد للجيش الشعبي أمر حمايتها إذا به يفاجأ بمرأى بعض الشبّان الذين خلعوا سراويلهم وعرّوا مؤخّراتهم ممّا أثار استغرابه فسأل آمر المعسكر عن هذا فأجابه:

- سيّدي، لقد هرب سعد الحلّي، وما تراه مجرّد كمين للقبض عليه.

نكتة حادّة كالمشرط، ومع هذا انتشرت بسرعة ومن يسمعها في الموصل يستطيع سماعها في الحلّة أو العمارة في الوقت نفسه، قال معن:

- مشكلة الفاو انتهت، ولكن بعد أن قدّم العراق أكثر من مئة ألف شهيد، هذا ما ردّده أحد الضبّاط. وربّما كان الرّقم مشابهًا لدى الجانب الإيراني. وكنت قبل قليل في الجريدة علمت أنّ عشرات الدعوات المفتوحة وجّهت لرجال الصحافة والإعلام والأدب لزيارة العراق ومعاينة أرض الفاو المحرّرة، وقد عرفت من الأسماء صديقنا الشاعر رعد الطويل.

وأشار إلى النادل أن يأتي إليهما بشايين جديدين بتلويحة من وسطاه وسبابته وواصل:

- كنت على حقّ عندما أخبرتكم بأنّ وجودي في الجيش سيحسم المعركة، هذه الفاو وقد تحرّرت، وبعدها ستتوقّف الحرب حتمًا وإن اشتدّ أوارها.
- لا أحد يحزر ماذا يُبيِّت الإيرانيّون؟
- لقد استعادوا ما خسروه، وكذلك العراقيّون، الحال هنا لا غالب ولا مغلوب حتى إن قال إعلامنا شيئًا غير هذا. خذ أيّ جريدة صادرة اليوم لتقرأ أخبار النصر، ولكنّه ليس نصرًا. فأيّ نصر في أن تستعيد أرضًا لك احتلّها من تحاربه؟.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- أقول لك يا معن إنّني وجدت نفسي في حالة خاصّة بل ونادرة!
- على فكرة ستكون الصفحة الثقافيّة لجريدتنا يوم غد خاصّة بهذه المناسبة، لماذا لا تكتب لي شيئًا؟.

وكأنّ ما طلبه صاحبه قد فاجأه، لذا قال:

- ربّما لا أستطيع كتابة شيء وأكتفي بأن أعيش الحالة، ومع هذا سأحاول.. فالفاو فاو العراقيّين كلّهم، والعراق عراق العراقيّين كلّهم بمعزل عن ورطة الحرب ومأساتها.

وهنا قدّم له معن ورقة بيضاء ورفع عن قلمه الذي استلّه من جيبه غطاءه واقترح:

- هيّا اكتب، ما دمت في الحالة.
- في المقهى؟
- ولماذا لا؟ أنسيت سنوات زهونا الستّيني ألم نكن نكتب في المقاهي؟ ومكاتبنا طاولات مقاهي البلديّة والبرلمان وعارف آغا وحسن عجمي أو مقهى المعقّدين في الباب الشرقي؟
- ياه! ولكن أين تلك المقاهي؟ لقد راحت كلّها ولم يبق غير هذا المقهى الشائخ؟ يا لمقاهينا تلك حيث ولدت أهمّ حركة أدبيّة ما زال حاضرنا الأدبي في أنبل نصوصه وأثراها يعيش على رحيقها النابض الحيّ؟
- ثم فسدنا بعد ذلك؟
- الصحيح أن تقول أفسدوا بعضنا؟.

وصفن معن قليلاً كأنّه يفكّر بما سمعه، ثم هزّ رأسه موافقًا وقال:

- صدقت.

ووجد غسّان نفسه يعثر بعض الكلمات المتوهّجة على الورقة ثم سلّمها إلى صاحبه الذي سرعان ما مرّر عينيه عليها، وبعد أن فرغ هتف:

- رائع يا غسّان، والله، نحن الأصلاء، نحن الأرومة، وإلاّ لما بقينا نكتب.. والآن أستأذنك!
- إلى أين؟
- لديّ موعد في الإذاعة، ولكن قبل ذلك سأمرّ بمكتبة عبد العزيز القديفي لأستبدل هذه الكتب فلديّ نسخ أخرى منها.

- ولكن انتبه لنفسك فأنت ترتدي الزيّ العسكري، ومن يدخل مكتبة القديفي غير آمن.

وفهم ما لمح إليه، ولذا انسفحت الضحكة من فمه سخيّة.

* * *

يوم ذهب إلى بيروت للعمل فيها أوّل مرّة مضى وكأنّ لديه موعدًا ما هناك.

فبيروت ليست أيّ مدينة، فهي قريبة منه، ويوم دخلها أوائل السبعينيّات زائرًا لبضعة أيّام أحسّ وكأنّه يعرفها أو أنّه قد رآها من قبل.

وهناك أطلق قولة صار يردّدها في الأحاديث التي تجري معه بأنّه يؤمن بالحبّ من النظرة الأولى، فهي كاللّسعة الأولى، ولذا فالمدن بالنسبة له كالنساء إمّا أن نحبّهنّ أو لا نحبّهنّ.. أمّا حبّ المعاشرة والاعتياد فهو ليس حبًّا، الحبّ هو الاتّقاد، الحريق، ونعيمه في كل هذا. يحسّ أنّه مسيّر نحو بيروت بعشق غامض لم يسترجع مسوّغاته ولا حيثيّاته، هو عشق وكفى.

لكنّه بشكل أو آخر هارب من عالم بدأ يضيق به، وعلائق آخذة في التداخل، أكتاف تتدافع، ومواقع لا بدّ أن تملأ بأيّ وسيلة حتى لو تم ذلك على جثث الآخرين.

هناك تسمّمٌ يسري ببطء في الجسد العراقي، وأراد بشكل أو بآخر أن يبتعد عن هذا الذي يجري حتى لو كان بقبول العمل في بلد يحترق.

قال له الدكتور زيد الحبيب:

- لو انتظرت لربّما وجدوا لك مكانًا آخر؟
- عصفور باليد خير من ألف على الشجرة.
- أنت مصرّ إذن؟
- ليس أمامي حلّ آخر، ولذا سأذهب والذي يأتي أنا على استعداد لتقبّله، لم يجبرني أحد على هذا، عرضٌ قبلتُه هذا أهمّ شيء.

وعندما غادرها بعد ثلاث سنوات ومضى نحو عمان انتابه إحساس بخسارة شيء عزيز عليه. وأحسّ بأنّه أخطأ عندما امتثل لما همس له به موظّف مخضرم في السفارة:

- ما دمت قد عملت في منطقة موبوءة وفق المصطلح الرسمي لمدّة ثلاث سنوات أصبح من حقّك الانتقال إلى بلد آمن.

وهكذا تمّ كل شيء عندما قام بزيارة قصيرة إلى بغداد. ثم يحوّل إلى بيروت ثانية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكأنّه ذهب للقاء حنان عوّاد حبّه وشاغله. وعندما التقاها ذلك اليوم تلاشى ندمه.

لكن وقائع موته الذي كان من الممكن أن يحصل ما زالت ماثلة كلّها في ذاكرته، يختضّ لها مثل سعفة، وينحبس الهواء في صدره وهو يتساءل:

- كيف نجوت؟

ويستكمل سؤاله بجواب سمعه في أدبيّات كرة القدم هو اللعب في الوقت الضائع.

هذا هو حاله، لاعب في الوقت الضائع، وكان من الممكن أن يضيع هو ويصبح مجرّد حكاية عن شاعر قتل في احتدام حرب، مثل تلك الأسماء التي قتلت هناك وراحت وعلى رأسها توفيق يوسف عوّاد الذي هرب من القذائف التي هدّت بيته الشتوي قريبًا من منطقة المتحف إلى منطقة بعبدا حيث بيت ابنته المتزوّجة من سفير إسبانيا في بيروت، فنزلت على هذا البيت قذيفة قتلته ومعه زوج ابنته السفير وكذلك ابنته وطفلها الحديث الولادة فكان ما حصل مجزرة كبيرة بكى من أجلها لبنان كله.

وقتها صرخ غسّان:

- ليته بقي في بيته ولم يتحرّك منه.

غسّان يتذكّر ذلك البيت، لقد زاره مرّة واحدة فقط، لبّى دعوة عشاء أقامه له، وكان من ضمن المدعوّين جنان عوّاد ونصري الأسمر.

كانت نصيحة توفيق لهم بأن تنطلق سيّارتهم بسرعة، ولا تتوقّف مهما كان السبب.

وقد نقل الملاحظة لنصري الذي كان يعرف الطريق إلى الدار جيّدًا.

وهكذا انطلقوا، ومرّت بهم السيّارة أمام عمارات مهدّمة ودور مهجورة، وسط ظلام دامس، وكأنّهم في أحد أفلام الرّعب.

وعندما وصلوا استقبلهم بابتسامته المرحّبة الواضحة، وبدا وكأنّه ما زال سفيرًا بأناقته الجميلة التي لم تسلبها منها قرابة الثمانين سنة أمضاها في هذا العالم.

كان يعيش وحيدًا، تسهر على خدمته خادمة سيرلانكيّة من اللواتي تعجّ بهنّ بيروت، تجلبهنّ شركات خاصّة غير آبهات بالحرب ما دام العمل متوفرًا والأجر مقبولاً.

لقد التحق بهم مدعوّون آخرون جاؤوا من منطقة بيروت الغربيّة ليجتمعوا في هذه الشقّة التي تقع في الطابق الثالث من عمارة مهجورة لم يبق فيها غيره.. عمارة تقع على نقاط التماس وفق قاموس المتحاربين، وعندما أطلّ غسّان من شرفتها وجد أنّ شرفة الشقّة المقابلة قد سقطت كلها. وعندما سأله عنها أجاب ساخرًا:

- صاروخ ابن كلب هدّها، والحمد لله أنّها فارغة.

مّما دعا غسّان لأن يسأله باستغراب:

– وأنت ما الذي يجبرك على البقاء هنا؟

– هذا بيتي وظروفي الصحيَّة تحتّم عليّ أن أبقى هنا في الشتاء.

بعدها قام بزيارته الأولى لبغداد ملبيًا دعوة لحضور مهرجان المربد فيها، وكانت المفاجأة له بمنحه جائزة العراق للقصّة والرواية، وقد تمّ توسيمه في بغداد، وكان غسّان وراء هذا الترشيح إذ إنّه الأجدر به وبالجائزة.

ذلك الفوز أصبح حدثًا في عدد من أجهزة الإعلام اللبنانيّة، حيث اعتُبر التفاتة مهمّة إلى أحد أهمّ كتّاب القصّة والرواية الروّاد في أدبنا العربي، صاحب «الرغيف» الرواية الفذّة التي سبقت زمنها حيث أنجزها عام 1939.

* * *

عندما اندلعت حرب الجبل كانت أسرة غسّان معه، ولكنّ القصف المتواصل أصاب ابنته الصغرى بحالة ذعر، وتواصل بكاؤها حتى اهدّت تعبًا فغفت، لكنّها نهضت مذعورة بعد وقت قصير.

واقترح على زوجته أن تنتقل هي وابنتاهما إلى الملجأ الذي يقع في العمارة المقابلة.

وقد لبّت اقتراحه، لكن أصوات القذائف ظلّت تتردّد مّما جعل حالة الطفلة تسوء الأمر الذي جعله يخشى ما يترتّب عليها من مضاعفات.

ولّما كانت بيروت الغربيّة في أمان من القصف ارتأى أن ينقل أسرته إلى أحد فنادقها ريثما تهدأ الأمور، وهكذا اكترى سيّارة تاكسي توجّهت بهم إلى هناك حيث حجز لهم غرفة في فندق نابليون.

ثم ودّعهم بعد أن ترك لهم كفايتهم من النقود وعاد إلى مقرّ عمله.

وعند المساء اشتدّ القصف، ولكنّه بقي في شقّته، ولم يغادرها إلى الملجأ، إذ لا يمكنه أن يقوى على رؤية الأطفال والنساء مكدّسين تحت أجنحة الخوف في ذلك الملجأ العفن الذي لا يدخله الهواء ولا الضوء واستعان الناس بالشموع لإنارته.

يومها أدرك غسّان أنّ الأمّ هي الأمّ والأب هو الأب والخوف هو الخوف، توصّل إلى هذا وهو يراهم مكدّسين في الملجأ يتمتمون بحروف الصلاة، كلهم مسيحيّون تقريبًا، ولكنّهم لبنانيّون وعرب كذلك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والألم قد ساوى بين الجميع، بين من يسكن الضاحية أو المتن، زحلة أم طرابلس، بعلبك أم عاليه.

والموت يهدّد الجميع، والقذيفة لا تفرّق بين دين ودين ولا بين طائفة وطائفة.

لذا نقل فراشه إلى المدخل، ومعه طاولة صغيرة لا يغادرها راديو ترانزستور هو نافذته على الدنيا، منه ينصت إلى ما يجري عندما تخمد حتى أنفاس التليفون.

مدخل الشقّة هو الأكثر أمانًا وإذا ما ضرب صاروخ ضالّ أحد جدران الشقّة الخارجيّة يحتاج إلى اختراق ثلاثة جدران من الحجر والإسمنت حتى يصله، وهو ما لم تستطع صواريخ «غراد» الروسيّة أن تفعله.

وذات مرّة نسي غسّان نظّارة القراءة في غرفة نومه المواجهة للمدرسة الحربيّة في الفيّاضيّة.

وقد بُنيت العمارة التي تقع فيها هذه الشقّة أيّام سلام لبنان، آنذاك لم يكن أحد يظنّ أنّ هذا البلد الآمن سيصبح ساحة لتقاتل هدّم كل شيء وأتى على الألوف موتًا وتهجيرًا. وإلاّ لما كانت نوافذها واسعة بهذا الشكل وكلّها محاطة بالزجاج.

وقد كان الجوّ الأمني مرتبكًا والقصف قد بدأ، وكان بحاجة لهذه النظّارة لتعينه على قراءة كدس كبير من الصحف والمجلاّت التي يتابع ما تكتبه عن الحرب العراقيّة الإيرانيّة ليبرق بملخّصات لها إلى مركز عمله ببغداد.

ولذا أسرع حافيًا وجاء بها، ولكن بعد ذلك بثوان فقط سقط صاروخ على مسافة ثلاثة أمتار من العمارة، فانغرس رأسه هناك مسبّبًا حفرة هائلة.

لكن سقوطه أحدث ارتجاجًا في العمارة والعمارات المجاورة ممّا تسبّب في تحطّم زجاجها، ولم تبق زجاجة ثابتة في مكانها.

أمّا غرفة نومه فقد انطلقت شظايا الزجاج منها كأنّها وابل من السكاكين فخرّبت كل ما في الغرفة من أثاث وتسبّبت في إحداث ثقوب في خزانة الملابس.

وعندما مرّت لحظات هدوء استغلّها وذهب ليطّلع على ما جرى فوجدها مجزرة حقيقيّة، وآنذاك تساءل بكثير من الرعب:

- ماذا لو أنّ الصاروخ سقط وأنا في الغرفة؟

وهزّ يده ساخرًا:

- لذهبت ضحيّة هذا الموت المجّاني!.

ثم حمد الله لأنّه نقل أسرته إلى بيروت الغربيّة. لكن زوجته وبعد أربعة أيّام اتّصلت به لتقول له:

- تعال وأعدنا إلى بيتنا، لقد ضجرنا! وعندما أمدّ رأسي من النافذة أجد أكداس القمامة وقد كادت أن تصبح بعلو الطابق الأوّل.

و لم يخبرها بما حصل، وأنّ صاروخًا سقط تحت العمارة حتى لا تُصاب بالهلع.. وامتثل لما أرادت إذ لم يجد فائدة في مناقشتها.

استأجر سيّارة تاكسي، و لم يستقلّ سيّارته الخاصّة، واتّجه إلى بيروت الغربيّة.

فرحت به ابنتاه وضمّهما إليه: قالت زوجته:

- ليكن حالنا مثل حال الناس الذين هناك إلى أن نجد فرصة للسفر إلى العراق.

كان المطار متوقّفًا عن العمل آنذاك والوصول إلى مرفأ بيروت صعب وخطر من أجل ركوب باخرة باتّجاه قبرص، فالقذائف أشعلت الساحل كله وجعلته منطقة محرّمة على العابرين.

وعندما أرادوا العودة إلى بيروت الشرقيّة نادى على سائق سيّارة تاكسي متوقّفة أمام الفندق، وأبلغه عن وجهته وإن كان مستعدًّا لنقله، بعد ذلك اتّفق معه على السعر.

قال للسائق إنّ طريق الضاحية قد ينقطع فجأة ولا يمكن عدّه آمنًا، لكنّ السائق راح يقسم بأنّ الطريق سالك، وليس هناك أيّ خطر فيه، وأنّه قد مرّ من هناك قبل نصف ساعة.

وكانت الحواجز قد بدأت تظهر بين فترة وأخرى في هذا الطريق رغم أنّ الجيش لم يسمح بها ويوجّه نيران أسلحته باتّجاهها.

"حواجز طيّارة" وفق المصطلح الشائع في قانون الحرب اللبنانيّة، أي حواجز وقتيّة، تنسحب عندما يكون هناك أيّ خطر على أفرادها.

أو أنّها تنتصب لإلقاء القبض على فئة محدّدة من المارّين لتجري المساومة عليهم بين الفئات المتقاتلة، ولذا ليس بمقدور المرء أن يفقه معنى دقيقًا لكل ما يقدّمه المشهد اليومي الساخن.

وكان غسّان في تأكيده على السائق مستجيبًا لتحذير مسؤولي الأمن في السفارة، رغم أنّه شخصيًّا لم يكن خائفًا بالمرّة لأنّه يحسّ في أعماقه بكثير من الأمان لكونه شاعرًا قبل كل شيء، وجد نفسه يؤدّي مهمّة ثقافيّة وإعلاميّة لبلده رغم أنّ هناك خطأ في توقيت هذا العمل.

لكن مسؤول الأمن في السفارة لا يعترف بآراء كهذه ويقول له:

- أعرف أنّك محبوب في لبنان، وصداقاتك واسعة.. ولكنّك قد تصبح من خلال موقعك الوظيفي هدفًا لا سيّما وأنّ بلدك في حالة حرب مع إيران، التي لها امتداد من التأييد هنا لا يمكن الاستهانة به.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وهكذا جلس بجانب السائق، وجلست زوجته وابنتاه في القسم الخلفي من السيّارة، وقد وضعت جوارها حقيبة ليست بالكبيرة فيها الحاجيّات التي حملتها معها.

وانطلقت السيّارة حتى دخلت في كثافة طرق الضاحية التي تعجّ بالحركة رغم كل شيء.

وتباطأت السيّارة وهي تشقّ طريقها بصعوبة وسط الزحام وفوضى المرور.

وكانت صور الإمام الخميني الكبيرة تملأ الجدران، وبينها واحدة كبيرة جدًّا علّقت على واجهة عمارة ناشها القصف. وكان فيها يرفع يمناه محيّيًا.

ولمن يتمعّن الطريق يجد أنّ القصف لم يستثنِ عمارة وآثاره بادية على كل المباني.

كما كانت أكياس الرمل قد صُفّت على هيئة متاريس عند مداخل العمارات والمحلاّت لغرض تلافي الشظايا التي تتسبّب في قتل العشرات من الأبرياء.

وبعد أن بدأت السيّارة تخرج من الاكتظاظ وسط شتائم السائق التي يطلقها عارية دون مراعاة سيّدة تجلس في سيّارته:

- كس أخت.. أخو الشرموطة.. عكروت، عرص.. وشتائم أخرى من هذا القبيل يحفل بها قاموس الشتائم اللبناني الطريف.

وعندما استدارت السيّارة لتدخل شارعًا جديدًا إذا بهم على مقربة من حاجز طيّار، حيث أربعة مسلّحين يرتدون الملابس العسكريّة ويضعون على وجوههم أقنعة شبيهة بأقنعة الغوص.

كان حاجزهم كومة عالية من الرمل يبدو أنّ سيّارة حمل قد فرّغتها منذ وقت قصير إذ ما زال الرمل نديًّا.

ولم يعد بإمكان السائق المضي ولا الرجوع إذ اصطفّت وراءه سيّارات أخرى، كما كانت سيّارتان أخريان تقفان أمامه.

ووجد غسّان نفسه أمام مشهد محيّر ومرعب في الوقت نفسه، فقد يصحّ تحذير مسؤول أمن السفارة، ويجدون فيه صيدًا ثمينًا، لا سيّما وأنّ العراق قد أعلن منذ أيّام عن اعتقال وزير النفط الإيراني الذي كان في زيارة يتفقّد خلالها بعض حقول النفط القريبة من جبهة القتال.

وجاءته ضحكة قاومها وهو في مشهد الرعب هذا. قال في نفسه:

- قد يطلبون مبادلتي بوزير النفط.

وكان السائق حائرًا هو الآخر ولم يعرف كيف يمكن الإفلات من هذا الفخّ.

تمتم غسّان مخاطبًا السائق بكثير من الهدوء وضبط النفس رغم خوفه الكامن:

- لقد حذّرتك، كأنّني أعرف ما سيحصل، ما ذنب هذه المرأة وابنتاها ودعك منّي لتسلّمها إلى هؤلاء الذين أجهل شخصيًّا من هم؟ وماذا يريدون؟.

وصار السائق يردّد بكثير من الندم:

- زعران.. عكاريت.. لكن انظر، الحاجز جديد، لم يمرّ عليه وقت!.

وانفجر صوت زوجته مردّدًا الأدعية التي تخلطها بالآيات القرآنيّة، وهي تحاذر من أن لا ترى الطفلتان أقنعة المسلّحين حتى لا يصيبهما المشهد بمزيد من الذعر.

كان غسّان يحاول إيجاد حلّ يحسم فيه الأمر بسرعة إذ لم تبق غير سيّارة واحدة تفصل سيّارتهم عن الحاجز.

وهنا تذكّر مسدّسه الإسباني الصنع والمعبّأ بالرصاص. لقد فرض عليه مسؤول أمن السفارة حمله رغم أنّه قد قال له بأنّه لم يمسك في حياته بأيّ قطعة سلاح، وآخر دجاجة ذبحها عندما كان في المدرسة الابتدائيّة، ولم ينم ليلته بعد ذلك وهو يراها ترفس ودمها ينسكب من عنقها.

- إنّها أوامر وعليك إطاعتها، ثم إنّ استعماله سهل، يسمّونه أبو البكرة عندنا، كل ما تفعله إذا وقعت في ضيق أن تضغط على الزناد فقط.

ورغم أنّ المسدّس في جيبه الآن إلاّ أنّه لم يحمله إلاّ عندما توجّه لجلب أسرته، وقبل هذا كان ينام في درْج مكتبه.

ولم يفكّر في استعماله عدا إطلاقه لرصاصة واحدة على سبيل التجربة ليس إلاّ.

هذا المسدّس الذي يخافه نصري الأسمر، وعندما رآه لأوّل مرّة في الصندوق الصغير المجاور للمقود صرخ:

- لن أصعد إلى سيّارتك ما لم تبعد هذا الشيء عنها.

وكاد أن لا يحمله وهو يتوجّه إلى بيروت الغربيّة، ولكنّه تذكّره بعد أن غادر شقّته فعاد ثانية ليحمله.

في تلك اللحظة المحتشدة بالتوقّعات لا التي تليها كان عليه أن يقرّر أمرًا.

هل يطلق النار على أحدهم؟ إن أفلح في قتله فإنّ الرشّاشات الثلاثة الأخرى ستفرغ كل خزينها من الرصاص، وسيصبح هو وأسرته والسائق في خبر كان.

تحرّكت السيّارة بعد أن أصبح المجال لها، وتقدّم أحد المسلّحين إلى السائق بالسؤال:

- إلى أين؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- الحازمية.

ثم استدار ليصبح في جهة غسّان وهو يسأله:

- بطاقتك؟

وقدّم له البطاقة التي تزوّد بها وزارة الخارجيّة اللبنانيّة الدبلوماسيّين العاملين في لبنان.

تطلّع إليها ثم أعادها إليه وهو يواصل السؤال بهدوء أعصاب يداري فيه ارتباكًا يخفيه وراء القناع:

- وهؤلاء؟

- عائلتي.

ثم وجّه كلامه إلى السائق:

- صفّ هناك.

وحرّك السّائق السيّارة ليقف حيث أشار، ومعنى هذا أنّهم قد أصبحوا محتجزين. وبدأت زوجته هي الأخرى تلوم السائق الذي كان يكرّر القسم بكلّ المقدّسات أنّه غير متعمّد في الذي حصل، وحاله الآن مثل حالهم.

وفي الأثناء، جاء مسلّح خامس يجري ووشوش في أذن أحدهم الذي بدا وكأنّه مسؤولهم، فاستنفروا وتركوا السيّارات وبدأوا بإطلاق النار باتجاه هدف غير معلوم، وحصلت حالة هلع بين السيّارات المتوقّفة، إذ قد يصبح ركّابها ضحايا أيّ ردّ على النيران التي صار يصبّها هؤلاء المسلّحون وقد تمترسوا وراء كومة الرمل.

قال السائق:

- لا بدّ أنّ الجيش قد علم بأمر الحاجز.

وسقطت قذيفة على مبعدة منهم وانتشرت شظاياها في المكان حتى كادت إحداها أن تخترق العجلة الأماميّة للسيّارة.

وزاد الصراخ بين ركّاب السيّارات المحتجزة، وتفرّق المسلّحون عن كومة الرّمل، واحتموا في أماكن أخرى ونيران رشّاشاهم ما زالت تلعلع دون أن تكون مصوّبة نحو هدف منظور.

وخطرت لغسّان فكرة نفّذها رأسًا حيث استلّ مسدّسه ووضع فوهته في صدغ السّائق وهو يأمره بأن يستغلّ الفرصة وينطلق وإلاّ سيفرغ كل الرصاص في رأسه.

وحرّك السّائق سيّارته وهو يردّد بهلع:

- أمرك، أمرك.

وانطلق بسيّارته وأفاق السائقون الآخرون من ذهولهم وأداروا محرّكات سيّاراتهم، و لم يعبأ أحد بالاصطدامات التي صارت تحصل بين السيّارات نتيجة ضيق المكان، وأصبح همّ كل واحد أن يجد منفذًا يزوغ منه.

كانت السيّارة التي يستقلّها غسّان وأسرته في مقدّمة السيّارات الهاربة. راح السائق يسلك ممرّات وطرقًا جانبيّة وكاد أن يدهس امرأة عابرة راحت تكيل له الشتائم.

أمّا غسّان فقد أبقى مسدّسه مصوّبًا نحو رأسه، و لم يعده إلى جيب سترته إلاّ بعد أن وصلوا إلى مستديرة الصيّاد ومعنى هذا أنّهم قد نجوا.

لم يتفوّه بكلمة وكان ما حصل كابوسًا مريعًا، أرشد السائق إلى الطريق المؤدّي إلى بيته، وعندما توقّف أمام العمارة نفح السّائق أجرته مضاعفة دون أن ينطق بكلمة. واستيقظ السؤال النائم في داخله:

- ماذا لو انتهيت؟ ولماذا؟ ومن أجل أيّ شيء؟ هل هذا لأنّني أريد أن أظلّ بعيدًا عن وضع يعيشه بلدي ولا قدرة لي على فعل أيّ شيء من أجل إيقاف تردّيه؟.

وتذكّر صورة ماثلة في ذاكرته لزوجة المستشار الصحفي الذي قضى تحت ركام السفارة المنسوفة وهي واقفة بباب مدير حسابات الوزارة ويدها تمسك بأصغر أولادها.

كانت تراجع من أجل استكمال إجراء ما يتعلّق بما حصل له، منحة، راتبًا تقاعديًّا.

ذلك المشهد من الممكن أن تكون عليه زوجته أيضًا. حيث لا أحد يسأل عن أحد. والموت لم يعد إلاّ خبز كل يوم بل كل لحظة! لا يرفّ قلبُ أيّ مسؤول رأفة وعطفًا.

وعندما دخلوا إلى شقّتهم انتبهت زوجته إلى زجاجها المحطّم، وهنا أخبرها بأمر الصاروخ فما كان منها إلاّ أن رفعت صوتها بالصراخ:

- هذه لبنان التي تريدها؟ إذا أحببت أن تبقى فابق وحدك، أمّا أنا فلست على استعداد للبقاء وتعريض حياة ابنيّ للخطر.

وردّ عليها:

- هذا ما فكّرت فيه. ستغادرون على أوّل باخرة تغادر مرفأ بيروت باتّجاه قبرص، معظم الموظّفين لم يأتوا بأسرهم معهم.

وتساءلتْ باستغراب:

- ما الذي يجبرك على كل هذا؟

وأراد أن يقول لها:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- شيء أكبر منّي.

ولكنّه سكت. وبعد لحظات غادر باتّجاه السفارة علّه يجد وسيلة يخرج بها أسرته من قبضة الموت اللبناني.

تذكّر غسّان العامري كل تلك الحوادث التي اجتازها.. وها هو سليم، معافى إلى حدّ ما، حالم إلى أقصى حالات الحلم وذراه.

فرغ من تدبيج بضعة سطور عن تحرير الفاو، لا بدّ أن يساهم.

ولو لم يطلب منه معن الماجد ذلك لما كتب. كل شيء صار هنا تحت الطلب.

طلب من فوق ينزل إلى المنفّذين فيتسارعون من أجل ذلك نشدانًا للرضى وخوفًا من العقاب.

حتى المناسبات الرسميّة أصبحت مثار خوف، وصار الأدباء والفنّانون يتعاملون معها بالهروب من مواجهتها. كأن يهمس أحدهم في أذن صاحبه:

- بعد ثلاثة أيّام ستحلّ المناسبة الفلانيّة، ومعنى هذا أنّ مجموعة من الشبّان الحالمين بأن يكونوا نجومًا إذاعيّين أو تلفزيونيّين سينطلقون من الإذاعة وبمعيّة كل واحد منهم آلة تسجيل صغيرة، ويتوزّعون على المؤسّسات والصحف لأخذ آراء الأدباء والفنّانين بهذه المناسبة، وعندما يقتحم عليك مكتبك واحد منهم فمعنى ذلك أنّك وقعت، وعليك أن تتكلّم لِيُبَثّ كلامك في يوم المناسبة، وبصوتك، ولا مجال للرفض أبدًا.. ففيه نهايتك إذا عاد حامل آلة التسجيل وبلّغ باسم من رفض.

كان بالإمكان قول كلمة في مناسبة عامّة، تأسيس الجيش، عيد الاستقلال، العيد الوطني رغم أنّهم غيّروه فبعد أن كان الرابع عشر من تمّوز التاريخ الذي يحيل على قيام النظام الجمهوري في العراق إلى السابع عشر من تمّوز، أي بعد ذلك بعشر سنوات تامّة عندما ركبوا الدبّابات وارتدوا أزياء عسكريّة ووضعوا على أكتافهم رتبًا وقايضوا من قايضوا، وسيطروا على الإذاعة حيث بثّوا البيان الأوّل.. وفي الوقت نفسه سيطروا على القصر الجمهوري. لكن ما ليس بالإمكان الحديث فيه هو المناسبات الخاصّة جدًّا التي تتعلّق برأس النظام، عيد ميلاده، عيد تسلّمه للسلطة بل وفرض على المدن الأخرى أن تجعل من تاريخ زيارته لها عيدها السنوي.

وغسّان العامري لا يحبّذ الحديث في مناسبات كهذه، كأنّ أيّ كلمة يتفوّه بها ابتزاز له، استنطاق مع تعذيب، قيء يخرج من الجوف مرًّا.

مرّة قال لعدنان العزيري الذي تنتابه نوبات جبن فيكتب أو يتفوّه بكلام لكثرة تكراره أصبح متشابهًا إن نطق به أديب أو معلّم أو عامل بناء، لا بدّ من (حفظه الله) أو (الله يحفظه) والسلام، وبكلام كهذا تبرّئ نفسك ما دمت متّهمًا على الدوام:

- أليس هذا الذي يحصل يجعل المرء على حافّة فقدان ما تبقّى في رأسه من عقل؟ أناس نهبوا السلطة وسمّوها ثورة كأنّ شعبًا بأكمله ساهم فيها وأراد ذلك. هيّا صفّقوا وصفّق من صفق، ثم جاءت الجبهة، يا سلام! والسؤال ماذا لو فشل انقلابهم؟ هل ستبقى رؤوسهم على أكتافهم دون أن تتطاير؟
- ولكن مغامرتهم نجحت؟
- قل مقامرتهم، ثم قبلناهم، واقتربنا منهم جدًّا، تعاونّا من أجل العراق، ثم اكتشفنا أنّهم يبحثون عن خدم لا عن كتّاب، ووقفنا أمام حالة ملتبسة عندما رفعوا شعارهم الذي يسلبك وطنيّتك ويجعل مقياسها الامتثال لهم، وهو أنّ الولاء قبل الكفاءة؛ فحصلت الكارثة عندما امتلأت السفارات والوزارات بالأمّيّين ما دام ولاؤهم مضمونًا!
- هو كَلَبُ الزمان علينا يا غسّان.

قالها عدنان بفجيعة وهو يصفّق بيديه، ممّا شجّع غسّانًا على مواصلة ثورته وهو يضرب براحة يده على ساقه، بينما يقود عدنان السيّارة بهدوء دون أن يدري إلى أين سيتوجّهان:

- ها هم يجثمون على صدورنا منذ قرابة الربع قرن، الوجوه هي هي، حتى كادت أن تتحوّل إلى مومياءات، ارتدوا الزيّ العسكري ومنحوا أنفسهم أعلى المناصب العسكريّة، وزيّنوا صدورهم بالنياشين، وتحوّل راكبو الدرّاجات البخاريّة في مواكب الحماية إلى جنرالات بدون أن يروا كلّيّة عسكريّة، ولحق بهم الرعاة وأبناء العشيرة. أسكتونا وكأنّ المطلوب منّا أن نمتثل، ننفّذ. لقد حلّوا بديلاً عن شعب، يفكّرون نيابة عنه، يختلفون مع هذا ويتّفقون مع ذاك.. ونحن غائبون! أمّا إذا لحقت زيادة بمرتّب مثلاً فهي «مكرمة»، وعلينا الابتهال لمن منحنا إيّاها فكأنّها من إرث أجداده!.

وكان جواب عدنان:

- مرّة قرأت بيتًا من الشعر، وحفظته، لكنّني لا أعرف قائله ولا هي المناسبة، وأشتهي الآن أن أتفوّه به؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- تفوّه أيّها المفوَّه.

- إذا ذهب الحمار بأمّ عمرو

فلا رجعتْ ولا رجع الحمارُ

وهنا ضحك غسّان واستعار مقولة عدنان ليرميها في وجهه:

- أنت خوش طيز.

***

كانت حالات التفجّر هذه مهمّة لغسّان العامري، ومن حسن حظّه أنّ له بعض الأصحاب الذين لهم الشعور نفسه، لكنّ الخوف يكمّ أفواههم فيتحوّلون إلى ما يشبه البهائم العجماء. تموء أو تثغو، هذه حدودها، لكنّ الهمس يستعر ليكون البديل.

دار ودار في شارع الرشيد ثم توجّه نحو الباب الشرقي ليستكمل دورته في زيارة المكتبات الثلاث الشهيرة هناك التي أقامها كل من هاشم وبنّاي فجاسم المطير.

وقد حثّ خطواته واعدًا نفسه بلقاء عبّاس السيّد الذي يظلّ يحوم في تلك المنطقة بعد أن يغادر بيته صباح كل يوم.

انتبه غسّان إلى أنّه لم يَرَ صديقه طارق المنصور منذ فترة، وكان من عادته أن يمرّ به بين فترة وأخرى عندما يكون في طريقه إلى مكتبه الذي يتواجد فيه عادة في فترة ما بعد الظهر، أمّا في النهار فهو يدور بين دوائر الدولة والمحاكم مترافعًا أو متابعًا.

وكانت قدرته على الحديث وذكاؤه قد جعلا منه محاميًا ذا اسم بين محامي بغداد.

وكان غسّان أحد المؤمنين بقدرته لذا جعله محاميه في قضيّته مع زوجته.

لكن طارق المنصور آخَذَه لأنّه تعجّل أمر الطلاق ولم يترك معاملته تأخذ كل مراحلها القانونيّة.

لقد سلك غسّان أقصر الطرق من أجل أن ينهي هذه المسألة التي أقلقه التسويف والتأجيل فيها، مادام قد اتّخذ قرار الطلاق وأثناء ذلك كان يُستدعى بين فترة وأخرى من قبل باحثات اجتماعيّات، وهنّ إمّا عوانس أو مطلّقات عادة ومن النادر أن تكون واحدة منهنّ تعيش حياة زوجيّة مستقرّة.

وكنّ يقدّمن له محاضرات عن فوائد الحياة الزوجيّة، وأنّ الخلافات مهما كانت يجب أن لا تكون سببًا في الطلاق الذي هو أبغض الحلال عند الله.

كان يستمع إليهنّ وهنّ يتبارين في حديثهنّ عن الأسرة التي هي عماد مجتمع الثورة - هكذا قالت إحداهنّ - على الرغم من معرفته أنّ معظم قياديّي الصفّ الأوّل في الحزب الحاكم قد سمح لهم الرئيس بالزواج من فتيات صغيرات وجميلات شريطة أن يبقوا على زوجاتهم السابقات وأولادهنّ ويهيّئوا لهنّ البيوت المناسبة والمصروف اللائق.

لقد منع تعدّد الزوجات قبل قيام الحرب العراقيّة الإيرانيّة، وعندما كثر عدد الأرامل صدر قرار بالسماح للمتزوّج بأن يتزوّج من أرملة شهيد شريطة موافقة زوجته الأولى، ثم ألغي هذا الشرط بعد أن تكاثر عدد الأرامل، ليصل إلى السماح بالزواج من زوجة ثانية دون الاهتمام إن كانت زوجة شهيد أم لا شريطة أن يقدّم الراغب في الزواج شهادة للمحكمة تثبت أنّه مؤهّل لفتح بيت ثان.

وازداد الإقبال على زوجات الشهداء عندما صرن يحصلن على مبلغ مالي وراتب تقاعدي وسيّارة «فولكس واغن» برازيليّة، تنضاف إلى هذا قطعة أرض لزوجات الضبّاط الكبار.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكان في طليعة طالبي الزواج منهنّ أشقّاء أزواجهنّ وقد ترتّبت على ذلك مشاكل اجتماعيّة. فقد يأتون بجثّة ممزّقة أو متفحّمة على أنّها جثّة فلان وينصب مجلس العزاء له وبعد أقلّ من عامّ تتزوّج زوجته من آخر وتنجب منه. وإذا بالزوج يظهر من جديد، في رسالة منه عن طريق الصليب الأحمر الدولي ليعلم زوجته أنّه حيّ وأنّه وقع في الأسر. لكنّه قد يأتي بشكل مفاجئ إثر عمليّة تبادل أسرى أو هروب، فيجد زوجته في عهدة زوج آخر ولديها أبناء منه، وكان القضاء الشرعي يقف حائرًا أمام مثل هذه الحالات.

وذكر طارق المنصور عن ضابط عاد من الأسر وعندما اكتشف اقتران أخيه بزوجته انتحر.

واستدرك مذكّرًا بأنّ هذه الحالات تحدث في الحروب وليست غريبة، وحدثت في الجزائر أثناء حرب التحرير. فالحرب ليست بين الجيشين العراقي والإيراني وإنّما هي أيضًا في كل بيت وكل أسرة وكل عشيرة ومدينة وقرية.

وروى طارق المنصور أنّ أبًا قبض عن ابنه الضابط الشهيد الأعزب مبلغًا من المال وسيّارة وراتبًا وشقّة وعرف الرفاه الذي تمنّاه ولكن مقابل دم ابنه. لكنّهم اكتشفوا أنّ الابن لم يقتل والجثّة التي جاؤوا بها لأسرته لم تكن جثّته. وظهر أنّه أُصيب ثم أُسِر وبقي شهورًا في المستشفى قبل أن يبدأ باسترداد عافيته ومن ثم كتابة رسالة لوالده يبشّره فيها أنّه حيّ يرزق.

فما كان من الأب إلاّ أن صرخ بعد أن فرغ من قراءة الرسالة:

- ولماذا لم تمت؟ هل تريد أن تعود حيًّا ليستردّوا منّا كل ما قبضناه ثمنًا لموتك؟ ليتك متّ حقًّا!.

قال غسّان لطارق في فترات نقاشهما حول موضوع الطلاق:

- أنت تؤاخذني لأنّني طلّقت عند شيخ بحضور شاهدين، وبذا اعتبر الطلاق نافذًا شرعيًّا، لقد زهقتُ، أَفهمتْ؟ كفاني كل ما مرّ بي، لا أريد أيّ شيء من أثاث البيت، حتى تعرف ابنتاي عندما تكبران أنّ أباهما بعد أن طلّق أمّهما خرج من البيت بثيابه وكتبه فقط وترك كل شيء من أجلهما.

لكن طارق المنصور قال:

- ولماذا تركت كل شيء؟.
- هكذا.
- كان بإمكانك أن تأخذ شيئًا على الأقلّ لتسدّد به ما لحق بك من غرامات نتيجة هذا الطلاق التعسّفي كما يسمّى قانونيًّا.

- أنا لا أندم على شيء أمنحه برضاي مهما كان ثمينًا، مقدّم الزواج في العقد ألف وخمسمائة دينارًا والمتأخّر ألف فقط، وكل هذا المبلغ لا يساوي ثمن آلة تكييف هواء من الآلات الثلاث التي تركتها في البيت، هذا عدا الأثاث الإيطالي والتليفزيون والفيديو والثلاّجتين والمدفئات والتحفيّات إلى آخره، وهو ما تساوي قيمته المائة ألف دينار وفق تقديرات هيئة المحكمة التي استلمت منّي الدار بحضور محامي طليقتي. أردت أن أكون كما أنا دائمًا كريمًا أمنح برضى.. ولكنّني أندم على شيء واحد فقط أخذته منّي بالسرقة هو السيّارة.

إنّها حكاية تؤرقه فعلاً وتثير تقزّزه، وربّما كانت من الأسباب اللاحقة التي جعلت مجرّد التفكير في الرجوع عن هذا الطلاق أمرًا مستحيلاً.

لقد أقنعته ببيع سيّارته من طراز «تويوتا كورونا أوتوماتيك» الغالية الثمن والمطلوبة بلونها الرصاصي البرّاق، وشراء سيّارتين «فولكس واغن» بثمنها: واحدة له والأخرى لها وسيبقى أيضًا مبلغ من المال تحت أيديهما. لقد لاحقته بلا هوادة، وكان يسوّف ويؤجّل ما دام غير راغب ببيع سيّارته التي هي وبعض الأثاث كل ما عاد به بعد عمل أكثر من سبع سنوات ما بين الأردن ولبنان.

واستغلّت قرب سفره إلى بلغراد لحضور مهرجان شعري. وفي لحظة قرف من إلحاحها وعدها بأن سيفعل ذلك عند عودته، ولكنّها أخبرته بأنّها ستقوم بالعمليّة نيابة عنه، وما عليه إلاّ أن يمنحها توكيلاً ببيع السيّارة.

وتقبّل اقتراحها وسافر وبعد عشرة أيّام عاد ليجدها في انتظاره في المطار وبسيّارة فولكس واغن بيضاء من الطراز البرازيلي الشائع.

وركب بجانبها بعد أن قال لها:

- مبروك السيّارة الجديدة.

ثم سألها:

- هل هذه سيّارتي أم سيّارتك؟

وأجابت بشيء من المكر:

- سيّارتي طبعًا.

- وأنا؟

- تركب معي بهذه أو تأخذها إن لم أكن بحاجة إليها.

وظنّها تمزح فضحك:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- هل هي لعبة استغماية؟
- أبدًا، لقد بعت سيّارتك واشتريت هذه.
- وبقيّة الثمن؟
- ليس هناك بقيّة لك عندي، ما تبقّى أدخلته في حسابـــي بالبنك.

وظلّ محتفظًا بهدوئه وهو يعلّق:

- ولكن هذه خدعة؟

وردّت متهكّمة:

- سمّها ما شئت.

ووضع اللّوم على نفسه لأنّه آمن بها واستجاب لمقترحها عندما وجد أنّه لا يخلو مـــن وجاهة، لكن ماذا كانت النتيجة؟ فسكت، ولم يفكّر أن يحوّل الموضوع إلى مشكل رغـــم أنّه إسفين آخر دُقَّ في جدار علاقة زوجيّة متهاوية.

وعندما طلّقها وسلّم البيت وكل ما حوى إلى لجنة المحكمة بحضور المحامي طلب منه أن يمهله أسبوعًا فقط، بعده يعيد السيّارة. فهو الآن بحاجة لها، لنقـــل كتبـــه وملابســـه وحوائجه الشخصيّة.

وردّ المحامي:

- لك عشرة أيّام.

وكان الرجل دمثًا ودودًا، له صلة قرابة بوالدها، ولذا أوكلوه عنها، وكـــان يحـــاول وبدفع من والدها تحديدًا أن لا يحدث الطلاق.

ولكنّه حدث وانتهى الأمر.

وبعد يومين فقط من هذا التاريخ حصل ما لم يتوقّعه، إذ كان في زيارة مسائيّة لوفـــد صحافي لبناني يزور بغداد ويقيم في فندق ميليا منصور وبينه أصدقاء مقرّبـــون لـــه، وإذا بمسؤول أمن الفندق يتوجّه نحوه ويسأله:

- هل أنت غسّان العامري؟
- نعم، أنا هو.
- تفضّل معي.

فاستأذن من أصحابه الذين كان يجالسهم في مقهى الفندق مستلذًّا من دعابات إيـــاد الموسى الذي لا يدري من أين له كل هذه القدرة على الإضـــحاك في زمـــن المصـــائب المعسكرة سواء على لبنان أو العراق.

وعندما ابتعدا قال له مسؤول الأمن:

– بطاقتك الشخصيّة معك؟

– نعم.

– هاتها.

وسلّمها له، وكان الرجل يتوجّه نحو باب الخروج وهو يتبعه ذاهلاً.

في مرآب السيّارات الذي يتقدّم الفندق وجد سيّارتيْ شرطة تحيطان بسيّارته، وما إن وصل حتى نزل أربعة رجال شرطة بملابسهم العسكريّة من إحدى السيّارتين ومن الثانية نزل ثلاثة ولكنّهم كانوا بملابس مدنيّة.

بادره أحدهم بالسؤال:

– هل أنت سائق هذه السيّارة؟

أجاب:

– نعم.

وقام مسؤول أمن الفندق بتسليم بطاقة غسّان لمن سأله، وانسحب عائدًا إذ انتهت مهمّته عند هذا الحدّ.

وبعد أن تأكّد الرجل من البطاقة قال بأمر:

– هيّا اصعد وقدها بنفسك.

وأشار إلى الاثنين الآخرين اللذين كانا بصحبته:

– اصعدا معه.

وجلس أحدهما بجواره والآخر في المقعد الخلفي. وكان غسّان على ذهوله لا يعرف حتى هذه اللحظة معنى لكل هذا الذي يجري معه.

التفت إلى الرجل الذي يجلس بجانبه وسأله:

– هل لي أن أعرف ما الأمر؟

ردّ الرجل:

– أنا مثلك لا أعرف، لقد بُلّغنا ببرقيّة لإلقاء القبض على هذه السيّارة وسائقها وتسليمهما إلى أقرب مركز للشرطة، وها نحن في طريقنا الآن إلى مركز شرطة الصالحيّة.

كان المركز قريبًا من الفندق وما إن وصلوا حتى سلّموه إلى مفوّض الشرطة الذي يديره.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقد انتبه غسّان إلى أنّ الرجل متبرّم ضجر حتى لم يكلّف نفسه رفع رأسه لرؤية المتهم الملقى القبض عليه، والذي أصبح في عهدته الآن بعد أن وقّع ورقة بذلك سلّمها لمن أوصله.

جاء شرطي وقاد غسّانًا إلى غرفة جانبيّة وفيها مقعد خشبي متآكل يتّسع لجلوس أربعة أشخاص على الأقلّ، وقبل أن ينصرف قال له:

- اجلس هنا ريثما ينادي عليك مأمور المركز.

ثم مدّ عريف نحيل رأسه بعد دقائق ليرى من في الغرفة فنهض غسّان ليسأله:

- أرجوك، هل لي أن أعرف لماذا أنا هنا؟

ورازه العريف بعينيه ليرى إن كانت هيئته تدلّل على أنّه ليس من أصحاب السوابق الذين اعتاد رؤية وجوههم، قبل أن يقول:

- ما اسمك؟

- غسّان العامري.

- سأرى وأخبرك.

وعاد العريف بعد دقائق ليقول:

- هناك برقيّة خرجت من أحد مراكز الشرطة وقد بلّغت فيها كلّ سيّارات النجدة لإلقاء القبض عليك واحتجاز السيّارة التي تقودها. ونحاول الآن أن نعرف من أيّ مركز جرى التبليغ وعندما يتمّ ذلك سننقلك إليه.

أصبحت الساعة حوالى الثامنة مساء، ومعنى هذا أنّه مكث قرابة الساعتين وهو يغلي بالأسئلة.

وكان لا يكفّ عن السؤال ولا أحد يجيبه، وفي حوالى الساعة العاشرة والربع، وقد هدّه القلق وهصرته الحيرة، دخل شرطي ونادى:

- غسّان العامري.

فنهض وهو يجيب:

- نعم.

- تعال.

ولحق به إلى غرفة المفوّض الذي قال وهو منشغل بركام الأوراق التي أمامه:

- البرقيّة صادرة من مركز شرطة 17 تمّوز في العامريّة، وسنرسلك أنت والسيّارة إلى هناك.

وحضر العريف نفسه الذي تسلّم ورقة من المفوّض لنقل عهدة غسّان من هذا المركز إلى المركز الآخر.

قال للمفوّض:

– أنا شاعر وكاتب ومدير سابق في وزارة الثقافة والإعلام. وقبل أن يكمل ما يريد قوله بعد هذه المقدّمة قاطعه المفوّض الضجر بصوت متبرّم:

– أنا لم أقرأ جريدة منذ أشهر كما أنّني لا أحبّ من الشعراء غير الرصافي.. اذهب معه، في أمان الله!

وعاد غسّان ليقول بشيء من الليونة:

– أردت أن أرجوك بأن تسمح لي بمهاتفة صديق ليلحق بـي إلى هناك.

وأدار رقم دار صديقه الدكتور زيد الحبيب، فهو يعرف الكثيرين من ضبّاط الشرطة المسجّلين كطلبة في القسم الذي يترأسه بكلّيّة الآداب، ولم يجده، قال لزوجته:

– أرجو أن تخبريه بأن يلحق بـي إلى مركز شرطة 17 تمّوز في العامريّة فور وصوله.

صعد العريف بجانبه وركب شرطي آخر في المقعد الخلفي وقاد غسّان السيّارة باتّجاه غربـي المدينة.

كانت الشوارع قد خفّ اكتظاظها. ولذا لم يحجزهم الزحام طويلاً فوصلوا إلى المركز بسهولة.

كانت الساعة آنذاك قد تخطّت الحادية عشرة. وقد سلّم العريف غسّانًا إلى المفوّض الخفير في المركز الذي كان شابًّا ممتلئ الجسم، وبدا حيويًّا أكثر من ذاك المتبرّم الذي تركه في مركز الصالحيّة.

كان أوّل عمل قام به المفوّض هو استلام السيّارة منه بعد أن طلب من أحد رجال الشرطة تفتيشها، ثم خاطب غسّانًا بأن يستخرج منها ما يخصّه، فقال:

– ليس لي فيها إلاّ إجازة السياقة.

وعرف من المفوّض أنّ شكوى قُدّمت للمركز من قبل السيّدة سلمى عبد الرزّاق، جاء فيها أنّ سيّارتها سُرقت من قبل شخص اسمه غسّان العامري وقد هدّدها بإحراقها.

وفغر غسّان فاه تعجّبًا، وظنّ أنّ هناك خطأ ما في هذه الشكوى. ولكنّه بدلاً من أن يكتئب وجد نفسه يضحك، وقال بلهجة لا يمكن إخفاء نبرة التهكّم فيها:

– لكن صاحبة الشكوى كانت زوجتي ولي منها ابنتان، والسيّارة في عهدتي بناء على اتّفاق مع محاميها؟.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وعندما دخل زيد الحبيب بقامته الطويلة ونظّارته الطبّيّة هتف فيه:

- تعال واسمع.

ثم وجد نفسه وقد انهار على الكرسي بعد أن طفح قرفه وتحوّل إلى دوار مهلك.

وكانت المفاجأة أنّ المفوض صديق لزيد وقد تصافحا بودّ وغرقا لثوان في السؤال عن الصحّة والأحوال.

وقام المفوّض بشرح ملابسات المسألة، وعندما فرغ منها التفت زيد إلى صاحبه وهو يتمتم باستهجان:

- لم يخطر ببالي أنّها ستصعّد الموقف إلى هذا الحدّ، يا له من تصرّف أحمق!

ثم أضاف باستنكار موجّهًا الكلام إلى كل من غسّان ومفوّض الشرطة:

- ربّما بعمل كهذا قطعت كل إمكانيّة للتفاهم يعمل عليها بعض أصدقائك وأنا منهم.

ثم خصّ المفوّض بقوله:

- غسّان العامري هو الشاعر المعروف، والمرأة صاحبة الشكوى مطلّقته، والسيّارة هذه لم يسرقها منها بل هي سيّارته هو.

وهنا روى غسّان للمفوّض ما حصل. ممّا جعله يردّد بكثير من التعجّب:

- لا حول الله ولا قوّة إلاّ بالله.

وأضاف غسّان:

- إذا أحببت أعطيك رقم هاتف محاميها، ولك أن تتأكّد بنفسك.

لكنّ المفوّض قال:

- صدّقتك.

وصار يتمتم وكأنّه يكلّم نفسه:

- إنّ كيدهنّ عظيم.

بعد ذلك عاد إلى لهجته الوظيفيّة وقال:

- الحاكم الخفير قد غادر المحكمة الآن، ولن يعود إلاّ صباح الغد. والقانون يقتضي منّي أن أُبقي السيّد غسّان محتجزًا هنا حتى صباح غد، وعندما نرسل أوراقه للحاكم سيبتّ في الموضوع.

ثم عاد ليقول:

- ومع كل هذا وإكرامًا لكما وعلى مسؤوليّتي الخاصّة سأخلي سبيل السيّد غسّان على أن يكون حاضرًا هنا في الساعة الثامنة صباحًا.

وتبادل المفوّض والدكتور زيد أخبار أصدقائهما المشتركين في الأعظميّة لبعض الوقت، وقبل أن يغادرا قال الدكتور زيد مخاطبًا غسّانًا:

- محمود شيت خطاب العسكري والمؤرّخ تعرفه بالتأكيد؟
- ومن لا يعرفه؟
- نبيل ابن أخيه.

ونبيل هو اسم المفوّض ممّا دفع بغسّان للهتاف:

- يا لها من مصادفة! عمّك رجل شريف ومهمّ، صدّقني. وغادرا مركز الشرطة والدكتور زيد يحاول كتمان غيظه الواضح، جلس غسّان بجانبه في سيّارته التي هي الأخرى من طراز فولكس واغن برازيلي، وتحرّكت بهما وبعد دقائق من الصمت نطق:
- كنت أنا وزوجتي نراعي وضعها ونعطيها بعض العذر في تصرّفاتها التي يسمّونها بالغيرة العمياء، لكن ما حصل اليوم جعلني ضدّها تمامًا، فمن غير اللائق ومهما كانت الأسباب أن تفعل بك هذه الفعلة المهينة والمشينة، فإن انفصلت عنها فهذا لا يلغي كونك والد ابنتيها.

وأصرّ زيد على أن يرافقه إلى بيته ليتناولا بعض الطعام قبل أن يوصله إلى شقّته.

قال غسّان:

- أيّ عشاء والليل على وشك أن ينتصف؟
- أنسيت المثل العراقي كل اللّيل عشاء، سواء كان في الثامنة أو العاشرة أو منتصف اللّيل، العشاء زمنه مفتوح على نقيض فطور الصباح أو الغداء.

كانت زوجته في انتظاره تتابع فيلم السهرة الذي يبثّه التليفزيون بعد أن تنتهي الأخبار والبيانات العسكريّة وصور الحرب وحفلات التوسيم، التي قد تمتدّ لقرابة الأربع ساعات ممّا يجعل الناس يغلقون أجهزتهم وينصرفون إلى الإذاعات العالميّة ليعرفوا أخبار الحرب الحقيقيّة منها، أو يستمعوا إلى الأغاني والبرامج التي تخفّف من احتقانهم.

استفهمت زوجة الدكتور زيد عن الموضوع فأجابها باقتضاب، وطلب منها أن تحضِّر لهما العشاء أوّلاً وبعد ذلك سيخبرها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ثم نهض وجاء بزجاجتيْ بيرة باردتين مع كأسين فارغتين وشرباهما بالتلذاذ متنعّمين ببرودتهما.

كان التليفون في غرفة الضيوف واستأذن غسّان من صاحبه ليستعمله حيث أدار رقم المحامي طارق المنصور الذي لم يكن متأكّدًا أنّه سيجده فهو مخلوق ليلي، ولكنّه وجده. قال له غسّان:

- اسمع، حدث ما لم يكن بالحسبان، وكدت أمضي ليلتي في مركز الشرطة لولا الدكتور زيد الحبيب، أنتظرك غدًا في السابعة والنصف صباحًا أمام البناية التي تقع فيها شقّتي، لا تتأخّر عليّ.

* * *

آوى غسّان إلى فراشه ولولا زجاجة البيرة التي شربها على معدة خاوية لما تراخت أعصابه واستطاع النوم، دون أن يغادره شعوره بأنّه قد تعرّض للإهانة على يد هذه المرأة التي أسقط بيدها ولم تتوقّع أنّه قادر في اللّحظات الحرجة أن يتخلّى عن كل شيء ويدوس عليه بقدميه ويمضي.

وقبل أن يأخذه النوم راح يستعرض بعض وقائع ما جرى بينه وبينها.

فبعد أن عادت إلى بغداد مع ابنتيها على متن أوّل باخرة انطلقت في ساعات هدنة من مرفأ بيروت، يبدو أنّها كانت مصمّمة على أمر واحد هو إعادته إلى بغداد.

وقد ملأها بالاعتداد وحمّسها على أن تتصرّف بهذا الاتّجاه ذلك الخراب الاجتماعي الذي تسرّب حتى للعلاقات الأسريّة.

وأصبح بمقدور الزوجات كتابة رسائل إلى كبار المسؤولين بما في ذلك رئيس الدولة ويدّعين فيها ادّعاءات تودي بهم.

يفعلن هذا من أجل عشّاقهنّ أو طمعًا في الإرث أو انتقامًا من الزوج الذي يكتشفن علاقة له بامرأة أخرى ربّما تكون نهايتها الزواج.

عندما وصله أمر النقل بالتليكس أمهلوه شهرًا فقط لتصفية أعماله. وبعد أقلّ من أسبوع على وصول قرار النقل فوجئ بها تدخل عليه في مكتبه.

حيّته فردّ عليها بتمتمة وعاد لينكبّ على العمل الذي بين يديه، وأهملها كأنّها لم توجد، لكن ليلى جاءتها بالقهوة وهي ترحّب بها.

قالت له:

- ألا تقول لي حمدًا لله على سلامتك؟

ودون أن يرفع رأسه قال:

- ولماذا؟

- لأنّني جئت من سفر طويل.

- جئت وحدك، ولم أطلب منك أن تجيئي. لذا فأنتِ زائر غير مرغوب فيه.

فسكتت وصارت تحتسي قهوتها محتقنة الوجه مختضّة الجسد. وبعد فترة قال لها:

- اذهبي إلى البيت ولا تبقي هنا.

- حتى حقيبتي معي.

- جد لي من يوصلني.

وغادر الغرفة وكلّم السائق كريم الذي التحق بالسفارة مؤخّرًا ليحملها إلى البيت.

وهكذا خرجت. بعد ذلك أخبره أحد الموظّفين أنّه وجدها في الفندق الذي اعتاد الدبلوماسيّون العراقيّون النزول فيه بلارنكا، لقد وصلت فوجدت طريق البحر مقطوعًا لذلك مكثت عدّة أيّام، وبعد أن حصل الموظّفون الدبلوماسيّون المحتجزون في لارنكا بسبب انقطاع الطريق البحري على طائرة هليوكوبتر وفّرتها لهم وزارة الدفاع اللبنانيّة حملوها معهم.

واستغرب هذا التصرّف منها، وماذا تريد بالضبط؟ النقل وقد تمّ، وسأعود إلى بغداد.. فلماذا جاءت؟

لكنّها أوضحت له:

- جئتُ لتسحبَ كل ما معك من نقود في البنك هنا، وبعد ذلك سنتوجّه إلى الكويت المحطّة الأولى لكل الدبلوماسيّين العراقيّين المنقولين لبغداد، حيث يشترون من أسواقها المفتوحة السيّارة والأثاث والكهربائيّات وكل ما يسمح لهم به قانون العمل الدبلوماسي.

وسألها:

- ولماذا ترافقينني؟

- حتى يتمّ شراء كل شيء بإشرافي!.

كان في حيرة من أمره. فهذا النقل المفاجئ غير مدرج في مسلسل توقّعاته، لذ أربك كل شيء وجعله حائرًا لا يعرف كيف يتصرّف.

ولم يجد بدًّا من استخراج تأشيرة دخول لها إلى الكويت معه.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت الأحداث تضجّ في رأس غسّان العامري بكل ما فيها، الناعم منها والخشن، الجارح والمبلسم.

صحا مبكرًا رغم أنّه نام متأخرًا، بدأ بحلاقة ذقنه ثم استحمّ وارتشف فنجان قهوته الصباحي الخالد، بلفحته المرّة ونكهة الهال الطيبّة.

وقد تسرّبت إليه أغاني جيرانه من العمّال المصريّين التي كانت تبثّها آلات التسجيل غالبًا، إذ لم يتجاوبوا كما يبدو مع هذا الكمّ من الأناشيد والمدائح والزعيق الذي تبثّه الإذاعة العراقيّة، ولذا هربوا منها إلى آلات التسجيل.

بعد القهوة رمى في جوفه بيضة مسلوقة وقطعة خبز وكأس حليب بارد لترميم الجسد وجعله قادرًا على التحمّل.

رغم أنّ العثور على البيض أو الحليب ليس بالأمر الهيّن، وغالبًا ما كان يستعين بالواسطة للحصول عليهما.

علّق عدنان العزيري مرّة بعد بحث مضنٍ أمضياه من أجل صندوق حليب:

- يبدو أنّ أسهل شيء في هذا البلد هو القتل، أمّا ما عداه صعب!.

وأردف لائمًا نفسه:

- ما الذي جاء بـي؟ لقد كنت هناك عائشًا مثل الأوادم فلماذا رجعت؟ من أجل الوطن؟ تفضّل لترى أيّ وطن هو، حتى بيضة أو زجاجة حليب لا تحصل عليهما إلاّ بمعجزة أو وساطة من مجلس الأمن.

غادر شقّته ووقف بباب العمارة منتظرًا أن يمرّ به طارق المنصور، وعندما رآه صلاح البوّاب خطا ليقف بجانبه وهو يسأله:

- ازيّك يا أستاذ غسّان، وحشتنا.
- الله يسلّمك، كما ترى، قرف!
- ربّي يفتحها بوجهك يا أمير.
- شكرًا.

ورأى سيّارة طارق المنصور قادمة فتحرّك بعد أن ودّع صلاح البوّاب.

ودخل في الموضوع رأسًا وشرح له كل ما جرى ليلة أمس، فما كان منه إلاّ أن نطق بكلمة واحدة تعليقًا على ما سمع:

- بسيطة.

وصلا إلى مركز شرطة 17 تموز وبعد أن دوّنوا جوابه على ادعاء مطلّقته أرسلوا

شرطيًّا ليحمل الأوراق إلى الحاكم، وقد اصطحباه بسيّارة طارق الذي دخل مع الشرطي إلى الحاكم.

وغاب قرابة نصف الساعة بعدها خرج باسمًا وهو يطمئن غسّانًا بقوله:

- انتهى الموضوع.

ثم أخبره أنّ الحاكم عرفه وسأله إن كان غسّان العامري هو نفسه الشاعر المعروف أم أنّه مجرّد تشابه أسماء! بعد ذلك شرح له خلفيّات الموضوع كله.. لذا بادر الحاكم في كتابة جملة واحدة أغلق بها الدعوى، والاكتفاء باسترجاع السيّارة منه ما دامت مسجّلة باسمها.

وكان طارق المنصور قرفًا إلى أبعد الحدود، فهو الآخر له مشاكله مع زوجته، وقد رفع عليها دعوى طلاق ثم تراجع عنها بعد أن هدّدته، وقال لغسّان بصراحة:

- لقد خفت منها، لقد فتحوا لهنّ الأبواب وأخذوا يسمعون شكاواهنّ. ذكور قادمون من القحط ووجدوا أنفسهم في هذا الترف، لذا يتخدّرون أمام اسم امرأة فكيف بعطور النساء وتنوراهنّ القصيرة؟ وأشياء أخرى أبعد.

وبتهكّم ردّ غسّان:

- ولذا لم يهتمّ أحد بشكاواي، ولم يأتني حتى أيّ ردّ عليها! هل هذا لأنّني لا أملك إلاّ هذا؟.

- صرنا نخاف نساءنا، وأخوك الدكتور منعم لو لم تكن زوجته الأولى فرنسيّة لما استطاع الزواج من أحلام. أمّا زوجتي فإنّها جُنّت عندما حدّثتها بموضوع الطلاق، حتى خفت أن تسمّم طعامي، أو تقطع لي عضوي وأنا نائم، لِمَ لا؟ خاصّة وأنّه قد عاد إلى النهوض بحيويّة وتفان بعد أن ظننت أنّه قد قضى نحبه!.

* * *

استقلّ غسّان سيّارة تاكسي وتوجّه إلى محلّة البياع حيث مكتب محامي الشعب المغلوب طارق المنصور. وكان المحامي الوحيد في المنطقة الذي رفع ثلاث يافطات كبيرة في باب العمارة وفي المدخل وفي الشارع، والأخيرة معها سهم يشير إلى الجهة التي تقع فيها العمارة الأمر الذي كان مثار تندّر غسّان الدائم.

عندما رآه هتف غسّان قبل أن يحيّيه:

- جئت لأتفقّد حالتك الجنسيّة لعلّك أُصبت بانتكاسة أخرى لكثرة جريك وراء النسوان، ولا يشبهك في هذا إلاّ صاحبك الدكتور العليم منعم البصري.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- 33 -

بدأت وفود الإعلاميّين من عرب وأجانب تصل إلى بغداد، ومعهم وُجّهت الدعوات إلى عدد من الشعراء والكتّاب لحضور احتفالات البلد بتحرير الفاو.

وقد حضر رعد الطويل من قبرص التي اختار الإقامة فيها بعد المضايقات التي تعرّض لها إثر عودته من زيارته السابقة إلى بغداد.

كان قد وجد عملاً بسيطاً مع قريب له في مكتب وكالة الصحافة الفرنسيّة، أمّا سبب اختياره لقبرص فلقربها من لبنان وسهولة الاتصالات بينهما.

كما حضر على الطائرة العراقيّة نفسها القادمة من قبرص عدد من الصحافيّين اللبنانيّين الذين عبروا البحر من بيروت إليها وبينهم صديقه إياد الموسى.

وكان رعد الطويل وإياد الموسى يشكّلان ثنائيًّا لا يخلو من مفارقة، فرعد الطويل طويل وإياد الموسى أقرب إلى القصر، هذا عدا امتلاء الأوّل وضخامة ملامحه بما في ذلك كبر رأسه وأنفه، ونحافة الثاني ودقّة ملامحه حتى أنّه بكّر في وضع نظّارة طبّيّة على عينيه وأطلق لحيته لموازنة ما تساقط من شعر جبينه.

أمّا إذا مشيا سويّة في طريق فمن عادة رعد الطويل أن يضع يده على كتف مرافقه ومع إياد الموسى فهو مضطرّ إلى أن يتركها تتدلّى لتصل أطراف أصابعها فقط إلى كتفه.

ومن يراهما ماشيين سيكتشف هذه المفارقة، ومع هذا فإنّ بمقدور إياد الموسى أن يجعل من رعد الطويل ضحيّة مقالبه المتتالية التي تجعل كل ضخامته الجسمانيّة وقدراته الخطابيّة والنقابيّة عاجزة عن الردّ المناسب.

عندما علم غسّان العامري بوصولهما إلى فندق ميريديان، بعد أن تكلّم رعد مع صديقه أبو ريتا فور وصوله، أسرع إلى الفندق.

فكان العناق الحميمي والدعابات والقهقهات، وأحسّ غسّان ساعتها بالتفتّح، وبأنّ هؤلاء اللبنانيّين قد أوقعوه أسيرهم إلى الأبد.

هتف في رعد:

- يا نقيب يا نقّوب، أو إذا أردنا الدقّة يا منقوب، لماذا لا تكتب لي؟.

قهقه رعد بحنجرته العريضة وقال:

- تعرف الظروف، والمعاناة قد أخذت منحى آخر، فجأة تفرّقت عائلتنا، الولـــدان سآتي بهما إلى قبرص والزوجة ستبقى مع ابنتي فهذه سنتها الجامعيّـــة الأخـــيرة. وربّما خلال عام نستطيع أن نجتمع من جديد، في قبرص أو لندن.
- ولبنان؟.
- أصبح حلمًا بعيد المنال، وعمليًّا أصبحت نقيبًا سابقًا للمعلّمين إذ انتخب آخـــر غيري منذ أيّام!.

أمّا إياد الموسى فهو رغم مظهره الذي لا يدلّ على أفعاله فإنّه كان زير نســـاء مـــن الطراز المخفيّ، يمصمص عظامهنّ بسكوت، وهناك أكثر من شقّة في عهدته، واحدة لـــه وأخرى لصديق مسافر وثالثة لشقيقته التي تحوّلت إلى ذوق مكايل طلبًا للأمان.

وهو صيّاد، بندقيّته على كتفه والغابة ملأى، والحرب دفعت الناس باتّجاه الجـــنس، حتى أصبح تعويضًا عن الخوف الذي يعيشونه من أجل خلق موازنـــة داخـــل الأعمـــاق المختلّة.

حملوا له معهم هدايا، عرق لبناني، فستق، حلوى، عطر، ربطة عنق، زيت زيتون.

ثم قدّم له إياد الموسى علبة، وقال له:

- هذه من حنان.. وطلبت منّي أن أقبّلك على خدّيك نيابة عنها، وسأفعل ذلـــك مضطرًّا، وأنا غير مسؤول إن وخزتك لحيتي.

وقبّله فعلاً على خدّيه، وقد وجد في العلبة عطرًا كانت تعرف أنّه المفضّل لديه، وإذا ما نفدت الزجاجة التي لديه فمن الصعوبة أن يجد مثلها في بغداد حيث جعلـــت الحـــرب الدولة تمنع التجّار من استيراد ما أسمته الكماليّات ومن بينها العطور.

ومع زجاجة العطر هناك رسالة.

ولم يلبث غيّاث الإبراهيمي أن التحق بهم، فقد كلّمه رعد الطويل إلى بيته.

وكان غيّاث يهبّ عندما يسمع بمجيء صديق لبناني. ولعلّه في لقائه به والحديث معه شفاء له من جرح الفراق الممضّ الذي يحاول أن يخفيه ولا يجعله يظهر عليه.

كما أنّه وكعادته يغدق في كرمه على هؤلاء الأصدقاء، ويحملهم في سيّارته إلى أجمل أماكن بغداد ليحسّوا بأنّه واحة لبنانيّة في العراق، واحة ظليلة ورائعة.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت في البرنامج رحلة بالطائرة إلى البصرة ومن هناك بالسيّارات إلى الفاو.

ولم يجد غسّان صعوبة في أن يدرج اسمه مع الراغبين في السفر إذ كان ذلك متاحًا لجميع الإعلاميّين والأدباء العراقيّين وليس الضيوف فقط، ومع ذلك فإنّ عدد الراغبين في السفر إلى هناك كان قليلاً وغسّان هو العراقي الوحيد الذي ضمّته الطائرة العسكريّة، التي طارت في الثامنة صباحًا من مطار المثنى حاملة معها صحافيّين من اليابان وفرنسا ومصر ولبنان.

وقد انتبه إياد الموسى بحاسّة الشمّ القويّة التي يمتلكها تجاه النساء إلى أنّ النقيب النقوب رعد الطويل مهتمّ بصحافيّة فرنسيّة، رغم رشاقتها وبنطلون الجنز فإنّ عمرها يعلن عن نفسه وهي خمسينيّة بالتأكيد.

وكان رعد منسجمًا معها وهو يحادثها باللّغة الفرنسيّة ممّا جعله يلتفت إلى غسّان ويقول له:

- يبدو أنّنا قد نراه بعد قحط قبرص.

ولم يكن غسّان منتبهًا إلى الذي يعنيه فسأله:

- وما هو الذي قد نراه؟

- الجسد الفرنسي، فهذه المرأة جاهزة وهي رفيقتنا في الفندق نفسه.

ولكن إياد الموسى كان منتبهًا جيّدًا لما يقول فعلّق:

- ولكنّها عجوز؟.

فما كان منه إلاّ أن التفت إليه وصرخ محتجًّا باللهجة اللبنانيّة:

- شو أنا فاكرني ابن عشرين؟.

فانطلقوا يقهقهون.

وكانت الطائرة سريعة التأثّر بالمطبّات الهوائيّة نظرًا لصغر حجمها.

كما أنّ أحد المرافقين من وزارة الثقافة والإعلام همس لغسّان:

- ما دمنا على متن طائرة عسكريّة فإنّنا في خطر وقد نتعرّض لنيران طائرات إيرانيّة.

وتمتم غسّان في سرّه:

- شيء جميل، نهاية ولا أروع منها!.

ولكنّ الطائرة وصلت بسلام إلى مطار عسكري قريب من البصرة، وسرعان ما غادروها ليركبوا باصًا كبيرًا مكيّف الهواء، والذي غادر المطار باتّجاه موقع عسكري ليتناولوا غداءهم هناك قبل أن يتوجّهوا نحو الفاو.

كان الضبّاط والجنود فرحين بهم، ودارت أحاديث كثيرة حول معارك الجبهة الجنوبيّة وعمليّة تحرير الفاو، وكان الصحافيّون يحاولون معرفة معلومات أكثر، وقد تركت لضابط التوجيه السياسي مهمّة الإجابة بالقدر الذي سُمح له الحديث به.

ثم حضر الغداء وبعده الشاي استعدادًا للمغادرة باتّجاه الفاو.

كان رعد الطويل يرتّب أوضاعه مع الصحافيّة الفرنسيّة ممّا جعل غسّان يغمزه:

- إن شاء الله عريس هذه الليلة.

فيردّ بظرفه المعهود:

- لقد ناكتنا فرنسا سنين طويلة فهل حرام علينا أن ننيكها مرّة واحدة، ثم إنّ قحط قبرص وبُعد أمّ العيال أمران دافعان بقوّة نحو هذه الحيزبون!.

أما إيّاد الموسى فكان يصوّر ويصوّر. ولم ينس أن يصوّر النقيب النقوب في لحظات انسجامه مع الصحافيّة الفرنسيّة صيده في هذه الرحلة، وهو يهدّده بأن يهدي الصور لزوجته لتعرف ماذا يفعل في غيابها.

وتحرّك الباص العسكري الكبير سالكًا طريقًا محاذيًا لشطّ العرب، وهو طريق ما زال خطرًا إذ إنّه في متناول المدفعيّة الإيرانيّة.

وقد مرّ الباص مسرعًا بالمنطقة الخطرة قاطعًا غابات نخيل جُزّت رؤوسها وبقيت جذوعها واقفة وكأنّها قامات بشر مقطوعي الأعناق في عمليّة إعدام لا مثيل لبشاعتها.

يتذكّر غسّان العامري هذه المنطقة جيّدًا، وقد سبق له أن زارها مرارًا.

وعندما كان برنامج مهرجان المربد الشعري يشمل جلسات في البصرة كان المنظّمون يدرجون رحلة بالباخرة في شطّ العرب الذي تعانقه غابات النخيل من جانبيه، كما يدرجون رحلة أخرى إلى «منزل الأقنان» كما سمّاه بدر شاكر السيّاب وهو منزل جدّه، ليتعرّف الشعراء وخاصّة الضيوف منهم على المناخ الذي وُلد فيه أحد أكبر شعراء الحداثة في أدبنا العربي.

أمّا نهر «بويب» الذي تحدّث عنه في أكثر من قصيدة فقد جفّ، و«منزل الأقنان» قد طاله القصف وهدّه، واحترقت غابات النخيل المحيطة به.

مرّ الباص على مسافة ليست بعيدة من ذلك المكان الذي كان الشعراء الضيوف حريصين على زيارته والتقاط الصور فيه.

كما يذهبون إلى تمثال السيّاب على شطّ العرب ويلتقطون معه الصور أيضًا، ولكن كل هذا صار في الماضي حيث احترق كل شيء، ولم يبق إلاّ تمثال السيّاب منتصبًا ينادي الخليج، وكان من الممكن لقذيفة ضالّة أن تتلفه ولكنّه سَلِم ليبقى شاخصًا ورمزًا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إنّهم يذهبون إليه، يحجّون إلى قريته «جيكور»، وفي المربد الأوّل زاروا قبره في مقبرة الحسن البصري في الزبير.

ذلك الشاعر الذي عاد بجثته ذات صباح صديقه الشاعر الكويتي علي السبتي، وهو من سهر عليه طيلة شهور إقامته في المستشفى الأميري في الكويت الذي آوى إليه بعد أن ملّته مستشفيات الدنيا.

وهناك في المستشفى الأميري لفظ أنفاسه الأخيرة وعيناه على العراق، على منزل الأقنان، جيكور، بويب، شبّاك وفيقة، وشناشيل ابنة الجلبي وعلى أسرته الصغيرة.

مات شاعر العراق في وحدته وغربته إلاّ من حنان صديق آمن به شاعرًا وأحبّه إنسانًا.

وكان هذا الرجل الشهم من حمله إلى البصرة جثمانًا ليسلّمه إلى أسرته.

دخل به الحدود العراقيّة في نهار حزين ووجد شوارع البصرة وكأنّها مقفرة، غاب عنها مرتادوها.

وأمام بيته المستأجر من مصلحة الموانئ العراقيّة حيث عمل لبعض الوقت عرف أنّ الشرطة قد أخرجت عائلته منه ورمتها في العراء. ويا للصدف أنّ هذا تمّ في اليوم نفسه الذي وصل فيه جثمانه بعد ساعات.

كانت الساديّة الرسميّة قد وصلت ذروتها مع هذه الأسرة البائسة، حيث طرد معيلها من العمل بعد أن طال به المرض واستنفد كل الإجازات المرضيّة.

كما أن هذه الأسرة البائسة التي لم تجد قوت يومها تعذّر عليها أن تدفع إيجار الدار ونفقات الماء والكهرباء، فحقّ عليها الطرد.

ويذكر غسّان العامري أنّه قرأ ما كتبه الشاعر علي السبتي عن هذا الأمر. وكيف وقف حائرًا أمام الدار ومعه جثّة شاعر ولا ككل الشعراء، شاعر انتشرت قصائده وذاعت مقترنة بوطنه العراق.

ولا يدري أين يمضي بها؟.

وهكذا تدور الأسطوانة المدمّرة نفسها. ويتذكّر غسّان موت الرصافي، ومشاريع الموتى القادمين من مبدعي البلد الذين تناهبتهم الدنيا، فرّوا لائذين بأفياء بعيدة، حتى الجواهري العظيم آخر سلالة الشعراء الكلاسيكيين العرب، صاحب القامة التي تضاهي قامة المتنبّي والبحتري وأبا تمّام يصبح «تبعيّة إيرانيّة» رغم أنّه يُلقّب بشاعر العرب الكبير، وشعره مكتوب باللغة العربيّة لا بالفارسيّة.

كان الباص العسكري يواصل سيره بين حطام غابات النخيل الذي قطعت رؤوسه، والبعض الآخر انفلق إلى نصفين وخرّ على الأرض كفارس تجندل من على حصانه.

وراح غسّان يتمتم ببعض ما علق في ذاكرته من قصائد بدر شاكر السيّاب الذي احتشد جسده الهزيل بمحبّة هذا المكان، ماذا لو رأى الآن ما جرى؟ ماذا سيكتب؟ وماذا سيقول؟.

وتمتم:

(ألا يا منزل الأقنان، سقتك الحيا سحبُ

تروّي قبري الظمآن،

تلثمه وتنتحبُ).

ماذا لو خرج السيّاب الآن؟ لو كان في رحلة طالت به ثم ارتأى أن يعود؟ أيّ شعر ينبت في ضميره فينفجر به؟ ما الذي ستقوله له هذه الحرب؟ وأجداث النخيل؟ وحطام الآليّات العسكريّة؟ البصرة المهجورة؟ الخرائب والخراب؟.

وهل سيتساءل: لماذا اندلعت هذه الحرب؟ هل كان من المحتّم أن تعتلق نيرانها؟ أما كان بالإمكان إخمادها؟ أسئلة.. أسئلة.. تنقذف من فم غسّان العامري وهو يتطلّع إلى الطريق بينما يحاول إياد الموسى أن يسجّل بكاميراه بعض ما يراه محترمًا صمت صاحبه واستغراقه في بشاعة المشاهد التي حوّلت أكبر غابة نخيل في الدنيا إلى مقبرة، إلى أرض محروقة، مهجورة.

واسترجع صوت السيّاب من جديد وصار يتمتم:

(بويبْ

بويبْ

أجراس برج ضاع في قرارة البَحْر

الماء في الجرار، والغروب في الشجرْ

وتنضح الجرارُ أجراسًا من المطرْ

بلّورها يذوب في أنينْ

بويب.. يا بويبْ

فيدلهمّ في دمي حنينْ

إليك يا بويبْ

يا نهري الحزينَ كالمطرْ)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والتفت إلى إياد وقال:

- ماذا لو رأى السيّاب هذا الذي نراه؟.

وجاء تعليق إياد ببساطة:

- ولكنّه لن يراه، مات قبل الخراب!.
- هذه ملاعب طفولته وصباه، كل عروق قصائده، شرايينها وأغصانها، أعدمتها هذه الحرب!.
- وهناك أيضًا في لبنان لنا أن نسأل السؤال المشابه: ماذا لو رأى جبران أو أمين نخلة أو بشارة الخوري أو إلياس أبو شبكة أو.. أو... ما جرى لوطن أحبّوه وكتبوا من أجله أجمل الشعر وأخلده؟.

* * *

عندما وصلوا الفاو كانت المدينة عبارة عن أنقاض، والمستنقعات يطفو الملح على سطحها، وعشرات الآليّات العسكريّة المحطّمة تملأ المكان.

وكانت الحرارة قاتلة تنضاف إليها رطوبة عالية تكاد تكتم الأنفاس.

وعندما غادروا الباص المكيّف أحسّوا بأيّ جحيم كانوا يسيرون؟.

وأحسّ غسّان بأنّ الإقامة في هذا المكان فوق احتمال البشر في هذا الصيف الجنوبي القاتل؟.

وراح يتساءل عن حال الجنود الذين حاربوا هنا، كيف عاشوا؟ كيف ناموا؟ كيف قاتلوا؟.

إنّها محرقة حقًّا حتى بدون حرب! فكيف وقد جرت فوقها عشرات المعارك الطاحنة قبل سقوطها وأثناءه ثم محاولات استعادتها الفاشلة وصولاً إلى تحريرها!.

كان الجنود الذين خرجوا من جحيم خنادقهم للترحيب بضيوفهم ذوي معنويات عالية هي وليدة نجاحهم في إخراج المحتلّين من ترابهم الوطني.

وانتشر الصحافيّون في المكان مستطلعين وهم يستمعون إلى شرح ضابط التوجيه السياسي.

وقفز إياد الموسى إلى مكان القيادة في دبّابة إيرانيّة معطوبة وسلّم كاميراه إلى غسّان وهو يستحثّه:

- هيّا صوّرني.

ثم قفز إلى أخرى وثالثة، وكان غسّان يصوّره مبتسمًا من ظرفه فيقول:

- سأقول لأمّي إنّني قدت هذه الدبّابة فمن يدريها أنّها معطوبة لتعرف أنّ الشهور التسعة التي أمضيتها في بطنها لم تكن شهورًا ضائعة! وستفاخر بي بين جاراتها، وربّما تعرض هذه الصور على من سأختارها شريكة لما تبقّى من حياتي!.

لكنّ غسّان العامري أحسّ بالدوار وكأنّ دماغه قد بدأ بالذوبان وأنّه سيسقط على وجهه مغميًّا عليه إن هو استمرّ في التنقّل لسماع شروحات الضابط، لذا انسحب وعاد إلى السيّارة، وهناك بعد أن جلس في مقعده انفجر بالبكاء.

ووسط دموعه تذكّر قولاً لهنري ميللر فصار يتمتم به:

- كل شيء لديّ متفاقم، أخطائي، عواطفي، عشقي، كل شيء أعيشه في الذروة!.

وجاءه وجه حنان عوّاد البعيد التي تستعدّ للرحلة الثانية إلى أميركا، وتمنّى لو أنّها رافقت رعد الطويل وإياد الموسى ليراها إذ أفثمنّ رحلتها قد لا تجعله يراها من جديد وربّما إلى الأبد.

بعد فترة عاد الصحافيّون ومرافقوهم إلى السيّارة.

وإياد الموسى يلاحق رعد الطويل بتعليقاته وهو يراه ملتصقًا بالصحافيّة الفرنسيّة، ويبدو أنّه راق لها فماذا يضيرها لو أمضت ليلتها معه بدلاً من أن تنام وحيدة؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- 34 -

بعد انتقال غسّان العامري إلى بغداد تمّ تعويضه بأستاذ رياضة ليكون الملحق الصحافي الذي يلتقي بالصحافيين اللبنانيّين العريقين في هذه المهنة ويحدّثهم عن العراق، ويحاول حلّ كل إشكال قد يحصل، أو الردّ على بعض من الفيض المهاجم من المقالات التي لولا الحرب مع إيران لما كانت.

وقد علم غسّان من إياد الموسى أنّ أستاذ الرياضة هذا الذي حشوا رأسه بالعبارات الجاهزة التي هي وليدة القاموس الإعلامي الرسمي قد تحوّل إلى موضوع تندّر، ودائمًا تجري المقارنة بين غسّان وبينه، فيأتي سؤال وجيه على أكثر من فم دون معرفة الخفايا:

- كيف يستبدل غسّان بهذا؟.

ولكن لم يعثر أحد على جواب. وقد ضحك غسّان هو الآخر عندما استمع إلى الحكاية من فم إياد الذي أضاف بمرحه المعروف الذي طبع حتى شخصيّته الكتابيّة:

- أخبرني عندما زرته لأخذ التأشيرة وبطاقة السفر أنّ وزارة الثقافة والإعلام لم تنصفه عندما أرسلته إلى لبنان بديلاً عن غسّان العامري، إذ المقارنات تبدأ بسرعة، فغسّان شاعر معروف وله قدرة عجيبة على خلق الصداقات الحقيقيّة، ويتحرّك في جوّ هو ليس بالغريب عليه، أمّا هو فلا يملك مثل هذه المؤهّلات ومؤهّله الوحيد أنّه عضو في الحزب الحاكم.

وهنا قاطعه غسّان ليقول:

- ما يقوله صحيح، إنّه إنسان بسيط، وقد ظلموه فعلاً عندما أسندوا إليه هذه المهمّة. لكن على أيّة حال هو ليس أوّل المصائب من هذا النوع ولا آخرها، ولو أنّهم أرسلوه سفيرًا لما كان في هذا أيّ إحراج، الإحراج في كونه ملحقًا صحافيًّا وهو لا يعرف شيئًا عن ثقافة ولا صحافة البلد الذي أرسلوه إليه.

* * *

لكن رجوع غسّان العامري منقولاً إلى بغداد التي تعاني من حرب طالت كان مثار فرح أصدقائه المقرّبين، إذ كانت أخباره تصل إليهم، وانتشر بينهم خبر اختطافه الذي أفلت منه بأعجوبة.

لكنّه وفي لقاءاته التكريميّة التي كان أصحابه يقيمونها له حدّثهم عن حالات أخرى أو مشاريع موت لم تتمّ كما سمّاها، إلى درجة وصفه فيها الدكتور زيد الحبيب بأنّه ذو ميول انتحاريّة وإلاّ لماذا؟ ومن أجل ماذا؟.

- ليست ميولاً انتحاريّة يا عزيزي فأنا منفتح على الحياة كما تعرفني، أنغمس في كل تفاصيلها الجميلة نساء وخمرة وشعرًا ونضالاً. وبيروت رغم مأساتها قادرة على أن تُبقي لك تأجّجك وتستوعب جنونك، ألم تذهب إليها أنت ذات يوم لتنضمّ إلى جبهة التحرير الفلسطينيّة؟.
- نعم، ولكن عندما حصلت على بعثة غادرتها إلى بريطانيا وإلى جامعة «كيل» حيث زرتني.

ضحك غسّان العامري وقال:

- ألا ترى كيف اغتنت حياتنا وتغذّت بعطايا المكان، نحن البؤساء الذين كانت تضمّنا النهارات البغداديّة القائظة في مقهى البلديّة لنأكل «السميط» والشاي!.
- لكن ذلك المقهى هدّوه، وحوّلوه إلى منشأة عسكريّة؟.

وأضاف بندب:

- يا للهول! ذلك المقهى الذي ولدت على مقاعده أجمل القصائد والقصص وطرحت أحلى الأحلام والمشاريع، وجلس فيه نجوم الإبداع العراقي، هذا مصيره؟.
- من أجل أن يبقى اسمًا فقط يتردّد، لكن أيّ أديب شابّ من أبناء اليوم لا يعرف ماذا يعني هذا المقهى، ولا كيف كان؟.
- لو حوّلوه إلى أيّ شيء لقبلنا، أمّا منشأة عسكريّة فهذا ما لا يحتمله أحد، ما العلاقة بين الإبداع والعسكريّة؟ ولكن سنواته البريطانيّة تراقصت في محيّا زيد الحبيب الأشقر، لذا رفع نظّارته الطبّيّة ومسحها ثم أعادها وهو يقول لصاحبه:
- مرّات أتساءل لماذا لم أبق هناك؟ لقد عرضوا عليّ العمل، لكنّني رجعت لكوني مرتبطًا بكفالة ماليّة باهظة.

ثمّ أضاف:

- رغم أنّنا طلبة دراسات عليا فإنّنا كنّا أشبه بالمجنّدين، تصدر إلينا تعليمات الاتّحاد الوطني للطلبة لنساهم في مظاهرة ونصفّق ونرفع الصور إيّاها، والويل لك إن لم تأت، آنذاك تشتغل التقارير عليك فتلغى بعثتك، لذا عليك أن تطيع.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مع هذا فأنت الوحيد من بين أصدقائي حتى المقيمين منهم في بريطانيا من رافقني إلى «كيل» فور أن عرضت عليك ذلك.

- ما زلت أذكر طعم بيرة غينيز التي كرعنا المزيد منها بتلك الأكواب الكبيرة ذات العروة.
- أيّام، أيّام، لكنّها مرّت، والمكان ما زلت أذكره، وذلك الأمير أو الإقطاعي الذي قبل أن يموت أوصى بأن يكون قصره المنيف وما يحيط به ملكًا لجامعة تبنى عليه وهذا ما كان.
- أمّا اليوم وفي بلداننا المنهوبة، فاللّصّ الكبير قبل أن يفطس يبني جامعًا ليحمل اسمه وإن وجد الوقت يذهب إلى الحجّ! فكأنّه بهذا قد برّأ ذمّته.

***

وفي ذلك اللقاء الذي تمّ في منزل زيد الحبيب مع البيرة والأكلات العراقيّة اللذيذة التي تجيد زوجته تحضيرها وطهوها، طال بهما الحديث. وأراد زيد أن يستزيد منه عن حياته اللبنانيّة علّه يخفّف من كابوس ما حصل له بسبب زوجته في مركز شرطة 17 تمّوز.

وروى غسّان بعضها وهو يقول ملخّصًا ما جرى:

- لقد جئتكم سالمًا، ويبدو أنّ العمر ما زال فيه متّسع، متّسع أوصلني إلى مركز الشرطة مُتَّهمًا بسرقة سيّارة والتهديد بحرقها، وأوصلني أيضًا إلى الشقّة البائسة التي أختفي وراء جدرانها كأنّني واحد من العمّال المصريّين المهاجرين الذين سيغادرون يومًا نحو قراهم ومدنهم وأسرهم، أمّا أنا فإلى أين أغادر؟ إلى الناصريّة؟.

وكان زيد يصغي وهو يرمي في فمه بين فترة وأخرى إحدى «كبّات حلب» ويحثّ غسّانًا على أن يحذو حذوه فهي طيّبة وإن بردت ستفقد طعمها.

كان زيد يصغي جيّدًا لصاحبه وبشيء من الاعتزاز لما هو عليه من قوّة أعصاب وثقة في النفس لا حدود لها، يحكمها قدريّة نادرًا ما يكون عليها إنسان في زمن الخوف العربي والمهانة والذلّ المسفوح كالزبالة.

قال غسّان مواصلاً حديثه الذي يكشف فيه خبايا أخرى ممّا حصل له هناك:

- ذات ليلة قصف لم أستطع العودة لشقّتي وأمضيت ليلتي في...... بمنزل نصري الأسمر. وفي فجر اليوم التالي توجّهت مبكرًا إلى شقّتي، انسحبت بهدوء، وكان

والد نصري يجلس في البلكون ليحتسي قهوته. حيّيته تحيّة الصباح وأصرّ الوالد على مشاركته قهوته، وهكذا انضممت إليه قبل أن أنطلق، وعندما وصلت ركنت سيّارتي تحت العمارة التي تقف على أعمدة كونكريتيّة متينة، وراحت خطواتي تنهب طوابق العمارة باتّجاه شقّتي التي تقع في الطابق الرابع.. وهناك فاجأني ما لم أكن أتوقّعه إذ وجدت باب الدار مقتلعًا وآثار قصف على الجدران وقطع صخر متساقطة ومتكوّمة في الفسحة ما بين شقّتي والشقّة المقابلة لها، والتي كان بابها سليمًا. لحق بي نادر حارس العمارة الذي يبدو أنّه علم بمجيئي بعد أن سمع صوت سيّارتي وهي تدخل في مرآبها تحت العمارة، وبعد أن حيّاني ردّد بتأثّر:

- الحمد لله على سلامتك أستاذ، من حسن الحظّ أنّك لم تكن هنا.

و لم يفقه غسّان ما حصل أوّل الأمر لذا أخذ نادر مهمّة الشرح، وعلم منه أنّ قذيفة مدفع ضالّة دخلت من الفتحة التي تقع في أعلى السلّم وعند الطابق الرابع، وقد أصابت الحائط وتسبّبت في خلع باب الشقّة من قوّة الدفع التي أحدثتها، ودخلت بعض شظاياها إلى الشقّة متسبّبة في تحطيم بعض الأثاث وتكسير زجاج غرفة الجلوس.. وهي صدفة عجيبة!.

كان زيد الحبيب مشدوهًا تمامًا وكأنّه في حلم مخيف وليس منصتًا لحديث صاحبه عن أيّامه اللبنانيّة التي غادرها عائدًا لاستقبال الصواريخ الإيرانيّة، فكأنّ لا بدّ من مطاردة الصواريخ له، تابع غسّان:

- لقد كان الخراب كله في مدخل الشقّة، هذا الذي كنت أعتبره آمن مكان فيها، وهو كذلك فعلاً لولا هذه القذيفة التي يشكّل دخولها من فتحة صغيرة إحدى العجائب التي تنضاف لما عرفه العالم من عجائب لم يعد عددها سبعًا فقط بل صار آلافًا، ثم لحقت بنادر أمّ بسّام مالكة العمارة التي كان الهلع باديًا عليها. وطمأنتني تلك المرأة الطيّبة بأنّني عندما أعود من عملي ظهرًا سأجد كل شيء وقد تمّ إصلاحه، و لم تنس أن تكرّر بين فترة وأخرى: الحمد لله على سلامتك وأنّ الربّ حماك، كانت تقول هذا وهي غير مصدّقة ما حدث. ولكن اعلم يا زيد الحبيب يا صديقي بأنّني لم أتاجر بما حصل لي، وأخبرت القائم بأعمال السفارة فقط، ولو حصل هذا لأحد غيري لجعل منه حدثًا كبيرًا، وقد أهملته بل قل ونسيته كما حصل لمشروع اختطافي وأسرتي.. وهكذا يا صديقي. لكن هذا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ليس كل شيء، بل قل إنّ هناك حادثة أكثر رعبًا سأرويها لك في جلسة أخرى. لكنّ السؤال هو لماذا يكون الخطر في بعض الأحيان جميلاً؟.

وحاول زيد أن يستوضح ويؤكّد في الوقت نفسه عندما قال:

– يكون هكذا بعد أن نجتازه، ننجو منه، أمّا عندما يأخذنا في طريقه فالأمر يختلف، ولو كان الذين يذهبون يبوحون بشيء لربّما كان لهم رأي آخر، الخطر يعني النهاية، الستار الأخير في هذه المسرحيّة اللذيذة والقذرة التي نسمّيها الحياة.

***

رغم أنّ غسّان العامري قد شرب كثيرًا وأكل كثيرًا في تلك الليلة وأنّه قطع المسافة من شارع رمضان إلى شقّته مشيًا على قدميه بعد أن طلب من زيد ذلك، إلاّ أنّه لم يستطع النوم.

كان صوت زيد وهو يودّعه يقول:

– لعلّك تعثر على صيد، واحدة تناديك من نافذتها مثلاً، وتقول لك تفضّل أستاذ غسّان أنا معجبة بشِعرك!.

– هذا لن يحدث إلاّ في الحلم!.

وأراد أن يستخرج علبة الحبوب المنوّمة ليضع في جوفه واحدة منها إلاّ أنّه تراجع عن ذلك، إذ إنّ مفعولها يتضاعف مع الكحول وقد يرقد بعدها يومين أو أكثر.

ترك جسده يعارك أرقه وقهره، كان عليه أن لا يذعن أبدًا، يجب أن يمضي فيأخذ التحدّي مداه، وإن كان البلد في محنة انسحبت عليه وعلى شعب كامل فإنّ المطلوب منه أن يظلّ صاحيًا وأن لا تغيّبه الخمرة أو الحبوب المهدّئة عن الواقع الذي انزرع فيه. صحيح أنّه يفكّر بالمغادرة، ولكنّه يفعل هذا لأنّ ترميم الخراب يحتاج إلى سنوات، أمّا إذا بقيت الحال كما هي عليه وطروحات الحاكمين لن تتغيّر فالويل كل الويل للبلد ومن فيه.

قبل سنوات غادر العراق حزب كامل بكل قيادييه وأعضائه ومثقّفيه ومناصريه، توزّعتهم الدنيا، من اليمن الديموقراطيّة إلى الاتّحاد السوفياتي، إلى... إلى...

رحلوا بأُسَرِهم وأطفالهم وأحلامهم بل وتاريخهم وانتمائهم باتّجاه المجهول في عمليّة انكسار كبقايا جيش مهزوم، وهذا ما لم يقرّه غسّان العامري لذا يردّد: كان عليهم أن يبقوا مهما كان الثمن، أن لا يخلوا الساحة لفريق واحد فيلعب على هواه.

لكن ما حصل قد حصل، وكل يوم يمرّ هو ابتعاد عن المنبع، الأولاد يكبرون بعيدًا، يبقى الحنين وحده عنوانًا لقصائد وقصص وروايات، يكتبها الآباء ليجدها الأبناء إن هم قرأوها ألغازًا.

وذلك الروائي الكبير أمير المشرّدين المبكرين غائب طعمة فرمان أدرك هذا، فكتب رواية كاملة عن ذلك (المرتجى) الذي يقضم سنوات العمر ولن يكون.

خرجوا ليعودوا بعد أن تزاح الديكتاتوريّة وحكم الحزب الواحد كما كتبوا في أدبيّاتهم الحزبيّة، ولكن خروجهم أطال في عمرها.. ثم السؤال هو من الذي يزيح هذه الدبابير التي التصقت بدبق الحكم وسطوته؟.

تساؤلات نام عليها غسّان العامري ولكن ليس قرير العين متمتمًا بذلك المثل الشعبي الجنوبي الذي سمعه لأوّل مرّة من جدّته حسنة:

(صار البيت لمطيْره
طارت بيه فَرِدْ طيْره)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- 35 -

ذات يوم كانت رانيا خليل عنوانًا لبيروت، برائحة العشب البرّي في شعرها الكستنائي، ببياضها وشحوبها، بغموضها ووضوحها، بحيرتها وقلقها، بطموحها غير المحدود وكبوة بقائها أسيرة منطقة واحدة من لبنان خمسة كيلومترات عرضًا وعشرة طولاً. هذه كل المساحة التي منحتها الحرب لجسدها لكي يتحرّك.

كان يلتقيها بين الحين والآخر ويودّ أن يعرفها أكثر، أن يقف معها، يستوعب بعض أحلامها، لكنّها كانت تتقدّم منه خطوة وتبتعد عشرًا.

وكان يلذّ لها أن تجلس في محلّ «كاندي» بعد أن تغادر عملها منهكة، تتناول عصيرًا وقطعة حلوى، هناك كان موعدها مع غسّان العامري.

لم ترد أن يعرف أحد أنّها تلتقيه، لكنّها مع هذا عرّفته على أسرتها، والدان فيهما كل حنان الدنيا، وإخوة وأخوات جميلون، طموحون، أسيرو المكان وما يتيحه من إمكانات محدودة للعمل.

كان بعضهم يفكّر بالهجرة، أحدهم يعدّ أوراقه باتّجاه أستراليا، وآخر باتّجاه كندا.

ثم جاءت حنان عوّاد لتحتلّ المساحة كلها، لتداويه من كل جراحات رانيا خليل وتردّدها الذي أرهقه رغم أنّها محقّة فيه. ولقد بقي لبنان معه وهو في بغداد، يراه في غيّاث الإبراهيمي، أبو ريتا، النادي اللبناني، في الضيوف اللبنانيّين الذين يتوافدون إلى بغداد بكثرة.

ثم الرسائل التي لا تتوقّف، يحملها البريد أو القادمون من هناك.

أمّا الجرح الذي هناك فهو شبيه بالجرح الذي هنا، ونهر الدم يمضي دافقًا، دم ضائع من أجل لا شيء، هناك شعب يقتل بعضه، وهنا شعب مصدّر للموت في واحدة من أكثر حروب التاريخ بشاعة وأبعدها عن المعنى، فإن دخل الجيش العراقي مدينة المحمّرة الإيرانيّة سرعان ما استعادها أهلها، وإن دخل الإيرانيّون مدينة الفاو استرجعها العراقيّون.. وفي كل هذا كان الوقود بشرًا، لهم أُسر وأحلام وتطلّعات، أو شبّان لم تبدأ حياتهم بعد، من الكلّيّة إلى فم الموت المفغور الجاهز للالتهام.

في لبنان عرف غسّان العامري معنى الكرم الصافي، كل بيت تدخله من بيوت أصدقائك هو بيتك، سرعان ما تُنصب المائدة، جبنة، لبنة، زيتون، زعتر، مارتديلا، خبز ثم كأس العرق أو ركوة القهوة.

أصحاب صاروا له أهلاً، عاش معهم المحنة، بل وتفاصيل المحنة، شاركهم موهم وفسحة الحياة التي كانوا يسرقونها من عهر الزمن ولاأخلاقيّة الحرب.

أين هم؟ النقيب النقوب رعد الطويل، إياد الموسى، رانيا خليل بكل أسئلتها وخوفها وطموحها، ومارون وسعادته الزوجيّة (إلهام)، أبو مروان وسعادته الزوجيّة (آمال)، صاحباه السعيدان رغم كل شيء، المنتصران على كل ما فيهما، مارون الذي ينتزع القرش من فم الحوت ومع هذا يفكّر بالهجرة إلى السويد، وأبو مروان الذي يدرّس ويترجم ويؤلّف الكتب المدرسيّة، ومع هذا يجد الوقت لكتابة الشعر، والغزل دائمًا بامرأته.. كان غسّان لا يصدّق أنّ هذا ممكن، ولكنّ الأيّام أثبتت له أنّ ابن الخوري هذا، صاحب المثل والإيمان قادر على هذا.

ثم هناك ليلى التي ألهمت إلياس أبو شبكة أحلى أشعاره.

تلك السيّدة الأرستقراطيّة التي يعمر مجلسها برموز الأدب والشعر. غسّان أصبح صديقها منذ أن شارك في حفل خصّصته بلديّة «ذوق مكايل» لذكرى حبيبها حيث تحدّث ببساطة شاعر عاشق، يومها كان ما زال مفتونًا برانيا خليل التي لمحها وسط الجمهور فتألّق، هل تحدّث عن لوعته هو؟ أم عن لوعة أبي شبكة؟ ليس هذا مهمًّا، والفصل صعب، فالشاعر يتلبّس الشاعر، والعاشق يتلبّس العاشق.

ثم تأتي أجمل الخلاصات لكل هذا الإشراق اللبناني مجسّدًا في حنان عوّاد التي ما إن دخلت حياته حتى احتلّت كل زاوية فيها وأضاءت ما عتم من دون أن تريق قطرة دم واحدة.

تدفّقت معه مثل نبع، وكانت تنصت إليه حتى وهي في مسافتها اللبنانيّة، وهو هناك في مسافته العراقيّة مندسًّا في تلك الشقّة البائسة مع العمّال البسطاء القادمين من مدن مصر وقراها.

وفي لبنان نصري الأسمر في انشغالاته الغراميّة والأفكار التي صارت تنتابه بالهجرة إلى أميركا هو وولده للحاق بزوجته التي كانت تدعوه لذلك.

أسماء وأسماء ووجوه ووجوه شكّلت علائقه الحميمة.

علائق لم تنقطع بل تواصلت هنا في عنوان لبناني كريم اسمه غيّاث الإبراهيمي.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لقد وعد الدكتور زيد الحبيب بأن يروي له حكاية أخرى هي الأكثر رعبًا كما وصفها له، لكنّه مع هذا خرج منها سالمًا وهذا يعني أنّ الحياة تجدّد له رغبتها في أن يبقى، يظلّ حيًّا، من أجل الشعر وحنان عوّاد، ومن أجل أن لا تنهار جبهة النقاء والسلام ويحلّ طوفان الحرب والموت.

الحكاية الأكثر رعبًا حصلت قُبيل عيد الميلاد من عام 1984 بيوم واحد فقط، وكان غسّان قد سهر مع حنان عوّاد في مطعم «دون» الإيطالي، ورغم تساقط القذائف بين فترة وأخرى إلاّ أنّ هذا لا يجعل طالبي السهر وعشّاق الحياة يأبهون أو يحتجبون في الملاجئ أو في اختناق بيوتهم.

كانت حنان فرحة بسيّارتها الجديدة التي بدأت تجازف وتخرج بها بعد أن كانت تتردّد في ذلك، لذا أرجأت شراء أيّ سيّارة حتى أقنعها والدها بضرورة ذلك ليس من أجلها فقط بل من أجل الأسرة.

كما أنّها لم تعد تأبه لإعلان علاقتها بغسّان، وصارت تتردّد معه على الأماكن العامّة وغالبًا ما يلتقيان بأصدقاء مشتركين.

لقد اختارا هذا المطعم لأنّ فيه فرقة موسيقيّة ومساحة للرقص. هناك ينطلقان ليجعلا جسديهما يتحرّران من أعبائهما في هذا الاهتزاز الذائب مع صخب الموسيقى وطبولها وأبواقها المسعورة.

كانت زينة عيد الميلاد قد تموّج بها المطعم من مدخله حتى فضائه الداخلي، في السقف وعلى الجدران.

ومن عادة غسّان العامري أو من سبقه من المستشارين الصحافيّين أن يشتري كمّيّة من زجاجات الكونياك والويسكي الفاخرة ليوزّعها على الصحافيّين والإعلاميّين بهذه المناسبة، ولذا كان صندوق سيّارته معبّأ بعدّة صناديق وقد ركنها قريبًا من المطعم.

لقد أصبح أحد هؤلاء الساهرين الذين لا يحتجزهم الخوف.. وما دامت بيروت رغم كل ما فيها قادرة على أن تهب محبّيها فرصًا للفرح فعليهم أن لا يفوّتوها.

إذا أراد غسّان الخروج يخرج ولا يمنعه شيء، وأحيانًا لا يجد إلاّ سيّارته عابرة الطريق المحاذي لطريق الشام مرورًا بدار الصيّاد، ثم ينعطف باتّجاه جسر الباشا فيجتازه ويمضي شرقًا إلى لقاء صديق أو حضور حفل ثقافي أو الجلوس في مقهى «الكاستيل» وهو المكان الوحيد الذي لا يجمعه بنصري الأسمر الذي كان يفرّ من المقاهي في حين أنّ غسّانًا أحد مدمنيها.

يرفع زجاج السيّارة ويدفع بشريط إلى آلة التسجيل ويمضي، حتى الراديو يتحاشاه فقد يوقف بثّ برامجه ليُقدِّم «فلاشًا» عن قذائف أو هدوء حذر أو أخطار متوقّعة في الطريق التي يسلكها.

لذا كان الأصحاب يُفاجَأون بحضوره إذ يظنّونه لن يحضر، ومن هنا يواجهونه بالسؤال:

- كيف وصلت؟.

فيردّ عليهم ببساطة مستغربًا من استغرابهم:

- بسيّارتي طبعًا.

- والقصف؟.

ويهزّ كتفيه بلامبالاة:

- لا علاقة لي به، أنطلق والذي يحصل يحصل، وما دام في العمر متّسع فلا خوف عليّ، كل شيء في أوانه.

ولا بدّ أن يختم حوارًا كهذا بقوله:

- إذا بقيت أنصت للإذاعات فلن أستطيع مغادرة مكاني أبدًا وسيتحوّل بيتي إلى سجن مكين.

بعد أن ملأ الرقص وأكلا وثملا بعض الشيء توادعا، ضمّها إليه متمنّيًا لها ليلة سعيدة.

كان طريقها جبليًّا وهو سيمضي بالاتّجاه الآخر. بينما كان المطر ينزل نثيثًا مصحوبًا ببرد قويّ اضطرّه لفتح مدفأة السيّارة.

عندما أدار المحرّك وضع الشريط ليدور بصوت ماجدة الرومي في أحدث أغانيها وبينها قصيدتان من وضع نصري الأسمر. وكان هناك اقتراح بأن تغنّي لغسّان قصيدة بعد أن قرأت بعض دواوينه، لكنّه تقاعس ولم يتابع الموضوع إذ لا بدّ من إجراء بعض التبديلات لتكون القصيدة مقبولة كأغنية، وهو لم يكن مستعدًّا لهذا ما دامت القصيدة قد أخذت شكلها النهائي منشورة في ديوان.

في منطقة «سدّ البوشريّة» هناك نقطة حراسة عسكريّة توقّف غسّان فيها بعد أن خرج عليه جندي يتلفّع بمعطف مطري وهو يسأله عن وجهته فأجابه:

- الحازميّة.

فما كان من الجندي إلاّ أن علّق على ما سبق مستغربًا:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- أليس بإمكانك العودة من حيث أتيت؟ ألم تسمع القذائف وهي تسقط على المنطقة مثل المطر؟.

لكنّه عاد وقال له مستحثًا:

- يا الله، أسرع، لا تتوقّف، طِرْ.

ووجد غسّان نفسه يلبّي ما أراده منه الجندي وزاد من سرعة سيّارته التي سلكت الطريق الغارق في الظلام عدا بعض اللمعان الذي يسبّبه البرق بين فترة وأخرى وربّما القذائف.. فهو لا يسمع شيئًا في السيّارة المغلقة عدا صوت ماجدة الرومي.

وبين الحين والآخر تعبره سيّارة منطلقة بسرعة أكبر من سرعة سيّارته، أو تقابله سيّارة قادمة كأنّها ملاحقة وتبدو له وكأنّها طائرة من فوق الأرض!

وعندما وصل إلى مستديرة الحايك حثّ سيره نحو جسر الباشا مرتع القذائف المفضّل نظرًا لانخفاض المنطقة ووجودها كالرابط بين الحازميّة وبقيّة المناطق اللبنانيّة في المتن وجبيل وما جاورهما.

وما إن سلكت السيّارة الطريق النازل نحو جسر الباشا حتى وجد بمواجهته سيّارة قادمة وبسرعة فائقة هي الدليل على مدى خوف سائقها.

ووجد غسّان نفسه في موقف صعب وبحاجة إلى الحسم خلال ثوان، فلو أنّه توجّه يمينًا لاصطدم بالجدران، وإذا مضى في طريقه فإنّه سيصبح نثارًا هو وسيّارته والسيّارة القادمة بمن فيها، وبدا له وكأنّ السائق القادم كان مصرًّا على المضيّ أمامًا حتى لو اصطدم به.

لذا جاءه الحلّ السريع بأن ينزل يسارًا في منحدر ينتهي بأحراش وأشجار عالية لم تسلم من القصف على مدى سنوات.

وهكذا فعل وانحدرت به السيّارة وهي ما زالت على سرعتها القصوى، وقد بدأ بالضغط على الكابح لكن قوّة الدفع والهبوط عطّلت الكابح و لم يعد له أيّ دور في إيقاف اندفاعة السيّارة حيث أخذت مداها في الهبوط، وانطفأت فجأة عند اصطدامها بعمود كهرباء مثبّت بقاعدة كونكريتيّة عالية ومتينة.

كانت الضربة من القوّة إلى درجة جعلت خروجه من السيّارة متعذّرًا.

أفاق من الضربة وكأنّه كان رهن كابوس مريع، لقد ساهم في حمايته حزام الأمان ووضعه للمقود بعيدًا عنه وبشكل منخفض بحيث أنّ اصطدامه يكون في بطنه لا في صدره ورأسه.. تلك تعليمات ردّدها عليه نصري الأسمر الذي كان يلتزم بها، وقد بدأ غسّان الاعتياد عليها تدريجيًّا عند قيادته السيّارة.

فتح حزام الأمان وحاول فتح باب السيّارة، وكرّر ذلك مرارًا بواسطة كتفه حتى انفتح.

وعندما نجح في ذلك خرج وهو يتحسّس جسده لعلّه أُصيب.

ووجد نفسه يقف على قدميه سليمًا، وهذا يعني أنّه بخير.

لكن رائحة زجاجات الويسكي والكونياك التي تحطّمت جرّاء الضربة في صندوق السيّارة الخلفي قد فاحت في المكان.

وسمع وقع أقدام فإذا بجنديين من المعسكر القريب يسرعان نحوه.

وعندما رأياه واقفًا ومقدّمة السيّارة قد انطبقت إلى الخلف من هول الضربة لم يصدّقا أنّه كان داخلها وخرج سالمًا.

وراحا يسألانه إن كان هناك أحد غيره في السيّارة فأخبرهما أنّه وحده، ودفعتهما رائحة الخمرة للتساؤل إن كان سكرانًا لهذا الحدّ؟.

فأجاب:

- أبدًا، أنا من السفارة العراقيّة، وهذه هدايا بمناسبة عيد الميلاد ورأس السنة! ويبدو أنّها تكسَّرت كلها من شدّة الضربة.

فعلّق أحدهما:

- العوض بسلامتك.

فشكره، ثم طلب منهما الاتّصال بالسفارة، وقد أملى الرّقم الذي راح أحدهما يسجّله رغم أنّ المطر يحول دون ذلك، وبعد دقائق حضر اثنان من حرّاس السفارة التي لم تبعد عن المكان إلاّ مسافة قريبة وهما يستقلاّن سيّارة اللاندروفر، وبعد أن اطمأنّا عليه واستفسرا عمّا حدث طلبا منه أن يركب، أمّا سيّارته فقد ربطاها بحبل متين إلى سيّارتهما وسحباها.

قال أحدهما:

- لو تركناها ساعتين فقط لما وجدنا منها شيئًا!

لقد تمّ كل شيء بسرعة والمطر لم يتوقّف بل ازداد كثافة، أمّا القذائف وقد سقطت إحداها على مشارف الحازميّة فلم تعد تثير خوفهم وهم يعيشون هذه القدريّة، وكأنّها الحياة نفسها، وليست هناك أيّة حياة غيرها، بإيقاع مختلف، أكثر هدوءًا، أكثر أمنًا.

كان الخوف ملغيًّا تمامًا، لا وجود له، عايشوه وعايشهم فصار أمرًا عاديًّا في حياتهم. تتساقط القذائف في بعض الأحيان وسط زحمة الأسواق، يذهب قتلى وجرحى، تُرفع الجثث وتُغسل الأرض من الدم وتستمرّ الحركة في السوق وكأنّ شيئًا لم يحصل.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أوصل الحارسان السيّارة إلى الفسحة أمام السفارة وتركاها هناك.

آنذاك أصرّ السائق فارس الخفاجي الذي هرع عندما رآهم قادمين على مرافقة غسّان إلى المستشفى ليطمئنّ عليه. وكان غسّان قد امتثل لمقترح السائق الذي شرح وجهة نظره بأنّ آثار مثل هذه الحوادث قد لا تظهر في الوقت نفسه، ولعلّ وجودهم كعراقيّين بعدد قليل جعلهم أكثر حنوًّا على بعضهم.

في المستشفى أدخلوه إلى طبيب أجرى له فحصًا أوّليًّا ووجّه له بعض الأسئلة، وأجاب غسّان:

- ربّما يكون رأسي قد ارتطم بالزجاج، وهذا ما سبّب لي دوخة سرعان ما أفقت منها، أو ربّما كان ذلك من هول المشهد الذي أحتاج إلى وقت حتى أستجمعه رغم أنّني شاعر يا دكتور ولا تنقصني القدرة على التعبير.

هذه الملاحظات التي أنصت إليها الطبيب باهتمام جعلته يطلب منه أن يمضي ليلته، أو ما تبقّى من ليلته في المستشفى تحت المعاينة.

وذكر غسّان للطبيب أنّه نتيجة تعرّضه للبرد والمطر، فهو يحسّ ببداية رشح.

أعطاه أقراصًا جعلته يخلد للنوم في إحدى غرف هذا المستشفى النظيف الذي أُطلق عليه اسم المستشفى الألماني، والذي يخضع لحماية مضاعفة نظرًا لقربه من المباني الرسميّة المستهدفة وعلى رأسها وزارة الدفاع والقصر الجمهوري.

وكان غسّان كلّما مرّ بقرب هذا المستشفى يستغرب بقاءه في ذلك المكان إذ تطاله القذائف باستمرار.

وفي صبيحة اليوم التالي عاده الدكتور من جديد وسأله عن حالته فأجابه:

- كل شيء تمام، كما نقول.

قام بفحصه وقاس ضغطه ودرجة حرارته ثم أخبره أنّ بإمكانه مغادرة المستشفى على أن يواصل تناول الحبوب التي كتبها له في وصفة لمدّة أسبوع، وإذا أحسّ خلال هذا الأسبوع بشيء غير طبيعي فعليه مراجعته فورًا.

أخذ العدد الصغير من موظّفي السفارة يتوافدون على غرفته لتهنئته بالسلامة بعدما رأوا السيّارة أمام السفارة وهي مدعوكة كعلبة دخان فارغة، وكان يعيد رواية الحكاية حتى ملّ، وفكّر لو كان بإمكانه تسجيلها على كاسيت ليسمعها كل من يرغب في معرفة الأمر.

وتمّ إيداع السيّارة عند ميكانيكي في منطقة الأشرفيّة بعد أن اتُّفق معه على الثمن. وكان القائم بالأعمال قد أبرق إلى وزارة الثقافة والإعلام ليعلمهم بالحادث ومبلغ تصليح السيّارة.

لكنَّ جواب الوزارة كان جافًا خاليًا من اللياقة إذ لا ذكر فيه لتهنئة بالنجاة بل كان نصّه كالتالي:

(علمنا بالحادث ولا مانع لدينا من تصليح السيّارة لكن يغرّم المستشار الصحافي ثمن ذلك، ويستقطع المبلغ على ستّة أقساط من مرتّبه الشهري).

وهنا صرخ غسّان محتجًّا بعد أن أدخلت عليه سكرتيرته سهام البرقيّة التي حوّلها لها القائم بالأعمال دون أن يعلّق عليها بشيء.

ووجد في هذا الجواب الفجّ مفارقة قبيحة تدلّ على مدى الاستهانة بالبشر. فبدلاً من أن يحمدوا الله على سلامته سجّلوا هذا الطلب الغريب بتغريمه ثمن تصليح السيّارة.

وهنا فكّر غسّان بتسريب صورة من البرقيّة إلى إحدى الصحف اللبنانيّة لفضح أولئك المتمترسين وراء مكاتبهم هناك، ولكنّه تراجع إذ إنّ ظروف البلد المورّط بحرب لا أوّل ولا آخر لها، لا تسمح بفضيحة من هذا النوع، رغم أنّهم يدفعون للمرتزقة بسخاء يكفي لشراء أسطول من السيّارات.

لكنّه لم يسكت.. فحوّل غضبه إلى كلمات سطّرها في برقيّة إلى رئيسه المباشر ببغداد.

ويبدو أنّه أحسّ بخطأ ما كتبه في برقيّته الأولى، لذا ردّ معتذرًا وبأنّ الوزارة ستتحمّل نفقات التصليح.

* * *

هذه الحكاية تذكّرها غسّان العامري، وهي حكاية لم يروها لزيد الحبيب بعد، ولكن إن رواها له فبماذا يعلّق؟!.

كان هذا سؤاله المرجأ إلى مناسبة أخرى.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- 36 -

استقلّ غسّان سيّارة تاكسي بعد أن افتقد صديقه طارق المنصور محـامي الشـعب المقهور لعدّة أسابيع، وكان من عادته أن لا ينقطع عن زيارته كل هذه المدّة.

واتّجهت السيّارة نحو محلّة البيّاع حيث مكتبه الذي يقع في سوق شعبـي كبير.

كانت اليافطات الثلاث التي تحمل اسمه بأسهمها تعلن عنه، وكأنّها تنـادي المـارّة بأصوات مسموعة.

غادر سيّارة التاكسي وتوجّه نحو العمارة التي يعرفها لكثرة تردّده عليها.

ووجد حارسها شمخي يجلس على كرسي خيزراني في الباب مراقبًا حركة الشـارع ويده تعبث بحبّات مسبحته، وعندما رأى غسّانًا نهض مرحّبًا به.

وسأله إن كان المحامي طارق المنصور قد وصل أم لا، فأجابه أنّه موجود.

وقد أراد التأكّد لأنّه لم يجد سيّارته متوقّفة في مكانها المعهود أمام العمارة.

كانت العمارة تضمّ مكاتب محامين وطبيبة أسنان ووكلاء استيراد وتصدير في هـذا السوق العشوائي المزدهر بالبضاعة، من الكهربائيّات، إلى الأحذية والملابس، وكانت تُدار جميعها تقريبًا من قبل عمّال مصريّين بعد أن جنّـدوا أصـحابها في الجـيش أو الجـيش الشعبـي، عدا تجارة الفواكه والخضروات إذ منعت عليهم بقرار رسمي حيـث كثـرت الشكاوى من ارتفاع أثمانها الذي لم يحدث أن عرفه البلد من قبل ورغم توفرها في السوق.

وبعد البحث عن الأسباب اكتشفوا أنّ هناك مصريًا، على درجة عالية من «الفهلوة» والحذق، كان يدير تجارة الخضروات والفواكه في كل محلاّت بغداد؛ وهو الـذي يقـرّر الأسعار التي يقوم بتبليغها، عمّال تابعون له إمّا بواسطة التليفون أو على الدرّاجات.

يتمّ كل شيء وفق شبكة محكمة الخيوط.. لذا استحقّ أن يلقّبه العاملون معه بملـك الفواكه والخضروات.

وقد أودع السجن نتيجة هذا، ثم سمع غسّان بموضوعه هذا من مقداد عبـد الرضـا الفنّان وصاحب مكتبة الرفيف لبيع الصحف والمجلاّت.

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة ببضع دقائق، وعندما وصل غسّـان إلى مكتـب صاحبه وجد الباب مفتوحًا.

وتوجّه نحو غرفته التي كان بابها نصف مفتوح، نقر على خشب الباب ثم دخل.

كان طارق المنصور جالسًا على طرف الكنبة شبه سارح وهو ينصت إلى موسيقى خفيفة تبثّها آلة تسجيل.

ونهض مرحّبًا به.

قال غسّان:

- أين أنت؟ لماذا لا تسأل؟ قلقت عليك..!

وقهقه طارق قبل أن يتفوّه بكلمة، ثم قال:

- كثرة الشغل كما ترى!

وأردف:

- كل يوم أقرّر التوجّه إليك ولكن في آخر لحظة أؤجّل ذلك، والأيّام تتراكض مثل الخيول!.

- يافطاتك الثلاث تكاد تمسك بتلابيب المارّة وهي دليل على أنّك محام فاشل، ولو لم تكن كذلك لما احتجت إليها، يكفي واحدة صغيرة على باب العمارة. هناك محامون لا يضعون يافطة ولكن المراجعين يهتدون إليهم.

وهنا سأله طارق:

- ماذا تحبّ أن تشرب؟ بارد؟ حارّ؟

- وماذا لديك؟

- كل ما تحبّ، حتى البيرة.

- أفضّل شيئًا ساخنًا..، شاي مثلاً.

وخرج طارق ليعدّ الشايّ بنفسه إذ أنّه وكما أخبر صاحبه من قبل من المتعذّر عليه الحصول على فرّاش لمكتبه، فالجميع الذين هم في سنّ تؤهّلهم لذلك مجنّدون في جبهات الحرب لعنة الله عليها وعلى اسمها، أمّا السكرتيرة فأمرها آخر. ومتطلّباتها لا حدود لها، ولم يبق غير العمّال المصريّين الذين من الصعوبة جدًّا أن يجد واحدًا يستطيع أن يأتمنه على مكتبه وتليفونه.

وعندما عاد طارق بالشاي وضعه على الطاولة أمامهما، وقد اكتسى وجهه بمسحة من الانشراح سببها مجيء غسّان المفاجئ.

وتحرّكت يداهما لتخوطا الشاي بعد أن وضع كل منهما كمّيّة السكّر التي تناسبه.

سأله غسّان:

- عندما دخلت عليك وجدتك وكأنّك في دنيا أخرى، أنا أعرفك جيّدًا فهذه ليست من عاداتك، قل لي ما الأمر؟.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وهنا انفجر طارق بالبكاء الذي لم يتوقّعه و لم يعهده منه، وهي المرّة الثانية التي يرى فيها هذا الرجل الفخور بطول قامته ومتانة بنيانها وبصوته الجهوري الذي لا يكفّ عن القهقهة الساخرة على هذه الحال.

وألحّ غسّان بالسؤال:

- أكاد لا أصدّق! أطارق المنصور على هذه الحال؟

وبعد أن ارتوى من بكائه قال بائحًا:

- إنّ السبب يدعو للبكاء فعلاً، لا بل إلى الانتحار.

وكبر التساؤل في أعماق غسّان فصرخ:

- ألا تخرجني من هذه الأحاجي والألغاز وتقول لي ما بك؟ هل حصل شيء لولدك؟.

ونطق:

- بل حصل شيء يتعلّق بي. لقد عاودتني الحالة إيّاها بعد أن تجاوزتها، وعدت إلى سالف عهدي في أداء مهامي الجنسيّة الشرعيّة وغير الشرعيّة على أتمّ وجه، لا أدري ماذا بي؟ هكذا عاودتني العنّة المفاجئة، وهذا الذي بين ساقيَّ والذي كم تباهيت بعدد النساء اللواتي أولجته فيهنّ خمد فجأة، وأصبح يتدلّى مثل ذيل خنزير.

- ومتى حصل هذا؟

- منذ ثلاثة أيّام، حاولت مع صديقتي ولا فائدة، وفي اليوم التالي مع زوجتي ولا فائدة أيضًا.. هل هي النهاية؟ لقد تكرّرت مرّتين، وهذه المرّة بشكل هدّني وأفزعني.

وقال غسّان محاولاً تهدئته وتخفيف ما يحسّ به من إحباط:

- لماذا لا تراجع طبيبًا؟

وردّ على الفور:

- أخجل، لا أقوى حتى على فتح الموضوع مع أحد.

- ما رأيك بأن نتوجّه الآن نحو عيادة الدكتور منعم؟

وهنا هبّ طارق ليقول:

- إلاّ هو، هذا السفيه سيحوّلني إلى نكتة، وأنت تعرف لسانه.

فعلّق غسّان:

- يا أخي على مهلك، شويّة شويّة، هل سمعت بأنّ الله سيزيح النسوان من على وجه الأرض؟ فأصبحت كما يقول ذلك المثل الذي يتردّد على ألسنة أهل مدينتنا «فحل شبوّة»؟ أي لا همّ لك ولا شاغلاً إلاّ الجماع؟.
- بربّك غسّان، هل هناك أجمل من النيك؟ وأيّ معنى للحياة بدونه؟.

وحاول غسّان أن يخرجه من كآبته بتغيير الحديث حيث سأله: وماذا عن ولدك الهارب من العسكريّة؟.

- عرفت مكانه وسيبقى مختبئًا فيه ولن أسلّمه لهم إذ هم لا أمان لهم والإعدام عندهم مثل شرب كأس ماء أو حتى مثل الذهاب للمرحاض، أولاد الإِيه...

كان غسّان يحمل بيده مجلّة تراثيّة راح يقلّبها عندما ذهب طارق لإعداد الشاي، ووقعت عيناه على فقرة كأنّها وضعت خصّيصًا من أجل طارق النادب لعضوه في وقت كان يعاني موضوع ابنه الهارب من العسكريّة. وعندما هدأ قليلاً سأله:

- هل سمعت يومًا بفيّاض بن نجيح؟
- أبدًا، ومن هو هذا المخلوق؟
- وَرَد قول له عند الإمام الغزالي في كتاب آداب النكاح وكسر الشهوتين، حيث قال فيّاض بن نجيح هذا:

وقطع طارق حديثه:

- هل تتصوّرني كوركيس عوّاد، أم مصطفى جواد؟ أنا مدرّس رياضة تطوّر أو تراجع إلى محام في حيّ البيّاع، فلا تسألني عن هؤلاء؟.
- يقول هذا المخلوق إنّه إذا قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله. وأنت محام مشهود له، أوكلك البعض على شؤونهم وشجونهم، فيجب أن تحتفظ بكامل عقلك من أجلهم، ونوم صاحبك الذي يبدو أنّه سيكون أبديًّا هذه المرّة سيعيد لك ثلثي عقلك وتصبح قادرًا على التركيز أحسن من ذي قبل؟.

وهبّ طارق صارخًا:

- لو بقي على نومته لفقدت كلّ عقلي!.

ثم أكملا احتساء الشاي، وكان مجرّد أكياس جاهزة نقعت في الماء الساخن ممّا جعل غسّان يقول مازحًا:

- شاي الأكياس هذا مثل النيك على الواقف!.
- هل جرّبته؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- مرّات قليلة.
- نيك جميل، لا تتعب منك إلاّ ساقاك!.

وانطلقا يضحكان.

نظر طارق إلى الساعة وقال:

- أعطيت موعدًا لتاجر سيّارات، لديه قضيّة ويحبّ أن يعرضها عليّ، ننتظره ربع ساعة وإن لم يأت سنخرج، وعوّضنا الله بما فاه به فيّاض بن نجيح لعنة الله عليه فهو فأل سيّء لي.

ثم قال بعد فترة صمت كان خلالها يقلّب بعض الأوراق أمامه:

- فاتني أن أخبرك أنّ محامي زوجتك اتّصل بي قبل يومين.
- وماذا يريد؟
- طلب منّي أن أعرض عليك إعادتها إلى عصمتك وهي على استعداد لأن تعتذر لك وتُبدي ندمها على كل ما فعلته بك، وكل هذا من أجل أن لا تلتصق بها صفة مطلّقة، وليس لديها مانع من أن تتزوّج بامرأة أخرى، وهي على استعداد لأن تعطيك إقرارًا خطّيًّا بهذا؟ فماذا تقول؟.

هزّ يده وبرم شفتيه ونطق حاسمًا:

- أتسألني أنت يا طارق؟
- فقط لأبرِّئ ذمّتي باعتباري محاميك رغم أنّني أعرف جوابك.

وراح غسّان يتمتم ببيت شعر:

- عقارب الساعة لن ترجع للوراءْ

قطارنا مرّ ولا جدوى من البكاءْ.

ثم التفت إلى طارق المنصور المنكفئ على ما حلّ بذكورته وخطابه محاولاً تغيير وجهة الحديث:

- إنّني طليق، ولا بدّ أن أبدأ، لا أدري من أين؟ ولكنّني سأبدأ حتمًا.. فغسّان العامري لن ينتهي، وأحلامه متّقدة دومًا.

ترك طارق الملفّ الذي كان يقرأ فيه ثم نظر إلى ساعته وبعد ذلك نهض وهو يقول:

- هذا التاجر ابن العاهرة لم يأت، يريد رفع قضيّة على شخص يدّعي أنّه لم يسدّد له ديونه، أي سرقه كما يحبّ أن يقول، وبالنتيجة كلهم لصوص، أثرياء حرب،

يصرف على راقصة في ملهى بليلة واحدة ما يساوي راتبـــك في ســـنتين أيّهـــا الشاعر النحرير.

بدا طارق وقد استعاد عافيته النفسيّة، ربت بيده على صدره وهو يقول:

- هيّا، لنخرج، لعنة الله على صاحبك فيّاض بن نجيح!.

وانطلقت بهما سيّارة طارق باتّجاه شارع أبـــي نواس، وهناك اندسّا في بار شعبـــي ليشربا العرق العراقي ويبوّلا على العالم على حدّ ما فاه بذلك الشاعر غسّان العامري، رغم أنّ طارق المنصور فضّل استعمال كلمة (يشخّ) بدلاً من يبوّل، لأنّها أكثر قدرة على التعبير عن المعنى.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- 37 -

كانت صباحات غسّان العامري مرتبطة بعدنان العزيزي، فإن لم يمرّ به لأمر طارئ فإنّه يجد نفسه وحيدًا إذ جميع الأصحاب في أعمالهم.

ومن عادته أن يظلّ مرابطًا في الشقّة، وإن لم يكن لديه ما يأكله يخرج ليأتي بنصف دجاجة مشويّة (بالتنّور)، وهي الطريقة التي شاعت بدلاً من الشيّ بأسياخ تدور في آلات تحرّك بالكهرباء.

وإن كان لديه ما يشربه، بيرة، عرقًا، فإنّه لا يتوانى عن تناول كأسين أو ثلاثًا ليهمد في نومة عميقة.

وإن ملّ الشقّة وفضّل الخروج فإنّه يقصد محطّة الباصّ التي تقع قريبًا من العمارة التي تضمّ شقّته، وعندما يأتي أوّل باصّ يتهادى بطابقيه ولونه الأحمر فإنّه يصعد إليه سواء كان ذاهبًا باتّجاه الباب الشرقي أو باب المعظم.

وطريق الباصّ هو الذي يحدّد وجهته وغالبًا ما يفضّل الباصّ المتّجه نحو باب المعظم، إذ ينزل في الصالحيّة ليجلس بعض الوقت في المقهى الصغير المكتظّ القريب من الإذاعة الذي اعتاد ارتياده مغنّون معروفون أو طامحون إلى ذلك إضافة إلى موسيقيّين ومؤلّفي أغان وصحافيّين مختصّين في البحث عن الأخبار الفنّيّة، كما تتمّ الصفقات في هذا المقهى، تلحين أغنية، بيع كلماتها، الاتّفاق مع مغنّ..

وغالبًا ما يجد غسّان من يعرفه بين روّاد هذا المقهى فيشاركه الحديث لينصرف بعد أن يفرغ من تناول «إستكان» الشاي المنعش.

ثم يعبر الجسر مشيًا ويدلف يسارًا في شارع النهر متوقّفًا أمام واجهات دكاكين صاغة الذهب والفضّة من الصابئة الذين يتوارثون هذه المهنة، ولا أحد غيرهم قادرًا على الإبداع في هذا المجال.

ثم يواصل مشيه على غير هدى، يتوقّف ليحادث صديقًا يلتقيه صدفة، يتأمّل النساء الجميلات اللواتي يقصدن هذا السوق لشراء هدايا الأعراس من قلائد وأساور وخواتم.

ثم يدخل الأسواق العربيّة المسقفة حيث دكاكين باعة الأقمشة والسجّاد وصولاً إلى سوق السراي الذي كان يضمّ أعرق مكتبات بغداد، ثم تحوّل إلى دكاكين للسرّاجين الذين يصنعون الأحذية وباعة القرطاسيّة، و لم تبق أيّ مكتبة مهمّة فيه.

عندما يموت الآباء فإنّ أبناءهم لا يرثون عنهم المهنة، إذ يكونون قد تخرّجوا من الجامعات وانخرطوا في أعمال أخرى، لذا باعوا مكتبات آبائهم لتتحوّل بسرعة إلى صانعي الأحذية.

ولكن بعض الباعة المسنّين الذين اعتادوا افتراش الأرض لبيع الكتب القديمة هم وحدهم من تبقّى ليذكّر المارّة بماضي هذا السوق.

وكم من مرّة عثر غسّان على أحد دواوينه القديمة هناك أو مؤلّفات شعراء وقصّاصين آخرين.. وما يثير استغرابه أنّ بعض هذه الكتب مهداة ومسجّلة عليها عبارات الودّ من المؤلّفين، وقد أوحت له هذه المسألة مرّة بكتابة مقال عنْوَنَه بـ (بيع الكتب المهداة)، ورأى في هذا العمل استهانة بل وخسّة من قبل من يقدم على بيع كتاب أُهدي إليه، وكان بإمكانه أن يمزّق ورقة الإهداء قبل بيعه إن كان لا بدّ من هذا، رغم أنّ الكتب القديمة يقلّ سعرها إلى الربع أيًّا كان مؤلّفها.

ويذكر أنّه اشترى ديوانًا له سبق أن أهداه إلى صديق له بعد إلحاح ومطالبة، ولمّا أصدر بعده ديوانًا آخر جاءه هذا الصديق مطالبًا بنسخته فما كان منه إلاّ أن اشترط عليه أن يريه الديوان الذي سبقه والذي قام بإهدائه له. فردّ أنّه في بيته، ومع كتبه الأثيرة العزيزة عليه. وقد انسحب خاسئًا عندما كشف له غسّان الحقيقة.

بعد أن وصل إلى مقهى الزهاوي وجده محتشدًا كعادته برجال كبار السنّ، جلّهم من وجهاء بغداد الذين كانت أسماؤهم على كل لسان ذات يوم، وبينهم وزراء ومدراء عامّون من العهد الملكي.

تأمّلهم غسّان من وراء الزجاج وضحك في سرّه وهو يقول:

- إنّني زميل لهم، متقاعد مثلهم، رغم أنّ هذا الزمن هو زمني وأنّني ما زلت فتيًّا قادرًا على المقارعة.

***

بعد أن طلّق زوجته عرف الوسط الأدبي كلّه بذلك، ولم يلمه أحد اطّلع على شيء من تفاصيل ما جرى، فالمجتمع العراقي ما زال محافظًا في أمور كهذه، ولا يمكن أن يغفر لامرأة تذهب للقاء كبار المسؤولين من أجل الإساءة إلى زوجها وغلق الأبواب في وجهه.

إنّ الفكرة نفسها مرفوضة وتعدّ اعتداء على كرامة الزوج مهما كانت فعلته بحقّ الزوجة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكان من رأي صديقه الشاعر هادي مجدي أن يترك الأمور تهدأ ومن ثم يطلب لقاء مع الوزير، وكان غسّان آنذاك قد نقل إلى دائرة أخرى من دوائر وزارة الثقافة والإعلام ولكنّها تقع في المبنى نفسه، ووجد نفسه يشغل مكتبًا صغيرًا في قاعة واسعة يشاركه الجلوس فيها أكثر من عشرة موظّفين من النساء والرّجال وأغلبهم من حديثي الالتحاق بالوظيفة. وما دام غسّان العامري يحمل درجة مدير حصل عليها بعد حوالى العشرين عامًا من الخدمة الرسميّة، فإنّ في القوانين الإداريّة أنّ من يحمل درجة مدير يعطى مكتبًا مستقلاً إذ للدرجة الوظيفيّة حرمتها، ولكن هذا لم يوفّر له بل زُجّ به في هذه القاعة.

ولكن أمام ارتباك كل شيء وصعود موظّفين صغار إلى أعلى المراتب بمراسيم جمهوريّة وهم لا يملكون الكفاءة، ومؤهّلهم الوحيد ارتباطهم بقرابة هذا أو ذاك أو انخراطهم في المؤسّسات الأمنيّة وما هم بالنتيجة إلاّ عيون لها، فإنّ المدير غسّان العامري وجد نفسه منفيًّا في هذه القاعة الضاجّة والواسعة. ومع هذا حرص على أن يحضر كل يوم مع بداية الدوام الرسمي، يقرأ جريدته، أو كتابًا حمله، يكتب شيئًا، وعندما يحين موعد الانصراف يغادر.

و لم يلتق به مدير عام الدائرة التي نقل إليها أو يطلب منه تأدية أيّ عمل.

وذات مرّة أخبره الدكتور زيد الحبيب بأنّهم صاروا يقلبون أوراقك القديمة، وبداياتك السياسيّة إذ كنت محسوبًا على اليسار. هذا ما وصلني من مصدر ثقة.

فقال معلّقًا:

- صحّ النوم.

وأوضح الدكتور زيد:

- أمّا أهمّ ما يسجّلون عليك اليوم هو أنّك لم تكتب قصيدة واحدة في تمجيد رئيس الدولة، أو قصيدة عن الحرب المعتلقة مع إيران.

فردّ ببساطة:

- ألم تكفهم هذه المهرجانات والشعراء المستوردون؟ إنّني لست شاعر مناسبات؛ وفي حياتي كلها لم أكتب قصيدة في مدح أحد عدا الوطن أو المرأة التي أحبّها، وكتبت لابنتيّ أيضًا، وعن شعراء رحلوا، غادرونا مبكرين، انتحارًا، أو ألمًا.. ثم ماذا أكتب عن حرب لا أؤمن بها ولا أقرّها؟.

ثم عاد الدكتور زيد ليقول بودّ وحرص، لا يشكّ غسّان في صدقهما:

- إذا وجدت منفذًا لمغادرة الوظيفة فافعل ذلك بسرعة، اسبقهم قبل أن يفعلوا ذلك هم، أنت الآن بالنسبة لهم زائد، لا نفع لهم منك، خذها منّي.

وردّد غسّان:

- هذا ما أحسّه. إنّهم يجلسونني في قاعة كبيرة مستباحة من قبل الداخلين والخارجين، وقد يفعلون ما هو أكثر من هذا، ولكنّني لن أذعن لهم، وسأفوّت عليهم الفرصة.

وكأنّما الأمور تتسارع باتّجاه واحد، إذ وجد ذات صباح الوزير يدخل القاعة يرافقه المدير العام، ونهض غسّان ليسلّم عليه، فسأله الوزير:

- هل أنت مرتاح في عملك الجديد؟.

وتمتم:

- كما ترى. لكن لديّ رجاء واحدًا.

وسأله الوزير:

- وما هو؟.

- أن تجدوا لي غرفة ولو من مترين مربّعين لأستطيع أن أجمع أفكاري، أمّا هذه القاعة فأترك لك الحكم عليها.

وقال الوزير:

- بسيطة، بسيطة.

وهنا نطق المدير العامّ:

- أستاذ! لقد قرّرنا أن نقطّع هذه القاعة إلى غرف وقد قدّمت لكم طلبًا بهذا والمبلغ المقترح له.

وردّ الوزير وهو يستدير منسحبًا:

- سأحوّله إلى شعبة الهندسة لدراسته.

***

وقد تأكّد غسّان آنذاك ممّا قاله له زيد من أنّ عليه الانسحاب من هذه الوزارة، إذ لم يعد له مكان فيها، وبهذا فإنّه لا يجد داعيًا لأن يلتقي بالوزير كما اقترح هادي مجدي سواء اليوم أو بعد شهر، فالجفاء واضح يعلن عن نفسه في وجه الوزير وكأنّ زيارته للقاعة كانت لغاية واحدة هي التشفّي منه، وهو الوزير نفسه الذي أعطاه مكتبًا مقابلاً لمكتبه عند عودته من بيروت، وكان يلتقيه كل يوم ضمن مجموعة من مستشاريه، ومن ثم أسند إليه منصب مدير عام مساعد رغم أنّه لم يكن راغبًا في هذا، وفي مناسبة أخرى عرض عليه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

منصب مدير إذاعة بغداد فاعتذر غسّان؛ واستغرب هذا منه، إذ إنّ موظّفي الوزارة يفعلون كل شيء من أجل المنصب، فمن أيّ طينة قُدّ غسّان العامري هذا؟ وأمهله ثلاثة أيّام ليفكّر، وكان جواب غسّان الاعتذار.

***

كان من عادة الوزير استقبال المواطنين صباح كل سبت، ومن يريد مقابلته يسجّل اسمه لدى موظّف الاستعلامات، وعندما مرّ قرابة الشهر دون أن يظهر ما يدلّ على أنّهم سيقومون بتقطيع القاعة الفسيحة المستباحة إلى مكاتب، عزم غسّان على القيام بالفعل الحاسم، وهذه عادته التي جُبل عليها إذ إنّه يكره أنصاف الحلول، كما يكره الإذلال البطيء الذي ظنّوا أنّهم قد وضعوه فيه، وأنّه لا غنى له عن العمل، وكل الأبواب مغلقة، والسفر ممنوع والحرب لا أمل في نهايتها.

خرج غسّان من داره ذات صباح، وشرب «إستكان» الشاي الأوّل في مقهى بمنطقة «علاّوي الحلّة» ينطلق منه صوت المغنّي الشعبي سعد الحلّي مبكرًا.

ومضى باتّجاه الوزارة مشيًا على قدميه، وقبل أن يتوجّه إلى مكتبه سجّل اسمه لدى موظّف الاستعلامات مع طالبي لقاء الوزير ممّا جعل الموظّف يعلّق:

- ولكنّك تستطيع رؤيته متى شئت؟.

وقال:

- هكذا أفضل، لعلّه يكون مشغولاً بأمور مهمّة في الأيّام العاديّة.

فامتثل الموظّف لما أراد.

وعندما حلّ موعد المقابلة جلس مع المواطنين الآخرين وبيده ملفّ فيه ورقة واحدة، هي مطلب إحالته على التقاعد لينصرف إلى إنجاز مشاريعه الأدبيّة المؤجّلة كما ذكر في هذا المطلب تحديدًا.

وعندما نودي عليه دخل وسلّم على الوزير وقدّم له الملفّ.

قرأ الوزير ما كتبه وكأنّه فوجئ به وتساءل:

- ما زلت بعيدًا عن التقاعد؟.

- يبدو أنّني أصبحت زائدًا، هذا ما أحسّه، وكما رأيت فالمرأة طلّقتها، والوظيفة سأتركها، ولديّ رغبة في العمل خارج العراق عندما تحين الفرصة، والعروض موجودة.

واتّكأ الوزير على الكرسي وهو بملابسه العسكريّة التي فرض على كبار مسؤولي الدولة ارتداءها بعيد قيام الحرب، ثم قال:

- ولكنّ السفر ممنوع!.
- سأنتظر حتى يصبح مسموحًا، واستعدادًا له سآتي بعقد عمل وأتمنّى أن تساعدني في قبوله من قبل الجهات المختصّة.
- ولكن كيف ستعيش، وقد أعلمني هادي مجدي أنّ أكثر من ثلثي راتبك يذهب استقطاعات لزوجتك؟.
- على أيّة حال لن أموت جوعًا! إنّني الآن في مرحلة حسم كل ما هو عالق من أموري والوظيفة منها، هذا كل شيء.

التقط الوزير قلمه ووقّع على الطلب بعبارة (موافق) وهو يقول:

- إذا كان هذا ما تريده فإنّني لا أجبرك على البقاء في الوظيفة.
- أشكرك.

واستلم الموافقة منه الموظّف الذي كان يرتّب المعاملات وهو يقول له:

- سنحوّلها إلى مكتب وكيل الوزارة لاتّخاذ اللازم.

صافح الوزير وخرج وهو يحسّ براحة تامّة، وكأنّه قد كسر القيد الثاني الذي كان يطوّقه، الأوّل كان الزوجة، والثاني الوظيفة، وبقي أمر واحد هو أن يغادر، يترك لهم كل شيء، ويذهب.

ووجد نفسه يردّد بيتًا من الشعر حفظه ولا يلبث أن يردّده في مناسبات كهذه:

- اتركيني بلاد الله واسعة

غدًا أُبدِّل أحبابًا وأوطانا.

وكأنّه تراجع عن ما فاه به على لسان الشاعر، فاستدرك وهو يتمتم، بينما يضغط إصبعه على زرّ المصعد ليمضي متوجّهًا إلى مكتبه:

- ولكنّ الوطن لا يُستبدل، حتى وإن غادرناه وكذلك الأحبّة الأصلاء فهم يسكنون القلب ويعاشرون الضمير، والوطن هو التميمة التي نحملها أينما ذهبنا.

لم تمرّ ساعتان على لقائه بالوزير حتى جاؤوا له بأمر الإحالة على التقاعد، ولكنّهم تلاعبوا في صيغته إذ من المفروض أن يكون النص أمينًا، يحمل عبارة (بناء على طلبه)، ولكن هذه العبارة غابت، ولم يستغرب ذلك، إذ العراق هو البلد الوحيد الذي لم يقرأ يومًا في صحيفة من صحفه منذ قيام النظام الحاكم عام 1968 وحتى اللحظة بأنّ الوزير الفلاني

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قد غادر موقعه (بناء على طلبه)، إنَّهم (يُقالون) ولا (يستقيلون)، ولذا اكتفى بضحكة ساخرة ومرّة وردّد: «لقد استكثروا عليّ حتى هذا ليقولوا إنّنا أحلناه»، وقال للموظّف الذي حمل له نسخة من أمر الإحالة على التقاعد مداعبًا:

- أراهنك أنّ هذا أسرع أمر إحالة على التقاعد في تاريخ الدولة العراقيّة، أليس كذلك؟.

وقد علّق حيدر الخلف عند سماعه الخبر بصوت عالٍ غير آبه:

- غسّان العامري يدفع ثمن نجاحه، هذا كل شيء، ولكنّه شبّ عن الطوق، وليس بالإمكان تحجيمه، كأنّ في هذا البلد ممنوعا على المبدع أن يكون ناجحًا، وأن يكون حجمه أكبر ممّا هو مسموح به!.

وعندما سمع غسّان بالحكاية علّق:

- ومن هو المُدان في كل ما جرى لي؟ أنا، أم أولو الأمر منّا؟ حتّى الزوجة ضحيتهم.

* * *

كان غسّان العامري وهو يدور في الأسواق وكأنّه في حالة غيبوبة، يمسك به الذهول ويجعل قدميه تتحرّكان في أسواق اعتادتا المرور فيها.

عندما دلف في مقهى الزهاوي وجد كل المقاعد ملأى، ولذلك انسحب خارجًا واستدار باتّجاه الباب الشرقي سالكًا شارع الرشيد، وتوقّف في الساحة التي أطلقوا فيها النار على موكب الزعيم عبد الكريم قاسم، وقد صارت تحمل اسم أحد الذين هاجموا الموكب فقُتل، ويا للصدف أنّه كانت له بدايات شعريّة، وتساءل غسّان مستغربًا: كيف يمكن للشاعر أن يكون قاتلاً؟ يحمل الرشّاش ويُطلق الرصاص؟ ثم ألم يجدوا غيره لهذه المهمّة؟.

كانت الساحة قد وُسِّعت بحيث أصبح هناك مجال لوضع تمثال لعبد الوهاب الغريري - وهذا هو اسم القتيل الذي أصبحت الساحة تحمله - وهزّ يده من هذه المفارقات التي حواها التاريخ العراقي الساخن، فتمثال عبد الكريم قاسم الذي أمضى الفنّان خالد الرحّال فترة طويلة في إنجازه مع بعض طلبته في إيطاليا مرميّ مع الأنقاض خلف مبنى المتحف العسكري في الأعظميّة، وهذا الشابّ المغمور لمجرّد أنّه ضغط على زناد رشّاش انتصب له تمثال، وربّما كان لا يصلح للمهمّة لذا تردّد فقُتل، فالشعراء لم يكونوا يومًا قتلة بل هم المقتولون بدءًا من الحلاّج وصولاً إلى لوركا فبابلو نيرودا إلى... أليس هو أيضًا مقتولاً يمشي على قدميه التائهتين؟.

عبد الكريم قاسم ما زال اسمه مقترنًا بالضوء في أعماق غسّان. ما زال يتذكّر لون وجهه الوردي المشعّ بابتسامة وعينيه اللتين كانتا تبرقان نقيّتين مثل ماء العيون التي تنبثق من جبال الشمال العراقي.

كانت تلك اللحظة الخاطفة وهو يصافحه لا يمكن أن تغادره، وهي التي جعلته يخرج متظاهرًا في ذلك النهار العراقي عندما أطاحوا به، وبفراسته التي لا تخطئ أنّ هذا زعيم حقًّا لذا سينقضّون عليه في أقرب فرصة. وقد قرأ غسّان بعد سنوات شهادة لوزير في الحكومة التي أسقطته جاء فيها أنّه كان يعرف المتآمرين عليه واحدًا واحدًا، وقوله إنّه كان يستطيع جمعهم خلال بضع ساعات ثم يودعهم السجن ولكنّه لم يفعل. لم يرد أن تحدث أيّ بلبلة في الشارع العراقي، وأنّ الفقراء والضبّاط الوطنيّين والجنود سيقفون معه ما دام معهم، كما ذكر أنّ الأمن لم يكن هاجسه فيعمل على تأسيس أجهزة مختلفة، تتجسّس على بعضها، وتحمل أسماء مختلفة، ولا أحد يعرف العاملين فيها.

قال ذلك الوزير حرفيًّا: «كان قاسم مكشوفًا يقود دولة بلا أسرار، ويعمل في مؤسّساته الحسّاسة المدنيّة والعسكريّة موظّفون وضبّاط ينتمون إلى مختلف الاتّجاهات السياسيّة في البلاد».

وبصق غسّان من هول ما حصل وهول ما هو حاصل وماثل.

وقف أمام تمثال الغريري الذي كان صديقًا مقرّبًا من صديقه جليل الواسطي الذي آثر الانسحاب ليقيم في باريس ويتدكتر هناك وينصرف لتحقيق التراث بعد أن كان نجمًا لامعًا في عهد الحاكمين الأُوَل عام 1963.

وحدّثه عن طيبة هذا الفتى وحلمه في أن يكون شاعرًا فانتهى حلمه بأن قُتل ليتحوّل إلى تمثال مهجور، لا يحمل أيّ مجد سوى أنّه حمل الرشّاش ليتصدّى لموكب قائد ثورة فذّ قلب كل المعادلات والتحالفات في المنطقة.

وخاطب غسّان التمثال:

- لماذا فعلت هذا؟ من ورّطك؟ ابق كما أنت حجرة مجهولة لا تاريخ لها يستحقّ المباهاة، وأكاد أجزم أنّ من يعرف ماذا فعلت سيلعنك ويمضي وإن وجد المكان خاليًا سيتبوّل أو يبصق عليك.

وواصل طريقه، ولا يدري كيف قفزت إلى ذاكرته صورة صديقه الشاعر اللبناني نصري الأسمر بلحيته النبويّة وعينيه الحاذقتين وشعره الكثّ المسترسل على كتفيه.

وابتسم! إذ كان نصري الأسمر يخاف حتى من مسدّس مؤمّن موضوع في مشجب السيّارة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وعندما وصل غسّان إلى مقهى البرازيليّة دخلها منقادًا بكل حنين الستّينات، أيّام الحلم والعنفوان والطموح، فوجد المقهى كما هو، لم يتغيّر فيه شيء، النصف الخلفي يحجز معظم طاولاته طلبة جامعيّون ليذاكروا دروسهم، بينما النصف الأمامي المطلّ على شارع الرشيد يتوزّع على مقاعده رجال خاملون كأنّ الساعات تمرّ بهم مثل العبء الثقيل ولا رغبة لهم في أن يفعلوا شيئًا سوى قراءة الصحيفة، ومعظمهم كان يشتريها لقراءة أخبار الوفيّات ليؤدّوا واجبًا اجتماعيًّا إن كان بين المتوفّين أحد من معارفهم، رغم أنّ الكثيرين قد توقّفوا عن شراء الصحف بعد أن صدر أمر رئاسي بلّغت به إداراتها بعدم نشر مثل هذه الأخبار، وهي إعلانات مدفوعة الثمن وتدرّ على الجرائد ربحًا لا يُستهان به.. إذ ما أكثر الموت في هذا البلد ولا بدّ من جرائد متخصّصة لتتّسع لنشر قوائم الموتى الذين تحصدهم الحرب كل يوم، واكتفت الصحف بنشر أخبار الأعراس ما دام الشعب العراقي شعبًا سعيدًا يُقبل على الزواج والاستقرار، وعلى هذا يجب أن تُحمد الحكومة.

ووجد غسّان نفسه يجلس على مقعد فارغ، وتساءل منذ متى لم أجلس هنا؟ كان هذا المقهى ذات يوم إحدى محطّاتنا، وابتسم عندما تذكّر أحد أبيات قصيدة هجاه بها هادي مجدي وجليل الواسطي ومالك العماري، وفيها جاء:

(أمضيتَ عمرك في الدروب تسكّعًا

بين الرشيد وساحة الميدانِ)

يا لها من أيّام! كيف يمكن للمرء أن يبكي الماضي؟ وهو يومها لم يكن قد حقّق شيئًا؟ حتى الشعر كان مجرّد طموح، وقصائد لم تجمع في ديوان، لا تجارب عاطفيّة حقيقيّة، لا رحلات، لا لقاءات مع نجوم الثقافة والإبداع.

والآن ها هو منهم، أحدهم، له صيت ذائع، ودواوين مطبوعة وركام تجارب، والتعرّق بأجساد نساء كنّ له أكبر من حلم فإذا بهنّ له، في فراشه! ثم بعد هذا كله، ها هو منطفئ يتمنّى تلك الأيّام حيث التسكّع (بين الرشيد وساحة الميدان)، كما هجاه أصحابه ذات يوم في قصيدة لا توجد كاملة إلاّ في أرشيف جليل الواسطي قاطن الديار الفرنسيّة حاليًّا.

وتعرّف عليه النادل المخضرم الذي لم يره منذ سنوات، وتذكّر اسمه، كان آثوريًّا يُدعى خوشابا، ورغم أنّ المقهى قد بيع مرّات إلى مالكين مختلفين فإنّ خوشابا ظلّ فيه، كأنّه إحدى طاولاته، أو ماكنة رحى القهوة العتيقة التي أصبحت مجرّد ديكور بعد أن أصبحت القهوة تُباع مطحونة جاهزة للاستعمال.

كان خوشابا في الستّينات فتى قَدِمَ لتوّه من قريته «تلكيف»، وكان يتكلّم العربيّة بصعوبة، أمّا الآن فقد هرم مسرعًا وتباطأت حركته، ولكنّه أصبح يتكلّم بعربيّة طليقة وباللّهجة البغداديّة، في حين أنّ غسّان العامري يسبقه لسانه فينطق بعبارات لبنانيّة ظلّت تشوب لهجته.

كان فرحًا برؤية غسّان، وقال له إنَّه يرى صوره في الجرائد والمجلاّت، وابنه يحتفظ ببعض دواوينه وهو طالب في السنة الأخيرة من كلِّيَّة الآداب ويتمنّى أن يكون شاعرًا.

وأراد أن يسأله:

- ومن ورّطه في هذا؟.

ولكنَّه بدلاً من ذلك علّق:

- رائع، فهذا دليل على أنّ أعماقه صافية ونقيّة.

فما كان من خوشابا إلاّ أن قال:

- إن شاء الله تنتهي الحرب قبل تخرّجه، وإلاّ سيضيع منّي وهو وحيدي، فالتجنيد في انتظاره.

وتمتم:

- أعرف، أعرف.

وجاءه بالقهوة مرّة كما طلب وقبلها شرب كأس الماء، وانصرف لاحتسائها ببطء وهو يتأمّل المارّة من وراء زجاج المقهى الذي يغطّي واجهته كلّها.

عاد خوشابا ثانية ليسأله إن كان يريد كأس ماء أخرى، وهنا سأله غسّان:

- هل ما زال بعض الأدباء يأتي هنا؟.

فردّ وهو يحرّك يده وكأنّه يأسف لشيء:

- قلّة، حسّاني علي الكردي يأتي مرّة في الأسبوع وأحيانًا يصطحبه نزار عبّاس، كلّهم غادروا كما تعلم، سافروا أو ماتوا أو كبروا ولازموا بيوتهم مثل عبد الملك نوري.

وعاد صوت غسّان ليهمهم فقط.

وأتمّ رشف قهوته ثم نادى على خوشابا ودفع له ثمنها مع ما تبقّى من الدينار، وخرج مواصلاً طريقه نحو الباب الشرقي بينما صوت خوشابا وراءه:

- لا تنقطع عنّا أستاذ غسّان!.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ونزل سلالم نفق ساحة التحرير واكتشف أنّه تحوّل إلى سوق عامر، فيه دكاكين للصاغة والحلاّقين وباعة الساعات والملابس، حتى أرصفته تحوّلت إلى مرتع للباعة المتجوّلين الذين يعرضون بضائع مختلفة.

وعندما صعد السلالم من الاتّجاه الآخر كان يردّد بصوت مسموع:

- كأنّني لست في هذا البلد؟.

ووجد نفسه أمام مكتبة النهضة بعد أن عبر ممرًّا في النفق تفوح منه رائحة البول العطنة، حيث يتحوّل إلى مبولة للسكارى والمارّة الذين تقذف بهم الحانات والمقاهي في ساعة متأخّرة من الليل.

دخل المكتبة بعد أن رأى صاحبها هاشمًا وهو منهمك في مراجعة قوائم الكتب والمبيعات كعادته غير عابئ ببضعة أشخاص يتأمّلون رفوف المكتبة ويستلّون بعض ما فيها ليطّلعوا عليه أو ليسرقوه، وهناك بارعون في هذه المهنة مثل الشاعر جان دمو الذي كان يتّفق مع مشتري الكتاب على السعر قبل أن يذهب لسرقته، وبعد ذلك يقول للمشتري:

- انتظرني خمس دقائق وسأسرقه وآتيك به.

هكذا يلذّ له أن يستعمل التعبير الصحيح، السرقة، وبها يعتاش، يأكل ويسكر، وله طرقه التي لم يكتشفها أحد من أصحاب المكتبات.

إنّه يعرف هاشمًا هذا منذ أن كان يملك كشكًا لبيع الصحف في الجهة الثانية من الشارع، واستعمل طريقة المكتبي المصري الشهير الحاج مدبولي في فرش الكتب الجديدة على الأرض لتصبح أمام أنظار المارّة، وكان معظم أصدقائه من أدباء البلد المعروفين، وكان لا يتوانى عن بيع الصحف والكتب بالدين لمن لا يملك المال منهم، وكم شكا لغسّان من أموال تبدّدت ويعدّد له بعض الأسماء التي له في ذمّة أصحابها مبالغ. لكنّه لا يستطيع ردّ أحد منهم إذا ما جاءه طلبًا لكتاب لا بل إنّ البعض يستدين منه ليسكر.

ومع هذا، فقد استطاع شراء هذه المكتبة الكبيرة التي يبدأ بها شارع السعدون وهي واحدة من سلسلة مكتبات افتتحها في هذا الشارع صاحبا أكبر مكتبتين عريقتين في بغداد هما: عبد الرحمن حياوي صاحب مكتبة النهضة، وقاسم محمد الرجب صاحب مكتبة المثنى الذي افتتح مكتبة في الجهة الثانية من شارع السعدون وتواجه مكتبة النهضة التي لم يلبث عبد الرحمن حياوي أن باعها إلى هاشم، فهجر الكشك ومكتبة الرصيف إلى هذا المكان الراقي.

والمكتبة التي تليه هي مكتبة «بنّاي» الذي كان هو الآخر صاحب كشك ويفرش الكتب على الرصيف، فأصبح يمتلك مكتبة فخمة سمّاها مكتبة التحرير نسبة إلى ساحة التحرير المواجهة لها.

وقد احتفظ هاشم بقامته القصيرة التي تميل إلى الهزال، بينما امتلأ جسد «بنّاي» الطويل وأصبح أحد روّاد النادي الصحّي في فندق الشيراتون من أجل أن يخفّف وزنه ويستعيد لياقته التي كانت له أيّام العوز وبيع الكتب على الرصيف، حيث كان ضامرًا ودافقًا بالحيويّة، ولا يسكن وجهه الخمول الذي يراه عليه بعد أن اغتنى واختلف طعامه وشرابه.

سلّم على هاشم ولم يمكث طويلاً حيث مضى مارًّا بواجهة مكتبة بنّاي الذي لم يكن هناك، وكذلك جاسم المطير الذي افتتح هو الآخر مكتبة كبيرة سمّاها مكتبة النور، وصار ناشرًا أيضًا، ولم يكن جاسم المطير من قبل مكتبيًّا بل أحد كوادر الحزب الشيوعي في البصرة، ثم انصرف عن العمل الحزبي إلى التجارة بعد الانشقاق الذي عرفه الحزب في الستّينات.

كان العرق قد بدأ يتصبّب منه، حيث بدأت الحرارة بالازدياد مع اقتراب الظهيرة، ولم تعد مظلات مخازن الشارع قادرة على حماية هامات العابرين من قصف الشمس القاتل.

كما أنّ شارع السعدون قد خلا من المقاهي، ذات يوم كان لمقهى البرازيليّة فرع فيه، لكنّه أغلق، إضافة إلى مقاه أخرى، ولم تبق غير مقاه صغيرة في الأزقّة الضيّقة المتفرّعة منه وخاصّة المتوجّهة نحو ساحة الطيران، وجل روّاد مقاهي هذا الشارع من السودانيّين الذين جاءت بهم الحرب للعمل في العراق حيث الحاجة ماسّة لليد العاملة.

لكن ذلك المقهى الكبير الواسع في شارع السعدون والذي ترك قسمه الأمامي مكشوفًا حيث يحلو الجلوس فيه ليلاً بينما القسم الخلفي كان مسقفًا. هذا المقهى لم يزح وبقي في مكانه.

وهو أحد مقاهي بغداد العتيقة، وكان ذات يوم يسمّى «مقهى اليهود» إذ إنّ معظم روّاده كانوا من التجّار اليهود الذين لهم محلّات قريبة. وأصبح الآن يُدار من قبل ندل مصريّين، وما زال من المقاهي القليلة التي تقدّم «الأرجيلة» لزبائنه الذين أدمنوا تدخينها.

تطلّع غسّان إلى تمثال عبد المحسن السعدون الذي سُمّي هذا الشارع الكبير باسمه فوجده صغيرًا، وهو يختفي فوق قاعدته الواطئة، فلا يكاد المارّ أن يراه، كما أنّ الاشجار

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أصبحت تغطّيه وتزيد من إخفائه. وكان هذا التمثال أصغر من الحجم الاعتيادي للبشر رغم مهارة الفنّان الأوروبي الذي أنجزه، وربّما كان فنّانًا بريطانيًّا أو إيطاليًّا فجاء من أجمل التماثيل التي بدأت تتكاثر لتزيّن ساحات بغداد رغم أنّ الغلبة للجداريّات العملاقة التي تمثّل رئيس الدولة في أوضاع شتّى وبأزياء مختلفة، من القبّعة الأوروبيّة إلى «السدارة» التركيّة، إلى العقال والغترة البيضاء.. مرّة فوق حصان وأخرى راجلاً، مرّة يبتسم وأخرى يرفع يده، وجهه فقط أو جسمه كاملاً.

وانتشرت هذه الجداريّات حتى في أصغر المدن العراقيّة وجعلت من الرسّامين الذين احترفوا رسمها أثرياء رغم ثمن الحرب الباهظ.

كان العراقيّون وما زالوا يعدّون عبد المحسن السعدون، هذا الرجل الذي رأس الوزارة العراقيّة في الفترة الملكيّة، شخصيّة وطنيّة، ولذا لم يرفع تمثاله أثناء هياج الشعب في ثورة 14 تمّوز 1958 وبقي في مكانه، بينما رفعت تماثيل أخرى. فإن كان للثورة حقّ إزاحة تمثال الجنرال «مود» رمز الاستعمار البريطاني فإنّ غسّانًا كم ناقش أصدقاءه بعدم قناعته بإزاحة تمثال الملك فيصل الأوّل باعتباره أوّل ملك على عراق مستقلّ خارج من الهيمنة العثمانيّة، رغم تبعيّته الموثّقة لبريطانيا بعد اتفاقيّة سايكس بيكو التي جزّأت سلطنة العثمانيّين إلى ممالك وإمارات وجمهوريّات تقاسمها الحلفاء المنتصرون.

إنّ لعبد المحسن السعدون هذا كلمة مأثورة، يحفظها العراقيّون ويعون معانيها جيّدًا، حيث جسّدت حيرة الرجل، كلمة قالها وانتحر بعدها وهي: «الشعب يريد والإنكليز يريدون». وكان مع الشعب، لكن للإنكليز كلمتهم التي لا تُردّ. لذلك آثر الانتحار ليبقى رمزًا وطنيًّا عندما أُسقط بيده بدلاً من الامتثال الذليل.

وفكّر غسّان وهو في إبحاره الظهيري هذا في قيظ بغداد أن يدخل «مقهى اليهود»، وربّما أصبح له اسم آخر مثل مقهى الحرّيّة، فهو يطلّ على ساحة الحرّيّة، أو مقهى النضال أو الثورة.. واحد من هذه الأسماء الشائعة والدارجة.

لا بدّ أن تكون عدوى هذه الأسماء الزاعقة قد وصلته.

ألم يصبح شارع الملك غازي يحمل اسمًا آخر هو شارع الكفاح؟ فلماذا؟ ما دام العراقيّون يعتبرونه ملكًا وطنيًا وأنّ الإنكليز هم من قتلوه، إذ لم يكن طوع بنانهم.. وكانت له أحلامه التي لا يقرّونها؟!.

كما أنّ الحديقة التي ينتهي بها الشارع كانت تسمّى باسمه، وكم كان غسّان يحبّ الجلوس فيها، وترتادها عشرات الأسر مساء لتفترش العشب وتعقد اللقاءات وتتنسّم هواء

طيّبًا، هو بالتأكيد غير ذلك الهواء الذي يتنفّسونه في بيوتهم الصغيرة التي تتزاحم في أزقّة ضيّقة كثيرة تتفرّع من الشارع، ويسمّيها العراقيّون «دربونة» ويجمعونها بدرابين.

إنّ العراقيّين من الشمال إلى الجنوب قد بكوا ملكهم هذا يوم موته باصطدام سيّارة، وحمّلوا الإنكليز مسؤوليّة قتله حيث لم يقتنع أحد منهم أنّ الأمر مجرّد قضاء وقدر.

وفي الناصريّة أطلقوا اسمه على أكبر حديقة، وكان الطلبة يقصدونها ليراجعوا دروسهم على مقاعدها الخشبيّة الأنيقة في أفياء أشجار اليوكالبتوس والصفصاف وأمامهم الأزهار تزهو بألوانها المتعدّدة.

وكان يلذّ للبعض منهم افتراش العشب المشذّب بدشداشته القطنيّة التي تلائم حرارة المدينة، وبجواره ترك نعاله الجلدي التي يصنعها خصّيصًا لكلِ راغب سرّاجون بارعون وعلى المقاسات بعد أن يتأمّلوا أقدام زبائنهم ويقيسوها طولاً وعرضًا بخيوط قطنيّة، وكانت تسمّى بالشطريّة - نسبة إلى مدينة الشطرة القريبة من الناصريّة - وربّما كان هؤلاء الشطريّون أوّل من صنع هذا النوع من النعال الذي له موديلان فقط، الأوّل بالإصبع والآخر بدونه، وللزبون أن يقرّر قبل بدء العمل.

دار غسّان في المقهى ثم جلس وطلب كأس ماء بارد و«إستكان» شاي، واكتشف أنّ النادل شابّ مصريّ، إذ بادره بالسؤال:

- بتشرب إيه؟.

وهنا تذكّر بار «المرايا» الذي ليس ببعيد عن المقهى وحيث يجتمع بعض الأدباء والصحافيّين لشرب البيرة المثلّجة واغتيال قيظ الظهيرة في هذا البار المبرّد، فبيوت أغلبهم بعيدة ولذا يفضّلون العودة ليلاً بعد أن يستكملوا سكرهم في نادي اتّحاد الأدباء.

ولكنّ الوقت ما زال مبكرًا لقدومهم، ومع هذا لم يحتمل البقاء في المقهى الذي عبقت في داخله رائحة خانقة نتيجة للقدم وانعدام الصيانة، ولم تفلح المراوح السقفيّة التي تدور في المقهى بأقصى سرعتها في تبديدها.

ثم وجد غسّان نفسه يدخل إلى فندق الشيراتون، وفور دفعه للباب الزجاجي جاءته نسمة الهواء الباردة بفضل أجهزة التكييف المركزيّة المتقدّمة، فودّ أن يهتف بتلك الكلمة العراقيّة التي ينطق بها البشر في هذا البلد المعمّد تاريخه بالحزن «افّيش»، التي لا يجد لها مقابلاً بالعربيّة الفصحى يوصل كل ما تحوي من فرح وارتياح.

وقد ردّدها فعلاً، وهو يتوجّه يسارًا ثم ينزل السلالم ليُفرِغ ما تعبّأت به مثانته في التواليت الأنيق المعطّر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ثم غسل وجهه وعنقه من العرق المتفصّد عليهما قبل أن يصعد السلالم من جديد ويمضي نحو مقهى الفندق علّه يرى أحدًا من معارفه، إذ الفنادق معبّأة بالسياسيّين ورجال الإعلام والصحافة الذين يتردّدون على بغداد بكثرة لمتابعة أخبار الحرب.

وأخذ غسّان يتطلّع إلى الجالسين فلمح الشاعر الرائد عبد الوهاب البيّاتي، عرفه، رغم أنّه يدير ظهره للمدخل، من بياض شعره وكثافته ثم انسداله الناعم واللامع.

كان يجلس وحيدًا وأمامه فنجان قهوته الذي فرغ من ارتشافه، بينما تعبّأت منفضة السجائر بالأعقاب، وعندما سمع صوت غسّان وهو يردّد كلمات التحيّة هبّ واقفًا ليصافحه.

كان أبو علي هو اللّقب الشائع له، وما إن ينطق به أحد من أهل الأدب حتى يعرف مَن المقصود، وعلي هو اسم أكبر أولاده.

كان البيّاتي حديث العودة إلى بغداد قادمًا من مدريد، حيث أقام فيها عدّة سنوات موظّفًا في المركز الثقافي العراقي هناك، ولم يراعَ اسمه ولا مكانته لذا لم يمنح جواز سفر دبلوماسي بل احتفظ بجواز الخدمة الذي يحصل عليه عادة الموظّفون الذين يعملون ربع قرن فما فوق في الدوائر الرسميّة.

عومل هكذا بينما يحمل حرّاس السفارة وفرّاشوها وصغار موظّفيها الجواز الدبلوماسي الذي يمنحهم حقوقًا وامتيازات كثيرة.

لكنّ البيّاتي ظلّ على زهده الذي عُرف به، ولم يكن له من شاغل إلاّ الشعر فهو غايته وهمّه اليومي الذي يعيشه، والحفاوة الإسبانيّة التي حظي بها كبيرة لدرجة أطلقوا اسمه على أحد المراكز الثقافيّة في الأندلس، وعقد صلات وصداقات مع كبار الأدباء والمستعربين الذين كانوا فخورين بوجوده في بلادهم.

لقد أحالوه على التقاعد بعد أن بلغ الستّين. وكان بالإمكان أن يبقى في مدريد التي يحبّها ضوءًا عراقيًّا بل وعربيًّا جميلاً. ولكنّهم تحجّجوا بالقانون، ذلك المظلوم المصطلى في المدوّنة السياسيّة العراقيّة، في بلد لا يسيّره القانون إلاّ عند الحاجة، وعدا ذلك فبنوده مركونة، مخبّأة كالمجذوم.

وقد التقاه غسّان بعد عودته مرّتين فقط، إحداهما في نادي اتّحاد الأدباء، والثانية في بيت عدنان العزيري الذي ارتبط به بعلاقة روحيّة عندما كان طالبًا في موسكو سنوات حكم الزعيم عبد الكريم قاسم، حيث كان البيّاتي ملحقًا ثقافيًّا في السفارة العراقيّة هناك.

وبعد الذي حصل في شهر شباط 1963 بقي هناك لاجئًا سياسيًّا عدّة سنوات، إذ أُسقطت عنه وعن مثقّفين وسياسيّين عراقيّين آخرين الجنسيّة العراقيّة، ولم تتمّ إعادتها إليهم إلاّ في فترة حكم عبد الرحمن عارف.

كان أبو علي على عادته أنيقًا معطّرًا، لا يتخلّى عن البدلة وربطة العنق حتى في هذه الأيّام القاتلة في قيظها، وشعره الذي تفضّض ما زال على تسريحته الخالدة ولمعانه الجميل.

وكانت فرحته واضحة بلقاء غسّان العامري الذي جلس أمامه لا تفصل بينهما إلاّ الطاولة الصغيرة.

وبعد سؤال عن الصحّة والأحوال جاء النادل فطلب غسّان زجاجة مبرّدات، بينما طلب هو فنجان قهوة جديد قال لغسّان إنّه الرابع، فالسجائر تحلو مع القهوة التي يكتفي بوضع قليل من السكّر فيها.

اعتذر غسّان عن عدم تكرار لقاءاته به لأنّه يسكن في غربي المدينة، بينما يسكن البيّاتي في شرقيّها وفي حيّ «زيّونة» الذي أغلب سكّانه من الضبّاط.

وهنا ذكّره غسّان بأنّه زار مدريد ثلاث مرّات عندما كان يقيم فيها، في إحداها كان مدعوًّا من قسم اللغة العربيّة في جامعة مدريد الحرّة حيث تحدّث عن تجربته الشعريّة وملامح شعر ما بعد الروّاد؛ وفي الثانية بإلحاح من عشيقة له، كان حلمها أن ترى مدريد فحقّق لها ما أرادت، وقد قدّمها للبيّاتي بأنّه تعرّف عليها في الرحلة السياحيّة وعرف أنّ لها اهتمامات أدبيّة، وكادت أن تطير فرحًا عندما عرض عليها أن يعرّفها على أحد أكبر شعراء العربيّة الأحياء بل وأهمّهم بالنسبة له.

أمّا في الثالثة فقد حضر ندوة في مكناس، ومنها اختار المرور لأربعة أيّام بمدريد للقاء البيّاتي بعد أن تلفن له ليتأكّد من وجوده فيها، فربّما تكون إحدى العواصم قد دعته لحضور ندوة فيها.

لقد تعرّف غسّان العامري عليه متأخّرًا وبعد عودته إلى العراق من منفاه، وربّما كان ذلك عام 1969 أو بعده بقليل.

عاد عبد الوهاب البيّاتي مع مَن عاد، وعُيّن مستشارًا لا يُستشار - كما يحلو له أن يصف نفسه - في وزارة الثقافة والإعلام.

ولكن لم يُلزمه أحد بوقت، يأتي ويخرج متى شاء، يلبّي الدعوات التي تأتيه من جهات الدنيا، كانت بغداد محطّة له بعد نفي وتشرّد طويلين.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لكنّه وبخبرته الطويلة وحدسه من أنّ الآتي سيكون أعظم، ما دام التراجع قد بدأ بإخراج الشيوعيّين من الحكم وغلق صحفهم، وفسح المجال أمام من يريد المغادرة منهم لأن يغادر، وفعل الكثيرون ذلك حيث كانت بلدان المعسكر الاشتراكي مفتوحة أمامهم، وكذلك اليمن الديموقراطيّة التي أعلنت نظامًا اشتراكيًا لم تجد فيه ما تؤمّمه غير سفن الصيد والجرائد البسيطة وورشات تصليح السيّارات وبعض المزارع.

وفي عمليّة تشبه انسحاب جيش مكسور غادر الآلاف مع أسرهم أدباء وفنّانين ومواطنين عاديّين، وفتحت لهم أبواب عدد من البلدان وجدوا فيها الرفاه والانطلاق.

وكان لغسّان رأيٌ قاطع في مسألة كهذه أنّ من يريد النضال من أجل التغيير عليه أن يبقى في وطنه، مهما كان العسف المسلّط عليه قويًّا، وأنّ المغادرة كانت خطيئة لا تغتفر.

وقد أثبت تلاحق السنوات أنّ جلّ الذين غادروا ضاعوا أو كادوا.. تهدّمت أُسر، تشرّد أبناء، وقعت طلاقات بالجملة، حتى أنّ بعض المطلّقات وجدن الخلاص في الاقتران بأوروبيّين – وهو ما لم يعهده المجتمع العراقي إلاّ في حالات نادرة.

ووُلد أطفال في المنافي وهم لا يعرفون شيئًا عن لغتهم، كانوا أبناء اللغة الجديدة والمستقرّ الجديد.

لكنّ البيّاتي رغم انتقاله بين بلدان عربيّة وأوروبيّة إلاّ أنّه ظلّ في المحيط العربي، حتى سنواته الإسبانيّة كانت مثمرة وسخيّة، أصبح فيها محطّة للإبداع العربي في قلب مدريد، أصبح للعرب القادمين منارًا.

ثم ها هو في بغداد، يحتاج إلى وقت حتى يتأقلم، ومن عادته أن يتردّد على مكان محدّد ليجده من يبحث عنه، ومعظم ضيوف بغداد من الأدباء والصحافيّين يضعون في برنامجهم لقاءه.. وكان حديثه الذي أشبه بالسياط التي تجلد مؤخّرات الشعراء الجاهزين للندب أو المديح والذين احترفوا مهنة الاستجداء يلذّ سماعه، فهو نغمة أخرى، صريحة وواضحة، إذ يرى أنّ من احترفوا الذلّ في بلاطات عاهرة مستغلّين واقع أمّة منخورة، أفسدها البترول والإعلام المأجور وقصائد الشعراء الخصيان كما يرد وصفهم في قاموسه، لا بدّ من تعريتهم وفضحهم.

ومرّة قال لغسّان:

– إنّني متألّم لما أنت فيه!.

وردّ غسّان:

– وهذا شعوري نفسه تجاه ما أنت فيه أيضًا.

وأضاف مستطردًا كأنّه وجد الفرصة للتنفيس عن ألمه:

- لا أكاد أصدّق ما يجري، كأنّ هناك ساديّة مخبّأة تبحث عن أوهى المبرّرات لتتحوّل إلى قصاص وانتقام! حتى أصبحت رسالة تكتبها زوجة ضدّ زوجها بدوافع الغيرة الحمقاء سببًا في رميه جانبًا؟ هذا إذا سلم من السجن أو الإعدام!.

وعلّق البيّاتي:

- كن هادئًا، هذا ما أطلبه منك، ولكن اعمل على أن تخرج، هذا البلد في الهاوية، نزل إليها وانتهى ولا أقول إنّه سائر نحوها، عندما بدأت الحرب قرأت السلام، وأنا أدرك جيّدًا أنّها لن تكون رحلة أيّام، انظر ما يحصل، عندما كنت في إسبانيا كنت بعيدًا عن فظاعة الإيقاع اليومي، أمّا الآن فإنّني أعيشه بتفاصيله البشعة.
- والشيء نفسه حصل لي، إنّني أهرّب وأختفي أيّامًا حتى لا يشدّوا وثاقي ويرموا بي في سيّارة عسكريّة نفرًا في جيشهم الشعبي؛ وأصبح عدنان العزيري بتقاريره الطبّيّة التي يحملها دومًا معه في سيّارته أشبه بالمجسّة التي بها أتعرّف على الطريق، ولولاه لكنت الآن في معسكر النهروان أتدرّب على القتال في حرب لا أقرّها، لأنّني لا أعرف لماذا بدأت أصلاً؟

كان البيّاتي يصغي بانتباه رغم أنّه الآخر كان محتقنًا إلى آخر نقطة، وإن انفجر فلا بدّ أن يأتي على كل شيء.

عاد غسّان ليتزوّد بالرشفة الأخيرة المتبقّية من زجاجة المبرّدات، ومن ثم استأنف القول:

- لي صديق لبناني، أسّس ضمن مشاريعه التجاريّة دار نشر صغيرة كما اشترى امتياز مجلّة ثقافيّة شهريّة، وقد عرض عليّ أثناء زيارة قام بها لبغداد بأن أتفرّغ للإشراف على منشورات الدار، وكذلك المجلّة، وبعث لي بعقد عمل رسمي موقّع من الجهات المسؤولة في لبنان، وقمت من جانبي أنا الآخر بتصديقه في وزارة العمل وكذلك في وزارة الخارجيّة، ثم قدّمته إلى لجنة التعاقدات في وزارة الخارجيّة عن طريق وزارتي التي كنت أعمل فيها (الثقافة والإعلام).. انظر التعقيدات، هذا عدا الاستمارات التي عبّأتها، وكنت أظنّ أنّ الموظّفة المسؤولة قد أخطأت وأعطتني كل هذا الكمّ من الاستمارات التي فيها سؤال عن الاتّجاهات السياسيّة لأقربائي من الدرجة الأولى حتى الموتى منهم!! أسمعت بهذا في أيّ بلد من بلدان العالم يسأل فيه المواطنون عن الاتّجاهات السياسيّة للموتى من أقربائهم؟!.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكان البيّاتي يصغي ويكتفي برسم ابتسامة ساخرة، يتبعها بهزّة من يده، وهو يردّد باللهجة العراقيّة تلك الجملة التي تتفرّد بها أمام حالة من هذا النوع:

- وَيْ وَيْ، قيّمنا!.
- وبعد انتظار مملّ والذهاب إلى هذا وذاك جاء الجواب بالرفض، دون أن يقولوا لك لماذا! وما هو مبرّر الرفض!.
- إنّهم يحسدونك لأنّك استطعت أن تجد عملاً خارج مكرماتهم وهباتهم، معنى هذا أنّك شببت عن الطوق، ولم تعد رهينة بيد أحد من موظّفي الأدب الصغار الذين أوكلوا لهم كل شؤون الأدب والثقافة، ووصلوا حدّ التصوّر أنّهم قادرون أن يحدّدوا حجمك أو يتساوى الحجم الوظيفي بالحجم الأدبي!.
- إنّنا يا أبا علي في أوطاننا اختيارًا، ولأنّها أوطاننا ولسنا طارئين عليها، ومن حقّنا أن نكون خارجها إذا اضطرّتنا ظروفنا لذلك، فلماذا يريدون لهذا الوطن الجميل أن يتحوّل إلى سجن؟ كل بلدان الدنيا تفسح المجال لمواطنيها إن وجدوا عملاً في بلد آخر بل وتمنحهم إجازات مفتوحة لتبقى الصلة، وليس هناك من يحوّل شعبه إلى أسرى وبإصرار، ثم لماذا؟.

وعاد البيّاتي إلى قهوته وإلى هدوئه المتأمّلِ، ثم عضّ شفته، وهي حركة تحذير يتبادلها العراقيّون بعد أن جلس شابّان على المائدة القريبة منهما. وبعد أن أخذ البيّاتي نفسًا عميقًا من سيكارته قال بألم وكأنّه أراد هو الآخر أن لا يخفي ما يعانيه أمام شاعر لا يشكّ بصدق محبّته له:

- من المؤسف يا غسّان أن أقول لك بأنّني وبعد كل هذا العمر والموقع الذي حقّقته أحسّ أنّ منفى آخر بانتظاري، وربّما تكون هناك نهايتي ولا أُدفن في بغداد التي أحبّها، وفتحت عينيَّ وأمامي مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني الذي يؤمّه المسلمون من كل بقاع الدنيا، وكانت وجوههم المختلفة السحنات والملامح تضعني وأنا الفتى الصغير أمام أسئلة الرحيل، ولماذا لا أكون مثلهم؟ أذهب بعيدًا إلى مدن أخرى؟.

واستدرك:

- هذا الذي أقوله الآن لم يسبق لي أن بحت به أو كتبته حتى عند نشري لكتاب عن تجربتي الشعريّة. المهمّ أنّني برمجت للرحيل الذي قد يكون الأخير. فالعمر لم يعد يتّسع للمزيد من المنافي والخذلان والخيبات.

ثم مجّ نفسًا من سيكارته، وبعد أن نفثه عاد ليوضح ما سبق أن فاه به:

- وجدت أنّ راتبي التقاعدي مائتا دينار شهريًّا بعد خدمة احتُسبتْ بأكثر من أربعين عامًا، فماذا أفعل بهذا المبلغ؟ إنّ غرفة في الحيدر خانة أصبحت بثلاثمائة ولا تجدها، إذ الأخوة من العمّال المصريّين قد اكتروها كلها. أمّا إيجار شقّة صغيرة فهو فوق التصوّر، ولولا الغرفة الفائضة في دار ولدي الكبير التي كدّسنا فيها أثاثنا وكتبنا أنا وزوجتي المتعبة نفسيًّا بعد فقدانها الفاجع لابنتنا الكبرى، وأنا أريد أن أخرج، أن ألتقي بالناس الذين يسألون عنّي، فأين أذهب بهم؟ إلى مقهى حسن عجمي؟ وكم تكلّف كل قعدة، هنا مثلاً؟ فنجان القهوة بدينار ونصف، وعندما آتي لا بدّ من تاكسي للمجيء وآخر للرجوع، ولك أن تحسب، فهل يكفي الراتب ليومين عدا الأطبّاء والأكل واللباس؟.

و لم يجد غسّان ما يعلّق به، فقد وجد نفسه عاجزًا عن النطق بكلمة. فعندما يعود شاعر بحجم البيّاتي إلى وطنه، وهو من هو في الشعر العالمي لا العربي فقط، فيجب أن توفّر له كل ظروف العيش الكريم. لقد وهبوا شقق شارع حيفا لممثّلات ومغنّيات فلماذا لا تُمنح له واحدة ومعها سيّارة وراتب استثنائي تكريمي؟ لماذا لا يُعامل مثل بعض الوافدين باسم الحزب أو النضال.. وهو الأكبر والأهمّ منهم؟.

وعندما قابله سكوت غسّان العامري الحائر قال ليوضح أكثر:

- لديّ أخ يعمل في التجارة، وقد استقرّ في عمّان منذ سنوات، وهو يلحّ عليّ بأن أنتقل إلى عمّان وتعهّد بأن يتكفّل بكل مصاريفي أنا وأسرتي بدءًا من إيجار الشقّة، وقد أقنعت زوجتي باستحالة بقائنا هنا، ولذا سأترك المائتي دينار لهم وأغادر في أقرب فرصة.. غير نادم إلاّ على وطن يحترق وأصدقاء ضاقت بهم مساحته الواسعة.

ثم غادر غسّان الفندق وهو يتذكّر تفاصيل ما سمعه، فأحسّ أنّ ما يعانيه هيّن جدًّا أمام معاناة هذا الشاعر الفذّ الذي ترك بصماته على الشعر العربي على مدى نصف قرن، وأطلق وسط الشارع اللاهب الحرارة شتيمة مثل صخرة، ثم تمتم:

- آخ يا وطني! آخ يا أهلي! أيّ عقاب هذا الذي نزل عليكم؟ ماذا فعلتم حتى يحلّ بكم كل هذا الخراب.. وتعاملوا بكلّ هذه الساديّة العجيبة؟!.

ثم حثّ الخطى باتّجاه بار «المرايا» ليسكر ويأكل الكبّة الموصليّة، ثم لعلّ أحد أصحابه يعيده إلى شقّته بسيّارته ليرتمي في النوم، فالزمن ملغيّ ما دام فارغًا من أيّ معنى،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

واليوم مثل الأمس.. لقد أرادوا شلّ إبداع شعب إلاّ ما يلاقي هــوى منــهم، ويكــرّس نرجسيّة بغيضة برسوم وأشعار وأغان ومدائح مداراة لخلل ما، خلل لا يصــلحه الكــلام المباع.

- 38 -

يا زكريان، أيّها الهارب من هذا الحال التعبان، ها نحن بعد فوات الأوان ننقّب في تاريخ أرض الرافدين التي ولد عليها.. شعب من الدم، سلالة من المذابح، فواأسفاه! لكن هل «ديترويت» أرأف بك من تلك المحلّة البغداديّة «كامب الأرمن»، أي مخيّم الأرمن، وأصل الاسم إنكليزي كما تعلم، كأنّكم كنتم رحّلاً أقمتم لتغادروا بعد أن جئتم هربًا من المذابح، فإذا بالمقام يطول، مثل مخيّمات الفلسطينيّين في سوريا ولبنان، ظنّوها مؤقّتة فإذا بها تتّسع وتتّسع ليريد الإسرائيليّون وراعيتهم الحنون جدًّا أميركا تحويلها إلى حقيقة، ومن سكنها لن يعود إلى أرضه التي شُرِّد منها.

في «كامب الأرمن» ولدت يا زكريان وتعرّفت على زوجتك وأنجبت أبناءك.. ثم رحلت مخلّفًا وراءك عمرًا من الذكريات.

هل سلسلة مطاعمك التي تقدّم «الجلّفراي» و«الكبّة الموصليّة» و«التشريب» و«المقلوبة» و«الدولمة» والكباب و«كبّة حلب» و«التمن والمرق» وخبز التنّور.. أجدى لك وأنفع من ستديو آشور في ساحة سميراميس ونصف زجاجة عرق ماستكي في بار على دجلة أو في بيتك مع صحون المازة العراقيّة؟.

ها أنت وقد «تبغّلت»، تحوّلت إلى بغل أحمر ملتمع الأوداج وقد زاد وزنك على المائتي كيلو، واعتمر وجهك باللحم، وصار يتقدّمك كرش كبير تعجز ساقاك القويّتان عن حمله فهاجمك ضيق التنفّس والضغط والسكّر واليوريك أسيد والكوليسترول.. فأين المفرّ من موت قد يداهمك؟.

لقد حرمك الأطبّاء من كل هذه المآكل! خيرات الربّ كما تسمّيها، ولكنّك تتمرّد فتغطّ في الأكل وتتلاحق الملاعق لتنسكب في جوفك!.

ترى كيف ستكون العاقبة؟ القرآن يقول إنّها للمتّقين فماذا يقول إنجيلك؟ عهدك الجديد؟ فهل أنت من المتّقين؟ وما هي دلائل تقواك؟ هل يكفي ذهابك للكنيسة كل يوم أحد؟.

وجه غسّان العامري المعلّق على الجدار، وجهه «المؤرمن» كما وصفه عدنان العزيري قرّر أن يرفعه رغم أنّه وجهه وليس وجهًا لقيطًا، لقد وعده مصوّر له محاولات في كتابة الشعر بأن يلتقط له صورة فإن أعجبتهِ سيقوم بتكبيرها، صورة لآخر وجه يحمله، لم يعد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشَّعر ناصع السواد لكن حزن العينين هو هو، ذلك الحزن الذي هو إرث الجنوب العراقي بتاريخه الثقيل.

صورة ستعلّق في المكان نفسه ما دام السفر ممنوعًا والحرب مشتعلة وليست هناك نافذة، كوّة، تفتح في ظلام سجنه ليحلّق منها.

وجد غسّان العامري في صندوق بريده برقيّة من حنان عوّاد تخبره أنّها ستأتي إلى بغداد الأسبوع القادم رفقة مجموعة من الشعراء اللبنانيّين الذين وُجّهت لهم الدعوة لزيارة العراق، وقد حفّزهم حادث استعادة الفاو، فكتبوا قصائد أو أنّهم كانوا مدفوعين لرؤية هذا الموقع الذي مات فيه مئات الألوف من جنود وضبّاط الطرفين المتحاربين.

وقد علم غسّان من صديق يعمل في وزارة الثقافة والإعلام أنّ حنان عوّاد قد نشرت قصيدة في جريدة «الأنوار» عن العراق، وخمّن غسّان أنّها توقّعت قرب نهاية الحرب ممّا يعني لها أنّه سيصبح قادرًا على المغادرة. منّت نفسها بهذا. هي المصرّة عليه، وكم من مرّة قالت له كلّما جاءت إلى بغداد:

- إنّهم يمنعونك من السفر لتأتي إليّ، أو تذهب إلى حيث سألحق بك، ولذا أقوم أنا بالسفر إليك كلّما وُجّهت إليّ الدعوة، مهرجان المربد أو أيّ مهرجان صغير آخر، وفوق هذا أقرأ شعرًا عنك، هكذا بوضوح.. وليسمعوا كلهم من الوزير إلى الأدباء.

وتضيف:

- إنّ لبنان رغم حرائقه لم يُمنع مواطنوه من السفر وهذا بحدّ ذاته امتياز.

حنان عوّاد، أوكسجينه، هواؤه النقي، حبّه الصافي، تعرف ما يعيشه بالتفاصيل الصغيرة، إنّه يكتب لها، يملأ الصفحات ولكنّه لا يودعها البريد، فالرقابة إن أمسكت بكتاباته سيضيع، ولكنّه يرسل ما يكتبه مع القادمين وهم كثيرون و«كافتريا المنصور» أو «النادي اللبناني» ملتقى هؤلاء القادمين.

ولكن بعض الكتابات يرسلها لها على صندوق بريدها الذي اقترح عليها استئجاره قبل مغادرته. وعندما فعلت ذلك جاءته وهي تحمل شيئًا من الفرح رغم كل ما يعتصرها من أحزان الفراق غير المتوقّع. قالت له وهي تريه المفتاح:

- صندوق البريد هذا يجعلني أحسّ وكأنّني اشتريت دارًا لنقيم فيها معًا، إنّه صندوق بريد من أجل رسائلك فقط.

حنان عوّاد تحمّلت الكثير من أجله.

غسّان العامري تحمّل الكثير من أجلها.

إنّه الحبّ عندما يصل إلى ذروته فيتحوّل إلى تحدٍّ لكل من يحاول إيقاف مدّه أو حرف مجراه.

في أوّل مهرجان مربد حضرته انكشف كل شيء حتى لأولئك الذين قدموا معها من لبنان، وربّما كان كل واحد منهم يحلم بمغامرة معها، مغامرة زمنها زمن الرحلة، كما يحصل في أغلب المهرجانات، لكن هذه الأحلام أُحبطت كلّها. فهذه المرأة المضيئة بجمالها وعذوبة شِعرها قادمة من أجل أن ترى رجلها الذي انتزعوه منها وهي في أوجّ حاجتها له، كما كان هو الآخر في أوجّ حاجته لها.

بعد أن غادر لبنان دارت في كل الأماكن التي كانا يؤمّانها. جلست وحدها، كان الشعر ملاذها، في البداية تردّدت في نشر هذه القصائد، لكنّها كسرت تردّدها وصارت تنشر. كما أخذت تلبّي الدعوات للمشاركة في القراءات الشعريّة التي تُقام في بعض المناسبات الثقافيّة اللبنانيّة.

لقد بعثت له بقسم من قصائدها وقام بنشرها في مجلّتي «الأقلام» و«آفاق عربيّة» العراقيّتين، وأصبح اسمها متداولاً.. يتردّد بين الشعراء الصاعدين باحترام لأهمّيّته وليس لعلاقتها بشاعر، له موقعه الوطني البعيد عن المكاسب اليوميّة والارتزاق بالكلمة التي يجب أن تظلّ على قداستها وطهارتها.

ومن يعمل على تعهير الشعر يُنبذ حتى لو كان الخوف يمنع النابذين من إعلان مشاعرهم.

كم ندبته بقصائدها! حنان عوّاد التي كانت هي نفسها القصيدة الأولى، ما إن تقف على المنصّة حتى يصيب الخرس الجمهور، ويكف المتلهّون عن محادثة الجالسين على يمينهم أو على شمالهم لينتظروا بماذا ستنطق هذه المرأة الساحرة، التي تترك شَعرها الثرّ منسكبًا على كتفيها بعفويّته اللذيذة ولا تخضعه للموضة والتسريحات الطارئة.. كان مثلها، صافيًا، جميلاً، كشَعر أميرة صحراويّة، أمّا صوتها فهو التغريد الذي لا يضاهى.

كأنّها تُدرك جيّدًا أنّها قادرة على ترويض كل هؤلاء وجعلهم ينصتون، وهذا امتيازها، حتى صار محبّو الشعر ينتظرونها وكأنّهم يتقبّلون ثقل دم بعض الشعراء، بقصائدهم الهجينة، إكرامًا لها، انتظارًا لها حتى تأتي وتبدأ متعة السماع الأصيل.

كثيرون يعرفون أنّ قصّة حبّ كبرى تُنسج، وأنّ هناك من يتآمر على هذا الحبّ، هي امرأة عالية ولا ترضى إلاّ برجل سامق، تتباهى به ويتباهى بها.. أمّا غيره ممّن تودّدوا أو يتودّدون فهم في حسابها هوام، لا تكاد تراهم بالعين المجرّدة ولا حتى بالمجهر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هي تقرأ لتندب حبًّا يتعرّض لمحاولة اغتيال، وهو لا يريد أن يعتلي المسرح ويقف أمام الجمهور. ماذا سيقرأ؟ وماذا سيقول؟ عليه أن لا يقترف إثم الوقوف، فالأيدي المهيّأة للتصفيق والتي تعبّأت بها القاعة ستصاب بالشلل فشعره سيبقيها راقدة، هو شعر آخر، ومن أراده عليه أن يبحث عنه في دواوينه، في المجلات والصحف التي نشرته.

منّت حنان عوّاد نفسها بأنّ تحرير الفاو وعد بتحرير غسّان العامري، المهمّ أن يخرج لكي لا ترى انكساره وتقرأ حيرته، فهي تبحث عن توهّجه الرجولي يوم كان في لبنان فلا تجد شيئًا منه، لا ترى غير خذلانه وانطفائه.

كأنّه يعاني من علّة، تذيب فتوّته وتسرق حيويّته، وتُطفئ ضوء ضحكاته وترادف حكاياه ودعاباته التي تعشق الإنصات لها.

كانت تؤكّد عليه:

- كم أنت جميل عندما تضحك يا غسّان!.

ويردّ عليها:

- عندما نضحك من قلوبنا فإنّ ضحكنا سيكون جميلاً حتمًا.

لكن حنان عوّاد كانت متناهَبَة، لا تقدر على الحسم، و لم تجب نفسها إن كانت على استعداد لأن تتبعه وتقترن به!.

عندما تصل إلى هذا السؤال يتوقّف كل نبض فيها، وتحسّ بالتخاذل، وأنّها قد تتراجع وتنسحب، فهي حصيلة تقاتل شعب. ورغم أنّها في الثلاثينات من عمرها إلاّ أنّها لم ترَ شارع الحمراء ولا مبنى جريدة النهار التي تنشر فيها بعض قصائدها وتراجمها أحيانًا، وكانت تسمع عن مقاهي هذا الشارع أيّام مجده من غسّان.

لم ترَ الجامعة الأميركيّة، ولا رأس بيروت، ولا شاطئ البحر في الرملة البيضاء.

قالت له:

- كبرت وترعرعت في مساحة جغرافيّة صغيرة من جبيل إلى الحازميّة، ومرّات معدودة إلى منطقة المتحف عندما نذهب إلى بيت توفيق يوسف عوّاد الشتوي هناك، ولولا نصري الأسمر لما استطعنا الوصول في أزقّة هجرها حتى الكلاب والقطط رعبًا من أصوات القذائف.

يقول لها غسّان مهونًا:

- لكن كل شيء لن يبقى على ما هو عليه، واللبناني لا بدّ أن يحبّ اللبناني، أرأيت كيف تحضنون بعضكم كلّما جمعكم مهرجان، سواء من جاء منكم من بيروت الشرقيّة أو من جاء من بيروت الغربيّة؟ وهذا يعني أنّ لبنانيَّتكم هي الأبقى.

وتابع:

- ذات مرّة سئل أديبكم وأديب العربيّة البارز توفيق يوسف عوّاد في حوار نشرته مجلّة «الصيّاد» عن الحلول لمستقبل لبنان، الذي حملت روايته «طواحين بيروت» بعض الإجابات عنها، فذكر مؤكّدًا أنّ أحد الحلول الناجعة هو في الزواج المختلط بين الأديان والطوائف.
- لقد قرأت هذا الحوار وإنّني أؤيّده وأتمنّاه، ولكن كيف تقنع الآباء بهذا؟.

وأجاب: لا بدّ أن يقتنعوا!.

وهنا تذكّر غسّان أنّ صديقه نصري الأسمر قد أخذه ذات يوم إلى مزار القدّيس شربل الذي يؤمّه أتباعه، وعرّفه على رهبان دير عنّايا حيث مزاره، وتناولا طعام الغداء معهم وشربا من الخمرة المعتّقة التي جيء بها من قبو الدير.

وكانت المفاجأة لغسّان أنّ الضريح يشبه إلى حدّ كبير الأضرحة الإسلاميّة الشهيرة في العراق، وكان الناس يطوفون حوله، يوقدون الشموع ويرمون بالنقود من الشبّاك. هي الطقوس نفسها.. أم تنذر، وأخرى تمسك بالشبّاك وتدعو بصوت خافت، وكانت مهابة المكان وقداسته وضوع البخور الفائح فيه ترتسم على الوجوه هدوءًا عجيبًا.

وبدأ يحدّثها عن هذا مؤكّدًا أنّه لم يستغرب ما رأى بل وجده مألوفًا، فهذه الطقوس واحدة ومتشابهة سواء كانت في ضريح القدّيس شربل أو السيّدة زينب في دمشق أو ضريح الإمام علي في النجف.

وذكر لها أنّه طلب من نصري الأسمر معلومات وافية عن سيرة هذا القدّيس، وقد زوّده بها مطبوعة على الآلة الكاتبة وقد اختار لها عنوانًا شعريًّا «فصول لبنانيّة من القدّيس شربل كما تروى للمؤمنين والعشّاق». ثم أوضح لها أنّه بعد أن فرغ من قراءة هذه الأوراق تأكّد له بأنّ سيرة القدّيس وبراهينه هي حالة إنسانيّة أكثر ممّا هي حالة تخصُّ دينًا واحدًا وطائفة معيّنة من معتنقي هذا الدين هي طائفة الموارنة.

وراح يسترجع ما سمعه من براهين ومآثر أخرى عن أئمة وأولياء صالحين في العراق سواء كانوا من آل الرسول محمد أو ممّن ينتسبون لشجرة عائلته من اللاحقين، فوجد أنّ هناك تشابهًا كبيرًا في معنى الإيمان وفي الحاجة إليه، كأنّ الإنسان غير قادر أن يعيش إلاّ بالإيمان، وقد سمع غسّان من والديه وأقربائه حكايات لا تحصى حتى عن أولياء مجهولين قبورهم في العراء، سرعان ما تحوّلت إلى مزارات وصارت مقصدًا تنذر لها النذور ويقاد لها المرضى والمعتوهون ليحصلوا على علاجٍ عَجِز عنه الطبّ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت المرّة الثانية التي يذهب فيها غسّان إلى مزار القدّيس شربل مع رانيا خليل، اقترح عليها ذلك فوافقته، يومها كان مشدوهًا بها، كأنّها حدود العالم، وقد لاحظ خشوعها وهي تدور حول الضريح بطقس شبيه بالطقس الإسلامي، بعد ذلك دعته ليرتقيا إلى المحبسة وكأنّ الزيارة لن تتمّ إلاّ بها، ومضى معها.. كان حبّها يأخذه، وتذكر أنّه أمسك بيدها وأنّها عندما تعبت في الصعود استندت إليه فسكر من مسك عرقها، وكان شعرها يتطاير مع الريح منسكبًا عليه ليشمّ منه كل بذخ ونقاء الأعشاب البرّيّة التي لم تفسدها أقدام البشر.

لكنّ السؤال الذي يردّده مع نفسه:

- هل كانت محقّة عندما ارتضت الاقتران بشابّ من طائفتها! وهل هذا يعني أنّها لا تريد الخروج على السائد رغم ما تختزنه من ثورة حتى في آرائها، التي تُفصح عنها من خلال الأحاديث أو من خلال محاولاتها النقديّة في قراءة الأعمال والظواهر الأدبيّة والسياسيّة؟.

يومها كان غسّان العامري قد أصدر ديوانًا كاملاً عنها ولها. ولعلّ إصدار ذلك الديوان كان أشبه برسالة وداع لحبّ مجنون، حيث ظهرت حنان عوّاد لتمضي معه أبعد فأبعد، ولولاها لربّما تحوّل حبّ رانيا إلى داء لن يُزاح. ويذكر بندم أنّه قد هجاها ببعض القصائد، كأنّه بها أراد أن ينبّهها إلى معاناته، فعلم من نصري الأسمر صديقهما المشترك أنّ ذلك آلمها بل وأبكاها. ولا يدري لماذا أراحه ما سمعه!

كانت رانيا خليل تقول متألّمة:

- ليس بيدي شيء، كلّنا ضحايا ما نحن فيه، ولو بدرجات!.

ويتذكّر غسّان أنّه بدأ بنشر «محطّات» في جريدة «الأنوار» هي عبارة عن وقفات قصيرة، ولم يدر ما الذي دفعه لأن يحوّل أغلبها إلى هجائيّات قاسية موجّهة لرانيا خليل، كأنّ الكلمات تمضي رغمًا عنه بهذا الاتّجاه ولم يستطع إيقافها.

وقد باح له نصري الأسمر أنّها زارته في مكتبه ولم تُخف عنه أنّ ما تقرأه يسحقها ويدمّرها، لأنّهما معًا ضحيّة لحالة أكبر منهما. قال في إحدى هذه المحطّات:

(ليست هناك امرأة أخيرة
بل هناك دائمًا امرأة أخرى).

وحوّل المحطّات إلى عنوانين هما: (لوجه كان) وجّهه إلى رانيا، و(لوجه أتى) وجّهه إلى حنان عوّاد.

وقد جمعها بعد ذلك وأصدرها في ديوان. كان نصري الأسمر وكانت رانيا خليل وحدهما يعرفان أسرار الوجه الذي (كان) والوجه الذي (أتى)، في حين أنَّ حنان عوّاد امتلكت الثقة بأنّ لها القدرة على مسح كل وجه كان مرسومًا على خارطة قلبه، رغم أنَّ بعض العلامات من الصعوبة محوها، وفي أوج علاقته بها كان طيف رانيا يلوح في ذاكرته. لقد تأكّد غسّان في لحظات صفائه ومراجعته لبعض ما مرّ به أنَّه قد قسا على رانيا خليل، ولحظات الصفاء والمراجعة هذه يحياها بين وقت وآخر حيث يذهب وحده إلى مقهى «الكاستيل»، ومعه الكرّاس الصغير الذي أصبح رفيقه وهو نقيض الدفتر السميك الذي يحمله نصري الأسمر، أينما ذهب، وكان عضوًا في لجنة حماية البيئة لذا أطلقَ غسّان عليه اسم «دفتر البيئة»، وشاع الاسم بين الأصحاب حتى نصري نفسه أصبح يسمّيه «دفتر البيئة».

كان غسّان يكتفي بفنجان قهوة إكسبريس، يده على خدّه ووجهه على الناس متسائلاً: هل القلب مصدر الحبّ حقًّا؟ أم هو الدماغ كما يقول بعض العلماء؟ إنّ الجرّاحين بدأوا يستبدلون القلوب أو يرفعون الشرايين ويضعون مكانها أنابيب من المطّاط! فماذا يحصل للحبّ الذي يسكن هذه القلوب؟ ولو أنّني نقّبت بهدوء في قلبي وأطلقت عليه سهام أسئلتي التي تتخبأ في داخلي لا أدري أين؟ هل في القلب نفسه؟ أم في الدماغ؟ أم في الأعصاب؟ وليكن في صدارة أسئلتي أيّ امرأة أحببت؟ هل هي رانيا خليل؟ ولماذا هنا في لبنان؟ من دين آخر ومن طائفة لها صرامتها! كيف حصل أن تنسف السفارة العراقيّة في «الرملة البيضاء» وتصبح ركامًا فتتحوّل إلى «الحازميّة»؟ وآتي إلى لبنان ثانية لألتقي برانيا خليل ثم حنان عوّاد؟ من منهما الحبّ؟ هل هو استبدال امرأة بامرأة؟ إن لم يكن الأمر هكذا وأنّ رانيا خليل قد انتهت، فلماذا أحسّ أنّ شيئًا منها ما زال فيّ؟ ما زلت أحمله حتى وأنا في بهاء حنان عوّاد؟ لماذا لم تغادرني رانيا خليل نهائيًّا؟ لماذا لا تحرّرني؟.

ذات يوم وغسّان العامري دون العشرين من عمره، وفي ذروة هياج العراقيين بثورتهم في 14 تمّوز (يوليو) من عام 1958 ونهاية الحكم الملكي، تعرَّف على لبنى، هل أحبّته؟ هل أحبّها؟ انغمس فيها.. وكانت شيوعيّة معروفة.

حتّى أن أحدا أصدقائه الظرفاء اقترح عليه قائلاً:

- تزوّجها ودعها تنجب لك ماركس ولينين وخروشوف، بل وحتى تيتو ونزيهة الدليمي إن كثر نسلكما الشيوعي!.

ولم يستطع غسّان الردّ على سخريّته فسكت.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ثم فجأة تزوّجت لبنى من آخر يقيم في بغداد. كان زواجًا سريعًا تم خلال أسبوع، وكأنّ أسرتها أرادت أن تبعدها بعد أن شاع نبأ علاقتها بغسّان.

من لبنى تلك، هناك شيء في القلب هو أقرب إلى العتاب، لأنّها لم تصمد ولم تقاوم.

هل الحبّ الجميل يأتي في الزمن الخطأ؟ هو سؤاله الحائر. ثم تزوّج وأنجب في ردّ فعل عنيف على هذه الخيبات!.

كان يبحث عن المرأة القويّة الراسخة مثل نخيل الناصريّة ومثل جريان الفرات.

ظنّ أنّها رانيا خليل فكسفته، انسحبت بعد أن تركت بصماتها عليه.

ثم جاءت حنان عوّاد فهل هي امرأته الضائعة التي كم بحث عنها؟.

إنّها تعده بالمجيء لبغداد، ربّما لتودّعه قبل رحيلها الثاني والأخير إلى أميركا!.

لم تأتِ قبل هذا مع رعد الطويل وإياد الموسى. اعتذرت لمشاغلها واستعدادها للسفر، فهل غيّرت رأيها؟ هل ألغت فكرة السفر؟.

مرّة كتبت له من أميركا أنّها تعبت حتى تعرّفت على المنافذ إلى هذا العالم. هي مذيعة من الطراز الأوّل لغة وصوتًا وثقافة، ومع هذا لم تجد مجالاً في إذاعة «صوت أميركا» العربيّة، كأنّها عرين لا يمكن اقتحامه إلاّ في حالات نادرة.

كما أنّها لا تعرف اللغة الإنكليزيّة جيّدًا بل الفرنسيّة، ولذا عليها أن تجهد حتى تتعلّم هذه اللغة، تضيّع أشهرًا من أجل هذا.

وذكرت له أنّ أخاها قد وعدها بمساعدتها في هذا حتى تجد عملاً. ولكن ليس قبل الحصول على «البطاقة الخضراء»، وبعد ثلاث سنوات من الإقامة المتواصلة.

تُرى هل تراجعت عن فكرة السفر وقرّرت البقاء في لبنان ما دامت التحليلات السياسيّة تقول إنّ الحرب العراقيّة الإيرانيّة أصبحت في عداد المنتهية، وهذا يعني أنّه سيستطيع المغادرة ليلحق بها؟.

- 39 -

كانت حنان عوّاد مقتنعة بمبادئ غسّان العامري التي عمادها الإيمان المطلق الذي يتعد عن التفاصيل، وعندما دارت في مرقد الشيخ الكيلاني وبعد ذلك في مرقد الكاظميين تأكّد لها ما ذهبت إليه بأنّ الجوهر واحد والتفاصيل في اختلافاتها لا تمسّ الجوهر، وحدّثها عن فسيفساء من الأديان والملل والطوائف يحفل بها العراق من شماله إلى جنوبه من آشوريّين إلى أكراد إلى عرب، ومن نصارى إلى مسلمين بطائفتيهم الرئيسيّتين، إلى صابئة مندائيّين إلى يزيديّين وبهائيّين رغم أنّ الأخيرين قد لوحقوا سواء في العراق أو في إيران بل وتمّ إعدام عدد منهم دون أن يدري غسّان لماذا؟ لأنّه لا يعرف شيئًا عنهم، ولماذا تتمّ ملاحقتهم؟.

ومرّة حصل على معلومات من صديقه اللبناني الأب إتيان صقر الذي كان يحمل دكتوراه في المقارنة بين الديانات، وهو رجل دين مسيحي جليل ومرهف، أكّد له فيها أنّ المرء المؤمن وفي أمور كثيرة ينحاز إلى الجوهر ويترك التفاصيل أيًّا كان دينه، وهذا هو الحقيقي رغم تعدّد الأديان. وفي رسائله التي كان يكتبها لحنان من بغداد في الشهور الأخيرة، وبعد أن أخذ منه اليأس مأخذه، أصبح يقول لها بأنّه غريق ولا يريدها أن تغرق معه، فهل بإمكانها أن تنقذ نفسها؟ أن تجد الحلّ؟ وهو حلّ لا يعرفه شخصيًّا ولا يدري بأيّ صيغة سيكون؛ المهمّ أن تمسك بشيء يوصلها إلى شاطئ أمان. ويتذكّر أنّها بعد عودتها إلى لبنان وهي مزهوّة بالتألّق الذي حقّقته في أوّل مواجهة لها مع جمهور يضمّ الشعراء والغاوين الذين جاؤوا من كل الأرض العربيّة سواء كانوا عموديّين أو من مشايعي الشعر الحرّ وقصيدة النثر. شعر كثير فيه الجميل الرائع، وفيه الهذيان والكوابيس فيستحقّ قائلوه الحجر والجلد حتى يكفّوا عن كتابة الشعر وينصرفوا لشؤون أسرهم وتسيير أعمالهم.. يتذكّر رسالتها المقلقة التي شرحت له فيها بأنّها عُوملت من قِبَل رفاقها في الرحلة وكأنّها مُصابة بالجُذام.. ولذا تحاشوها، كأنّها غير موجودة بينهم. وعلى مدى الرحلة في الطائرة بين بغداد وقبرص، والانتظار نهارًا كاملاً في لارنكا حتى يحين موعد إقلاع الباخرة باتّجاه ميناء جونيه اللبناني، لم يكلّف واحد منهم نفسه بسؤالها إن كانت ترغب في أيّ مساعدة! ولم يفعل هذا إلاّ صديقك الصحافي أسعد الخوري فقط.

لكنّ ذلك الموقف - كما أكّدت له - قد جعلها تحسب بأنّها قويّة، حتى في وحدتها. لقد حصل كل هذا بعد أن اكتشفوا علاقتها بغسّان. لقد أعلنتها وليكن ما يكون!.

***

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حضر غيّاثَ الإبراهيمي إلى «كافتريا المنصور» فوجد غسّانًا قد سبقه، تصافحا وطلب غيّاث فنجان قهوته.

كان كعادته أنيقًا ومعطّرًا، كأنّه يجلس في «الهورس شو» أو «المودكا» أو مطعم «فيصل» في تلك الأيّام التي كان فيها طالبًا بالجامعة الأميركيّة أيّام مجد بيروت السياسي والثقافي. ورغم كرهه للأميركان نظامًا لا شعبًا فإنّه لم يجد بديلاً عن سكائر «المارلبورو» التي أدمن تدخينها، أو الدخول إلى الجامعة الأميركيّة ليتخرّج منها بعد أربعة أعوام حافلة بالمظاهرات والإضرابات والعشق أيضًا.

سأله:

- ما الجديد؟

فردّ بصوت لا تخبو نبرة الفرح منه:

- حنان عوّاد ستأتي؟
- صحيح؟! ولكن ألم تسافر لأميركا؟
- لا أدري، ستأتي مع وفد ثانٍ من الصحافيّين والأدباء اللبنانيّين لزيارة الفاو بعد تحريرها، ومن ثم المساهمة في الأمسية الشعريّة التي ستُقام في مسرح الرّشيد.
- ولهذا أراك فرحًا.. يا أخو الشلّيتة! المهمّ أهلاً بها، لقد اشتقنا لها، ولكن هل عرفت من سيأتي معها؟.
- النقيب النقوب سابقًا والمنقوب لاحقًا بعد إجراء عمليّة استئصال الزوائد من المكان إيّاه رعد الطويل، ومن المؤكّد أنّه قد أعدّ قصيدة جنجلوتيّة طويلة تناسب لقبه وطول قامته التي تبلغ المترين ما شاء الله! وربّما أتى نصري الأسمر أو النجم التلفزيوني المهضوم ميشال صايغ. رعد سيأتي حتمًا ما دام في قبرص، وهناك خطّ طيران عراقي إليها رغم أنّه قد جاء مع المجموعة الأولى.
- آخ لو نستطيع أن نأتي بواحد، لكنّه معتكف في قريته ولا يغادرها.
- من هو؟.
- يوسف حبشي الأشقر روائي لبنان الكبير!.
- أتدري لقد حاولت معه كثيرًا. لكنّه قال أنا مؤمن بالمفاجآت وطيلة سنوات الاحتراب لم أغادر قريتي «بيت شباب» قرفًا واحتجاجًا، فأنا مؤمن بمبادئ الحزب السوري القومي الذي كنت عضوًا فيه، وعلى رأسها العلمانيّة، ومداي الهلال الخصيب والعراق منه ورواياتي وأقاصيصي تعلن هذا. وما دمت لم أر

بغداد من قبل فاعتبر دعوتك لي قائمة وسألبِّيها، لا بدّ من أن أرى الهلال الخصيب كله الذي كان حلم الزعيم أنطون سعادة.

- اسمع غسّان! ما دمت لا أريد الذهاب إلى لبنان بسبب الاشتباكات. حياتي هناك. فإنّ أضعف الإيمان أن يأتيني الذين أحبّهم إلى هنا. وسأفرش لهم أهدابي ليدوسوا عليها، بل وإنّني أعمل من أجل أن يأتوا.

ثم أضاف:

- أليس من حسن حظّك أنّ حنان عوّاد تأتيك بنفسها؟ ثم إنّ أصدقاءك قد أصبحوا أصدقاءها، حتى زوجتي وولداي يحبّونها وكذلك عدنان العزيري ومعن الماجد ومنعم البصري وزوجته وغيرهم؟ واستدرك وكأنّه فاته أن يخبره:

- على أيّة حال، إذا جاءت انطلق معها، لا تفكّر بشيء، ولا تحسب للنقود حسابًا، نحن لبعضنا، اليوم أنا في بحبوحة، وعندما تركت لبنان بحقيبة صغيرة باتّجاه الخليج لم أكن كذلك، لم أستطع الاستمرار، فجئت إلى بغداد حيث تعرّفت على زوجتي، فأنا يومها مسيحي وهي مسلمة كرديّة. فهوّنت على والديها كل شيء، إذا كان الدين العائق الأوّل فأنا سأعلن إسلامي.

واستطرد:

- لأنّ الإيمان هو الإيمان رغم ما سبّبه لي هذا من مشاكل مع أسرتي بلبنان بعد ذلك.

توقّف، ثم قال:

- وابتسم والدها فرحًا ممّا سمع، لكن أمّها قالت:
- أنت من بلد آخر وقد تأخذها منّا ولا نعود نراها أبدًا!.

أجبتها:

- إنّني مستقرّ هنا وبدأت أعتاد على الناس والحياة في البلد، كما أنّ عملي في سفارة بلد أجنبي أحمل جواز سفر منه وأجيد لغته لكوني ولدت فيه، هو عمل دائم إذ لا يمكنهم أن يجدوا بديلاً عنّي تتوفر فيه صفاتي، فأنا لهم اليد والرجل كما يقول المثل وعلاقتهم الاقتصاديّة بالعراق تتوثّق. ولم تدر تلك الأمّ أنّ ابنتها الكبرى المتزوّجة من عراقي ابن عراقي سيأتي يوم يُنتزع فيه من بيته وأملاك أُسرته ويصادر حسابه البنكي ويُرمى على الحدود الإيرانيّة هو وزوجته وأطفاله الثلاثة باعتباره تبعيّة إيرانيّة. أيّ أمّة هذه يا غسّان!!.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ومع هذا فهي أمّتنا، ونحن أبناؤها، والجلد لا يُنزع من العظم.
- لكن مآسيها أكثر من محاسنها، خذ أميركا التي تتحكّم في المصائر وتمتلك أكبر اقتصاد وأقوى نفوذ، كل مواطنيها تبعيّة، فهل ترمي بهم؟ الوطن يذوّب كل الفوارق في محبّته!.

وهنا طلب كأس ويسكي ليطفئ شعلة غضبه واتّقاده التي لا يستطيع أن يبوح بكل خزينها أمام أحد إلاّ غسّان العامري الذي منحه كل ثقته.

بعد ذلك تحدّث غسّان عن لقائه في فندق الشيراتون بشاعر العراق وأحد رموزه الوطنيّة البارزة عبد الوهاب البيّاتي ومعاناته بعد عودته إلى الوطن.

قال غسّان:

- لقد تسمّمت من حالته رغم أنّه يكابر كعادته، ولا يحبّ أن يظهر ما هو عليه؟.
- من يصدّق أنّ عبد الوهاب البيّاتي الشاعر الذي كانت قصائده تتنقّل بيننا في الجامعة، ونختار بعض أبياتها في اليافطات التي نرفعها في المظاهرات يكون في بلده على هذه الحال؟.

ووجد قبضته تتكوّر بقرف وتضرب على فخذه قبل أن يستأنف:

- إنّي أستغرب لحالنا، مبدعو البلد الكبار لا أحد يهتمّ بهم ويجري اللهاث وراء المرتزقة الذين باعوا أنفسهم لأكثر من نظام وهم على استعداد للتنكّر لمن هم معه الآن إذا جاء من يدفع أكثر، كأنّ التزكية للنظام لا تتحقّق إلاّ بكتابات وقصائد المأجورين من الشعراء والصحافيّين، هم يتحدّثون عن جنّة من الوهم ونحن نحترق هنا في جحيم حقيقي. بعضهم جعل من بغداد محطّة أولى، رتّب وضعه ثم غادر نحو باريس أو لندن، هذا أنشأ مؤسّسة صحفيّة وذاك انضمّ إلى سفارة وثالث أصبح مراسلاً لا يراسل لهذه الجريدة أو تلك المجلّة، بمجرّد عناوين فقط، والدولارات والفرنكات تذهب إليهم إلى منتجعاتهم الأوروبيّة، أتدري أنّهم يضحكون عندما يجتمعون ببعضهم ويصفون النظام بأنّه أكبر نظام مغفّل رغم كل شعاراته، ولذا يعملون على تأجيج النار حتى يستمرّوا في القبض.

كان غيّاث الإبراهيمي ينصت إلى صاحبه وحاجباه يتحرّكان ومعهما نظّارته الطبّيّة، وكان يودّ أن يقول شيئًا، أن ينفجر، لكنّه يحاذر ولكن بمجرّد توتّره كان يقول أشياء كثيرة وهو الذي يتأمّل المشهد بهدوء وتأنٍّ وقراءة ذكيّة.

يعبّ الكأس بعد الأخرى، ولا يسمع غير تأفّفه الذي يحاول أن يحدّ من مدّه بالتدخين.

كان غسّان يتحدّث عن أمور يعرفها، وربّما كان يعرف تفاصيل أكثر منه ولكنّه قرف من الكلام.

وهنا قال غسّان:

- هل هذا عراق البيّاتي والجواهري والسيّاب وبلند الحيدري وذو النون أيّوب وعدنان العزيري ومعن الماجد وزيد الحبيب وكامل الخزاعي وجليل الواسطي وحيدر الخلف وعشرات المبدعين في كل المجالات ومن كل الأعمار، وهل هو بحاجة إلى المرتزقة؟ لماذا يكرّم سهيل صبري على أساس أنّه الجواهري القادم كما يزعمون فيصبح مليونيرًا، وهو لا يملك ديوانًا، رغم أنّ التاريخ لا ينجسب غير جواهري واحد وبيّاتي واحد أو حتى وغسّان واحد؟ لِمَ لا؟ وأنّ البدائل لا يمكن أن تحلّ محلّ الأصلاء!.

وهنا رفع غيّاث الإبراهيمي إصبعه وكأنّه يطلب من صاحبه أن يهدِّئ من ثورته. بعد ذلك نطق بمنتهى الهدوء والتماسك:

- لا تجهر بكل ما عندك وما فيك، خبّئه، ثم اكتبه بعد ذلك، أنت شاهد، لا تنس هذا، ويومًا ما ستكتب كل ما مرّ بك، في يوميّات، في مذكّرات، في قصائد، غير مهمّ، ولكنّ المهمّ أنّك ستكتبه. أمّا اليوم فلا نتمنّى لك شيئًا إلاّ أن تغادر، رغم أنّك بهذا ستطعنني في قلبي أيّها الوغد يا ابن الهاون أو أبو الهاون المتخلّف.

فضحك غسّان وهو يستمع إلى صاحبه وهو يحاول أن ينطق اسم قريته، فقال مصحّحًا:

- التخلّف ليس في قريتي التي هي أبو هاون، ولكن في قريتك اللبنانيّة، فما أنتم إلاّ بدو جبال، قطّاع طرق، لا تعرفون غير صيد السمك والنكاح.

فانقلب المشهد المشحون إلى نقيضه عندما بدأت حنجرتاهما تطلقان القهقهات رغم أنّ كثرة التدخين قد جعلت غيّاثًا ينفجر بالسعال الذي أسعفه النادل حسام بجرعة ماء حتى يوقفه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- 40 -

أوصله تطوافه الليلي إلى فندق الشيراتون فارتأى أن يدخله علّه يلتقي بأحد أصدقائه القادمين الذين تأتي بهم الحرب ليقوموا بتغطية أنبائها، لا سيّما أنّ التحليلات تُجمع على أنّها تحوّلت إلى عبث، ومهما طالت فلن يكون فيها غالب ولا مغلوب ما دام الجيش العراقي قد استرجع الفاو.

كانت الساعة حوالى التاسعة وفكّر في أنّه إن لم يجد أحدًا سيتوجّه على قدميه إلى نادي اتّحاد الأدباء ليجلس في حديقته الواسعة مع من يجد من رفاق الحرف، وتمنّى أن يلتقي بحيدر الخلف الذي رغم بُعد بيته وصعوبة عودته ليلاً إلاّ أنّه لا يتوانى عن الذهاب بين فترة وأخرى.

أمّا عدنان العزيري فهو تحت قبضة زوجته ليلاً ودائمًا تجد في مرضه حجّة لمنعه من الخروج.

لقد مرَّ به وهو في شقّته غيّاث الإبراهيمي، وتناول معه قهوته المسائيّة وهو يقول:

- أصبحت بارعًا في إعداد القهوة!.

ويردّ عليه:

- هذه من نِعَم اللبنانيين عليّ، فهم أصحاب مزاج في القهوة، ولا أحد مثلهم يبرع في إعدادها، أرجوك أن لا تذكّرني، فلم أعد أحتمل.
- ينقصها الهال.
- كان عندي وانتهى منذ أيّام، وعندما أمرّ بسوق الشورجة سأشتري.
- سآتيك به من البيت، زوجتي دائمًا لديها كمّيّة احتياطيّة.

ثم عاد غيّاث ليخبره أنّه مدعوٌّ على العشاء في نادي العلويّة، فما كان من غسّان إلاّ أن قال له:

- سأنزل معك، واتركني في زحمة الباب الشرقي، لقد نمت جيّدًا ولديّ استعداد للمشي ولكن على غير هدى.
- هيّئ نفسك إذن، أنا نازل لشراء السكائر فلا تتأخّر عليّ.
- خمس دقائق فقط، نسيت أن أقول لك أنّ حنانا ستصل بعد يومين على الطائرة العراقيّة من قبرص، معن الماجد كان في الوزارة وقد تبرّع ليسأل لي عن موعد قدومها.

- جميل، سنذهب معًا لاستقبالها.

ونزل غسّان في الباب الشرقي كما أراد، وبدأ جولته، توقّف أمام واجهات مخازن ليعاين ما يعرض فيها من ملابس وأدوات كهربائيّة وأحذية.

وكان شارع السعدون والشوارع الصغيرة المتفرّعة منه لا تُسمع فيها إلاّ اللهجة المصريّة، وقد أصبح جُلّ الباعة والمارّة من المصريّين ونادرًا ما يمكن التقاط اللّهجة العراقيّة من أحد المارّة وهو يحادث صاحبه.

أمّا المطاعم والمقاهي فقد حوّلت الشوارع الخلفيّة إلى أحد أحياء مصر المعروفة، بولاق أو الحسين.

وكان غسّان معجبًا بفطنة هؤلاء الشباب الذين لا يهابون المغامرة حيث يغادرون مدنهم وقراهم الصغيرة، وبعضهم لم ير القاهرة إلاّ في الأفلام والمسلسلات وهو يحمل بيده جواز سفره حيث لا يتطلّب السفر إلى العراق حتى تأشيرة الدخول.

ومن يصل يبحث عمّن سبقه من أبناء قريته وسرعان ما يجدهم ليكونوا قريبين من بعضهم في غربتهم، من يعمل يساعد العاطل حتى يجد فرصة للعمل.

وكانوا يجتمعون في بعض الساحات مثل ساحة الطيران أو الساحة التي ينتهي عندها شارع 14 رمضان في انتظار من يأتي باحثًا عن عامل لحرث حديقة بيته أو إصلاح مواسير الماء أو جهاز التليفزيون، لكنّ المشكلة أنّ لا أحد يجيب عن سؤال: ما هو اختصاصه؟ كان يريد أن يعمل فقط، ولديه جواب جاهز:

- أعمل أيّ حاجة يا بيه.

ولكنّ السائل لا يريد «أيّ حاجة» بل اختصاصيًّا في عمل محدّد.. وكم تورّط البعض معهم فأفسدوا ما جاؤوا لتصليحه.

وكان من عادة غسّان العامري أن يلقي نظرة على تمثال عبد المحسن السعدون كلّما مرّ به.

ردّد في سرّه:

- السلام عليك أيّها الرجل الذي حسم حيرته بالانتحار.

كانت عيادة منعم البصري تقع عبر الساحة في الجهة الأخرى، لكنّه ليس فيها الآن، فلا بدّ أن يغادر في الثامنة والنصف كأقصى حدّ. يذهب إلى ناد ما قبل أن يتوجّه إلى أحد بيتي زوجتيه، يتنقّل ما بين الفرنسيّة والعراقيّة، مرّة أوروبا وأخرى بلاد العرب أوطاني كما يحبّ أن يردّد وفق دعاباته الذكيّة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إنّه مشتاق إليه، ولا بدّ له أن يراه بين فترة وأخرى، «إنّ أصدقائي هم أصدقائي» هذا هو الشعار الذي رفعه غسّان ولم يحد عنه، ويضيف موضحًا هذا الشعار «سواء كانوا من المعارضين أو الموافقين للنظام القائم فهذا شأنهم»، ولذا أبقى على علاقته القويّة بجليل الواسطي رغم أنّه قد تحوّل إلى صفوف المعارضة، وأصدر كتابًا عن مركز التعذيب الشهير التابع لمخابرات النظام والذي أطلق عليه اسم «قصر النهاية» لأنّه كان قصر العائلة الملكيّة الحاكمة حيث أُبيدت عن آخرها فيه، ثم بقي الاسم، وأصبح اسمًا على مسمّى فمن يدخله لا يغادره إلاّ جثّة هامدة، ونادرًا ما يسلم أحد المعتقلين، وقد أودع جليل الواسطي فيه لعدّة أشهر ولأسباب ما زال غسّان يجهلها، كما أنّه لم يسأل صاحبه عنها، لكنّ القصر هُدّ بعد ذلك لتُبنى على أرضه قصور هي أكبر مجمّع للمخابرات.

أخذ غسّان يحثّ خطاه وسط الزحام وهو يتمنّى لو أنّ الوقت كان أبكر لوجد منعم البصري في عيادته، ولأسرع لمهاتفة زوجته أحلام وهو يعلن لها عن وصول غسّان العامري التي كانت تحسّ بالاطمئنان له، وتعتبره أوفى أصدقائه. فقد وقف معها أيّام علاقتها بمنعم، كما أنّه كان هو وطارق المنصور شاهدي زواجهما في محكمة الأحوال الشرعيّة في الأعظميّة.

وكان غسّان يحترم فيها وفاءها لمن تحبّ وإصرارها عليه رغم معرفتها بتعدّد علاقاته، ممثّلة مسرحيّة وأخرى مقدّمة برامج تلفزيّة وثالثة طبيبة ورابعة وعاشرة، ومع هذا كانت تحاربهنّ جميعًا لإيمانها العميق بأنّها وحدها من تحبّه لشخصه لا لمركزه ولا تطمح منه بشيء، وهي ابنة العائلة ذات الأصول العريقة ولها مكانة دينيّة وعلميّة وماليّة محترمة إضافة إلى كونها هي نفسها مهندسة معماريّة ناجحة.

وعندما أحسّت زوجته الفرنسيّة بجدّيّة علاقته بها أخذت تكلّمها وتشتمها وهي تضحك ببرودة أعصاب، فقد أحسّت أنّ هذه المرأة الأوروبيّة حتى وإن أنجبت منه وحصلت على الجنسيّة العراقيّة وأجادت التكلّم باللغة العربيّة إلاّ أنّها بعيدة عنه، خالية من ذلك الحنوّ الحقيقي الذي لن تقدّمه إلاّ امرأة عربيّة.

وكانت مشكلة زواجه المانع الأوّل لاقترانه بها، حيث كان القانون العراقي يمنع تعدّد الزوجات، ورغم القناعة التي نمت في داخل منعم أن لا غنى له عن أحلام ولا بدّ له من الاقتران بها حتى لو اضطرّ إلى تطليق زوجته، فإنّه آثر أن يترك الأمر للظروف الحبلى بالمتغيّرات في بلد يتآكل أبناؤه وتلتهم الحرب المئات منهم كل يوم.

وذات يوم صدر قرار يسمح للزوج بزوجة ثانية، هنا أصبح المجال مفتوحًا أمام منعم وأحلام لكي يتزوّجا، وقد قال له غسّان بكل وضوح:

- هذه الفتاة متعلّقة بك منذ أكثر من سبع سنوات، رفضت الكثيرين الذين تقدّموا إليها من أجلك رغم كل مساوئك ومعاصيك وذنوبك التي لا يغفرها إلاّ الله يوم القيامة، لقد كانت الأخريات عابرات وبمجرّد أن جاءهنّ فرصة الزواج ذهبن مثل مقدّمة البرامج التلفزيونيّة، لقد تحدّت المجتمع وصارت تخرج معك وتجالسك في الأماكن العامّة، وتحمّلت إهانات زوجتك المتلاحقة لها وكانت تتبعها حتى إلى مكان عملها وتشهّر بها أمام زملائها، وكان ردّها الوحيد البكاء إذ لا جواب لديها غيره. وما عليك الآن إلاّ أن تردّ لها كرامتها وذلك بالاقتران الفوري والعاجل بها. وقد عرفت أحلام بموقف غسّان الصارم من هذا الأمر الذي اقتنع به منعم فأوكل لمحامي الشعب المغلوب والمقهور طارق المنصور بإنجاز الأوراق المطلوبة.

ثم تشكّل وفد يتكوّن من غسّان وطارق وشقيق منعم الأصغر وذهبوا إلى بيتها ليطلبوا يدها بشكل رسمي.

كان أهلها على معرفة بهذه العلاقة التي كانت تؤرقهم بعد أن طالت.

بعد ذلك استأجر منعم شقّة في شارع حيفا وقام بتأثيثها تأثيثًا كاملاً وأصبحت عشّ الزوجيّة الذي اكتشف منعم أنّه الأدفأ والأكثر أمانًا.

وعندما علمت زوجته بالأمر غضبت وهاجت وماجت ثم هدأت.

لأنّه خيَّرها إن كانت تحبّ الطلاق والعودة إلى بلدها أو البقاء في بغداد فلا مانع لديه، وإن أرادت أن تظلّ زوجة له فعليها احترام زوجته الجديدة التي لها الحقوق نفسها.

واتّجه غسّان نحو الجندي المجهول، ومن هناك دخل فندق الشيراتون فإذا به وجهًا لوجه مع سهيل صبري ولم يعرفه لأوّل وهلة، فقد كان يرتدي الزيّ العربي الذي أصبح موضة تيمّنًا بما يفعله كبار القوم وأولو الأمر، الكوفيّة البيضاء والعباءة والعقال. وهذه هي المرّة الثانية التي يجده فيها هنا وبهذا الزيّ.

وعندما رأى غسّان العامري اندفع نحوه مرحّبًا ومعانقًا وهو يسأله:

- أين أنت؟ لماذا لا نراك؟
- هنا في بغداد، لم أغادرها حتى إلى الناصريّة لرؤية الوالد والأشقّاء والشقيقات.
- والآن؟
- مررت لألقي نظرة فقط ثم أمضي إلى نادي اتّحاد الأدباء.

وقال كأنّه عثر على شيء:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ابق معي، لم أرك منذ فترة، ولنبدأ أوّلاً بفنجان قهوة.

وصعدا السلالم المؤدّية باتّجاه المقهى الذي كان له فيه لقاء قبل أيّام مع عبد الوهاب البيّاتي، وشعر بالمفارقة العجيبة، أن يجلس اليوم مع سهيل صبري وقبله مع البيّاتي الشاعر الذي حقّق مجده الشعري بجدارة وامتياز.

لقد سمع غسّان العامري للمرّة الأولى باسم هذا الشاب الحيوي الفطن والدعيّ في الوقت نفسه عندما كان في بيروت، وما سمعه كان أشبه بالأساطير أو الخرافات، حيث تحوّلت حالته إلى سؤال محيّر؟ لم يستطع أن يجيب عنه أحد.

كان صعوده السريع مثار اهتمام ومثيرًا للفضول، فرغم أنّه في العشرينات من عمره ولم يحصل على الشهادة الثانويّة فإنّه مُنح درجة مدير عام في المنظّمات الشعبيّة، ووضع على رأس منتدى الأدباء الشبّان الذي كان يلاقي دعمًا من أعلى الجهات أكثر من الدعم الذي يلقاه اتّحاد الأدباء.

وقيل إنّه عندما عجز عن النجاح من المرحلة الثانويّة صدر مرسوم جمهوري يعتبره ناجحًا وقبوله طالبًا في كلّيّة الآداب، تبعه مرسوم آخر اعتبره متخرِّجًا وحاصلاً على الليسانس فقُبِل في قسم الدراسات العليا.

ولم يصدّق غسّان ما سمع، ولكن هذا ما حصل فعلاً. فالتعليم في العراق أصبح نكتة وصار لقب دكتور يسبق أسماء لم يعرف عنها أنّها تجاوزت مرحلة التعليم الابتدائي.

وذات يوم رنّ جرس الهاتف في مكتب غسّان ببيروت. كان هذا عام 1984 تحديدًا، وقد قدّم المتكلّم نفسه:

- أنا سهيل صبري رئيس منتدى الأدباء الشبّان.
- أهلاً وسهلاً، يا مرحبًا.
- أستاذ غسّان لدينا ملتقى شعري ينظّمه المنتدى وبدعم من السيّد الرئيس حفظه الله هو الملتقى العربي الأوّل الذي ينظّمه منتدانا، وقد أطلقنا عليه اسم مهرجان الأمّة الشعري، وقد شكّلنا وفودًا إلى جميع البلدان العربيّة وبعض البلدان الأوروبيّة عدا لبنان. فمن غيرك أعرف به، وسيأتيك تليكس منّا لغرض توجيه الدعوة لما بين عشرة أو خمسة عشر شاعرًا شابًّا وصحافيًّا ليكونوا ضيوف المهرجان، لكن ما أحبّ تأكيده هو أنّ هناك رغبة من الرئاسة لدعوة شاعر الحبّ نزار قبّاني ليكون أحد ضيوف الشرف، كما سنرسل تليكسًا إلى السفارة لتزوّدك بمبلغ مالي لغرض مصروفات الوفد في الطريق.

وردّد غسّان:

- سأبذل جهدي وآتيكم بمجموعة طيِّبة من الشعراء الشبّان إضافة إلى ضيف الشرف، اطمئن.

واستعان غسّان بخبرة وهمّة نصري الأسمر في الاتّصال ببعض من جرى الاتّفاق على دعوتهم.

وعندما اتّصل بنزار قبّاني قَبِلَ الدعوة فورًا وهو يردّد:

- العراق في القلب ولا يمكنني أن أردّ دعوة تأتيني منه رغم صعوبة السفر وظروفي الصحيَّة الدقيقة وكميَّة الحزن التي أنام عليها بعد فقداني الفاجع لرفيقة عمري سوسن العراقيّة وأمّ ولديّ. رتِّبْ الأمور وسأكون جاهزًا.

كان يحسّ بألمه الكبير لفقدان المرأة التي أحبّها منذ أن التقى بها في أحد لقاءاته الشعريّة ببغداد حيث تشكّل النساء ما يساوي ثلاثة أرباع الحاضرين، ولا يدري أحد كيف استطاع أن يفرزها من بين عشرات الوجوه التي تتنافس في الجمال والأناقة، يومها كانت بغداد تعيش في سلام، وأموال البترول تتكدّس بُعَيد حرب أكتوبر من عام 1973.

كان الناس يأكلون ويشربون جيّدًا، ويسافرون متى شاؤوا، وينظّمون الندوات واللقاءات في شتّى شؤون المعرفة.

ولم يكن غسّان قد رآها من قبل، وجدها أمامه عام 1978 عندما حلّ ببيروت لإدارة المركز الثقافي العراقي فيها، وحيث كانت إحدى العاملات فيه.

كانت جميلة وقويّة، طويلة تكاد أن تكون قامتها أطول من قامة زوجها الذي شُدِهَ بها منذ أوّل لقاء.

لها شعر عبارة عن جديلة طويلة وعينان ملوّنتان ثاقبتان، وكانت تدخّن كثيرًا.

وقد كان حضورها يشكّل عامل حيويّة في هذا المركز المهدّد بالنسف وعند منتسبيه المهددين بالقتل من عدّة جهات تعادي النظام العراقي.

وعن طريقها تعرّف على قرينها الشاعر الجميل نزار قبّاني وأصبحا صديقين، وكان يتردّد عليه صحبة صديق بداياته الأدبيّة الكاتب السوري باسم الرفاعي كلّما سنحت الفرصة لذلك سواء إلى مكتبه أو إلى بيته الذي لم يكن يغادره، إذ كان يفضّل البقاء ليقرأ ويكتب وينام مبكرًا بعد أن يتناول أدويته لتلافي تكرار النوبة القلبيّة التي تعرّض لها وكذلك ارتفاع ضغط الدم الذي كان يعاني منه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أمّا سوسن فقد كانت تخرج وتزور أصدقاءها وتلبّي دعوات العشاء والسهر سواء في البيوت أو أحد المطاعم البيروتيّة.

كانت لا تعرف الخوف، تقود سيّارتها بنفسها، وتذهب لتقلّ معها من يخشى القيادة ليلاً وتتكفّل بإعادته إلى بيته.

لقد أخذت الدور الاجتماعي الذي على زوجها أن يؤدّيه، وتركته لشعره الذي له قاعدة واسعة من القرّاء حتى أطلق عليه لقب شاعر المرأة والحبّ، رغم أنّه لم يرتضِ هذا الموضع الذي صنّف فيه. وكتب عددًا من القصائد السياسيّة التي تتعلّق بالأحداث العربيّة الكبيرة ولكنّها أخذت طابعًا تجريحيًّا وهجائيًّا ولم تنل القبول الذي نالته قصائده العاطفيّة.

لكن سوسن الراوي ذهبت أشلاء في حادث نسف السفارة العراقيّة، وهي المرأة التي تتمتّع بالبهاء الجميل وقوّة الشخصيّة والشجاعة النادرة والعشق الصافي للحياة.

كانت في زيارة فقط للسفارة لقضاء أمر رسمي فيما يتعلّق بالعمل، فكان قدرها في انتظارها لتكون الخاتمة ولتترك زوجها وولدها وابنتها الصغيرين اللذين يحملان ملامح مشتركة منه ومنها.

وقد تشكّل الوفد الذاهب إلى بغداد من حوالى العشرة، من شعراء وصحافيّين، وكان غسّان سعيدًا بهذه الرفقة، كيف لا ومعه نزار قبّاني بكل ما يعنيه الذي جاء صحبة نصري الأسمر، وقد سعد به رفاق الرحلة الذين كانوا يعرفونه اسمًا مشعًّا فقط، وبدأوا بالتقاط الصور معه.

كانت السفينة الصغيرة التي استأجرها غسّان لا تتّسع إلاّ لهم، وليس فيها غير المقاعد، وما إن أصبحوا فوقها في حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر حتى انطلقت بهم.

قال الربّان:

- الرحلة تستغرق قرابة الثلاث ساعات.

بدت وكأنّها تحلّق فوق الأمواج، ومع هذا فإنّ هيجانها يؤثّر على الركّاب. فعندما ابتعدت عن الشاطئ وأصبحت في وسط البحر أصاب الدوار قبّاني، هذا الدوار الذي لم يكن يتوقّع أن يحصل له وقد فاته أن يتناول حبوبًا خاصّة لتلافيه.

فأخذ يستفرغ بصوت مسموع ولم يعد قادرًا على الجلوس، لذا تمدّد على الكراسي وهو يئنّ.

وأصابت الحيرة غسّان العامري الذي أحسّ بمسؤوليّته عن ما يحصل، وعندما سأل نصري الأسمر أحد البحّارة إن كان بإمكانهم العودة أجابه أنّهم الآن في منتصف الطريق والمسافة واحدة بين مكانهم والأرض اللبنانيّة أو الأرض القبرصيّة.

وتوجّه غسّان بسؤال آخر للبحّار إن كان تخفيف السرعة يساعد على تحسّن حالته فأجاب:

- المشكلة في الأمواج، وربّما كانت السرعة أفضل حيث ستتلافى السفينة الهبوط والنزول الكثير.

فعادا إلى الشاعر الملقى وكانت يارا داغر الشاعرة الشابّة قد وضعت رأسه في حجرها وهي تمسح جبينه وتحاول أن تساعده ممّا لفت نظر غسّان، فتساءل: أيّ حنان تختزنه هذه الفتاة الفاتنة؟ أيّة ليونة؟ ها هي خضراء مثمرة بالعطف الأنثوي الجميل على هذا الشاعر الذي ربّما احتفت بقصائده وأُعجبت بها و لم تحلم أن تراه!.

والتفت غسّان نحو نصري الأسمر وهو يسأله بحيرة:

- ماذا لو مات في عرض البحر أو تعرّض لنوبة قلبيّة؟ كيف نسعفه؟ ومن يتحمّل مسؤوليّة ما يحصل له؟ إنّه الآن الأب والأمّ لولديه بعد رحيل أمّهما؟ فأيّ يُتْم ينتظر هذين الطفلين الرائعين؟.

ثم تحوّلت الشاعرة الشابّة يارا داغر لتجلس عند قدميه، وتحاول أن تمسّد ساقيه وهي تبكي قبل أن تأخذها هي الأخرى نوبة دوار البحر، فبدأت تستفرغ وتكفّل بها والدها الذي كان يرافقها في هذه الرحلة.

كانت يارا في حوالى العشرين من عمرها طالبة في كلّيّة الحقوق، وهي من اكتشافات نصري الأسمر الذي نشر لها بعض قصائدها في جريدته الشعريّة.

كانت جميلة إلى أبعد الحدود كأنّها هيلين بطلة طروادة، طويلة بشموخ، لها عينان واسعتان بشكل لافت وفيهما كل ألوان الدنيا.

وقد عقصت شعرها بضفيرة طويلة ذكرته بضفيرة سوسن الراحلة.

وقد رآها غسّان للمرّة الأولى وهي على المنصّة تلقي بعض قصائدها في أمسية نظمتها الحركة الثقافيّة بأنطلياس في كنيسة مار إلياس.

وعندما اقترح عليه نصري دعوتها للمهرجان قال له:

- إنّ المهرجان مخصّص لمن هم من جيلها، اعتبرها مدعوّة.

ثم أضاف:

- إنّها لا تقرأ شعرًا، بل كأنّها ترتّل في قدّاس مهيب، والناظر إليها يصادر بها قبل أن يتمعّن في معاني شعرها، وأنا واثق يا نصري أنّها ستكون عروس مهرجان الأمّة ونجمته النادرة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وعندما كلّم غسّان والدها رحّب بالدعوة إلاّ أنّه طلب أن يرافقها، إذ هي في عمر لا يستطيع أن يتركها تسافر لوحدها، حتى أمها لا ترضى بهذا، وتعهّد بأن يتحمّل كافّة نفقات سفره ما دام ليس شاعرًا من أجل أن يكون معها.

إلاّ أنّ غسّانًا اعتبره أحد المدعوّين، وسجّل اسمه معهم ما دامت نفقات المهرجات مفتوحة وبرعاية خاصّة من رئيس الدولة.

وكان هناك في داخل غسّان سؤال حائر هو:

- ما هو السرّ في هذا الاهتمام بمهرجان يحضره شعراء في بداية طريقهم، وربّما لا يبقى منهم في عالم الشعر وهمومه إلاّ بضعة أفراد؟ ولماذا هذا الدعم وفي البلد مهرجان شعري سنوي أهمّ هو مهرجان المربد؟ إنّ هذا الاهتمام يجعل السؤال عن هذا الفتى المندفع سهيل صبري أكثر غموضًا، ويتوالى بإلحاح تساؤل معلن أو مخفيّ خوفًا هو: لماذا؟.

استخرج نصري سندويج أمّه من حقيبته اليدوية وبدأ يقضمه غير آبه بدوار البحر وكان من عادة والدته أن تعدّ له سندويشًا يحمله معه صباح كل يوم إلى مكتبه، ولم تتوقّف عن هذه العادة حتى عندما كانت زوجته في لبنان وقبل أن تغادر ملتحقة بعائلتها التي هاجرت إلى أميركا نهائيًّا بعد اشتداد الاحتراب وانقطاع الأمل بتوقّفه، ممّا أدّى إلى تفاقم سوء الفهم بينهما رغم وجود ابن مشترك هو الآن طالب في المرحلة الثانويّة، ومرّة روى نصري لغسّان بوضوحه وقال:

- إنّها على درجة عجيبة من الذكاء بحيث تستطيع أن تشمّ رائحة المرأة التي كنت معها حتى وإن لم تضع عطرًا، كما أنّها تميّز الاختلاف بين امرأة وأخرى، وعندما تحسّ بذلك تحرن وتطلب منّي أن أنام في الصالة فأمتثل لما تريد، كان هذا أبسط عقاب من هذه المرأة العجيبة الذكاء.

ويضيف متسائلاً:

- هل الفنّان على حقّ عندما يتزوّج وخاصّة الشاعر؟ هل من الضروري ذلك؟ إنّنا نحبّ ونكتب شعرًا وإن مللنا امرأة ذهبنا إلى غيرها. ويبدو أنّ رانيا خليل ذكيّة بحيث تضع بينك وبينها فاصلة هي السبب في التهابك واشتعال شغفك بها ومن ثم كتابة الشعر، لأنّها تعرف أنّك ستغادرها.

- ولكن يا نصري ماذا إن كبرنا ووجدنا أنفسنا شيوخًا عاجزين لا أحد يُعنى بنا؟.

وردّ ببساطة:

- نذهب إلى دار العجزة مثلاً، لماذا لا؟.
- أنا شخصيًّا لا أحتمل هذه النهاية ثم لا تنسَ أنّ كلانا الآن على ذمّة امرأة حتى وإن لم نكن متفاهمين معها، صحيح أنّنا نودّ الانعتاق من هذا الارتباط ولكن ليس الانتحار، الانعتاق فقط. أنت لم تحدّد امرأة بديلة بل نساء بدائل وأنا حدّدت امرأة واحدة، لكن هذه المرأة الواحدة البديلة هي المرأة المستحيلة. فكيف يمكن حلّ هذا اللغز الدامي؟!.

كان حديثًا طويلاً أخذهما ذات مرّة.

أخذت السفينة تقترب من الشواطئ القبرصيّة إذ لاحت لأعينهم من بعيد وقد قلّ عنف الأمواج.

وبدأ وضع الشاعر قبّاني بالاستقرار فنهض وجلس على الكرسي شاكرًا يارا داغر لعنايتها به، وعندما انتبه إلى التعامل الخاصّ بينها وبين نصري الأسمر همس له:

- إن كانت هذه الفتاة هي التي أعطتك قصائدك الأخيرة فأنت على حقّ، لا شيء يعادل حنوّ امرأة تحبّك، كانت سوسن لي مثل الأم رغم أنّها في عمر ابنتي من زواجي الأوّل بل وأصغر، بعدها أنا يتيم وحيد!.

ولكن نصري ردّ عليه: هذه الفتاة كأنّها ابنتي، وأحبّها بهذا الشعور الأبوي، هذا كل شيء. وكان نصري مثل الحصان لم يؤثّر فيه شيء لا دوار بحر ولا وعثاء سفر، وقف على شرفة السفينة واستخرج بقيّة سندويش أمّه اليومي وصار يقضمه وهو يتأمّل الموج المتوجّه للشاطئ القبرصي.

اقترب منه غسّان وهو يقول:

- كيف تقوى على الأكل ونحن مجهدون من البحر؟.
- سندويش الوالدة لن أرميه، حرام أن أفعل هذا، فيه لمسة يديها، ولذا ارتأيت أن آكله قبل أن يفسد.
- هنيئًا مريئًا، أنظر الوجوه من حولك كلّها صفراء منهكة عدانا أنت وأنا؟.

و لم يهدأ غسّان إلاّ عندما بدأت السفينة بالرسوّ في ميناء لارنكا.

وأنزل كل واحد حقيبته عدا والد يارا الذي أصرّ على أن يحمل حقيبته بيد وحقيبة نزار باليد الأخرى.

وجمع غسّان جوازات السفر بعد أن ملأ رفاق الرحلة بطاقات الدخول وحملها إلى الموظف المختصّ الذي كان يتثاءب في كابينته الزجاجيّة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وتمّت الإجراءات بسرعة حتى فتح الحقائب كان شكليًّا.

وقد طلب غسّان من نصري أن يهتمّ بالشاعر الكبير الذي رغب في كأس ماء، وقال له:

- اعتبره مسؤوليّتك الأولى في هذه الرحلة.

وعندما فرغ غسّان من كل الإجراءات وأصبحوا جاهزين للانطلاق تقدّم من الشاعر وقبّله وفعل الآخرون مثله.

قال له:

- لقد تجمّد الدم في عروقي، خفت عليك أن تذهب منّا بهذا الشكل، ولو أنّه حصل لا سمح الله سأذهب اغتيالاً على أيدي معجباتك.

وضحكوا كلهم من هذه الدعابة، وبدأت الكاميرات تومض ملتقطة الصور مع الشاعر المحبوب، والتقطت معه يارا أكثر من صورة ثم هي ووالدها يتوسّطهما الشاعر.

وقبل أن تنطلق بهم سيّارات التاكسي المرسيدس التي تتميّز بها هذه الجزيرة، سأل غسّان عن فندق على البحر بعيد عن المدينة فأعطوه اسم «ساندي بيج» ومضى موكبهم إلى هناك.

وكان غسّان ونصري الأسمر يجلسان في المقعد الخلفي بينما فضّل نزار الجلوس في المقعد الأمامي.

كان الوقت غروبًا والطقس لذيذًا مع لفحة برودة منعشة.

ولم يكن الفندق بعيدًا فالجزيرة صغيرة، ومع هذا ابتليت بمصيبة التقسيم إلى قبارصة أتراك وقبارصة يونانيّين.

كان عدد الضيوف قليلاً، لذا استقلّ كل واحد بغرفة عدا يارا داغر ووالدها فقد أخذا غرفة واحدة.

وسأل غسّان الشاعر نزار إن كان بحاجة إلى طبيب فقال:

- لا حاجة بي إليه، لديّ أدويتي، المهمّ أن أتمدّد في الفراش ساعة على الأقلّ، كم الساعة الآن؟.

أجاب نصري بعد أن نظر إلى ساعته:

- حوالى السادسة.

- سنلتقي في صالة الاستقبال عند السابعة والنصف، معقول؟

ردّ غسّان:

- جيّد، لأنّنا سنذهب إلى العشاء في مكان آخر.

وذهب كل واحد إلى غرفته ليرتاح بعض الوقت أو يغيّر ثيابه. رغم أنّ الرحلة بحريّة حيث لا غبار سفر ولا وعثاءه ما عدا أولئك الذين هدّهم دوار البحر.

عندما وصل إلى غرفته أدار رقم هاتف رانيا خليل، وعندما ردّت فاجأها بقوله:

- أحبّك.

- من أين تتكلّم؟

وران صمت لم يسمع فيه كل منهما إلاّ صوت تنفّس صاحبه، قبل أن يجيبها:

- قلتها لك في لبنان وها أنا أقولها من قبرص وغدًا سأقولها في العراق، سأصرخ بها.

وهنا لانت قليلاً، فقد كانت عواطفه تحتاج إلى قدرة حتى تعوم في هيجانها الذي يشبه هيجان البحر الأبيض المتوسّط الذي لعب بسفينتهم لعبًا ورمى بعضهم كالصرعى.

قالت:

- ولكنّك صرخت به في ديوانك الأخير حتى الإهداء، رغم أنّك كتبته بحروف لاتينيّة بداية اسمي وبداية اسم أبي، والجميع عرفوا من المقصودة؟.

- ألم يسعدك هذا؟.

- نعم، أسعدني، ولكنّه أتعبني، إذ إنّني لا أستطيع الحسم. وإن حسمت فليس لصالحك، وربّما ليس لصالحي أيضًا!

حديث أخذ منهما قرابة الربع ساعة قبل أن ينتبه ويقول لها: سأدفع فاتورة كبيرة، المكالمة طالت، ولكن أخبريني ماذا تفعلين الآن؟.

- عدت قبل قليل، سأتحمّم أوّلاً، مجرّد دشّ ماء دافئ ثم أرتدي ثيابي، ثم أجلس أمام التليفزيون.

أطبق سمّاعة الهاتف وغادر غرفته فوجد نصري الأسمر قد سبقه وجلس يحتسي قهوته وهو يسترخي، فكأنّه يفكّر بمطلع قصيدة، وكان «دفتر البيئة» كعادته على الطاولة أمامه، فيه يدوّن كل شيء: مواعيد، أرقام الهواتف، مشاريع القصائد.

لقد أمضيا الليلة الفائتة في دار نصري القريبة من الميناء خوفًا من الانهيارات الأمنيّة المفاجئة، وقد فضّل نزار هذا وهو يقول:

- الحرب أخذت سوسن منّي ولا أريدها أن تأخذني، من أجل ولدي وابنتي الصغيرين.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقد توجّه إليهما غسّان بسيّارته وهو يحمل معه زجاجة ويسكي وبعض المكسّرات، وكانت أسرة نصري فرحة محتفية بوجود هذا الشاعر الكبير في بيت ولدهم. ففي هذا فخر لهم أمام جيرانهم في هذه المنطقة المكتظّة من «صربا».

أخذ شاعر المرأة والحبّ كأسًا واحدة فيها ثلج أكثر من الويسكي، أمّا غسّان ونصري فقد ثملا.

وقادهما الحديث إلى الجنس، وكيف كان أجدادنا أشجع منّا في تناوله.. وكان حديث نزار شيّقًا ومتفتّحًا، قال:

- جاء في الأخبار: أربع من سنن المرسلين التعطّر والنكاح والسواك والختان.

وردّ نصري:

- كلّها فيّ عدا الختان.

وعلّق غسّان:

- بسيطة سنختنك في بغداد لتكتمل فيك السنن الأربع وتكون من المرسلين.

وتذكّر نصري بيتين للفرزدق قال فيهما:

- فلا تدخل بيوت بني كليبٍ
ولا تقرب لهم أبدًا رحالا
فإنّ بها لوامع مبرقاتٍ
يكدن ينكنَ بالحدق الرجالا

وطرب نزار عند سماعه لهذا البيت وهو يردّد:

- ما أجملك يا فرزدق! لماذا نخشى اليوم أن نكتب مثله!.

ثم أضاف متواصلاً مع السياق:

- ذكر أنّ أشعب رأى ابنه وهو يديم النظر إلى امرأة فقال له: يا بنيّ نظرك هذا يُحبّل.

وكأنّ هذا القول قد ذكّر غسّانًا ببيت شاعر حفظه ولم يتذكّر قائله:

- يعلق بذاكرتي بيت شعر بهذا المعنى تقريبًا وقد جاء فيه:

ولي نظرة لو كان يُحبل ناظرٌ
بنظرته أنثى لقد حبلتْ منّي

وردّد شاعر المرأة والحبّ بعد أن احتسى قليلاً من كأسه:

- أرأيت؟ ولذا عملتُ على تكسير التابوات، ودخلت في شعري جسد المرأة، فمرّة أهتك الستر وأخرى أَرِقُّ حتى أتلاشى.

وأخذ نصري الأسمر، وكان السكر قد وضح عليه إذ ليس من عادته تناول الكحول باستمرار، يردّد قصيدة أبو صخر الهذلي وكأنّه يردّدها لينتشي بها وحده:

أما والذي أبكى وأضحك والذي

أمات وأحيا والذي أمره الأمرُ

لقد تركتني أحسد الوحش أن أرى

أليفين منها لا يروعهما الذعرُ

وكان نزار قد تذكّر هذه القصيدة لذا صار يردّدها هو الآخر صحبة نصري ويكمل ما ينساه منها. وهكذا استمرّا يردّدان بينما غسّان يُنصت إليهما إذ لم يحفظ من هذه القصيدة إلاّ بيتًا واحدًا:

فيا هجر ليلى قد بلغت بي المدى

وزدتَ على ما لم يكن بلغ الهجرُ

ويا حبّها زدني جوى كل ليلة

ويا سلوة الأيام موعِدك الحشرُ

وصلتُكِ حتى قيل لا يعرف القِلى

وزرتُكِ حتى قلتِ ليس له صبرُ

وهنا زاد انتشاء نزار وهو يردّد البيت الأكثر تأثيرًا، والذي كان غسّان يحفظه أيضًا ورّددوا معًا:

- وإنّي لتعروني لذكراكِ هِزَّةٌ

كما انتفض العصفور بلّله القطْرُ

وهتف نصري:

- ألا يلخّص هذا البيت حالة كل العشّاق؟.

ووافقه نزار بقوله:

- بكل تأكيد، فالمشاعر البشريّة واحدة، في التيبت أو في ساحل العاج، في صربا اللبنانيّة حيث تقيم أو في جبال صعدة اليمنيّة، والفرق في حداثة اللغة وثرائها بالمفردات الجديدة، أسماء عطور، أقمشة، أماكن، مشروبات... إلخ، وكل هذه حاولت توظيفها في شعري لأجعله فصيحًا وشعبيًّا في الآن نفسه، أي قريبًا من قارئه.

ثم استدرك وكأنّه تذكر شيئًا أراد أن يقوله قبل أن ينساه:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- على فكرة البيت الأخير من قصيدة أبو صخر الهذلي يُروى صدره بشكل آخر هو:

إذا ذُكرتْ يرتاح قلبي لذكرها
كما انتفض العصفور بلله القطْرُ

وقال غسّان:

- الرواية الأولى أجمل.

وأيّده نصري:

- أوافقك.

كانت ليلة تجاوز فيها نزار برنامجه اليومي في النوم والأكل، إذ بقوا صاحين حتى تعدّى الليل منتصفه وتناولوا طعامًا كثيرًا ومتنوّعًا من طبخ يدي أمّ نصري.

* * *

وبعد أن تجمّعوا في صالون الفندق كان نزار آخر من التحق بهم، وبدا بكامل أناقته، ربطة العنق والبدلة الزرقاء، وكان قد أطال شعره من الجانبين ليغطّي به الصّلع الذي أخذ شعره من وسط الرأس.

ردّدت يارا داغر وهي تراه مستعيدًا حيويّته:

- بودّي لو أزغرد كما في الأفلام المصريّة، ولكن سيبدو الأمر مفاجئًا لروّاد الفندق ونزلائه!.

قال لهم غسّان:

- دعونا نخرج، لا وجهة لنا تحديدًا، المهمّ أن نتمشّى بعض الوقت ثم عندما نعثر على مطعم أنيق سندخله، ما رأيكم؟

ووافقوا على مقترحه.

وعندما عثروا على المطعم المناسب دخل غسّان ليلقي نظرة، وبعد ذلك طلب من نزار رأيه، فدخل ليرى إن كان الجوّ يناسبه وسرعان ما خرج ليقول موافقًا:

- مطعم أنيق جدًّا، والمهمّ ليس هناك غير عازف بيانو وحيد!.

وأمضوا ليلتهم في شرب «الأوزو» اليوناني القريب من العرق اللبناني، أمّا يارا فشربت كأسًا من النبيذ، واعتذر نزار عن الشرب مكتفيًا بكأس من عصير البرتقال.

أمّا «الأوزو» فكان من حصّة السيّد داغر ونصري وغسّان والشاعر عماد أبو ظاهر وسمير الهاشم مراسل إحدى المجلات اللبنانيّة التي تصدر من لندن، إضافة إلى شاعرين آخرين أحدهما مدرّس في الجامعة والآخر يعمل في الإذاعة الرسميّة.

وقد اقترح نزار أن يستمع للشعراء، فهو لم يستطع مواكبة كل ما يُنشر، وأعجبته قصيدة ليارا داغر عن محنة لبنان، والتفت إلى نصري وهو يقول له:

- اهتمّ بها، ستكون شاعرة مهمّة، لا تجعلها تتوقّف تحت أيّ ذريعة.

كانت يارا داغر الفتاة الوحيدة في هذه الرحلة، وقد جلست في مواجهة نزار تمامًا- وكان الضوء يخرج منها لينير المكان وليست أضواء المصابيح هي التي تجعلها تتوهّج بهذا الشكل.

همس نصري وهو يتأمّلها:

- أنظر ما أجملها!.

- إنّني منتشٍ من مرآها، هي الكأس التي أثملتني تمامًا.

هكذا ردّ نزار ثم رفع صوته موجّهًا كلامه ليارا:

- أسألك كم شابًّا وشيخًا صرعتِ بجمالك هذا؟.

وطأطأت رأسها بخجل و لم تستطع أن تجيب ووالدها يجلس جوارها، فقال له مازحًا:

- سيّد داغر، غادرنا بعض الوقت، ولا تعد إلاّ بعد أن نكمل حديثنا.

وقال الأب:

- بدأوا يطلبون يدها منذ أن كان عمرها ستّ عشرة سنة، ونحن نعتذر، كل من يراها يريدها زوجة، هكذا بلا مقدّمات!.

- وهل أنت فرح؟ سأله غسّان.

أجاب:

- أكيد، لذا تروني مرافقًا لها رغم أنّها مع أيد أمينة!.

* * *

في صبيحة اليوم التالي توجّهوا نحو مطار لارنكا ليركبوا الطائرة العراقيّة التي كانت تصل إلى هناك مرّتين في الأسبوع.

و لم تكن الرحلة طويلة. كانت يارا تجلس في الطرف بمحاذاة الشبّاك، راقبت الإقلاع، ومن ثم الغوص في الغيوم، وبدا عليها الخوف إذ هي المرّة الأولى التي تركب فيها طائرة، وانعكس الخوف صفرة شفّافة على وجهها الوسيم.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أمّا نصري فجلس جوار نزار وأخذهما الحديث حتى جاءهم النداء بأنّ الطائرة ستهبط في مطار بغداد الذي سمّوه باسم رئيس الدولة، وأنّ عليهم ربط أحزمة المقاعد.

وعندما غادروا الطائرة وجدوا في انتظارهم عددًا من المرافقين الشبّان الذين وجّهوا اهتمامهم إلى الضيف النجم شاعر المرأة والحبّ والوطن، حيث عرفه كل موظفي المطار إضافة إلى الركّاب الذين كانوا معه في الطائرة، وتجرّأ البعض منهم وقام بمصافحته وسأله عن جديده الشعري، وقال بصوت ودود:

- ستسمعون جديدي في المهرجان.

كان الدبلوماسي القديم يسكنه و لم يغادره، فقد امتهن هذا العمل سنوات وتنقّل ما بين عدد من العواصم، بكين، لندن، مدريد، أنقرة.

ويتمثّل هذا في أجوبته المرحّبة وأناقته وحركاته، وهي الأمور التي لم تعد موجودة عند دبلوماسيّي اليوم الذين لا يملكون إلاّ مؤهّلاً أساسيًّا واحدًا هو موالاة الحاكم، أمّا إذا امتلك الدبلوماسي قرابة بالحاكم فإنّه سيظلّ في موقعه متنقّلاً بين عواصم الدنيا، ولا يجرؤ أحد على أن يخضعه للنظام الدبلوماسي.

وانطلقت سيّارات التشريفات المرسيدس نحو فندق الرشيد وكان عدد السيّارات فوق الحاجة، ومع هذا فقد ركب نزار جوار السائق بناء على رغبته، بينما جلس غسّان ونصري في المقعد الخلفي. وتوزّع البقيّة على سيّارتين فقط.

وفي منتصف الطريق استقبلهم موكب من ثلاث سيّارات مرسيدس أيضًا بسرعة قصوى، وقد استدارت الأولى فور رؤية القادمين وجاورت سيّارهم ثم توقّفت ونزل من فيها إشارة إلى أنّهم جاؤوا للترحيب بالشاعر الكبير، وكان يتقدّم المستقبلين الثمانية فتى قصير القامة، نحيفها، وأسرع نحو السيّارة الأماميّة التي يجلس في مقدّمتها نزار وقدّم نفسه:

- أهلاً وسهلاً بشاعرنا الكبير، العراق كله سعيد بوجودك على أرضه.

ثم قبّله وهو يقدّم نفسه:

- سهيل صبري رئيس المهرجان.

تمتم غسّان في قرارته:

- إذن هذا هو سهيل صبري الأسطورة التي أصبحت سيرها سؤالاً غامضًا على ألسن العراقيّين والأدباء منهم بشكل خاص.

ثم تحوّل إلى غسّان مناديًا إيّاه باسمه مسبوقًا بكلمة أستاذ، إذ إنّ وجه غسّان مألوف لأبناء بلده.

بينما قدّم غسّان له صديقه الشاعر نصري الأسمر. بعد ذلك توجّه إلى نزار قائلاً:

- شاعرنا الكبير أرجو أن تتفضّل معي، عن إذن الأستاذين غسّان ونصري.

كان الشبّان الذين نزلوا من السيّارات كلهم في عمر يقارب عمره، ولكنّهم جميعًا أطول منه، وقد وقفوا كالمرافقين متأهّبين لتلبية ما يطلبه منهم، وكانوا جميعهم ينادونه بالأستاذ.

ولم يدرِ غسّان وقتها أنّه يتشبّه بنجل رئيس الدولة الكبير الذي صعد نجمه في فترة غيابه، ولم يعد يسمع إلاّ حكاياه المتواترة التي تبدو كالغرائب والعجائب، ومن الصعوبة فرز الحقيقي عن المتخيّل نظرًا لما فيها من مفارقات مؤلمة وقرقوشيّة.

وتحرّك الموكب بسرعة تتقدّمه سيّارة سهيل صبري الذي بدا لغسّان فتى متصنّعًا، حركاته أقرب إلى التمثيل منه إلى التلقائيّة والعفويّة محاولاً تأكيد ما له من حظوة لدى الحاكم الأوحد للبلد، ورغم أنّه لم يصل إلى الثلاثين إلاّ أنّه مهدّد بصلع مبكر هذا إذا لم يتصرّف تصرّفًا لا يعجب سيّده فيلغيه من خارطة الدنيا.

كان نصري الأسمر يتطلّع منبهرًا بسعة الطريق وجمال الأشجار والأبنية التي تقع على جانبيه، وعندما وصلوا إلى تمثال عبّاس بن فرناس الذي يفرش جناحيه وهو ينتصب على قاعدة عالية ووجهه نحو المدينة، تساءل:

- لمن هذا التمثال؟.

- لعبّاس بن فرناس، وهو كما تعلم أوّل عربي فكّر في الطيران فصنع جناحين من الشمع ليحلّق بهما كالطيور.

ولكنّ نصري الأسمر ردّ معلّقًا بتلقائيّته المعروفة:

- ولكنّ الطيّارة التي جئنا بها أجنحتها من حديد؟ فعقب غسّان وهو يعرف أنّ سائق السيّارة من الأمن أو المخابرات حتمًا:

- المهمّ أنّ الفكرة كان العرب السبّاقين لها، وليس المهمّ كيف طوّرها الآخرون.

وعندما وصلوا إلى فندق الرشيد وقفوا مذهولين أمام فخامته، وسرعان ما جاء عمّال الفندق وحملوا الحقائب وبدأوا بتعبئة الاستمارات الخاصّة بالنزلاء من أجل الحصول على غرفهم.

كان سهيل صبري معنيًّا بنزار بشكل أساسي، ولكنّه عندما رأى يارا داغر بكل بهائها بدأ يختلّ، وداري وضعه بمحاولة إظهار مكانته وتقدّم لمصافحتها ووالدها وبقيّة الضيوف، وهو يقدّم نفسه مذيّلاً بصفة رئيس المهرجان.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قال غسّان لسهيل:

- لن أكون معكم في الفندق، سأذهب لأرى زوجتي وابنتيّ فهم في بغداد.
- ولكن لا بدّ لك من غرفة فأنت مسؤول عن وفد؟.
- هذا غير ضروري، وإن احتجت للراحة فغرفة نصري موجودة، المهمّ أنّني بحاجة إلى سيّارة تقلّني إلى بيتي.
- حاضر، انتظرني حتى يأخذ الضيوف غرفهم!.

وبعد دقائق من الانتظار جاءه السائق الذي سيوصله إلى بيته، وكانت بيده حقيبته «السمسونايت»، فإذا بسهيل صبري يندفع نحوه وخلفه ثلاثة من الفتية الذين يرافقونه وهو يقول:

- هل هذه حقيبة شاعرنا الكبير؟.

فردّ عليه غسّان باكفهرار:

- وهل أنا حمّال حقائب؟.
- أليست هذه حقيبته؟.
- إنّها حقيبتي ولا أحمل غيرها! ابحث عنها في الفندق، أو اسأل المرافقين؟.

فما كان منه إلاّ أن ردّ بغطرسة مصطنعة يقلّد فيها سلوك غيره:

- هو ضيفنا الكبير، وكلّنا نهتمّ به.

وردّ غسّان بترفّع:

- أفهم هذا، ولكن مسؤوليّتي انتهت بوصوله بغداد رغم كونه صديقي قبل أن يكون ضيف المهرجان!.

فانسحب منصرفًا بالاندفاع نفسه يتبعه الصبية الثلاثة، ولكنّه سرعان ما عاد متسلّلاً وحده إلى حيث يجلس غسّان منتظرًا نزول نصري الأسمر الذي سيرافقه إلى منزل عائلة زوجته حيث تقيم مع ابنتيهما، وكان نصري قد تعرّف عليها في بيروت.

وخاطب سهيل غسّانًا بودّ وكأنّه يعرفه منذ سنوات والحواجز بينهما مرفوعة:

- أستاذ غسّان، لقد أحرجتني أمام المرافقين، «أخذت بوشي» ولم يعتادوا هذا منّي أبدًا، فأنا مدعوم من السيّد الرئيس الله يحفظه!

وردّ غسّان ببرود:

- اسمع يا سهيل، أنت فتى في بداية اندفاعتك وأتمنّى لك النجاح، ولكنّني أنصحك بأن تتأنّى وتعرف مع من تتكلّم قبل أن تتفوّه بكلمة، اعرف حجم وموقع كل شخص.

ثم اقترب سهيل منه وبشكل تمثيلي عانقه وقبّله وهو يقول:

- أرجو العفو إن كنت قد أخطأت فأنا أحترمك وأنت رمز من رموزنا الكبيرة!.

- المهمّ الآن أن ينجح المهرجان!.

* * *

منذ ذلك اللقاء عرف سهيل صبري أيّ نوع من الرجال كان غسّان العامري، ولـذا فرح به عندما التقاه في فندق «الشيراتون» وأسرع لدعوته على فنجان قهوة.

سأل غسّانًا:

- كيف أمورك؟

- عاديّة، لا جديد فيها، أنام كثيرًا، أكتب الشعر أحيانًا والمهمّ أنّني أنتظر.

- الحرب ستتوقّف، وسنكون في أحسن حال فلماذا تغادر؟.

وردّ عليه مداعبًا:

- أنت في أحسن حال، ولا تتكلّم بضمير الجمع، كل شيء متاح لـك وتحظـى بالاهتمام، مبروك.

قال بكثير من الزهو والمكر:

- لماذا نكتب الشعر إذا لم ننتظر المقابل؟.

- تقصد المقابل المالي؟.

- نعم، المقابل المالي، ولكن ليس بضعة دنانير كما هو التعامل مع الجرائد والمجلاّت؟ أنا أتعامل مع الرأس، مع القائد الله يحفظه!.

- ولكن ليس كل الناس مثلك؟.

- لأنّني حالة متفرّدة، سمّها ضربة حظّ، فرصة، أيّ شيء، ولقد جـاءتني مبكـرة، غيري قد يكتب دواوين ومعلّقات ولن ينال شيئًا!.

- هذا صحيح.

- ولذا تراني على ما أنا عليه، أنظر إلى هذه العباءة، قيمتها ألف وخمسمائة دينارًا. وهذه الكوفيّة بستمائة دينار، حرير طبيعي خالص.

وراح يعدّد ثمن كل ما يرتديه عدا ملابسه الداخليّة. ولكن غسّان قاطعه:

- شيء رائع.

وهنا قال:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- أستاذ غسّان، أيّ شعر؟ أيّ بطّيخ؟ المهمّ اليوم التجارة، وهي توجّهي الجديد، كان الشعر وسيلتي فقط نحو بلوغ غايتي، وبعد أن أصبح لديّ رأس مال كبير دخلت عالم التجارة من بابه الواسع، وهناك من يدعمني؟

وحاول غسّان أن يستوضحه:

- أيّ تجارة؟.
- كل شيء، الاستيراد، التصدير، العقارات، المعامل، أنشأت أخيرًا أكبر معمل للنجارة في العراق وألحقت به معرضًا لمنتجاته.
- أين؟
- في الكرادة الشرقيّة، والطلبات كثيرة، كل منتجاتنا محجوزة، الفلوس كثيرة عند البعض، إنّهم لا يسألونك عن السعر، يدفعون بغير وجع قلب، ومال إبليس للشيطان كما يقول المثل.
- وفكرة معمل الشامبو مع والد يارا داغر؟

واصفرّ وجهه، وكأنّ وخزة داهمته عند سماعه لهذا الاسم.

وتمتم:

- كنت أتمنّى أن أكون شريكه في كل ما أملك مقابل يارا، ولكن، قل لي ما أهمّيّة معمل شامبو بالنسبة لي؟ أردت من وراء هذا أن أُبقي على خيط، أن يذكر اسمي أمامها عندما تزور أسرتها.
- لكنّها مقترنة الآن بأستاذ جامعي مرموق في أميركا، ولديها طفلان، وأنت أيضًا تزوّجت من ممثّلة معروفة، فلا تلتفت إلى الوراء.
- أتدري؟ إنّني عندما طلبت يدها كانت على ذمّتي زوجتان أخريان، أنا أتزوّج وأطلّق مثلما أتنفّس، لدرجة لا أعرف فيها عدد اللواتي تزوّجتهنّ. الآن لديّ زوجتان عدا الممثّلة. وكل واحدة لا تعرف بالأخرى، والأمور ماشية!.
- والأولاد؟.
- لم أنجب لحدّ الآن، وربّما كنت السبب، فأنا لم أعرض نفسي على طبيب، وهذا شيء لا يهمّني، فأنا لا أحبّ الأسرة والأطفال، هذه مسؤوليّة سخيفة تحدّ من حرّيّتي.

قال غسّان:

- أنت فتى ملعون، خذ هذا من باب المديح، في لبنان هناك وصف دقيق لمن هم مثلك!.
- وما هو؟.
- حربوق، وهي صفة تجمع بين الذكاء والفراسة واستغلال الوقت المناسب لتحقيق المأرب.

وتمتم ضاحكًا:

- حربوق اللبنانيّة ولا «بربوق» العراقيّة!.
- لكل إنسان فهمه الخاصّ للحياة، أمّا الشعراء والأدباء فأمرهم عجيب، وتناقضاهم كثيرة، لكن يسجّل لصالحك أنّك تلعب لعبة تعرفها، هي سلّمك.. أمّا أنا أو البيّاتي وآخرون غيرنا فنختلف عنك، لنا همّنا الآخر، كل واحد منّا «غاوي فقر» مثلاً.

ومن جديد تذكّر محاضرة الشاعر الفلسطيني المقيم في العراق منذ بدايات النكبة خالد علي مصطفى التي ألقاها في الشهر الماضي ضمن ندوة الأربعاء الأسبوعيّة لاتّحاد الأدباء وعنوانها المثير «الشعر الرديء في العراق»، وكان مثاله وهو الشاعر والأستاذ الجامعي المرموق سهيل صبري، وقد تحاشى ذكر الأبيات المباشرة التي تحمل المديح لرئيس الدولة أو لابنه الكبير الذي شمله أيضًا بشعره، وكان الحاضرون ينصتون كاتمين أنفاسهم من الخوف إلى درجة ظنّ فيها البعض أنّ الأمر مقصود، وأنّ هناك من طلب منه مسح صورته بأوامر عليا.

وهنا سأله غسّان إن كان سمع بالمحاضرة فأجاب:

- في وقتها.
- وما هو تعليقك؟
- هو مُصيب تمامًا وفق فهمه للشعر، ولكن وفق الفهم الرسمي أنّ شعري هو الذروة التي ما بعدها ذروة. وشخصيًّا أنا مزكّى رسميًّا، وهذا ما يهمّني فقط، وليقل عنّي خالد علي مصطفى ما يحبّ أن يقوله في محاضرته أو أمام طلبته، افهمني أستاذ غسّان، أنا مدّاح، أعرف عزف الألحان التي يُطرب لها، (وأشار بيده إلى أعلى) وواصل:
- وهذا هو المهمّ.

عندما كان غسّان قبل أيّام في هذا المكان مع عبد الوهاب البيّاتي، كان يشكو العوز، ويفكّر بمغادرة الوطن، وغسّان نفسه هذه أمنيته الأولى، أمّا هذا الفتى «الحربوق» الذي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يجالسه فقد عرف سرّ المفتاح فباع الكلام بمئات الألوف من الدنانير، هو الدليل على انقلاب المفاهيم في هذا البلد المبدع حيث عمّت الرداءة وذائقة التخلّف والبداوة والزيف ففسد الذوق وهبط الإبداع، وتساءل في سرّه: هل هذا أمر متعمّد؟ ووجد الجواب: إنّ هذا هو الواقع، إفساد كل شيء، قلب كل المفاهيم، سحق المثل! وسيطرة الرداءة والتهريج!.

ثم أمسك سهيل بيد غسّان وهو يستحثّه على النهوض:

- أريدك أن ترى شيئًا، رافقني من فضلك!.

ووجد غسّان نفسه منساقًا وراءه بفضول لا بتأنّي الشعراء، وغايته أن يتعرّف على هذا النموذج من الأدباء الذين يتطابقون تمامًا مع الحالة الثقافيّة والإعلاميّة الرسميّة السائدة بكل سذاجتها وتفاهتها أيضًا، والتي لا قدرة لغسّان العامري أو حيدر الخلف أو عدنان العزيري أومعن الماجد وحتى هادي مجدي الموزّع ما بين طلائعيّته الإبداعيّة وانضباطه الحزبي والوظيفي أن يوقفوا مدّه العاتي، حتى أنّ سهيل صبري قد فرّخ عشرات السهيل صبريّين من مدبّجي القصائد العموديّة غير العصماء التي لا غاية لها إلاّ المديح وأمل الحصول على «مكرمة» تتمثّل في مبلغ مالي أو سيّارة «فولكس واغن» برازيليّة.

وإذا كان خالد علي مصطفى قد امتلك شجاعة تسمية قصائد هذا الفتى، إن كانت قصائد حقًّا، بالشعر الرديء، فإنّها مع هذا تعتبر أغلى القصائد في العالم.

وكان لا يكتفي برجم الأسماع بهذه الرداءات بل إنّه قد يتحوّل إلى معتد لا أحد يردعه، يتمثّل النجل الذهبي لرئيس الدولة الذي لا يتحرّك إلاّ وهو محاط بعدد من الشبّان الذين هم في سنّه وطوع بنانه، حتى لو أمرهم بإلقاء أنفسهم بالنار أو قتل آبائهم بل واجتثاث أُسرهم ومحو حتى الأطفال وهدم المنازل على رؤوس أصحابها إن هم عصوا له أمرًا.

وأصبح سهيل صبري نسخة هزيلة باهتة هيهات لها أن تقترب من الأصل، ومع هذا لم يسلم من اعتداءاته عدد من الأدباء الذين كتبوا الشعر الراقي ونشروه قبل أن يولد. ومرّة سمع غسّان أنّه صفع أحد شعراء ما بعد الريادة الكبار، وهو سوري الأصل اختار بغداد مقامًا ما دامت أفكاره تعيش على بدايات أفكار مؤسّس الحزب الحاكم ورومانسيّته الثوريّة.

فلم يستطع أن يفعل شيئًا إلاّ أنّ دمعة قد نطّت من عينيه، ثم انسحب مغادرًا مكتبه الذي اقتحمه عليه.

وقد عرف غسّان أنّه وبصفته رئيس منتدى الأدباء الشبّان فإنّه وأثناء الاجتماعات كان يضع مسدّسه على الطاولة أمامه، وعندما يخالفه أحدهم الرأي أو يقف بوجهه فإنّه لا يتوانى عن تهديده بإطلاق النار عليه قائلاً إنّه يطبّق تعليمات عليا ولا أحد يناقشها، أو يحتجّ عليها، وقد منح الحقّ في إطلاق النار على من يعصي أوامره.

أخذا ينزلان السلّم نحو بهو الفندق، وقد انتبه غسّان إلى أنّ الجيب الجانبي من دشداشته الحريريّة البيضاء يتهدّل من كدس أوراق نقديّة يظهر لونها نظرًا لشفافيّة القماش.

ويقول غسّان في سرّه:

- لو أنّ طائرة أو قطارًا أهديا للبيّاتي أو الجواهري أو نازك الملائكة لما استكثر ذلك أحد عليهم، أمّا هذا الفتى فكثير عليه دراجة هوائيّة، فكيف انقلبت الأمور! أهذا هو العراق؟!.

وسأل غسّانًا:

- هل رأيت نادي القمار التابع للفندق؟.

فنطق غسّان على الفور:

- أبدًا.

- سأريك إيّاه، ستتعرّف على عالم، ناس يخسرون أو يربحون الألوف بغير وجع قلب.

وأراد أن يقول له:

- لأنّهم لصوص هذه الحرب التي كأنّها لم تتمّ إلاّ من أجل أن يغتنوا ويدمّر بلد بأكمله.

وعندما وصلا إلى باب النادي اكتشف غسّان أنّ سهيل صبري معروف بينهم، ولذا هبّ الواقفون بالباب مرحّبين به، وصار يخاطبهم بأسمائهم ممّا يدلّل على أنّه من روّاد هذا النادي.

مدّ يده في جيبه وأخرج حزمة دنانير من فئة العشرين وقال وهو يُرِيها لغسّان:

- هذه ألف دينار، سألعب وربّما أخسرها خلال دقائق.

- ولماذا تلعب إذن؟.

- لأنّني أريد أن ألعب، هذا كل شيء، والخسارة لا تهمّني، والفلوس كثيرة مثل الرزّ بسلامته الله يحفظه، ثم أطلق قهقهة يحاول بها أن يقلّد قهقهة الرئيس المعروفة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وذهب ليحوّل النقود إلى ما يسمّى بلغة المقامرين «فيشات»، ثم عاد ليقف أمام إحدى طاولات الروليت وبدأ اللعب بعد أن طلب كأسيْ ويسكي له ولغسّان.

كان غسّان يراقب المشهد ويتساءل ما الذي جاء بي إلى هنا؟ وماذا لو رآني أحد معارفي؟ ماذا سيقول؟.

ثم تذكّر مبلغ الألف دينار فإذا به يساوي مكافآت المقالات التي يكتبها أسبوعيًّا في جريدة «القادسيّة» لمدّة عام كامل.

كان غسّان يجهل أيّ شيء عن عالم المقامرين، ولم يتسنَّ له أن يتعلّم من قبل أيّ لعبة من هذا القبيل بما في ذلك «الطاولة» و«الدومينو» وحتى «الشطرنج».

كان سهيل صبري يلعب بانشراح كبير غير آبه لتناقص «الفيشات» في يده، ويتمتم بمصطلحات لا علاقة لها بعالم الشعر أو أوزانه وقوافيه.

ثم خسر كل ما بيده وقبل أن يتمّ غسّان شرب كأسه.

وبدا عليه الارتياح وكأنّه فرغ من التبوّل لا من خسارة ألف دينار.

ثم قال مخاطبًا غسّانًا:

- لن أدعك الليلة تمضي، ستظلّ معي، هذه فرصة أنا سعيد بها.

كان سهيل يتباهى بكل شيء يملكه، من عباءته حتى سيّارته المرسيدس البيضاء التي تركها في مرآب الفندق.

وقبل أن يركبا، دار حولها ليتأكّد من أنّ أحدًا لم يصبها بشرخ نتيجة الاكتظاظ وصغر المرآب. وقال لغسّان وهو يفتح له الباب:

- تفضّل.

- إلى أين؟

- سنتناول عشاءنا في مطعم «الياقوت». هل تعرفه؟.

- سمعت به، وأعرف مكانه، لكنّ الظروف لم تسنح لي لارتياده.

- هو مطعم جميل.

وكان غسّان قد سمع أنّه أحد المطاعم التابعة للمخابرات، وهي مسألة جديدة لم يسمع بها من قبل، وربّما كان هذا ضمن خطّة جديدة للاستحواذ على كل ما في البلد حتى المطاعم الراقية. كما أنّ في ذلك فرصة لرصد الروّاد وأغلبهم من أثرياء الحرب ولصوص المال العامّ وبعض السياسيّين ورجال المؤسّسة الحاكمة من عسكريّين ومدنيّين.

سلك سهيل طريق شارع أبي نواس بعد أن استدار حول ساحة الجندي المجهول سابقًا ومرّ من أمام فندق الميريديان.

سأله غسّان:

- ما هو الاسم الجديد لساحة الجندي المجهول السابقة؟.
- لا أدري! ولكنّه شيء من النضال أو الثورة أو ما شابه!.
- تذكّرت عبد السلام عارف.
- ما به؟.
- عندما كان قوس الجندي المجهول الأزرق في هذه الساحة، كانت فيه شعلة نار متّقدة دائمًا كما هو معروف بالنسبة لهذا النوع من النصب التذكاريّة، ولكنّ الشيخ جلال الحنفي وهو أديب وإمام جامع.

وقاطعه سهيل:

- أعرفه وهو صديقي.
- المهمّ أنّه كتب مقالة في جريدة «الفجر الجديد» وطالب عبد السلام عارف بأن يأمر بإطفائها، وحجّته أنّنا مسلمون ولسنا مجوسًا حتى تظلّ النار مشتعلة على الدوام، وختمها بأنّنا نعبد الله ولا نعبد النار.
- وما الذي حصل؟
- لقد امتثل عبد السلام عارف لما أراد وطلب إطفاء النار وإشعالها عندما يكون هناك زوّار يقصدون النصب لوضع باقة زهور.

وكانت السيّارة قد وصلت المطعم الذي لم يكن بعيدًا عن الفندق، وقد صفّها سهيل في الشارع أمام المطعم مباشرة و لم ينسَ أن يطلب من البوّاب الاهتمام بها.

وحصل في المطعم ما يشبه الذي حصل في صالة القمار بالفندق، حيث هبّ الندل لاستقبالهما وهم يرحّبون بسهيل منادين إيّاه بالأستاذ، وقد اختار مائدة قريبة من المسرح الصغير حيث ستمثل ولائم الرقص والهزّ البذيء.

***

أطلق غسّان العامري لنفسه العنان تلك الليلة وسلّم قياده لسهيل صبري مدفوعًا بالرغبة في التعرّف على جانب آخر يعيشه القلّة، في بلد تنخره الحرب وتتكدّس فيه الأرامل واليتامى بأرقام خياليّة من أجل مجد رجل أخطأ الحساب أو جعله من هم حوله

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يخطئ الحساب، فجعلوه يرمي بلدًا في حرب لا أحد يريدها، حرب هي حريق هائل أتى على كل شيء، والربح فيه تماثيل وجداريّات لا تعدّ ولا تحصى لم تترك شارعًا ولا ساحة إلاّ وارتفعت فيها وهي تظهره بأوضاع شتّى. وتنقل الأخبار كل يوم صور رفع الستار عن جداريّة هنا أو هناك. في هذه المدينة أو تلك حيث يتبارى المسؤولون للقيام بهذا العمل فتبدو أجسادهم صغيرة وأعناقهم تكاد تنكسر وهم يرفعوها من أجل أن يروا الجداريّة.

كان الأمر أشبه بالمباراة الساذجة التي مردّها إلى إعلام جاهل يظنّ أنّه قد حقّق شيئًا لمجرّد الإكثار من هذه الجداريّات، فكأنّ العراق لا رجال فيه ولا تاريخ له، وكل شيء فيه بدأ مع رجل واحد لو أنّ الانقلاب الذي جاء به فشل لالتفت الحبال على عنقه وأعناق من كانوا حوله. كانت مغامرة ربحت فترتّب عن ذلك تحويل شعب إلى رهينة لمشيئة واحدة وحزب يتلخّص في رجل واحد، حتى مؤسّسه ومن كانوا معه فهم مجرّد ديكور، يحتاجون إليه في بعض الظروف فيظهرونه أمام عدسات المصوّرين باعتباره القائد المؤسّس ثم يعيدونه إلى بيته.

يقع مطعم «الياقوت» على نهر دجلة مباشرة، وكان جلّ الحاضرين يرتدون الملابس العربيّة البيضاء ويضعون على رؤوسهم العُقل الرفيعة والكوفيّات البيضاء تمثّلاً بما يلبسه رئيس الدولة. وحتى عندما فاجأ الناس ذات يوم بارتداء السدارة الفيصليّة الذي كان يضعها الملك الراحل فيصل الأوّل عندما يرتدي الملابس الفرنجيّة، فإنّ هذه السدارة صارت موضة، ومرّة رأى غسّان سهيل صبري يرتديها أيضًا.

وانتبه غسّان إلى أنّ المغنّي الذي قد بدأ وصلته بالغناء البدوي قبل حضورهما، حيث أصبح هذا الغناء مطلوبًا وفق ذائقة الطبقة الجديدة التي تمسك بمفاتيح البلاد السياسيّة والاقتصاديّة، ينظر إليه ويبتسم ثم رفع إليه يده محيّيًا، وتأكّد لغسّان أنّه المقصود فردّ على تحيّته.

وراح غسّان يسأل نفسه أين رآه؟ هو وجه ليس بالغريب عليه، وفجأة تذكّره، لقد كان ساعيًا يحمل بريد عازف العود الشهير منير بشير يوم كان مستشارًا فنّيًا في وزارة الثقافة والإعلام.

وكان يتنقّل على درّاجة هوائيّة بين الوزارة والمؤسّسات التي يحمل إليها بريد منير بشير.

وعندما سأل سهيلاً عنه أجابه:

- هو إبراهيم العبد الله أشهر المغنّين في المطاعم الليليّة.
- كان ساعيًا لدى منير بشير.

وهزّ سهيل يده وهو يقول:

- كان لا مكان لها في حسابات اليوم، اسأل عن حاضره، عن حالته الحاليّة وأجيبك أنّه عملة صعبة حتى في الحفلات الخاصّة، وبدلاً من الدرّاجة يركب المرسيدس ولديه سائق يفتح له الباب ومدير أعمال ينظّم برنامجه وأوقاته.

ووضع أحد الندل زجاجة ويسكي على الطاولة وجاء آخر بالمازات التي وزّعها على المائدة، و لم ينس سهيل أن ينبّه النادل لأن يحضّر لهما سمكة طازجة ويبدأ بشيّها عندما يطلب منه ذلك.

قال لغسّان وهو يبتسم في وجهه بودّ:

- هكذا حياتي، في هذه المدينة هناك حياة أخرى، والأدباء المساكين يتكدّسون في مقهى حسن عجمي يشربون الشاي ويثرثرون عن القصّة والرواية، عن ماركيز ونجيب محفوظ والبيّاتي وخليل حاوي.

ثم هزّ يده وأضاف:

- مساكين.
- ولماذا؟
- لأنّ أشياء كثيرة فاتتهم.
- ربّما هم لا يرغبون بهذا، أنا أحدهم، وأنا معك الآن لأتعرّف على هذا العالم!.

***

غسّان العامري وسهيل صبري معًا، على مائدة واحدة في هذا المطعم الذي لم يفكّر غسّان بارتياده، والمطعم الذي يتردّد عليه هو «المضيف» واستجابة لرغبة صديقه غيّاث الإبراهيمي أو النادي الاجتماعي اللبناني.

واستجاب المغنّي إبراهيم العبد الله لطلبات الحاضرين ليغنّي لهم الدبكة فيغادرون أماكنهم ليرقصوا، يعودون إلى بداوتهم الأولى وقراهم الماحلة حيث كان الجوع ينهشهم وينتظرون الأعراس أو المآتم ليزور اللحم بطونهم.

تلك أيّام مضت، وهم الآن الأسياد الجدد في دولة قبيلة، كأنّها لم تكن أوّل من عرف الحضارة ومنها امتدّ الإشعاع ليعمّ الدنيا كلها.

وبدأ الرقص، وتجلّى إبراهيم العبد الله. هل كان يضحك على هؤلاء الحمقى والأغبياء في قرارته؟.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقاد البعض منهم زوجاتهم المحمّلات بالذهب، نساء بدينات من النوم والأكل، كأبقار وثيران هائجة، وكانت أجساد الأزواج أكثر تشوّهًا ما داموا من التجّار الذين لم يشملهم قرار الحكومة بتخفيض الوزن.

بطون منتفخة ومؤخّرات مرصوصة، وقمصان متهدّلة لم تستطع الأحزمة احتواءها، فاندلقت قبيحة مقرفة، وأزياق مفتوحة، وعرق يتصبّب، والدبكة ماضية.

وبدا لغسّان وكأنّ هذه الأبقار الهائجة التي تظنّ أنّها ترقص يتبارين بما يضعن من الذهب، حتى موضة «الحجل» الذي يوضع في الأقدام قد عادت، ولكن كل حجل يزن كيلو ذهب أو أكثر.

وترحّم غسّان على أمّه التي كانت تملك حجل «نوشي» من الفضّة، وخالته حجل «ثومة» ومن الفضّة كذلك من بقايا عرسهنّ، ولم تكن أمّه ولا خالته تتزيّن بحجلها إلاّ في الأفراح، وما أقلّها قياسًا إلى الأحزان!.

وذات يوم ذهبت أمّه إلى سوق الصابئة صاغة الذهب والفضّة وباعته بدينارين ونصف الدينار، وأراد أن يصرخ بعد أن بدأ الويسكي يفعل مفعوله برأسه: اخرجي يا أمّي من قبرك لتري هذا الذهب المكوّم على أهرام اللحم المتورّمة الزنخة، آكلة لحوم وتاريخ وأمجاد شعبنا المغلوب على أمره المرميّ في حرب لا أوّل لها ولا آخر، هؤلاء الأوباش الذين يرقصون مثل الثيران والأبقار والنعاج والأكباش بل والخنازير والدببة والأفيال لا يثيرون غير قرف من يراهم لكثرة ما هم عليه من بدانة وقبح مقزّز.

ثم عادوا لما كانوا عليه، عادوا إلى خيامهم القاحلة التي تلعب بها الرمال ورياح السموم، وأمسك كل واحد منهم بيد الآخر في رقصة «الجوبيّة» ومن كان في الطرف أمسك بمسبحته الثمينة وظلّ يديرها مع قرع الطبل بمهارة، وإبراهيم العبد الله يغنّي ويغنّي.. ثم أدار الدبكة ليتغنّى بسمات رئيس البلاد وكال له المدح والثناء، وهم يدبكون، يتناطحون ويتدافعون، لا فرق عندهم بين كلمات الأغاني سواء كانت عن الحبّ أو في مدح باني الأمجاد ومالك رقاب العباد وبيده كل مقاليد البلاد، حبيب الكبار والأولاد.

ادبكوا، ادبكوا، أيّها الأكلة، أيّها الحثالة، أيّها القتلة، وعلى الحدود ينحر خيرة أبناء هذا البلد من أجل أن تدبكوا وتصهلوا وتخرّوا.

أراد أن يقول لسهيل صبري:

- لو كنت رئيس البلاد لأمرت بحبس المغنّي وكل هذه الديدان، أيصحّ أن يزجّ السكارى والمتخمون وصغار المغنّين وفي ذروة سكرهم وهياجهم وفقدان توازنهم باسم رئيس البلاد؟ هل هذا هو المقام والأوان؟.

همس له سهيل:

- أتدري بأنّ جميع المغنّين في كل الملاهي والمطاعم قد أُمروا بأن تكون آخر أغنية يختمون بها وصلتهم عن السيّد الرئيس الله يحفظه!.

وفغر غسّان العامري فاه عجبًا، وهو الذي استنكر ما سمع من غناء وظنّ أنّه رياء من المغنّي.

أراد أن يقول له:

- ليس هناك بلد لا في أفريقيا ولا في آسيا أو أيّ قارة أخرى تتوفّر لديه مئات الأغاني والأناشيد عن رئيسه مثل بلادنا، فلماذا؟ وإلى أين؟ هذا عدا الجداريّات التي تتوالد مثل الأرانب؟ ألا يجعلنا هذا أضحوكة بين الأمم والشعوب؟.

لكنّه سكت، كان منتبهًا، يستمع فقط، ولا يتفوّه إلاّ بالقليل من الكلمات.

صخب كثير يورث الدوار والصداع، وجمهور هابط غبيّ رغم أموال وذهب اللصوصيّة الذي يرصّع أجساد النساء.

غسّان العامري وسهيل صبري معًا في مطعم «الياقوت». غسّان الذي وصلت أشعاره إلى كبريات الصحف والمجلاّت العربيّة مغربًا ومشرقًا، ونُشرت دواوينه في لبنان وتونس ومصر وسوريا، وترجمت قصائده وكتبت عنها الأطروحات في أهمّ جامعات الدنيا، الوجه المضيء بين وجوه قليلة في ثقافة بلده والذي حاضر من قبل في عواصم كبيرة: باريس، لندن، مدريد، موسكو، وارشو، بلغراد، القاهرة، الجزائر، تونس، الرباط، الكويت، بيروت، لايبزغ، ومدن أخرى.

غسّان العامري المحاصر، شبه الجائع، شبه المشرّد، الملاحَق الذي تحوّل إلى سؤال، وسهيل صبري أحد الشعرة الذين خلقهم النظام متوهِّمًا أنّه بهم سيعوّض القامات العملاقة. سهيل صبري النموذج الذي قدّمه خالد علي مصطفى عن الشعر الرديء في العراق، الصائل والجائل، المتسلّق كالنيزك في الثراء، الحافي ذو السروال الجينز المقطّع عند مؤخّرته، راكب المرسيدس، المتباهي بأثمان ما يرتدي من لباس.

هذان المتناقضان كيف اجتمعا؟.

كيف التقى راكب المرسيدس البيضاء براكب الباص الأحمر ذي الطابقين، زبون المطاعم الشعبيّة في «علاوي الحلّة» و«المربّعة» و«الميدان» و«بار المرايا» ونادي الاتّحاد العام للأدباء والكتّاب في العراق. ما أفخم الاسم! ما أكبره!.

قال غسّان لنفسه: لماذا أنت هنا؟ كيف انقدت؟.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سأله سهيل:

– جعت؟

– جدًّا.

وأشار بيده إلى النادل لأن يحضر السمكة، ثم أوصاه بأن لا ينسى «العمبة»، ثم التفت إلى غسّان وهو يقول له:

– عندما كنت صغيرًا كانت ألذّ أكلة لي، لفّة بيض وعمبة أشتريها بدرهم من باعة متجوّلين، وحتى الدرهم أسرقه من أمّي!.

ويضحك منشرحًا.

قال غسّان:

– سنأكل بسرعة، فالضجيج يتركني صريعًا للصداع القاتل.

تناولا السمكة بالتذاذ ثم خرجا، وأوصله سهيل إلى شقّته وقبل أن ينصرف سأله:

– أين يمكن أن أجدك؟.

– في كافتريا المنصور، هي مقرّي الرسمي.

وصعد السلالم باتّجاه شقّته، وكانت أبواب الشقق الأخرى ونوافذها مفتوحة طلبًا لنسمة من الهواء، بينما كان قاطنوها يتحرّكون بحرّيّة من شقّة إلى أخرى بملابسهم الداخليّة.

فتح باب الشقّة وخلع ثيابه بسرعة، ذهب ليتبوّل ثم ارتمى في فراشه.

- 41 -

لم يستطع غسّان النوم رغم أنّه شرب عدّة كؤوس من الويسكي لكن ليس إلى درجة السكر، إذ كان منتبهًا تمامًا خشية أن ينطق بكلمة يتمّ اصطياده بها وإرساله إلى حتفه من قبل هذا الفتى المتسلّق العجيب.

خلع ملابسه وبقي في الداخلي منها كما يفعل جيرانه من العمّال المصريّين.

كما فتح الشبّاك المطلّ على الشارع الذي لم تتوقّف ضوضاء السيّارات فيه رغم أنّ الساعة تقترب من الواحدة بعد منتصف الليل. وحاول النوم، لكن حالة الصحو لم تنكسر وتكاثرت الأسئلة في داخله عن هذا الفتى سهيل صبري، لقد بدا له أنّه هو الذي يضحك على من ظنّوا أنّهم قد حوّلوه إلى أحد أبواقهم، وحاول أن يسترجع رأيًا سبق أن قرأه في إحدى مقالات طه حسين عن الحكّام والشعراء المدّاحين، وخلاصته أنّ الحاكم هو المغفّل وليس الشاعر، فكيف سيصدّق حاكم عاقل ما يقوله له أو عنه شاعر أنّ أعداءه كانوا يخشونه وهو نطفة في رحم أمّه؟.

كيف استطاع هذا الفتى أن يكتشف الخلل، ويستغلّه أحسن استغلال، ويقفز من مشرّد وتلميذ فاشل إلى راكب مرسيدس وساكن قصر ويلعب بالألوف من الدنانير؟!.

إنّ الشعر ليس همّه، ولكنّه وسيلته، ولكلّ امرئ وسيلته في الوصول ما دام البلد يحكم بالمزاج لا بالقانون.

واللاّفت للنظر أنّه لا يخفي شيئًا بل يتحدّث بشكل واضح، وخمّن غسّان أنّه لا يتكلّم هكذا مع غيره، إنّ سهيل صبري رغم أنّه ضمن ماكنة النظام إلاّ أنّه يحتاج لأن يقول ما هو صحيح، ما هو مؤمن به، ولكنّه لا يظهره، وكان مطمئنًّا كل الاطمئنان من غسّان العامري، وأنّه يعرف نفسه كل المعرفة بأنّه ليس شاعرا وإنّما مجرّد نظّام، وما تسمّى قصائده وجدت هوى أمام الذوق الرسمي الهابط، ذوق «أبو جيشي مطلك الفرحان» مغنّي الربابة، والسويحلي وإبراهيم العبد الله و«الجوبيّة» والجداريّات، فهم هذا الفتى كل شيء وأعطاهم على هواهم، وفي قرارته ربّما كان يضحك من كل شيء.

إنّ ما يكتبه سهيل صبري ويسمّونه شعرًا هو وليد الحالة الشاذّة التي أصبحت عليها البلاد ومن فيها من عباد، وهي حالة لا بدّ أن تنتهي بكل ما جاءت به وما روّجت له بما في ذلك هذا الفيض من القصائد العموديّة البائخة، والروايات والقصص التي أطلق عليها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

روايات «قادسيّة...» في «منازلة» الفرس، أو «الكَوْنَةْ» معهم كما يحلو للرئيس أن يقول، والكوْنة هي تعبير عامّي تُشجّ فيها الرؤوس وتستعمل فيها الخناجر والعصيّ «والمگاوير».

لكنّ كل هذا الذي يكتب وما سيكتب والنيران معتلقة لا يمثّل إبداع العراق، هو شيء من دخان الحرب ليس إلاّ.

أمّا الإبداع الحقيقي فمخبّأ، والمبدعون الحقيقيّون صامتون، لا يريدون التورّط في دخول هذه المعمعة التي وإن جاءتهم بالمال و«المكرمات» السخيّة فإنّها ستجعلهم يخسرون أهمّ سلاح للمبدع وهو صِدْقه.

يوم وصل غسّان العامري من بيروت مع وفد من الشعراء والإعلاميّين اللبنانيّين يتقدّمهم نزار قبّاني لحضور الدورة الأولى والأخيرة لمهرجان الأمّة الشعري عام 1984، لم يكن يتصوّر أنّ سهيل صبري قد رمى بشباكه على الشاعرة الشابّة يارا داغر.

لقد وقع فيها، هكذا بدا الأمر، ولذا خصّص سيّارة مرسيدس لتنقّلاتها هي ووالدها ويرافقهما في بعض الأحيان نصري الأسمر باعتباره صديقهما المشترك، وأراد سهيل أن يكسبه إلى جانبه ليعطي صورة ناصعة عنه وعن مستقبله السياسي لا الشعري أو الوظيفي فقط، هكذا أوحى لنصري وقد صدّقه، لما رآه من نفوذ له لدرجة أنّه قال ليارا ووالدها:

- هذا بشير الجميّل العراقي.

أي أنّه سيكون الحاكم للعراق ذات يوم، على صغر سنّه مثل بشير يوم اختير رئيسا، وقد قهقه غسّان العامري طويلاً عندما سمع هذه الحكاية لأوّل مرّة بعد أشهر في بيروت.

وقال ليارا التي روتها:

- سمعت نكاتًا كثيرة في حياتي، أمّا هذه فأكثرها طرافة، يا عزيزتي يارا، فهذا الفتى مجرّد خادم صغير مدّاح، ليس إلاّ، وحدوده هي حدود الخادم هكذا يريدونه، أمّا بشير الجميّل فشيء آخر وابن عائلة توارثت السياسة وكان لها دور سواء أيّده البعض أو رفضه الآخر، ثم إنّه وصل إلى رئاسة الجمهوريّة اللبنانيّة التي لم يهنأ بها يومًا واحدًا.

لقد شُدهت به يارا وأُعجبت بنفوذه وخمّنت أنّه لا بدّ أن يكون مهمًّا ويُعدّ لدور سياسي وثقافي كبير في بلده، وإلاّ كيف أُعطي كل هذه الامتيازات؟.

تقلّب غسّان في فراشه رغم أنّ السيّارات في الشارع لم تتوقّف حركتها، وتذكّر رانيا خليل التي انبهرت به كما انبهر بها منذ لقائهما الأوّل، وتذكّر ما قالته له مرّة:

- لا يكفي أن يكون الرجل مبدعًا في مجالٍ ما مهما كبر حجمه الإبداعي لتعجب به المرأة، بل هناك شيء مهمّ بالنسبة لها، هو رجولته، ما يستطيع تقديمه من ثقة لمن يكون قريبًا منه، وأنت هكذا! معك أحسّ وكأنّك تفرش عليّ ظلّك؟.

وداعبها:

- يا رانيا يا عزيزتي، إنّني عفوي إلى أبعد الحدود، وأن أكون شاعرًا لا أعتبره منّة على أحد فهناك متفوّقون في مجالات أخرى لا أملك إلاّ أن أسجّل إعجابي بهم، هم يكمّلونني وأنا أكمّلهم، نحن لسنا بحاجة إلى شعراء أو رسّامين أو روائيّين كبارًا فقط بل وإلى أطبّاء ومهندسين وصحافيّين واقتصاديّين كبارًا أيضًا حتى يُستكمل المشهد.

كان لقاء المساهمين في مهرجان الأمّة برئيس الجمهوريّة في القصر الرئاسي هو رسالة الدعم الكبرى المعلنة لسهيل صبري.

لقد صافح الرئيس جميع الشعراء، والصحافيّين، وكان بملابسه العسكريّة وأوسمته ونياشينه وكانت الكاميرات تلتقط صورة لكل من يصافحه، وفي اليوم التالي وصل ألبوم صغير لكل من ظهر في صورة معه هديّة من الرئاسة، وقد احتفظ غسّان العامري بالصورة التي تظهره وهو يصافح رئيس الدولة في ذلك اليوم وخلفه يظهر عدا مرافقيه العسكريّين كل من حمادي السعدي وعبد السميع الملاّ إضافة إلى الأميرة الشاعرة.

وقف نزار قبّاني وارتجل كلمة وصف فيها الرئيس بأنّه معتصم هذا العصر.

كانت الأنفاس لا تُسمع، وحتى المدخّنون من الشعراء والصحافيّين توقّف السعال في حناجرهم، إنّهم يرون أمامهم صنمًا شعريًّا يترنّح ومن ثم يتحوّل إلى نثار يتساقط على الأرض.

كان في كلمته المادحة المتوسّلة يناقض ما يدّعيه في كتابته أنّه ضدّ الحكّام، وحياته منذورة للشعر فقط، لكن غسّان العامري تساءل في سرّه إن كان نزار مؤمنًا حقًّا بما يقول؟ أم أنّه مجرّد كلام أملته المناسبة ومهابة الوقوف أمام رئيس دولة في حالة حرب مع بلد تعداد سكّانه أكثر من ثلاثة أضعاف عدد سكّانها وكذلك مساحته الجغرافيّة، ومع هذا لم ينكسر وما زال يحارب منذ أربع سنوات، هل فرضت البطولة نفسها عليه؟.

وقد علم غسّان العامري أنّ كلمة الشاعر نزار قبّاني قد بُثّت مرارًا من أجهزة الإعلام كلها بما في ذلك التلفزيون حيث ظهر بالصوت والصورة.

كما علم غسّان أيضًا بأنّ تشريفات الرئاسة قد طلبت منه كتابة الكلمة التي ارتجلها بخطّ يده في سجلّ خاصّ لتبقى وثيقة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعد نزار قبّاني مباشرة نهضت يارا داغر بكل فتنتها ودفء صوتها وحضورها الأنثوي المميّز، وألقت كلمة مكتوبة تتقدّمها أبيات من الشعر في مدح الرئيس.

ثم انفضّ الحفل وغادر زوّار القصر ليبحث كل واحد عن أغراضه الشخصيّة التي أُخذت منه عند المدخل بدءًا من ساعة اليد والنظّارات والمفاتيح والقلم.

قُبيل عودتهم إلى بيروت بيوم واحد انتحى به والد يارا جانبًا، وكانت الحيرة مرتسمة على وجهه، وبعد أن طلبا فنجاني قهوة قال الوالد:

- أستاذ غسّان، أنت مثل أخي، وأنا أعتزّ بك لأنّك كنت وراء زيارتي مع يارا لبغداد، وقد وجدت أنّ عليّ إخبارك بموضوع حتى لا تقول إنّني خبّأت عليك ما جرى خلف كواليس هذا المهرجان كما يقال.

وتركه غسّان يستطرد في قوله:

- أتدري ماذا حصل مساء أمس؟ لقد جاءني شخص من موظّفي المراسم في القصر الجمهوري وطلب منّي أن أرافقه لأنّ الرئيس يريد أن يراني، في البداية لم أصدّق، وخلت نفسي أنّني في لبنان، وأنّ هناك غاية لخطفي أو قتلي مثلاً، لكنّني سرعان ما تراجعت فأنا في العراق. وقد رتّبت نفسي وأخبرت يارا ونصري الأسمر أيضًا بالأمر قبل أن أُرافق موظّف المراسم.

كان الرجل يدخّن أثناء حديثه، وبدا أنّه كالحائر الذي لم تغادره حيرته.. ولذا وجد في الحديث شيئًا من تبديد هذه الحيرة.

أضاف مواصلاً:

- وقد وجدت الرئيس في استقبالي فعلاً، أمّا ما فاجأني وأكّد لي أهمّيّة سهيل صبري بالنسبة له ومعاملته له كولده أنّه طلب منّي يد يارا له، وأثنى عليه ووعد بأن يكون مسؤولاً عنها وسيضمن لها كل طلباتها وجعلها تعيش حياة رغيدة.

نفث الدخان ثم استمرّ:

- أحسست وكأنّني في حلم، بل وفي كابوس أيضًا، ماذا لو أرادوا انتزاع ابنتي منّي لا سيّما وأنّها بدت لي مقتنعة بهذا الزواج، وقد لمست الاستلطاف الزائد بينهما. لا بدّ لي من جواب ذكي لأخرج من هذه المحنة، وأقول محنة لأنّ من يطلب يدها رئيس جمهوريّة وليس وزيرًا أو سفيرًا، وقد جاءتني فكرة، هكذا ألهمني الله بها، فأجبته بودّ وفرح ظاهرين بأنّ الأمر يسعدني كما يشرّفني ويشرّف أسرتي أن تكون أنت يا سيادة الرئيس من يطلب يدها لشاعر تعول عليه وتعامله كواحد

من أبنائك، لكنّني أرجو منك أن تمنحني فرصة حتى أعود إلى بيروت، فيارا لها أم وهي التي ربّتها ولا بدّ من أن تكون على علم بالموضوع. آنذاك قال لي بأنّ الحقّ معي ومنحني الوقت في ترتيب الموضوع، كما ذكر لي بأنّ سهيلاً سيسافر إلى بيروت بعد أسبوعين ويتعرّف على الأسرة ليتمّ الأمر بالشكل المتعارف عليه. صدّقني يا غسّان بأنّني عندما خرجت أحسست بأنّني قد وُلدت من جديد.

وهنا قال له غسّان:

- لا تتحدّث في هذا الموضوع مع أيّ إنسان، إنسه الآن، وعندما تصل إلى بيروت ومعك ابنتك تستطيع أن تعطي الجواب.

ونطق وكأنّه نسي شيئًا:

- الموضوع غير راكب كما يُقال، فيارا ما زالت طالبة في كلّيّة الحقوق، كما أنّنا من ديانة أخرى أقول هذا رغم أنّنا بشر، ولكنّ الخلاف في الدين يتفاقم بسبب ظروف لبنان والاقتتال الذي نعيشه لا بين الأديان بل وبين الطوائف.

وعاد غسّان ليقول:

- انسَ الموضوع الآن كما قلت لك، وغدًا سنتوجّه إلى قبرص، أمّا يارا فلا بدّ أن تعرض عليّ الأمر لتأخذ رأيي، كن هادئًا وتصرّف وكأنّ شيئًا لم يكن.

كانت هذه الحكاية مثار استغراب لم يعرفه غسّان العامري لأنّها تشكّل استثناء نادرًا في قاعدة مألوفة.

لماذا يتبنّى رئيس دولة مورّطة في حرب ماحقة أمرا جانبيا كهذا؟ ومن ثم يكبر السؤال ليصبح من هو سهيل صبري؟ ولماذا كل هذا الاهتمام به؟ أيّ رهان بل أيّ وهم يُنتظر منه؟

إنّ العراق بلد مهرجانات، مهرجان في إثر مهرجان، ويأتي ضيوف بمستويات مختلفة، منهم الكبار مقامًا وإبداعًا، ومنهم المرتزقة المتكسّبون الذين يشمّون رائحة الدولار فيجرون وراءها، ومع هذا من النادر أن يستقبل رئيس الدولة إلاّ من كانت له غاية في لقائه.

لكن مهرجان الأمّة الشعري الذي نظّمه سهيل صبري ومعه عدد من الأدباء الشبّان الناشئين الذين لا أحد يستطيع المراهنة على ما سيكونونه بعد سنوات، جلّهم من راكبي الموجة والمصفّقين ومدبّجي قصائد عموديّة هزيلة بل وهزليّة، هذا المهرجان كان استثناء عندما قرّر رئيس الدولة استقبال جميع المساهمين فيه ومصافحتهم واحدًا واحدًا ومنحهم بركة التقاط صورة معه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لماذا هذا كله؟ ثم تأتي اللمسة الأخيرة لهذا الكرنفال عندما تحوّل رئيس الدولة إلى خاطب لفتاة من بلد آخر وديانة أخرى لم يعرفها سهيل صبري ولم تعرفه، هو حبّ مهرجانات، ينتهي بانتهائها؟.

أسئلة، حملها غسّان العامري في صدره ومضى بها إلى بيروت.

كان والد يارا غير مصدّق عندما هبطت الطائرة في مطار لارنكا القبرصي وابنته معه. ولم يتوانَ عن البوح لغسّان بأنّه بات ليلته صاحيًا حتى الصباح خوفًا من أن تُداهَم غرفته في فندق الرشيد وتُختطف ابنته منه، أو أنّ سهيل صبري قد أقنعها بخطّة للهروب معه وعقد قرانه عليها ووضْع الجميع أمام موقفٍ لا يخطر ببال أحدٍ منهم.

كان غسّان يحسّ بأنّ يارا داغر فقدت حيويّتها وعفويّتها والتمّتْ على نفسها وكأنّها مشغولة بأمر خارج المجموعة التي تجهل ما حصل لها عدا والدها ونصري الأسمر وغسّان العامري.

في ميناء جونيه توزّعوا، وذهب كل واحد إلى بيته، وكان غسّان قد ترك سيّارته في المرآب التابع للعمارة التي يقطنها نصري الأسمر.

ولكن بعد أقلّ من أسبوع على وصولهم إلى بيروت هاتفته يارا طالبة منه أن يقابلها، وحدّدت له مطعمًا قريبًا من كليّتها. وقد استجاب لطلبها وحضر إلى المكان في الموعد المحدّد، وهو يعرف مسبقًا الموضوع الذي تريد أخذ رأيه به.

كان هناك حديث عام في البداية عن بغداد وسعتها وناسها وأدبائها وعن مهرجان الأمّة الشعري، جرى هذا أثناء تناولهما الطعام. ثم جاء وقت البوح.. لذا ارتأى أن يسهّل عليها الأمر عندما قال:

- هيّا، تكلّمي ولا تتحرّجي، لقد أخبرني والدك بكل شيء ولم يخفِ عنّي فصول المسرحيّة التي جرت في بغداد دون علم منّي.

وهنا نطقت:

- إنّني حائرة يا أستاذ غسّان، وأنا أثق.. بك لذا أحبّ أن أسمع رأيك؟.

وضحك غسّان بانشراح وهو يعلّق:

- هل انتبهتِ إلى أنّني استعملتُ كلمة مسرحيّة؟ رأيي أنّ الأمر كله مسرحيّة.

وردّت مستوضحة:

- ولكن رئيس الجمهوريّة هو الذي طلب يدي من والدي وليس غيره!!.

وهزّ غسّان رأسه مؤكّدًا:

- وهذا ما يجعلني أقول إنّها مسرحيّة، سهيل صبري كومبارس ثانوي فيها وأنت وحدك البطلة.
- لم أفهم؟
- من الأحسن لك أن لا تفهمي.

ثم سألها إن كانت تحبّ شيئًا بعد الأكل فأجابت:

- فنجان قهوة.

ثم أردفت محاولة أن تبوح بما في صدرها:

- إنّني مقتنعة بسهيل صبري، ولكنّني غير مقتنعة أيضًا. أمّي جنّت عندما سمعت بالخبر، وأبي في قرارته رافض وكذلك أختي التي هي الآن على وشك الزواج، وقد هدّد خطيبها بتركها! إنّ المسألة كلها تشكّل فضيحة للعائلة، وليس معي أحد غير نصري الأسمر.
- نصري الأسمر لم يَرَ إلاّ المشهد الظاهر، لم يعرف الوجه الآخر المخفي.
- أمّي هدّدتني، قالت لي رأيها بشكل حاسم وحازم وأخبرتني إن كنت مصرّة على الزواج منه بإمكاني السفر إليه، وقالت إنّها على استعداد لمنحي ما أشاء من المال والذهب والثياب، ولكنّها حذّرتني إن أنا خرجت من البيت فلن أراه ثانية وأنّها ستتبرّأ منّي برسالة تنشرها في الصحف اللبنانيّة نيابة عن العائلة.

وقهقه غسّان وهو يربت على خدّها ويمسح الدمع الذي تجمّع في مآقي عينيها الواسعتين، وسألها ببساطة:

- ولماذا هذا كله؟

وعاد للقول وهو يستحثّها لارتشاف قهوتها التي كان النادل قد أحضرها:

- أنت لم تبلغي العشرين بعد، يعني أنّك قاصر وفق العرف، وما أرجوه منك أن تعيدي النسق لحياة أسرتك الذي ارتبك، فأنا مسؤول بشكل أو آخر إذ رشّحتك للذهاب إلى بغداد والمساهمة في المهرجان، وكان والدك منتبهًا لذا أصرّ على مرافقتك، ولو لم يكن معك لربّما أقدمتِ على عمل ستندمين عليه إذ ستضيعين بعده حتمًا.

أخذ رشفة جديدة من قهوته وتابع:

- انسي أنّك كنت في مهرجان، فالحياة في بغداد ليست كلها فنادق وشعراء ومهرجانات وأحاديث حبّ، إنّها حياة في بلد يغطس في وحل حرب لا أحد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يعرف نهايتها، فهل ستخرجين من بلد يتقاتل أبناؤه إلى بلد جُلّ أبنائه في جبهات الحرب؟ انصرفي إلى دراستك وأعيدي الصلة بأسرتك واعتبري ما حصل درسًا سيفيدك في القادم من الأيّام.

وبدا أنّها اقتنعت بما سمعته، وقبل أن ينصرفا سألها إن كانت ترغب في إيصالها إلى بيتها فأخبرته أنّها جاءت بسيّارتها.

* * *

بعد هذا اللقاء بحوالى العشرة أيّام رنّ هاتفه في المكتب، وأخبرته السكرتيرة أنّ السيّد سهيل صبري يطلبه من قبرص.

رحّب به وحاول التأكّد إن كان في قبرص حقًّا فأجاب بنعم، وأنّه سيتوجّه مساء بالباخرة إلى ميناء جونيه، كما ذكر له بأنّه اتّصل بنصري الأسمر وأعلمه بمجيئه.

وتلفن غسّان إلى نصري واتّفق معه على اللقاء في مكتبه قبل وصول الباخرة بساعة على الأقلّ.

وردّ نصري بأنّه لن يغادر مكتبه، وأنّه منهمك في إنجاز بعض النصوص لكتاب مطالعة في المدارس الثانويّة.

* * *

كان مكتب نصري الأسمر شقّة صغيرة بمدخل وغرفة واحدة، هذه الغرفة هي التي يمضي فيها جُلّ ساعات يومه، ويحبّذ أن يستعمل آلة طباعة بدلاً من قلم الكتابة، ولذا خصّص لها مكانًا على الطاولة وصار يستعملها بسهولة.

في هذه الغرفة هناك أريكة طويلة، كان غسّان يغمزه عندما يرى حشوتها آخذة في الهبوط ويتساءل إن كان يستعملها لنشاطات «ضدّ الأخلاق»، فيضحك نصري ويؤكّد أنّها لنشاطه الفردي حيث يتمدّد عليها كلّما أحسّ بألم في ظهره من كثرة الجلوس.

وهناك أيضًا أربعة مقاعد وطاولتان صغيرتان، وكانت تلتحق به أحيانًا وفي ساعات النهار الأولى ابنة عمّ له تقوم بدور السكرتيرة، ولذا وضعت طاولة صغيرة في المكتب، ومهمّتها الأساسيّة في متابعة مراحل طباعة جريدته الشعريّة «الأوديسيّة»، التي حالت ظروفه المادّيّة دون صدورها أسبوعيّة.

وعلى جدران غرفة نصري هناك صورة تخطيطيّة للشاعر سعيد عقل ثم رسم كاريكاتوري للفنّان بيار صادق، كما أنّ هناك لوحة صغيرة مستنسخة للفنّان رفيق شرف.

أمّا الكتب فقد توزّعت على رفوف مثبّتة بالحائط من أعلاه إلى أسفله، لذا كان يستعمل سلّمًا حديديًّا متنقّلاً كلّما احتاج إلى كتاب.

وصل إلى مكتب نصري مبكرًا عن موعد وصول الباخرة، وطلب منه قبل كل شيء أن يعدّ لهما فنجاني قهوة، لكنّه انتبه إلى أنّ نصري أسوأ مخلوق في الطبخ وأنّ زوجته أطعمته مرّة وجبة ضفادع كبيرة الحجم فبدأ بأكلها ظنًّا منه أنّها فراريج، فارتأى غسّان أن يعدّ القهوة بنفسه على آلة طبخ صغيرة، وكان غسّان يحبّ رائحة القهوة أكثر من القهوة نفسها، والشيء نفسه يحسّه تجاه تبغ الغليون المعطّر لا الغليون نفسه الذي لا يعرف كيف يستعمله.

قال نصري بعد أن أصبح أمام كل واحد منهما فنجان قهوته:

- هل يمكن للفنّان أن يحبّ امرأة واحدة فقط؟.

ولكن غسّانًا لم يستغرب ما أراده من وراء هذا التساؤل فظلّ مصغيًا، لذا أضاف نصري:

- لا أظنّ أبدًا، والدليل أنّي أحببت عدّة نساء وبالقوّة نفسها، وكل امرأة أكون معها في حالة حبّ أحسّها وكأنّها المرأة الوحيدة حتى تدخل على الخطّ امرأة أخرى، وهكذا، كأنّها لعبة بلا نهاية.

علّق غسّان:

- أتذكر تلك المقاطع القصيرة التي كتبتها مرّة في جريدة «الأنوار»؟ يحضرني منها مقطع كأنّه الجواب على سؤالك.

ردّد نصري:

- اقرأه لي، فالشعر الصادق استمرار وتواصل لا ينتهيان.

وبدأ غسّان يقرأ، وإن تباطأ ليستذكر النصّ فهو على النقيض من نصري لا يحفظ شعره، ويستغرب عندما يسمع عن شعراء حفظوا آلاف الأبيات، بعضهم حفظ كل شعر المتنبّي وآخر السيّاب وثالث البيّاتي أو سعيد عقل:

لقد محوتِ من كنّ قبلكِ

فتشبّثي بي حتى لا تأتي أخرى وتمحوكِ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ردّد نصري:

- جميل.

ثم قال:

- يقولون إنّ أجمل الشعر أكذبه وأقول إنّ أجمل الشعر أصدقه، لا بدّ من الصدق، صحيح أنّ هناك جانب الصنعة وهي مهمّة، ولكنّها تولد بتلقائيّة، لنسمِّها كما يسمّيها البعض الموهبة، أمّا الصدق فهو أساسي. أتدري بأنّي رغم كل صداقتي وافتتاني بنزار قبّاني فإنّني أفتقد أحيانًا نبرة الصدق في شعره، كأنّه لم يحبّ، لكنّ الحرفة المتقنة إضافة إلى الغنائيّة هما اللتان تجعلان شعره قريبًا، لكنّنا لو قرأناه بعين النقد لوجدناه عاديًّا غالبًا بل وبلا معنى، أنا ضدّ الشعر الذي يقول فحواه منذ السماع الأوّل، لكنّني بالمقابل ضدّ الشعر الذي لا يقول شيئًا حتى لو قرأته ألف مرّة، فهو دليل عجز الشاعر عن إيصال شيء، وعليه أن لا يلقي بالتبعة على المتلقّين، وربّما أبالغ لو قلت لك إنّ الخلل في الشاعر أساسًا كحالة أدونيس الذي ينتابني الشكّ في أنّه يفهم كل شعره. تراكيب لفظيّة فيها أسماء سواء لمرموزات أو أماكن ولا شيء بعد هذا، لماذا أفهم البيّاتي وأعي شعره بشكل أو آخر؟.

كان الحوار بينهما إن بدا بجدّيّة فإنّه يأخذ مدى كبيرًا في جدّيّته، أمّا إن بدا مزاحًا فإنّه يأخذ مداه في هذا كذلك.

كانا يرتشفان القهوة بتلذّذ، بعد ذلك قرأ نصري مطلع قصيدة كلاسيكيّة قائلاً إنّ السيّدة الجميلة زوجة صاحب مجمّع رمال تريد افتتاح قاعة جديدة للنشاطات الثقافيّة، وقد جهّزها بكل ما يجعل منها معلمًا ثقافيًّا لعروض الرسم والموسيقى وحفلات توقيع الكتب الجديدة والقراءات الشعريّة، وذكر أنّ مدام برجي أو أليكسا برجي كما هو اسمها امرأة نادرة ليس همّها التشييد والبيع والربح بل والثقافة، لقد دعتني لأقرأ مع شعراء آخرين.. لذا لا بدّ من قصيدة أتميّز بها، ولا أدري لماذا جاءت كلاسيكيّة؟.

قال غسّان:

- هناك شعر، هذا ما أؤمن به، لكنّنا في مرحلة لها إيقاعها المختلف، ولها همومها الأخرى ولذا فإنّ الشعر أيضًا اختلف. صحيح أنّ الناس يحبّون الباليه والموسيقى الكلاسيكيّة لكنّهم أيضًا يجدون أنفسهم قريبين من موسيقى الجاز، حتى الثياب، وطرز البناء، فلماذا يبقى الشعر بعيدًا، إنّ يوسف حبشي الأشقر في الرواية

يختلف عن محمود تيمور، وقصائدي تختلف عن قصائد السيّاب أو شاعر أصغر عمرًا!.

- أتساءل أحيانًا لماذا أجدني منقادًا لكتابة قصيدة عموديّة رغم أنّني أكتب قصيدة النثر؟ بل وأجدها ملبّية لما أريد؟.

ضحك غسّان وقال:

- هذا لأنّك بدوي متخلّف في أعماقك! لم تأتِ من صربا هذه بل من جبال صعدة اليمنيّة أنت وعثنونك!.

فشاركه نصري الضحك الأبيض، بعد ذلك أكمل قراءة مشروع قصيدته، وكان من ميزات نصري الأسمر أنّه يقرأ شعره بشكل جيّد، لذا صار صوته وإلقاؤه معروفين لسامعي الإذاعات المحلّيّة في كسروان والمتن، كما صار وجهه معروفًا بلحيته الطليقة وشعره المنسدل على كتفيه الأمر الذي جعل أحد شيوخ الأدب اللبنانيين يسمّيه بالشاعر الأزبّ، وعندما سُئل عن معنى الأزبّ أجاب أنّه ذو اللحية الطويلة كلحية ذكر الماعز.

وعندما فرغ من القراءة أبدى غسّان بعض الملاحظات، لكنّه ترك الحكم الأخير إلى أن يسمعها كاملة وهو بين جمهور قاعة رِمال.

* * *

انتظرا حتى خرج سهيل صبري من الباخرة وصافحاه مرحّبين.

قال له غسّان:

- ستنام عندي.

وأضاف ضاحكًا:

- لأنّني لا آمن عليك من نصري فأنت ما زلت فتيًّا وهو يعيش وحيدًا ومعدته اسم الله عليها تجيد الهضم، لذا حفاظًا على شرفنا العراقي سأبعدك عنه حتى لا يتمعمر بمؤخّرتك.

علّق نصري بدعابة:

- مصيبتنا هذه يا غسّان، أيّ علاقة للشرف إذا اقتنع سهيل بأن يمنحني مؤخّرته لليلة واحدة؟.

قال سهيل:

- ليس لديّ مانع إذا استطعت حلّ موضوع يارا داغر!.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وضع الحمّال حقيبة سهيل في صندوق سيّارة غسّان التي جاءا بها.

- ظر غسّان بعد ذلك إلى ساعته، وقال:

- من المؤكّد أنّ رحلة الباخرة ليست مرهقة، وأنّ وعثاء السفر لا تبدو عليك. لذا سنسلّم قيادنا إلى نصري فهو عدا كونه سائقًا ماهرًا له إلمام نادر حتى بأصغر زقاق في هذه المنطقة.

ثم اقترح غسّان بعد أن تحرّكت بهم السيّارة أن يقوموا بدورة في المنطقة ليتعرّف عليها سهيل، ثم يتناولوا عشاءهم في أحد المطاعم المعروفة.

وكان الاقتراح مقبولاً، لكنّ سهيلاً طلب من نصري أن يكلّم منزل يارا من مكتبه ليأخذ موعدًا لزيارتهم في اليوم التالي.

وبقي غسّان في السيّارة، ولم يتأخّرا كثيرًا إذ سرعان ما عادا، وبعد أن داروا في المنطقة وقد أخذ نصري مهمّة التعريف بالأماكن واستغرق هذا قرابة الساعة. قال غسّان:

- اتّجه يا نصري إلى جبيل، سنتعشّى في مطعم «بيبي عبد» فأنا أحبّه، وسيرى سهيل أنّ هذا المطعم عبارة عن متحف عامر بالذكريات، إذ يحتفظ صاحبه بصوره عندما كان بحّارًا يجوب الدنيا ويعاشر النساء من شتّى القوميّات ويتزوّجهنّ إن تطلّب الأمر ذلك، كما أنّ لديه صورًا لكل الكبار الذين قصدوا مطعمه من رجال سياسة وممثّلين وأدباء، فانبهروا بالمكان وبفرادة شخصيّة صاحبه الذي ما زال يرتدي حتى اليوم ثيابًا أقرب إلى ثياب البحّارة. وانتاب الفضول سهيلاً عندما استمع لما فاه به غسّان، لذا أبدى الرغبة في تناول العشاء في هذا المطعم.

ضحك غسّان وقال لسهيل:

- مرّة وجدت بيبي عبد يجلس وحيدًا ينفخ في أرجيلته قبل مجيء الزبائن، وباح لي بأنّه عرف نساء كثيرات لكنّ المرأة التي روّضته عراقيّة من الموصل هي زوجته الحاليّة التي لم يغيّرها وتوقّف عندها.

وعلّق نصري:

- أمّا سهيل فروّضته لبنانيّة من كسروان!.

لكن غسّانًا قال:

- لا تصدّق، هذا نغل ابن نغل، لا أحد يروّضه. والمسألة ربّما بدت له مثيرة نظرًا لطابع المغامرة فيها، هذا كل شيء.. هو لم يبلغ الثلاثين ولديه نقود كثيرة، لذا لن يتوقّف عند يارا وبعدها هناك يارات.

ردّ نصري:

- لكن يارا فتاة استثنائيّة؟.

وأكّد غسّان:

- بعد زواجه منها لن تكون كذلك، عد إلى حديثنا في مكتبك قبل مجيئنا إلى الميناء، أنسيت؟.

وظلّ حديثهما أشبه بالتساؤلات.

وبعد أن تناولوا عشاءهم في مطعم «بيبي عبد» وأمامهم البحر الذي كانت أمواجه الثائرة يتقافز رذاذها على الشاطئ الصخري، غادروا المكان، نزل نصري أمام بيته وواصل غسّان وسهيل طريقهما نحو «مار تقلا».

في الطريق سأله غسّان عن أخبار الوطن وما هي التوقّعات بشأن الحرب، أجاب:

- الحرب أكبر ورطة، لم يتوقّع أحد أنّها ستكون هكذا، لقد طالت أكثر من اللازم والعالم كلّه يتفرّج عليها.

- وهل من أمل في نهايتها؟.

ردّ سهيل وهو يبرم شفتيه:

- أبدًا.

وأردف:

- لأنّ هناك من يذكي نيرانها، هي حرب بين شعبين ينبذهما الغرب لكونهما أكبر قوّتين في المنطقة؛ فليأكلا بعضهما وليتدمّر البلدان ويصبحا أنقاضًا، المهمّ أنّ إسرائيل بأمان كبير الآن، وفي طريقها لأن تكون القوّة الأعظم إن لم تكن هي كذلك الآن.

نطق غسّان بشيء من الشرود:

- الصحف اللبنانيّة أغلبها ضدّ العراق، وأنا أقصد الصحف الأساسيّة. إنّ النفوذ الإيراني قويّ هنا، والحركات الشيعيّة تحديدًا المدعومة من إيران بدأت تأخذ مداها، كان لها زعماء تقليديّون وأحزاب بحجم هؤلاء الزعماء، لكنّ الأمر تغيّر بعد نجاح الثورة الإيرانيّة حيث ظهر زعماء جدد.

ردّد سهيل:

- جئت من الحزن وتريد أن تزجّ بي في حزن آخر؟.

- أتقول هذا وأنت المرفّه الذي يلعب بالآلاف ويركب أفخر السيّارات؟.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- نعم، أقول هذا ما دام الرأس يضجّ بالأسئلة، أنا رأسي مطلوب.. أعرفت؟ لأنّ وثائق الإدانة عليّ كثيرة، قصائدي، أموالي، امتيازاتي، لذا فإنّني خائف، وأتمنّى أن تنتهي الحرب رغم كل الخسائر.
- عليك أن تعلم بأنّ المحلّلين المنصفين متّفقون على أنّ هذه الحرب حتى الرابح فيها خاسر!.

وانتبه غسّان إلى أنّه انساق في الحديث مع سهيل، وخشي من أن ينطق بكلمة قد يفهمها على عكس ما قصده من ورائها.

* * *

كان نادر بوّاب العمارة يجلس على كرسيه وأمامه ركوة القهوة، وعندما رآهما نهض مرحّبًا، قال له غسّان:

- معي ضيف قادم من بغداد الأستاذ سهيل صبري.

ورحّب نادر بسهيل ثم حمل حقيبته إلى شقّة غسّان الذي سأله عن الوضع الأمني في المنطقة، فأجاب:

- رواق.

أي هدوء، فعاد غسّان ليسأله:

- ألم تسمعوا أيّ قصف؟.
- لحدّ الآن، لا.

فتح غسّان باب الشقّة الواسعة، وأشعل النور إذ كان المولّد الكهربائي يعمل باستمرار، وغالبًا ما كانت صاحبة الشقّة تستعين بابنها الضابط لجلب كمّيّة من المازوت لغرض تشغيل هذا المولّد.

كانت آثار القذيفة التي دخلت من النافذة الصغيرة في المسافة بين الشقّتين اللتين يضمّهما كل طابق ما زالت واضحة على شكل حفر في الجدار الصخري التي سبّبتها شظاياها، إضافة إلى الفجوة الكبيرة ولو لم يكن الجدار من الحجر لسقط كله.

شرح غسّان ما جرى لسهيل وقرأ ملامح الذعر على وجهه:

- تصوّر أنّ ما حدث ربّما لا يحدث إلاّ مرّة في المليون، ولكنّه حدث ومعي أنا ولشقّتي، انظر إلى هذه الفتحة الصغيرة! لو أنّك جئت بأمهر الرماة لما استطاعوا

أن يدخلوا قذيفة منها، ولكنّ قذيفة طائشة ربّما أطلقها مقاتل مبتدئ دخلت من هذه الفتحة.

وأضاف:

- تصوّر أنّها اقتلعت الباب ورمت به داخل الشقّة و لم يصدّه إلاّ الجدار المواجه.
- وأنت أين كنت؟.
- من حسن حظّي أنّني كنت في جبيل مع نصري الأسمر وأصدقاء آخرين، وقد تأخّرت وأمضيت بقيّة الليل في بيت نصري، وعلمت بهذا عندما عدت في صبيحة اليوم التالي؟.

ردّد سهيل:

- ولماذا هذا كله؟ أنت كجندي في معركة!.

أجاب غسّان:

- إنّ من يعش في الخطر يحسّ بلذّة لا حدود لها كلّما خرج سليمًا من موقف كاد يقدّم فيه حياته، وهذه حالة لا يدركها إلاّ من عاشها، فكيف إذا توالت؟ ثم إنّني إنسان قدريّ بشكل أو آخر.

قاد سهيلاً إلى إحدى الغرف وهو يخبره:

- هذه غرفتك، إذا أحببت أن تنام فلك ذلك، أمّا إذا أردت السهر فلديّ مجموعة أفلام فيديو نادرة أكتريها من محلّ قريب!.

واختار سهيل فيلمًا عن السادات من إنتاج شركة أميركيّة، وعلّق غسّان:

- لقد أحسنت الاختيار فهذا فيلم جديد، أنتجه الأميركان بل قل الصهاينة على مزاجهم فجعلوا من السادات رجلاً قويًّا وصارمًا، ومن عبد الناصر متردّدًا ومهزوزًا، لكنّ الغريب أنّهم عثروا على ممثّل أميركي زنجي له شبه كبير بالسادات ليؤدّي دوره.

و لم يستطع سهيل إتمام الفيلم إذ بدأ التعب عليه، لذا قال له:

- بإمكانك أن تنام!.

ونهض وهو يقول:

- تصبح على خير.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بقي غسّان جالسًا يتابع الفيلم إذ عليه أن يعيده إلى المحلّ الذي استأجره منه.

وتذكّر صاحبة المحلّ بشعرها الأشقر الطويل ووجهها الجميل الذي تميّزه عينان واسعتان، لكنّهما محتقنتان دومًا وكأنّهما عينا مدمنة مخدّرات، وكانت تتكلّم بكثير من الشرود وعدم القدرة على التركيز.

لقد شدّت انتباه غسّان، لا بل إنّ هذا النوع من النساء يحلو له مضاجعتهنّ، إذ أنّ السهوم المرتسم في عيونهنّ يشكّل سببًا في اشتعاله الذكوري، وقد حاول أن يلفت انتباهها فلم يفلح حيث تأكّد أنّها غائبة غير مكترثة.

ثم اكتشف عن طريق الصدفة من إدمون اللبناني الذي يعمل في السفارة مسؤولاً عن متابعة كل معاملات الدبلوماسيّين العراقيّين المتعلقّة بالجهات اللبنانيّة الرسميّة، بأنّ هذه المرأة هي الزوجة اللبنانيّة لجزّار أفريقيا الوسطى المرعب بوكاسا. واستفسر منه أكثر، فأجابه:

- ألم تقرأ في الجرائد والمجلاّت أنّ بوكاسا أصبح صهر لبنان؟ طبعًا هذا قبل سنوات، والحكاية يا أستاذ بسيطة هي أنّ والد هذه الفتاة تاجر من فصيلة التجّار اللبنانيّين المغامرين، وفي أحد الاحتفالات رأى بوكاسا ابنته فطلبها منه، ضمّها إلى قطيع حريمه. وربّما أثاره لونها الأبيض وشعرها الأشقر فأراد أن ينوّع وجبته، وقد رحّب الأب بهذا النسب فورًا، الفتاة أرادت الانتحار كما ذكر لي صديق لوالدها كان يقيم في أفريقيا الوسطى، ولكن لم يكن أمامها من مفرّ، ويبدو أنّها أدمنت الكحول حتى تتجرّع هذا الوحش في فراشها، ولها منه ابنة في العاشرة من عمرها تقريبًا، عادت بها شبه هاربة بعد أن سقط حكمه وصُودرت أملاكه.. حتى والدها هرب لكونه احتُسب عليه.

وردّد غسّان:

- تذكّرت، نعم. لقد مرّت بي هذه الحكاية، لكن ما لم أتوقّعه أن أراها صاحبة مكتب لأشرطة الفيديو، أمّا ابنتها فقد ظننت أنّها طفلة متبنّاة، لكنّها ستكون جميلة وفاتنة، هي خلاسيّة كما يُقال.

ثم وجّه السؤال لإدمون:

- ولكن ألم يأكل منها شيئًا؟ نهدها مثلاً كما فعل بعض الشيوخ؟.

ضحك وهو يقول:

- عليك أن تكتشف هذا بنفسك.

- المصيبة أنّها شبه غافية دائمًا، لدرجة لا تستطيع فيها التركيز بوجه من يكلّمها! لقد أصبحتُ أستأجر أفلامًا ولا يسمح لي الوقت بمشاهدتها، كل هذا من أجل أن أراها، أن ألفت نظرها، ولا فائدة.

وغمزه إدمون:

- أستاذ غسّان أنا لا أقدر على كلام الشعراء، لكنّني متأكّد من أنّها حطام امرأة، هي هاربة من كابوس ما عاشته وقاومته بالخمرة وربّما بالمخدّرات، لا أدري، المهمّ أنّها تعمل من أجل إعالة ابنتها ومواصلة حياتها.
- حالة محيّرة يا إدمون، صدّقني، سأحثّ أحد الأصدقاء من الصحافيّين علّه يفلح في استدراجها إلى حوار.

قال إدمون:

- بوكاسا ليس آدميًّا بل وحش، هكذا يُقال، طعامه المفضّل لحوم معارضيه وكان يُجبر وزراءه على مشاركته الطعام.

هزّ غسّان يده وعلّق:

- هذه مبالغات، ربّما وراءها أسباب عنصريّة، وقد يكون من الحالات الشاذّة مثل عيدي أمين وآخرين.
- لعلّه تصوّر أنّ النساء البيض والشقراوات يؤكلن، فهنّ مقشّرات وجاهزات مثل البرتقال.

ردّ عليه غسّان بدعابة:

- هيّا اتركني، لعلّي أنجز ركام العمل، افرنقع، واذهب عنّي، فهذه المرأة ربّما استعذبت وحشيّة بوكاسا في الفراش، لا تستطيع أن تحزر النساء، أمّا أكل النساء عند بوكاسا فما يدحضه أنّ هذه المرأة حيّة ولها ابنة منه، ولم يصبها شيء وقد تفتقد وتده الذي ربّما يكون طويلاً. اذهب واسألها.

وقبل أن ينصرف قال:

- سأفعل ذلك يومًا، ماذا تفعل لي إن سألتها عن طول وتد بوكاسا؟ وأنت تعرف أنّني قادر على هذا؟.

قال غسّان حاسمًا الحديث:

- وقد لا يكون لديه وتد بل شيء من بضع سنتمترات، وعليك أن تعرف أيّها الأمّي بأنّ بعض هؤلاء المتوحّشين دافعهم ضعف قدراتهم الجنسيّة وليس قوّتها، ولو وصلتُ إليها لعلّمتها ما لم تتعلّمه من بوكاسا.

***

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان غسّان قد بدأ يشعر بالتعب هو الآخر، أطفأ التليفزيون وانسحب إلى فراشه، وسرعان ما غفا فقد شرب مع العشاء حوالى الزجاجتين من النبيذ.

ولا يدري كم ساعة نام عندما سمع صوت سهيل الذي يناديه حتى يستيقظ.

- ما بك؟.

فأجاب بصوت هَلِع:

- ألم تسمع القصف وصوت الرشّاشات والمدافع؟.

أجابه غسّان:

- هذه موسيقى كل ليلة، سمفونيّة الحرب التي لا تنطبق أجفاننا إلاّ بعد سماعنا لها، اذهب إلى فراشك واخمد، وعسى أن تأتيك قذيفة وتنقذ البشريّة من شعرك الذي جاءنا بالكوارث.

ردّد سهيل:

- كيف تعيشون؟.

وهنا سحب غسّان جسده من الفراش واتّكأ على الوسادة وهو يقول:

- تتحدّث وكأنّك آتٍ من سويسرا وليس من بلد في حالة حرب؟ ثم ماذا لو جنّدوك في الجيش الشعبي؟.

- لا تسخر، أنا عملة ثمينة ولا يفرّطون بي، ويخافون عليّ، مهمّتي أن أكتب القصائد عن السيّد الرئيس حفظه الله!.

- هناك المعايشة كما أقرأ، أي تذهب لتتعرّف على حياة الجنود والضبّاط في جبهات القتال كما ذهب جُلّ الأدباء؟.

- حتى هذا لم أفعله، لديّ وسائلي في التهرّب، أنا شاعر فقط.

- اذهب ونم، وغطّ طيزك زين أو إن شئت اذهب واكتب قصيدة عرمرميّة، ولعلّ قنبلة ضالّة تسقط على رأسك!.

- إنّني أحسدك على برودة أعصابك؟.

- يا سهيل يا عزيزي، مثل هذه الليلة توصف وفق قاموس الحرب هنا بأنّها ليلة هدوء نسبي، أفهمت؟ أمّا الانفجار الأمني فيعني أن نذهب ونتمدّد على الأرض في المدخل، أو نعبر إلى الملجأ في العمارة المقابلة، عد إلى فراشك، هيّا.

ردّد وهو ينسحب:

- حاضر، سأنام وأمري لله!.

ويبدو أنّ التعب قد هدّه لذا غرق في النوم غير آبه لِلَعْلعة الرصاص وصوت القذائف البعيدة، وبعد أن هدأت في ساعات الفجر الأولى واصل النوم. ولم يحسّ بغسّان الذي صحا وحلق ذقنه وقضى كافّة شؤونه الحمّاميّة.

بعد ذلك هيّأ طعام الفطور ووضعه على الطاولة ومضى ليوقظه:

- سهيل، هيّا انهض أيّها الجبان، أنت بطل بشعرك العمودي فقط!.

وصحا مبتسمًا:

- صباح الخير.
- نمت جيّدًا؟
- تمدّدت في الفراش ثم قرأت الفاتحة ونمت والموت لا يأتي إلاّ مرّة واحدة!.
- نعم، جاء بك العشق إلى الموت، والقذيفة لا تصدّها قصيدة من قصائدك العصماء ولا حتى ديوان كامل، هيّا، لقد أعددت لك الفطور، هذا يوم تاريخي بالنسبة لك أيّها الشعرور المتشاعر إذ إنّك ستأكل من طعام أعدّه لك غسّان العامري وليس المناويك!.
- هذه الشتائم بدلاً من صباح النور؟ اذكر الله! يا فتّاح يا كريم!.
- هي حقائق، هيّا كل وتهيّأ فنصري ينتظرنا بعد أقلّ من ساعتين.

ونهض سهيل الذي كان نائمًا بالبيجاما على العكس من غسّان الذي يفضّل النوم بالدشداشة.

عندما دخل سهيل إلى الحمّام فوجئ بعدد من الزجاجات المعبّأة بالماء مرصوفة على حافّة البانيو، فخرج ليسأل غسّان عنها:

- من حسن حظّك أنّ هناك ماء في الحمّام هذا اليوم، ولكنّه قد ينقطع، وهذه الزجاجات نلجأ إليها عندما يحصل ذلك.

عاد ثانية إلى الحمّام بعد أن استخرج أدوات الحلاقة من حقيبته، لكن غسّان اقترح عليه أن يفطر أوّلاً حتى لا يبرد الشاي.

قال سهيل كأنّه اكتشف شيئًا:

- أتدري يا غسّان بأنّك لطيف جدًّا؟ ولم أزعل منك حتى عندما مسحت بي الأرض في مهرجان الأمّة عندما سألتك عن حقيبة الأستاذ نزار؟
- لقد فاجأتني بسؤالك ولذا ثرت!

لم يترك غسّان شيئًا إلاّ ووضعه على الطاولة، من البيض إلى عدّة أنواع من الجبن فاللبنة والزعتر والزيتون إضافة إلى الخبز.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لكن سهيل صبري اكتفى ببيضة وبضعة حبّات من الزيتون ثم أكمل فنجان الشاي، ونهض ليحلق فتبعه صوت غسّان:

- هناك ماء كثير حتى إذا أحببت أن تستحمّ!

* * *

غادرا البيت باتّجاه صربا حيث مكتب نصري الأسمر الذي كان في انتظارهما، وكان القائم بالأعمال قد تلفن لغسّان عندما علم بوجود سهيل وأراد أن يسلّم عليه، وقد اعتذر سهيل من دعوته للغداء إذ إنّه لا يستطيع التحكّم في وقته، ولكنّه وعده بأن يلبّي دعوته للعشاء إذا بقي ليلة أخرى.

قال غسّان:

- سأوصلك إلى مكتب نصري وأعود، لن أرافقكما إلى منزل يارا إذ لديّ مواعيد يجب أن ألبّيها لأمور تتعلّق بالعمل، ولكن بعد أن تنتهيا تلفن لي إلى المكتب أو البيت.
- حاضر.

* * *

عاد غسّان مجهدًا، فالزحام يكون على أشدّه في ساعات النهار الأولى حيث استغرق ذهابه وإيابه قرابة الساعتين.

عندما وصل أخبرته السكرتيرة أنّ القائم بالأعمال سأل عنه فذهب إليه.

بادره القائم بالأعمال بالقول: أعتب عليك لأنّك لم تخبرني بمجيء الأستاذ سهيل صبري حتى أذهب إلى الميناء لاستقباله فهو مدير عامّ في الدولة!.

- كان قدومه مفاجئًا لي، ويبدو أنّه لم يَرِد إخبار أحد بهذه الزيارة التي لها غاية محدّدة.

وهزّ برأسه:

- أعرف، أعرف.

كان غسّان على معرفة مسبقة بالقائم بالأعمال إذ كان من روّاد مقهى البلدية ببغداد سنوات الستينات، وكان يقصده للدراسة إذ إنّ المقهى من السعة بحيث خصّص ركن منه لطلبة الجامعة. وبعد أن أتمّ تعليمه عيّن في وزارة الخارجيّة. وعمل في أكثر من بلد عربي

قبل أن يعيّن قائمًا بالأعمال وهو المنصب الأعلى للتمثيل الدبلوماسي بين العراق ولبنان بعد نسف مبنى السفارة العراقيّة ومقتل السفير تحت أنقاضها مع عدد من الدبلوماسيّين والمواطنين اللبنانيّين والعراقيّين.

وقد تعهّد حزب الكتائب ذو النفوذ القوي بحماية السفارة العراقيّة إذا ما تمّ نقلها إلى المنطقة الشرقيّة، وهكذا تحوّل منزل السفير العراقي في بعبدا والذي كان مملوكًا للدولة العراقيّة إلى مقرّ للبعثة الدبلوماسيّة.

وكان هذا المبنى على صغره محاطًا بالحراسة الشديدة سواء من قِبَل الحرّاس الذين بُعثوا من بغداد أو أولئك الذين عيّنتهم الحكومة اللبنانيّة من قوّات الدرك، ولا يستطيع أحد دخول السفارة ما لم يمرّ بالدرك اللبناني أوّلاً ومن ثم بحرّاس السفارة من العراقيّين الذين يرتدون الملابس المدنيّة العاديّة.

وكان يلذّ لغسّان كلّما هَمّ بمغادرة السفارة ظهرًا باتّجاه بيته أن يمازح الحرّاس:

- ها شباب، ماذا تقولون؟ هل تضمنون وصولي إلى بيتي حيًّا؟.

فيردّ عليه بعضهم:

- الحفظ من الله، رافقتك السلامة.

كان موقع السفارة المفتوح هذا وقربها من مواقع أساسيّة مثل القصر الجمهوري ووزارة الدفاع يجعلها عرضة للقصف، وإن حصل هذا ليس هناك ملجأ ملحق بها سوى سرداب رطب استعمل مخزنًا تصول فيه الجرذان.

وقبل ثلاثة أيّام فقط سقطت قذيفة على إحدى كابينات الدرك فقتلت اثنين منهم كانا فيها يتناولان طعامهما.

عاد غسّان إلى مكتبه بعد أن أمضى عدّة دقائق في مكتب القائم بالأعمال، وبدأ بتقليب كدس الصحف والمجلاّت التي تصدر في لبنان كل يوم وباتّجاهاتها المختلفة، وهو أكبر كمّ من الصحف يصدر في بلد عربي رغم أنّ لبنان قد بدأ يفقد تأثيره الإعلامي بعد اندلاع الحرب فيه، وهجرة عدد من المجلاّت لتصدر من لندن وباريس.

وكان غسّان أثناء تقليب هذه المطبوعات يؤشر ما يتعلّق بالعراق فيها، ومن ثم يسلّم الجرائد إلى سهام سكرتيرته التي اكتسبت الخبرة في هذا العمل نتيجة ممارستها له عدّة سنوات.

هذه الفتاة نجت بأعجوبة من حادث تفجير السفارة إذ بقيت يومين تحت الأنقاض. وقد اكتشف عمّال الإنقاذ أنّها ما زالت حيّة لذا حملوها إلى المستشفى وهي غائبة عن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الوعي، ولكنّها بدأت تتعافى تدريجيًّا وعندما فتحت عينيها وجدت نفسها ممدّدة في غرفة العناية المركزّة بمستشفى الجامعة الأميركيّة.

ولكنّ الحادث تركها ضامرة شاحبة، مرتعدة الملامح، تنفجر بالبكاء لأبسط الأسباب، ويحصل لها أحيانًا وهي واقفة أمام غسّان لتستلم منه معاملة ما أن تختضّ فجأة كمن صعقه تيّار كهربائي.

وسهام هذه من عائلة عراقيّة هاجرت إلى بغداد بعد أن كانت تقيم في إحدى قرى الموصل نتيجة للاختلاطات السياسيّة التي عاشها العراق بُعَيْد ثورة تمّوز عام 1958.

ومن بغداد هاجرت ثانية إلى لبنان واستقرّت فيه، و لم تقطع سهام علاقتها ببلدها لذا تعاقدت للعمل موظّفة محلّيّة لدى سفارته فيه.

بعد أن فرغ من عمله غادر مبنى السفارة متوجّهًا إلى بيته في انتظار مكالمة من نصري وسهيل.

و لم ينتظر طويلاً حتى هاتفه نصري ليعلمه بأنّهما سيتناولان طعام الغداء مع أسرة يارا.

أجابه:

- عندما تعودان أنا في البيت، سأظلّ أنتظركما، تلفن لي.

وفي حوالى الساعة الخامسة عادا، ولكن من أجل حمل حقيبة سهيل إذ قرر المغادرة في الباخرة التي تنطلق حوالى الساعة الحادية عشرة ليلاً نحو لارنكا.

كانت ملامحه تحمل الجواب بأنّه لم يصل إلى نتيجة مع أسرتها.

قال غسّان مخاطبًا نصري:

- إذا أحببتما اسبقاني بسيّارتك، وسألحق بكما إلى مكتبك.

ثم توجّه إلى سهيل بالسؤال:

- ولكن لِمَ العجلة؟ ابق هذه الليلة؟

ردّ بكثير من الانكسار:

- ولماذا أبقى؟ أفضّل الذهاب، مهمّتي انتهت.

* * *

جلسوا في مطعم «كريب ري» لقربه من ميناء جونيه بعد أن أنجزوا شراء تذكرة الباخرة، وردّد سهيل:

- سأصعد إلى الباخرة وأنا سكران، هذا أفضل لي، لقد حجزت كابينة من أجل أنام، من عادتي أن أقابل الفشل بالنوم، وعندما أصحو أردّد المثل العراقي الشائع الذي يقال أمام هذه الحالات ألف عمامة ستنقلب، نعم، ألف عمامة ستنقلب، ولكن كيف؟ هذا ما سأجيب عليه بعد أن أسكر وأنام متأرجحًا في مياه البحر الأبيض المتوسّط.

وعندما نهض سهيل إلى التواليت، قال نصري قبل أن يسأله غسّان:

- هذا الزواج لن يتمّ مطلقًا رغم أنّ أسرتها اهتمّت به وأولمت له بشكل احتفائي.. ومع هذا اعتذروا له بلباقة، حتى يارا اعتذرت وكأنّها صحت من غفوة أو سكرة أخذتها.

علّق غسّان:

- أنا لا أؤمن بهذه اللوثات العاطفيّة الصاعقة. الحبّ معايشة واكتشاف وأنت عاشق كبير يا نصري، أقول هذا رغم أنّ كل علاقاتي العاطفيّة بدأت بصعقة، هزّتني هزًّا ولكنّها لم تمتني بل قل إنّها أحيتني، مرّات أكون مخدّرًا حتى تأتي امرأة فتصعقني ولكنّني أصعقها كذلك والبادئ أظلم.

طرح نصري ظهره على مسند الكرسي وهو يوجّه السؤال إلى غسّان:

- كيف حنان؟.
- عظيمة.
- ها أنت قد فرغت من وأد امرأة في قلبك لتحلّ أخرى محلّها!.
- ومن قال لك إنّني قد وأدت رانيا؟.
- هذا ما يبدو عليك مع حنان؟.
- ربّما، أو آمل ذلك.

وكان سهيل قد عاد إلى مكانه، وبدا وكأن لا رغبة له في الكلام، وحاول غسّان أن يداعبه:

- عليك أن تشكرني لأنّني حافظت على عفافك هذا إذا كان لديك عفاف فأنا غير متأكّد منه. لأنّني أخذتك معي ولم أتركك تذهب مع نصري، فهو في أمور الفراش نفسُه مفتوحةٌ.

وهنا انطلق سهيل بالضحك ممّا جعل غسّانًا يقول:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- لدينا صديق اسمه مروان ذهب مرّة مع نصري لإحياء أمسية شعريّة في بكفيّا، واضطرّ للبقاء فيها بسبب القصف القوي، وكان لدى الصديق الذي استضافهما غرفة نوم واحدة مخصّصة للضيوف وفيها سرير مزدوج واحد، وقد سأل مروان نصري الأسمر إن كان سينام معه في الفراش نفسه فأجابه بنعم، فما كان منه إلاّ أنّ قال في هذه الحالة سأنام من جهة الحائط وسألصق مؤخّرتي به فأنت صاحبي وأعرف أنّك دنيء.

وعادوا يقهقهون ممّا جعل نصري يقول:

- وكيف يثبت أنّ مؤخّرته قد سلمت منّي تلك الليلة، ما هو دليله؟.

- 42 -

لا يدري غسّان كيف حفظ هذا المقطع القصير من قصيدة لأنسي الحاجّ، وصار يردّده أحيانًا بصوت مسموع وأخرى يتمتم به، وهذه إحدى عاداته، يحفظ مقطعًا من نصّ ما حتى يأتي مقطع من نصّ آخر فيحلّ محلّه.

يقول المقطع:

- اختارك امرأة طموحي وامرأة الهياري.

ويذكر أنّه حفظ مقطعًا آخر له من القصيدة نفسها قبل أشهر ويقول:

- وكوحش يرعى تحت الحلق

أتدمّر

وفيك أُدمّر كل امرأة

ولم يصدّق غسّان أنّ أنسي الحاجّ بحجمه الذي يشبه حجوم الصينيّين بقصره ونحافته من الممكن أن يخبّئ كل هذا الحماس نحو النساء، الحماس الشهرياري القاتم.

لكنّها حالة يقع فيها الرجل ولكن ليس مع كل النساء بل مع امرأة معيّنة.

هناك امرأة نحبّ أن نتوسّد كتفها وأخرى نودّ اغتصابها والتلذّذ بعذابها وألمها.

تمتم بهذا المقطع ثم دسّ يديه في جيبي بنطاله وغادر شقّته ومضى.

كانت فيه طاقة على المشي، لا يعرف إلى أيّ وجهة. فالمدينة على سعتها مغلقة، تخبّئ خوفها وخذلانها.

لكن هذه الرغبة في إعلان فرحه بشيء ما سيأتي سرعان ما يردمها الخوف من المجهول، ذلك المتربّص في زاوية ما، ولا يعرف متى ينقضّ عليه، وما هي وسيلته؟.

مرّة فكّر غسّان بأن يرفع الحذر، وإن اصطادوه في مفترق طريق وحشروه مع مواطنين آخرين ينتزعوهم من أسرهم وأعمالهم وذهبوا به إلى معسكر التدريب ليحوّلوه إلى حامل رشّاش في الجيش الشعبي، لن يهمّه الأمر.

إنّ المهمّ هو أن يتحرّك الماء الراكد، أن يُزاح هذا الأسن الذي ينام على قلبه.

قبل فترة جاءت حنان عوّاد ومعها إياد الموسى والنقيب الناقب النقوب الثاقب الثقوب رعد الطويل، وكل هذه الصفات بدأت بتخريج في لحظة انتشاء من نصري الأسمر، وما دام رعد الطويل هو النقيب إذن ومواصلة لصفاته الحميدة أصبح النقيب النقوب فوجد فيها غسّان فرصته لإضافة ألقاب أخرى، ومرّة قال له:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- إلاّ حرف الميم لن أضيفه فأجعلك النقيب المنقوب مثلاً أنت نقوب فقط!.

فيهبّ بشتائمه:

- هذا العكروت نصري الأسمر لا بدّ من قصيدة هجاء ثانية له، بيده رسم نهايته فلينتظر منّي القصاص الشعري.

كان النقيب رعد الطويل اسمًا على مسمّى، ولكن هناك نقيضه حيث يذكر غسّان أنّه ذهب مرّة بصحبة صحافي لبناني عُرِفت عنه خفّة دمه إلى فندق الكارلتون ليتعشّيا ويشربا كأسًا من العرق.

كان هذا الصحافي مراسلاً مقيمًا في الخليج لإحدى الصحف اللبنانيّة، ومهمّته ضبط الاتفاقات وخاصّة ما تعلّق منها بالإعلانات والتوزيع مقابل نسبة مئويّة، وكان يقوم بزيارات متباعدة إلى بيروت حيث بقيت أسرته تُقيم فيها، وبعد أن ثمل سأل النادل وكان طوله حوالى المتر وبضع سنتمترات:

- من أيّ عائلة أنت؟

فردّ النادل:

- نخلة.

فتطلّع الصحافي إليه وهو يسأله باستغراب:

- هل أنت متأكّد؟

وبتردّد أجاب:

- هذا هو اسمي يا أستاذ.

- أنت نخلة؟! كان من الواجب أن يكون لقبك أطول حتى يتلاءم مع هيئتك!.

وفهم نخلة النكتة فضحك وانسحب، بينما ظلّ الصحافي يحرّك أصابعه ويشير بيديه:

- نخلة مرّة واحدة والرّصيف أعلى من هامته؟.

لكن رعد الطويل اسم على مسمّى وعندما يمشي مع إياد الموسى فتبدو المفارقة، إذ يبدو جواره مجرّد طفل صغير يرافق والده في نزهة؛ وعندما يرغب في محادثته على انفراد فإنّه يضع يده الممتدّة على كتف إياد وهذه عادته مع أصدقائه الآخرين، فيهبط هذا الكتف ممّا يضطرّ إياد لأن يرجوه:

- هل من الممكن أن ترفع هذا الجذع عن كتفي؟.

حتى قصائد النقيب رعد الطويل عموديّة وطويلة كالمعلّقات، تحتاج إلى ساعة على الأقلّ لسماع مقدّمتها فقط، كأنّه ذلك الشاعر الموريتاني الذي عرفه المربد حيث النفس الطويل.

إنّه متجانس في كل شيء، وكذلك إياد الموسى الذي عُرف بمقالات لاذعة قصيرة يكتبها على صفحات إحدى المجلاّت الأسبوعيّة، كان العشرات من قرّاء هذه المجلّة يتابعونها وقد أطلع غسّانًا على رسائل من قارئات وقرّاء يذكرون له أنّهم يقرأون المجلّة من الصفحة الأخيرة حيث مقالته.

إنّ المواطن المتعب الحائر في معيشته وسط بلد تأكله الحرب وتعطّل مساره وتجوّع أبناءه بحاجة لهذا النوع من الكتابات، لا سيّما وأنّها لا تبتعد عن الهمّ العامّ بل هي في صلبه.

وبإمكان من يقرأ مقالة إياد أن يسترخي ويمضي قيلولته هانئًا.

أمّا قصائد النقيب النقوب فهي إن لم تتسبّب في الإمساك والأرق والكوابيس، فإنّها ستتسبّب في إسهال لا يتوقّف إلاّ بعد حفنة من حبوب الدواء الكابحة.

عندما أتوا كان مجيؤهم فرحته الكبرى.

جاء النقيب بقصيدة عصماء، يجرجر وراءه أذيالها الطويلة، وقصف بها الجمهور قصفًا بصوته العريض الذي لا يحتاج إلى مكبّر صوت! فكيف إذا وُجد هذا المكبِّر!!.

وقد جاءت حنان عوّاد بقصيدة أيضًا، كانت قد بعثت بأبياتها الأولى له وهي تقول في تذييلها:

- أنت «فاوي» ولا بدّ أن أُحرّرك منهم، لا يمكن أن تبقى محتلاً موثقًا إلى الأبد.

وعندما حضرت قالت له:

- لن أطلعك عليها، ستسمعها كما يسمعها بقيّة الجمهور، أريد أن أعرف ردّة فعلك فسيكون هذا أهمّ بالنسبة لي.

واستجاب لما أرادت.

كانت قصيدتها حلمًا مثلما هو حضورها، هذه المرأة التي يأكلهم الحسد لأنّها تحبّه، وتقطع المسافات من أجل رؤيته ما دام هو رهينتهم.

كان لها الفاو، بغداد، الناصريّة، بل كان هو العراق.

تنفتح قصيدة حنان عوّاد من الخاصّ على العامّ، من جرح قلبها إلى جرح الوطن الذي يكون أحيانًا العراق، وأخرى لبنان، فهما يتمازجان لا في قصيدتها بل في ضميرها.

من منفى إلى منفى، من منفاها في وطنها إلى منفى الرجل الذي تحبّ في وطنه، إلى منافي الآخرين المتوسّلين على أبواب السفارات حالمين بتأشيرة تبعدهم عن فداحة الكابوس.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لكن أصحابه هؤلاء سرعان ما سافروا، مرّوا به وغادروا، مرّ حلم حنان عوّاد عابرًا، لقد استقبلهم في المطار هو وعدنان العزيري، وما إن بدأ الركّاب بالظهور لتأشير جوازاتهم حتى أشار عدنان إلى رأس رعد الطويل الذي بدا وكأنّه يطوف فوق الرؤوس نظرًا لطول قامته:

- انظر ذاك رعد الطويل، ما شاء الله على طوله، لا أدري كيف خرج من فتحة أمّه السفلى؟
- ولكنّه لم يخرج وهو بهذا الطول؟ ثم لماذا تستعمل مفردات مهذّبة؟ فتحة أمّه السفلى؟
- طبعًا أنا مهذّب، فأنا ربّ أسرة وليس صعلوكًا مطلّقًا مثلك؟ تستعمل المفردات التي يرفضها قاموسي المهذّب والمشذّب.
- أنت خوش مهذّب مشذّب:

وظهر إياد الموسى وكأنّه كان مختبئًا وراء رعد الطويل وهو يحمل بيده حقيبته الصغيرة رفيقة رحلاته، حيث يختصر الثياب ببنطلون الجينز الذي يندسّ فيه وبعض القمصان التي لا تحتاج إلى الكيّ والملابس الداخليّة التي يدسّها في الحقيبة، حيث لا أدوات حلاقة فلحيته طليقة ولذا يكتفي بحمل مقصّ صغير يشذّبها به، أمّا شعر الرأس فلا يحتاج المشط إذ انحصد أغلبه وهو لم يبلغ الثلاثين بعد.

كانت عينا غسّان وقتذاك تبحثان عن حنان وعندما شاهدها لوّح لها بيده. وقد حضر للمطار بعض موظّفي المراسم الذين أخذوا على عاتقهم مهمّة تأشير الجوازات، وبدأ العناق وسط غمزات إياد الموسى من رعد الطويل، وبدا وكأنّه كان يناكده طول الرحلة من لارنكا إلى بغداد.

وأخذ غسّان يردّد:

- نقيبٌ نقوبٌ ناقبُ الوعدِ مُخلفا.

فهتف رعد:

- كدت أخنق هذا الفأر الذي يتحرّش بفيل، ولكنّني رأفت بحاله، لم يعطه الله أيّ شيء طويل غير لسانه؟.

وعقب إياد بدعابة:

- أمّا أنت فكلّ شيء فيك طويل عدا...

وكانت حنان واقفة تبتسم متظاهرة بعدم سماع كلامهم الفاضح، وقد اعتادت من غسّان أن يرجئها إلى الأخير دائمًا ليتفرغ لها.

هرع إليها وضمّها إلى صدره وشمّ عبقها ونداها حتى عبّأ بهما صدره.

كانت تضحك بفرح في البداية لكن سرعان ما انقلب فرحها إلى نحيب سكبته على صدره، وقد بدا التأثّر على عدنان العزيري الذي تحوّل ليسلّم عليها وقبّلها على خدّيها وهو يرجوها بأن تكفّ عن البكاء، فهذا القروي المتخلّف سليل أمّ هاون غسّان العامري لا يستحقّ أن يبكي عليه أحد.

واقترح عدنان بأن يُركب معه حنان وغسّان، أمّا رعد وإياد ففي سيّارة المراسم حيث قال أحد الموظّفين:

- السكن في فندق ميليا منصور.

ولكن قبل أن يتوجّه رعد إلى السيّارة قال لغسّان:

- سأخبرك بأمر، ولكن إيّاك أن تشهّر بي فقصيدة الهجاء جاهزة وسأجعلها على كلّ لسان، أفهمت؟.

- وما هو؟

- أجريت عمليّة بواسير قبل مجيئي، لقد اقتحموا عفاف إستي بمباضعهم وملاقطهم وأصابعهم؟.

- إذن في هذه الحالة يحقّ لي أن أدعوك النقيب المنقوب؟.

- هذا هو واقع الحال، لقد نقبوني وثقبوني، نقبهم الله وثقب مؤخّراتهم.

وعاد غسّان للتعليق:

- استعمل كلمات مهذّبة ومشذّبة، قل استأصلوا زوائد لحميّة من جسمي، هكذا كتب لي صديقي جليل الواسطي من باريس فأجبته برسالة: صار معلوم، وعرفنا هدف الاستئصال وكلّنا لها.

قال عدنان وهم يغادرون باتّجاه سيّارته التي أركنها في مرآب المطار:

- يزداد يومًا بعد يوم عدد العظماء الذين يركبون هذه السيّارة التي لا بدّ أن توضع في متحفي الخاصّ بعد رحيلي، ولكنّ الأهمّ من السيّارة مالكها الذي هو أنا!.

ضحكت حنان وقد أَلِفت دعاباته:

- ومن العظيم الجديد الذي سيركبها؟.

فأجاب على الفور:

- بل امرأة عظيمة. هذه المرأة اسمها حنان عوّاد، شاعرة رائعة وفتاة لبنانيّة متحضّرة ربّما تفلح في تهذيب هذا القروي الأبو هاوني نسبة إلى قريته أبو هاون المسمّى غسّان العامري.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان حديث الدعابة هذا قد جعل حنان تضحك من قلبها على طول الطريق.

توجّهت لعدنان بالسؤال:

- هل تتناكدان هكذا كلّ يوم؟.
- بل قولي كلّ ساعة وكلّ دقيقة، فهل تتصوّرين أديبًا كبيرًا مثلي درس أدب ديستويفسكي وتولستوي ويسينين وأخماتوفا ومايكوفيسكي، وشرب من منهل الشيوعيّة العذب، منابعها، يمكن أن يفيد شيئًا من قروي متخلّف كغسّان؟.

وعندما وصلوا الفندق كان رعد الطويل وإياد الموسى قد سبقاهما وأتمّا تسجيل جوازيهما، وقد أعطيت لحنان غرفة مجاورة لهما.

نظر عدنان في ساعته وقال مخاطبًا حنان عوّاد:

- الحمد لله على السلامة، هذا غسّان سأتركه معك، أريحيني منه، فقد زهقت منه، أمّا أنا فسأذهب ونتقابل هنا مساء، كارثتي هناك ستقلب الدنيا إن تأخّرت، لديها قائمة موادّ عليّ شراؤها، دسّتها في جيبي وهي تحذّرني من النسيان؟.

تساءلت حنان:

- كارثتك؟.
- نعم كارثتي، ماذا تريدينني أن أسمّي زوجتي؟ سعادتي؟ نعيمي؟ ألعن ذلك اليوم، ما الذي جاء بي؟ كنت هناك أعيش مثل الأوادم، نسوان وفودكا وكافيار وثقافة؟ ماذا هنا غير وجه الأستاذ غسّان؟.

ثم انسحب بعد أن ألقى من غضبه عدّة مفرقعات.

وهنا حضر موظّف المراسم وقال لحنان:

- غدًا في التاسعة والنصف صباحًا سنتوجّه بالطائرة إلى البصرة لنزور الفاو وتكون عودتنا مساء اليوم نفسه، وبعد غد في العاشرة صباحًا يكون موعد المهرجان الشعري في قاعة الرشيد أمام الفندق، عبور الشارع فقط، هذا هو البرنامج.

كان لرعد الطويل عدد من الأصدقاء اللبنانيّين المقيمين ببغداد وسرعان ما جاءه أحدهم ويبدو أنّه على علم بموعد قدومه، وقد استأذن بالذهاب معه.

وبقي إياد وحنان وغسّان في الفندق حيث كانت الحرارة في الخارج عالية، ومع هذا اقترحت حنان عليهما الخروج قائلة:

- في لبنان نحن محرومون من المشي، لنخرج.

فلبّيا رغبتها، استداروا يمينًا ثم عبروا الجسر. وقفت حنان مستندة إلى السياج وهي تتطلّع إلى دجلة والأنوار المنعكسة عليه، تنفّست وهي تؤرجح ذراعيها:

- يا الله! ما أجمل كل هذا! مدينة عظيمة كبغداد كيف يجرؤ أحد على كرهها! أنظرا إلى دجلة، هناك في لبنان حُرمنا من رؤية البحر فقد اكتسحته الأبنية الحجريّة، أتمنّى أن أكون سمكة في دجلة.

وعلّق إيّاد:

- سيصطادونك ثم يشوونك «سمك مسكوف» ويلتهمونك مع العرق.
- سأظلّ في الأعماق بحيث لا تصلني شبكة صيّاد! أُحبّ الحياة وسأتشبّث بها.

وهنا أمسكت بذراع غسّان فكأنّه بالنسبة إليها الحياة التي تحدّثت عن حبّها لها ليواصلا مع إياد عبور الجسر.

ثم دخلوا إلى شارع الرشيد الذي يخلو من المارّة إلاّ عدّة أشخاص متباعدين، ولكنّ الاكتظاظ كان في جهة مقهى المربعة والأسواق المجاورة لها أو تلك التي تقع خلفها.

قال غسّان:

- هذه المنطقة أرض مصريّة مقفلة، كلّ ما فيها مصري ولو أنّنا اجتزناها للفتنا الأنظار وأصبحنا مثار تساؤل.

وانتبهت حنان إلى أنّها ترتدي تنّورة قصيرة وقالت:

- لكن هل تضمنان سلامتي من التحرّشات وأنا أُظهر ما فوق ركبتيّ؟.

علّق إياد:

- ربّما يقارعهم غسّان ويكسر فكًّا أو ثلاثة!.

فردّ على تعليقه:

- طبعًا، طبعًا، كم كسرت من فكوك وأضلع ورؤوس؟.

وربتت حنان على صدره وهي تردّد:

- يا هلا بالبطل الرياضي!.

وتخلّوا عن فكرة دخول المنطقة المكتظّة التي تعجّ بالرجال فقط، وواصلوا طريقهم باتّجاه الباب الشرقي ومن ثم عبروه واستداروا بعد ذلك يمينًا متوجّهين نحو الفندق.

قال لهما غسّان:

- لو أنّنا انعطفنا شمالاً، أتدريان ماذا يحصل لنا مثلاً.. مثلاً؟.

ورفعا إليه وجهيهما في انتظار ما يتفوّه به:

- مجرّد رشقة صغيرة من جندي لا يعرف شيئًا إلاّ تطبيق الأوامر، هذه الأوامر تقول له إرمِ كلّ من يتوجّه لهذه الجهة، فقد يكون عميلاً مندسًّا يريد تفجير

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مباني الرئاسة، وأنت يا إياد لديك الملامح المقنعة لهذا الأمر متمثّلة باللحية والنظّارات الطبّيّة!

وتساءلت حنان:

- إلى هذا الحدّ؟.

- وأكثر.

ثم بعد فترة صمت توجّه غسّان إلى إياد بالسؤال:

- كم سريرًا في غرفتك؟.

- وأشار بإصبعيه:

- اثنان.

- عظيم، إذن سأبقى معك لأنّني سأسافر معكم إلى الفاو، فالدعوة مفتوحة لكلّ من يرغب من الأدباء والصحافيّين، وقد سبق لي أن كتبت كلمة عنها بعد زيارتي الأولى لها.

دخلت حنان إلى غرفتها بينما رافق غسّان إيادًا وهو يقول له مداعبًا:

- معي أنت، في مأمن.. رغم أنّني سأكون مضطرًّا للنوم بملابسي الداخليّة!.

وأضاف إياد بعد أن فرغ من ضحكته:

- ومن حسن حظّك أنّ لديّ أدوات حلاقة للاستعمال مرّة واحدة، وقد جلبتها معي لغرض الحصاد الداخلي، ولكنّني سأتخلّى عنها لك حتى تظهر بمظهر لائق ورائق.

تلفن غسّان لحنان وسألها إن كان ينقصها شيء، فأجابت بلا. ثم عاد ليسألها إن كانت راغبة في النوم أم ما زالت مستيقظة، فأجابت:

- ما زلت يقظة، إن أحببتما المجيء فتعالا.

وذهبا إليها، كان التليفزيون يعرض شريطًا عن معارك الأسبوع، لذا سرعان ما أطفأته، ثم سألتهما:

- ما رأيكما بفيروز؟.

قال غسّان:

- وهل يُسأل المرء عن فيروز؟.

- حسنًا.

ووضعت شريطًا حملته معها ووضعته في آلة التسجيل الصغيرة التي لم تكن تفارقها أبدًا في كلّ حركاتها، كأنّها جزء من أدوات زينتها البسيطة.

تقول كلمات الأغنية الفيروزيّة النادرة التي كان سماع غسّان وإياد لها مفاجئًا، حيث لم يتسنّ لهما التعرّف عليها من بين أغاني فيروز المعروفة.

أغنية زرعتهم في الإصغاء الصامت، حيث التمّ كلّ واحد على نفسه، كأنّه يبحث عن بقايا جراح أو ندوب علّه يقدر على معالجتها:

- رجعتَ في المساء
كالقمر المهاجرْ
حقولك السماء
حصانك البيادرْ
أنا نسيت وجهي
تركته يسافرْ

ووجد غسّان نفسه يهتف:

- الله يا رائعة، يا فيروز.

بينما تواصلت الأغنية:

- سافرتْ البحار
لم تأخذ السفينه
وأنت كالنهار
تشرق في المدينه
والرِّيح تبكي تبكي
في الساحة الحزينه

حتى تصل إلى المقطع الذي تتألّق فيه كلمات وصوتًا:

- أعرف يا حبيبي
أنّك ظلّ مائلْ
وأنّ أيّامك لا تقيم
وكالمدى تبعد ثم تبعدْ
وتحت سقف الليل والمطرْ
وبحضور الخوف والأسماء والعناصرْ
وكلّ ما له في الكون اسم
أُعلن حبّي لك واتّحادي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بحزن عينيك
وأرض الزهر في بلادي
وينزل المساءْ

بهذه الضربة اللغويّة والموسيقيّة التي تألّق فيها عاصي ومنصور الرحبانيّان ومنحتها الرهبة والجلال حنجرة فيروز انتهت الأغنية.

ظلّوا منكّسين رؤوسهم، كأنّ غيبوبة أخذتهم، ولم يستطيعوا استرداد صحوهم إلاّ بعد دقائق.

علّقت حنان:

- ألم تنتبها إلى التمرّد على وحدة القافية؟.

أجاب إياد:

- أكيد، لكنّ السامع لا يتساءل عن هذا، فللموسيقى قافيتها.

وجاء صوت غسّان ليقول:

- ومن هنا جاء حماسي إن لم أقل يقيني بمستقبل قصيدة النثر الحقيقيّة، تلك التي تخلق وزنها الخاصّ بعيدًا عن الطبلة والناي الشرقيين!.

وتمتم غسّان بعد ذلك في سرّه وهو يسترجع ذلك السماع الأوّل لهذه الأغنية الفذّة وظروفها وما أحاط بها، كيف كانت حنان تصغي، وكيف كان يجلس إياد، وما الذي حلّ به هو؟.

وأراد أن يصرخ:

- لكن يا حنان لم ينزل علينا المساء مرخيًا هدوءه وطعمه، بل نزلت أحزان الليل، كوابيسه، هلعه، شياطينه.

وتذكّر كيف بدأت حنان تنتحب وكيف تركهما إياد منسحبًا دون أن ينبس بكلمة.

اقترب منها غسّان وأخذها إليه، وأخذ يشرب الدمع من أهدابها الطويلة، كأنّه ينسل شعرها بشفتيه اللتين واصلتا رحيلهما الساخن نحو شفتيها، ثم نحو كلّ مواقع الفتنة في هذه المرأة التي اقتربت منه واقتربت حتى أصبحت مرامًا له وحلمًا، أصبحت امرأة الآتي والحاضر ولم تعد امرأة الذي مضى. فما مضى كانت فيه وجوه كثيرة، حاصره وهصره زمنًا وجه رانيا خليل، لكن حنان عوّاد محت ملامحه بهدوء فأصبح وكأنّه لم يكن قمره ذات عتمة.

- متى تخرج؟ لا بدّ أن تفعل هذا، أخرج بأيّ وسيلة؟.

ولم يجب:

- عليك أن تخرج، اسلك أيّ سبيل، إنّك تدمّرني بما أراك عليه؟.

- الأبواب مغلقة يا حنان، صدّقيني!.

وعاد وضمّها إليه. كان يشمّها ويشمّها وهي مندسّة بين ذراعيه غارسة وجهها في شعر صدره.

باح لها:

- هل تصدّقين إن قلت لك بأنّني أحسدك!.

- تحسدني؟!.

- نعم، لأنّ بلدك ورغم كل ما مرّ به لم يتحوّل إلى سجن كهذا السجن الذي نحن فيه، حيث لا يعرف أيّ نزيل متى تنتهي مدّة سجنه؟ بل ولا يعرف لماذا هو سجين؟ إنّني أدور وأدور حتى عقد العمل الذي جئت به من عماد الغانم لأدير دار النشر التي يملكها قد أُلغي، وقد أسند المهمة لآخر. في آخر زيارة له لبغداد قال لي: هي عجلة عمل ويجب أن تدور وقد اخترت غيرك! وهنا يأتي تساؤل جديد هو لو قُيّض لي الخروج يومًا فإلى أين أمضي وأنت ستغادرين إلى أميركا؟.

هنا قالت له وكأنّها تكشف سرًّا:

- فكّرت بأن ألحق بك إلى هنا وأبقى معك وليكن ما يكون.

قال لها معترضًا:

- أبعدي هذه الفكرة عن رأسك، أتتصوّرين أنّني سأكون أنانيًّا وأجعلك تحت رحمة هؤلاء؟.

ابتلع ريقه واسترسل:

- في حالتنا يكفي أسير واحد، وأنت يجب أن تبقي طليقة، اذهبي إلى أميركا! ودعيني أندبك شعرًا هنا.

ثم انسحب بعد أن طبع على جبينها قبلة وتمتم:

- تصبحين على خير، لا بدّ أنّ إياد صاحٍ الآن ينتظرني.

***

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت الطائرة التي تقلّ مجموعة من الأدباء والشعراء والصحافيّين العرب والأجانب ومرافقيهم طائرة نقل عسكريّة، إذ يتعذّر على الطائرات المدنيّة أن تقوم بهذه المهمّة لا سيّما وأنّ حرب الصواريخ على المدن آخذة في الاتّساع، كأنّ هناك ساديّة عجيبة تدفع بكلّ طرف لأن يدمّر ما يستطيع تدميره من منشآت ومدن الطرف الآخر.. إنّها حرب طالت، ولا تبدو هناك علائم تؤكّد أنّها على وشك أن تتوقّف، وأمام هذه الحالة بدا وكأنّ هناك حالة هستيريا تتمثّل في التدمير.

انطلقت الطائرة من مطار المثنى العسكري الذي كان المطار المدني من قبل، وعندما شيّد المطار الفخم غربي المدينة، وكالعادة حمل اسم رئيس الدولة شأنه شأن شوارع وجسور ومحلّات ومدن، فأصبحت مدينة الثورة، مدينة له وهي المدينة التي تضمّ أكبر تجمّع للنازحين من الجنوب والوسط، ولعلّ إطلاق اسم رئيس الدولة عليها هو إيحاء بأنّها مؤيّدة له رغم أنّ الأحداث تقول غير هذا، لذا وضعت خطّة في إعادة تهجير سكّانها إلى مدنهم الأولى التي نزحوا منها، ولكن نظرًا لظروف الحرب وكثرة المجنّدين الأنفار من أبناء الوسط والجنوب فإنّ الخطّة أُرجئت، لكنّها تنفّذ في حالات من أجل أن لا تخلق ردّ فعل قويًّا قد يتسبّب في إحداث إرباك في جبهات الحرب.

جلس غسّان وحنان على مقعدين متجاورين وربطا حزام الأمان، وأمامهما جلس رعد الطويل وجواره إياد الموسى الذي بدا وكأنّه يتخبّأ تحت ظهره العريض الذي احتلّ ثلاثة أرباع المساحة ولم يبق لإياد إلاّ الربع.

علّقت حنان وهي تتأمّلهما:

- مسكين إياد يبدو وكأنّه ولد صغير في حماية أبيه.

ورفع غسّان صوته:

- أكيد فالنقيب أبونا، وإلاّ لماذا هو نقيب يمثّل عدّة آلاف من المعلّمين «المعتّرين»؟.

والتفت إليهما رعد في حين صرخ إياد مستغيثًا منه:

- لقد عصرتني!

وتساءل رعد موجّهًا حديثه إلى حنان وغسّان:

- أتتكلّمان عنّي؟ اصبرا عليّ!.

جاء ضابط وشرح لهم أنّ الرحلة تستغرق قرابة الساعة والنصف، وأنّ هناك عدّة مطارات في الطريق يمكن الهبوط فيها إذا حصلت غارات جوّيّة، فاطمئنّوا.

وهنا نطق إياد:

- كلّ الاطمئنان، الحمد لله أنا لا ولد ولا تلد، ويا لضيعة شبابك يا إياد!.

زجره النقيب:

- لا تندب. الإيرانيّون يعرفون أنّني في الطائرة لذا لن يسمحوا بأيّ غارة!.

كان غسّان بحاجة إلى أن يضحك كثيرًا علّ عساكر الحزن في أعماقه تنكسر وتهزم. إنّه يضحك، وكذلك حنان ورعد وإياد رغم أنّ الرحلة خطرة فعلاً.

نطق غسّان:

- نقيب.

فأجاب بدلاً من نعم بكلمة نقوبٌ.

- وبعد الذي حصل انضاف حرف ميم إلى أوّل الكلمة.

وكتمت حنان ضحكتها، كانت تحبّ سماع مزاحهم، ولكنّها لا تستطيع المشاركة فيه يمنعها حياؤها عن ذلك.

لكن إياد المختبئ تحت إبطه قهقه، فالتفت إليه رعد:

- تضحك على المنقوب يا عكروت؟ من حسن حظّك أنّني لست من أصحاب الهوايات الغلمانيّة وإلاّ نقبتك بحقّ، في المرّة الماضية كانت معنا الصحافيّة الفرنسيّة انشغلت بها، واليوم لا أحد، أنظر كلّهم ذكور عدا حنان طبعًا.

ورفع إياد إصبعه:

- لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى!.

كانت حنان تخبّئ رأسها من أجل أن تأخذ مداها في الضحك.

قال غسّان بعد أن علت الطائرة:

- نحن الآن في الفضاء وعيون محمّد والمسيح ترعانا، على طريقة ما يُكتب في سيّارات الحمل والتاكسي عندنا «سيري وعين الله ترعاك».

وهبّت حنان للقول:

- يبدو أنّهم قد كتبوا على الطائرة طيري وعين الله ترعاك وليس سيري!.

وضحكوا من تعليقها ممّا جعل رعد الطويل يقول:

- انظروا هذه الشاعرة المهذّبة تعلّمت منكم!.

وكانت حنان تجهل دعاباتهم بشأن النقيب فالتفت إليها، وقال شارحًا:

- يا أختي حنان، لا حياء في العلم، وكلّنا لها، كلّنا للبواسير، أقصد الرجال، لقد أجريت عمليّة وأزحتها فما هو المشكل؟.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأضاف وكأنّه يشرح درسًا في صفّ:

- ولو أنّني دسست إصبعي في إست كلّ منهما لاكتشفت الزوائد فيهما. هيّا اذهبا للطبيب وتأكّدا ممّا أقول.

علّق إياد:

- أكيد أنّ عمّال المواسير وليس أطبّاء البواسير هم الذين قاموا بتصليح ممرّك ليكون آمنًا!.

ونزلت كفّ رعد العريضة على كتفه فصرخ متوجّعًا، ورفع كفّه ثانية لينزلها على كتفه الآخر، فقال بتوسّل:

- التوبة.

ومرّت فترة صمت، كانت الطائرة تمرّ بمطبّات جويّة، وكان صوت محرّكها مسموعًا على العكس من طائرات نقل الركّاب.

وجّه غسّان سؤالاً لرعد:

- ماذا أعددت للمهرجان؟.

- قصيدة عموديّة طبعًا من كعب الدست لقد أخبرتك من قبل، من سبعين بيتًا فقط، تنزل شاقوليًّا وتشجّ الرؤوس وتدميها، ثم إنّني أحمل قصيدة قصيرة ملحّنة ومغنّاة، وقد حملتها معي مسجّلة على كاسيت لأقدّمها هديّة لإذاعة بغداد، فهي في تحيّة العراق.

وسأله عماد:

- ومن المغنّي؟ أنت؟.

- لا، هذا.

وحرّك إصبعه الوسطى من وراء ظهر إياد حتى لا تراه حنان.

وأضاف:

- إذا كان للسيّدة والدتك صوت جميل فأنا أمنحها حقّ أن تغنّيها في ملهى ملحم بركات!

- لا، أمّي من هواة الميجانا، وتتابع القرّادة ومطربها وشاعرها المفضّل زغلول الدامور.

- أكيد، وهل أتوقّع أن تكون معجبة بفرانز ليست أو إديث بياف أو ماريّا كاري؟

واعترض إياد:

- ماريّا كاري من مشمولاتي، فأنا أكبر معجب فيها، ولذا أنشر صورها في المجلّة دائمًا. لكن يا نقيب يا نقوب سأقتصّ منك بعد العودة وأخصّص زاوية في المجلّة للحديث عنك، أنشر غسيلك والله!

فأمسك به من رقبته وضغط عليها وهو يهدّد:

- عصرة واحدة وأُجهز عليك لأنّ عنقك عنق عصفور صغير.

- التوبة، لن أفعلها وأكتب!

لم يحسّوا بالوقت ولا بالخطر الذي يحلّقون فيه، ولذا خرج أحد ملاّحي الطائرة وهو يقول باللغتين العربيّة والإنكليزيّة إنّ الطائرة ستبدأ بالهبوط في مطار عسكري، وهناك ينتظرهم باص كبير ومكيّف.

ووَجَدَتْها حنان فرصةً في التطلّع من النافذة لتتأمّل مجرى النهر وغابات النخيل والقرى.

بعد ذلك التفتت إلى غسّان وسألته إن كان قد كتب شيئًا عن تحرير الفاو، فأجابها بأنّه كتب نصًّا فيه السرد والشعر معًا، كما أنّ هذه زيارته الثانية لها فقد زارها من قبل مع رعد وإياد.

كان يحمل حقيبة يد صغيرة اعتاد حملها معه، فتحها وأخرج لها النصّ وهو يقول:

- يمكنك قراءته عندما تكونين مهيّأة لذلك.

لكن حنان عوّاد وبعد أن قرأت المقطع الأوّل وجدت نفسها تلتهم بقيّته، وقد جاء فيه:

(يومًا ما عرفتك، كنت مع مجموعة من الرفاق الذين حملهم القطار الليلي من أُور إلى البصرة، كان وجه شطّ العرب يستقبلنا بانسيابه الجميل، أيّة مهابة له وأيّ روعة؟ آنذاك كان بدر شاكر السيّاب هاربًا، مطلوبًا، غريبًا على الجانب الآخر من الخليج، ينادي العراق ووفيقة وابنة الجلبي المختبئة وراء شناشيل بيتها المترف، ينادي بويبًا ويحنّ لمنزل الأقنان وأفياء جيكور، ينادي شطّ العرب، ولم يدر أنّ يومًا سيأتي يكون له فيه تمثال ينتصب على ضفّة الشطّ الكريم الذي كم ناجاه، وأصبح هذا التمثال تميمة حمت البصرة من الاجتياح، فرّ سكّان المنطقة من القصف، انهدّت منازل وبنايات واحترق النخل، ولكنّ التمثال باق وهو ينتصب على قاعدته، وجهه إلى البصرة، كأنّه يُسمعها قصيدة الثبات).

وتوقّفت حنان عن القراءة حيث بدأوا بالهبوط وانتقلوا مسرعين إلى سيّارة الباص التي سرعان ما تحرّكت، كان الوقت محسوبًا بالنسبة لمنظّمي الرحلة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

واختار إياد الموسى الجلوس إلى الخلف هربًا من النقيب. أمّا حنان فعادت إلى نـــصّ غسّان لتواصل قراءته بانسجام وتأثّر:

(يومًا ما، كنت فيك يا مدينة الملح والحنّاء، آنذاك كان الحلم واسعًا لا يحدّ.

حملت منك رائحة خبز التنانير والسمك المشويّ ونواح الأبوذيّة في حنجـــرة مغـــنٍّ غجري. حملت ذكرى خضرة نخلك الفارع كالآلهة وعذوقه الحبلى بالرطب الشـــهيّ، و لم أنس وصيّة أمّي بأن آتيها بكيس حنّاء من عطاء أرضك.

تهبّ رياح السموم

تتناثر الهياكل وتتهاوى

لكن ذلك الجنوبـــي المغروس وراء الساتر الترابي

لم يبقَ أمامه إلاّ أن يسخو بنيران رشّاشه

للذاكرة غفوتها

لكن لها يقظتها أيضًا

مع من نحبّهم تبقى الأشياء والعناصر طريَّة بكرًا

لا يهزم الزمنُ تورّد الملامح

مليء بالحزن والنشيد وأنامله تعجن الصخر

وجهك توهّج القصيدة وعنوانها

وعد السلام الذي نريده

من "نهر جاسم"

إلى "رأس البيشه"

من تمثال بدر شاكر السيّاب

إلى هيبة الخليل بن أحمد الفراهيدي

من ساحة "أمّ البروم" إلى "سوق المربد"

إلى "سوق الهنود" وأريج البهارات القادمة

بسفن القراصنة من بلاد السند

من الشهداء إلى الشهداء

نواح أمّ عراقيّة وصهيل خيول تفرّ

زحف دبّابة

وانكفاءة هجوم خاسئ

ها هو ضوؤك يعود إليك

صباح العشب والسيسبان

صباح الرثاء والحندقوق

صباح الخبّيز وشدو بلابل التمر

صباح السيّاب

صباح البصرة

صباحنا).

كان غسّان أثناء قراءتها منصرفًا إلى مراقبة الشوارع المتربة المهجورة والسيّارات المعطوبة المنقلبة على أقفيتها كالبهائم النافقة.

وبعد أن فرغت، سكتت قليلاً، وبدت وكأنّها تفكّر في أمر، ثم فجأة أدارت وجهها إليه، تأمّلته قليلاً، قبّلته على خدّه ووضعت رأسها على كتفه.

تمتمت:

- كل يوم تؤكّد لي أنّني كنت على حقّ عندما أحببتك، ولذا تجاوزت معك مرحلة الحبّ إلى مرحلة أخرى.

صفنت قليلاً وكأنّها تبحث عن التعبير المناسب، وقالت:

- لنقل إنّها مرحلة الجنون.

وظلّت مسندة رأسها إلى كتفه ثم نادته:

- غسّان.

- نعم.

- هل مررنا بأجواء الناصريّة؟.

- ربّما، ولو كنّا في رحلة مدنيّة لأخبرونا بالمدن التي نحلّق فوقها.

- تمنّيت أن أرى هذه المدينة، أرى والدك وأخوتك وأصدقاءك، وأتعبّأ بعبق الأماكن التي حدّثتني عنها والتي حوّلتها إلى رموز حيّة نابضة بالدلالات في قصائدك.

- الناصريّة تحتاج إلى روائي لا إلى شاعر، لا يمكن للقصيدة أن تحتويها!.

- ولا حتى الرواية!.

- عندما قلت الرواية عنيت الجنس الأدبي، هناك روايات كُتبت عنها، وهناك روائي كرّس كل أعماله لها، سآتيك ببعض رواياته لتقرئيها، هو صديق لي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- وما اسمه؟.
- عبد الرحمن مجيد الربيعي.
- أعرفه اسمًا أكثر ممّا أعرفه نتاجًا، والصحافة اللبنانيّة الثقافيّة تكتب عنه أحيانًا.

وهنا انتبها إلى إياد وهو يقف جوار مقعديهما وسأله غسّان:

- لماذا جلست بعيدًا؟.
- لأرتاح من كابوس النقيب، لقد اضطهدني في رحلة الطائرة، كأنّه جثم عليّ لا على كرسي.

قالت حنان:

- لكنّه في حالة انسجام مثلى مع نفسه، انظرا إليه! في الرحلة السابقة انسجم مع صحافيّة فرنسيّة، أمّا اليوم فهو وحيد يكسر الخاطر.

ثم أضاف منبّهًا صاحبيه إلى أمر:

- أتعرفان بأنّنا نتحرّك في موكب كامل؟.

وسأله غسّان:

- ماذا تعني؟.
- أمامنا سيّارتان عسكريّتان، انظرا.

وأشار بيده. وأضاف:

- وخلفنا أيضًا أكثر من سيّارة!.

ثم توقّفوا في مرآب أحد معسكرات الجيش، واستقبلهم عدد من الضبّاط برتب مختلفة مرحّبين وأدخلوهم بعد أن صافحوهم في قاعة استقبال واسعة، وسرعان ما حضر الماء البارد والشاي ثم القهوة.

وكان الذين يقومون بالخدمة جنود أنفار لا يحملون رتبًا.

ثم نهض الضابط الذي كان برتبة عقيد وأعلن:

- يا إخوان، ستتوجّهون الآن إلى الفاو بحفظ الله، المسافة ليست بعيدة، ولن تمكثوا طويلاً، وعندما تعودون ستكونون في ضيافتنا لتناول طعام الغداء.

ونفّذوا الأمر العسكري وصعدوا إلى الباص الذي يتحرّك بحماية عدد من سيّارات الجيب من الأمام والخلف.

كانت المناطق التي يقطعونها تشير إلى أنّها ساحات دارت فيها معارك طاحنة والدليل أنقاض البنايات والآليّات المحطّمة. وهناك أيضًا آثار لحرائق خامدة لم يبق منها إلاّ الهباب الأسود يغطّي الجدران وبقايا الأشجار.

كان أكثر ما أرعب غسّان مرأى النخيل الذي كان متسامقًا يومًا وقد حُزّت أعناقه ولم تبق إلاّ جذوعه العارية واقفة كقامات بشر عمالقة قُطعت رؤوسهم في حروب خرافيّة.

هذا النخيل الجنوبي الذي يرتبط بطفولته حيث يخرج مع أقرانه إلى البساتين ليأكلوا التمر من عذوقه، ويتنفّسوا عبق السعف الأخضر الذي لا يعرفه إلاّ من توسّد العشب في ظلّ نخلة أثيثة بالسعف.

لقد أكل الجمّار المستخرج من قلوب الفسائل التي تُنتزع من النخلة الفحل إذ لا جدوى منها فهي إن غُرست لن تأتي بالثمر.

كم راقب العصافير واصطاد بلابل التمر ذات الطوق الأسود الذي يزيّن ريشها الرمادي!.

وكم لاحق القمريّ وهو في أعشاشه العالية، وتربّص به بواسطة آلة صيد بدائيّة تطلق حجارة أو حصاة صغيرة، وقد برع فيها واصطاد بها العشرات من العصافير أو من القمريّ الذي ينوح وينوح بحثًا عن فقيد ما، لذا وضعت كلمات على وقع هذا النواح عن تلك الأخت التي في الحلّة والتي تشرب ماء الله وتأكل الباقلاء.

هذه الانثيالات في ذلك العالم الذي انسحب إلى الوراء وردمه ركام السنوات ينتفض حيًّا، كأنّه يحدث أمام عينيه الآن.

كلّ السنوات التي مرّت، المدن، النساء، المخادع، الخمور، كلّ الأفراح والأحزان لم تطفئ تلك الجذوة الجاهزة للاشتعال مرّة واحدة، لكنّه الاشتعال في ليلة برد كمجامر الأمّهات الشتائيّة التي يلتفّون حولها في الغرف الطينيّة والبرد يعيث بهدوء السماء.

هذه الذكريات ترياق حزنه، وتعزّزت بترياق آخر يمثّله حضور حنان عوّاد التي تجلس بجانبه متأمّلة شوارع البصرة العارية التي تغرق في الصمت ورياح السموم تصفر في البيوت المهجورة.

قال لهم ضابط كان دليلهم:

- صحيح أنّنا حرّرنا الفاو لكنّ الحرب ما زالت قائمة، وأنتم أمانة عندنا ويجب أن نسلك بكم الطريق الآمن حفاظًا على حياتكم.

نطق إياد بشيء من الهمس:

- وما علاقتي أنا بالفاو؟ إذا حصل لي شيء فالمسؤول المعنوي أمام الله والتاريخ وأمّي ونسائي اللواتي مررن أو اللواتي سيأتين هو غسّان العامري بالدرجة الأولى،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لأنّه صديقي وأحبّه وجاءت فرصة لرؤيته فلم أفرّط فيها، أمّا المسؤولان الآخران اللذان ألحّا عليّ وأزاحا تردّدي فهما حنان عوّاد ورعد الطويل قصّر الله قامته وكلّ ما هو طويل فيه!.

وتعالت قهقهاتهم، وقد انتبه النقيب الذي كان مشغولاً عنهم، فوجد وجوههم تتطلّع إليه وهم يبتسمون ممّا دفعه للنهوض والتوجّه نحوهم:

ماذا تقولون عنّي؟

قال إياد:

- نقول، أنت أوّل من يصطاده القنّاصة الإيرانيّون لطولك.. اسم الله عليك!.

فصرخ فيه:

- عكروت، اصبر لي حتى نصل، لأعلّمك أنّني لست هدفًا بل هدّاف قبل هذا وذاك!.

كانت حنان تخبّئ رأسها كلّما وصل الحديث إلى هذه الدرجة من البذاءة، أو ما يسمّيه إياد بحديث "من الزنّار وتحت" وهو مثل لبناني.

* * *

بعدما دخلوا الفاو صار غسّان يتطلّع إلى المكان علّه يستعيد شيئًا ممّا حمله في ذاكرته عندما قام بأوّل زيارة له قبل أيّام.

وانتظروا حتى أركن السائق الباص وفتحت الأبواب فأسرعوا بالنزول، وجاءهم صوت الضابط الآمر بحنجرته القويّة فكأنّهم جنود تحت إمرته:

- يا إخوان لا تبتعدوا عنّي، ابقوا دائمًا في الطريق فالأرض ما زالت مزروعة بآلاف الألغام.

ثم وقف هذا الضابط الشابّ وكان برتبة ملازم أوّل بقامته التي تميل إلى القصر ولكنّها كانت مشدودة وقويّة، ووضع يديه على خاصرتيه وتطلّع إلى المكان وقال، وكأنّه مدرّس يشرح الدرس لطلاّبه:

- تذكّروا يا إخوان أنّ كل ذرة تراب من هذه الأرض التي تقفون عليها قد سقتها دماء أكثر من شهيد. وأنا لا أبالغ، إن قلت إنّها أرض مقدّسة بكلّ ما تعنيه الكلمة وصدّقوني بأنّني كلّما وضعت قدمي فوق ثراها أحسّ وكأنّني أضعها فوق قلبي وأدوس عليه، ستذهلون إذا ذكرت لكم رقم الشهداء الذين سقطوا في

هذا المكان عدا الذين سقطوا من الجانب الإيراني، ولولا أوامر القيادة بمنحهم فرصة الانسحاب لكان رقم موتاهم ضعف أرقام شهدائنا.

كان هذا الضابط من ضبّاط التوجيه السياسي الذين يجيدون الحديث، كما أنّه يتقن اللغة الإنكليزيّة، لذا يعيد ما قاله باللغة الإنكليزيّة لبعض الصحافيّين الأجانب وعددهم أربعة.

كان الضابط هو الذي يرسم خارطة تحرّكهم ليضمن سلامتهم، كما أنّ المنطقة برمّتها ما زالت في متناول المدفعيّة الإيرانيّة، التي كما يبدو قد أُصيب ضبّاطها وجنودها بالإحباط بعد أن اندحروا من الفاو.

وطاف بهم الضابط في المواقع المهمّة شارحًا المعارك التي دارت فيها وأعداد الأسرى والقتلى، سيّارات عسكريّة محترقة، دبّابات معطوبة وبعضها انقلب على جنبه أو غطس في حفرة، نخيل رقدت جذوعه على الأرض بعد أن قطعت من أرومتها، أكواخ فلاّحين مهدّمة.

وكانت درجة الحرارة عالية مع رطوبة تكتم الأنفاس، ثم قادهم الضابط إلى المستشفى الذي أقامه الإيرانيّون تحت الأرض بعد احتلالهم للمدينة، كما قادهم إلى المسجد الذي هدّه القصف.

بعد ذلك قال لهم:

- الآن سنذهب لأريكم المعرض الذي أقمناه لما خلّفه الإيرانيّون بعد هروبهم.

ووجدوا المعرض يضمّ مجموعة من الدبّابات والمدافع وأسلحة متنوِّعة أخرى.

وكانت كاميرات الصحافيين تلتقط الصور، وقفز إياد على ظهر دبّابة وجلس مكان سائقها وطلب من غسّان أن يلتقط له صورة وهو يقول:

- لأبرهن فيها للفتيات أنّني غضنفر، ليث، هزبر. بعدها قفز إلى مدفع فسيّارة جيب.

وكان غسّان يلتقط الصور، كما التقط لحنان مجموعة صور أخرى.

وعندما فرغوا من زيارة المكان بدأوا بالتقاط صور مع الجنود والضبّاط.

كان غسّان قد أحسّ بالدوار من شدّة لفح الشمس، وتساءل في سرّه:

- كيف استطاع هؤلاء الرجال أن يمكثوا هنا؟ ولو كانوا مكشوفين في ظلال ما تبقّى من نخيل أو خيام لكان الأمر أهون، ولكنّهم أمضوا أشهرًا في الخنادق التي تنزّ بالماء المالح ووراء السواتر وعليهم الثياب العسكريّة الثقيلة؟ أيّ دافع روحي ووطني جعلهم يقاتلون في مثل هذه الظروف الطبيعيّة القاسية التي لا تحتمل؟.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وودّ لو أنّ بإمكانه معانقتهم والشدّ على أيديهم واحدًا واحدًا، لكنّه اكتفى بالتلويح لهم كما يفعل بقيّة زملاء الرحلة، وهم يخرجون من الخيام أو من وراء السواتر لتحيّة زوّارهم.

وعادوا إلى الباص الذي نقلهم إلى المعسكر ثانية، وكان البعض يحاول الاستفسار أكثر من الضابط فكان يردّ على الأسئلة بحساب، فليس كل الأسئلة يمكن الجواب عليها.

وقد وجدوا العقيد الذي استقبلهم عند قدومهم هو ومرافقيه من الضبّاط الأقلّ رتبة واقفًا في انتظارهم ويسألهم عن الرحلة، وكيف كانت؟.

وقد دخلوا في قاعة الاستقبال نفسها التي جلسوا فيها لبعض الوقت، وكان الجنود قد أدخلوا عددًا من الموائد التي صفّوها ملاصقة لبعضها بشكل طولي وأُحيطت بالمقاعد، وجاءهم صوت العقيد:

- أكيد أنّكم جعتم، الطعام جاهز، خذوا أماكنكم على المائدة، أرجوكم.

كان الغداء سخيًّا باللحوم والأسماك المشويّة والرزّ والحلوى والفواكه وخبز التنّور.

فنزلوا فيه كأنّهم لم يذوقوا الطعام منذ فترة.

وبعد أن فرغوا ذهبوا لغسل أيديهم. وما إن أتمّوا ذلك حتى دخل الجنود المكلّفون بالخدمة ونقلوا الموائد وما عليها خارج القاعة خلال دقائق.

علّق غسّان وهو يتأمّلهم:

- أجمل ما في العسكر دقّتهم وانضباطهم، لذلك لم يخطر ببالي يومًا أن أكون ضابطًا رغم أنّ هذا كان حلم أمّي رحمها الله، وليس حلم أبي الذي خَبِرَ العسكريّة، وهي رتبة كبيرة بالنسبة لأبناء عشيرتنا.

وجاء جنود آخرون بأطباق الشاي، ثم تبعوه بالقهوة، وبعد أن فرغوا سألهم العقيد إن كانوا راغبين في القيام بجولة في المناطق الآمنة من البصرة.

وعاد وأكّد:

- تعرفون بأنّ البصرة ساحة حرب ونحن قريبون من بعضنا، والمدافع تتبادل القصف!.

ومع تحذيره فإنّ جميع الحاضرين أبدوا الرغبة في القيام بهذه الجولة.

وهكذا انطلق بهم الباص. قال إياد:

- والآن إذا جاءتني قذيفة بتوصية كُتب عليها اسمي مع عبارة خاصّة جدًّا تصل إلى السيّد إياد الموسى هديّة بمناسبة زيارته للبصرة، سأموت في ساحة الوغى ممتلئ البطن بالسمك والبطّيخ، والرأس متيقّظ بفضل الشاي والقهوة.

فضحك غسّان وحنان ممّا فاه به وعلّقت حنان:

- لو جاءت القذيفة لأخذتنا كلّنا معك!.

وعلّق غسّان أيضًا:

- إلى أيّ حدّ أصبحنا نسخر من الموت رغم أنّنا قد نلاقي حتفنا فعلاً بقذيفة يطلقها جندي متعب ربّما هي ثمالة قذائف مدفعه؟!.

قالت حنان وكأنّها تفسّر الأمر:

- إيقاع الحرب اللبنانيّة علّمنا هذا، وغسّان عاش معنا هذه الأحداث فتطبّع بطباعنا!.

وقال معلّقًا:

- ما تقوله حنان صحيح، لأنّني خرجت من الموت المحتّم عدّة مرّات، ولذا مات قلبي كما يقال، لم أعد أخاف شيئًا، والذي يأتي لا بدّ أن يأتي، وربّما قرّ قراره أن يأتي وراءنا إلى البصرة فأهلاً به.

كانوا يراقبون مشهد الخراب، وردّد غسّان:

- هناك مثل عراقي يقول: بعد خراب البصرة، ولم أتقصّ مصدره، يجب أن أفعل هذا، لكنّه الدليل على أنّ البصرة قد عرفت خرابات من قبل فانطلق المثل هذا؟.

ذكر لهما بأنّه يعرف البصرة جيّدًا لأنّها قريبة جدًّا من مدينته، لذا كان كثير التردّد عليها. كانت مدينة حيّة بإرثها وأناسها وأسواقها وفنونها وشطّها، لكنّها الآن تبدو وكأنّها مدينة أشباح.

مرّ الباص على شاطئ شطّ العرب الذي كان مقفرًا لا وجود لحياة فيه، وحده تمثال السيّاب كان واقفًا مسمّرًا على قاعدته وكأنّ حنجرته المتعبة ما زالت تهتف بنبوءة:

(صوت تفجّر في قرارة نفسي الثكلى: عراق
كالمدّ يصعد، كالسحابة، كالدموع إلى العيون
الرِّيح تصرخ بي: عراق
والموج يُعول بي: عراق، عراق، ليس سوى عراق)

وأخذ غسّان يتمتم بما حفظ من أبيات تلك القصيدة، قصيدة الغربة والنفي والحنين.

لكن ترداده لكلماتها دفعه، وهو الذي يتهيّأ لمغامرة رحيل لا يعرف متى تحين، إلى التساؤل الصامت:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- هل سيأتي يوم أبكي فيه العراق من مسافة ما هناك؟ أبكي الناصريّة، أبكي بغداد، أبكي ذكريات الأصحاب: غيّاث الإبراهيمي، عدنان العزيري، منعم البصري، طارق المنصور، زيد الحبيب، حيدر الخلف، سليم الحامدي، حتى من أساؤوا إليّ في الخفاء؟ خفافيش الليل العراقي الطويل؟!

وعاد إلى ذاكرته مقطع آخر من قصيدة السيّاب:

(البحر أوسع ما يكون
وأنت أبعد ما تكون
والبحر دونك يا عراق)

ثم هبط رأسه بكثير من التأمّل القاتل وهو يردّد ما قاله السيّاب:

(فما لديك سوى الدموع
وسوى انتظارك دون جدوى، للرياح وللقلوع)

ورفع صوته عندما قال:

- التاريخ يعيد نفسه يا سيّاب. ولوائح المشرّدين أو الذين سيتشرّدون في أقرب فرصة ستحوي أسماء الملايين لا الآلاف؛ هذا هو قدر العراقيّين المكتوب على جباههم. كانت حنان قد انتبهت له ولكنّها أدركت بأنّه في حالة من النادر أن يكون عليها، وقد خبرتها منه خلال معايشتها له، وتركته مع أحزانه التي حوّلها إلى تساؤلات مرّة:

- لماذا يصبح الوطن ضنينًا على أبنائه الأصلاء؟ على جذوره؟ نحن ملح أرضك، خضرة نخيلك، بهاء شمسك، قمح سنابلك، مياه أنهارك؟ لماذا يكون سخاء الوطن على اللصوص وراكبي الدبّابات ومدبّري الانقلابات الغامضة وشهداء الزور وبقايا الجيوش الانكشاريّة وسلالة العبيد والمحظيّات وشعراء المناسبات والنائحين في كل مأتم والمصفّقين في كل جوقة؟.

ورغم تحذير ضابط التوجيه السياسي إلاّ أنّ بعض الضيوف أصرّوا على التقاط صور جوار تمثال السيّاب فامتثل الضابط لرغبتهم وهو يقول:

- ولكن بسرعة أرجوكم فالمكان جدّ خطر.

وهكذا بدأت الكاميرات بالتقاط الصور، وأصرّ البعض على أن يتصوّروا قرب شطّ العرب رغم أنّ صوت الضابط المحذّر كان يلاحقهم.

وأبدت حنان رغبة في التقاط صورة مع التمثال مرّة وحدها، والأخرى مع غسّان، والثالثة مع إياد وغسّان ورعد الطويل رفاق رحلة الموت كما سمّتهم. وكان إياد يردّد:

- أنا مطمئنّ جدًّا فالإيرانيّون لن يروني لصغر حجمي، لكنّ النقيب النقوب هدف سهل لهم، وإن توفّر قنّاص محترم لن يخطئ جمجمته.

عندما عادوا إلى الباص وتحرّك بهم ردّدت حنان بألم وهي تستدير ملوّحة بيدها لتمثال السيّاب:

- لقد تركناه وحيدًا، أحسّ وكأنّ صوته يلاحقنا معاتبًا: لماذا تركتموني هكذا في مرمى المدفعية وذهبتم؟.

***

جاءت حنان ومضت وكأنّها طيف.. وها هو غسّان العامري أسير حيرته ووحدته، يحثّ الخطى رافعًا هامته ليصافح وجه أبي جعفر المنصور الوسيم، خاطبه بصوت مسموع:

- يا أبا جعفر أيّها المنصور، لقد سمّيت بغداد مدينة السلام، لكنّها لم تكن يومًا اسمًا على مسمّى، هي مساحة لكلّ القادمين من هناك، لم يكن هولاكو الأوّل ولا سلاطين آل عثمان ولا.. ولا.. وها هي بغداد كما تراها، تحترق أمام عينيك، كأنّني أراك تبتسم، ومن يدري فقد تقهقه رغم أنّك لم تكن نيرونًا بل حامل رسالة ومبشّرا بدعوة وباني إمبراطوريّة عربيّة، أينما أمطرت السماء فخراجها سيأتي إلى بغداد، لكن بغداد هذه حزينة جدًّا، خائفة جدًّا، أناسها يخبّئون رؤوسهم، لقد عيث بهم وأريد تحويلهم إلى قطيع من البشر الممتثلين للأوامر، انضمّوا لهذا الحزب، استجيبوا لدعوة الحرب، قدّموا أبناءكم، ما ملكتم، أذعنوا لما يريده أسيادكم الجدد الذين داهموكم وانقضّوا عليكم، وكتموا أنفاسكم و.. و... يا أبا جعفر يا منصور إنّني أراك أمامي مقهورًا لا منصورًا.

حنان عوّاد رحلت بعد أن ملأت بحضورها حياته المتصحّرة التي تحنّ إلى الندى، مدّته بنسغ جديد ليقاوم ويظلّ ثابتًا، يناضل علّه يستعيد جناحيه ويعود كما كان يومًا طائرًا في سماء وأغنية حبّ لا تخدش الأسماع.

زيارة قصيرة مرّت كلمحة. حملت له معها العطر الذي يحبّ وثلاثة قمصان ومجموعة من الجوارب، كما حملت له بعض الإصدارات الجديدة هديّة من مؤلّفيها إضافة إلى عدّة رسائل وأسئلة من صفحات ثقافيّة حول قضايا تشغل بال الكاتب العربي اليوم؟.

لقد غادرته وبقي وحده يستعرض وقائع الأيّام الخمسة التي أمضتها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فبعد عودتهم من الفاو كان غيّاث الإبراهيمي ينتظرهم في بهو الفندق، من عادته أن لا يستجيب لإغراء القيلولة لذا يترك زوجته وولديه ويمضي إلى كافتريا المنصور التي أصبحت مهدّدة بالإزاحة بعد أن جاء بلاغ من البلديّة إلى «أبو ريتا» بحجّة أنّها أخذت مساحة نصف متر من الشارع العام، وعندما يجد هذه الكافتريا مكتظّة يذهب إلى أحد الفنادق ليحتسي القهوة ويدخّن ويحلّق مع مشاريعه التي لم يحدّد أيّها سيلبّي ويبدأ بتنفيذه؟.

استقبلهم مرحّبًا وأعطاهم مهلة ساعة ليستريحوا ويتحمّموا ويستبدلوا ثياهم حتى يصطحبهم إلى بيته.

كانت هناك مودّة جميلة قد بدأت تنسج ما بين حنان ونادية زوجة غيّاث التي كانت سيّدة تتمتّع بالأريحيّة العراقيّة، إذ تربّت في بيت والدها الطبيب الكردي وأمّها العربيّة، وبما أنّها وُلدت في بغداد وعاشت فيها فإنّها لم تتعلّم شيئًا من اللغة الكرديّة لا هي ولا أختها التي لم تشأ التخلّي عن زوجها الطبيب هو الآخر الذي أُبعد إلى إيران ومن هناك استطاعوا الهجرة إلى كندا، حيث استقرّ بهم المقام منذ بضع سنوات.

كان غياب هذه الأخت جرح هذه الأسرة الوديعة الذي لا يندمل، ولم يبق غير الهاتف وسيلة للاتصال رغم أنّ الخطوط مراقبة كما أنّها معرّضة دائمًا للانقطاع بسبب ظروف الحرب.

وقد هيّأت نادية عشاء يكفي لعشرة أشخاص، جلسوا في حديقة الدار، غسّان في الأرجوحة وجواره حنان وكان إياد ينضمّ إليهما لبعض الوقت كلّما كانت لديه نكتة لا يريد إسماعها للآخرين، ثم يتحوّل إلى كرسيه.

كما جلس كلّ من غيّاث ورعد الطويل على كرسيّيْن وتتوسّط الجميع طاولة وضعت عليها زجاجة ويسكي ووعاء ثلج بملقط مع عدد من صحون المازة.

وكان غيّاث يحاول أن يستوضح منهما عن حال بلده الذي غادره احتجاجًا على الحرب التي تدور فيه، فإذا بالحرب تلاحقه إلى العراق، وتلك مفارقة حياته.

وقد أحسّ غيّاث بنبرة التشاؤم والقرف التي تسيطر على أجوبة حنان وكذلك أجوبة رعد الطويل، وقد سمع منهما كلمة هجرة فانقبض قلبه من وقع هذه الكلمة لبشاعتها، فهو يحبّذ حتى في كتاباته أن يستعمل بدلاً عنها كلمة رحيل فهي أخفّ وطأة إذ هو وعد بالعودة بشكل أو آخر. لكنّ الهجرة اقتلاع من الجذور، تحمل شجرة وتغرسها في أرض بعيدة، قد تنبت ولكنّها غالبًا ما تكون شاحبة هزيلة.

قالت لغيّاث:

- أخي الكبير في أميركا منذ سنوات وسيتزوّج من أميركيّة، وهذا يمنحه فرصة الحصول على الجنسيّة، وأخي الثاني سينهي تعليمه الثانوي هذا العام ويلحق به، وعده بأن يحصل له على قبول، وصلتني دعوة منه لحضور حفل زفافه، وسألبّيها؛ وهناك سأدرس الأمر، وإمكانيّة البقاء واردة جدًّا، وقد سبق لي أن قمت بزيارة أميركا قبل أشهر للاطّلاع.

وسألها ببساطة:

- وغسّان؟

وردّدت:

- إن استقرّ بي المقام واستطاع هو الخروج سأعمل على أن يلتحق بي.

كان غسّان الذي ينصت إلى حوارهما قد فوجئ بجوابها الذي لم يكونا قد تحدّثا فيه من قبل، كما أنّه لم يفكّر في العيش ببلد غير عربي، لأنّه شاعر عربي وقرّاؤه ومحبّوه جُلّهم من العرب فماذا سيحلّ به إن هاجر؟.

ظلّ ساكتًا ولم يعلّق على ما فاهت به، وسمعها تستمرّ في وضع المسوغات لعملها هذا:

- الخلاف بين ميشال عون ورئيس الجمهوريّة، ثم بينه وبين زعيم القوّات اللبنانيّة سمير جعجع، وهي ليست خلافات في الرأي بل صراع قوى ومراكز قرار، لذا يمكن أن نصفها بأنّها مقدّمات لحرب طاحنة جديدة داخل المعسكر المسيحي هذه المرّة، والأبرياء دائمًا يدفعون الثمن عندما تنهال القذائف على رؤوسهم وبيوتهم، قبل هذا كانت الهجرة من منطقة في لبنان إلى أخرى، أمّا الآتي فسيكون هجرة من لبنان كلّه.

كان غيّاث يصغي إليها بانتباه وصوت زفيره يسمع مع نفثه لدخان سيكارته وهذه عادته عندما يكون في حالة انفعال.

إنّه يحاول البحث عن حلّ مطمئن. فمصير ولديه يؤرقه، هما الآن في بغداد يعيشان برخاء ما دام يعمل في مؤسّسة أجنبيّة ويقبض مرتّبه بالدولار، وقد يحصلان على الجنسيّة البرازيليّة إن هو حصل عليها.. وقد بدأ يعمل من أجل ذلك ما دام هذا البلد مسقط رأسه وله إلمام كاف بلغته وثقافته، لكنّه أيضًا يحبّهما أن يعيشا في مجتمع عربي، يتكلّمان اللغة العربيّة ولا بأس بعد ذلك من العيش في أيّ بلد آخر. ثم إنّه لا يستطيع انتزاع زوجته من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أبويها المتقدّمين في السنّ واللذين يعيشان هاجس رحيل ابنتهما الكبيرة الاضطراري، وكأنّها سُرقت منهما، لأنّ كلّ ما حصل لها لم يكن باختيارها ولم يلمها أحد لكونها صاحبت زوجها ولم تتركه يرحل وحيدًا ويواجه المجهول، بعد أن رموه على الحدود الإيرانيّة وهو لا يعرف كلمة واحدة من اللغة الفارسيّة.

أمّا إياد ورعد فكانا لا يكفّان عن مشاكسة بعضهما، وعندما يحسّ النقيب أنّه قد غلب يطبق يديه على عنق إياد حتى يصرخ مستنجدًا.

***

وفي المهرجان الشعري كان عدد الشعراء العرب الحاضرين قليلاً، فالكثيرون لا يعرفون جغرافيّة الحرب ولا ماذا تعني الفاو في مسارها.

وقد حضر من تونس شاعر صديق لغسّان هو منصف النجّار الذي كان من أصدقائه الأثيرين، لكنّه اعتذر له عن مرافقته لأنّه منشغل بحنان، وربت منصف على كتفه وهو يقول:

- سأذهب من هنا إلى دمشق ملاحقًا طيف امرأة شدهت بها ذات مهرجان، الحبّ كالحصان يجب أن نطلق له العنان ليجري على هواه.

لكن منصف النجّار كان يجلس عن يمينه وحنان عن شماله حول مائدة العشاء التي أقامتها لجنة المهرجان في مطعم «خان مرجان» التراثي تكريمًا للضيوف.

كان هذا الخان مهجورًا حتى انتبهت له إدارة السياحة فحوّلته إلى مطعم مختصّ بالأكلات العراقيّة الشهيرة، التي تُقدّم على أنغام وشدو المقام العراقي الذي يؤدّيه كبار مغنّيه أمثال يوسف عمر وحسين الأعظمي وشيخهم الحاج هاشم الرجب وغيرهم.

ومن الرباط حضرت شاعرة مغربيّة ارتدت قفطانًا صيفيًّا أبيض مطرّزًا بمهارة يدويّة نادرة، فبدت كأميرة صحراويّة بسمرتها العجيبة وقامتها الطويلة الواثقة وإلقائها المتأنّي.

هذه الشاعرة ما إن تدخل مهرجانًا حتى تترك وراءها عشّاقًا ومعجبين، وقد وصل انبهار شاعر معروف بها أن أطلق اسمها على ابنته التي كانت في بطن أمّها عندما رآها واستمع إليها للمرّة الأولى.

ومن العراق ساهم عدد من الشعراء الذين أصبحوا يتكرّرون في كل مهرجان ما داموا يقدّمون القصيدة المباشرة التي تُرضي الذائقة الرسميّة السائدة، التي يسيّرها وهم أنّ القصيدة المطلوبة هي العموديّة أوّلاً، والتي تسمّي الأشياء بأسمائها ثانيًا، ولكنّ الأمر الأهمّ

هو أن يخصّص جانب كبير منها في مدح رئيس الدولة وباسمه الصريح إذ لا يكفي التلميح فقط.

كانت قاعة مسرح الرشيد تُعبّأ بموظّفي وزارة الثقافة والإعلام عادة حتى لا تبدو فارغة، وكانوا يبلّغون بأن يصفقّوا في كل موقع من أيّ قصيدة يُذكر فيه اسم الرئيس، وما عليهم إلاّ أن يطيعوا ما يؤمرون به.

وكان المهرجان يسجّل كاملا ثم يبثّ في مساء اليوم نفسه ويدخل عادة في ما يسمّى حملات التعبئة ضدّ الفرس.

وتألّقت حنان عوّاد كعادها، وأسكتتهم بل أخرستهم، لأنّ كلماها منعتهم من التصفيق الخليّ، التصفيق بأوامر، ألجمتهم فظلّت أيديهم مسبلة.

قرأت قصيدة عن العراق، عن لبنان، عن الحبّ والحزن والحنين والخوف.

وكان غسّان حاضرًا فيها، كأنّه عراقها الذي تريده.

همس له منصف النجّار الذي كان يجلس قدّامه تمامًا وهو يلتفت إليه:

- لو كان هناك مسؤول ذكي يستوعب ما يسمع وله القدرة على القرار لناداك، ومنحك جواز السفر بعيدًا عن بيروقراطيّة المكاتب والتقارير الملفّقة.

وكان جواب غسّان له:

- لكن هذا الذي تبحث عنه لم يعد موجودًا! إنّ قصيدها صرخة في واد.
- لكنّها حفر في الضمائر لغرس بذرة لا يعرفوها وسط همجيّة الهتافات، وانغلاق القلوب على خوفها!.

وتمتم غسّان مخاطبًا أعماقه:

- إنّ مجيئها يبدو بصورة أخرى وكأنّه يعقّد الأمور أكثر إذ تشتعل العيون بالحسد والحقد تجاهي بدلاً من التعاطف معي، فكون امرأة يسيل لعاهم أمام إطلالتها العالية تحبّني هذا الشكل، وتأتي إلى بغداد لتندبني بقصيدة وهذا كل ما تستطيعه ثم تمضي يشكّل سببًا في جعلهم يعملون على كتم أنفاسي ومحاصرتي أكثر.

كانت لحنان حرها أيضًا، ليس هنا ولكن هناك في بلدها، في «الكانتون» الصغير الذي تدور فيه، لكنّها حرب انتصرت فيها وجعلت مَنْ قاوموها يتراجعون وكأنّهم يطلبون غفراها.

أولئك الذين أهملوها وعاملوها كالمصابة بالبرص كما أخبرتْه بعد أن اكتشفوا علاقتها به، وقد كبر التعاطف مع غسّان العامري المعروف لهم بإنسانيّته وسعة قلبه وليس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في شعره فقط، بعد أن تأكّد لهم صدقه الذي جعله يدفع الثمن من المؤسّسة الرسميّة أو من مؤسّسة النميمة التي تزدهر في عهود الإفلاس والنكوص.

وعلموا أنّ غسّان العامري لم يجد من يقف معه حتى من بين أولئك الذين كان يدرجهم في عداد أصدقائه، حيث كان الموقع الوظيفي بالنسبة لهم أهمّ من الصداقة، رغم أنّ الموقع لا تستقرّ عليه مؤخّرة واحدة أمّا الصداقة فهي الأبقى.

ذات يوم كان هؤلاء قريبين من بعضهم وهم يدورون بين مقاهي وحانات المدينة ويقرأون نشرات الأحزاب السرّيّة ويتبادلونها، وطموحهم لن يتوقّف من أجل معرفة رأي بعضهم بعضًا بما يكتبون، قبل أن يحملوا قصصهم وقصائدهم ومقالاتهم للنشر، أمّا اليوم فقد ضاعت هذه الإلفة وماتت حميميّة العلاقات، فقد حوّلتهم المناصب إلى بيروقراطيّين مقيتين لا يمكن الوصول إليهم إلاّ بعد المرور بمكاتب استعلامات وغرف سكرتيرات ووفقًا لمواعيد محدّدة بالدقيقة. وصار الشاعر أو الكاتب منهم يبحث عن أتباع ومدبّجي مقالات مادحة لعبقريّاتهم الأدبيّة التي لم تكن قبل أن يصبحوا مسؤولين كبارًا.

كانوا يشترون الأتباع برشاوى لا تخرج من جيوبهم بل من ميزانيّة المؤسّسات الثقافيّة والإعلاميّة التي وُضعوا على رأسها، ولكنّهم صاروا أذنابًا لسلطة، ومن التحقوا بهم فهم أذناب لأذناب وهو دليل ضعة التابع والمتبوع.

يتذكّر حنان عوّاد وكأنّها لم تغادر بغداد وأنّ بإمكانه المضيّ إلى فندق «ميليا منصور» ليجدها في انتظاره بمقهاه مقهقهة من إحدى دعابات إياد الموسى، أو يستنجد بمن ينقذه من كفّي رعد الطويل المطبقين على عنقه.

آخر ليلة لها ببغداد قبل أن تمضي عنه حلاً فيها ضيفين على الدكتور منعم البصري وسط حفاوة لا حدود لها من زوجته أحلام التي تعرّفت على حنان للمرّة الأولى، وقد انسجمتا بسرعة فكأنّهما تعرفان بعضهما منذ زمن طويل.

قال منعم مطمئنًا حنانًا:

– غسّان بين أيد أمينة فأنا أخوه وأحلام أخته، فاطمئنّي عليه، الحرب قاربت على الانتهاء فالطرفان تعبا وتحوّلت إلى عبث وتدمير، كلّ واحد يلقي بصواريخه على مدن الطرف الآخر، بيوت تتهدّم، بشر لا ناقة لهم ولا جمل بهذه الحرب يسقطون، وعندما تتوقّف الحرب سأرسله لكِ بأوّل طائرة.

وعلّق غسّان:

– ولكنّها ستسافر إلى أميركا، وقد تبقى هناك؟.

وردّ منعم:

- وما المشكلة؟ إلحق بها إلى هناك.

- ومن يمنحني تأشيرة؟.

فأجابه منعم بعد صمت قصير:

- الفرق بين الطبيب والشاعر أنّ الطبيب عملي، مبضعه جاهز، أمّا الشاعر فليس له غير أحلامه، اسمع، دعها تذهب إلى أميركا وبعد أن تحصل على البطاقة الخضراء يصبح بإمكانها السفر والعودة، آنذاك تعقدان قرانكما ومن ثم تستطيع الحصول على التأشيرة وتصبح أيّها المعيديّ المتخلّف أميركانيًّا.

وقهقه غسّان وهو يقول:

- أنت تعيدني إلى مثلنا الشائع عش يا حمار حتى يأتيك الربيع!.

كانت حنان تنصت لحديثهما وهي تدرك جيّدًا أنّها لا بدّ أن تغادر، فالأحوال تتدهور في لبنان، وليس لها من فرصة غير السفر.

قالت مخاطبة منعم البصري:

- لا يمكن أن نبقى غريقين، وما دام بإمكاني أن أسافر فلأفعل ذلك، ولعلّ بمستطاعي إيجاد حلّ ما له، دعوة من جامعة، من مؤسّسة ثقافيّة.

ووافقها منعم على ما قالته، أمّا غسّان فكان الصمت جوابه ما دام لا يستطيع الخروج من بلده، ونعمة السفر حُرِّمت عليه كما حُرِّمت على أكثر من عشرين مليون عراقي ثمنًا لحرب لم يختاروها و لم يريدوها أبدًا.

قالت حنان:

- إنّ وجود غسّان بين أصدقاء يحبّونه هو الذي يجعلني أشعر بالاطمئنان فعلاً، أنت وغيّاث الإبراهيمي وعدنان العزيري وآخرون، ولا بدّ من أن نجد حلاًّ، لا بدّ.

ويتذكّر غسّان أنّه قد ودَّعها في المطار بضمّة قويّة إلى صدره، شمّ شعرها وخدّيها بمشهد غير مألوف يحرّكه إحساس قوي بأنّه لن يراها مرّة ثانية، وأنّها مسافرة إلى المجهول.

لقد ذهب إلى المطار معها بسيّارة عدنان العزيري ورافقهم أيضًا معن الماجد الذي توثّقت علاقته برعد الطويل إلى درجة عالية من الانسجام وتبادل النكات والأشعار البذيئة.

صافحه غسّان وهو يقول له:

- سأفتقدك أيّها النقيب الأنقب النقوب الناقب المتنقّب المنقوب إلى آخره.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان معن الماجد وقتذاك في إجازة من الجيش بعد أن عضّه جرذ في ربلة ساقه، حيث داس على ذيله وهو يندسّ بين ركام الكتب في مكتبته، وعندما شرح ما جرى له وأراهم الضمّادات المحيطة بمكان العضّة كان ما فاه به بمثابة نكتة غير متوقّعة، وقد جرى تعميمها وتبادلها بسرعة البرق بين الحاضرين ثم إلى مهرجان الفاو ومن حضره من الأدباء والصحافيّين. وقد صمّم إياد الموسى على كتابة الحادثة في مجلّته.

أمّا رعد الطويل فقد وعد بكتابة قصيدة هجائيّة لذلك الجرذ الذي لم يراع حرمة ناقد كبير فعضّه بإصرار، وقال عدنان العزيزي:

- ربّما يكون الجرذ شاعرًا فأراد أن ينتقم لزملائه الشعراء من غارات معن الماجد عليهم بمقالاته «الخرنكعيّة».

أمّا الرواية وكما حصلت فقد تكفّل بها معن الماجد نفسه، إذ أخبرهم أنّه دخل مكتبته بحثًا عن كتاب، وفي هذه المكتبة تتكدّس الكتب على الأرض وفوق الرفوف حتى بابها يتعذّر غلقه لأنّ زحف الكتب قد حال دون ذلك، وجفل فزعًا من صرخة حيوانيّة لم تطرق أذنيه من قبل، وإذا برأس جرذ كبير كرأس قطّ يستدير وينشب أنيابه في ربلة ساقه بعد أن داس على طرف ذيله.

وهرع ولده الكبير وزوجته وحملوه مسرعين إلى مستشفى اليرموك، حيث ضمّد مكان العضّة بعد أن زرقه الطبيب بدواء مضادّ لما تحمل الجرذان من ميكروبات، وكان الطبيب وقد عرف معن الماجد يضحك ممّا جرى له وكذلك ولده وزوجته.

قال الطبيب بدعابة:

- يبدو أنّها مزرعة لتربية الجرذان وليست مكتبة؟.

وأكّدت زوجته:

- كم طلبت منه أن يرتّبها ويهدي ما لا حاجة له به ولكنّه لم يستمع إليّ، لقد منع عليّ حتى تنظيفها.

وقال ابنه:

- صرنا خائفين من الأفاعي، فالقادسيّة حيث نقيم كانت من قبل مزارع وبساتين.

بعد ذلك أعطاه الطبيب نوعين من الحبوب وعددًا من الإبر التي عليه أن يزرقها قبل أن يحلّل دمه ليتأكّد من سلامته.

***

أخذ غسّان يصفر بلحن من أغنية علقت بسمعه بعد أن أصغى إليها من الإذاعة.

توجّه نحو مكتبة الرفيف فوجد صاحبها مقداد عبد الرّضا هناك. حيّاه وبدأ بتقليب الجرائد قبل أن يسأله عن أحوال المسرح والتلفزيون، فأجاب بمقت:

- زفت وعهر وضحالة وتفاهة.

وأحسّ به محتقنًا إلى أبعد حدّ فسكت، لكنّه واصل بثّ شكواه:

- والله لولا ورطة الزوجة والأولاد لقلبت وجهي وذهبت إلى أيّ بلد، وسأرضى بأدوار الكومبارس ولا يهمّني هذا بشيء!

وعندما انتهيا من حديثهما الساخن، توجّه غسّان نحو كافتريا المنصور بعد أن اشترى مجلّة «ألف باء» إذ كان لديه موعد مع «أبو ريتا».

وما إن فتح الباب حتى طالعه أبو ريتا بوجهه السمح الذي لا يعرف إلاّ الابتسام، ولكنّه اليوم وعلى غير عادته محتقن والشرر يتطاير من بؤبؤي عينيه المتّقدتين. تصافحا، وكان غسّان يعرف ما به إذ أخبره أنّ البلديّة طلبت منه إزالة مقدّمة المقهى الزجاجيّة المطلّة على الشارع بحجّة أنّها تشوّه منظر الشارع وتستحوذ على مساحة من الرصيف.

وقال غسّان بسخرية:

- لقد فسد حتى الذوق، إنّ مقهاك زينة الشارع، ألم يَرَ أحد منهم مقاهي باريس أو بيروت أو مدن أوروبيّة أخرى؟.

- كيف يرونها؟.

- الحقّ معك. لأنّ جُلّ هؤلاء بدو ورعاة جيء بهم هم وجهلهم ووضعوا في مواقع لا يستحقّون أن يكونوا كنّاسين فيها. ثم إنّني أتساءل: هل زينة الشارع بمطاعم الكباب بالساطور! تصوّر، انظر كم مطعم على هذه الشاكلة بهذا الشارع؟ بالساطور؟ ما أبشع الاسم!.

وشعر أبو ريتا بشيء من الراحة وهو يستمع لما يقوله غسّان.

قال أبو ريتا محاولاً أن يستعيد هدوءه القديم:

- يا أستاذ غسّان، أتعرف ما معنى أن أزيح القسم الأمامي؟ معناه أن تصبح الكافتريا لا تتّسع إلاّ لخمس موائد فقط، ومعنى هذا أنّهم يطلبون منّي أن أغلقها، ثم لماذا تذكّروا هذا الآن؟ أين كانوا قبل سنوات منذ إنشائها وحتى اليوم؟

كان غسّان وكذلك غيّاث الإبراهيمي وأصحابهم يعتبرون هذه الكافتريا ملاذهم، ولا بديل عنها إلاّ مقاهي الشاي أو «الچايخانات» كما يسمّيها العراقيّون، وقال غسّان لغيّاث:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- إنّ إزاحة هذه الكافتريا شبيه بإعدام مقاهي بيروت ذات المجد، شبيه بتحويل «الهورس شو» إلى مطعم «شاورما» وكذلك «الإكسبريس»، إنّ بقاء هذه الكافتريا مهمّ، وسيجري الحديث عن لقاءاتنا بها بعد سنوات وتصبح عنوانًا لمجد، شأنها شأن المقهى البرازيليّة ومقهى حسن عجمي والزهاوي والبرلمان والبلديّة.. رغم أنّ معظمها قد أزاحوه بساديّة الرعاة الذين يريدون إعدام ذاكرة الثقافة، فكأنّ كلّ شيء قد بدأ بهم، وقبلهم لم يكن في البلد شيء.

قال غسّان:

- اسمع يا أبو ريتا العزيز، هذا الموضوع لن يمرّ، وكلّ الذي أقدر عليه أن نبدأ بحملة من المقالات ندافع فيها عن بقاء الكافتريا وسأكتب أنا المقالة الأولى، والآن، هاتوا لي أوراقًا بيضاء.

وواصل:

- هذه الكافتريا هي التي تكسر من رتابة القبح في هذا الشارع الذي لا يضمّ إلاّ محلاّت الأحذية ومطاعم الكباب بالساطور، إنّها واحة الشارع الجميلة، وقد أصبحت معروفة بالنسبة للمثقّفين، وصاروا يقصدونها بعد أن عرفوا بملازمتي لها أنا وغيّاث وعدنان ومعن وأصدقاء آخرون من النخبة المبدعة في البلد.

وجاءه أحد الندل بحزمة أوراق بيضاء، بينما نهض أبو ريتا مغادرًا وكلمات الغضب تتناثر من فمه.

وكانت المسألة قد انعكست على وجوه عمّاله وكذلك على وجوه بعض روّادها المدمنين، الذين لا يجدون بديلاً عنها إلاّ المقاهي الشعبيّة التي لا يمكن للمرء أن يجلس فيها نصف ساعة نظرًا لاكتظاظها ووساختها وأفواج الذباب الذي تجثم فوق دبق طاولاتها.

حتى الشاعر الفلسطيني فكري سلّوم غادر مائدته حيث يجلس كل يوم مع صديقته المترجمة.. غادر مكانه والحيرة مرتسمة على وجهه، ثم سأل صديقه غسّانًا إن كان بالإمكان فعل شيء. فردّ عليه:

- سأهاتف حمادي السعدي، فهو رئيس تحرير جريدة الحزب الحاكم وكلمته مسموعة وله سابقة في منع تهديم مقهى الزهاوي!.

فهزّ فكري رأسه موافقًا. ثم ردّد:

- استكثروا علينا حتى مقهى نجلس فيه بعيدًا عن الأعين؟.

فطمأنه غسّان:

- والبداية ستكون في مقال مني وقد جاؤوني بالورق لأكتبه!.

وانسحب فكري عائدًا إلى رفيقته التي حيّت غسّانًا بهزّة من رأسها عنـــدما التقـــت عيونهما.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مضت حنان عوّاد عنه فعاد إلى وحدته.

إنّه يستعرض وقائع زيارتها فكأنّها بضع ساعات ذابت سريعًا وجرفها التيّار.

يكتب ويكتب، لم يراجع ماذا كتب؟ كأنّه هذيان محموم لكن على الورق.

ثم داهمه صوت عدنان العزيزي:

- ماذا تكتب؟

وقبل أن يجلس أضاف:

- من الأحسن لك أن تلعب بهذا، فهي مهنة مناسبة لك تمامًا.

وكان يشير إلى مكان عضوه.

وقهقه غسّان العامري من تعليق صاحبه ثم قلب الورقة التي كان يكتب فيها، وهو يقول:

- لا أريدك أن تطّلع على أسراري، روائعي الشعريّة لن تقرأها إلاّ منشورة، ثم من يضمن أنّك لن تسرق أفكاري وتضعها في قصصك المتخلّفة عن ركب الحداثة، حيث ما زال مكسيم غوركي مثلك الأعلى فيها.

طلب عدنان قهوة مُرّة وهو يتأمّل صاحبه، وبعد ثوان نطق:

- وهكذا غادرتنا حنان عوّاد! كان الله في عونك يا غسّان؟.

وأضاف:

- أمام حالة كهذه، حيث تختلط الأمور بهذا التداخل العجيب لا يبقى أمامنا إلاّ حلّ واحد.

وتساءل غسّان:

- وما هو؟

- السخرية.

وهزّ رأسه مؤكّدًا:

- نعم، السخرية، انظر زكريّا تامر لقد هجا وضعنا العربي أمرّ هجاء، ولكن بالسخرية، لا بالتقطيب والتجهّم كما تفعل الآن.

- لكن غيّاث الإبراهيمي له رأي مختلف فيك إذ يقول عنك ما إن أرى عدنان العزيزي حتى تنقبض روحي، كأنّه يحمل كلّ مآسي الدنيا، وليس أمامك وأنت

تراه على هذه الحال إلاّ أن تدعوه لحفل بكاء ونواح، ولا أصدّق أنّ من يكتب ويتصرّف بهذه السخرية هو عدنان العزيزي نفسه.

- هذا لأنّه متخلّف، أنا درست الأدب في معهد غوركي وسبرت تاريخ الأدب الأوروبي كلّه والروسي منه بشكل خاصّ، فقد تكون ملامح إنسان ما منبسطة ومنشرحة ولكنّه لا يستطيع صياغة نكتة واحدة، هنا فرق العبقري مثلي عن غيّاث الإبراهيمي الذي لا أراه إلاّ وهو يزفر ويدخّن، فتنقبض روحي عندما أراه وليس هو من تنقبض روحه عندما يراني بكلّ وسامتي وبهاء طلعتي وطلّتي وتعلّق النساء بي.

وبعد أن فرغ من رشف قهوته نقل له غسّان نبأ قرار البلديّة بإزالة واجهة المقهى، فصرخ:

- أغبياء، لا يفهمون الجمال، لا يحترمون الذاكرة، هذا المقهى يجب أن يبقى، أن يحافَظ عليه ما دام كبار مبدعي البلد يرتادونه، وعلى رأسهم أنا طبعًا وبعض تلامذتي وأتباعي من أمثالك وأمثال غيّاث الإبراهيمي البدوي الجلف.
- لكنّه ابن البحر؟.
- وما الفرق؟ كما للصحراء بدوها للبحر بدوه أيضًا، وهذا الإبراهيمي مجرّد صيّاد سمك ينقع الماء المالح مؤخّرته لأنّه يسبح بدون مايوه طبعًا.

وقاطعه غسّان:

- سأنقل له ما قلته عنه!.
- انقله، وأنت وهو وهذا.

وأشار بيده إلى موقع عضوه ممّا دعا غسّان للقول:

- لا تُشر إلى المرحوم، دعه يتمتّع برقاده الأبدي.
- لكن هذا الذي تسخر منه الآن قد ولج جنائن نساء بقدر شعر رأسك، كان له مجد، وما زالت في انتظاره أمجاد أخرى.
- إنّك تواسي نفسك؟
- إنّ له عنفوانًا لا يخبو، وما دامت الدنيا مغلقة من حولي حيث السفر أبعد حلم بالنسبة للعراقي، فليس أمامي غير حرمنا المصون وأمري لله، كلّ شهر أو ثلاثة أسابيع مرّة، وهذه بطولة منّي.

وأطال غسّان ضحكته، وقال:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- أتعرف قيس لفتة مراد؟.
- كيف لا وقد عمل مصحّحًا في جريدة الثورة عندما كنت أعمل فيهـــا؟ ثم هـــو أكبر شعراء مدينتك، أو أستاذك؟.
- المهمّ، قبل أيّام التقيت به فسألته عن أحواله، فعرفت منه أنّ امرأته قـــد تركتـــه فاضطر إلى تطليقها، وهو يقيم في غرفة صغيرة في أحد الأزقّة المتفرّعة من شارع السعدون، ولكن سعادته الكبرى ليس في الطلاق بل لأنّ هذا الذي تتباهى به قد انطفأ ورقد رقدة أبديّة، وأخبرني بدون حرج أنّه مرتاح الآن، منصرف للقـــراءة والكتابة والنوم الهنيء، فلماذا لا تعترف يا صديقي عدنان بمثل ما اعترف به قيس وتكفّ عن الادّعاء؟.
- جسدي يختزن زادًا لا ينفد من أعظم أنواع الكافيار الروسي، وكلّه قد تحوّل إلى حيامن كامنة ولكنّ المهمّ المرأة، هناك نساء يتحوّلن إلى شعلة ويلبطن تحتك مثل السمك فأين أجدهنّ؟ أين؟ جئني بواحدة وسأعلّمها نيك الـــزبير ومـــا شـــرّع النجف الأشرف كما يقول شاعرنا الجواهري العظيم لأنّه فحل مثلي.

وطلب زجاجة بيرة فما كان من غسّان إلاّ أن طلب زجاجة هو الآخر، لكن عدنان طلب من النادل أن يحضر له قصبة مع الزجاجة لا كأسًا، فأثار طلبه اســتغراب غسّـــان وعلّق:

- لكنّك تشرب بيرة وليس بيبسي كولا؟.
- عليك أن تعرف بأنّ عدنان العزيري لا يتصرّف عن جهل بأصول الأتيكيـــت، ولو لم تكن جاهلاً لعلمت بأنّ أجدادي السومريّين العظام الذين كانوا مـــاهرين في صناعة البيرة كانوا لا يشربونها إلاّ بقصبة، هذا يعني أنّ أجدادي الســـومريّين قد سبقوا الأوروبيّين في استعمال القصبة لشرب المبرّدات بآلاف السنين، ولكن اطمئنّ فبعد أن أفرغ من شرب البيرة سأعطيك القصبة لتضعها في إستك حـــتى تسكر من تحت.

وانطلقا ضاحكين. وعندما حضرت الزجاجتان واصل عدنان القول:

- حتى قريتك البائسة أمّ هاون التي تقع على نهر الغراف لا أحد من أبنائها الجهابذة يعرف من حفر هذا النهر ومتى؟ أم تتصوّر أنّ العثمانيّين فعلوا ذلـــك؟ أم هـــي بريطانيا العظمى لا عظّم الله أجر ساستها من مسّ بيل وبرسي كـــوكس حـــتى مرغريت تاتشر لا دنيا ولا آخرة؟.

وسحب جرعة من بيرته وواصل:

- اذهب ونقّب في تاريخ أجدادك ما دمت تدّعي الانتماء للنسل السومري الفذّ لترى أنّهم الذين حفروا الغراف ضمن مشروع أنتمينا الإروائي الذي يأتي بالماء من دجلة إلى مدينة لكش التي لم تبق منها اليوم إلاّ أطلال مهملة.
- أتعرف بأنّ لكش لا تبعد عن أبو هاون وليس أمّ هاون إلاّ حوالى خمسة كيلومترات.

وتمتم عدنان:

- مدينة جوديه العظيم الذي أكّد المؤرّخون على عدله وعمله على إسعاد شعبه طيلة سنوات حكمه.

ثم استطرد:

- سيستغرب بعض الأغبياء وهم يرونني أشرب البيرة بالقصبة، لكن هذا لا يهمّ، سأمدّ لهم لساني وأكمل زجاجتي بهذه الطريقة. فالبيرة لها حظوة إلهيّة عند أجدادي ولا تتصوّر بأنّ لديهم نوعًا منها بل هناك أنواع هي دليل على شغفهم بالحياة، كانوا يعرفون كيف يعيشون وكيف يتمتّعون؟ حتى العرق كان من ابتكاراتهم أيضًا حيث يصنعونه من التمر، وبعد ذلك من العنب، أفهمت؟

وعلّق غسّان بلامبالاة متعمّدة:

- هذه معلومات من الممكن الحصول عليها من أيّ كتاب تاريخي.

وهزّ عدنان كتفه وقال:

- ممكن جدًّا، لكنّ المهمّ الاستيعاب وقراءة الدلالات من هذا السبق، ثم إنّي أفكّر في كتابة رواية قصيرة أربط فيها بين ذلك الماضي وهذا الحاضر، إنّني مأخوذ بطقوس الحياة الاجتماعيّة ومسارها، وعندما أخبرتك بأنّهم كانوا يشربون البيرة بالقصبة فإنّي كنت معنيًّا بالطقوس، وأضيف هنا أنّهم عندما يبدأون الشرب فإنّهم يتحلّقون حول جرّة كبيرة ويمتصّ كلّ واحد بقصبته منها.
- ألا يذكّرك هذا بمجالس القات في اليمن حيث يخزّنون جماعات لا فرادى فيتحوّل المجلس إلى برلمان يناقش فيه كل شيء بلا تحفّظ؟.

وأكمل زجاجته دون أن ينتبه إليه أحد، فطلب ثانية وهو يقول للنادل:

- ولكن هذه المرّة مع كأس.

وهما يزيدان من أعداد زجاجات البيرة أخذا يتذكّران زيارة حنان عوّاد ورعد الطويل وإياد الموسى ومنصف النجّار والآخرين.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان كلّ منهما قد شرب أكثر من خمس زجاجات بيرة حتى بان التعب على ملامح عدنان، وإذا بغيّاث الإبراهيمي يدخل فهتف به عندما رآه:

- جئت في وقتك، اجلس، اشرب أوّلاً كم زجاجة بيرة نخب أجدادي السومريّين الذين كان أجداد الشاعر المزعوم غسّان العامري ضمن إمائهم وغلمانهم وعبيدهم وسباياهم الأفارقة.

ضحك غيّاث وهو يوجّه السؤال لغسّان:

- لا بدّ أنّه هارب من زوجته؟.

وردّد عدنان:

- عدنان العزيري لن تكبحه امرأة أفهمت؟ سأظلّ حصانًا جامحًا دومًا.

وهنا تمتم غسّان:

- أنت «خوش طيز».

- 44 -

صورة تختصر وجهه، تطالعه كلّما دخل شقّته، كأنّ جدران الشقّة قد خلت من أيّ صورة أخرى.

زكريان أبقى أثرًا قبل أن يرحل ليس في صورة وجه غسّان العامري المعلّق على الجدار فقط، بل ربّما في آلاف الصور التي تضمّها بيوت أخرى من بيوت هذه المدينة المسكونة بالحزن ومواكب العزاء ويافطات الشهداء في حرب عمياء، لا أحد يجرؤ على الصراخ بأنّها الخطأ القاتل الذي دمّر بلدًا كان يحثّ الخطى ليكون في عداد البلدان المتقدّمة.

كلّ أموال البترول الوافرة تتحوّل إلى صواريخ وطائرات ومدافع وناقلات جند ودبّابات وسيّارات فولكس واغن برازيليّة وتويوتا.

حتى صار الناس يتندّرون وسط سعير المأساة بحكايات عن آباء وزوجات يتمنّون أن يقتل أبناؤهم ليحصلوا على «المكرمات».

يا زكريان ترى هل سأفقد عقلي بعد كل هذا؟!.

كان غسّان العامري على موعده اليومي مع عدنان العزيري ليذهبا، حلق ذقنه ووقف تحت مرشّ الماء عدّة دقائق وقد أطلق آلة التسجيل ليستمع إلى أغنية فيروز، حيث أهدته حنان عوّاد الكاسيت قبل سفرها:

سافرت البحار

لم تأخذ السفينة

وأنت كالنهار

تشرق في المدينة

كان يعيد الأغنية ويعيدها حتى خاف على الشريط من أن يتقطّع، لذا حمله إلى محلّ «تسجيلات الروّاد» وطلب من صاحبه أن يستنسخ له نسخة يحتفظ بها، وقد احتفظ الرجل بنسخة له بعد أن استأذن غسّانًا فوافق ولم يكن مقتنعًا، إذ كان يحسّ بأنّ الأغنية تخصّه وحده وليس من حقّ أحد غيره أن يسمعها. فكأنّ فيروز لم تغنّها إلاّ من أجل حنان ومن أجله.

يذكر غسّان بأنّه قد تعرّف على البعض من أسرة الرحابنة، منصور، الياس، ثم جيل الأولاد، مروان، غدي، غسّان.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقبل وفاة عاصي الرحباني بأيّام كان في زيارة لدار الأسرة في أنطلياس صحبة صديقه نصري الأسمر، وكان عاصي وبعد شفائه من الجلطة الدماغيّة قد تحوّل إلى نصف مشلول وفاقد لذاكرته، ويتصرّف كالأطفال وهو يسحب جسده الذي ضمر بصعوبة.

وقد انتبه غسّان وقتها إلى أنّ منصور الرحباني وهو في أوج اندماجه بحديث الشعر والموسيقى مع زائريه لا يتوقّف عن نَهْرِ عاصي ليكفّ عن عمل يقوم به ويصرخ فيه:

- عاصي، ارجع إلى مكانك، عيب!.

كما لم يصدّق أنّ هذا الإنسان هو نفسه عاصي الجبّار الذي كان يفرض هيبته على العاملين معه، وعندما يبدأ التحضير لعمل جديد لا يتوانى عن إطلاق الشتائم اللبنانيّة المعروفة بحقّ من يخطئ، ولم تسلم فيروز من لسانه وشتائمه عندما يتأجّج غضبه.

ويردّد غسّان وهو ينشّف جسده المبلّل بعد أن فرغ من الاستحمام وبصوت مسموع:

- راحت حنان عوّاد، حلّقت بها طائرتها، مضت سفينة الفضاء نحو قبرص، ومن هناك ستعبر البحر نحو ميناء جونيه استعدادًا للمغادرة إلى هناك، إلى أميركا!.
- أكمل تنشيف جسده ثم بدأ بارتداء ملابسه وتذكّر أنّه لبّى مرّة دعوة من مسؤول رسمي وحزبي كبير لحضور اجتماع ضمّ جلّ أدباء العراق المقيمين في بغداد، ولم يتوان هذا المسؤول عن إعلان قناعته بأنّ الشاعر من الممكن خلقه وإيجاده بسهولة، والمسألة بسيطة، ننشر قصائده في الصحف، نظهره في التلفزيون ونرسله بمهمّات ثقافيّة خارج العراق وقال بحسم عجيب:
- نحن لا نهتمّ إذا زعل هذا الشاعر أو ذاك فليكن معلومًا لديكم أنّنا كما نستطيع خلق الشعراء نستطيع أن ننهي شعراء آخرين.. الجواهري غادر العراق. لدينا سهيل صبري ومضر حسّاني، هما شاعران عموديّان وشابّان وبعد سنوات قليلة ومع اهتمامنا بهما سيكونان البديل.

وكاد غسّان وقتها أن يطلق صيحة فزع، وأحسّ بأنّ بلعومه قد جفّ إلى درجة أنّه لم يكن بمستطاعه انتزاع قطرة من ريقه ترطّب من جفافه الحارق.

وسمع صوت تزمير سيّارة عدنان، فمدّ رأسه من الشبّاك وأشار له بيده أنّه آت.

نزل سلالم العمارة مسرعًا ثم فتح باب السيّارة وجلس جوار صاحبه، وقبل أن ينطلق قرأ عليه نصّ رسالة جديدة موجهة إلى رئيس الدولة يطلب فيها السماح له بالسفر، سمعه عدنان ثم علّق:

- جيّد، مختصر مفيد، لقد كتبت لك رسالة أيضًا ولكنّ الغاية واحدة.

وعندما استدارت السيّارة يمينًا قال عدنان بألم:

- يا للمفارقات العجيبة! إن حصل ووافق لك الرئيس على السفر ووصلت لبنان تكون حنان قد غادرته؟.

- قل لي يا عدنان، نحن ندور داخل شبكة كبيرة، لا بدّ أن نحصل على موافقة كلّ الجهات، وكلّها أمنيّة، لجنة العاملين في الخارج، الأمن العامّ، المخابرات، الوزارة التي عملت فيها آخر مرّة، الجيش الشعبي والجيش الرسمي، منظّمة الحزب في المنطقة، ما هذا؟ ولماذا هذه الدورة العمياء التي تلفّنا؟!.

وفي منتصف الطريق المؤدّي إلى القصر الجمهوري استخرج غسّان الرسالة من المظروف ثم أخذ يمزّقها وهو يكزّ على أسنانه ويردّد:

- لا فائدة، لماذا نضحك على أنفسنا؟.

و لم يفاجأ عدنان بتصرّف صاحبه بل قال له بتمتمة:

- معك كلّ الحقّ.

فما كان من غسّان إلاّ القول:

- بي رغبة للخروج إلى البرّيّة، تحملني بسيّارتك وتتركني لا لأقضي حاجتي مثل قريبك المتخلّف الذي زارك ذات يوم فرفض دخول المرحاض، لا، فأنا متحضّر وكذلك أقربائي لكن عندي مخزونًا كبيرًا من الصراخ والشتائم الأكثر بذاءة في التاريخ.

وردّ عدنان ببرود:

- إن أحببت سآخذك باتّجاه السماوة أو الكوت وأتركك هناك لتعود إلى بداوتك واصرخ ما شئت!.

ولكن غسّانًا أطلق صوته ليغنّي تلك الأغنية المصريّة التي شاعت ذات يوم:

- على مين على مين على مين.

فشاركه عدنان الغناء:

- على مين يا سيد العارفين.

كان الجوّ ساخنًا لذا ردّد عدنان بشيء من التحذير:

- لو توقّف قلبي من وراء مشاكلك فأنت المسؤول.

- لا تسرع، قُد على مهلك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- لأنّنا في حديقة اللوكسمبورغ؟ ألا ترى هذا الغضب الذي تصبّه الشمس على رؤوسنا؟

تساءل عدنان بحيرة:

- وأين نولي وجهينا الآن؟

وكانت السيّارة قد عبرت جسر الباب الشرقي.

واقترح غسّان:

- ما رأيك ببار المرايا؟ هناك سنلتقي بوجوه الظهيرة من شاربي البيرة المثلجة وملتهمي اللبلبي والجاجيك وكبّة الموصل؟

- معقول.

ثم نظر إلى ساعته وتساءل:

- أليس الوقت مبكرًا؟.

- نجلس حتى يأتون فالبار مبرّد، ثم إنّ مثانتي معبّأة ببولة محترمة.

وسلك عدنان شارع السعدون باتّجاه البار، استدار حول ساحة كهرمانة التي كان تمثالها يتوسّط هذه الساحة التي تحمل اسمها وهي تسكب الماء من جرّها.

تأمّلها غسّان وكأنّه يراها للمرّة الأولى وعلّق:

- أتعرف بأنّ هذا أجمل تمثال في ساحات بغداد؟.

- أكيد، ولكن ترتيبها في الأهمّيّة يأتي بعد الجداريّات إيّاها، أفهمت؟.

- نعم فهمت، ذاك جمال ما بعده جمال ومتفرّد، لكنّني أتحدّث في حدود التماثيل البسيطة؟.

ثم وجد نفسه يقهقه، وهو يردّد:

- أنت أكبر دجّال يا عدنان العزيري، ليس دجّالاً فقط بل وجبان أيضًا.

- هي ريح صرصر، إعصار، طاعون، سَمِّه أو سَمِّها ما شئت وعليك أن تطأطئ رأسك حتى لا يجرفك في طريقه، والآن غيّر الموضوع، سأبحث عن ظلّ أركن فيه السيّارة أوّلاً، وعندما ندخل فسأفرغ أطول بولة في التاريخ، تدخل في معجم غينس.

وقهقه غسّان من جديد إذ إنّ صاحبه يتكلّم دون أن يظهر أيّ انفعال على وجهه.

كانا أوّل الواصلين إلى بار المرايا الذي لا يؤمّه إلاّ بعض الأدباء ظهرًا، ولولاهم لما قصده أحد لأنّ معظم روّاده لا يأتون إلاّ ليلاً.

وأخذا مكانهما وذهب عدنان إلى التواليت ليفرغ ما تعبّأت به مثانته. وتذكّر غسّان أنّ عليه إيصال مقالته عن تهديم كافتريا المنصور إلى جريدة القادسيّة لتظهر في العدد القادم، إن لم يجد فيها رئيس التحرير ما يحول دون ذلك، إذ إنّ أعمالاً كهذه لا بدّ أن تكون وراءها مصلحة ما لشخص متنفّذ، وقد أُبعد أُناس عن وطنهم بحجّة أنّهم ذوو أصول فارسيّة لأنّ هناك من طمع بالاستحواذ على بيت أو مصنع أو تجارة كانت لذلك المبعد. فكلّ الخروقات والادّعاءات ممكنة وسهلة التلفيق.

عندما عاد عدنان إلى مقعده تنفّس وتمتم:

- الحمد لله، هذه الحبوب التي أتناولها لإزالة الأملاح هي التي حوّلتني إلى مبوال على وزن مفعال.

كانت السخرية تأتي إلى حديث العزيري بشكل تلقائي ودون تكلّف.

قال له غسّان:

- فاتني أن أذكّرك بأنّ عليّ إيصال مقالتي للجريدة. لا بدّ من الدفاع عن هذا الرجل الطيّب أبو ريتا وأن لا ندعهم يفسدون حياته ومصدر رزقه بهذا الشكل، وهو الرجل الذي نزح إلى العراق مضطرًّا واحتجاجًا على ما يجري في بلده.

- وماذا قلت فيها؟.

- أن يبقوا عليها وأن لا يزيحوها.

وهزّ عدنان رأسه وهو يقول:

- لم أرد أن أفسد عليك يومك مبكرًا ولذا أجّلت عنك الخبر.

- وما هو؟.

- لقد أزاحوا الواجهة فعلاً صباح اليوم، كنت قادمًا لأستدير من هناك نحو مكتبة الرفيف فوجدت عمّال البلديّة ينقضّون عليها، وقد تجمهر الناس حولهم.

وهل رأيت أبا ريتا؟.

- لا، لم يكن هناك، يبدو أنّه لم يستطع تحمّل المشهد فانسحب إلى بيته. هززت يدي ومضيت وأنا أردّد في سرّي: حيّ أبو ريتا يا أولاد الإيه!.

وتألّم غسّان عند سماعه الخبر وهو ما أكّد اعتقاده بأنّ هناك أمرًا ما وراء هذه اللعبة الوسخة واللئيمة.

ومرّت بهما فترة صمت، أخرج غسّان خلالها الأوراق التي كتب عليها مقاله وقطّعها ووضعها في منفضة السجائر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حاول عدنان أن يغيّر وجهة الحديث ولكن بدون فائدة، إذ واصل غسّان القول:

- قلبي عند أبو ريتا، ولكن مع هذا سأكتب في الموضوع بصيغة أخرى، لن أدعه يمرّ، وما كتبته من قبل فات وقته، لذا قطّعته وهذه قصاصاته في المنفضة أمامك، لا بدّ أن يتحضّروا، حرام أن يكون في العاصمة مقهى واحد نظيف بدلاً من «الجايخانات» البائسة التي لا تسمع فيها غير الأغاني الهابطة وقرقرة النارجيلات وسعال الشيوخ المصدورين من كثرة التدخين؟ إنّ بلديّة العاصمة مدعوّة لرفع الحيف عن هذا المقهى وإعادته لما كان عليه ثانية، وأن لا تكتفي بهذا فقط بل وتشجّع على فتح مقاه مماثلة في أنحاء أخرى من العاصمة.

ونطق عدنان:

- وسأكتب أنا الآخر مقالاً، وندعو أصحابنا ليفعلوا ذلك، معن الماجد مثلاً.

جاءهما النادل بعد أن تركهما ليستريحا بعض الوقت بكأسي ماء بارد، ثم سألهما ماذا يشربان، فقال عدنان:

- مع هذه الحرارة الكافرة هل هناك بديل عن البيرة؟.
- والمازة؟.

أجابه عدنان:

- أنا أريد جاجيك وعليه شويّة زيت!.

ثم التفت مخاطبًا صاحبه:

- وأنت؟.
- بيرة مع صحن تبّولة.
- حاضر.

وانصرف النادل ليحضر لهما ما طلباه.

وبدأ زبائن الظهيرة بالقدوم، وكان لكل مجموعة مائدتها التي لا تستبدلها إلاّ إذا كان هناك من سبقها وجلس عليها مبكرًا.

جاء سامي محمّد الناقد السينمائي والمترجم وصلاح الأنصاري القاص وسليم السامرّائي الناقد ومنذر الجبّوري الشاعر والباحث في التراث ومحسن أطيمش الشاعر والجامعي، وتبادلوا التحيّات، وكانوا جميعهم مهمومين بمسح العرق الذي انساح من وجوههم وأجسادهم.

وجلساهم عادة ليست نهائيّة، فقد يغيّر أحدهم مكانه ويذهب إلى مائدة أخرى.

كان غسّان يحبّ هذا البار نظرًا لجوّ الإلفة الذي يسوده فزبائن الظهيرة هؤلاء يعرفون بعضهم بعضًا، وقد سمّاه القاصّ عبد الستّار ناصر في خاطرة نشرها ذات مرّة بـ «مملكة الظهيرة» وقد شاعت التسمية.

وكان هناك أدباء يسكنون مدنًا أخرى، ومع هذا إن قدموا لبغداد لاستلام مكافأة مقال من مجلّة أو تقديم كتاب للطبع يتوجّهون إليه ليبتردوا ويشربوا بعض زجاجات البيرة، ومنهم القاصّ محمود جنداري والناقد سليم الحامدي وغيرهما.

قال غسّان:

- من عادتي وكما تعلم أيّها العزيزي يا صاحبي أن لا أشرب ظهرًا إلاّ زجاجة واحدة، ومع هذا بي رغبة لأن أرفع الرقم إلى اثنتين، ثم أطلب بعدهما كبّة موصليّة فصاحب البار موصلي على حدّ علمي، المهمّ أنّ لديهم كبّة فاخرة.
- مشرّد وأعزب مثلك من حقّه أن يأكل، أمّا أنا فسأطلب مثلك زجاجة ثانية وبعد ذلك نمضي، لأنّ المدام تعدّ لي طعامًا خاصًّا!.
- أنت خوش.

وتوقّف قليلاً ثم أكمل:

- زوج، بعل، لا فرق.

وبعد ذلك بدأ عدنان بمشاكسة سامي محمّد الذي ما زالت آثار التعب بادية عليه و لم يأخذ كفايته من الراحة بعد، وكانت له طقوسه في الشرب منها أنّه يشرب زجاجته الأولى وهو صامت، ولكن بعد أن يسري مفعولها في جسده خدرًا ناعمًا يصبح مهيّأ لاستماع ما يتفوّه به أصحابه، وكان محسن أطيمش قد كتب مقالاً في مجلّة «الأقلام» يثني فيه على ترجمته لكتاب عن السيناريو. وقال لعدنان:

- ألست معي بأنّ هذا الكتاب قد جاء في وقته وسط غياب كتّاب سيناريو حقيقيّين في البلد؟.

لكن صلاح الأنصاري سبق عدنان في الإجابة:

- لا أحد يقرأ، إنّ من احترفوا الكتابة مضوا في سكّتهم وليس لأحد منهم النيّة في تحسين مستواه والتعلّم، إنّه مكتف بما يعرفه نتيجة للممارسة، هذا كلّ شيء.

أمّا عدنان فلم يترك الفرصة تمرّ دون أن يعلّق وهو يخاطب الأنصاري:

- صحيح أنّنا بحاجة إلى كتب لتعلّم السيناريو، لأنّ شركة متروجولدين ماير ستفتح فرعًا لها قرب الحلّة مسقط رأسك!.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فانطلقوا ضاحكين، أمّا سامي محمّد فقد اكتفى بابتسامة ناعمة.
وعلّق عدنان من جديد:

- ماذا في السينما العراقيّة غير أفلام مثل فتنة وحسن أو ارحموني أو عليا وعصام وهلمّ جرّا؟.

قال محسن:

- لا، هناك أفلام مهمّة، تلك كانت البدايات، لكن أفلام السنوات الأخيرة متطوّرة!.

ثم التفت إلى سامي وسأله:

- متى تنشر قصّتي حضرة المحرّر الثقافي المبجّل؟.

وسكت سامي أوّل الأمر إذ إنّه استلم القصّة قبل أكثر من شهر لغرض نشرها في مجلّة «ألف باء» التي يشرف على قسمها الثقافي، ولكنّه أجاب باقتضاب:

- غير صالحة، مستواها ضعيف!.

وكأنّ جوابه استفزّه فردّ:

- كلّ قصّاصي العراق لا يجرأون على الكتابة في مثل هذه المواضيع؟ ونشرها يجعلهم يتعلّمون منها، نعم أنا أستاذهم، بل أنا حتفهم.

وقال صلاح معلّقًا:

- أنا سلّمته قصّة قبلك ولم ينشرها بعد، هي قصّة واحدة كلّ أسبوع. هذه المساحة المتاحة في المجلّة؟.

فالتفت إليه عدنان:

- أنت مبتدئ، ناشئ، ما زلت تحبو رغم أنّك تجاوزت الخمسين ولا تقاس قصصك الساذجة بقصص عبقري مثلي.
- اترك المجال لغيرك، أعط فرصة لصلاح وآخرين.
- وهل أنا بحاجة لنشر قصّة في هذه المجلّة التعيسة وفوق هذا أتوسّل محرّرًا لا يحلم أن أسلّم عليه مثل سامي محمّد؟ أنا بحاجة للعشرين دينارًا مكافأتها بعد أن تنشر، هذا كل شيء.

وقال سامي وهو ما زال يتظاهر باللامبالاة:

- سأفكّر بعد أن أقرأها مرّة ثانية! ثم إنّك واقعي اشتراكي، وهذه قصص عفا عليها الزمن، حتى الأدباء الشيوعيّون صاروا حداثيّين، وأنت ما زلت متخلّفًا؟.

- أنا ربّ التجديد والحداثة، لكن محرّرًا متخلّفًا مثلك ينقصه الاستيعاب وقراءة الدلالات لا يمكن أن يفهم قصّتي!.

ودخل عبد الستّار ناصر، سلّم ثم جلس قريبًا من سامي بعد أن صافحهم، فعلّق عدنان وهو يشير إليه:

- تفضّل، هذا نموذج من القصّاصين الذين تتلمذوا على يديّ!

وهزّ عبد الستّار رأسه مؤكّدًا:

- صحيح، في البداية، وأيّام المراهقة، لكن بعد أن نضجت تجاوزته.

فصاح به عدنان:

- أتتجاوزني أنت بقصصك التي لا شيء فيها غير النيك من أوّلها إلى آخرها؟.

وجاء صوت منذر الجبّوري:

- وهل أنت ضدّ النيك؟.

ثم أضاف:

- اللّهمّ إلاّ إذا أصبحت غير قادر عليه؟.

- أنا غير قادر، تعال وامسكه وإذا أحببت أجلس عليه، وسأبرهن لك أنّني ما زلت نيّاكًا ولكن ليس على الورق! أنا نيّاك قولاً وفعلاً. أفهمتم أيّها المكبوتون الذين تتزوّجون عند استلامكم أوّل راتب شهري لا رغبة في تكوين أسرة بل مداراة لكبتكم بعد أن هرّأت أيوركم من العادة السرّيّة.

وصاح غسّان:

- سكوت، وصلنا إلى الأرض الحرام، غيّروا الموضوع.

كان سامي ورغم أنّه كاد أن يفرغ من رشف زجاجته الثالثة ما زال يتظاهر بالتماسك. أمّا في داخله فيكاد أن ينفجر من الضحك. نطق:

- إذا دفعت ثمن الزجاجات الخمس التي سأشربها في هذه الجلسة مع المازة فسأنشر قصّتك في العدد القادم.

واعترض عدنان:

- رشوة؟.

- سَمِّها ما شئت، دعني أستغلّ منصبي ولو مرّة واحدة، أتستكثر عليّ خمس زجاجات بيرة؟.

وقال صلاح:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- إذا دفعت قصّتي للنشر في الأسبوع القادم اشرب ستّ زجاجات على حسابي!.

وهنا جاء دور عبد الستّار ليقول:

- لقد جئته بقصّة لأسلّمها له اليوم، ها هي معي في حقيبتي، وإن دفعها للنشر في العدد القادم سيشرب سبع زجاجات مع المازة وسيتغدّى على حسابي أيضًا!.

وهنا ردّد عدنان بصوت ساخر موجّهًا كلامه إلى سامي:

- أنت ومجلّتك وهذا.

وأشار بيده إلى عضوه. فانطلق الحاضرون بالضحك، عدا سامي الذي اكتفى بأن تمتم بصوت خافت:

- هذه المجلّة مجلّة الحكومة، وإن هاجمتها يعني أنت ضدّ السياسة الثقافيّة والإعلاميّة للحكومة؟.

- ليكن ما يكون، أتتصوّرني سأخاف من كلامك؟.

وسأله عبد الستّار:

- وما اسم قصّتك؟.

- ابتسامة المرأة الرابعة.

- اسم جميل.

وسأله غسّان:

- ولكن الرابعة تعود للمرأة أم للابتسامة؟.

- لن أشرح لك أيّها الشاعر الجاهل، ستستنبط المعنى بعد قراءتها! هذا إذا استطاع فهمك القاصر على استيعابها.

ثم أضاف شارحًا:

- واسم هذه القصّة سأطلقه على اسم مجموعتي القصصيّة الجديدة لولا أنّ السيّدة حرمنا المصون قد تدخّلت، وهدّدتني بأنّها ستقلب الدنيا على رأسي إن لم أُغيّر الاسم إلى ابتسامة المرأة الأولى على اعتبار أنّها زوجتي الأولى والأخيرة، بعد أن اطمأنّت إلى أنّني لا أملك نوايا تدفعني للزواج بثانية رغم أنّ الحكومة أصبحت تسمح لنا بذلك، هات أير وخذ نسوان.

وقال منذر الجبّوري:

- قاصّ حداثوي وزوجته تفرض عليه حتى عنوان كتابه؟ لو فعلت امرأتي هذا لطلّقتها فورًا وتزوّجت من ثانية، أنت تفتقد الحزم لذلك لا أعتبرك مجدّدًا!.

وتأمّله عدنان وهو يهزّ رأسه:

- وهل ما تكتبه شعر؟ أم حجارة؟ أتتصوّر أنّك نزار قبّاني مثلاً؟.

- أنا أعظم منه، غزلي غزل عربيّ، يغترف من التراث.

وقاطعه عدنان:

- يغترف من طيزي.

وهنا انفجر الجميع بالضحك ممّا جعل غسّانًا يقول بعد أن هدأت القهقهات والسعال:

- الحمد لله أنّني طليق، وأستطيع الكتابة عن أيّة امرأة أشاء؟.

- وحنان؟.

- إنّها شاعرة وتفهم نزوات الشاعر؟.

- وهل تقبل أنت نزوًا منها بقصيدة غزل عن رجل آخر؟.

كان السؤال الذي وجّهه عدنان مفاجئًا له ممّا جعله يرتكن إلى الصمت المتأمّل بعض الوقت قبل أن يقول بلهجة حائرة:

- لا أدري!.

ثم أضاف:

- إذا حصل هذا فلا بدّ أنّ خللاً ما أصابني أو أصابها؟.

وبدأ البار يحتشد بالروّاد ممّا جعل استمرارهم بهذه الأحاديث متعذّرًا، فعاد كل منهم إلى مائدته.

طلب غسّان الكبّة الموصليّة التي لم يتأخّر النادل في جلبها له، قطّعها بهدوء، ثم غرس الشوكة في قطعة منها وناولها إلى عدنان:

- ذقها.

فتقبّلها عدنان منه وأخذ يلوكها بهدوء.

- ما رأيك؟.

- طيّبة.

هذا البار صار عنوانًا لكثير من الأدباء ولا يغادرونه إلاّ بعد الخامسة باتّجاه مطعم شعبي، لتناول أسياخ من الكباب أو اللحم المسمّى في العراق «تكّة»، ثم يتوجّه من ليس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

له ارتباط نحو مبنى اتّحاد الأدباء الذي لا يبعد كثيرًا عن المكان ليكمل سكرته هناك، فالنهار للبيرة والليل للعرق، هذه هي حكمة الشاربين المحترفين الذين أدمنوا ولا خلاص لهم منه، لذا تأكّلت كبد محسن أطيمش مبكرة وقضت عليه الخمرة وهو لم يبلغ الخمسين، وما سيجعل قلب سامي محمّد يتوقّف بغتة بعد سنوات قليلة، ويصبح صلاح الأنصاري أسير رجفة لم تغادره بحيث لا يستطيع حتى الإمساك بالقلم ليكتب، كانوا ينتحرون دون أن ينتبهوا.

أخذ غسّان يتأمّل أصحابه في إيقاعهم اليومي هذا، وهو يتساءل:

- متى يكتبون؟ وكيف يستوعبون ما يقرأون وهم على هذه الحالة من الخدر؟.

ونتيجة لكون هذا البار قد أصبح معروفًا حتى لدى الجهات الثقافيّة الرسميّة، فإنّ وزير الثقافة والإعلام شخصيًّا قد قال لبعض الأدباء الحزبيّين:

- شيء جميل أن يجتمعوا في مكان واحد حتى إذا احتجناهم لأمر طارئ سنجدهم بسهولة.

وقد حصل هذا الأمر الطارئ عندما خطر ببال رئيس الجمهوريّة أن يلتقي ببعض الأدباء ليتحدّث معهم، وكان قد تسرّب للأسماع وقتذاك أنّه أنجز رواية عنوانها "زبيبة والملك" قرأها القلة من المقربين منه. وقد عزّز بار المرايا الحضور بأكثر من عشرة أدباء وصحافيّين ولكنّهم كانوا آنذاك قد تجاوزوا الزجاجة الثالثة. حيث حُشروا في باص صغير، نقلهم إلى مكان اللقاء وهم يرتعبون خوفًا ظنًّا منهم أنّهم ماضون إلى حتفهم نتيجة لثرثرات السكر التي تتجاوز حدود المسموح به.

استمعوا هناك إلى نصائح وتساؤلات حول الوضع الثقافي، ثم سألهم عن مشاكلهم فلم يجد شاعر قصيدة نثر هو سلمان مزعل ما يقوله إلاّ أن شكا لرئيس الجمهورية من الصحافيّين ومسؤولي المجلاّت لإهمالهم نشر قصائد النثر، وعدم عنايتهم بها وهنا سأله الرئيس:

- وما هي قصيدة النثر؟

أجاب:

- قصيدة لا وزن لها ولا قافية.

و لم يجد الرئيس ما يردّ به غير أن يعلق بضحكته المعروفة:

- بهذه الحالة أستطيع أنا أن أكون شاعرًا؟.

- 45 -

تغييب الذاكرة، محو ما فيها، غسلها، كتابة سطور أخرى فيها أمر لن يتمّ، لن يكون.. إنّها ذاكرة شريفة، مخلصة، نقيّة، لذا لا يمكن لأحد أن يفلح في تغييبها وحرفها عن مواقفها ومواقعها، تراكم الأيّام يزيدها توهّجًا فتمنح ذخائرها وعطاياها. خسئ كل أفّاق يريد أن يحوّل الذاكرة إلى لوحة كتابة يخطّ عليها ما شاء.

(هذا الرأس بكلّ ما فيه، من ماض، من أحلام، من كبرياء، من أوجاع لن يقبل بالمسلّمات، لن يرضخ للأمر الواقع، لن يقبل إلاّ بالحقائق). هذا ما يردّده غسّان العامري وهو يقرأ ويقرأ حتى ينكفئ على وجهه تعبًا، أيّ طائر عاقّ هو؟ لماذا لا يذعن لقانون السرب؟ ويردّد الأغنية نفسها؟.

لكن غسّان العامري يكره قانون السرب، يحبّ التفرّد، شعرًا وحياة ومسارًا، لا يفرّط بأغنيته فهي هويّته، إنّها منه وله، بكلماتها، بلحنها، بإيقاعها، بكبريائها، يتمسّك بها حتى لو كانت نشازًا، حتى لو كانت في غير أوانها، لو كانت غريبة، لكن من يقدر على فتح الحوار؟ من يقدر على إظهار خبيء الأعماق؟.

لا بدّ لهذا المسار الأعمى، لهذه الأقدام المخدّرة من محطّة أمان، لأنّ كلّ الدلائل تشير أنّ الكارثة الأكبر آتية، كأنّ مئات الألوف من الشهداء الفقراء والمعاقين والأسرى والمفقودين مجرّد نفثات من السيكار الكوبي الذي أصبح موضة وعلامة فارقة لدى مالكي القرار.

(الحرب أكلتنا ونحن مخدّرون).

بعد أن أوصله عدنان العزيري إلى شقّته في تلك الظهيرة اللاّهبة وهو ممتلئ الجوف بالبيرة والكبّة الموصليّة، لم ينس أن يذكّره بأن يعيد إليه كتابه الذي أعاره له عن عبد الكريم قاسم ويؤكّد له بأنّه روائي وقصّاص، وقراءة التاريخ حتى القريب منه مادّة مهمّة لكتاباته، وهنا اختلاف القصّاصين عن الشعراء الذين هم مجرّد تجّار كلمات ليس إلاّ، وقد نطق بجملته هذه وحرّك سيّارته دون أن يسمح لغسّان بأن يعلّق على ما فاه به.

دخل غسّان شقّته بيت الضبع والتي كانت كفرن الخبز، تشعّ جدرانها المنقّعة بأشعّة الشمس بحرارة لا تحتمل، أمّا آلة التبريد فإنّ وجودها مكشوفة تحت وهج الشمس طيلة ساعات الظهيرة يجعلها لا تسكب إلاّ الهواء الساخن داخل الشقّة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقبل أن يفتح الزرّ الكهربائي المخصّص لها ملأ سطلاً بالماء ورشّه عليها، وأعاد الكرّة، ثم فتح الزرّ وبدأت بالدوران، كما قام برشّ باحة الشقّة الصغيرة بالماء، ومن ثم خلع ثيابه وبقي بملابسه الداخليّة وارتمى على الكنبة مجهدًا.

كان الكتاب الذي يتحدّث عن الزعيم الوطني المغدور عبد الكريم قاسم والذي طالبه عدنان بإعادته له على الطاولة الصغيرة جواره، لقد أتمّ قراءته ومع هذا لم يعده، كأنّ بينه وبين المكتوب عنه صلة لا تمحى، حمل الكتاب وتطلّع إلى وجهه الذي يملأ مساحة الغلاف بملابسه العسكريّة وابتسامته الشهيرة، هذه الصورة التي طبعت بملايين النسخ أيّام الثورة الأولى بعدما عرف المواطنون أنّه قائد الثورة والعقل المخطّط لها.

لكن أعداءه لم يتركوه يهدأ، انقلاب على انقلاب على انقلاب، وكلّ من لبس بدلة عسكريّة صار يطمح بحكم البلد، والخائن في عرف هذا شهيد في عرف ذاك، تحوّل الحال إلى صراع ديكة، ولكن جلّها ديكة مأجورة مدفوعة من الخارج لتقويض النظام. اختلاط أوراق لم يحصل في تاريخ أيّ بلد.

وتذكّر غسّان أنّ في مكتبته كتابًا آخر عن عبد الكريم قاسم وصله بيد زميل قادم من البلد الذي يقيم فيه مؤلّفه بعد أن غادر العراق معارضًا، فنهض وجاء بالنسخة وقرأ الإهداء: (إلى الشاعر الصديق غسّان العامري لتتأكّد بأنّنا ظلمنا هذا الرجل).

وقد تأكّد لغسّان بعد أن قرأه هو أنّ هذا ما حصل فعلاً، وأنّ هذا الصديق استطاع وهو بعيد عن وطنه أن يسترجع بموضوعيّة ما حصل في العراق منذ الثورة عام 1958 إلى الثمانينات، فوجد أنّ الأحداث تشير إلى أنّ العراق قد فقد زعيمه الحقيقي الذي لا تسيّره الحزبيّة أو الطائفيّة، ولم يحزّ أعناق من وقفوا بوجهه كما فعل الذين جاؤوا بعده.

لكن غسّانًا عاد إلى الإهداء، فتساءل: ومن الذي ظلمه؟ ومن تعني (نا) هذه؟ هل ظلمته أنا؟ هل ظلمه عهد جمال عبد الناصر عندما أطلق عليه المذيع الجهوري الصوت أحمد سعيد ليشتمه ليلاً ونهارًا من إذاعة «صوت العرب»؟ هل ظلمه الذين انقلبوا عليه وقتلوه بطريقة مشينة؟ من الذي ظلمه؟.

إنّ غسّان العامري يتذكّر جيّدًا الرجل الثاني في الثورة عبد السلام عارف الذي جاء إلى الناصريّة رسولاً من الثورة، وكان يصاحبه وزير من المدينة حيث أطلّ من شرفة محافظة المدينة والتي كانت تسمّى آنذاك بالمتصرّفيّة، كان بزيّه العسكري، حاسر الرأس، زحف الصلع فحصد كلّ ما في جبينه من شعر، وخطب في الجموع التي زحفت بالآلاف لتحيّة الثورة فيه، فإذا به يلقي خطابًا وكأنّ من ينطق به شخص شبه أمّي، لا يعرف معاني الكلمات أو دلالاتها، وتحوّل هذا الخطاب فيما بعد إلى نكتة يتبادلها الناس.

وممّا قاله: يا أهل الناصريّة يا من اشتقّ النصر من اسم مدينتكم... إلخ.

وهذا كلام معقول رغم أنّ اسم المدينة مشتقّ من اسم بانيها ناصر الأشقر، لكن ما ليس معقولاً الكلام غير المترابط الذي جاء بعد هذا الكلام، إذ قال في وصف الجمهوريّة بأنّها (جمهوريّة خاكيّة سماويّة إلهيّة!!).

وكان غسّان وقتها أحد الذين جاؤوا لينصتوا، فما كان منه إلاّ أن التفت إلى صاحبيه اللذين كانا معه، أحمد الباقري وعزيز عبد الصاحب وهو يهزّ يديه ساخرًا:

- ما هذا الهراء؟.

وانسحب الثلاثة إلى مقهى «كاظم شكير» الذي لم يكن بعيدًا عن المكان لينعموا بالشاي المخدّر على الفحم بدلاً من سماع هذيان هذا العسكري الأمّي، قال أحمد الباقري:

- إذا كان الجماعة كلّهم من طراز هذا فعلى العراق السلام.

ولكن عزيز عبد الصاحب قال:

- اعتمادنا الأوّل على زعيم الثورة وعقلها، أمّا هذا فمهرّجها كما يبدو.

كانوا عندما غادروا مكانهم أمام مبنى المحافظة قد لمسوا بأنّ هذا الاجتماع لن ينتهي بسلام ما دامت الهتافات قد بدأت تتقاطع، كلّ هتاف في جهة، وأحسّ غسّان بأنّ الأمور إذا ما سارت بهذا الشكل فإنّ البلد ماض إلى الهاوية، وأنّ تقاطع الشعارات والهتافات سيقود إلى التقاتل، والجماهير الهائجة العمياء التي عرفت الدم ستظلّ تلوغ به بعد أن سحلت جثّة الوصي على العرش عبد الإله ومثّلت به، وفعلت الشيء نفسه بالسياسي المخضرم نوري السعيد الذي أراد الفرار متنكّرًا بثياب امرأة، وقد حصل ما كان يخشاه حيث تحقّق ذلك القانون الصارم الذي تؤول إليه الثورات والانقلابات عندما تصبح كالقطط تأكل صغارها، وامتدّ نهر الدم والاختلاف ولم تصمد حتى تلك التجربة القصيرة العمر التي سمّيت بالجبهة الوطنيّة عندما استحوذ الحزب الحاكم على كلّ شيء، وحوّل الأحزاب الأخرى إلى مجرّد تابع له يستكمل به ديكور الديموقراطيّة التي أصبحت حلمًا مستحيل المنال، وكان الناس يتبادلون الطرائف حول هذه الجبهة وأشهرها ذلك الخطّاط الذي كان ينجز لافتة لتعلّق أمام مقرّ الحزب الشيوعي فأحسّ بأحد رجال الأمن يتابع ما يفعل فكان أن أردفها بجملة (لصاحبه حزب البعث العربي الاشتراكي).

لقد نحروا عبد الكريم قاسم واستلم الحكم قتلته ومن دعوا للوحدة في أدبيّاتهم، ولكنّ الوحدة لم تقم حتى يوم الله هذا، وليست هناك أيّة رائحة لها في سماء العرب بعد أن ارتفع العلم الإسرائيلي ليرفرف على أحد مباني القاهرة بهمّة السادات الذي عاقبه شعبه. ولكن ما فعله بقي، والعلم لم ينكّس بل بقي مرفرفًا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بدأ الهواء يبرد تدريجيًّا، وأحسّ غسّان بأنّه لا بدّ من القيلولة. لكن ما عبّأ فيه جوفه من بيرة وتبّولة وكبّة موصليّة أصبح يغلي فيه ونهض نحو المغسلة ودسّ إصبعه في فمه حتى بلعومه فانساح القيء المرّ من جوفه. بعد ذلك أحسّ بالراحة مع شيء من الصداع، نزع ملابسه الداخليّة وفتح مرشّ الماء لينسكب على رأسه وجسمه.

نشّف جسده وابتلع حبّة أسبرين ومن ثم أعدّ فنجان قهوة مرّة، وضعه على الطاولة جواره وقد أحسّ بأنّه في حالة أفضل.

كان فوق هذه الطاولة ملفّ لا يغادر مكانه هذا، وكان يضع فيه قصاصات صحف وبعض الأوراق التي يدوّن عليها ملاحظات ومشاريع قصائد، وبه يغذّي ذاكرته.

أمّة تقتل أبناءها بغباء وعماء، حتى جمال عبد الناصر مسخوه بعد موته، تركوا صغار الكتبة ينهشونه بلا حياء، حاكموا تاريخه، اتّهموه، وعبد الكريم قاسم قتلوه قبله ببشاعة.

يتساءل غسّان في سرّه:

- من البطل؟ من الشهيد؟ من الخائن؟ من يملك الحقّ في اتّهام الآخرين ومقاضاتهم؟ متى امتلكت الدبّابة والمدفع الشرعيّة؟ أين البرلمانات؟ أين صناديق الاقتراع؟.

أسئلة يحسّها غسّان وكأنّها أجساد موتى متعفّنة يحاول أن يبعث فيها الحياة، أو كأنّها طنين ذبابة سجينة في شبكة عنكبوت.

ووجد نفسه يصرخ بصوت عال وهو يضرب بقبضته التي كوّرها على صدره:

- أنا غسّان العامري تحوّلت إلى تلك الذبابة في شباكهم، فكيف أخرج قبل أن يمتصّني هذا العنكبوت الشره؟.

استلّ من الملفّ قصاصة من صحيفة لبنانيّة قرأ ما سطّره أديب لبناني عام 1949 في هذه القصاصة، فبعد إعدام أنطون سعادة في بيروت ذلك الرجل الاستثنائي مؤسّس الحزب القومي السوري الذي رفع شعار وحدة الهلال الخصيب، وقد كانت له جاذبيّته التي سحر بها عددًا من مثقّفي لبنان وسوريا فانضمّوا إلى حزبه، كان كاتب المقال سعيد تقي الدين أحد أعلام الأدب اللبناني ومن مناصري سعادة ورفاقه، وتحدّث فيه عن لحظات إعدامه بكلّ رهبتها وقبحها، وقد احتفظ غسّان بالقصاصة لأنّها تعيد إلى ذاكرته ما قرأه عن ما حصل لجثّة زعيم العراق عبد الكريم قاسم بعد إعدامه، إذ دفن ونبش ثم دفن ونبش إلى أن جاءت فكرة لرأس أحد منفّذي عمليّة الدفن، فكرة لا يعود بعدها أيّ أثر له إذ رمى بجثّته في نهر ديالى.

إنّ ما رواه سعيد تقي الدّين يشكّل وثيقة مضافة عن اهتراء الزمن العربي وأفول شمس الحقيقة عن السماء العربيّة، وبدأ يقرأ وهو يرتشف قهوته بتمهّل لتسقط رشفاتها في

جوفه الذي فرغ من الطعام: (حين فتحت الباب على صوت القرع الشديد في منتصف ذلك الليل وجدت نفسي أمام ضبّاط من الجيش يطلبون إليّ أن أرتدي ملابسي وأحمل صليبي وعدّة الكهنوت بسرعة، قلت: ما الخبر؟ أجابوا: سنعدم «الخائن» أنطون سعادة هذه الليلة ونريد أن تعرّفه وتقوم بمراسم الدين قبل إعدامه. وأقبل عليّ مدير السجن يعرّفني إلى نفسه، وأخبرني أنّ هذا هو الإعدام الثالث عشر الذي مَرّ به وأنّ الأمر بسيط، فأجبته: لقد مضى عليّ ثلاث عشرة سنة في الثوب الكهنوتي وهذا أوّل إعدام سأشهده، وكان الطبيب الذي اشترك معنا في الحديث مثلي لم يشهد إعدامًا في ما مضى.

ودخلنا حيث كان الزعيم سعادة فوجدناه مفترشًا بساطًا من قذارة ورقع، وكان هذا الفراش أقصر من قامته، فجعل من جاكيته وصلة بين الفراش والحائط كي لا ترتطم به قدماه. وكان نائمًا نومًا طبيعيًّا ورأسه على ذراعه اليسرى التي جعل منها بديلاً عن مخدّة لم تكن هناك، وأيقظناه فنهض حالاً، وبادرنا السلام وخصّني بقوله: «أهلاً وسهلاً يا محترم فأبلغناه أنّه لم يصدر عنه عفو عامّ وأنّ الإعدام سينفّذ به حالاً» فشكرنا باسمًا ورزينًا واستأذن بلبس جاكيته التي كانت مطويّة تحت قدميه فأذنوا له، فشكرهم من جديد ولبسها.. وخلوت به وسألته إن كان يودّ أن يقوم بواجباته الدينيّة فأجاب: ولِمَ لا؟ وطلبت إليه أن يعترف، فأجاب: ليس لي من خطيئة أرجو العفو من أجلها، أنا لم أسرق، لم أدجّل، لم أشهد بالزور، لم أقتل، لم أخدع، لم أسبّب تعاسة لأحد).

وتوقّف غسّان عن القراءة، وتساءل: ولكنّه وبكلّ هذه الصفات تمّ إعدامه، أراد أن يرى زوجته وبناته فلم يوافقوا، وقت الجلاّدين قصير. هي مهمّة عليهم أن ينجزوها بأسرع وقت، وطلب أن يقابل الصحافيّين فأخبروه أنّ ذلك مستحيل، قال لهم: (إنّ لي كلمة أريد أن أدوّنها للتاريخ) لكنّ الجلاّدين كانوا ضدّ التاريخ، لا يعنيهم أمر هذا التاريخ وبأيّ مسار سيمضي.

وعندما أخذوه لينفّذوا الإعدام فيه قرأ غسّان ما يلي: (وسارت الجيب بسعادة يحفّ به الضبّاط وخلفه تابوته وقافلة سيّارات وشاحنات من ورائه وأمامه ملأى بالجنود المسلّحة). كما قرأ: (ووقفنا في فجوة بين الرمال كأنّها فوهة العدم وقفز من بينهم مكبّلاً إلى عمود الموت المنتظر فاقتربوا منه ليعصبوا عينيه فسألهم أن يبقوه طليق النظر). وقرأ أيضًا: (وأركعوه وشدّوا وثاقه إلى العمود، وكأنّ الحصى آلمته تحت ركبتيه فسألهم إن كان من الممكن إزالة الحصى فأزالوها، فقال لهم: شكرًا، ردّدها مرّتين وقطع ثالثتهما الرصاص، فإذا بالزعيم وقد تدلّى رأسه وتطايرت رئته اليمنى وتناثرت الذراع اليسرى فلم يعد يصل الكف بالكتف إلاّ جلدة تتهدّل).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وانطلقت (هاع) من قرارة أحشاء غسّان حتى كاد أن يتقيّأ هذه الأحشاء، صرخ كالمجنون:

- لا، لا، لا.

ثم فتح علبة «الأتيفان» وابتلع حبّتين وبشاعة المشهد تطارده.

عبد الكريم قاسم سلّموا جثّته لجندي أحمق تافه بعد أن أمطروا جسده بالرصاص، وصوّروا الجندي وهو يتباهى بمسكه من شعره.

وعندما روى أحمد حسن البكر الذي أصبح رئيسًا للجمهوريّة بعد الإطاحة بعبد الرحمن عارف ذكرياته عن تلك المرحلة، إذ كان أحد الحاضرين في مبنى الإذاعة حيث تمّ إعدام عبد الكريم قاسم، أقرّ أمام عدد من الكتّاب والأدباء الذين استدعوا لسماع شهادته بشجاعة «كريم قاسم» - هكذا كان يسمّيه - وأنّ آخر كلمة قالها قبل أن ينهال عليه رصاصهم:

- سيأتي يوم تندمون فيه على فعلتكم هذه.

ولكن هذا اليوم لم يأتِ والدماء أغرقت البلد، ولم يفكّر أحد في مراجعة ما جرى علّ أنهار الحقد الجاهلي تتوقّف عن الجريان!!

كلّ شيء مرتبك، متداخل، مخيف، معتم، رغم أنّ الحرب على وشك أن تتوقّف بعد أن تعب الطرفان، وبعد أن أحسّت شركات السلاح أنّه لا بدّ من إيقافها في انتظار إشعال حرب أخرى في بؤرة متوتّرة لتدور عجلة الإنتاج.

عشرات المليارات من الدولارات ذهبت هدرًا، تحطّم البلدان، انسحق الشعبان، وسيعود كلّ شيء إلى ما كان عليه، لم يحقّق أيّ طرف انتصارًا، بل نصر كل طرف أنّه دمّر بلده وأباد شعبه.

مرّة قال صحافي لبناني كان في زيارة لغسّان في مكتبه عندما كان يعمل في بيروت:

– لم أجد حربًا همجيّة أكثر من هذه الحرب، حتى أخذ من أشعلوها يتبرؤون منها، وغرق العراق وحده في المحنة، على فكرة أنّ إيران أقدر من العراق على استيعاب كلّ ما يحصل لها من دمار، لأنّها بلاد واسعة وشعبها ثلاثة أضعاف شعب العراق ثم هناك موقعها الاستراتيجي.

و لم يعلّق غسّان بشيء، حاول أن ينصت فقط وآراء كهذا الرأي يسمعها يوميًّا لا بل إنّ محرّرًا في جريدة «السفير» قال له:

– هذه الحرب حتى لو ربحها العراق، وأقول ربحها بشيء من التجاوز لأنّه لا حدود للربح والخسارة هنا بشكل دقيق، فإنّ العراق سيكون مهزومًا حتى في نصره، مهزومًا ببلد مخرّب وعلاقة تاريخيّة ومصالح مشتركة دينيّة وسياحيّة واقتصاديّة انتهت ولن تقوم لها قائمة.

أحاديث وأحاديث يسمعها فقط، ولا يناقشها حتى لا تسجّل على لسانه أو تنسب له، وآنذاك سيورّط نفسه في أمور هو في غنى عنها. رغم أنّه مقتنع أنّ هذه الآراء لا تقول الحقيقة بل تدور حولها، وأنّ أسباب الحرب ما زالت غامضة و لم تتضح كلّها، وحكّام العراق ليسوا على هذه الدرجة من السذاجة ليتورّطوا في حرب كهذه.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أصبح منعم البصري جرح غسّان وسؤاله، لأنّهم أخذوه وغيّبوه، لا أحد يدري أين؟ ولماذا؟.

قال طارق المنصور محامي الشعب المقهور:

- تناهى إليّ أنّه أطلق الشتيمة العراقيّة الخالدة عندما جاءه ولده يشكو من سوء معاملة عميد الكلّيّة له، وكان في مكتبه عدد من الذين يجيدون تدبيج التقارير: (سأذهب إليه وألعن أبوه وأبو اللّي عيّنه) - أي من وضعه في مكانه الوظيفي - وبما أنّه عميد يتمّ تعيينه بموجب مرسوم جمهوري فإنّ من عيّنه هو رئيس الجمهوريّة، والشتيمة في مثل هذا الحال موجّهة إليه!.

ولم يستغرب غسّان هذا، وبإمكان الإنسان أن ينزل شتائمه على من شاء إلاّ (هو) الذي هناك في أحد القصور الجمهوريّة المتكاثرة.

وقد علم غسّان من طارق المنصور أنّ عيادته فقط هي التي خُتمت بالشمع الأحمر، وبقيت زوجته الفرنسيّة في بيتها مع ولديها، أمّا أحلام زوجته الثانية فقد أغلقت شقّتها وتحوّلت مع ولدها الصغير إلى بيت والديها في حيّ المأمون.

لم يره أحد من أسرته، ويبدو أنّهم قد نقلوه من الأمن العامّ إلى أحد سجونهم التي لا يعرف أماكنها الناس.

واستغرب غسّان من نزعة الانتقام هذه، من هذا التطرّف المريع في أخذ الناس مهما كان موقعهم بجريرة قد تكون تافهة.

هل من المعقول أن يذهب طبيب مشهور ويُذلّ بهذا الشكل لمجرّد جملة درج على نطقها العراقيّون منذ عشرات السنين في حالات الغضب ولم يؤولها أحد، أو يذهب بها بعيدًا؟ وأحسّ غسّان بأنّ بيروت أرحم بكثير رغم احتراب أهلها ورغم الصواريخ والكانتونات الطائفيّة.

بيروت التي نأت في الذاكرة حتى تحوّلت إلى مجرّد طيف، يزوره في فترات متباعدة. أيّ بيروت بدونها؟ بدون حنان عوّاد التي سافرت حتمًا، ولكنّها وعدته بأن تكتب له عندما تصل، ولكنّها لم تكتب لحدّ الآن.

وهنا جاءه وجه رانيا خليل الذي ظلّ له لغزًا، وظلّت له هي الأخرى لغزًا، كانا متباعدين رغم الصفاء العامر الذي ينفرش عليهما عندما يكونان معًا في مقهى «كاندي» بعد أن تغادر عملها متوجّهة إلى بيتها فيسبقها إلى هناك لتلحق به.

كانا يتحاربان في السرّ، يتبارزان، وكان غسّان يعرف أنّها ستذهب عنه، وأنّها ليست له، لأنّها لم تستطع انتزاع نفسها من سياق اجتماعي وديني، واعتزاز والديها

وأخوتها بصداقته لهم وزياراته التي تسعدهم لا تذهب أبدًا إلى التفكير بأنّ الذي بينه وبين رانيا من الممكن أن يتحوّل إلى حبّ. هذا أمر لم يخطر ببال أحد.

هنا وهو في وحدته، في شوارع بغداد المسكونة بالقيظ والخوف يتذكّرها، ويحسّ أنّها نبتة لا يمكن أن تواصل النموّ في أيّ أرض عدا لبنان، لم تتحدّث يومًا عن الرحيل إلى بلد آخر أبدًا، لا إغراء لأيّ مكان، لا في كندا أو أميركا أو فرنسا.. أو أستراليا أو.. كلّهم يحلمون ثم يعدّون أنفسهم إلاّ هي.

مرّة قالت وهي تقضم قطعة الحلوى بعد أن استردّت أنفاسها من تعب العمل:

– لن أغادر لبنان، تكفيني هذه المساحة التي لا تزيد على بضع كيلومترات طولاً ومثلها عرضًا. من جبيل حتى الحازميّة!.

أمّا حنان عوّاد فقد تملّكها هاجس السفر وقد عرفها وفكرة السفر تلحّ عليها.

أخذ غسّان يدور داخل الشقّة، بعد أن أدّى بعض التمارين الرياضيّة، ثم بدأ بحلاقة ذقنه ليأتي دشّ الصباح فالفطور.

وأكمل طقوسه ثم جلس ليرتشف فنجان القهوة، في ذهنه عدّة مشاريع، أوّلها أن يسأل عن أبي ريتا وما هي بدائله.. وثانيها لمعرفة أخبار الدكتور منعم البصري فربّما يكون الأمر كلّه «جرّة أذن»، كما يحلو لأجهزة الأمن المركّبة المتجسّسة على بعضها أن تردّ في بعض الحالات لمن يأخذوه عدّة أيّام، يتلقّى فيها عدّة وجبات من التعذيب بأحدث الآلات التي قيل إنّ ألمانيا الديمقراطية قد زوّدتهم بها.

عندما تتعالى الأسوار وتكتم الأسرار ينفتح المدى على سعته لكلّ الإشاعات، بحيث لا يستطيع المرء أن يفرز أيّها الصحيح وأيّها الخطأ؟.

كان يشرب قهوته بتمهّل، ولا يدري لماذا هو مداهم بوجه رانيا خليل بهذا الشكل، وبدأ يتمتم بأبيات قصيدة من ديوان كامل كتبه لها، وكانت هي تعرف ذلك، آنذاك علّقت:

– هل أستحقّ أن تكتب من أجلي كلّ هذه القصائد؟ أنا شخصيًّا لا أصدّق! أنت تمنحني ما ليس فيّ وربّما ما ليس لي!.

كان يرتشف قهوته ويحسّ وكأنّ وجه رانيا الشاحب، بشعرها الأشقر الذي تفوح منه عندما يتعرّق رائحة العشب البرّي، هو أفيونه الذي أدمنه.

وتصبح قهوته المرّة حلوة، يفوح منها الهال وماء الورد.

ثم عاد وقال بصوت مسموع:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- أرجو عفوك يا حنان، رغم كلّ جنوني بك هناك لوثة لم أبرأ منــها، تــداهمني كالصرع في وقت لم أتوقّعه، هذه اللوثة اسمها رانيا خليل التي بقي شيء منها لم تستطع مياهك بفيضانها الجميل أن تغرقه.

إنّ حكاية القلوب محيّرة يا حنان، يا رانيا، يا حبيباتي كلّكنّ، من تــوهمتكنّ ومــن ولجتكنّ ومن تحوّلتنّ إلى حلمي الدائم.

قال لنفسه:

- لا بدّ من قهوة أخرى، سأكسر قاعدتي لأصحو جيّدًا وأنفض عنّي حلم رانيــا الذي يلاحقني كما يلاحق القاتل طيف قتيله، لكنّني أحببتك يا رانيا، أحببتــك، و لم تصدّقيني، أو أنّك أردت أن تبقى بيننا مسافة ما، رسمها الدين المختلف وهنا الداء، واستكملها اختلاف بلدينا، وربّما أشياء أخرى في داخلك، لم تفصــحي عنها لي، فهكذا أنت كتومة لا تقولين كل شيء!.

كان غسّان كمن فقد شيئًا، وقد نسي ما هو، ولذا عليه أن يبحث عنه، ولعلّــه وفي خضمّ عمليّة البحث سيعرف جوابًا.

ها هي صورته التي أنجزها ذلك الأرمني المهاجر أبدًا زكريان، وكم من الأُسر لــديها صور من إنجازه إذ كان أمينًا إلى أبعد حدّ، وبعض الفتيات يخشين الجلوس أمــام عدســة كاميرا مصور غيره خشية أن تتسرّب صورهنّ وقد تترتّب عليها أمور هنّ في غنى عنها.

لقد قرّ قراره على رفعها وخاصّة أنّه قد وجد البديل بصورة لــه ولوالــده بعقالــه ويشماغه وعباءته، وهو يجلسه في حضنه وقد وضع على رأسه السدارة الفيصليّة، التي كان يرتديها الملك فيصل الأوّل، فشاع ارتداؤها بين العراقيّين الذين كانوا يحرصون على وضع غطاء للرأس، من الطربوش التركي المسمّى «فينة» إلى «الجرّاوية» البغداديّة، إلى «العمّــة» و«الكشيدة» و«العرقجين» وصولاً إلى الرأس الحاسر، عدا جيل الآباء فمعظمهم ما زالوا حريصين على وضع غطاء للرأس العقال والشماغ.

ولّما كان والد غسّان قد خصّه بهذه السدارة وهو في الثالثة أو أكثر من عمره، فإنّمــا أراد بها أن يدلّل على أنّه كان ميسورًا إلى حدّ ما قياسًا إلى بعض أبناء المحلّة الذين كانوا ما إن يصلوا بيوتهم قادمين من المدرسة حتى ينطلقوا حفاة في أزقّة عطنة لا تدخلها الشــمس إلاّ لمحًا، زقاق يختلط فيه البشر بالدجاج والبطّ والكلاب والقطط والنعاج والأبقار.

يتطلّع غسّان إلى صورته وهو في حضن أبيه محاولاً تقدير عمره فيها، إذ إنّه لم يــأت ببال أحد أن يكتب على ظهرها تاريخ التقاطها.

ويذكر أنّ والده قد أخبره بأنّه قد حمله في حضنه من الزقاق إلى السوق، حيث كان مصوّر هرم يرابط في الظلّ الذي يتركه جدار السراي الحكومي ليلتقط الصور للناس الذين يحتاجون إليها في معاملاتهم الرسميّة.

وعندما تهجم أشعّة الشمس على المكان وتقتحمه، فإنّه يحمل الكاميرا الكبيرة على ظهره ويذهب بها إلى بيته القريب من محلّة الصابئة، يصله لاهثًا، عرِقًا، حتى توقّف قلبه ذات يوم في منتصف الطريق، فتكوّم على الأرض وتكوّمت فوقه الكاميرا الثقيلة ذات الكيس الأسود الذي كان يمدّ رأسه فيه أثناء التقاط الصور.

كان موته المفاجئ قد ترك فراغًا في هذه المهنة لعدّة أيّام قبل أن يتحوّل إلى الناصريّة مصوّر فنيّ من سوق الشيوخ وقد ازدهرت مهنته، فاستأجر دكّانًا قريبًا تحوّل بعد أشهر إلى استوديو النجاح - هذا اسمه - وأصبحت له واجهة زجاجيّة عرض فيها صور بعض الرياضيّين التي التقطها، وكذلك صورة لبلبل الريف حضيري أبو عزيز الذي أمسك به عندما كان يمرّ بالسوق وأصرّ على أن يلتقط له صورة، كما وضع في الواجهة ثلاث صور للخيّاط «ستار بصّيص» الذي وهبه الله شعرًا تحسده عليه النساء.

كانت صورة غسّان ووالده رغم صغرها هي الصورة الوحيدة التي يتذكّر غسّان جيّدًا أنّها كانت مؤطّرة ومعلّقة على جدار الغرفة الوحيدة الكبيرة بعض الشيء من بيتهم المشيّد من اللبن - الطابوق غير المفخور - والطّين. وكما علم فإنّ والده شيّده وحده بعد أن قرّ قراره على الإقامة في الناصريّة إثر تسريحه من الجيش وترك قريته «أبو هاون»، ولم يستطع أحد ثنيه عن قراره.

وكانت تتوسّط البيت باحة واسعة غرس والده نخلة في وسطها للتبرّك بها، وكانت تمنح الباحة مساحة من الظلّ تجعل الوالد يفضّل إمضاء قيلولته تحتها بعد أن يفرش على الأرض حصيرة مبلّلة.

لكنّ الصورة سقطت ذات يوم وتحطّم زجاجها، ولم يفكّر أحد باستبدال الزجاج المكسور بآخر جديد، وقد وضعتها جدّته في الصندوق الخشبي الكبير ذي المسامير اللمّاعة الذي تخزّن فيه الثياب وبعض المقتنيات البسيطة وكذلك أوراق العائلة، دفاتر الحالة المدنيّة، طابو البيت وأوراق أخرى.

هذه الصورة النادرة عثر عليها غسّان صدفة وكانت قد تكسّرت أطرافها وبان عليها الاصفرار، إذ إنّ الأسر البسيطة لم تكن تفكّر في شراء ألبوم توضع فيه الصور حتى إنّ غسّانًا لم يجد صورة لأمّه بعد رحيلها وحتى جنسيّتها لم تكن تحمل صورتها، فكان المعمول

https://telegram.me/maktabatbaghdad

به وقتذاك أنّ بعض العوائل لا تسمح بوضع صورة للمرأة فيها، ولذا يُكتفى بكتابة كلمة «محجّبة» مكان الصورة.

وقد وضع غسّان هذه الصورة في ألبومه بادئ الأمر، ومن ثم استخرجها ووضع لها زجاجة وإطارًا وأحلّها محلّ صورته التي كانت مثار تهكّم عدنان العزيري.

عندما تقع نظراته عليها سيفاجأ ما دامت صورته المرتشة «المؤرمنة» قد رُفعت، ولكنّه إن حاول التهكّم عليها أيضًا سيعرف كيف يردّ عليه.

إنّ وجهه باسم حتى وهو طفل، يتطلّع إلى الكاميرا وكأنّه يخشاها، وربّما أتعب والده والمصوّر حتى التقطها.

أمّا وجه عدنان العزيري، فرغم كل قدرته الفائقة على السخرية، فإنّه يبدو وكأنّه يبكي أو يوشك على ذلك.

ماذا ستقول يا زكريان، يا سليل شعب أرمينيا الفنّان، أتدري بأنّ جدّنا الخالد «جوديه» ملك «لكش» العظيم الذي شيّد أكبر المعابد للآلهة «إنليل» و«باو» و«إينانا» و«نينكر زوا» كان يجلب النحاس والخشب والأحجار والذهب من كلّ مكان في الدنيا بما في ذلك بلاد أرمينيا؟ هكذا تقول كتب التاريخ وتسمّي أرمينيا بالاسم.

إذن فالعلاقة بيني أنا السومري العراقي وبينك ليست جديدة، لم تبدأ من تلك الليلة التي حملت فيها الكاميرا وجئت لتصوّر مراسيم زواجي، ولتبدأ بيننا بعدها صداقة، ناعمة، حرصت على أن تستمرّ بهذه الزيارات المتباعدة التي أقوم بها بين وقت وآخر إلى الاستوديو لتحيّتك فأراك وقد وضعت نظّارتك الطبّيّة وانهمكت بكلّ جوارحك في ترتيش الصور أو طبعها، تنهض وتطلب لي شايًا من الدكّان الصغير الذي حوّله صاحبه إلى مقهى يزوّد به المحلّات المجاورة له، أو تخرج لي زجاجة مبرّدات من ثلاّجتك الصغيرة، ونتحدّث قليلاً ثم أتركك مع عملك وأنصرف وصوتك يتبعني:

- سلّم على العائلة.

الآن يا زكريان لا عائلة لغسّان العامري، شطّب على كل شيء ولم يبق له إلاّ الرحيل.

رسالته إلى رئيس البلاد والعباد ذهبت، ولا جواب عليها، لذا يلوم نفسه كثيرًا. وكان عليه أن لا يكتبها، ومع هذا رضخ لمقترحات البعض وكتب، فماذا كانت النتيجة؟.

لقد أنقذت نفسك وأبناءك يا زكريان؟ ولو أنّك بقيت هنا لربّما كانوا الآن مجنّدين في جبهات الحرب، أو لجاؤوك بجثث بعضهم مقطّعة جمعوا من أشلائها ما استطاعوا جمعه،

لا بل إنّهم سيفعلون ما هو أكثر، فما الذي يمنعهم من انتزاعك شخصيًّا من الاستوديو مصدر رزقك وزجّك في الجيش الشعبي؟ كل شيء وارد في بلاد العجائب والغرائب هذه.

لقد فعلت الصواب عندما غادرت، أنقذت نفسك وأسرتك في اللحظة الأخيرة، كأنّك شممت بحدس المهاجرين الأبدي ما الذي يمكن أن يكون؟ وماذا تخبّئ الأيّام؟.

والدك هرب من المجازر، ذكرت لي مرّة بأنّه كان أحد ثلاثة نجوا بأعجوبة من شعب قدّم مليونًا ونصف المليون من أبنائه في عمليّات إبادة لم تحصل لشعب من شعوب الدنيا.

أمّا من سلموا فلاذوا بالفرار نحو لبنان وسوريا والعراق وأميركا وأستراليا.. إلى الدنيا الواسعة كلّها.

أنتم ضحيّة ضمير عالمي ملوّث، كما هو شعب فلسطين اليوم الذي أفنت مئات الألوف منه مجازر الصهاينة الوافدين من أرجاء الدنيا محلّقين على أجنحة خرافة بلهاء، خرافة جمعت بين صهيوني بولندي وآخر مغربي وثالث يمني ورابع أثيوبي.. وهكذا. تنكّروا للبلدان التي وُلدوا فيها وذهبوا ليبيدوا شعبًا ويحوّلوا الأحياء منه إلى لاجئين ومشرّدين، حتى وهو في بلاد الهجرة لم يسلم من المجازر فكانت مجزرة صبرا وشاتيلا التي خطّط لها أحد عتاة الصهيونيّة العالميّة المسمّى شارون، مجرم محترف، يتحرّك مثل كركدن أبله، يدوس كل ما يقف في طريقه.

دول العالم التي تدّعي التحضّر خانت شعبكم يا زكريان بعد أن سحبت اعترافها بدولتكم في معاهدة لوزان عام 1923. والشيء نفسه فعلته مع شعب فلسطين عندما منحت أكثر من نصف أرضه ومدنه للصهاينة لينشئوا فوقها كيانهم العنصري. ثم صاروا يقضمون الأرض الفلسطينيّة فاحتلّوا ما تبقّى منها ومعها أراض من بلدان عربيّة مجاورة، وكان السلاح الأميركي يحميهم وكذلك الفيتو الأميركي. وجعل إعلامهم العالم الغربي يحسّ بعقدة السامية فأصبح يدفع ويدفع وخضع طائعًا لابتزازهم.

أرأيت يا زكريان؟ من هروب إلى هروب نجا أبوك وتزوّج في سوريا ونزح إلى العراق ليقيم في المخيّم المخصّص للأرمن، كما هي مخيّمات اللاجئين الفلسطينيّين في العراق ولبنان والأردن وسوريا، وقد سُمّي مخيّمكم «كمب الأرمن»، الكامبات تتكاثر.

إنّ الأحلام لا تُغتال فقط بل يجري التمثيل بها، فحلم العودة يريدون وأده لولا بقيّة من نبض، من ثبات، هي الجذوة التي لا بدّ أن تتّقد لتقول بأنّها لم تصبح رمادًا ومازال فيها رمق.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هنا كنت يا زكريان، هنا ولدت، شببت، شبت. وفي كمب الأرمن تحديدًا، اجتمع شمل شتات من بقي حيًّا من شعبكم الجميل.

وتذكّر غسّان كيف أراد مرّة أن يقرأ إحدى قصائده لزكريان بعد أن سأله عن الشعر الذي يكتبه وصوره التي تمرّ به في الجرائد.

ولكنّ المشكلة في صعوبة إيصال المعنى له رغم أنّ زكريان يحفظ كثيرًا من الشعر الأرمني، وقد استدرجه ليقرأ له ولو قصيدة واحدة باللغة الأرمنيّة ومن ثم شرح معناها بالعربيّة، كانت قصيدة حبّ من تلك التي يتشارك فيها عشق الشعوب كلّها.

وقرأ غسّان أبيات قصيدته بهدوء، وأحسّ بأنّ زكريان منتبه له تمامًا، ومع هذا فإنّه لم يفهم كلّ ما ينطق به، ولذا وجد نفسه مضطرًّا للشرح فبدأت أساريره تنفرج.

شعبك مبدع أيضًا، أعطى وليام ساورويان الذي شغفنا مبكرًا بكوميدياه الإنسانيّة، وقصصه الحاذقة الطريّة الدالّة، وأعطى آرام خاتشادوريان، ذات يوم كان غسّان مغرمًا بسنفونيّته «حفلة تنكّريّة» وقد جاء بها على أسطوانة من موسكو في أواسط السبعينات.

وعندما علمت حنان عوّاد بحبّه لهذا العمل الموسيقي المبهر جاءته به مسجّلاً على شريط كاسيت ليسمعاه معًا في السيّارة.

كانت لدى غسّان قناعة لا تتزحزح بأنّ الشعب المبدع لا خوف عليه، وأنّه عنقاء كل الأزمنة. كلّما ظنّوا أنّهم أحرقوها هبّت محلّقة من رمادها.

يومًا ما وبعد الفتوحات الإسلاميّة المبكرة غدت أرمينيا ولاية تابعة للدولة العربيّة الإسلاميّة، هل يعرف زكريان هذا؟ حتى هو لم يكن يعرفه لولا قراءته لكتاب ألّفه الدكتور نعيم اليافي وشدّه عنوانه. فقراءة محن الشعوب تستهويه وكان عنوانه «مجازر الأرمن وموقف الرأي العامّ العربي منها».

ويذكر غسّان أنّ الكتاب قد قاده إلى ما لم يكن يتوقّعه، وعرف منه ما لم يعرف.

كان الخلفاء والمسلمون قد انتهجوا نهج الرسول والعهد الذي أعطاه لبطريرك الأرمن بعد أن قام بزيارة لمكّة المكرّمة، وطلب الأمان وحماية رهبانيّات الأرمن وأوقافهم في فلسطين. هذه السياسة فتحت الأبواب لتوسيع التفاعل التاريخي بين أرمينيا والولايات العربيّة الإسلاميّة.

نحن مثلكم بعض ضحايا آل عثمان، لم نحصد من استعمارهم لنا غير التخلّف، وجنّدوا خيرة شبابنا إلى حروبهم التي لا تتوقّف، كانوا يذهبون ولا يعودون، وبعد أن تحوّلت الإمبراطوريّة العثمانيّة إلى رجل مريض ممدّد على فراش النهاية تناهبنا المستعمرون الجدد،

وحوّلونا إلى دول، كانت تترسّخ وترتفع أسوار بعضها أمام البعض الآخر، رغم أنّهم كانوا يعلّموننا منذ المدرسة الابتدائيّة أناشيد تشيد بهذه الوحدة مثل: (بلاد العرب أوطاني من الشام لبغداد فمن نجد إلى يمن إلى مصر فتطوان). ولكنّها ورغم كل أناشيدنا لم تتوحّد، بل هناك بلدان عربيّة يدخلها الأميركان والأوروبيّون بدون تأشيرة، ولا تفعل هذا مع العرب وإن منحتها بعد جهد يذلّهم شرطتها في مطاراتهم. لم نتوحّد وبهتت الدعوات وعلت أسوار الحدود، صرنا مشبوهين حتى في أوطاننا، فكيف إذا أردنا الإقامة أو العمل في بلد عربي آخر؟ كان لبنان رئتنا بسماحته وشفافيّته، وكان لا بدّ من أن تُملأ هذه الرئة بالدخان الأسود حتى لا نشمّ إلاّ الحريق ولا يظهر من صدورنا إلاّ السعال والبلغم والبصاق.

قل لي يا زكريان أيّ جرح نحمل وأيّ ألم نعاني بعد أن غيّبوا أحلامنا؟ فلم يعد لنا إلاّ حلم واحد، حلم الفرار، الارتماء في المجهول؟ أن نكون أرمنيّي هذه الأمّة المدمّرة التي أخذها الشتات العربي نحو المنافي والمنائي البعيدة؟ لقد ضاقت والفرج عند الله كما يقول آباؤنا عندما تعتصرهم المحنة.

فاشيّة الطورانيّين ضدّكم، هي فاشيّة الصهاينة، هي فاشيّة حكّام لم يفتحوا مع الناس حوارًا، اعتادوا أن يُصدروا الأوامر وأن نردّ: سمعًا وطاعة، ننحني ليدخل الخازوق.

حنان عوّاد في أميركا الآن، هكذا توقّع غسّان، ثم ضحك في قرارته عندما تصوّر أنّها ستدخل أحد مطاعم زكريان فتأكل صحنًا من (الدولمة) العراقيّة التي أحبّتها، وربّما تفتح معه حوارًا قد يصل إلى غسّان فتكون المفاجأة.

ثم انتقلت نظراته إلى صورته وهو يجلس آمنًا في حضن والده هي كل ما بقي من ذلك الزمن النظيف، زمن القيم الجميلة والصفاء والمحبّة، حتى المعارضون للنظام كان لا يقسو عليهم لأنّ لهم امتدادات أسريّة وعشائريّة، ولم تستفحل الكراهيّة التي أججّتها الانقلابات العسكريّة حيث كل ضابط ما إن يصل إلى رتبة معيّنة حتى يحلم بأن يكون رئيس جمهوريّة، وكأن لا قيمة للشعب الذي ينادون باسمه.

لقد ذهب الماضي ذاك، ولّى إلى غير رجعة! مضى مأسوفًا عليه! صورته علامة عنه رغم بساطتها، لم يرتّشها زكريان، فتصبح ضحكته فيها ضحكة كاذبة وابتسامة بلهاء لا معنى لها، لماذا يبتسم؟ هل لأنّه تزوّج؟ وهل أنّ عملاً كهذا يدعو إلى ابتسامة الزهو الواسعة تلك؟ أم أنّها ابتسامة سخرية ممّا أقدم عليه طائعًا، راضخًا، راضيًا، لينضمّ إلى الآخرين كي يقبلوه بينهم، وإذا ظلّ عازبًا لن يجد من يؤجّره بيتًا، معنى هذا أنّه «زگرتي» أي بدون زوجة، وهي كلمة متداولة ربّما مصدرها تركي أو فارسي، وهي كالشتيمة، ومن يصل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الثلاثين ولا يتزوّج فمعنى هذا أنّ هناك سببًا، إمّا أن يكون عنّينًا أو لوطيًّا، لا أحد يفهم أنّه يريد أن يعيش بعيدًا عن المشاكل، ينصرف إلى الشعر والسفر دون أن تكبّله المسؤوليّة!.

لقد رضخ لما أرادوا وتزوّج، وصافحوه مهنّئين وهم يتمتمون:

- منكم المال ومنها البنون.

وجاءت بنتان، وسَعِد بهما فهو لا يفرّق بين ذكر وأنثى فزمن وأد البنات قد ولّى.

تزوّج وانضمّ للقطيع، انطفأت غلمته المهياج بعد أن ذاق عُسيلتها وبدأ الإيقاع يخفت، سقطت الأمور في اليومي المكرور.

* * *

استطاع غسّان أن ينشر مقالته عن مقهى المنصور بعد أن أعاد كتابتها، وبعدها بيومين ظهرت مقالة عدنان العزيري ولكنّهما لم تثمرا، مرّتا وكأنّهما لم تنشرا.

أبو ريتا وحده من فرح بهما، وأحسّ أنّهما ترمزان لوفاء أصدقائه الذين سيتركهم في بغداد وهو يفكّر في الهجرة إلى كندا حتى يستقرّ الحال في لبنان.

لم تبق إلاّ أربع موائد وهي لا تسدّ إيجار العمّال ولا مصروفات بيته.

قال أبو ريتا بعينين مدقّقتين في ضيق المكان:

- كأنّهم يدركون أنّ المكان لم يعد ملائمًا لمقهى، لذا صاروا يتردّدون عليّ عارضين شراءه، وأنا الآن مضطرّ لبيعه.

وكان أبو ريتا يجلس وأمامه طاولة صغيرة كتب عليها «محجوزة» قريبة من البار، وقد طلب من العمّال أن يبقوها محجوزة حتى قدوم بعض أصدقائه والمقرّبين، من غيّاث الإبراهيمي إلى معن الماجد فعدنان العزيري وغسّان العامري. وكانت الشمس على وشك الغروب عندما دخل سهيل صبري وهو يرتدي بدلة زرقاء من الحرير ورباط عنق غير آبه بحرارة الجوّ ما دام التكييف في كلّ مكان يذهب إليه، بيته وسيّارته المرسيدس الفارهة.

كان ينوي السؤال عن غسّان العامري فإذا به يواجهه في جلسته، فحثّ خطواته نحوه وهو يبتسم.

نهض أبو ريتا وصافحه إذ كان يعرف مكانته في النظام ووجهه مألوف، لكثرة ما يظهر في التلفزيون وهو يقرأ قصائده العصماء التي يصفها عدنان العزيري بأنّها كالضراط ولكن من الفم، لأنّه يصمّ إسته ويصرخ، ولولا ذلك لانهدّ منه ضراطان واحد من الفمّ والثاني من الإست ومعهما غيمة من الفساء.

استأذن أبو ريتا ودخل ليتفقّد شؤون المطبخ وتركهما وحدهما.

وبعد سؤال عن الصحّة والأحوال بادر سهيل بالقول:

- جئت أدعوك لحفل زواجي.

فضحك غسّان ثم غمزه وهو يسأل:

- كم رقمه؟

وردّ:

- والله لا أدري، كل يوم زواج وطلاق، ماذا وراءنا غير هذا؟.

ثمّ طلب منه أن يقرأ ما ورد في بطاقة الدعوة للزفاف ففعل، فعرف الزوجة وكذلك والدها إذ هي ممثّلة صاعدة، رآها في أعمال مسرحيّة وتلفزيونيّة تؤشّر نبوغها المبكر إضافة إلى طولها الفارع، وهي مؤهّلات تعزّزت بدراستها للمسرح في كلّيّة الفنون الجميلة. أمّا أبوها فممثّل وكاتب مسرحي وتلفزيوني معروف. له حضوره القوي منذ ثلاثين سنة وأكثر.

وودّ غسّان أن يسأله عن خفايا هذا الزواج ولكنّه تحدّث عنه بنفسه:

- رأيتها في التلفزيون مرارًا فأعجبتني، ولكن عندما رأيتها وجهًا لوجه وكنت في زيارة لمدير عام دائرة السينما والمسرح أعجبتني أكثر، وخلال أسبوع واحد أنجزنا كلّ شيء، ما دامت الفلوس موجودة وكذلك الجاه.. هل يحلم أبوها بأن يأتيه وزير الثقافة والإعلام بنفسه ليطلب يدها منه لي؟.

ووجد غسّان شفتيه تتحرّكان لتقولا:

- مبروك مقدّمًا، وسأحضر حتمًا، والمهمّ أن تكون هذه آخر الزيجات.

- مستحيل، ما زال على ذمّتي اثنتان غيرها، لي الحقّ في أربعة، هي لعبة شطرنج، أو الصحيح لعبة كراسي فارغة، لا بدّ أن يمتلئ كلّ كرسي بجالسة جديدة، سكْر ونيك وبلاك جاك وقصيدة عصماء، كلّما دعا الداعي لها أقول فيها إنّني هنا وإنّني ما زلت المحظي!.

ووَدّ غسّان أن يسأله:

- ومن الغبي في هذه اللعبة؟.

وكان واثقًا أنّ سهيل صبري سيردّ على سؤاله وبصراحة دون أن ينقل سؤاله إلى أولي أمره، وسيكون الجواب حتمًا بأنّهم هم الأغبياء!

بعد أن فرغ من ارتشاف قهوته توجّه بالسؤال إلى غسّان:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- هل تنتظر أحدًا؟.
- ليس بالتحديد، ولكن قد يأتي غيّاث أو معن أو ربّما عدنان إذا استطاع أن يفلت من زوجته!.

وأمسك بيده يستحثّه:

- تعال معي، أريد رأيك بأمر.

وبعد أن استأذن من أبي ريتا خرجا، وهكذا وجد نفسه في سيّارة المرسيدس البيضاء جوار سهيل، وكان العطر الفرنسي الثمين يفوح منه.

توجّهت بهما السيّارة نحو ساحة الفارس العربي الذي يعتلي ظهر جواده الذي يرفع قائمتيه بشمم. ومن هناك استدارت وهي تنساب ناعمة لا خشخشة فيها كما هو حال سيّارة عدنان نحو شارع الزيتون.

أصبح متنزّه الزوراء المترامي على اليسار، أمّا على اليمين فبيوت كبيرة فخمة وبطرز لم تعرفها بغداد من قبل إذ هي مثيرة للانتباه، وكان المارّة يتطلّعون إليها ثم يبتلعون ما يدور في أذهانهم من تعاليق، وإذا بسهيل يستدير في أحد الفروع ويتوقّف أمام إحداها وهو يقول:

- هذا بيتي الجديد.

وكان غسّان يعرف هذا من قبل، ولكنّه تظاهر بعدم معرفته.

أسرع الحارس المسنّ إليه متذلّلاً عندما رآه، ووجّه إليه أسئلة حول بعض الموادّ وإن كانوا قد جاؤوا بها أم لا؟.

وكان الحارس يردّ عليه وكأنّه خائف منه. استدار نحو غسّان ليشرح له:

- كلّ البيوت لكبار المسؤولين في الحزب والدولة، جاري نائب رئيس الجمهوريّة طه ياسين رمضان، سأكمل بيتي قبله.

وأشار بيده للبيت المقصود.

وعاد يسأل الحارس عن أمور أخرى، وعندما أجابه بأنّ أحدًا لم يأت صار يشتم:

- كس أمّهاتهم على أخواتهم، أنا أعرف كيف أعلّمهم.

ولم يهتمّ غسّان بمن يعني في كلامه هذا، ومن هم أولئك الذين يعرف كيف يعلّمهم؟.

أمسك بيد غسّان وهو يستحثّه بكثير من المباهاة ليطّلع على مرافق البيت الذي يشيّده من الصخور وليس من الطابوق، وهذه موضة الطبقة الصاعدة التي تريد أن تتميّز في كل شيء.

عاد إلى سيّارته استخرج منها كاتالوكًا ليريه إلى غسّان، وهو خاصّ بأحواض السباحة ممّا دفع غسّانًا لأن يسأله:

- وهل ستبني حوض سباحة أيضًا؟.
- طبعًا، ولا أعوم فيه إلاّ باللّيل وعريان تمامًا أنا والتي معي، هذا هو المعمول به حاليًّا خاصّة عند جيل أبناء الكبار، فبماذا يتميّزون عنّي؟
- ومن أين جئت بهذه التصاميم؟.
- من شركة إيطاليّة لديها وكيل هنا.

كان غسّان يقلّب صور أحواض السباحة وهو يكتم ضحكة قاسية في داخله، إنّه يقارن احتفاء هذا الفتى بالحياة والرفاه الذي لم يخطر على باله أبدًا، حتى ولو في الحلم، لأنّ الأحلام لا تقترب ممّا تجهله بل ممّا تعرفه وتتمنّاه.

غسّان أحسّ بالرثاء لوطن كامل، وطن يُنحر أبناؤه في أبشع حرب، بينما هذا الفتى مطلق اليدين، واسع النفوذ، لا أحد يفكّر بتجنيده في الجيش الشعبي أو إرساله إلى جبهات القتال، أمّا غيره من خيرة الشبّان المبدعين فيجنّدون بالجيش النظامي أو الجيش الشعبي.

كيف يعطي غسّان وجهة نظره بأحواض السباحة وهو لا يجد في شقّته غير زاوية صغيرة هي للاستحمام بدشّ يتدلّى من السقف، وهي مرحاض، وهي أيضًا مطبخ.

أيّة مفارقة أن يقول رأيه بحوض سباحة ملحق بفيلاّ شاعر لم ينشر حتى ديوانًا واحدًا بعد، و لم تصل قصيدة واحدة له إلى مجلّة أدبيّة معروفة؟.

لقد أفسدوا هذا الفتى وحوّلوه إلى متباه طائش. لا ينطلق من فمه عند الغضب الأجوف الشعر بل الشتائم التي يعود بها إلى أصله، من حيث جاء، من أزقّة الفقر والبؤس والفشل الدراسي. كان لا بدّ أن يحصل الخلل في شخصيّته.

إنّ خلله هو خلل صرح ثقافي عراقي عريق، أسّسه الكبار، من الرصافي والحبوبي والشبيبي والزهاوي إلى الجواهري فالسيّاب وبلند الحيدري وعبد الوهّاب البيّاتي ومحمود البريكان وذو النون أيوب وغائب طعمة فرحان وعشرات الأسماء الأخرى.

فهل سهيل صبري يشكّل البديل عن كلّ ذلك الإرث الخالد؟.

وتأكّد لغسّان فعلاً أنّ هذا الفتى الذي شوّهوه وأفسدوه باسم الشعر، ورغم كلّ ما أعطوه، إلاّ أنّهم قادرون على أن يركلوه على قفاه عندما يحيد عن الطريق الذي رسموه له.

أن يتمّ كلّ هذا وبهذا الشكل هو توريط وحكم بإعدام الإبداع الحقيقي الذي لا يمدح أو يتسوّل وإحلال البديل الآني والقصير النفس محلّه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أيّة قصيدة لهذا الفتى يذكرها الناس؟ لكنّهم ما زالوا كلّما خلوا بأنفسهم يستنجدون بما خزّنت ذاكرتهم من قصائد الكبار. الإرث الإبداعي الحقيقي الذي هو إرث بحجم العراق، من جلجامش حتى عبد الوهاب البيّاتي.

جاءه صوت سهيل المستفهم:

- لم أسمع رأيك؟.

- أقترح عليك أن تأخذ رأي من ستكون زوجتك.

فردّ باستغراب:

- هي لا رأي لها، وما عليها إلاّ أن تتعرّى لنعوم معًا، هذا كلّ شيء!.

وداعبه غسّان:

- قبل النيك أم بعده؟

- طبعًا بعده، وربّما أثناءه، ألم تجرّب النيك في أحواض السباحة؟.

وهزّ غسّان يده مقهقهًا.

- 47 -

صحا غسّان مبكرًا على صوت طرق على بابه فنهض وفتح الباب ليعرف من الذي جاءه في هذا الوقت المبكر.

- من؟

- أنا صلاح يا بيه.

فلم يجد حرجًا في أن يمضي ليفتح له الباب ليعرف ماذا يريد وهو بملابسه الداخليّة التي يضطره الحرّ للنوم بها.

بقي صلاح حارس العمارة واقفًا في الباب بعد أن حيّاه:

- صباح الفلّ يا أستاذ، إزّاي الصحّة؟.

- الحمد لله.

وكانت بيده ورقة وقلم، وسرعان ما شرح غايته من المجيء:

- لدينا عامل في الطابق الثالث عندما عاد أصحابه وجدوه ميتًا.

ففزع غسّان من الخبر وتساءل:

- وما السبب؟.

- نقلناه إلى المستشفى وقد يعطون الجواب ظهر اليوم.

- وهل أعرفه أنا؟

- ما أظنّش، جاء من كم يوم، ويشتغل في مخبز.

- وما المطلوب منّي؟.

- بدينا نجمع له شويّة فلوس عشان الطيّارة، لازم يندفن ببلاده، هوّ من أسيوط. ابن عمّه يصاحب جثمانه، إنّا لله وإنّا إليه راجعون!.

- اصبر شويّه.

وأخرج من جيبه ورقة من فئة العشرة دنانير هي كلّ ما يملكه عدا بعض القطع التي أبقاها حتى لا يفلس تمامًا. وقدّمها لصلاح الذي هتف:

- ربّنا يخلّيك يا أستاذ غسّان!.

ثم طلب منه أن يكتب اسمه والمبلغ الذي تبرّع به ورقم شقّته ففعل.

أغلق الباب ورجع ثانية إلى فراشه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أيّ ميتة هذه؟ ربّما جاء إلى العراق وهو معبّأ بأحلام كثيرة، أن يجمع مبلغًا ليشتري الشقّة، وقد لمس أنّها هدف كلّ الشبّان الذين سألهم، الشقّة، الشقّة، ولكن ها هو يُعاد إلى وطنه جثّة ليدفن في ثراه.

إنّهم يتوزّعون كلّ بلدان الدنيا، الخليج، لبنان، الأردن، والعراق عدا أوروبا وأميركا. وكلّ بقاع الدنيا لا بدّ من مصري غامر وهاجر، لكن انشدادهم إلى وطنهم حالة نادرة، من عارض نظامه، ومن كان من المحسوبين عليه، وهذا في أوساط المثقّفين عادة، مصر أوّلاً، أمّ الدنيا ثم يأتي ما بعدها.

كثير من هؤلاء الفلاّحين والعمّال والفقراء الذين وجدوا في العراق العمل والاحترام إنّما يأتون وهم يحملون معهم أمراضهم وأحزانهم، وقد جمعه الدكتور منعم البصري بطبيب مختصّ في الأمراض الباطنيّة ذات جلسة فاستمع منه إلى أحاديث عجيبة لا تخطر ببال أحد، فيها من الذكاء والرغبة في البقاء والعثور على عمل ما لم يستطع أن يتصوّره أحد.

ذكر ذلك الطبيب أنّ العراق لا يشترط عليهم تأشيرة دخول. هيّئ جواز سفرك، واقطع التذكرة ثم اركب الطائرة.. لكنّ الشرط الوحيد هو الفحص الطبّي، إذ على كلّ قادم أن يراجع خلال يومين أحد المستوصفات لإجراء فحص طبّي عام، وكان التركيز على أمراض المعدة والبلهارسيا بشكل خاصّ بالنسبة للمصريّين، تلك الأمراض التي خلا منها العراق لكنّها ما زالت في مصر ولها ضحاياها الكثيرون.

وأوضح الطبيب أنّ المرض قد بدأ يظهر في العراق من جديد، وعندما سأله غسّان عن السبب قال:

- هنا المفارقة المضحكة، عندما علم القادمون بأنّ هناك من أُعيدوا نظرًا لحملهم جرثومة البلهارسيا وجدوا حلاً لم يخطر ببال، هو أنّهم عندما يتأكّدون من سلامة أحدهم يصحبونه معهم يوم الفحص بعد أن يشرب كمّيّة كبيرة من الماء، وقد جرت العادة أن يُسلّم كلّ من ينوي الفحص أنبوبة ليحملها معه إلى التواليت ليتبوّل فيها، فكان يسلّمها لمن تأكّدت سلامته فيعبّئها بالبول نيابة عنه مقابل مبلغ مالي ليس أقلّ من خمسة دنانير. وعندما كشفنا الأمر وأحلنا الفاعل إلى الشرطة سألوه عن المهنة فقال ببساطة: بوّال.

وكم ضحك غسّان ومنعم البصري وقتها، وكانوا ينعمون في الهواء الليلي البليل الذي يتحرّك في حديقة نادي التراث.

لكن أيّ هواء يشمّ منعم البصري الآن؟ في أيّ معتقل من معتقلاتهم وضعوه؟.

كان الصمت الذي يشبه الخرس يتحوّل إلى تساؤل في العيون كلّما التقى غسّان صديقًا مشتركًا لهما، لا بل إنّ بعض أصدقائه كانوا مرتعبين لمجرّد أنّهم سهروا معه أو شربوا.

لكن غسّانًا ظلّ على اتّصال بزوجتيه، وليكن ما يكون، رغم أنّهما لا تعرفان شيئًا وكانتا تتوقّعان أن يأتيهما هو بخبر عنه.

إنّ ذكرياته مع منعم عامرة، وصداقته حقيقيّة، وكان مشدودًا إلى أريحيّته وكرمه النادرين وحبّه للحياة والمرأة الذي لا تحدّه حدود.

لكنّ منعم البصري آخر من يتوقّع أيّ إنسان اعتقاله، إذ له علاقات واسعة لا يملكها طبيب آخر ولكونه إنسانًا اجتماعيًّا تستطيع أن تألفه وتنشدّ إليه، وتحسّ بأنّه صديقك منذ أعوام.

ويتذكّر غسّان أنّه علّق على مهنة بوّال، وقال للطبيب:

- دلّني عليهم، وسأرخّص الثمن وأجعله ثلاثة دنانير، حسم دينارين، إنّها مهنة مريحة لا تتطلّب سوى أن أُخرجه و«أشخّ» كما يقول اللبنانيّون.

عاد غسّان إلى فراشه ولكنّه لم يستطع النوم، نهض وفتح الراديو بصوت واطئ مراعاة للحالة التي أصبح عليها كلّ الشبّان الذين يسكنون العمارة والمرتبطين ببعضهم من خلال انتمائهم لوطن واحد.

إنّها الشطارة، «الفهلوة» الجميلة، من شعب لا يعرف البكاء، كلّ جراحاته وانكساراته عالجها بالنكتة.

وكم تمنّى غسّان لو أنّ لديه فائضًا من المال لتبرّع بكلفة نقل الجثمان، ولكنّ الدنانير العشرة هي كلّ ما معه، وعليه أن يذهب إلى غيّاث الإبراهيمي ليأخذ منه مبلغًا، ومهما كان هذا المبلغ فإنّ غيّاثًا يرفض أن يستردّه منه.

أمّا عدنان العزيري فقد أخبره بأنّه لن يمرّ به صباحًا لأنّه سيصحب ابنه معه ويأخذه إلى المستشفى لمعالجة بثور انتشرت في جسده، حدّثه بهذا بعد أن غادرا الجامع الذي أُقيم فيه مجلس العزاء لزوجة زميل لهما كان يعمل مترجمًا في جريدة «الجمهوريّة» والتي نهشها السرطان اللعين وهي لا تزال شابّة.

وقد تولّى عدنان مهمّة القيام بالمراسيم.. فما إن جلسا حتى نطق بصوت ذي نغمة خاشعة:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- الفاتحة.

وراحت أفواه الجالسين تتمتم بكلمات السورة القرآنيّة الكريمة.

وبعد أن أتمّها صار يمسح بيده على وجهه بينما تتناهى إلى مسمعهما كلمة:

- الله بالخير.

تأتيهما من أفواه كل الجالسين وأغلبهم من أهل الثقافة والصحافة.

بعد ذلك أسند عدنان ظهره إلى الكرسي تاركًا أنامله تلتقط حبّات مسبحته الصفراء متصنّعًا الوقار والحزن.

التفت إلى غسّان وقال له بهمس:

- أريد أن أسأل ربّ العالمين لماذا لم يخلّصني من الكارثة التي عندي في البيت رغم أنّ فيها ألف مرض؟

ولكن غسّانًا كتم ضحكة كادت تنطلق من فمه، سرعان ما حوّلها إلى سعال.

وعندما غادرا «جامع بنّية» حيث أُقيم العزاء وأصبحا في الشارع أطلق غسّان العنان لضحكته المكتومة، لكن عدنان وقف وقد كسا وجهه وجوم مفاجئ انفجر بعده ببكاء عميق تحوّل إلى نشيج وألم.

- ما بك؟.

وصار يدعو:

- سامحني يا ربّي، لم أقصد شيئًا عندما دعوت على زوجتي في بيتك، احفظها لي فهي أمّي وأختي وزوجتي وعماد عائلتي!.

وعندما أصبحا في السيّارة تمتم قبل أن يدير محرّكها:

- لا أحد لي غيرها! لا أحد!.

وحاول غسّان أن يُهدّئه بقوله:

- كنت لا تصفها إلاّ بكارثتي ثم ها أنت تبكيها بهذا الشكل؟.

- صحيح أنّها كارثتي، ولكن يبدو أنّ هناك كوارث كالأقدار لا فكاك منها.

رفع غسّان عينيه إلى صورته وهو في حضن والده، وجاءته فكرة بعد أن حوّل بصره إلى أكداس الكتب التي حملها مع ثيابه بعد الطلاق، وهي أن يهدي كلّ ما حوته عدا المصادر والمراجع التي يعود إليها، ولا غنى له عنها، إلى مكتبة مدينته الأمّ الناصريّة. وتحمّس لهذه الفكرة. فهي البديل عن عرضها للبيع لتتناهبها الأيدي على أرصفة سوق السراي، أو يعرضها نعيم العصفوري في المزاد العلني وهي فكرة قديمة، كان المكتبيون الأوائل يقومون

بها. وقد روى ذلك في مذكراته قاسم محمد الرجب صاحب مكتبة المثنى العريقة. مزاد علني للكتب كل يوم جمعة أصبح قبلة الأدباء والجامعيّين للحصول على الكتب النادرة.

كأنّ فكرة الإهداء هذه أنقذته. فهناك عدد من الكتب عليها إهداءات بخطّ مؤلّفيها. وترك عينيه تسرحان بين الرفوف المحمّلة بركام كبير من الكتب، أكثر من ثلاثة آلاف.. لا بدّ من سيّارة حمل يستأجرها لتحملها إلى الناصريّة، سيّارة تقطع بهذه الكتب أكثر من أربعمائة كيلو مترًا جنوبًا.

مكتبة مدينته هي الأحقّ بها، لأنّ هناك شبّانًا لهم أحلامه نفسها عندما كان في عمرهم وهم بحاجة لكتب يقرأونها، ولكنّهم يسمعون بها و لم يروها؛ فاستيراد الكتب والمجلاّت مُنع بعد أن نشبت الحرب، وأموال النفط ذهبت إلى هذه الحرب أو المزارع الخاصّة والقصور التي سرقت شواطئ دجلة فسرقت معها طقوسًا كان العراقيّون يمارسونها منذ العصر العبّاسي وحتى السنوات الأخيرة.

في تلك المكتبة كانت قراءاته الأولى التي أسّست لتجربته هو وصحبه، يومها كانت المكتبة تشغل بناء جميلاً محاطًا بأشجار الصفصاف واليوكالبتوس والنخيل يقع على شاطئ الفرات، وكانوا يقصدونها وفق جدول، أربعة أيّام للرجال ربّما امتثالاً للآية القرآنيّة وللذكر مثل حظّ الأنثيين، ولذا جاءت حصّة النساء يومين فقط، أمّا يوم الجمعة فعطلة.

هناك في تلك المكتبة الأليفة بقاعتها الواسعة، التي تشرّع شبابيكها في الصيف وتدور في سقفها عدّة مراوح، قرأ طه حسين وأندريه جيد ونجيب محفوظ ومحمّد عبد الحليم عبد الله ومحمد مهدي الجواهري والبيّاتي والسيّاب وغيرهم، وقرأ أرسكين كالدويل وأرنست همنغواي وعلي الوردي، قرأ وقرأ وقرأ و لم يملّ.

وارتأى أن يبقي على الإهداءات كما هي، ويضيف تحتها بخطّ يده إهداء آخر إلى مكتبة مدينتي الأم الناصرية تعميمًا للفائدة. وبدأ بفرز كتب المراجع التي سيهديها لكلّيّة الآداب فبلغ عدد المفروز منها حوالى الثلاثمائة كتابًا، ووجد نفسه مندفعًا بحماس لأن يسطّر الإهداءات فكأنّه يستعدّ لمغادرة العراق فعلاً.

عليه أن يكون جاهزًا، لا بدّ أنّ رسالته في أحد الملفّات أمام رئيس الجمهوريّة ليؤشّر عليها بالموافقة فيطلق سراحه، ويصبح له جناحان ليستطيع الطيران حتى نحو جهنّم أو الجنّة، لا فرق، والمهمّ أيضًا أن يغادر المستنقع الآسن الذي رماه فيه الانتظار اللعين.

ثم فكّر قليلاً، وكأنّ غمامة سوداء غشيته عندما تذكّر بأنّ الوقت قد طال ولا جواب أتاه فما الحلّ؟.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قال متمتمًا مع نفسه: عليّ أن أسأل معن الماجد فهو أشطر منّي في معرفة كل المسارب، أو الدكتور زيد الحبيب فهو أستاذ جامعي، وكثير من المسؤولين الذين لم ينالوا نصيبًا من التعليم سجّلوا أسماءهم في الكلّيّات التي يريدون دون أن يداوموا ويراهم الطلبة بينهم. كانت علاقاتهم مع العميد ومع رؤساء الأقسام مباشرة، ومنهم من ذهب أبعد حيث سجّل اسمه في الدراسات العليا وهو لا يستطيع النجاح في الدراسات الدنيا. لقد استبيح التعليم الجامعي كما صرّح الدكتور زيد الحبيب ذات مرّة وهما يتناولان طعامهما المفضّل الذي تجيد زوجة زيد طبخه: الرزّ والبامياء تسبقه زجاجتان من بيرة فريدة المثلّجة.

كان زيد آنذاك يتوجّع من آلام في العظام وزيادة «اليوريك أسيد» في الدم الذي يتحوّل إلى انتفاخ في القدمين فيتعذّر عليه المشي بحذاء، لذا يلبس نعالاً. ومع هذا لا يلتزم بتعاليم الأطبّاء والابتعاد عن الأطعمة المحظورة. كان يعيش باحتفاء، يحبّ الطعام حتى لو كان فيه مقتله. يسيّره إحساس أنّه ما زال ذلك الشابّ الأشقر الذي تلتمع عيناه من وراء نظّارته الطبّيّة عندما تحطّان على امرأة جميلة، وبعد أن يشرب أربع زجاجات على الأقلّ من بيرة فريدة يتوجّه مع أصحابه نحو مطعمهم المفضّل «علي شيش» ليأكل دجاجة مشويّة كاملة، يمصمص عظامها مع الطرشي و«الكچاب».

كان ذلك قبل ثلاثين عامًا، حيث المعدة تطحن، والأجساد رشيقة، لا «يوريك أسيد» ولا «كولسترول»، ولا..، مرّة فوجئ غسّان بسؤال طريف من أحد شعراء العقود التي تلت بدايات جيلهم اسمه وليد جمعة:

- أتستطيع أن تفسّر لي لماذا يحبّ جيل الستينيّات من أدباء العراق وجبة الدجاج المشوي بعد البيرة؟.

وضحك غسّان من هذا السؤال الذي لم يتوقّعه.

***

حلق ذقنه وسلق بيضة واحدة، أكلها على عجل مع قليل من الخبز ثم شرب بعد ذلك كأس حليب بارد، ثم وضع برّاد الشاي على النار وتوجّه لارتداء ملابسه، ولكنّ طرقًا على الباب أعاده ليفتحه فإذا بصديقه زيد الحبيب أمامه فردّد:

- ابن الحلال بذكره!.

وكان من عادته أن يقوم بزيارات صباحيّة قصيرة لغسّان يتفقّده فيها وهو في طريقه إلى الكلّيّة. وكان غالبًا ما يطلب منه أن يخبره عن وجبة الطعام التي يحبّ تناولها عند الغداء

حتى يتلفن لزوجته من أجل إعدادها، كما يطلب منه أن ينتظره في شقّته أو مكان معيّن ليمرّ به عند عودته من الكلّيّة ليحمله معه إلى بيته.

وقد جاءه هذه المرّة بكيس من التمر القسب وسلّمه الكيس وهو يقول:

- هذه حصّتك، الفلاّح يخاف الذهاب إلى بستاننا في الدورة لجني التمر، فالصواريخ الإيرانيّة تستهدفها لوجود مصفى النفط فيها، ولو حصل وسقط صاروخ على المصفى ستكون الكارثة.

علّق غسّان:

- تعرف أنّني أحبّ هذا التمر ولكنّني أتحاشى أكله لما فيه من مخاطر تأجيجيّة لي.
- لا يكلّف الله نفسًا إلاّ وسعها، اجلد عميرة وتحلّ المشكلة، أو حوِّل وجهتك نحو الغلمان.

وضحك غسّان وهو يقول:

- أعوذ بالله، كلّ شيء صار متأخّرًا.. ذوقي حريميّ، أحبّ النسوان.
- وهنّ يحببنك أيضًا، أنتم الشعراء لكم المقدرة على اللعب بعقول النساء! أحبّكِ، أرى البحر في عينيكِ.. وتنطلي عليهنّ اللعبة!.

ثم نظر إلى ساعته وهو لم يزل واقفًا، وقال:

- عليّ الذهاب. لديّ درس بعد ربع ساعة، انتظرني في الواحدة والنصف، عندما تسمع صوت تزمير سيّارتي انزل.
- الشاي على النار!.
- شكرًا، شربت استكانين في البيت.

وهنا قال غسّان:

- انتظرني ثلاث دقائق فقط وسأنزل معك.
- إلى أين؟
- إلى جريدة القادسيّة.
- هيّا بسرعة.

وعندما تحرّكت بهما السيّارة، قال غسّان:

- لو لم تمرّ بي لاتّصلتُ بك لآخذ رأيك في موضوع رسالتي التي بعثت بها لرئيس الجمهوريّة ولا جواب.
- أتصدّق أنّها ستصل إليه؟.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- وما العمل؟

عدّل من وضع نظّارته قبل أن يقول:

- لا بدّ أن نبحث عن شخص يستطيع إيصالها إلى سكرتيره الخاصّ، يسلّمها لـــه باليد!.

- وهل هذا ممكن؟

- طبعًا، كلّ شيء ممكن في عراقك هذا الذي أصبح ولاية بطّيخ كما يقول المثل!!.

- 48 -

عندما يكون زيد الحبيب بصحبة صديقه غسّان العامري فإنّه يفجّر كلّ خزينه من الألم المكبوت. فهو يعيش في الواجهة من خلال موقعه كرئيس لقسم الإعلام في كلّيّة الآداب. وكان يرى المشهد بوضوح ولكنّه عاجز عن القيام بأيّ عمل.

كان زيد في زيارة صباحيّة لغسّان وقد وجده صاحيًا، أعدّ غسّان ركوة القهوة ووضعها أمامهما ليسكب كلّ واحد حاجته منها.

وعاد غسّان ليسأله، من جديد السؤال الذي وجّهه إليه قبل أيّام إن كان يعتقد بأنّ رسالته إلى رئيس الدولة قد وصلت؟.

وبعد أن مدّد ساقيه وهو يلقي بظهره على مسند الأريكة بتوجّع نطق:

- أنت بطران، صدّقني، أتتصوّر أنّه سيهتمّ بمثل هذه الأمور؟ سألت من أجلك فأخبروني أنّ هناك فلترًا لا يرشح إليه شيء إلاّ بعد أن يمرّ به، والفلتر هنا الصهر الذهبي فإن كنت تعرفه أو تعرف أحدًا يعرفه سيكون كلّ شيء على ما يرام. غير هذا لا شيء، أريد أن أريحك بجوابي هذا لا أن أحبطك.

وأحسّ غسّان وكأنّ صدره قد تحوّل إلى شظايا زجاج حتى القهوة توقّفت عند بلعومه و لم يطق ابتلاعها.

وعاد صوت زيد ليقول:

- لكنّ الأشياء لا تبقى على ما هي عليه! والمتغيّرات آتية لا محالة..

ردّد غسّان:

- أحسّ وكأنّهم يتمتّعون بساديّة عجيبة، لماذا هذا؟ كان بالإمكان أن تأخذ الأمور مسارًا آخر، ولكن!.

- لقد قلتها يا عزيزي غسّان، المشكلة في لكن هذه!.

وعاد لاحتساء قهوته بعد أن أضاف لفنجانه من الركوة:

- لم تخبرني برأيك عن التمر الذي جلبته لك؟.

- ممتاز جدًّا، ولكن لا منافذ له إن تحوّل إلى مَنّ تنوء به خصيتاي؟.

- أنت تثير دهشتي! هل هناك ما هو أسهل من الحصول على امرأة في هذا الوطن المنكوب؟ الحرب خرّبت كلّ شيء. ليس النفوس فقط، بل والأخلاق،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ونصيحتي لك أن تبحث لك عن واحدة للتفريغ فقط، كُل التمر بكثافة وتهيّأ للعمل الطالح.

ثم ضحكا بقهقهات عالية وسط الصمت التامّ الذي يلفّ العمارة، فقاطنوها من العمّال المصريين توزّعوا بين من غادر إلى عمله الصباحي ومن عاد من عمله الليلي لينام.

قال زيد:

- قهوتك لذيذة، علينا أن نشكر اللبنانيّين لأنّهم علّموك كيف تتقن إعداد القهوة! ولكنّني أخشى الإكثار منها حتى لا يصعد الضغط وأنا على درجة من التوتّر لا أُحسد عليها.

بعد أن صفن لبعض الوقت عاد ليبثّ بعض همومه لغسّان الذي كان يراقبه ويحسّ بما هو عليه:

- الصحّة تتدهور وأنا لم أبلغ الأربعين بعد، كوليسترول، يوريك أسيد، دوران بلا جدوى، محاضرات، إشراف على رسائل ماجستير ودكتوراه، اجتماعات.. ثم الأسرة ومتطلّباتها حيث لا تحصل على أيّ شيء إلاّ بعد الوقوف في الطابور.

قاطعه غسّان بقوله:

- ألم يكن هذا اختيارك؟ كان بإمكانك أن لا تقبل بكلّ هذه المسؤوليّات، ولا تنس أنّك كنت واحدًا من بين أهمّ الذين دشّنوا عهد الستينيّات بنمط من الكتابة القصصيّة المختزلة وبرعت فيه أكثر من غيرك!.

هزّ يده وهو يتمتم:

- كأنّ زيد الحبيب ذاك إنسان آخر لا علاقة له بي! حتى كتبي الثلاثة التي جمعت فيها هذه القصص أقلّبها أحيانًا في مكتبتي وكأنّ إنسانًا آخر غيري كتبها، لكنّها مع هذا تشكّل حنيني إلى أجمل الأيّام التي عشناها معًا، كلّ أحبّتنا الجميلين بصخبهم وأحلامهم المجنونة، أين ذلك الزمن بكلّ ما فيه؟ الأعظميّة، شارع الرشيد، بارات شارع أبي نوّاس، سرجون وبلقيس وغاردينيا ومطعم علي شيش وكبّة سوق السراي، والبحث عن جريدة تافهة يرضى صاحبها نشر تجاربنا الكتابيّة الغريبة على ذائقة أدبيّة محنّطة!.

وعاد ليرتشف ما تبقّى في فنجانه وهو يرمي رأسه إلى الوراء قليلاً، فكأنّه يتطلّع إلى سقف المكان بينما يتسرّب صوته المتداعي:

- زيد الحبيب الضامر الطويل، ببشرته الحمراء وشعره الأشقر الكثّ، وهو الذي لم يصل وزنه إلى سبعين كيلوغرامًا! كيف امتلأ وترهّل وتعدّى المائة كيلوغرامًا؟ كيف تحوّل تنحيف جسدي إلى همّي الموجع؟ موعد الوزن السنوي لموظّفي الدولة قريب، دولة تريد ترشيق موظّفيها وشعبها رغم أنّ الحرب قد رشّقت الشعب بما فيه الكفاية، رشقته بأكثر من مليون ونصف المليون بين شهداء وجرحى وأسرى ومشوّهين. وإذا لم أخفّض الوزن إلى ثمانين كيلوغرامًا على الأكثر فمعنى هذا الحصول على عقوبة إداريّة. فتصوّر؟.

وهنا ضحك غسّان ملء صوته ثم ردّد وهو يهزّ يده:

- هذا قانون خرافي، كيف فكّروا به وأعلنوه ونحن في أتون الحرب؟

ثم حرّك رأسه يمينًا وشمالاً كالباحث عن شيء قبل أن يواصل حديثه، وكأنّه يكلّم نفسه هذه المرّة:

- المهمّ أنّني حرّ الآن، مطْلق ومطلّق. ولا أحد يطالبني بزيادة وزني أو إنقاصه، ليكبر كرشي ويندلع أمامي، أو ليضمر كبطون الرياضيّين. فلن يهمّهم أمري. أمّا أنت يا دكتور زيد! فمن أعمدة الدولة ومطلوب منكم أن تترشّقوا وتتمتّعوا باللياقة البدنيّة وخفّة ظباء الصحراء.

ثم قهقها معًا، وفي نبرتي قهقهاهما هناك جراح تنزف. قال زيد:

- ثلاثة أرباع أيور المسؤولين توقّف نشاطها حتمًا. هذا ما أكّده قريب لي اختصاصي في التغذية من إحدى جامعات ألمانيا، وهم الآن يندبون حظّهم التعيس بعد أن سمح لهم رئيس الدولة أن يتزوّجوا بثانية شابّة تضاف إلى أمّ الأولاد!.
- هذا ما أكّده لي منعم البصري أيضًا. ولم أصدّقه بادئ الأمر، صاروا يسألونه عن طريقة للتنحيف لا تؤثّر على الفعل الجنسي!.
- ولهذا أخذوه وأخفوه، ربّما لتندّره عليهم، أو ليرشّق السجّانين ورجال الأمن والمخابرات ما دام اختصاصيًّا في الطبّ الرياضي واللياقة البدنيّة.

ثمّ تابع بعد أن ابتلع ريقه:

- المهمّ أنّها تخريفة جديدة لإلهاء الناس وتحويل همومهم ومشاكلهم عن مساراتها. أيّة لياقة؟ ليدعوا الناس يمارسون اللذة الممكنة متمثّلة بالنكاح والطعام. وبدون طعام جيّد لا وجود لنيك جيّد، هذه قاعدة. والمهمّ أنّني أحمل الدكتوراه في الإِعلام وليس في الطبّ الريّاضي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- أنت اخترت طريقًا لم تخلق له.

وكان غسّان بتعليقه هذا يذكّره بما سبق أن قاله له عندما تقدّم إلى مديريّة البعثات بطلب الحصول على بعثة، وقد اقترح عليه غسّان وقتذاك أن يختار الأدب المقارن، لكنّه أصرّ على الإعلام ظنًّا منه أنّه سيفتح له آفاقًا في عالم الدبلوماسيّة، ولكنّ شيئًا من هذا لم يحدث، وذهب في مهمّات إعلاميّة بسفارات البلد موظّفون لا قدرة لهم على كتابة سطرين إلاّ في التقارير السرّيّة، وبينهم من أكمل الدراسة الابتدائيّة فقط أو كان معلّمًا للرياضة البدنيّة.

نهض زيد بعد أن نظر إلى ساعته وقال:

- لقد أدركني الوقت، عليّ أن أذهب.

ثم أخذ يمسح على كرشه المتهدّل وهو يعلّق:

- أتعرف بأنّ هناك طريقة مثلى لتخفيف الوزن؟ فعّالة وسريعة؟ تتمثّل الطريقة بأن يكبح من يصل دوره للوزن رغبته في الطعام قبل ثلاثة أيّام من موعده، ويتناول أثناء ذلك كمّيّة من زيت الخروع كل ليلة الأمر الذي يطلق عنان البطن في إسهال لا أحد يقدر على إيقافه، ومن أجل أن يكون التفريغ من كلّ الجهات فإنّه يقوم بشرب الأدوية المدرّة للبول والتي تُعطى للمصابين بضغط الدم عادة. وعندما يحلّ موعد الوزن سيجد نفسه وقد فقد كل الكيلوغرامات الزائدة.

- هل أنت جادّ فيما تقول؟

- أكيد.

- لكنّ المسألة خطرة إذ قد يترتّب عليها هبوط شديد في الدورة الدمويّة وجفاف في العروق، وهما أمران يؤدّيان إلى الموت المفاجئ.

هزّ يده وهو يتساءل:

- هل لديك حلّ آخر؟.

- نعم، قل لهم طزّ فيكم وبوظيفتكم. نحن بشر ولسنا كباشًا تقودوننا للمسلخ.

- وآنذاك تصبح في خبر كان؟.

- وليكن.

توجّه نحو الباب وهو يتابع:

- لم يدر بخلدي بأنّ يومًا سيأتي وتكون فيه قيمتي العلميّة ومكانتي الوظيفيّة مرتبطتين بوزني؟.

- إنّها مشاهد من الكوميديا السوداء، التي نعيشها.

فتح زيد الباب وسأل صاحبه سؤاله التقليدي:

- أتحبّ أن أوصلك إلى مكان؟.
- رغم أنّني لا أعرف وجهة محدّدة. لكن لديّ ما أفعله في سوق السراي، وشارع المتنبّي.
- هيّا البس.

وخلال ثلاث دقائق كان غسّان جاهزًا. غادرا الشقّة التي يتسرّب غطيط ساكنيها من العمّال المصريين المتعبين وبعض الأبواب تركت مفتوحة لغرض دخول الهواء.

وقال زيد:

- غسّان العامري بكلّ ما يعنيه يندسّ في هذا الوكر؟ من يصدّق هذا؟.
- إنّه الواقع يا صديقي، أنا من بين الزائدين والبركة في البدلاء الذين يدفعون بهم للواجهة بكلّ ضجيجها وفجاجتها.

أوصله زيد إلى باب المعظم وهو يقول مداعبًا:

- أكمل طريقك على قدميك.. فرياضة المشي مفيدة للصحّة.
- أكيد، ولكن ليس في مثل هذا الحرّ اللعين.

***

كان زيد الحبيب متوتّرًا إلى أبعد حدّ. هذا ما استشفّه غسّان منه، فهو صديقه الذي عايشه أكثر من ثلاثة عقود من سنوات عمرهما. هو إحساس بالظلم والقهر الخبيثين مبعثه الإقصاء الذي يحسّه، حيث وضع في الجامعة ليتعلّب فيها ويدخل في تفاصيل هو في غنى عنها، كان يتوقّع أنّ الجامعة مجرّد محطّة عابرة وأنّ دكتوراه الإعلام تؤهّله لموقع آخر، ولكن شيئًا من هذا لم يحدث وبقي يراوح في مكانه.

قال لغسّان وهو يودّعه:

- لديّ مناقشة رسالة ماجستير وسأبقى في الكلّيّة حتى المساء.
- أريد أن أنام بعد الظهر لأحضر بعد ذلك إحدى المسرحيّات المثيرة.
- أيّ مسرحيّة؟.
- عرس سهيل صبري.

وقد ابتسم زيد ابتسامة وحده غسّان من يفهم معناها، ثم حرّك سيّارته ومضى.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وامتثل لما قدّمه له صاحبه من نصيحة لم يلتزم بها هو، وأخذ يمشي بهدوء وكأنّه يستكشف المدينة للمرّة الأولى. وزارة الدفاع تبدو خاملة، ذات يوم وفي عهد الزعيم عبد الكريم قاسم كان العراق يُحكم منها، وأمامها دكّان لبن أربيل للسنة كذا قد أُغلق وتحوّل إلى دكّان لبيع الأدوات الصحيّة، هذا الدكّان الذي تحوّل إلى نكتة لدى العراقيين عندما نقل جندي من أقصى قرى الجنوب إلى وزارة الدفاع، وقد ظنّ أنّ محلّ لبن أربيل أشهر من وزارة الدفاع.. لذا بعث برسالة لوالده مثبتًا فيها عنوانه (وزارة الدفاع مقابل لبن أربيل للسنة التاسعة).

المكتبة الوطنيّة هاجعة وكأنّها تلمّ جدرانها إليها، وتمثال المتنبّي الذي لا علاقة له بالمتنبّي، ولا يدري غسّان كيف سمح للفنّان بتنفيذه؟ قامة قصيرة ملتفّة بعباءة ولا يخرج من العباءة غير وجه بلا ملامح.

استدار يمينًا، اشتهى أن يقوم بدورة حول هذا المكان الحيّ من تاريخ بغداد. هو الآن في باب المعظم حيث لم يبق من هذا الباب الذي يشكّل أحد المداخل الغربيّة لبغداد عندما شُيّدت إلاّ الاسم.

كانت كلّيّة البنات عن يساره، وكانت في العهد الملكي تدعى كلّيّة الملكة عالية، وهو اسم والدة الملك الراحل فيصل الثاني الذي حصده الرصاص مع العائلة الملكيّة صبيحة الرابع عشر من تمّوز عام 1958 في حديقة قصر الزهور الملكي، ولم تكن هذه مشيئة زعيم الثورة ولكن هناك من ذهبوا بعيدًا ظنًّا منهم أنّهم بهذا قد خدموا الثورة.

أمام كلّيّة البنات ما زال موقف الباص الذي كم رابط غسّان فيه منتظرًا خروج أميرة من بوّابتها تلك السمراء الناعمة التي أسرته ابتسامتها، فصار يلاحقها بدون ملل، وكتب عنها قصائده الغزليّة الفائرة التي ضمّ بعضها إلى ديوانه البكر «عيون المسك»، وكانت له معها لقاءات قصيرة عندما توافيه إلى ساحة عنتر حيث ينتظرها، ليتمشّيا على شاطئ النهر وسط خوفها من أن يراها معه أحد من معارفها أو زميلاتها.

كانت لأميرة أحلامها التي اندثرت بعد تخرّجها وتعيينها مُدرّسة في مسقط رأسها كربلاء، وقد علم غسّان صدفة أنّها تزوّجت من قريب لها وأنجبت، وكم تمنّى أن يراها مرّة واحدة، أن يجدّد برؤيتها حلمًا عبقًا غيّبه الكبت والتقاليد العمياء، ندبها بقصيدة طويلة ثم تحرّك ماضيًا لترتصف الوجوه في ذاكرته، وجوه لم تكن أحلامًا بل حقائق، فيها كلّ شيء، حتى سعير الجسد وسعاره.

وفي أوج نوبات ذلك الحبّ سافر إلى كربلاء ثلاث مرّات بحثًا عنها، لعلّه يجدها. لعلّ وجهيهما يتقابلان رغم أنّ وجهها سيكون وراء «البوشيّة» السوداء. دخل مرقدي

الحسين والعبّاس عليهما السلام علّها من النسوة الملفّعات بالسواد الممسكات بشبّاك الحسين أو شبّاك العبّاس تبثّ عذاباتها وأمانيها وتنذر لهما، إن هما لبّيا حاجتها، النذور حنّاء وشموعًا و«واهليّة» من أطيب الحلوى.

كانت بوّابة الكلّيّة مفتوحة وفتيات يدخلن أو يخرجن منها، في أوائل الستينيّات كان بعض الفتيات يأتين بعباءات.. أمّا اليوم فقد تبدّل حجابهنّ إلى ثياب ملوّنة طويلة ورؤوس مشدودة بالمناديل، أشياء كثيرة تغيّرت في البلد، وفرضت الحرب على الناس سلوكًا لم يكونوا يعرفونه، كل هذا جرى بسرعة وغسّان خارج وطنه.

هذا المكان، هذه الأفياء، هذه الوجوه، كأنّ الزمن تسمّر هنا ولم يتحرّك، حتى بائع الصحف ما زال في مكانه، وقد فرح عندما رأى غسّانًا وهرع إليه مادًّا له كرسيه، وذهب إلى المقهى المجاور ليأتيه باستكان شاي وكلمات الترحيب تنثال من فمه.

- يا أستاذ غسّان كثير من الشباب يسألون عن دواوينك ويطلبونها منّي بإلحاح.

- منذ أن غادرت صرت أطبع دواويني خارج العراق، وبسبب الحرب منعوا الاستيراد لذا لم يدخل منها شيء إلاّ بضع نسخ في معارض الكتاب.

ودّعه غسّان بعد أن فرغ من ارتشاف شايه وقد وعده بأن يزوره إذا بقي في العراق لأنّه على وشك المغادرة، فما كان من بائع الصحف الذي داهمه الكبر مسرعًا إلاّ أن قال:

- كلّكم تغادرون. فلمن تتركون العراق؟ لمن تتركون محبّيكم؟.

- هذا قدر مكتوب ولا بدّ منه.

استدار عائدًا باتّجاه باب المعظم ليستدير ثانية، نحو ساحة الميدان. كانت قاعة الشعب في مواجهته وأحسّ بوخزة في قلبه عندما تذكّر وجه صديقه الدكتور منعم البصري. ولا يدري في أيّ معتقل من معتقلاتهم يُرمى الآن. فإلى هذه القاعة كان يأتي مرّتين في الأسبوع ليُعطي لأعضاء الفرقة الفنّيّة للرقص الشعبي دروسًا في اللياقة البدنيّة ويعالج الإصابات التي تحدث لبعضهم أثناء التمرين.

حثّ خطواته، التفت يسارًا فرأى المتنبّي ملتفًّا بعباءته وتمتم:

- عليك السلام يا أبا محسّد.

كان يمشي تحت الأفياء التي تكوّنها الجدران العالية. واتّقدت ذاكرته أكثر وهو يطلّ على بقايا عمارة كان يقطنها صديق له جاء من بعقوبة ليدرس الحقوق، وقد كان غسّان يذهب إلى زيارته صحبة عبد اللطيف الموصلي حيث كانا يتلازمان أغلب الأوقات، حتى في بحثهما عن صحيفة ترضى إيواء كلماتهما بين ركام من الصحف الأسبوعيّة التي تصدر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وتتوقّف دون أن يتذكّرها أحد ويسأل: لماذا؟ وكان عبد اللطيف الموصلي بحكم عملـــه في صحافة المنوّعات قد اكتسب خبرة في اصطياد مشاريع الفنّانات قبل أن يتعهّرن تمامًا. ومن ثمار صيده فتاة تطمح إلى أن تكون راقصة شرقيّة تهزّ جسدها في أحد الملاهي الليليّة، وقد جاء بها عبد اللطيف إلى شقّة صاحبه طالب الحقوق فاروق الراضي الذي اكتراها مناصفة مع صديق له من الأردن، بعد أن يفرغ من مضاجعة العاهرة يذهب ليتحمّم ومن ثم يصلّي ركعتين ويستغفر ربّه، ويفعل هذا حتى بعد أن يتناول بضعة كؤوس من العرق الذي يجلبه معه من الأردن مع صفيحة زيت الزيتون والزعتر والفريك، وإن نفدت فإنّ أسرته تــزوّده بكمّيّة أخرى عدا العرق، إذ هم لا يعرفون أو حتى يخطر ببالهم أنّه يقربه.

كان اسم الفتاة إكرام حمدي، وقد صارت راقصة فعلاً وبدأ اسمها يظهر في إعلانات «ملهى الأريزونا»، وفي واجهة الملهى هناك صورة كبيرة لها وهي بثياب الــرقص وتمــدّ ساقها العارية إلى الأمام، ولكنّها قبل أن تصبح «هلوبة» الأريزونا مرّت من تحت هــؤلاء الأصدقاء الأربعة حيث ظلّت تلازمهم، تطبخ طعامهم وتغسل ثيابهم، وقد استأثر بها وليد، وهذا هو اسم الطالب الأردني، أكثر من أصحابه وصار يتظاهر بالمرض حتى لا يذهب إلى الكلّيّة من أجل أن تبقى له وحده.

وتساءل غسّان وهو يتملّى العمارة التي هرمت بسرعة:

- ترى ماذا حلّ بأولئك الناس؟ إنّه لا يرى منهم إلاّ عبد اللطيف الموصلي الذي ما زال كما بدأ صحافيًّا، وقد علم منه أنّ فاروق الراضي الذي زوّجه بشقيقته قــد أصبح قاضيًا.

وصل غسّان إلى وسط الساحة المكتظّة بالسيّارات، وحنّ إلى جلسة في مقهى البلديّة لكنّهم أزاحوه غير عابئين بما يحمل من ذكريات، وحيث ولد في بهوه الظليل جيل أدبــي وفنّي مدّ الإبداع العراقي بدماء جديدة فتيّة. انتصبت مكانه عمارة عالية تابعــة لــوزارة الدفاع. وأحسّ غسّان بالمفارقة فيما حصل لهذا المكان الحميم. اشتاق إلى ضجيج زبائنــه الدائمين، حامد نصف المجنون بحجمه البدين وسدارته التركيّة والمروحة اليدويّة بيده وهــو يجلس فاتحًا ساقيه حتى يسترخي كرشه الكبير في الممرّ الذي يقود إلى البهو الواسع، الــذي قيل إنّه كان ملهى ليليًّا قبل أن يتحوّل إلى مقهى وعندما كانت المنطقة القريبة مســتعمرة للبغايا قبل أن يصدر قرار رسمي بمنعهنّ عن ممارسة حرفتهنّ، وكان الجنود القادمون مــن قرى الشمال والجنوب ما إن يستلموا رواتبهم حتى يتسرّبوا من وزارة الدفاع بحثًــا عــن جسد يفرغون فيه شحناتهم.

كان حامد يردّ على كل من يتحرّش به بكلمة:

- ادرس.

ظنًّا منه أنّ كل الذين يحملون كتبًا ويأتون إلى المقهى هم طلبة.

وفي بهو المقهى تتوزّع الأرائك الخشبيّة المفروشة ببسط من الصوف المزركش، وفي الزوايا تفرّخ القطط وتتكاثر، أمّا من السقف فتتدلّى المراوح التي تفتح بأقصى سرعتها أيّام الصيف.

وعند الظهيرة كان عدد من الروّاد يتمدّد كلّ واحد منهم فوق أريكة فارغة قصيّة ويستسلمون لقيلولة هانئة دون أن يُبدي قاسم المشرف عليها أيّ اعتراض ما دام المقهى واسعًا.

كان المقهى مباحًا للمتسوّلين وباعة الباقلاء والحمّص و«المريس» الذي يسدّ الرمق إذا أكمل المرء قرصًا كاملاً منه مع «استكان» شاي ساخن.

حتى الجرائد يوفّرها عبّود القادم من الكحلاء إحدى قرى العمارة، ومقابل عشرة فلوس فقط بإمكان المرء أن يقرأ جرائد البلد كلّها.

وأحسّ غسّان بأنّه رغم إزاحة المقهى وتشييد عمارة قبيحة مكانه فإنّ أصوات روّاده ما زالت تتردّد، نقاشات شريف الربيعي وعادل كاظم وأحمد المفرجي وعبد الستّار ناصر وإبراهيم زاير وسركون بولص وعبد الرحمن مجيد الربيعي وسامي مهدي، وكذلك أصوات قهقهاتهم. حتّى صوت حامد ما زال يتردّد وهو يصرخ: ادرس، وأحيانًا يردّد هذا الأمر مع نفسه ولكن بصوت عال.

لقد داسوا على الماضي الجميل وعسكروا مرابعه، كما عسكروا الناس الذين يرتدي أكثر من نصفهم ملابس الكاكي.

انسحب غسّان من ذكريات ربع قرن وتوجّه نحو شارع الرشيد بأعمدته الكبيرة التي تسند واجهات متينة تجعل الشارع مظلّلاً، لا يحسّ المرء عندما يدخله بلفح الشمس المهلك. تذكّر «شربت الحاج زبالة» وقد أُزيل دكّانه الصغير الذي يقدّم ألذّ «شربت» في العراق مستخرجة من الزبيب الأسود، وتُشكّل وجبة غذائيّة كاملة إذا ما رافقتها «صمونة» سمراء من الشعير مع قليل من الجبن.

وكانت هناك مفارقة كبيرة أن يحمل صاحب هذا المحلّ الصغير الذي يقدّم ألذّ عصير ببغداد كلّها اسم «زبالة»، وربّما خفّف من قبح الكلمة صفة «حاج» التي تسبقه.

وكان القائد الفلسطيني ياسر عرفات كلّما زار بغداد ومرّ بشارع الرشيد يطلب من مرافقيه أن يأتوه بكأس من «شربت الحاج زبالة»، ويلفظ اسمه بفتح الزاء.. هكذا أخبره الشاعر الفلسطيني خالد علي مصطفى.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وبدأ غسّان يتمتم بأبيات من إحدى قصائد الشاعر عبد الوهاب البيّاتي عن بغداد:

(مهما طال حوار الأبعادْ

فستبقى بغداد

شمسًا تتوّهجْ

نبعًا يتجدّدْ

نارًا أزليّة

رؤيا كونيّة

لطفولة شاعرْ)

واستدار نحو شارع المتنبّي، وطعم القصيدة الموحي بالأمل والمرارة معًا ما زال في فمه.

وتوجّه نحو مكتبة نعيم العصفوري الذي استبدل لقبه منذ أن هاجر من مدينته الشطرة، ووفاء منه لها إلى نعيم الشطري، فكأنّه بهذا قد أبقى على آصرة لن يستطيع أحد قطعها.

وما إن رآه نعيم حتى نهض مرحّبًا به، ومدّ له الكرسي الوحيد الذي تتّسع له مساحة مكتبته الضيّقة، وعلى الفور سأله:

- ماذا تشرب؟.

- إستكان شاي، خفيف. مع كأس ماء بارد.

وردّ نعيم:

- أمرك.

وأثناء ارتشافهما لاستكاني الشاي سأله غسّان:

- هل يمرّ بك عبّاس السيّد؟.

- أحيانًا، يسألني عن بعض الكتب فإن لم تكن موجودة لديّ يطلب منّي أن أوفّرها له.

- وكيف وضعه؟.

- عبّاس السيّد لم يعد الشخص الذي نعرفه، كان معتدًّا بنفسه يتكلّم بثقة ويركّز عينيه في وجهك، أمّا الآن فهو كئيب وإن سألته يبدو كالتائه.

- المشكلة أنّ بعض مثقّفينا قد عوّلوا كثيرًا على علاقتهم بالنظام. وظنّوا أنّهم في مأمن، وفاتهم أنّ هذا النظام قد قتل حتّى قادته التاريخيّين، صفّاهم واحدًا واحدًا ليخلو الجوّ لجناح واحد فيه.

واستأنف قوله:

- آه لو سمع نصيحتي بعد أن خرج من المعتقل، لكنّه فاجأني بمقالته المشؤومة عن التصنيع العسكري، ووراءها انفرطت حبّات المسبحة بمقالات عن موضوعات لا علاقة له بها وليست من صلب اهتمامه.

ثم انتقل حديثهما الهامس الذي كانا يقطعانه كلّما توقّف أمام المكتبة شخص يسأل عن كتاب أو يريد بيع مجموعة من كتبه.

قال نعيم معلّقًا:

- أصبح عدد الذين يبيعون كتبهم أكثر من الذين يشترون الكتب.
- البركة في جرائدنا، تغني عن كلّ شيء.

وقد انساقا للحديث عن حالة غسّان وبدا تعاطف نعيم معه كبيرًا، هو تعاطف يكاد أن يكون متّفقًا عليه إذ تحوّل دون أن يدري إلى قضيّة يجري الهمس بها، رغم أنّه غير راغب في هذا ويحاول أن يعالج الأمور بأكبر قدر من الكتمان بعيدًا عن الفضائحيّة.

ثم أبلغ غسّان صاحبه برغبته في صنع ختم خاصّ ليضعه على محتويات مكتبته التي سيهديها إلى المكتبة العامّة في الناصريّة.

وصفن نعيم وكأنّه يتأمّل ما سمعه، وعندما أدرك المعنى العميق لهذا التصرّف تمتم:

- بارك الله عملك، إخوانك وأبناؤك هناك بحاجة إلى كتب سمعوا بها و لم يروها، اكتب لي النصّ الذي تريد.

ومدّ له ورقة بيضاء، أخرج غسّان قلمه من جيب قميصه وكتب، هديّتي إلى المكتبة العامّة في مدينتي الأمّ الناصريّة – غسّان العامري 1988».

بعد أن قرأ نعيم الورقة وجد نفسه يطبع قبلة على جبين غسّان. وهو يقول:

- غدًا إن شاء الله سيكون الختم جاهزًا.
- في مثل هذا الوقت؟.
- نعم.

***

ودّع غسّان صاحبه وبه رغبة في مواصلة المشي في شوارع بغداد التي كَمْ جابها مع صحبه في ستينيّات القرن، إنّ ألفة الوجوه تشدّه.. وأطلق العنان لساقيه، مشى كثيرًا دون أن يتسرّب إلى صدره أيّ لهاث، إنّه فتيّ وقويّ، انتصر على مصاعب الماضي، وها هو في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لجّة محنة أخرى، لعلّها الأكبر، فَقَدَ كلّ شيء لا بعناد أعمى بل ثأرًا لكرامة بيضاء وكبرياء ترفرف كرايات فتوحات الأجداد بكلّ بهائهم العربي الباذخ، لن يذعن ولن يتكأكأ مستسلمًا، إنّه يحثّ الخطى ويمضي.

كان تمثال الرصافي أمامه عاريًا أمام شمس الصيف، هكذا تخيّله وهو ينظر إلى قامته الملأى وهامته المرفوعة وكأنّه يخطب أمام الجموع أو شاديًا بإحدى قصائده الثائرة التي يقارع بها الرذيلة والخطأ وجور الحكّام.

كان الرصافي مصلوبًا فوق قاعدته، وعلى كتفه حطّت حمامة، وودّ غسّان لو يلتقط صورة لهذه الحمامة التي اختارت كتف هذا الرجل الاستثنائي في تاريخ وطنه شعرًا ونضالاً.

كأنّ النحّات المعروف اسماعيل الترك قد استدرجه من مقهى البرلمان حيث كان يلذّ له أن يجلس وقاده إلى هذه القاعدة التي يتجمّد فوقها.

لقد تابع غسّان مراحل إعداده، خاصّة أنّ إسماعيل الترك قد اعتمد نموذجًا تمّ اختياره من بين خمسة نماذج. وبلغ به الحدّ لأن يحملها معه في صندوق سيّارته الخلفي قبل أن يتوجّه إلى جمعيّة الفنّانين التشكيليّين، وهناك يضع كلّ تمثال فوق طاولة وقد جعل كلّ طاولة بعيدة عن الأخرى حتى يأخذ البصر مداه.

لقد قرأ اسماعيل كلّ ما كتب عنه وقرأ أشعاره التي جمعها قاسم الخطّاط، وبحث في أرشيف من عرفوه عن صوره حتى أحسّ بأنّه يعرفه وأنّه سبق له أن التقاه.

تأمّل غسّان التمثال الذي يمثّل رجلاً مهابًا، شديد البأس، حارب طاغوت الحاكمين، كان رعبهم، حاولوا استمالته وعندما عجزوا غيّروا طريقتهم معه فقرّروا كسره لكنّ فولاذه العراقي غير قابل للكسر، فارتضوا بمحاولة ليّه، ولكنّهم لم يفلحوا حتى في هذا، لم يتركوا إلاّ خدوشًا تافهة.

كتب قصائد مريرة يعاتب فيها أبناء شعبه الذين (يقدّم فيهم الشرّير دفعًا لشرّته ويحتقر الأديب)، يعاتب بلده الذي لم يمنحه مأوى (سكنتُ الخان في بلدي كأنّي أخو سفر تقاذفه الدروبُ).

وأكثر من هذا وأبشع أن جاءه يوم لم يجد فيه من يحنو عليه غير مومس هرمة تدير بيتًا للدعارة في محلّة البغاء الشهيرة بـ «الصابونجيّة»، أعطته بيتًا صغيرًا وسط عالم القحاب والرذيلة، كان هذا أواخر الثلاثينيّات قبل أن يدعوه بعض أبناء وطنه من أهالي مدينة الفلوجة ليقيم بينهم عزيزًا مكرّمًا قرابة أعوام ثمانية. وعندما أورد هذه الحكاية الباحث العراقي المخضرم أمين المميّز في كتابه التوثيقي «بغداد كما عرفتها» حذفت الرقابة الرسميّة

هذا الفصل، ولكن مجلّة عربيّة تصدر من ألمانيا حصلت عليه وقامت بنشره. لقد زار المؤلّف الرصافي في بيته ذاك وذكر أنّ غايته من إيرادها: (لأسجلّ وصمة خزي وعار على بغداد والبغداديّين، على العراق والعراقيّين)، وقال كذلك: (ولعلّ سكنى الرصافي في تلك الدار كان احتجاجًا صارخًا منه على القوم الذين لقي منهم كلّ إجحاف وجفاء وعقوق، فإنّ العراق بطوله وعرضه، بدجلته وفراته، بحقول نفطه وباسقات نخيله، بسهوله ووديانه وجباله قد فشل وقصر عن القيام بأود ذلك الطود الشامخ الذي بنى للعراق مجدًا أدبيًّا عاليًا وكوّن له صيتًا ذائعًا ومركزًا فريدًا في عالم الأدب والشعر).

استدار غسّان لتبحر خطواته في زحمة شارع الرشيد من جهة سوق الشورجة ومأساة الرصافي الكبير تجابهه وكأنّها مصيره أيضًا رغم أنّه ليس الرصافي، وتذكّر الكبار الذين غادروا.. محمّد مهدي الجواهري، غائب طعمة فرمان، بلند الحيدري، وعبد الوهاب البيّاتي الذي ما زال رهين غرفة صغيرة في بيت ابنه الكبير هو وزوجته وابنته وكتبه وما حمل من تذكارات وهدايا ما زالت مكدّسة في الحقائب.

ووجد غسّان نفسه وهو يرفع يده بحركة لاإراديّة وكأنّه يحمي وجهه من شيء سيهجم عليه، وردّد بصوت كاد أن يسمعه من انحشروا معه في زحام الشارع.

- بغداد كريمة يا رصافي، لا، البغداديّون كرام، والعراق كريم، حضن لا حدود لسماحته وأمانه، لكنّ الجهل أعمى.. تعال وانظر ما نحن عليه اليوم لا أحد يعرفك إلاّ بعد أن تغادر الدنيا بسنوات، وأكثر ما يفعلونه لك إقامة تمثال في إحدى الساحات الصغيرة، فالساحات الكبيرة مخصّصة لجداريّات وتماثيل الرئيس الوحيد الأوحد.

ثم غرق في سوق الشورجة، تدافع بالأكتاف، ذاب في الزحام وهو ثمل من روائح البخور والحنّاء والهال والمحلب وصابون الغار والبهارات.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- 49 -

افتقد غسّان العامري صديقه العزيزي الذي أمره الطبيب بالراحة التامّة بعد أن لاحظ اضطرابًا في دقّات قلبه وارتفاعًا في ضغطه الدموي.

هاتفه غسّان فقال بلهجته الساخرة نفسها:

- إنّني أستجمّ، أمارس نفوذي كربّ بيت على أسرتي.
- لكنّني قلق عليك؟.
- اطمئن، ما زال في العمر متّسع لأحلام أخرى، هناك قصص وروايات ما زالت مشاريع عليّ أن أكتبها، كما أنّ هناك كدسًا من الكتب التي اشتريتها أو التي أُهديت لي و لم أقرأها بعد.

وختم غسّان حديثه الهاتفي بقوله:

- سأهاتفك كلّ يوم رغم أنّ زوجتك تضعني في القائمة السوداء.
- سأعمل على تحسين صورتك وتبييض صفحاتك أمامها، ومع هذا تستطيع أن تزورني عندما تحبّ.

كلّهم منهمكون بإيقاع حياتهم اليوميّة ومشاغلهم وخوفهم على أسرهم، فالحرب صارت في المدن لا أحد يعلم متى يأتي صاروخ ضالّ ويحوّل منزله وما فيه إلى أنقاض، وقد قال المحامي طارق المنصور محامي الشعب المقهور:

- أصبح النّاس قدريّين إلى درجة غريبة، مكتبي في منطقة البياع التي نالت النصيب الأكبر من الصواريخ، الناس فيها لجأوا إلى السحر والشعوذة، وظهر رجال ونساء غريبو السحنات يدورون على البيوت والمحلاّت لقراءة الكفّ وكتابة التعاويذ، والغريب أنّهم يجدون رواجًا وقبولاً.

وقد خمّن غسّان أنّ حيرة الناس وخوفهم من الذي يجري وضعهم أمام متاهة مخيفة؛ وفي حالة كهذه أصبح من الممكن لهذه الترهات أن تأخذ مداها لعلّها تأتي بأيّ جواب يطمئن ويهدّئ الروع، إنّها قشة الغرقى.

* * *

عاد غسّان مرهقًا بعد جولة في شارع الرشيد وأسواقه ختمها بدخول مطعم مصري في منطقة المربعة حيث تناول طعامًا مصريًّا، كشري وطعميّة وكأس لبن أحسّ بعد تناوله أنّ كرشه قد انتفخ.

وقد نام طيلة فترة ما بعد الظهر، لم يأبه بالحرارة ولا بدوران آلة التبريد أو أصوات الراديوات والآت التسجيل التي تنطلق من شقق العمارة قاذفة بأغاني أمّ كلثوم وأحمد عدويّة وعبد الحليم حافظ ومغنّين آخرين لم يسمع بهم من قبل. صارت هذه الضوضاء الموسيقى التصويريّة لصحوه ونومه. وقد كان في البداية يحسّ بالصداع والتوتّر عندما تداهمه موجة الأصوات المتداخلة هذه، ويودّ أن يصرخ بهم ليوقفوها أو يدور على الشقق واحدة واحدة ليحطّم كلّ ما فيها من الآلات المسعورة التي تغتال هدوءه، وقد اكتشف أنّ ما يسمعه من أصوات ناشزة انعكست على قصائده التي كتبها في الشهور الأخيرة التي بدت وكأنّها تشكّل قاموسها الذي لم يطرق مفرداته وصوره من قبل، قصائد فيها خشونة وصخب وألفاظ جارحة كالحجارة، ونظرًا لأنّه لم ينشر هذه القصائد وأرجأ نشرها حتى يغادر بسلام، فإنّ أحدًا من النقّاد لم ينتبه إليها عدا الأصدقاء الذين قرأوها مخطوطة أو استمعوا إليه وهو يلقيها، ومنهم معن الماجد وعدنان العزيري وغيّاث الإبراهيمي ومحامي الشعب المقهور طارق المنصور.

من النادر للأحلام أن تطوف في رأس غسّان عندما يستسلم للقيلولة وفي يوم قائظ تحديدًا. كانت أضغاث منها تزوره في قيلولات الشتاء، ولكنّه وفي قيلولته التي امتدّت لأكثر من ساعتين وبعد وجبة الطعام المصريّة النافخة، غرق في مسلسل من الأحلام التي أعادته إلى طفولته في ذلك الزقاق الأمين بأناسه المكافحين البسطاء وأطفاله الذين تبرق عيونهم بالتمرّد على القهر الذي هم عليه، وكأنّ تلك العيون تحمل بشارات الوعد والضوء.

وجد نفسه مع أقرانه يلعبون بالكرة التي يصنعونها من القماش مع فريق الزقاق المقابل لزقاقهم. وقد اختلفوا على هدف فبدأت معركتهم التي تبدأ بالضرب والركل، وعندما يصبح كلّ فريق في مدخل زقاقه تبدأ معركة بالحجارة والحصى، وغالبًا ما تذهب حجرة إلى رأس أحدهم فيتدفّق الدم. ويخرج الآباء والأمّهات لتبدأ معركتهم إذ كلّ أب وأمّ مع ابنهما معتديًا أو معتدى عليه، وإذا لم يذهب أحد المارّة على درّاجته ويخبر الشرطة ستتفاقم الأحداث إلى ما هو أكبر.

لكن غسّانًا تخيّل نفسه وهو يجلس على كرسي الحلّاق والممرّض والختّان والجندي السابق «سيّد عكّار» الذي يطوف في أزقّة المحلّة طيلة فترة ما بعد الظهر ليحلق رؤوس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأولاد والآباء ويشذّب لحاهم بمقصّه الذي يلوّح به وهو يفتحه ويغلقه بأصابع ماهرة، فكأنّ سماع صوت المقصّ يشكّل نوعًا من المناداة لمن يريد الحلاقة بأن يتقدّم.

ويذكر غسّان عكّارًا هذا الذي ينتقل بخفّة بدشداشته البيضاء وساقيه المعضلتين النحيلتين وتحت إبطه كرسيّه الذي يُجلس عليه من يريد الحلاقة، وفي اليد الثانية يمسك بمقبض حقيبة يدويّة صغيرة فيها عدّته! أمواس وأمشاط وفرشاة وماكنة حلاقة وقنّينة كحول للتعقيم.

يذكر غسّان أنّ عكّارًا هذا هو الذي ختنه، استعاد في منامه ذلك اليوم الربيعي عندما قرّر والده ختانه، وكان لا بدّ من عكّار الذي أجلسه على الكرسي إيّاه بعد أن ألبسوه دشداشة من القطن الناعم الأبيض، وطلب عكّار من والده وجار لهم بأن يشدّا يديه وساقيه.. وأخذ غسّان يصرخ، لكنّ عكّارًا ردّد جملته التي يقولها لكلّ الأطفال عندما يتهيّأ لقطع قلفة كلّ واحد منهم:

- شوف العصفور.

وهو يشير بإبهامه إلى النخلة ولا يدري غسّان لماذا ذهبت عيناه إلى حيث أشار رغم أنّه عاجز عن الحركة، وإذا بلسعة صرخ لها حتى كاد قلبه أن يتوقّف ثم تدفّق الدم، ولكنّ عكّارًا سرعان ما سيطر عليه بمهارة اكتسبها من خلال الممارسة ولفّ عضوه باليود والشاش والقطن.

آنذاك تعالت هلاهل النسوة، وبدأن يلقين بالحلوى على رأسه، كلّ واحدة من قريباته أو جاراته تمدّ يدها بكيس ورقي مليء بالحلوى وتحفن منه وترميه على رأسه. وانطرح الأطفال على الأرض يلمّون الحلوى غير مبالين بالتراب الذي علق بها.

ووجد غسّان نفسه يمشي رافعًا ثوبه إلى أعلى حتى لا يمسّ عضوه، ويباعد ما بين ساقيه عند المشي، ومن عنقه يتدلّى خيط فيه رأس بصل كبير مقشّر حتى لا يشمّ رائحة تتسبّب في ورم عضوه كما يعتقد الآباء.

وصحا غسّان على صوت طرق الباب ووجد يده ممسكة بعضوه وكأنّه يؤلمه فعلاً، وقبل أن يسأل عن القادم جاءه صوت غيّاث الإبراهيمي:

- غسّان افتح، أنا غيّاث.

فتح له الباب مرحّبًا وكان غارقًا في عرقه وبقايا حلمه الطفولي الطويل، فكأنّه بالرجوع إلى تلك الأيّام ولو من خلال الحلم يقارع رداءة الواقع الذي أنهكه وأتعبه.

استأذن صاحبه كي يقف تحت الدشّ مزيحًا العرق المنداح، وما هي إلاّ دقائق حتى فرغ من ذلك رغم أنّ الماء كان ساخنًا وكأنّه غلي النار، وذلك لأنّ الخزّان الحديدي فوق سطح العمارة يظلّ عرضة للشمس منذ شروقها حتى غروبها.

بعد أن نشّف جسده واستبدل ثيابه قابله غيّاث بالقول:

- كيف تستطيع النوم في بيت الضبع هذا؟

وضحك غسّان من التشبيه الذي أطلقه غيّاث على شقّته، وقال:

- بيت ضبع أو عرين أسد، لا فرق، هذا كلّ ما يستطيع أن يحصل عليه شاعر مفلس.

وهنا استحثّه غيّاث:

- هيّا ارتدِ ثيابك، لنذهب إلى مكان مبرّد نشرب فيه قهوتنا، لقد تيتّمنا بعد أن أغلق مقهى أبو ريتا!.

- عليّ أن أرتدي بدلة كاملة فأنا مدعو لحضور زفاف شاعر البلاط سهيل صبري.

- أتتكلّم بجدّ؟.

- نعم.

- وما الذي يجمعك به؟.

- الفضول. نعم الفضول.. لقد دعاني وألحّ، وسألبّي الدعوة لأرى ماذا يحصل في زفاف مدلّل الشعر والذين فوق رؤوسنا، ثم إنّني سومري وجِدّي جلجامش وليس جدّ عدنان العزيري كما يدّعي واصفوه بأنّه هو الذي رأى، أريد أن أتمثّل به فأكونَ أنا الذي رأيت؟.

- حسنًا، ولكن بسرعة.. فأنا لا أحتمل الحرارة.

كان غيّاث قد قصد صاحبه في مثل هذا الوقت لأنّه يحمل معه مفاجأة ستفرح غسّانًا حتمًا. وقبل أن يذهب لارتداء ثيابه مدّ له الكتاب الذي لم ينتبه له غسّان إذ كان مخبّأ بين طيّات جريدة.

وما إن قرأ غسّان عنوان الكتاب حتى هتف:

- مبروك، عظيم، متى صدر؟.

- اليوم، و لم يره أحد غيرك.

أخذ يقلّبه بعد أن ألقى نظرة على غلافه الذي كان أنيقًا رغم أنّه بالأسود والأبيض فقط، إلاّ أنّه اعتمد على تخطيط استوعب فيه الفنّان محمّد مهر الدين مناخه، وهي من الحالات النادرة أن يكون الغلاف ذا علاقة بموضوع الكتاب، فكيف عن القتل والتعذيب والسجون؟.

لقد ألّفه صحافي برازيلي عن مأساة الشعب البوليفي، واسمه جوليوجوزي كيافيناتو، أمّا الكتاب فهو بآسم فاضح يصرخ بمحتواه «بوليفيا والبارود في الحلق»، وكم تحدّث غيّاث عنه منذ أن قرأه باللغة البرتغاليّة التي يجيدها ويترجم عنها، وقد حثّه غسّان وعدنان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ومعن الماجد وأصدقاء آخرون على ترجمته، وقد تردّد بادئ الأمر إذ أنّه لم يكن واثقًا بأنّهم سيسمحون له بنشره لا سيّما أنّ الرقابة صارمة وخاصّة مع كتب سياسيّة زاعقة كهذا الكتاب، وقد اتّفقوا على أنّ المهمّ ترجمته أوّلاً ومن ثم يأتي دور النشر بعد ذلك.

وكان غيّاث يردّد:

- هذا الكتاب على كلّ مثقّف عربي أن يقرأه. وها هو الآن قد صدر.

قرأ غسّان مجتزأ من مقدّمته: (بوليفيا بلد المائتي محاولة انقلاب والألفي حركة عصيان هنديّة، بلد المفارقات في الحكومات المتبدّلة التي لم تكن تدوم أحيانًا أكثر من اثنتي عشرة ساعة، والجنون الذي بدّل في يوم واحد ستّة رؤساء جمهوريّة، والغرابة التي جعلت جنرالاً واحدًا يقود ثلاثة وثلاثين انقلابًا).

كان واقفًا وهو يقرأ هذه الفقرات من صفحات الكتاب الأولى، بينما كان غيّاث يستحثّه ليرتدي ثيابه.

- دقيقة فقط!.

وقرأ أيضًا: (بلد اللاّحقيقة واللاّمعقول، مأساة ساطعة وشعب معذّب حيث الضبّاط الساديّون السكارى يقتلون للمتعة عشرات الأشخاص في أحد أحواض السباحة، وتبقى لديهم الشجاعة في تبرير عمليّة القتل بإصدار بيان للشعب مؤكّدين فيه أنّ الضحايا مصابون بالكلب الجماعي).

وضع الكتاب على الطاولة:

- كتاب مثير.

- مثير وصف ناقص، قلّ إنّه فضيحة، لا تدري يا غسّان مدى سعادتي بعد صدوره، حتى وأنا أستلم بعض النسخ منه وأشدّ عليها بيديّ لم أكن مصدّقًا.

- رغم أنّني قرأته فصولاً، إلاّ أنّني متحمّس لقراءته كاملاً.

كان صوت غسّان يأتي من غرفة النوم القريبة وقد ترك بابها مشرّعًا علّ شيئًا من هواء المبرّدة يصله.

- هيّا.

قال غسّان يستحثّ صاحبه وهو يضع سترته على ذراعه، تأمّله غيّاث ثم صفّر وقال بمكر:

- أيستحقّ سهيل صبري كلّ هذه الأناقة؟.

- ليس سهيل صبري ولكنّ اللواتي سيأتين.

- أينك يا حنان عوّاد ها هو العاشق المتيّم يلعب على حلّ شعره، يحرّك ذيله على كلّ الجهات!.

ثم قدّم اقتراحه الذي نبت فجأة في خاطره:

- سنذهب إلى فندق الرشيد، نجلس في البار، نتشبّع بالبرودة من مكيّفاته التي لا علاقة لها بمبرّدتك الخردة هذه التي إن أردنا الدقّة نصفها بالمسخّنة، وعندما يحين موعدك تسلّل إلى قاعة الاحتفال.
- فكرة.

وخرجا بعد أن أوقف غسّان ما تسمّى بآلة التبريد. وفي السيّارة التي كانت مركونة في الظلّ تحت العمارة عاد غسّان لتقليب الكتاب، وتوقّف عند آخر فقرة سُطِّرت على غلافه الأخير والتي تعطي المبرّر لعنوانه الصارخ، رغم أنّ غيّاث الإبراهيمي سبق له أن شرحها أمام عدد من أصدقائه ولكن غسّانًا نسي ذلك إذ لم يكن مركّزًا على ما يسمع، قرأ: (هذه هي بوليفيا حيث يخمد تمرّد وعصيان عمّال المناجم بنيران الرشّاشات ويُلقى الأسرى منهم أرضًا مكبّلي الأيدي والأرجل وتوضع في أفواههم المتفجّرات وتضرم فيها النيران، إنّه بلد المتفجّرات في أفواه عمّال المناجم، إنّه البلد الضحيّة الذي تستبيحه الإمبرياليّة الأميركيّة شعبًا ومناجم وخيرات وأرضًا).

أطبق الكتاب ووضعه على المقعد الخلفي، ثم تمتم:

- هذا الكتاب جاء في وقته، فالظلم والجور والإرهاب وغياب المجتمع المدني وتحوّل الديموقراطيّة إلى حلم لم يعد يلحّ على مناماتنا، كلّها حالة عالم اليوم، من آخر الدنيا إلى آخر الدنيا.

ثم غيّر لهجته وسأل صاحبه:

- عليك أن تأتي بنسخ منه، أكثر من مائة، أنت والحمد لله شبه برجوازي، والنشر هواية لك. لذا سنوزّعه على فقراء الأدباء والإعلاميّين، ونرسله خارج العراق، هذا كتاب يهمّنا.. لعلّ شيئًا ممّا فيه ينقر على طبلات آذان أولي الأمر منّا.

ثم قهقه غسّان وقال وكأنّه تذكّر شيئًا:

- ولكن ستحدث المفارقة العجيبة إن أفاد أولو الأمر من وسائل التعذيب والمَحْق التي وردت فيه، فمرّة حدّثني صديق هو من كبار أدباء فلسطين أنّه اعتُقِل في إسرائيل بعد نكسة 1967، وعندما أطلق سراحه وقصد البلد العربي الذي تقيم فيه أسرته واستجوبوه عمّا حصل له وكيف تصرّفوا معه، روى لهم عن وسائل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إسرائيل في التعذيب، ولكن ما فاجأه أنّ هذه الوسائل أخذوا يطبّقونها على السجناء السياسيّين حتى عليه هو.

- كلّ شيء جائز، وممكن، وللجلاّدين لغة مشتركة سواء في بوليفيا أو في بلاد الواق واق، ومع هذا إذا كانت الأمور تؤخذ بالنوايا فإنّ نيّتي كانت طيّبة إلى أبعد حدّ، وكلّما قرأت كتابًا مهمًّا باللغات التي تسنّى لي أن أتعلّمها فكّرت بالقارئ العربي وتمنّيت أن أترجمه وأضعه بين يديه.

وكان مرآب فندق الرشيد مكتظًّا رغم أنّهما قد حضرا مبكرين، وقد عثرا على مكان لإيقاف السيّارة بصعوبة.

وعندما دخلا بهو الفندق استقبلهما الهواء البارد وكأنّه ينقلهما من فصل إلى آخر، كان البار شبه خال إلاّ من بضعة أشخاص من حديثي النعمة الذين تشير إلى منبتهم هيئاتهم الضخمة الفيليّة من كثرة الطعام الدسم والشراب الذي يعبّونه بلا حساب، وقد انتشروا في كلّ الأماكن الراقية بعمليّة هي أشبه بالاجتياح، إذ لا مؤهّل لهم غير جيوبهم العامرة.. وما إن تدخل فتاة حتى تتحرّك نحوها عيونهم القادحة بالشهوة.

ذهبا إلى البار حيث يحبّ غيّاث أن يأخذ كأسه، وهو ما لا يحبّه غسّان الذي يحسّ بنفسه معلّقًا لا متّكأ لظهره.

سأله غيّاث بعد أن طلب كأسي ويسكي له ولصاحبه:

- هل من جديد عن أخبار حنان؟.
- أبدًا، ولكنّني أتوقّع أنّها قد غادرت إلى أميركا، لن تمكث في لبنان فترة أكثر مخافة أن تتفاقم الأمور.
- وأنت ماذا تفعل؟.
- لا شيء، الأمور مرهنة بحصولي على الموافقة والسفر إلى أيّ جهة.. بعدها ربّما نلتقي، وربّما لا.
- وبالتأكيد إنّ أميركا لم ترد في حسابك؟.
- ولن ترد أبدًا، ولا حتى أكبر دول الغرب فأنا شاعر عربي، الأرض العربيّة هي مناخي الذي لن أستطيع الإمساك بالقلم إن أصبحت خارجه.
- وكيف الحلّ؟.
- إذا استطاعت أن ترتّب وضعها وتجد عملاً لن أتعامل معها بأنانيّة، لقد عشنا العلاقة حتى أجمل ذراها. ولعلّها هناك تجد رجلاً أنسب منّي لها ليبقى لنا الحبّ

العجيب الذي جمعنا في مرحلة عصيبة من تاريخ بلـــدينا، ينضـــاف إلى ذلـــك الاختلافات التي تعرفها، وقد تأكّد لي أنّها تقف أمامها متردّدة لا تعرف أجوبـــة واضحة، والحقّ معها في هذا.

- الموت في القمّة، هذا أروع موت، لو أنّكما تزوّجتما وبدأت الخلافات تظهـــر وارتفع صوت أحدكما بوجه الآخر سيتحوّل الحبّ إلى كابوس، أمّـــا في هـــذه الحالة فسيظلّ أروع حنين يغرّد في الذاكرة.

- أنا معك.

نظر غسّان إلى ساعته وعرف أنّه الوقت المناسب للذهاب إلى قاعة الاحتفال بعد أن أمضى مع صاحبه أكثر من ساعة في أحاديث طرقت أكثر من موضوع.

استأذن ليبقى غيّاث وحده وراء البار مع سيكارته وكؤوس الويسكي التي طربـــت معدته وهي تستقبل لفحتها بنشوة صافية تتسرّب في عروقه كلّها.

وهذه حالته شبه اليوميّة، فإن كان معه صديق أو أكثر يقصدون مكانًا لتناول العشاء وإلاّ عاد إلى بيته ليمضي بعض الوقت مع ولديه، ثم يدخل غرفة المكتبة في محاولة منـــه لأن ينفرد بنفسه وينصت جيّدًا إلى صوت قلبه.

لم يشرب غسّان كثيرًا لأنّ سهرته لم تبدأ وسهيل صبري قد هيّأ المشروبات لضيوف زواجه التاسع أو العشرين، لا أحد يدري. وودّ أن لا يترك غيّاثـــا وحـــده إذ إنّـــه مـــن الأصدقاء القلّة الذين يفتح لهم قلبه ويقول كلّ ما عنده دون أن يحسّ بالضعف أو الوهن.

وأحسّ غسّان بظهره قد تشنّج لأنّه جلس كطائر يحطّ على غصن فوق ذلك المقعـــد العالي أمام البار وهو ما لا يحبّه، ولكن غيّاثًا اعتاد عليه. وقد ناكده مرارًا في هـــذا الأمـــر ولكن لم تفد معه كلّ المناكدات، ومرّة قال له:

- أهل العزير جماعة البائس عدنان أكثر تحضّرًا منكم يا أهل الناصريّة، فهو يحـــبّ الجلوس أمام البار.

- صحيح، لأنّ بارات العزير كلّها هكذا، على الطريقة الغربيّة!.

وقد قهقها وقتها، ولكن غسّانًا عاد وعقّب:

- إنّ أهل العزير كانوا مجرّد خدم وإماء لدى أجدادي السومريّين، أمّا أنتم يا أهـــل «شكّا» فمجرّد بدو بحر ليس إلاّ، لا تحدّثني عن أمجاد أجدادك الفينيقيين، فأهـــل «شكّا» لا علاقة لهم بهم، همّ صيّادو سمك، مداهم البحر.. هو صحراؤهم مثلما هي صحراء الرمل والبترول بالنسبة لنا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ويضحكان، ويضحكان، كأنّ كلاًّ منهما بضحكه الخلي هذا يغتال حرّاس الحزن الذين يقفون يقظين ليمنعوا عيون الناس عن الإغفاء بأمان.

بدأ غسّان يراقب النّاس المتوجّهين إلى قاعة الاحتفال، نساء وأطفالاً ورجالاً، ولم يلمح أحدًا من المسؤولين بينهم، وخمّن أنّهم سيأتون، وفكّر أن يعود لصاحبه ثانية فليس بالضرورة أن يحضر مبكرًا.

وأخذ يتمشّى وهو يتوقّف بين لحظة وأخرى ليتفرّج على المعروضات من عطور وثياب وحليّ وبسط وسجاجيد، تُباع للقادمين خاصّة من الأجانب بأضعاف أثمانها.

ترك غيّاث الإبراهيمي مع كأسه وسيكارته ونفثه لأنفاسه بهيئة زفير قوّي كأنّه يزيح شيئًا من قهره وحيرته، وخمّن أنّ صدور الكتاب الذي أنفق عدّة شهور في ترجمته والصدى الذي توقّع أن يلاقيه سيزرعه في حالة من الهدوء والعودة إلى النفس، لنبش الأعماق واستخراج تبرها ودفن ما علق بها من أشواك وعقارب وسموم إلى الأبد.

كانت معجزة أن يستمرّ الرجل، أن يواصل الحياة بعد أن رأى والده وخاله يذبحان أمام عينيه، ولم يكن في مقدوره أن ينقذهما، أو يفكّر حتى في الانتقام لهما، لقد قُتلا على يد ثلاثة ملثّمين، تفرّغ أحدهم لشدّ وثاقه هو وأخوه الأصغر، وقُضي الأمر. وذهب القتلة وتركوهم على ربوة تطلّ على البحر، ولم يعثروا عليهم إلاّ بعد ساعات.

كان أخوه الأصغر قد أُصيب بانهيار، فوجد في عبور البحر من ميناء بيروت إلى ميناء لارنكا القبرصي محاولة ليرمّم حياته، وأقام هناك عدّة شهور متنقّلاً بين المجلاّت العربيّة التي بدأت بالصدور فيها، ثم غادر باتّجاه مدريد هذه المرّة رفقة فتاة إسبانيّة تعرّف عليها في ليماسول، جاءت لتغطية المشكل القبرصي بعد أن انشطرت الجزيرة الصغيرة إلى شطرين وصارت في كلّ منهما دولة.

في مدريد انكبّ على تعلّم اللغة الإسبانيّة وبدأ بإرسال تقارير مترجمة ومكتوبة إلى مجلّة «المستقبل» بعد أن بدأت بالصدور من باريس. وهناك التقاه غسّان. حصل هذا قبل سنوات من تعرّفه على شقيقه الأكبر غيّاث الإبراهيمي، كان على موعد مع الشّاعر الرائد عبد الوهاب البيّاتي، أو الشّاعر المعلّم كما يحبّ غسّان أن يلقّبه، في مقهى «فويما» بشارع برنسيسا الشهير. عندما حضر البيّاتي كانت كلمات الاعتذار تسبقه لتأخّره. قدّمهما لبعضهما بعد أن وجد كلّ واحد منهما يجلس منفردًا.

- غسّان العامري، رياض الإبراهيمي.

علّق رياض:

- كدت أعرفه، لكنّ شيئًا من الشكّ انتابني، ما زلت أذكر حديثًا مليئًا أجراه معه فاروق البقيلي لمجلّة «الأسبوع العربي» التي كنت أعمل في قسم الترجمة فيها وقتذاك.

ونطق غسّان:

- ولكنّه لا يشبه حديث البيّاتي الذي كان كالمتفجّرة التي ألقيت على شعراء عصره!.

وردّد رياض:

- نحن نحبّ البيّاتي لأنّه يقول كلمته بالوجه، عارية كالإطلاقة، لا يلفّ ولا يدور.

لكنّ رياض الإبراهيمي غادر مدريد بعد أن حصل على درجة الدكتوراه في الأدب المقارن منها، وذهب إلى تورنتو بكندا ليعمل في التدريس.

أمّا غيّاث الإبراهيمي فقد هاجر هو الآخر بعد شقيقه بفترة قصيرة، وعمل مترجمًا بشركة فرنسيّة في بلد خليجي، أقام في الصحراء قرابة العامين حيث كلّ الفصول صيف، والصيف الحقيقي كالحريق لولا مكيّفات الهواء، كانت أيّامه مجدبة هناك حيث لا شيء من الأشياء التي يحبّها، النساء، الكأس. الثرثرة في السياسة والأدب مع أناس يستوعبونه ويستوعبهم، كما أنّه لم يستطع المجاهرة بمسيحيّته، وحتى إن فعل ذلك لن يصدّقه أحد. فمن يتكلّم العربيّة هو مسلم، وقد وجد هذا المثال واضحًا في بلدان المغرب العربي عندما زار المغرب وطلب طعام الغداء في رمضان، وقد عجز عن إقناعهم بأنّه مسيحي لبناني ومن حقّه أن يأكل وأنّهم يصومون أيضًا ولكن في وقت آخر وبطريقة مختلفة. النصرانيّة للأوروبيّين الشقر فقط. للذين يرطنون بلغات أخرى، أمّا لغتنا فهي لغة القرآن ومن يتكلّمها فهو مسلم وعربي.

لكنّ امرأة من هناك خرجت على ما هو محظور، كانت ترى غيّاثًا من وراء نافذتها في قصرها الصحراوي المنيف. يومًا ما طُرِق الباب وكان وحده في البيت، فإذا برجل أمامه حليق الوجه ويرتدي الكوفيّة والعقال.

ولكن هذا القادم سرعان ما كشف عن هويّته بعد أن انطبق الباب عليهما. إذا بغيّاث أمام امرأة كأنّها جنّيّة خرجت له في هذه الصحراء الفسيحة التي لا يرى المرء فيها غير الرمال وما بعدها رمال أيضًا.

امرأة مدّت لسانها لكلّ القيود وأعطت لغيّاث جسدًا لم يعرف شبيهًا له. ودّ لو يسألها عن اسمها ومن هي؟ لكنّها امتنعت واكتفت بالقول:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- سأزورك كلّما وجدت فرصة.

ثم ارتدت ثيابها وغادرته وتركته في ذهوله، رغم أنّه قد أحسّ بصحو عجيب بعد أن فرّغ كبته وحرمانه في جسد فتاة لا يبدو أنّها تجاوزت العشرين من عمرها.

وتكرّر الأمر وسط خوفه بأن يرجموه معها ثم يقطعوا عنقيهما، وعندما أحسّ بأنّ العلاقة أخذت مسارًا جادًّا تعذّر بسفرة طارئة وغادر. وقد قرّر أن لا يعود ثانية مهما كلّفه الأمر من بطالة وضياع، ولكن هذا الحلّ هو الأسلم.

وصل بغداد ليعمل في شركة روسيّة مترجمًا أيضًا، مقرّها منطقة «أبو غريب» غربي بغداد، كان يفزّ أحيانًا مرتجفًا وكأنّه مع تلك الفتاة وقد داهموا بيته.

أثناء عمله في الشركة الروسيّة تعرّف على نادية التي أصبحت زوجته وأمّ ولديه فيما بعد. كانت موظّفة إداريّة في القسم الذي يرتبط به. نشأت بينهما ألفة غريبة وبعفويّة لم يتصنّعاها، أحسّتْ به، قرأت حيرته بفطنتها وحدس الأنثى فيها، وتحوّلت هذه الألفة بمرور الأيّام إلى حبّ، وصارا يلتقيان خارج مكان العمل ليمضيا بضع ساعات معًا، أنصتا لبعضهما جيّدًا.

كانت نادية ذات أصول كرديّة لكنّها ولدت وعاشت في بغداد، ولم تلتقط من اللغة الكرديّة إلاّ بضع كلمات من والديها اللذين كفّا عن التكلّم بها إلاّ عند الضرورات كأن يزور الأسرة قريب لها قادمًا من السليمانيّة. حتى والدها وُلد في بغداد وتخرّج من كلّيّة الطبّ فيها وتخصّص في جراحة العظام، وكان أيضًا من مؤسّسي مجموعة الروّاد للفنّ التشكيلي وصداقاته للفنّانين التشكيليّين واسعة، وكلّ الكبار يزورونه ويجدون منه ومن زوجته وابنتيه الترحاب.

وعندما قرّر غيّاث ونادية الزواج اعترضهما اختلاف الدين، ولكنّه لم يجد في الأمر مشكلة ما دام مستعدًّا لإشهار إسلامه، وقد فعل هذا قبله بسنوات طويلة الأديب الفلسطيني جبرا إبراهيم جبرا ابن بيت لحم بعد أن أحبّ فتاة بغداديّة من أسرة لها موقعها السياسي والاجتماعي في العهد الملكي.

ولذا مضى كلّ شيء بسلام رغم اعتراض الأمّ التي خافت من مغادرته العراق ذات يوم مع زوجته وأبنائه الذين سيأتون، ولا يصبح بمقدورها زيارتها وقتما تريد كما هو الحال اليوم.

استأجرا بيتًا في حيّ «العامريّة». لم يكن فيه بادئ الأمر غير غرفة نوم وثلاّجة صغيرة.

وبعد أن مضت حياة نادية مع زوجها بأمان اعترفت الأمّ بأنّها لم تمانع من زواجها بغيّاث، ولكنّها خافت فقط أن لا تجد إحدى ابنتيها قربها عندما يقعدها الكبر.

* * *

دخل غسّان قاعة الاحتفال بعد أن أحسّ بالتعب من التمشّي والوقوف أمام الواجهات الزجاجيّة للمخازن الصغيرة داخل الفندق.

كان المدعوّون يواصلون تقاطرهم وكان عدد النساء كبيرًا، ولا يدري غسّان أيّ علاقات اجتماعيّة نسجها سهيل صبري وأتاحت له أن يأتي لحفل زفافه بكلّ هذا الحشد؟ ماذا لو كانت ملكة البهاء يارا داغر هي الزوجة؟ واطمأنّ أنّ تلك الفتاة النادرة قد أفلتت من هذا العالم واقترنت بقريبها وسافرت معه إلى أميركا طاوية نزوة كادت أن تبدّدها.

ولّما كانت زوجته الجديدة ممثّلة وأسرتها من الممثّلين أيضًا فإنّ نسبة كبيرة من الوجوه الفنّيّة كانت حاضرة.

استدار غسّان أوّل الأمر باحثًا عن المرحاض ليعيد تصفيف شعره ويتأكّد من أناقته ومن ثم يفرغ ما تجمّع في مثانته، ومكث بعض الوقت أمام المرايا الصقيلة، تأمّل وجهه وكأنّه يراه بعد غياب، إذ إنّ المرآة الصغيرة التي علّقها في حمّام شقّته والتي تكدّس عليها الغبار لا تسمح لملامحه أن ترتسم واضحة. قال وكأنّه يطمئن نفسه:

- ما زلت وسيمًا يا غسّان يا عامري، في ملامحك شيء من الكارزما التي يحتاجها الشعراء أكثر ممّا يحتاجها الروائيون جماعة عدنان العزيري.

ودخل القاعة مطمئنًّا بأنّه على ما يرام، إنّها القاعة نفسها التي أُقيم فيها الحفل التكريمي للأميرة الشاعرة، أو الشاعرة الأميرة! ولكن طبيعة هذا الحفل غير طبيعة ذاك، حيث تمّ صفّ موائد عديدة، أكثر من أربعين مائدة، وعلى كلّ واحدة وضعت زجاجتا ويسكي مع صحون المازات اللبنانيّة التي شاع تقديمها في المطاعم والبيوت العراقيّة.

وقف في استقبال المدعوّين أحد الشعراء الشبّان الذين ينتمون للمنتدى الأدبي الذي يرأسه سهيل صبري، كان شابًّا طويلاً يبلغ طول قامته مرّة ونصفًا من طول قامة سهيل، لذا اتّخذه أشبه بالمرافق ليعوّض بمهابة طوله قصر قامته، وقد مضى معه أكثر بأن زوّجه من أخته ليضمن ولاءه له.

هرع الشاب لاستقبال غسّان العامري عندما رآه قادمًا، وأطلق عبارات الترحيب الودودة، ثم اصطحبه إلى المكان الذي خصّص له. كانت مائدته من الموائد الأماميّة وفي مواجهته تمامًا وضع كرسيّا العروسين، وكأنّهما عرشان لمملكة خرافيّة منقرضة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تذكّر غسّان وجه يارا داغر التي كانوا يعدّون لتزويجها بسهيل وخمّن أنّها كانت ستجلس على الكرسي نفسه، تُتمّ الطقوس كما رسم لها، بعد ذلك يظهر المخفيّ.

وانتبه غسّان إلى أنّ جلّ المضيفين كانوا من أعضاء المنتدى الأدبي الذين توزّعوا في القاعة الفسيحة ليُجلسوا الضيوف في أماكنهم.

كما انتبه غسّان أيضًا إلى غياب الوجوه الأدبيّة والسياسيّة المعروفة في البلد، يقابله حضور مكثّف للفنّانين الذين يعملون في مؤسّستي الإذاعة والتليفزيون ومديريّة المسرح والسينما، وخاصّة أعضاء الفرقة القوميّة للتمثيل حيث تعمل العروس ووالدها وأختها الكبرى.

وكان القادمون يبدأون الشرب منذ أن يأخذوا أماكنهم.. فهذه فرصة لا تتكرّر.

كان الفتية المنتمون إلى المنتدى الأدبي في حالة تستحقّ الرثاء إذ بدا أغلبهم وكأنّهم غرسونات في أحد المطاعم أو البارات، وقد تعمّد سهيل أن يضعهم في هذه الحالة بغية إذلالهم حتى يظلّوا طوع يديه.

وقد باح أحدهم لغسّان من قبل أنّهم يخافون من علاقاته المتشابكة مع المسؤولين في الدولة والحزب الحاكم، وما داموا فقراء لا ظهور تسندهم ولا حتى مؤخّرات ارتضوا بما هم عليه وقبلوا تجاوزاته.

وقد أرضوا غروره وطبيعته لذا صاروا يمشون وراءه بملابسهم الكاكيّة وكأنّهم فريق حماية من تلك التي يرونها ترافق كبار المسؤولين.

تقدّم أحد القصّاصين الشباب ليصافح غسّانًا بترحيب حارّ وهو يسأله:

- لماذا كأسك فارغة؟.
- ما زال الوقت مبكرًا.

وقام الشابّ بفتح زجاجة الويسكي وسكب منها في كأس فارغ وهو يتوجّه بالسؤال إليه عن الكمّيّة الكافية، بعد ذلك وضع فيه قطعًا من الثلج ثم صبّ عليه قليلاً من الماء وهو يقول:

- أوّل كأس بيدي لشاعرنا الذي يحترم شعره ونحترم ترفّعه وشموخه.

وأحسّ غسّان بأنّ كلمات هذا القاصّ الشابّ قد دغدغته، جعلته يتأكّد من أنّ مبدعي وطنه يعرفون من هو. ويحترمون نأيه عن اليومي ومكاسبه التافهة.

أخذ الكأس منه وهو يقول:

- أنا سعيد بأن أسمع هذا الإطراء منك!.

- أبدًا، إنّه ليس إطراء، هذا هو الرأي السّائد عنك، ونحن معك، ونتمنّى أن تخرج لتوثّق صلتنا بالحياة الأدبيّة العربيّة وبنكران الذات الذي عرفناه عنك أو سمعنا به حتى قبل أن تنشر نصًّا واحدًا.

وأراد غسّان أن يقول له بتهكّم:

- ولكنّ هذا الشاعر الشجاع لم يسلم حتى وهو في انزوائه إذ تلاحقه الأسئلة.

واكتفى ببرم شفتيه ثم رمى جرعة الويسكي في جوفه، وقد تناثرت من فمه الشتائم التي لم يستطع كبحها.

ثم اقتحم المكان صوت الزغاريد الملعلعة ممّا يعني أنّ موكب العروسين متوجّه نحو القاعة، وذكّرته هذه الزغاريد بتلك الزغاريد التي انطلقت في القاعة نفسها احتفاء بالأميرة الشاعرة، زغاريد رنّانة لا بدّ أنّها اقتحمت وقار الفندق الفخم وأقلقت هدوءه وربّما امتعض زبائنه منها، صحافيّون وتجّار سلاح ورجال أعمال لهم مهمّات غامضة وسياسيّون كانت رائحة الحرب تقودهم إلى البلد حيث الأرباح لا حدود لها.

لقد كلّف بناء هذا الفندق عدّة ملايين من الدولارات وجيء بالحجر الذي شُيّد منه والمرمر النادر الذي يزيّنه من أصقاع بعيدة، وقد شُيّد أصلاً من أجل إقامة رؤساء دول عدم الانحياز الذي كان من المفروض أن يعقدوا مؤتمرًا لهم ببغداد، ولكن امتناع النسبة الكبيرة منهم عن إعطاء موافقتهم على حضور مؤتمر في بلد هو في حالة حرب مع بلد مجاور جعل هذا المؤتمر يذهب إلى بلد آخر، وهكذا تحوّل الفندق إلى استقبال كبار زوّار بغداد.

ودخل موكب العروسين تحفّ بهما الزغاريد والتصفيق ثم الأهازيج العراقيّة التي تتردّد في مثل هذه المناسبات. وكان سهيل صبري يتأبّط العروس التي بدت أطول منه، هي بثوب العرس الأبيض الذي يرفع أذياله المسحوبة وراءها عدد من النسوة، وهو ببدلة داكنة يلتمع قماشها من شدّة الضوء.

وانتبه غسّان إلى مشهد جعله يفغر فمه انشداهًا، مشهد لم يره من قبل في أيّ عرس حضره، إذ أخذت والدة سهيل تفتح حزمًا تضمّ أوراقًا نقديّة من فئة خمسة دنانير وعشرة وتنثرها على موكب العروسين، وكانت الأوراق النقديّة تتساقط تحت أقدام العروسين، فيهرع الندل المصريّون وبعض الحاضرين إلى جمعها وتكديسها في جيوبهم، وقد ضحك غسّان عندما لمح القاصّ الشابّ الذي سكب له كأس الويسكي وقد شارك في التقاط الأوراق النقديّة فتمتم: حلال عليك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وواصل متابعة المشهد الخرافي الذي جرت أحداثه أمامه. وأحسّ بأنّه محاصر، وليس أمامه إلاّ المغادرة والتوجّه إلى البار لعلّ غيّاث الإبراهيمي ما زال هناك و لم يغادره، نهض ومضى صوب العروسين وصافحهما مهنّئًا ثم انسحب خارجًا وفي داخله تنكتم صرخة كاد أن يطلقها في ممرّات الفندق ليتردّد صداها:

- إنّها فضيحة، فضيحة.

ولكنّه سرعان ما عاد إلى التساؤل الأهمّ الذي أرجأه في داخله:

- من صنع هذه الفضيحة؟ من هو المسؤول عنها؟ من أمدّه بكلّ هذا المال؟ من أفسد هذا الفتى؟.

- 50 -

كان صوت تزمير سيّارة عدنان العزيري قد دفعه لفتح الشبّاك المطلّ على الشارع، لوّح له بيده فخرج عدنان من سيّارته آنذاك، وتوجّه نحو المكتبة الصغيرة التي تقع تحت العمارة حيث اعتاد أن يثرثر مع صاحبها بعض الوقت عن مسار الحرب وما تشير إليه الأحداث عن قرب توقّفها، خاصّة وأنّ العراق قد استرجع كلّ أراضيه التي كانت محتلّة وطوّر في مديات صواريخه لتضرب أبعد المدن الإيرانيّة عن ساحة الحرب، ولم يكن في حسبان الإيرانيّين أنّ القصف سيصلها.

نزل غسّان بسرعة إذ كان قد فرغ من ارتداء ثيابه قبل مجيء عدنان. ودخل وراءه إلى المكتبة وألقى تحيّة الصباح عليه وعلى صاحب المكتبة. بعد ذاك انسحبا وصوت عدنان يقول لصاحب المكتبة بشيء من الاعتذار:

- وللحديث صلات ووصلات وليس صلة واحدة.

ثم خاطب عدنان صديقه وهو يشير بسبابته:

- لقد بذلت جهودًا حثيثة حتى أقنعت زوجتي بأن ترفع عنك الحظر جزئيًّا، وكمقدّمة لهذا التحسّن غير المتوقّع في العلاقات تدعوك لتناول وجبة سمك وما رافقها من دولمة وما شابه ظهر اليوم.
- تطوّر مهمّ!.
- أنا لا أدري، لقد عجزت منها ومن تبييض أيّ صفحة من صفحاتك السوداء بالنسبة لها والورديّة بالنسبة لي، ولكنّها صحت مبكرة وأخرجت السمكة الكبيرة من المجمّدة ثم سألتني أنت ذاهب إليه؟ وافتعلت بعض الغباء وأنا أحاول الاستفهام منها ومن هو؟ قالت: أبو النسوان، هل هناك غيره؟ وأضافت: المهمّ أنّني لا مانع لديّ من دعوته للغداء، سأشوي السمكة كاملة، وهنا أبلغتها بأنّني لن أقوم بهذا العمل إلاّ إذا وجّهت له الدعوة باسمك، فوافقت.

كانت زوجة عدنان كما هي زوجة طارق المنصور على عداء محكم لغسّان، ومبرّر هذا أنّه طلّق زوجته دون أن تكون أيّ منهما على استعداد لمعرفة الأسباب، وكانتا تظنّان رغم أنّهما لم تعرفا بعضهما بأنّ صداقة زوجيهما لغسّان قد تجعلهما يحنّان لحياة العزوبة التي يعيشها فيحذوان حذوه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولكنّ زوجتيْ غيّاث ومنعم البصري لهما موقف مختلف من المسألة، لا بل إنّهما أحبّتا حنان عوّاد عندما تعرّفتا عليها أثناء زياراتها المتكرّرة لبغداد.

أمّا زوجة زيد الحبيب فهي صديقة مطلّقة غسّان وما زالت على اتّصال بها بين الحين والآخر لمعرفة أخبارها وحالة ابنتيها.

بعد أن مضت بهما السيّارة جاء حديث الجدّ إذ تكلّم غسّان بغضب كثير:

- رأيت البارحة بأمّ عيني فضيحة الفضائح، عشرات الأوراق النقديّة من فئة الخمسة والعشرة وربّما العشرين تُرمى على رأس سهيل صبري وعروسه فيتناهبها النذل وبعض الأدباء الهلكانين، أموال تكفي لإطعام وإكساء عشرات الأُسر! كيف يحصل هذا؟ ومن أين؟ ولماذا؟.

وكان عدنان يهمهم كأنّ سرعة بديهيّته التي عُرف بها قد خانته وجعلته عاجزًا عن قول تعليق، ثم نطق:

- أتذكر ذلك المثل الذي كنّا نسمعه من أفواه شيوخنا؟ سأقوله لك، اسمع.
- كلّي آذان.
- وعيون، وانتباه وإدراك، التقط ما أقول حتى بشعرات مؤخّرتك القبيحة.
- حاضر، كلّي مجسّات.
- لك فيها إرادة يا خالق الجرادة. هذا هو المثل، وأترك لفهمك البطيء والمعدوم في بعض الحالات للربط بين المثل العبقري هذا وبين ما رأيت في العرس.. ثم تعال أسألك لماذا ذهبت؟.
- دعاني فذهبت.. هذا كلّ شيء. أريد أن أرى، ألست حفيد جلجامش العظيم الذي رأى وأبصر؟.
- عليك أن تصحّح نسبك، فواحد مثلك لن يكون أحد أحفاد جلجامش بل من الممكن أن نمنحك شيئًا من الشرف بأن نجعلك حفيدًا لجارية من جواري قصره أو لعبد لم يُخص جيّدًا من عبيده!.
- وربّما أكون حفيدًا لنيّاك محترم أتى على كلّ النساء، فالجنس وقتذاك لم يكن عيبًا بل عبادة.
- بعد كلّ الذي رأيته هل تساءلت: ما العمل؟.
- تساءلت، ولكن صحيح ما العمل؟ أنصرخ؟ نمزق ثيابنا؟ نجنّ؟ المهمّ أن لا نبقى على هذه الحالة من الاستلاب القميء؟.

وردّد عدنان بهدوء:

- أين تحبّ أن تصرخ؟ في ساحة الاحتفالات؟ في شارع الرشيد؟ هنا؟ أجبني وسأحملك بسيّارتي وبعد أن أوصلك سأهرب منك وأتركك أنت وعراءك لتلاقي جزاءك.
- أرجوك لا تمزح، إنّني أتمزّق، لم أنم البارحة دقيقة واحدة، ثلاث مرّات وقفت تحت مرشّ الماء، أربع مرّات أعددت القهوة والشاي، انظر إلى يدي، إنّها ترتجف عندما أمدّها!.
- ربّما تكون قد مارست العادة السرّيّة، قل لي الحقيقة، لا تخبّئ شيئًا، سيماؤك تدلّ على هذا؟.
- وهل بقي عندي شيء ينتصب حتى أفعل هذا؟.
- أنت خوش طيز.

وقهقه عدنان وحده، أمّا غسّان فقد بقي على حزنه. أراد عدنان أن يحوّل الفاجعة إلى مزحة لكن صاحبه لم يستجب، ممّا جعله يدرك أنّه في حالة حزن قصوى لم يجده عليها إلاّ مرّات معدودة، آخرها عندما غادرت حنان عوّاد بغداد ومشروع سفرها إلى أميركا أصبح واقعًا.

وعاد صوت غسّان إلى البوح وكأنّه يكلّم نفسه:

- ما الذي يحصل في هذا البلد؟ لماذا؟ الملايين ماتوا وشُوّهوا وأُسِروا، وجاع أبناؤهم، وتهدّمت أُسرهم، صار الأخ يتزوّج أرملة أخيه لا ليسترها بل ليستولي على السيّارة البرازيليّة التي تمنح لزوجة كلّ شهيد، كأنّه يتزوّج السيّارة، وفي عزّ ظهيرة المحنة، وفي لهيب الخراب يجري هذا العرس الأسطوري؟.

وداعبه عدنان قائلاً:

- لديّ أنابيب صغيرة أعطاني إيّاها طبيب روسي تبرّد الإست فتهدأ الأعصاب، إذ هناك علاقة بين الاثنتين إن أحببت سأزوّدك بواحد، لا تخف، إنّه ليس كبيرًا، تستطيع حمله!.

وهنا التفت إليه غسّان قائلاً:

- أقترح أن تدسّه في إستك، أمّا أنا فلا أريد أن أهدأ، أو أتخدّر، بل أريد البقاء صاحيًا، يقظًا، ولا أغمض عينًا، لكي أواصل الرصد وأؤرّخ للخراب.

وبعد فترة صمت، أمضاها عدنان في الدندنة والهمهمة مع كلمات أغنية يبثّها المذياع وهي من الحالات النادرة التي تبثّ فيها أغانٍ عاطفيّة بدلاً من أناشيد الحرب والتمجيد بزعيم البلاد، قال:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- لديّ مكافأة عن قصّة نشرتها في العدد الأخير من مجلّة الأقلام، وقد تلفن لي حيدر الخلف صباحًا وأخبرني أنّها جاهزة، سنتوجّه إلى دار الشؤون الثقافيّة لاستلامها.
- وبعد ذلك؟
- نلتقط حيدر الخلف ونمضي إلى شاطئ دجلة الخير نحو بارنا الظهيري نسبة إلى الظهيرة، انظر الاشتقاقات العظيمة علّك تفيد منها في شعرك الشعيري أيّها الجاهل لنكرع البيرة استعدادًا لالتهام السمكة التي تنتظرنا في البيت.

وهكذا أطلق عدنان سيّارته في شوارع بدأت تتخلّى عن اكتظاظها بعد أن دخل الموظّفون والعاملون إلى مكاتبهم وأماكن عملهم.

عَبَر جسر الباب الشرقي ومرّ بساحة التحرير حيث النصب العظيم الذي يُعدّ من معالم المدينة البارزة، والذي يمثّل فجر ثورة الرابع عشر من تمّوز من عام 1958، وقد وصل فيه إبداع فنّان الشعب العراقي جواد سليم ذروته، كان النصب يشغل كلّ المساحة التي يقع عليها نظر من يعبر الجسر من جهة الكرخ، وكان من عادة غسّان أن يتملّى هذا النصب كلّما مرّ به وكأنّه يراه للمرّة الأولى، لقد تسبّب في إرهاق قلب جواد سليم الذي لم يكمل الأربعين من عمره فأسقطه ميّتًا وهو في المرحلة الأخيرة من تنفيذه، حيث فعل ذلك في مشغل للنحت بروما بعد أن أوفده زعيم الثورة عبد الكريم قاسم إلى هناك من أجل أن يتفرّغ كليًّا لعمله، وقد بلغ حبّه لعبد الكريم قاسم حدًّا جعله يضع صورته أمامه، فكأنّه يستمدّ الشجاعة من بريق عينيه الذكيّتين اللتين تسكبان الشجاعة في قلب من يتأمّلهما وتمدّانه بالعزم والمواصلة المتفانية.

توجّهت السيّارة نحو ساحة الطيران التي لا يدري أحد لماذا أطلق عليها هذا الاسم؟ كانت المنطقة قد تحوّلت إلى «مستعمرة» صغيرة للقادمين من السودان بشكل خاصّ والذين دفعهم الجوع والبطالة إلى التوجّه نحو العراق للقيام بالأعمال والمهن الصغيرة، فسكنوا جلّ الفنادق الشعبيّة الموزّعة في الأزقّة المتفرّعة عن الساحة وغرف البيوت التي تعرض للإيجار، وتحوّل بعضهم إلى باعة في الدكاكين والمحلاّت، كما افترش عدد منهم الأرصفة عارضين بضائع حملوها معهم قبل قدومهم لغرض بيعها، حنّاء، بهارات، أقفال، أمشاط، أقراط، مسابح. وكان غسّان قد أطلق على هذه المنطقة اسم الخرطوم كلّما زار صديقه أبا حسّان صاحب أكبر مكتبة في المنطقة، والذي سلّم هو الآخر مقاليد مكتبته إلى فتى سوداني له اهتمامات أدبيّة، وكان أبو حسّان يبرّر عمله بقوله:

- ربّما لأنّني كبرت، أو تعبت، بعد أن اهدّ حيلي على ولديّ المجنّدين في هذه الحرب الملعونة، كما أنّني لم أجد عمّالاً لهم أمانة إخوتنا السودانيّين.

وكان يلذّ لغسّان عندما يكون وحيدًا التطواف في المكان والتطلّع إلى مطاعم الوجبات السريعة التي تقدّم المأكولات السودانيّة، أو إلى المقاهي المكتظّة إلى درجة غريبة ويتعالى منها الضجيج وأصوات الأغاني السودانيّة التي لم يسمع بها من قبل، ولم يعرف للسودان أيّ مطرب عدا سيّد خليفة وأغنيته الإيقاعيّة الشهيرة «إزّايكم صار لي زمان ما شفتكم!».

كان هذا العالم السوداني الصغير يسوده شيء من الكسل مع دخان السكائر ورشفات الشاي الثقيل، فيشكّلون حالة نقيضة لعالم ساحة المربعة وحيويّة العمّال المصريّين الذين يخلقون فرص العمل لينتزعوا قوتهم.

كانت السيّارة قد بدأت بصعود الجسور المعلّقة والمتقاطعة، والتي يحتاج السائق إلى الانتباه الكامل لمعرفة جهّاتها وإنْ أخطأ سيقطع أكثر من عشرين كيلومترًا لكي يستطيع العودة.

كان راديو السيّارة يطلق أغنيّة «يا حريمة» الشهيرة لحسين نعمة، وقد جاءت ضمن الأغاني التي يطلبها مستمعو الإذاعة ومن المؤكّد أنّ لا أحد في وسط سعير الحرب يجد وقتًا يكاتب فيه الإذاعة من أجل إذاعة أغنية، في حين أنّ بإمكانه شراء شريط كاسيت كامل بمبلغ بسيط للمغنّي الذي يحبّه.

قال عدنان بسخريّته الخالدة:

- هذه ناصريّتكم لم تقدّم للحضارة البشريّة غير المغنّين، من حضيري أبو عزيز إلى داخل حسن إلى حسين نعمة طيز العنقود.
- على أيّة حال هذا دليل بأنّنا نصدّر أجمل ما يخاطب القلوب الموسيقى والغناء، أمّا العزير فتصدّر «الخرّيط» والبردي والقصب.

وصاح عدنان بانفعال مصطنع:

- أهل العزير ورثة ثوّار العشرين بوجه الإنكليز، من تصدّوا لزحف المحتلّين بالفالات!.

وتمتم غسّان بلا مبالاة:

- أنت خوش فالة.

صفن قليلاً ثم أضاف:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- خوش وريث.

ثم غيّر لهجة حديثه وقال:

- أكرمنا بسكوتك ودعني أشنّف سمعي بصوت ابن مدينتي الذي يعيدني إليها، إلى طفولتي وأجمل أيّامي، ثم لا تنس أنّ حسين نعمة أحد أصدقاء طفولتي!.
- لماذا لا تكتب له كلمات أغانيه وتترك كتابة الشعر المغلق الذي لا معنى له؟.
- كانت هناك محاولة مشتركة. لذلك قمنا بها صحبة قيس لفتة مراد ولم ينجح منها غير القصيدة الجميلة لقيس التي يغنّيها دون أن يعرف أحد واضع كلماتها.

ثم لاح لهما مبنى دائرة الثقافة وقد شغل مساحة كبيرة وبُني على هيئة قباب وأقواس متباعدة عن بعضها، فيبدو لمن يراه وكأنّه مقبرة، ممّا جعل غسّان يسأل صاحبه:

- قل لي بماذا يوحي لك هذا البناء؟.

وردّ عدنان على الفور:

- بغباء معماري كامل، مفكّك ومبعثر وخال من الذوق.
- أمّا أنا فيذكّرني بالمقابر.

وجعله تعليق غسّان يتأمّل المكان ثم ينطق:

- لأوّل مرّة أكتشف أنّ لك انتباهات ذكاء رغم أنّني كنت يائسًا منك.

ثم أوقف سيّارته وهو يواصل:

- إنّه مقبرة على أيّة حال، ليس للبشر بل للثقافة، ووجوه بعض الموظّفين تشبه وجوه حفّاري القبور.

فأطلق غسّان ضحكة داهمت حنجرته وعلّق:

- ما رأيك بتقديم اقتراح لوزير الثقافة بدفن كلّ أديب في غرفة مكتبه، لأنّها أضرحة أولياء، ورغم أنّه لا وجود لولي صالح هنا فلعلّ دفنهم يجد قبولاً، وبدلاً من دائرة الثقافة تعلّق في المدخل يافطة مقبرة الثقافة.

ثم دلفا، ولمّا كانت موظّفة الاستقبال تعرفهما لم تطلب منهما إبراز هويّتيهما.

توجّها نحو مكتب مجلّة الأقلام. كان هناك رئيس تحريرها الودود هاني جعفر الذي كانت البداية بدخول غرفته حيث استقبلهما بحفاوة. وقال:

- ما هذه الزيارة المفاجئة؟.

قال عدنان:

- جئنا لنلمّ المحاصيل، نجمع الريع، أنسيت أنّ لي قصّة في عددكم الأخير؟.

- بئس المحاصيل! نحن ندفع أعلى أجر لكتّاب الدرجة الأولى أمثالك مائة دينار عن القصيدة أو القصّة.

وشعر عدنان بشيء من الزهو والتفت إلى غسّان وقال له:

- أرأيت؟ أنا مصنّف ككاتب من الدرجة الأولى!.

وحوّل سؤاله إلى هاني وهو يشير لغسّان:

- وشعراء الدرجة الرابعة أمثال الأستاذ غسّان العامري؟.

فما كان من غسّان إلاّ أن علّق:

- هل صدّقت؟ أنّ هاني يواسيك، يحاول أن يشدّ من أزرك، فأنت مجـرّد كاتـب واقعي اشتراكي تعتاش على مخلّفات الأدباء السوفييت؟.

وصاح منفعلاً:

- أنا المجدّد الأوحد في قصص العراق؟ جئت من موسكو وأنا أحمل هموم جيلـي، هكذا قالت مجلّة الكلمة عنّي في الإعلان عن مجموعتي التي أصدرتها قبل سنوات.

نطق غسّان بدعابة:

- حامل هذا.

وأشار بيده إلى عضوه.

ثم انطلقوا ضاحكين، قال هاني بعد أن ارتوى من ضحكته:

- عندما لا أراكما أفتقدكما جدًّا، نحن هنا وسط جوّ مكفهرّ، هذا يتـآمّر علـى ذاك، مع أنّ المسألة كلّها لا تساوي شيئًا!

وردّ عليه غسّان:

- من حسن الحظّ أنّنا خارج اللعبة كلّها، وفي هذا راحة لنا رغم أنّهم لا يـدعوننا وشأننا.

وقاطعه عدنان:

- سأذهب للمحاسب لاستلام المبلغ المعلوم، انتظرني هنا، أو عند حيدر الخلـف. قرّرت أن أضع تحت تصرّف الشّاعر المزعوم الذي رماه قدري ليكون صـديقي المسمّى غسّان «الأمّ هاوني» مبلغ خمسة عشر دينارًا ليكرع بها ما يتّسـع لـه كرشه من بيرة!.

ولاحقه صوت غسّان وهو يشير بذراعه المضموم القبضة:

- أبو هاوني، أبو، وطوله ذراع كامل.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قال هاني جعفر:

- لو لم يكن لي ارتباط مسبق لرافقتكما، فصحبتكما تخرج المرء من ركام كآباته.
- هي رقصة الطيور الذبيحة يا هاني يا صديقي!
- بتنا نفتقد ذلك الودّ القديم الذي لم نعد نجده إلاّ عند القلّة النادرة من الأصحاب والزملاء، كأنّهم وحدهم يشكّلون لنا الأمان والضمان.

وانتبه هاني إلى أنّه لم يسأل صاحبه ماذا يشرب فقال:

- شاي.

ونهض هاني وفتح نافذة مكتبه المطلّة على الحديقة الوسطى للمبنى ونادى الفرّاش:

- أبو جاسم، شاي.

ومن الشبّاك نفسه امتدّت يد «أبو جاسم» باستكان الشاي الذي كان يصنعه خلسة بناء على إلحاح بعض الموظّفين، الذين لا يستطيعون مواصلة عملهم بدون الشاي والقهوة والسكائر.

وبدأ غسّان بارتشاف شايه الذي يبرع أبو جاسم في صنعه حيث يضيف له الهال ليلذّ طعمه.

سأله هاني:

- هل تكتب؟.
- أحيانًا، لديّ شعر يشكّل ديوانيّن وأكثر، لكنّني غير متحمّس للنشر، أرجأت ذلك لما بعد الخروج.

وصفّق هاني بيديه وكأنّه أمام معادلة صعبة:

- أيّة مفارقة عجيبة أن يكون غسّان العامري، بكلّ حيويّته وقوّة حضوره وسعة علاقاته، عاطلاً لا ينشد غير الخروج ليرتمي في متاهة العالم؟.

وهزّ غسّان رأسه قبل أن يقول:

- يبدو يا هاني أن لا مكان لنا، وغدًا ستجد نفسك أو يجد آخرون أنفسهم في وضع شبيه بوضعي، إنّه زمن سهيل صبري وطاقم الوجاهة الثقافيّة.. سنترك لهم الجَمل بما حمل كما يقال. البركة فيهم، فهم أعمدة أدبنا وثقافتنا..

وبلع ريقه وهو يتكلّم بهدوء مواصلاً بعضًا من بوحه الذي يقدّمه أمام إنسان وشاعر يثق به:

- صدّقني يا هاني، إنّني لا أحسد هؤلاء بل أرثي لهم، فقد انقادوا وراء وهم.

وقاطعه هاني بقوله:

- ولكنّ المهمّ أن لا يتحوّلوا إلى طبقة تنظر إلى الآخرين من علياء وهمها.

ودخل عليهما عدنان العزيري صحبة حيدر الخلف الذي ما إن رأى غسّانًا حتى صافحه معانقًا وهو يردّد:

- أين أنت؟.

- فوق هذه الأرض، وفي هذه المدينة ولا دليل لي غير الله وولي أمري الأبدي عدنان العزيري عقوبتي وثوابي.

ثم استأذن حيدر الخلف من رئيس التحرير هاني جعفر ليذهب مع صاحبيه، وغادر الثلاثة مبنى دار الشؤون الثقافيّة. قال عدنان:

- إسمعا أيّها اللقيطان، سأرأف بكما وأعطف عليكما، في الجيب خمسون دينارًا مخصّصة للشرب، وقبل أن نتحرّك أحذّركما بأن لا يتعدّى أيّ منكما ثلاث زجاجات بيرة ومعها ثلاثة صحون مازة، ومن يفعل غير ذلك يدفع من جيبه، أنا قاصّ عظيم ولا أدير ملجأ أيتام.

هنا علّق حيدر:

- أين كرمكم يا أهل العزير؟ ما الذي جرى فأصابكم البخل؟.

أمّا غسّان فقال:

- قل العزير التي كانت، فهي الآن مجرّد خرائب مهجورة وضريح نبيّ قيل إنّه من أنبياء اليهود، ولم تُبق منها المدفعيّة الإيرانيّة شيئًا.

وما إن سمع ما فاه به صاحبه حتى صفن قليلاً ثم نطّ الدمع من عينيه رغم أنّ هذه الأحاديث تتمّ في إطار مزاحهم ومناكداتهم المستمرّة، سحب نفسًا ثم ردّد بحسرة:

- أويلاه!.

وأحسّا بجرحه وهو يطلق هذه الحسرة، فما كان من غسّان إلاّ أن قال له معتذرًا:

- أنا آسف يا عدنان.

أمّا حيدر فقال:

- دعونا نعبر هذا الموضوع. لنتحدّث بموضوع آخر، فالحرب وآثارها كتاب بل مجلّد لو أردنا فتحة لأغرقنا الدم المسفوح فليست العزير وحدها المنكوبة بل والقرنة والبصرة كلّها، والعمارة، والأهوار الصافية الجميلة، والناصريّة نُكبت.. الموصل، العراق كلّه!.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأخذ كلّ واحد منهم مكانه في سيّارة عدنان التي انطلقت بهم وهم صامتون، ليس بينهم من ينبس بكلمة، وعندما وصلوا إلى البار كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة ظهرًا. وصعدوا سلالمه ليأخذوا مكانًا مطلاً على النهر قبل أن يكتظّ بزبائن الظهيرة، وكان المطعم عبارة عن سقيفة متينة مبنيّة في مكان يطلّ على الشارع المشجر الممتدّ من الصرافية حتى الأعظميّة، أمّا واجهته الأخرى فتطلّ على الشاطئ العريض الرملي، وشاهدوا بعض السابحين من أعمار مختلفة وقد كوّموا ثيابهم وأخذوا يعومون في النهر، وفي الجهة المقابلة من النهر هناك نخل كثيف، وبعض البيوت التي تعانق النهر وكأنّها سفن راسية فيه.

استمرّ صمتهم المتأفّف حتى فرغوا من الزجاجة الأولى التي شربوها مسرعين لقتل العطش الذي تتسبّب فيه سخونة الجوّ.

ومع البدء بارتشاف الزجاجة الثانية بدأت قناة كلّ منهم تلين، وكأنّهم اكتشفوا فجأة ما حلّ بالبلد، وما يعيشه الناس من ذلّ وخوف وتجنيد بالجملة إلى جبهات الحرب، وكان عدنان أوّل المتكلّمين حيث قال:

- دعونا نُشبع نظراتنا من شاطئ دجلة الجميل فبيوت الحاكمين بدأت بالاستحواذ عليه، وستزحف حتى جسر الصرافية. وبذا نُحرم حتى من رؤية دجلة، أين أيّام هذا النهر الرائع؟ أين «الجراديغ» في جُزُره التي تظهر في وسطه أيّام الصيهود؟ أين الأكواخ التي نبنيها على الشطآن لنسهر فيها ونمضي النهارات القائظة ولا أحد يسألنا لماذا فعلتم هذا؟ أو يهدّها على رؤوسنا وهو يقول: ممنوع؟.

ثم أضاف:

- كم بودّي أن أعوم، لكن عطب قلبي يمنعني من ذلك، إنّني أحسد الفتية أولئك الذين يتقافزون بحبور ويتعمّدون بماء دجلة!.

ووسط إصغاء صاحبيه وجد لذّة في المزيد من البوح:

- كانت طقوس أجدادي السومريّين الدينيّة وأساطيرهم تظهر قدسيّة ثلاثة أشياء هي الماء والنّار والشمس.

ثم غرس الملعقة في صحن «الحمّص بطحينة» ورفعها إلى فمه وصار يلوكها بشيء من التلذّذ، ومن ثم واصل القول:

- كان السومريّون يغسلون أيديهم قبل أداء أيّ مرسوم ديني، فهل هناك علاقة بين هذا وبين الوضوء في الإسلام مثلاً؟ إنّه سؤال خطر لي الآن وأنا أتأمّل النهر؟.

أجابه غسّان باقتضاب:

- ربّما.

ثم عاد عدنان ليتساءل:

- خذ الصابئة مثلاً، لماذا اقترنت حياهم اليوميّة وممارساهم بالماء، حتى الدينيّة منها؟ ولذا يفضّلون دائمًا السكنى قرب شواطئ الأنهار؟.

وتساءل حيدر:

- طقوس غيرهم تقترن بأشياء أخرى، مثل اليزيديّين وعلاقتهم بالنار، وهم قوم جبليّون.

قال عدنان كالحائر:

- إنّها أسئلة! أسئلة!.

وهنا تدخّل غسّان للقول:

- الحياة في الماء ومع الماء، التكيّف مع عالمه ليصبح مداه الممتدّ كالصحراء بالنسبة للبدوي، لا يخافها بل يرى فيها حياته واستمراريّة بقائه، عرفت هذا عندما أقمت بضعة شهور في أعماق الهور معلّمًا مبعدًا مع معلّمين آخرين أكثرهم حالتهم مثل حالتي.

وعندما وجد صاحبيه يصغيان له واصل:

- كان ما هو غير طبيعي لي طبيعيًا جدًّا بالنسبة للناس هناك، بيوهم الطافية في الماء، تنقّلهم بالزوارق الصغيرة بخفّة ورشاقة، كأنّ الحياة هكذا ولن تكون بصورة أخرى، وجدت بادئ الأمر صعوبة كبيرة وأنا أذهب من كوخي إلى المدرسة بزورق، وأنتقل من صفّ إلى آخر بالزورق نفسه، وكانت الرحلات التي يجلس عليها الطلبة قد غاص نصفها في الماء، لذا كان هؤلاء الصغار يتركون أقدامهم تلبط في الماء أثناء إلقائي الدرس وكأنّهم أسماك محصورة في شباك صيّاد.

وهنا قال حيدر الخلف:

- مرّة قرأت أنّ هؤلاء هم بقايا السومريّين، وقد ظلّوا أسياد مساحات الماء لا أحد غيرهم يعرف مساربها ويخترق مجهولها، عالمهم واسع وثري، لم يصلهم إلاّ قلّة من المغامرين الأوروبيّين الذين عاشوا بينهم ليكتبوا عنهم، وفي مكتبتي كتاب مهمّ عنوانه «العودة إلى الأهوار» ومؤلّفه هو غافن يونغ.

وانتهت الزجاجة الثانية لكلّ منهم لتبدأ الوجبة الثالثة، آنذاك كانوا قد استرجعوا شيئًا من مرحهم الذي هو جزء من طبيعتهم المازحة الساخرة لتبديد غيوم الأحزان الثقيلة.

قال عدنان بشيء من الزهو:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- كان والدي رحمه الله يصنع لهم العباءات، يطرّزها بخيوط الإبريسم الذهبيّة، يقصدون دكّانه من أعماق الأهوار بعد أن يبيعوا محاصيلهم ليشتروا ما يحتاجونه من ثياب وتبغ وسكّر وحبوب، وغالبًا ما كان يتوجّه إليهم بنفسه ليأتينا ببركات الأهوار من بطّ وطيور الخضيري والحذّاف والسمك والخرّيط.
- لكنّ الحرب اقتحمتهم فعاثت بهم، أحرقت بيوتهم العائمة، وقتلت العشرات منهم وماتت أبقارهم وكذا الأسماك والطيور فرّت، حدّثني صديق وأخبرني أنّك لا ترى إلاّ جثثًا طافية ومنتفخة على سطح الماء، واقتطع الجنود قامات القصب والبردي، وفرّ من سَلِم منهم إلى المدن القريبة، ولكنّهم فقراء لا يجيدون مهنة يعتاشون منها، كما أنّهم لا يعرفون العيش فوق الأرض.

بهذا نطق غسّان وتبعه حيدر بالقول:

- ذهبت إلى الأهوار مرّتين، كان ذلك في بداية الستينيّات، وكنت قد خرجت بكتابات هي مشاريع لروايات لا لرواية واحدة.

علّق عدنان:

- ما زلت أذكر الفيلم الجميل الذي صوّره صديقنا المهاجر قاسم حول عنها؛ أعتقد أنّه سيظلّ وثيقة خاصّة بعد عمليّات الحرق والتهجير والتجفيف.

هزّ غسّان رأسه موافقًا:

- صحيح.

أمّا حيدر فقال:

- يبدو أنّ مساحات الماء الممتدّة لمئات الكيلومترات قد حفظتهم من التشوّه، ولكن ها هي الحرب لم تستثنهم فجاءت على كلّ إرثهم وعاداتهم، ما أجملهم في حيويّتهم! ضامرون ورشيقون، كانوا يقفون على رؤوس زوارقهم الصغيرة وبيدهم مجاذيفهم، كأنّهم راقصون بارعون، رجالاً ونساء.

ولكن غسّانًا قطع حديثه بقوله:

- لقد أخذنا هذا الحديث فنسينا أن نطلب الوجبة الرابعة من زجاجات البيرة رغم أنّه ما زال في زجاجة كل واحد منّا وَشَل. أنا شخصيًّا سأطلب الرابعة!.
- لقد اشترطت عليكما قبل أن نجلس، لكلّ واحد ثلاث زجاجات هبة منّي للفقراء والمتشرّدين أمثالكما. أمّا الرابعة فهي خارجة عن الحساب. أو هناك حلّ!.

سأله حيدر:

- ما هو؟.

ومدّ يده مشيرًا إلى عضوه:

- تلعب لي بهذا.

ردّ حيدر:

- ألعب لا مانع لديّ، هذا إذا كان له وجود!.

وهنا انطلقت ضحكاتهم عالية، وبعد أن تعبوا من الضحك تحوّل صوت حيدر إلى التوسّل:

- أعرف أنّك كريم يا عدنان، ولن تبخل علينا بالزجاجة الرابعة حتى تكتمل السكرة خاصّة أنّ الأولاد اليوم في المدرسة طيلة النهار، ولي النيّة أن أطلّع قهر ربّ العالمين ولصوص دجلة بالمدام، وهذا أضعف الإيمان!.

وقال عدنان:

- بسيطة، سأطلب الوجبة الرابعة، ولكن قل لي أمام غسّان متى تنشرون لي قصّة جديدة في مجلّتكم؟.

حرّك حيدر يده علامة التأنّي وهو يقول له:

- اصبر قليلاً، العدد الذي ضمّ قصّتك صدر منذ يومين فقط، ولدينا أكداس من القصص لأهمّ الأسماء؟.

هنا رفع صوته مقاطعًا:

- أهمّ الأسماء هو عدنان العزيري أفهمت؟ ثم إنّني أريد أن تتربّى أجيال القصّاصين الجدد تربية أصيلة وليست هجينة، وهل لها من وسيلة غير قراءة قصصي التي تنتصر للإنسان، وليست مجرّد كوابيس لفظيّة مثل قصصك.

وتدخّل غسّان بالقول:

- لا تنس أنّ حيدر الخلف قاصّ مجدّد، أمّا أنت فما زلت تحت تأثير كتابات أصدقائك السوفييت؟.

- ماذا بهم أصدقائي السوفييت؟ أليسوا هم خير من يمثّل الصدق والأصالة؟ وأدبهم أدب نضال ومواقف حيّة لا تمحى أبدًا؟.

ووجد غسّان لذّة في إثارته حيث قال:

- هذا كلام شعارات كان يصلح قبل ربع قرن.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- وما زال حيًّا و لم يمت، وسيكتب بعد مائة سنة ما دام الإنسان هو الإنسان، قال لي: هل فهمت شيئًا من قصّة هذا الدعي الماثل أمامك المسمّى حيدر الخلف «صراخ في نفق»؟ ألا يجدر به أن يسمّيها «صراخ في طيزي»؟ أو ضراط من طيزي أو طيزه لا فرق؟.

وتصدّى له غسّان مداعبًا:

- كاتب قاصر مثلك لن يستطيع سبر الدلالات العميقة لقصّة كهذه!.

ثم ضحكوا. مع أنّ ضحكاتهم بدت وكأنّها مداراة لمرارات الأعماق، إذ الزمن لم يعد زمنًا للضحك الخليّ والدعابات الصافية، فكلّ شيء لم يعد مثلما كان عليه.

كرع حيدر الخلف الكأس الأولى من زجاجته الرابعة مرّة واحدة، ثم لحس بلسانه بقايا الرغوة وهو يردّد:

- أنت أعظم قصّاص في الكرة الأرضيّة يا عدنان العزيري!.

قال له عدنان:

- هل أعطيك ورقة لتسجّل اعترافك هذا رغم أنّني لست بحاجة إليه!.

- هات. أعطني ورقة!.

وصمتوا بعض الوقت معطين وجوههم لدجلة، كأنّهم مسافرون يودّعون أحبّ الأماكن إلى قلوبهم. بعد ذلك عادت الملاعق إلى صحون المازة، وبدأ المضغ.

اتّكأ حيدر الخلف إلى الوراء قليلاً، ثم قال:

- قرأت اليوم موضوعًا عن معاوية بن أبي سفيان، وتوقّفت عند قولٍ له، أعدتُ قراءته مرارًا حتى حفظته رغم ارتجافة الذعر التي تسرّبت إلى عظامي.

ثم تنحنح ليصفّي صوته قبل أن يكمل:

- نحن الزمان فمن رفعناه ارتفع ومن وضعناه اتّضع.

نطق غسّان:

- فهمت ما ذهبت إليه!.

بينما أكمل حيدر:

- هنا، أسأل أليس هذا ما يحصل عندنا اليوم؟ ألم تر كيف يلعب بنا صاحبنا «شاطي باطي»؟

ورفع عدنان إصبعه إلى فمه في إشارة له بأن يسكت:

- ماذا بك؟ هل سكرت؟.

قهقه غسّان وقال:

- إمّا أن يكون قد سكر فعلاً، أو أحسّ بأنّ رأسه قد أينعت وحان قطافها!.

أمّا حيدر فقال:

- إن سمعني أحد، أو كانت آلة تسجيل ملصقة تحت الطاولة أو في الضوء فوق رؤوسنا، سأعترف بأنّك من علّمني هذه البلاغة فأنا تلميذك!

وكأنّ عدنان قد صحا على ما سمعه من قول لمعاوية، وفرك جبينه براحته وردّد:

- أشعر بالفزع، فهذا الذي هنا لا يختلف منطقه عن منطق معاوية! ولكنّ نتيجة هذا الكلام هراء، لا أحد يستطيع أن يجعل الذبابة فيلاً، في مجال الأدب من البدائل الذين يريدون دفعهم للواجهة تعويضًا عن عجزهم في ترويض مبدعين كبار، هل يعني سهيل صبري شيئًا في الشعر العراقي رغم كلّ الأموال والتليفزيون وسيّارات المرسيدس؟.

قال غسّان بمكر وهو يغمز حيدر بعينه:

- هذا جوهرك الجميل يا عدنان العزيري، زدنا من هذا القول، آلة التسجيل تعمل تحت كرسيك، تسجّل حتى فساءك وقرقرة أمعائك!.

- إسمع، إذا جاءت لرأسي فكرة أعلنها، إنّني مجنون في ساعات الحسم، لم أكن جبانًا يومًا ولن أكون، ولكن للظروف منطقها.

ثم أضاف:

- ما قاله معاوية بن أبي سفيان بكلّ صلف وطغيان مغرور يذكّرني بحكاية قرأتها أنا الآخر، وبقيت في ذاكرتي المتّقدة العظيمة كعظمة كتاباتي أمام ضآلة خرابيش المبتدئين التي تكتبونها.

قاطعه حيدر:

- كلّ هذا اللغو مقبول منك، المهمّ أن تقول لنا ما هي الحكاية ودعك من هذه الرتوش!.

هزّ رأسه واستطرد:

- حدّث رجل قال: هربت من الحجّاج حتى مررت بقرية فرأيت كلبًا نائمًا في ظلّ جِبّ فقلت في نفسي ليتني كنت كلبًا لكنت مستريحًا من خوف الحجّاج. ومررت ثم عدت من ساعتي فوجدت الكلب مقتولاً فسألت عنه فقيل: جاء أمر الحجّاج بقتل الكلاب!.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ضحك غسّان وردّد ساخرًا:

- ومع هذا هناك شاعر يتفاخر بالقول: بيض صحائفنا!.

قال عدنان وهو ينظر إلى ساعته:

- أظنّ بأنّ الواجبات البيتيّة والالتزامات العائليّة تحتّم علينا أن نغادر، أمّا هذا المطلّق الطليق الصفيق غسّان العامري فلا أحد يسأل عنه، ثم إنّ هناك سمكة محترمة تنتظره وهي من كرم المدام عليه!.

وطلب الفاتورة وعندما قرأ المبلغ أنزل عليهما شتائمه:

- مكتوب عليّ أن أربّي اليتامى، طارت مكافأة القصّة، وعدت المدام بأن أشتري حذاء وقميصًا لولدي بها.

شاكسه حيدر الخلف:

- يا عدنان، أليست كلمة مدام التي تلحّ عليها لا تستعمل في مثل هذا المقام؟ قل أمّ البيت! الحاجّة! الزايرة..

وقال عدنان:

- من تحمل اسم عدنان العزيري هي مدام، أفهمت؟.

وأجاب حيدر:

- أمّا أنا فتأخّرت على المدام لأنّ الأولاد في المدرسة ولدينا فرصة وفسحة من الوقت أن نقوم بما حلّل الله ما دام لنا سيف مشهور وليس خنجرًا مكسورًا مثل خنجرك!.

وخرجوا والقهقات تنطلق من صدورهم المرهقة المخمورة، فلفحتهم الحرارة ورياح السموم وكادوا يعودون أدراجهم إلى المطعم.

أنزلوا حيدر الخلف في مدخل مدينة المنصور واتّجهت السيّارة نحو منزل عدنان العزيري في حيّ العامريّة.

- 51 -

ها هي رسالة حنان عوّاد بين يديه جاءه بها أبو ريتا إلى الشقّة، وعندما لم يجده دسّها من تحت الباب ومعها بطاقته.

أحسّ بأنّه غير قادر على فتح هذا المغلّف الأبيض الكبير، فقد اعتادت أن تبعث لـه بقصاصات صحف تضمّ كتابات ترى أنّها ذات جدّيّة معيّنة في مناقشة الوضـع الثقـافي العربـي الذي حوّل المثقّفين إلى شيع وقبائل متناحرة.

تأنّى حتى سحب نفسًا، جلس على طرف الأريكة الطويلة ثم فتحهـا وذهـب إلى كلماتها أوّلاً، أمّا القصاصات فلها وقتها لذا وضعها على الطاولة أمامه.

كان يردّد: البركة فيك يا أبا ريتا، المختاريّة لائقة عليك، سأنتخبك مختارًا، أعطيـك صوتي!.

ويتذكّر أنّ أبا ريتا كان يدعوه: مختار اللبنانيّين في بغداد.

يهمس له بهذه الكلمة ثم ينصرف لتفقّد شؤون المقهى، وماذا ينقص العمّال، لكـنّ المقهى أُغلق وبدا الشارع بدونه مقفرًا خاصّة بعد أن انتزعت واجهته الزجاجيّة.

وتحوّلت الجلسات المسائيّة إلى فندق الساحة الذي وجدوا أنفسهم غرباء فيـه، أمّـا أكثرهم فجيعة بإغلاق المقهى فكان غيّاث الإبراهيمي، لكنّه كظم إحساسه عن الآخـرين إلاّ عن غسّان الذي يعرف أهمّيّة المقهى للمثقّف اللبناني. فهو جزء متمّم لحياته، وله هـو الآخر ذكرياته في مقاه كثيرة تردّد عليها حتى ألفها وألفته، الدولتشه فيتا، الهورس شـو، الإكسبريس، الكاستيل، الويمبـي، مودكا، باريس، أنكل سام، فيصل.

ارتسمت أمامه حروف حنان عوّاد بخطّها الأنيق الذي تبدو فيه وكأنّها ترسم كـلّ كلمة منه ولا تكتبها فقط.

حدّثته بإسهاب عن رحلتها البحريّة إلى قبرص حيث ما إن وصلت لارنكا بحقيبة يد صغيرة إلاّ وتوجّهت نحو نيقوسيا العاصمة، ثم استقلّت سيّارة تاكسي باتّجـاه السـفارة الأميركيّة. وهي تجربة مرّة مهينة سبق لغسّان أن عاشها معها وذكرت له بأنّ من حسـن حظّها أنّهم استلموا جواز سفرها في صبيحة اليوم التالي بعد ليلة قضـتها جالسـة علـى الأرض وليس معها غير زجاجة ماء وعلبة بسكويت، وما دامت أوراقها كاملـة ومعهـا الدعوة الموجّهة لها من أخيها فإنّها استلمت جوازها ظهر اليوم نفسه وعليه التأشيرة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ضمّت الرسالة تفاصيل كثيرة اتّفقا على أن يكتباها ليكسرا حدّة غربتهما، رغم أنّ كلاً منهما كان يعيش في وطنه وبين أهله. كما أنّ هذه التفاصيل تجعلهما يحسّان وكأنّهما جالسان سويّة، يثرثران ويضحكان ويحلمان.

وضع رسالتها أمامه ليعود إليها ثانية وعاشرة، وبدأ أمامه شريط الماضي في استرسال سلس، وكأنّه ما زال فيه منذ أن التقاها للمرّة الأولى وكان برفقة نصري الأسمر الذي سبقها بالمغادرة إلى أميركا ليلتحق بزوجته وولده، وكانت الرسالة الأولى التي تصل غسّان منه يقول فيها: (سفري يؤكّد أن لا فائدة ولا جدوى من البقاء، السفينة تغرق، وها أنا أشبه بفأر من فئران القاع التي ليس أمامها إلاّ الهروب إلى السطح ظنًّا منها أنّها بهذا ستنجو. لقد عشت وأنا على يقين من أنّ مبدعي هذا البلد هم ملاّحوه وربابنته، وهم منقذوه، وراهنت عليهم، ولكن يبدو أنّني كنت على خطأ، لقد تعبت، ولعلّ هناك غيري من لم يتعب بعد وما زالت لديه القدرة على المطاولة).

حنان عوّاد هاربة أخرى، إنّها ماضية إلى هناك وفي نيّتها أن تبقى بأيّة وسيلة، وأن تمارس أيّ عمل ممكن، سكرتيرة، مربّية أطفال، خادمة في منزل، المهمّ أن تظلّ بعيدة عن مشهد الموت اليومي الذي وصلت قذائفه إلى بيت أسرتها المحتمي بسفح الجبل.

لقد التقى غسّان بحنان عوّاد ليبقى معها، وتبقى معه، وليتواصل هذا اللقاء رغم أنّ كلّ ما يحيط بهما ضدّه، وها هو محتجز في الوطن الذي يحمل جنسيّته، ولا قدرة له على المغادرة إلاّ هاربًا وبأوراق سفر مزوّرة.

ومع هذا كانت تستغلّ أيّ رحلة إعلاميّة للعراق تنظّمها السفارة هناك ولا همّ لها إلاّ أن تراه.

ها هو مسترخ، يمدّد ساقيه ويضع يده على خدّه وهو منحشر في «بيت الضبع» هذا، ويفكّر بها، يفكّر بنفسه.. ويتساءل: ماذا بعد؟.

يتذكّر جوانب ممّا عاشاه في أيّامهما المشتركة فيجد جسده يحتقن حقدًا ويودّ أن ينتقم، أن يصفّي خصمًا، لكنّه عاجز، عييّ، خائف، رهينة، لا مهرب له، يخاف حتى كلماته لذا يحجم عن تسطيرها على الورق، يخشى أن يُداهم «بيت الضبع» فتلتهمها الأعين المتلصّصة وتتحوّل إلى وثيقة ينحرونه بها.

أين منه بعبدا، بيت مري، بكفيا، عجلتون، الريحانيّة، الحازميّة، الأكواريوم، كريب ري، دَوْن، مستر باو، جامعة الروح القدس، غاليري دامو، الأشرفيّة، مجمّع رِمال، جبيل، بيبي عبد، فوّار أنطلياس، الشيخان، عين كفاع، برج الحمام، بوليفار، كاندي، القليعات، عنّايا، مَيْ بي، مطعم غوغول؟ أين؟.

أسماء أماكن، جهات، فنادق، مطاعم، مقاه، شوارع، ارتاداها معًا، تنطلق بهما نحوها سيّارته اليابانيّة البيضاء التي كانت حنان تحبّها حتى سمّتها بيتنا.

أوقدت من أجل هذا الحبّ شمعة في عنّايا، وفي ضريح القدّيس شربل، كما رمت قطعة نقود في الصندوق ثم واصلت، حرّكت يدها بخفّة واتّقان خشوعًا في حضرة القدّيس المهاب. يومها لم تكن قد زارت العراق، وقد قال لها وهو يلمّها بذراعه:

- سآخذك إلى المراقد المقدّسة هناك، وسترين أنّ هناك تشابهًا لا في الطقوس فقط بل وحتى في المعمار، الشموع، والنقود التي ترمى ومعها دعاء من أجل تحقيق أمنية.

شدّت نفسها إليه أكثر وقالت بحنوّ:

- لا أمنية لي إلاّك.

وقد تأكّد لها ما ذهب إليه حول التشابه يوم طاف بها بين مرقد الكاظميّين والشيخ عبد القادر الكيلاني وأبي حنيفة النعمان. وفي رحلة أخرى يوم توجّها إلى أضرحة الحسين والعبّاس في كربلاء والإمام علي بن أبي طالب في النجف الأشرف. ورغم أنّها عادت منهارة بعد أن شهدت سرب الجنائز الذي لم ينقطع والتي تُحمل إلى ضريح الإمام علي المكتظّ ليطوفوا بها حوله، ومن ثم تُحمل إلى المقبرة الصحراويّة الشاسعة التي تُعدّ أكبر مقبرة في الدنيا. وقد انتبهت إلى الأعلام العراقيّة التي تُلفّ بها أغلب الجنائز وسألته عن ذلك فأجابها: هذا يعني أنّهم جنود وضبّاط استشهدوا في جبهة الحرب.

ومن بين دموعها سألته:

- ولماذا هذا كلّه؟.

فلم يجد ما يردّ به لأنّ سؤالها كان سؤاله أيضًا.

قبور الإمام علي وولديه تطرّز مساحات الرمل في النجف وكربلاء مثل واحات من الإيمان والصبر والقداسة، حيث لا يحيط بالمكان إلاّ الرمل الزاحف من الجزيرة، أرض من العطش والسبخ، شربت دم أسرة حفيد النبي الشهيدة ولم ترتوِ بعد.

هنا كانت معركة الطف - هكذا شرح لها - تلك المعركة غير المتكافئة، بعدها حمل الشمر بن ذي الجوشن رأس الحسين إلى خليفته يزيد بن معاوية ليقول له: لقد استتبّ لك الأمر فاحكم أنت السيّد المطاع.

لكن قبر القدّيس شربل في أرض جبليّة، عامرة بالخضرة الدائمة، هناك في حضن عنّايا، وكم من مرّة تسلّل غسّان مع أصحابه باتّجاه مطعم في الطريق يقدّم العرق اللبناني مع المازات النادرة وعلى رأسها طائر الفرّي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان رعد الطويل أوّل من دعاه إليه وقال له:

- عليك أن ترتدي كنزة أو سترة فالجوّ هناك في الأعالي بارد حتى في عزّ الصيف.

وأضاف موضحًا:

- كأنّه مطعم في سويسرا ولا علاقة له بلبنان الذي تأكله النار.

تاريخه مع حنان عوّاد ماثل، إنّه فيه ولم يغادره، حتى إن مضت عنه ومضى عنها فإنّ الآثار باقية، تأشيرة السفر بالنسبة لها إلى أميركا بمثابة الجناحين اللذين بهما ستحلّق. أمّا هو فمقصوص الجناحين يكتب رسالة إلى رئيس الجمهوريّة بعد أن يئس من الجميع، لكن هذه الرسالة لا جواب لها فأين ذهبت؟ هل كذّبوا عليه؟ هل مزّقها موظّف العلاقات؟ ولكن لماذا يفعل ذلك؟ أيريد منه أن يبقى تحت اليد؟.

ذهبت به التخمينات بعيدًا، لعلّهم يريدونه فردًا من الكومبارس لا صوتًا صادحًا، عرض عليه طارق المنصور محامي الشعب المقهور، كما يحبّ أن يسمّيه انسجامًا سجعيًّا مع اسمه المهاب، أن يهرّبه عن طريق الشمال إذ هو على معرفة بأكراد يحترفون هذا.. يوصلونه إلى تركيا ومنها إلى أيّ بلد أوروبي يريد، ولكنّه لم يقتنع بهذا الحلّ، يريد أن يخرج من المطار بجواز سفر عادي فهل هذا أمر عسير؟.

يا حنان غادري، فرّي ممّا أنت فيه ما دام لك جناحان، واتركي هذا الأسير وراء قضبانه علّ يومًا يأتي تتبدّل فيه الدنيا ويتغيّر الحال.

حنان عوّاد تاريخ حافل، أمجاد سرّيّة للقلب المنكوب والمشاعر المكبوتة الكظيمة، فضاء لرئة لم تعرف الأوكسجين، أوقف البرابرة ضخّه لها، كاربون، دخان، روائح زنخة، رطوبة تكتم الأنفاس، صخرة على الصدر.

نهض وخلع ثيابه التي نقّعها العرق، ودخل الحمّام، جلس أوّلاً فوق المرحاض، أخرج غازات تكدّست في جوفه بسبب التغذية الرديئة حيث لا سوائل ساخنة ولا خضروات، ثم نهض بعد ذلك ووقف تحت المرشّ واصطلى بالماء الفاتر من حرارة الشمس التي تضرب طيلة النهار خزّانات الماء الحديديّة.

نشّف جسده وعاد إلى رسالة حنان، واكتشف أنّ هناك ورقة صغيرة مستقلّة لم يكن قد انتبه لها، وكان من الممكن أن لا يراها. كتبت في أعلاها (بعد ساعتين من البكاء) ثم جاءت حروف الرسالة:

(افعل شيئًا وانقذني أو قل لي إنّ الحلّ مستحيل لأهيم على وجهي.

...

سأفيض عليك بكلّ ما اختزنته لك من حبّ وشوق، سيغمرك شلاّلي.

...

صوتي كتابك فاقرأه حتى الإمّحاء.

...

لماذا تركتني أقع في هذه اللعبة؟ ألم تشفق على شبابي؟ ألم تكن تعرف أنّ طريقك ملغوم لهذا الحدّ؟!

...

ها أنا عاجزة أتفرّج على عجزك، أبكي على نفسي، ويدميني جرحك.

...

لماذا علّمتني العيش بدونك؟!).

وأخذ يغلي وهو يقرأ سطورها. كأنّها فأس أتت على أنقاضه وهدّمَا. ماذا يفعل؟ من أين يأتيه الحلّ فيوقف زحف المأساة؟.

هو يعرف بأنّه ليس إرثًا لأحد، لا يملك هؤلاء الحكّام وثيقة تثبت أنّه من عبيدهم أو خصيانهم، أنّه شاعر يعشق التحليق، حالم، بريء، نقي، صاف، مسالم، طليق وراض بما قسم الله وأولو الأمر، فلِمَاذا كلّ هذا الجور؟ لماذا هذا العسف الكريه؟ لماذا هذا الممنوع؟ لماذا هذه اللا؟ وإلى متى؟.

ذهب إلى الثلاّجة وعبّأ كأسًا من الماء ثم استخرج حبّة «أتيفان» مهدّئة ورماها في جوفه مع كأس الماء، خاف من ضربات قلبه المتسارعة، خشي من اختلاطات تحت سياط الظلم والقهر اللذين اصطلى بهما.

وأحسّ بشيء من الهدوء، توسّل قلبه وأعصابه وصداع رأسه، أمسك بالقلم وكتب لها كلامًا كثيرًا من وحي سطورها:

(كفانا أسير واحد، فدعيني وانطلقي.

...

أسأل بهدوء: ماذا فعلتُ؟ ولا أجد جوابًا، إنّني أسألك أنتِ: أتعرفين ماذا فعلتُ لهؤلاء الحمقى الحاكمين الذين توسّلت رئيسهم برسالة لا جواب لها؟ أيّ جرم، أيّة مصيبة يا حنان عوّاد؟!)

ثم استسلم للنوم بتأثير حبّة «الأتيفان». وعندما صحا، تذكّر سطوره التي ودّ أن يواصلها، قرأها وارتأى أن يحذف الكلمات الخانقة التي صبّها على رأس كبير الحاكمين،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فهي كافية لمحقه وإذابته بالأسيد كما حصل مع شاعر شعبي، سرت شائعة بأنّ هذا الكبير رفسه بنفسه في الحوض وتابع اختفاءه حتى لم يبق منه شيء.

وعاد ليكتب بعد أن أخفى تمامًا سطوره التي نطقت بحقيقة ما يكنّه ويخفيه:

(لنعترف يا حنان بأنّنا هُزمنا أمامهم. أعداؤنا المعلومون والغامضون.. ولنهوّن الأمر على نفوسنا قليلاً ونوحي لها بأنّ عوامل عدّة تضافرت وتآمرت علينا لتلحق بنا هذه الهزيمة. الجغرافيا والدين وغباء الحاكمين، والحرب العمياء، أنت هناك في لبنانك المشتعل وأنا هنا في عراقي الذي ليس هناك من دليل على انطفاء حرائقه.

أيّ قدر هذا الذي جمع بين لبنان والعراق في نسيج جرحنا الواحد؟ في عشقنا المُدان. في أحلامنا المقتولة؟.

لقد استغرقنا في وهمنا طويلاً، ستّ سنوات، أكثر، أقلّ، وآن لنا أن نصحو. أن نغسل وجوهنا من الخدر الطويل.. إذهبي إلى تلك الأميركا المعتوهة، حلم اللبنانيّين الدائم في العمل والثروة واكتشاف المجهول.

لستِ أوّل شاعرة تلبّين نداءها، قبلك آخرون، من ميخائيل نعيمة وإيليّا أبي ماضي وجبران خليل جبران إلى نصري الأسمر بثعنونه ولحيته اليمانيّة، وبعدك سيذهب آخرون إذا ما بقيت سكاكين الإخوة تحزّ رقاب بعضهم بعضًا.

لا أقول لك ناصحًا إلاّ: انتبهي إلى نفسك، فعالم أميركا لا يرحم، مكتظّ، نذل، لا أخلاقي، وهو أيضًا مساحة لتحقيق الأحلام، لها مداها الذي لا يحدّ، فحاولي أن تتأكّدي من خطواتك قبل أن تضعيها وترخي لها العنان.

ارسمي الآتي من أيّامك بدوني، كأنّني حلم).

زكريان يا زكريان، هل بغداد مجرّد ذكرى؟ كيف أنت مع الكوليسترول والضغط والسكّري وأمراض الشيخوخة الأخرى؟ لا بدّ أنّ كلّ المشاكل قد تفاقمت مع تراكم السنين.

حنان عوّاد ذهب ركبها إلى هناك، إلى قارّة الدم والهلاك، قارّة الحلم والتألّق والانطفاء، امتلكت جناحين فطارت بهما، وبقي غسّان هنا وقد تحوّلت قصائده إلى بكاء وندب، لا أحد يقرأها، أو ينشرها، خافتة النبرات كأنين الموجوعين وجرحى الحروب.

نهض غسّان من غفوته بعد أن فعلت به حبّة «الأتيفان» ما فعلت وجعلته يستسلم للنوم العميق، نهض ووجه منعم البصري أمامه حيث طالت أيّام احتجازه في إحدى معتقلاتهم، وهل تكفي كلمة ساخطة ليحصل له هذا، كلمة يقولها كلّ العراقيّين في غضبهم دون أن يراجعوا معناها، قالوها في العهد الملكي ويقولونها في العهود الجمهوريّة وتذهب في الهواء، فلماذا يعاقب منعم عليها؟ وإلى أين؟ ألم يكن قريبًا منهم؟ حتى في إنقاص أوزانهم لجأوا إليه، وقدّم لهم الوصفات التي لا تضعف قواهم الجنسيّة وكان هذا ما يهمّهم.. فجلّهم جدّدوا زوجاتهم بصبايا جميلات ولا بدّ من القدرة على الدفع؟.

وقرّر غسّان أن يقصد مكتب طارق المنصور في حيّ البيّاع ليسأله، فهو محامي البصري الذي يترافع عنه في أيّة قضيّة، ووكيله المؤتمن على شؤونه وشجونه، ولا بدّ أنّ لديه خبرًا جديدًا عنه، ولماذا طال اعتقاله وهو الشخصيّة العامّة المعروفة، فصار هذا الاعتقال حديث الناس وسؤالهم الحائر، وقد سمع غسّان من قال:

- إذا كان الدكتور منعم يفعلون به هكذا وهو طبيبهم المؤتمن؟ فماذا يفعلون بنا لو قلنا كلامًا لا يعجبهم؟.

وعندما مرّ به عدنان العزيزي قرأ الكآبة على وجهه. ولمّا سأله أخبره أنّ اعتقال منعم يؤرقه، ولا يجد له جوابًا مقنعًا أو تبريرًا يرضي السامع!.

ولم يبتعدا عن المكان، ذهبا إلى مقهى الساحة، وبعد أن تناولا الشاي فيها اقترح غسّان أن يشرب كلّ منهما زجاجة بيرة، فوافق عدنان، لذا صعدا إلى بار الفندق الذي يحمل المقهى اسمه.

أخذ كلّ منهما جرعة من كأسه دون أن يجدا بداية لأيّ حديث، بعد الجرعة الثانية قال عدنان:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- بدأت أجمع مقالاتي المترجمة عن الروسيّة، أريد أن أصدرها في كتاب، ما رأيك؟.
- فكرة طيّبة، وما لم تفعل هذا ستضيع!.
- أريد نشرها في بيروت، دار الفارابي ترحّب بها.
- في بيروت أو في بغداد، لا فرق.

كان البار خاليًا إذ ما زال الوقت مبكرًا على قدوم زبائن الظهيرة ومعظمهم من أصحاب المحلاّت التجاريّة في المنصور، فهم وحدهم القادرون على دفع ثمن البيرة ووجبة الطعام التي تعدّ غالية بالنسبة للمحلاّت الأخرى.

ردّد غسّان:

- أظنّ أنّ حنان عوّاد قد وصلت إلى أميركا الآن؟.
- من أخبرك؟.
- هكذا أتوقّع، وستكون في نيويورك قريبة من شقيقها إلى أن تجد عملاً تستقرّ فيه.

وصفن قليلاً ثم تمتم:

- لا أدري لماذا أنا مقتنع بأنّها ستبقى هناك، وأنّني لن أراها ثانية، والشتيتان لن يجمعهما الله بعد أن افترقا!.
- لا تيأس، فالأحياء يلتقون، هذه حكمة أبي التي يردّدها!
- لديّ فكرة بديلة عن فكرة الإقامة في بيروت، بعد فشل المشروع، وهي أن ألحق برعد الطويل إلى قبرص، فالجزيرة وادعة وأمينة، وسأعمل معه محرّرًا في وكالة الأنباء الفرنسيّة!.

وردّد عدنان:

- لماذا لا؟ وقد ألحق بك أنا أيضًا، فلعلّهم يحتاجون إلى مترجم من الروسية!.

وبعد أن كرع آخر ما في كأسه سأل:

- ولكن هل في الجزيرة نسوان؟.
- طبعًا، وأنت وهمّتك، ولكن من بين السائحات وليس من بنات الجزيرة فهنّ محافظات! ثم لماذا تلحّ على النساء، فكأنّك دونجوان عصرك؟ أنت في مرحلة النضوب؟.
- لا بدّ من المرأة، ولو كان هذا في حضورها فقط، فهي عنوان الخضرة والأمان!.

وطلب غسّان زجاجتين أخريين وهو يقول:

- الحساب عليّ، وبعد أن نخرج أشتري نصف دجاجة أحملها معي إلى البيت!.

- حاضر.

وجاء النادل بالزجاجتين ومعهما صحن من الفستق المملّح، واسترخى عدنان بعد جرعة من البيرة وردّد:

- عندما أسأل عن النساء فهذا يعني بأنّني ما زلت على حيويّتي الأولى!.
- والأدوية ومشاكل القلب؟.
- سأُشفى منها كلّها عندما أكون مع امرأة باسقة يهبط عليّ رطبها الجنيّ!.

وشاكسه غسّان:

- هذا ادّعاء؟.
- أبدًا، لن أسمح لأحد بأن يشكّك في فحولتي، جئني بامرأة جميلة وسأجعل ساقيها مرفوعتين حتى الصباح.

ثم ضحكا، وأحسّ غسّان أنّه بحاجة إلى الضحك، حتى أنّه بالغ في قهقهاته مستغلاً فراغ البار من الزبائن.

وبعد أن أتمّ كلّ منهما زجاجته الثانية اقترح عدنان أن يدفع ثمن زجاجة ثالثة لكلّ منهما. فوافق غسّان.

وعندما وضع النادل أمامه زجاجته طلب منه أن يأتيه بقصبة، فذهب وجاء بها وسط استغرابه، إذ إنّها تستعمل لشرب المبرّدات.

ودسّها في فم الزجاجة وبدأ يشرب بتمهّل. وهو ما قام به من قبل أكثر من مرّة مدّعيًا أنّ أجداده السومريّين لا يشربون البيرة إلاّ بها، قصبتهم ليست من البلاستيك بل من قصب الأهوار الطريّ.

نظر إليه غسّان وقال:

- أنت وأجدادك السومريّون، وهذا.

وأشار بيده إلى عضوه ممّا جعل عدنان يعلّق:

- هل هناك شيء في المكان الذي تشير إليه؟.
- طبعًا، وهو حيّ نابض!

وعاد عدنان ليمتصّ بيرته بينما كانت عينا النادل تراقبانه بانشداه، ثم نطق:

- عدنان العزيري يهزّ يقين النادل البسيط وهو يرى ما يراه منّي ظنًّا أنّني قادم من أمّ هاون. لم يدر هذا البسيط أنّ البيرة لها حظوة إلهيّة عند أجدادي ولذا أوجدوا منها عدّة أنواع.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- هذه معلومات يمكن الحصول عليها من أيّ كتاب تاريخي!.
وهزّ كتفه ثم رفع رأسه وقال:
- ممكن جدًّا، لكنّها بالنسبة لأستاذك عدنان العزيري ليست كلامًا عابرًا، فهي من متطلّبات رواية ألغي فيها الزمن وأجعل البشر وحدهم ينطقون، ولا فرق بين هذا النادل الحائر من تصرّفاتي وبين أولئك الرجال الذين يحمل كلّ واحد قصبته ويمضي إلى الخمّارة ليتحلّق هو وأصحابه حول جرّة كبيرة مليئة بالبيرة لتبدأ حفلة المصّ.
عندما خرجا، وقف عدنان ليفتح باب سيّارته ثم رفع رأسه وهو يردّد:
- ما الذي جاء بي؟ كنت هناك أعيش مثل البشر! لماذا تركت موسكو العظيمة ورائي وعدت؟ لماذا؟.
وقبل أن يدلف داخل السيّارة خوّص عينيه وهو يعاود النظر إلى السماء ويقول:
- إخوتنا المصريّون عندما يدعون على أحدهم يقولون: أشوف فيك يوم! وها أنا أقولها من شغاف قلبي!

* * *

جعلته البيرة يغطس في النوم، وقد ترك نافذة غرفة نومه مفتوحة ليدخل الهواء، بعد أن بدأ الجوّ بالتحسّن وانسحبت أمواج الحرارة لتحلّ محلّها نسمات ناعمة في ساعات المساء.

عندما صحا ارتدى ثيابه ونزل مغادرًا الشقّة وقد استقلّ التاكسي باتّجاه مكتب طارق المنصور، وقد ضحك في سرّه عندما تذكّر دعاء عدنان: «أشوف فيك يوم!».

وعندما وصل غادر السيّارة ومشى في شارع جانبي قاده إلى سوق البيّاع المكتظّ بالباعة والبضائع والمارّة. ولم ينس قبل أن يتسلّق سلالم العمارة من إلقاء أكثر من نظرة على يافطات صاحبه الثلاث المرفوقة بإصبع تشير إلى المكان الذي يقع فيه المكتب.

دخل المكتب بعد أن دفع بهدوء الباب الموارب دون إغلاق، ثم توجّه إلى مكتب صغير هو مجرّد مشروع لجلوس سكرتيرة أو سكرتير بعد تحسّن الأحوال المادّيّة، رغم أنّ الأمل في هذا بعيد حيث كلّ شيء يتدهور.. وجلس على كرسي هناك، وظلّ يصغي لصوت طارق المنصور الذي ينطلق بقهقهاته المعروفة بين فترة وأخرى، وخمّن أنّه في حديث مع أحد حرفائه، ولو كان مع امرأة لأغلق الباب ولكان يصغي معها إلى أغنية

تناسب ذوقها، وقد احتفظ بمجموعة أشرطة تبدأ من عبد الحليم حافظ وتنتهي بسعد الحلي.

سعل غسّان ليعرف طارق بوصوله، ثم راح يقلّب المجلاّت القديمة المكدّسة على الطاولة الصغيرة، وتوقّف عند صفحة في مجلّة تصدر من لندن وقرأ العنوان: (زوجة ابن الدكتاتور المخلوع تروي سنوات الجحيم في قصر بوكاسا). وتذكّر على الفور تلك الفتاة اللبنانيّة الذاهلة العينين التي كان يستأجر أشرطة الفيديو من مكتبتها وما ذُكر له بأنّها كانت إحدى زوجات بوكاسا، والطفلة الخلاسيّة التي كان يجدها في المكتب تراجع دروسها هي ابنتها منه، ثم تحوّل ليقرأ الموضوع وهو مجتزأ من كتاب أصدرته زوجة الابن تحت عنوان (أميرة عارية الساقين)، وتحدّثت فيه عن تنقّلها كالأسيرة بين قصور بوكاسا التي بناها بما تدرّه عليه مداخيل مناجم الذهب في أفريقيا الوسطى التي يحكمها، في وقت كان الموت جوعًا حادثة يوميّة يمكن أن يراها أيّ مار في شوارع وأزقّة العاصمة يانغي.

وقد استغرق غسّان في قراءة هذا الموضوع المثير، حيث تروي المؤلّفة أنّ بوكاسا عندما يريد الإمعان في تعذيب معارضيه يحلق شعر رأسه حيث يبدو دميمًا للغاية - والوصف لها - وبعد ذلك يقوم بإطلاق النار بنفسه على أجسادهم العارية والنازفة من آثار التعذيب.

ثم قرأ ما روته «إيفلين» وهذا اسمها عن ليالي بوكاسا حيث يجلس مع نسائه السبع. وكانت لياليه مخصّصة للخمرة وقد أصدر أمرًا منذ تولّيه للسلطة بأن لا يرافقه بعد انتهاء جلساته الليليّة إلاّ ابنه جورج زوج إيفلين، ذلك أنّ بوكاسا عندما يكون مخمورًا يقوم بتصرّفات غريبة لا يريد أن يعرف بها أحد، ويظلّ الابن معه حتى يخلد للنوم.

لكنّ المفارقة أنّ إيفلين مؤلّفة الكتاب، ورغم أنّها تزوّجت من ابن إمبراطور، وصل بها الحال إلى درجة من الفقر جعلتها تبحث عن حبّات الطماطم الخائسة في زبالة جارتها لتأكلها. وكان ذلك في باريس.

أطبق غسّان المجلّة وهو يسأل:

- من يصدّق هذا؟

وهنا فتح الباب وخرج طارق ليودّع ضيفه وما زال الحديث بينهما متواصلاً، وتوجّه نحو صاحبه مصافحًا وهو يقول:

- سمعت سعلتك ولكنّني انشغلت مع الأخ أبو عمار.

صافحه الرجل ومضى. واستدار غسّان ليلتقط المجلّة وهو يقول لصاحبه:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- عندما تجد الوقت، اقرأ الموضوع عن بوكاسا!.
- بوكاسا؟ وما الذي ذكّرك به؟.
- اقرأه، وستعرف.

كان مكتب طارق واسعًا، وقد اعتنى بترتيبه، وبما فيه من أثاث ولون الستائر وتوزيع الإضاءة. علّق غسّان:

- مكتبك كأنّه غرفة نوم؟.
- هو هكذا أحيانًا.
- بل قل غالبًا.

وضحكا بصوت يبدو لسامعه كالخلي ولكنّه ليس هكذا. ثم قال غسّان بصوت حائر وهو ينفث:

- ألا يكفيني ما أنا فيه حتى تأتي مشكلة منعم البصري؟.

كزّ طارق على أسنانه وهو يردّد:

- إنّها أكثر من مشكلة، ولعلمك أنّ ضابطًا من الأمن قال لي بوعيد: كفّ عن السؤال عنه. وعندما أخبرته أنّني محاميه قال لي: أعرف، ولكنّك محاميه في مسائل أخرى. لا تسأل بعد، وإلاّ ستندم!.

وفغر غسّان فمه هلعًا وكاد يصرخ وهو يقول:

- لهذا الحدّ؟.
- نعم، مع الأسف، وليس أمامي إلاّ الامتثال والسؤال من بعيد لبعيد.

ورفع غسّان رأسه باتّجاه السقف ثم ردّد وهو يرفع يديه:

- أشوف فيك يوم!.

ثم ضحك كالمهستر ممّا دعا طارقًا للسؤال:

- من أين لك هذا الدعاء؟.
- كان يردّده صباح اليوم عدنان العزيري، لقد حفظه لكثرة ما يشاهد من الأفلام والمسلسلات المصريّة!

ثم نهض طارق ليعدّ القهوة وهو يقول:

- تحبّها بدون سكّر كالعادة؟.
- وهل سأغيّر عادتي؟.

وعندما عاد بالقهوة جلس وهو يقول:

- أحيانًا يقف المحامي حائرًا أمام ما جلبته الحرب من كوارث اجتماعيّة لم نكن نتوقّعها أبدًا، ودعك من المصائب السياسيّة مثل ما حدث لصديقنا منعم، رغم أنّني أجهل لحدّ الآن نوع التهمة الموجّهة إليه، هذا إذا كانت هناك تهمة أصلاً.
- من المؤلم أنّك تجد صديقًا لك في هذا الوضع ولا قدرة لك على نجدته!.
- لديّ دعاوى كثيرة استغرقتني رغم أنّ مردودها المادّي قليل، ومعظمها عن الحرب ومتعلّقاتها، وبعدها مشاكل أشقّائنا المصريّين سواء مع بعضهم أو مع أصحاب العمل، حكايات أشبه بالمفارقات العجيبة!.

ثم واصل الحديث:

- الحرب لعنة، جاءتنا بمشاكل يقف الدفاع عاجزًا عن حلّها وأحيانًا حتى الشرع!.

وأراد غسّان أن يغيّر وجهة الحديث عندما قال:

- عندما دخلت وسمعت قهقهاتك قلت إنّك بخير، وخمّنت أنّك لا بدّ قد تجاوزت الحالة التي رأيتك عليها قبل فترة!.

أجاب طارق:

- أكيد، كانت أزمة ومرّت. وسرعان ما عادت الحياة له. وبدأ يمارس دوره الحضاري المطلوب!.

ثم انطلقا بالضحك الذي قطعه غسّان وهو يقول بشيء من التحذير:

- ومع هذا اعتبر ما حصل لك إنذارًا، وعليك أن تقتّر ولا تفرّط، اعتدل فالله أوصى بالاعتدال!.

وحكّ طارق شعره قبل أن يعلّق:

- أتدري يا غسّان أنّني اكتشفت حقيقة مدمّرة وهي أنّ حياتي تبدو وكأنّها مرتبطة بعضوي، وبقدر حيويّته تكون حيويّتي، وإن مات متّ، كأنّني مفرّغ من الأحلام والطموحات وتربية الأولاد. حتى محنة ابني مع العسكريّة تبدو أقلّ وطأة من تلك العنّة التي عشتها لأيّام؟.
- ماذا يقول العجائز الذين يتعكّزون على عصيّهم، وكلّ عضو فيهم يرتجف من الهرم؟.
- هي مأساة، ترى هل أصل حقًّا إلى مثل هذا العمر حيث انطفاء كلّ شيء؟.
- ربّما، لكن هناك من يقول للزمن قف عند حدّك، لن أجعلك تذلّني أبدًا. مثل همنغواي الرّوائي العظيم، عندما أحسّ بأنّ جسده يخونه أطلق على نفسه رصاص بندقيّته؟.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- همنغواي حالة استثنائيّة، ولكنّني عرفت أناسًا يتشبّثون بالحياة إلى آخر رمق.

وبعد أن ارتويا من حديثهما المتواصل الذي ابتدأ قبل أكثر من عشرين سنة عندما كانا مدرّسين في مدرسة واحدة. تساءل غسّان:

- هل أصبحنا نحن أصدقاء منعم البصري عاجزين لهذا الحدّ ولا نستطيع القيام بأيّ عمل؟.

وطأطأ طارق رأسه ثم هزّ يده علامة الأسف وقال:

- من المؤلم أنّ هذا وضعنا، نحن في مواجهة سلطة لا تملك أيّ رحمة تجاه مواقف إنسانيّة كهذه.

ثم غادرا المكتب باتّجاه سيّارة طارق الذي اقترح على غسّان التوجّه نحو نادي المحامين، أو أيّ بار آخر ليحتسيا شيئًا من البيرة وفق تعبير طارق، فوافق غسّان وهو يقول:

- رغم أنّني أمضيت ظهيرة اليوم في شرب البيرة مع عدنان العزيري في بار فندق الساحة؟.

- لا يهمّ، إشرب حتى تنطفئ تمامًا عندها تذهب لفراشك!.

- فكرة.

وعندما تجاوزت السيّارة زحمة أسواق البيّاع المسائيّة وأصبحت في الطريق السريع، قال طارق:

- ما هو جديدك؟.

- أكتب كثيرًا، وهذه الفضيلة الأولى لاحتجازي هنا رغمًا عنّي!.

- إذن سنطالب بإطالة احتجازك؟.

- يبدو أنّ كلّ تصرّف مرتبط بنهاية الحرب التي تحوّلت إلى عبث، كلّ طرف يعمل على إلحاق أكبر الخسائر بالطرف الآخر سواء في البشر أو البنية التحتيّة أو الجنود والمعدّات العسكريّة!.

- كلّ الدلائل تشير إلى قرب نهايتها!.

وردّد غسّان:

- هذا ما أحسنّه!.

ثم أعاد الحديث إلى الشعر والكتابة. فقال لطارق وكأنّه يعيده إلى سنوات البداية في متوسّطة الجمهوريّة بالناصريّة، وطريقة قراءة طارق لقصائد غسّان إذ قال له:

- أتدري؟ كنت أعتبرك ناقدي الأوّل، وأظنّك اطّلعت على بعض الحوارات التي أجريت معي وفيها كنت أذكرك عندما أُسأل عن الناقد الذي أفدت منه، رغم أنّني لا أسمّيك وأكتفي بالقول إنّك زميل لي في التدريس، وفي الجواب مفارقة عندما أذكر أنّك مدرّس رياضة؟ إذ لا علاقة مباشرة بين الشعر والرياضة؟.

وقهقه طارق بصوته العريض:

- لو أنّهم انتبهوا جيّدًا لوجدوا هذه العلاقة؟.
- كنت أحسن ناقد لقصائدي، ناقد ديكتاتوري، نعم، بكلّ معنى الكلمة. لا يصدر حكمك وفق حيثيّات بالمرّة، أقرأ لك قصيدة عايشتها عدّة أيّام، فتقول: سخيفة، وأسألك: لماذا؟ فتجيب: لا أدري، فيفقدني رأيك ثقتي بقصيدتي، وتزرعني في دوّامة شكّ، فأعود إلى القصيدة لأعيد كتابتها مرارًا، ولكنّك قد تقول عن قصيدة أخرى فور سماعك لها: رائعة، فأدفع بها للنشر دون تردّد؟.
- أنا أحكم وفق مزاجي، لا ألفّ وأدور أو أهذي مثل بعض نقّاد هذه الأيّام حيث يكتبون ثلاثين صفحة خلاصتها ثلاثة أسطر فقط، وهذا ما جعلني محاميًا ناجحًا كما يقال لي.
- إسمع، سأقرأ لك، أنصت إليّ فقط، وانتبه للطريق أمامك لن أخفي كتاباتي عنك فأنت تعرف بداياتها!.

وبدأ يقرأ وكأنّه يقرأ لنفسه، وخفّف طارق من سرعة السيّارة ليصغي جيّدًا، وبعد أن فرغ من القراءة سأل صاحبه:

- هه، ما رأيك؟.
- يجب أن أستمع إليها ثانية.
- ليس الآن، والنصّ قصير كما ترى.
- على أيّة حال إن لم أكن قد فهمت النصّ كاملاً فإنّني دخلت مناخه!.

وعلّق غسّان وهو يدير وجهه يمينًا وشمالاً كبندول معطوب قبل أن يقول:

- حتى أنا لم أفهم ماذا كنت أريد، ربّما قمت بعمليّة تفريغ لفظي لواحد من كوابيسي، وربّما كانت قوّة الزفرة التي لفظها صدري أهمّ ما فيه!.

وبعد أن صفن طارق قليلاً ردّد:

- أفهمك ما دمت تكتب شعرًا، ولكن ما يجوز للشّاعر لا يجوز للمحامي، تصوّر محاميًا يلقي مرافعة غامضة مثل نصّك هذا فماذا سيكون؟ كارثة حقيقيّة وخسارة للقضيّة!.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

واعتبر ما فاه به نكتة فضحك بقهقهته العالية، ثم عقّب بعد أن ارتوى من ضـــحكته المسفوحة بسخاء:

- لو قارنت ما سمعته قبل قليل بقصائدك الأولى التي كنت أملك جـــرأة تهشـــيمها بدون وجع قلب، لوضح لي مدى الاختلاف، كأنّك اليوم شـــاعر مختلـــف، لا علاقة له بذلك الذي كان!.
- أكثر من عشرين سنة فعلت بنا فعلها، كنّا وقتذاك نحتفـــي بالحيـــاة، بالعشـــق، بالشباب، أمّا هذا فكلّه شعر محنة، وأرجو أن تنتبه جيّدًا للمصطلح فأنت محام!.
- ولماذا لا تنشر؟.
- إنّني معنيّ هذه الأيّام باكتشاف مجهول اللغة، بالدنوّ من عبقريّتها، وكلّ شـــاعر يحقّق ذاته عبر لغته كما يرى شاعر يوناني كبير، ولغته ليست تلك التي يكتـــب فيها بل هي لغته الخاصّة داخل اللغة العامّة!.
- فكرة.. اللغة الخاصّة داخل اللغة العامّة؟ لكن هذه مسألة شعريّة صرفة، أمّـــا في المحاماة فالوجهة مختلفة!.

كانت منطقة الباب الشرقي في أوج اكتظاظها، ولم يعثر طارق على موقف لسيّارته إلاّ بعد أن دار في الأزقّة الجانبيّة من منطقة البتاوين المكتظّة بعيادات الأطبّـــاء والمقـــاهي ومطاعم الكباب والتكّة والباعة الذين يعرضون بضاعتهم وعيونهم تراقب الشارع خوفًا من مداهمات مفتّشي البلديّة.

بعد أن غادرا السيّارة قال طارق:

- اسمع غسّان. لنعد لموضوع منعم الذي يؤرقنا، وأقول إنّ وراء المشـــكلة كلّهـــا امرأة!.

وردّ غسّان على الفور:

- كلّ ما نقوله مجرّد احتمالات، ولكن إن كان الأمر يتعلّق بامرأة.. فالنساء اللواتي يعرفهنّ علاقته بهنّ شبه معلنة!.
- صحيح، ولكن لا بدّ أنّ أحدهم، من أولئك الذين هناك دخـــل علـــى الخـــطّ واستعمل سلاح الجبناء باعتقاله، أمّا التهمة فما أسهلها!.

بعد أن جلب غسّان الختم الخاصّ من شارع المتنبّي انصرف لفرز الكتب، فالمراجع قرّر إهداءها لمكتبة قسم الدراسات العليا بكلّيّة الآداب، أمّا الكتب الأخرى فوضع ختم الإهداء عليها، ثم أحضر عددًا من علب الكارتون الكبيرة ورتّبها فيها.

لقد فعل ذلك بهمّة وكأنّه سيسافر غدًا، ولكنّه منّى نفسه بأنّ السفر لا بدّ أن يتحوّل من حلم إلى واقع، وإن عجزت الوسائل سيستعمل العلاج الأخير وهو الفرار عن طريق شمال العراق ليسلّمه المهرّبون إلى بعضهم حتى اسطنبول.

هي مغامرة تغريه بارتكابها، ففي داخله هناك عربيّ لا يخشى المسافات رغم أنّه لا يملك إلاّ ناقته أو جواده وأحيانًا عصاه وخطواته.

بعد أن تراكمت صناديق الكتب فوق بعضها بعث ببرقيّة لأخيه عليّ الذي أخذت الحرب ساقه اليسرى وطلب منه الحضور، وهي برقيّة جعلت والده في قلق عليه.

وعندما وصل عليٌّ أخبره بأنّه يريد منه أن يرافقه إلى الناصريّة في سيّارة الحمل التي سيستأجرها لنقل الكتب إلى المكتبة العامّة في الناصريّة.

وسعِد عليٌّ من مبادرة أخيه هذه وهو يؤكّد له:

- سيزداد عدد المطالعين إن علموا بهديّتك، فهم واثقون من ذوقك في الاختيار!.

وقد أنبأ غسّان أصدقاءه غيّاث الإبراهيمي وعدنان العزيري وزيد الحبيب وطارق المنصور برحلته القصيرة إلى مدينته، ولم يسلم من تعليق عدنان العزيري:

- لا أدري إن كانت الناصريّة مسقط رأسك؟ أم مسقط شيء آخر؟.

- استح، على الأقلّ أخي هنا؟.

- وهل قلت شيئًا نابيًا؟.

وانطلقت سيّارة الحمل في ساعة مبكرة في طريقها إلى الناصريّة عن طريق الكوت، وقد جلس غسّان وعليٌّ جوار السائق الذي لم يرحم آلة التسجيل من أغاني الغجر والريف التي لا يطرب لأيّ غناء عداها، ولم ينس أن يضع لهما تسجيلاً خاصًّا للمطرب الشعبي سعدي الحلي الذي تملأ البلد حكايات ودعابات كثيرة عن ممارساته الغلمانيّة المفترضة، فقد حوّلته الميثالوجيا الشعبيّة العامرة بالغلمانيّات والغزل بالمذكّر مشجبًا علّقوا عليه كلّ ما في أعماق البعض من نوازع لواطيّة خبيئة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قال السائق:

- هذا التسجيل من حفلة زواجي التي أحياها مع عبد الجبّار الدراجي، كان يشرب العرق كالماء وليس له من مازة إلاّ الجاجيك الذي يسمّيه سلطان المازة!.

وانسجم مع الأغنيّة وصار يهزّ رأسه وكأنّه هو المغنّي، وبعد أن انتهى قال:

- أسمعتما آخر نكتة عن سعدي الحلي؟.

وعندما طالعه صمتهما، تبرّع بالجواب:

- كان سعدي الحلي في الحمّام، وبدأ يفرك جسده بالليفة المصوبنة، وعندما وصل إلى مؤخّرته وصار يفركها نهض عضوه فما كان منه إلاّ أن بصق عليه وهو يقول:

- نذل، علينا؟

وتبرّع بالضحك أيضًا، وكأنّه روى النكتة لنفسه، وأطلق القهقهة العالية، ولو أنّهما شاركاه الضحك لأمطرهما بسلسلة من النكات المشابهة، لكنّه قال بشيء من الاعتذار:

- أرجو أن تسامحاني، المصائب كثيرة وإذا لم نضحك سنموت.

وتمتم غسّان:

- معك حقّ.

- ماذا أقول وقد فقدت أخي الصغير وابن أختي الكبرى وزوج إحدى أخواتي؟ الحرب عليها لعنة الله، ستأكل الأخضر واليابس!

وردّد غسّان:

- هذا شاهد آخر معك، انظر إلى هذا الفتى الجميل الجالس بجانبك لقد بُترت ساقه في الحرب وخرج منها بعكّاز.

ومضت بهم السيّارة في طريق مكتظّ بالسيّارات العسكريّة الذاهبة أو القادمة، وكانت القادمة تحمل جثث القتلى عائدة بهم إلى ذويهم.

وعندما أصبحوا على مشارف الكوت اقترح السّائق أن يتوقّفوا عند مطعم سياحي ليتناولوا غداءهم ويشربوا الشاي.

قال له غسّان:

- تغدّ أنت. أمّا نحن فسنشرب الشاي!.

ولذا لم يطل الوقوف. وسرعان ما تحرّكت السيّارة متوجّهة نحو الناصريّة.

وعلّق السائق:

- هذه الطرق السريعة نعمة، قلّلت الزمن إلى النصف!.

وصاروا يمرّون بسلسلة المدن الغرّافيّة، الحيّ، الرفاعي، وعندما أصبحت قريتهم «أبو هاون» عن يمين الطريق، خاطب عليٌّ أخاه:

- أتصدّق أنّ هذه أبو هاون؟.

وفغر غسّان فاه مندهشًا وأجاب:

- سبق أن زرتها، ولكنّني أسأل بصدق أليست الصرائف وبيوت الطّين أجمل وأكثر أصالة؟.

وهزّ عليٌّ يده وردّ:

- كلّها ذهبت لتحلّ بدلاً عنها هذه القصور التي لا ميزة لها.

- أعرف، أعرف.. لقد زرتها عند إطلاق سراح ابن عمّنا كامل من المعتقل الإيراني، ولكنّني أتساءل عن ذلك الجمال القروي الوادع؟ أمّا بيوت الطابوق والإسمنت هذه فلا توحي إلاّ بالكآبة؟.

وكان السائق ينصت إلى حديثهما، لذا اقترح عليهما أن يتوقّف ليزورا أقرباءهما؟.

وردّ غسّان:

- شكرًا، علينا الوصول إلى الناصريّة لنسلّم صناديق الكتب هذه إلى المكتبة العامّة في المدينة قبل انتهاء الدوام الرسمي لها.

- أكلّ هذه الصناديق معبّأة بالكتب؟.

وهزّ غسّان رأسه وأجاب:

- نعم.

وردّد السائق باستغراب:

- ولكنّني تصوّرتها أحذية وثيابًا؟.

- هذا ما خرجت به. جمعتها في ربع قرن، وها أنا ذاهب لأهديها، أفهمت؟.

وتمتم السائق:

- إذا كنت قد قرأتها كلّها فالله يعينك. لم أقرأ في حياتي أيّ كتاب عدا الجريدة، رغم أنّني تركت المدرسة في السنة الرابعة ثانوي؟.

وبعد فترة قصيرة وضع في آلة التسجيل شريط كاسيت جديد، ثم ضغطه بإصبعه فانطلق صوت داخل حسن ببحّته الطريّة وغنائه الجنوبي الذي يدلف إلى خلايا الوجدان.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وبدا الثلاثة يصغون، وكأنّهم متّفقون على هذا. وبعد أن تجاوزوا الشطرة صارت الناصريّة محطّتهم التالية.

وتوقّفوا عند حاجز تفتيش، وأبرزوا هويّاتهم وكان السائق معروفًا لدى رجال الشرطة لكثرة مروره بهذا الطريق.

وعندما توقّفت السيّارة أمام المكتبة كانت الساعة تقارب الواحدة ظهرًا.

كان المبنى جديدًا، ويقع في مدخل المدينة من جهة منطقة «باب الشطرة» بعد أن هدّ المبنى القديم الذي كان يصافح شاطئ الفرات.

ودخل غسّان ليسأل عن مدير المكتبة فأخبره الفرّاش أنّ للمكتبة مديرة وهي موجودة في مكتبها. ثم قاده إليها.

وعندما رأته نهضت مرحّبة، وكانت سيّدة ثلاثينيّة ترتدي فستانًا أسود علامة الحزن على فقيد قريب، فالناس في العراق إمّا يرتدون الأسود أو الخاكي، صافحها وقدّم نفسه:

- غسّان العامري.

فأجابته:

- عرفتك، أهلاً بك في مدينتك!.

وهنا انتبه غسّان إلى رجل كان يجلس على كرسي في الطرف الآخر وهو منشغل بتقليب صفحات مجلّد كبير بحثًا عن أمر يهمّه. وما إن سمع الاسم حتى نهض واقفًا ومرحّبًا، وعندها عرف فيه أحد رموز المدينة الشعريّة، فهتف به:

- رشيد مجيد؟ يا أهلاً! أيّة فرصة طيّبة هذه؟.

واحتضن أحدهما الآخر بصداقة، وردّد غسّان:

- ما شاء الله! ما زلت شابًّا!.

- الكلام لا يضمّد جرحًا يا غسّان والمعنويات في الأرض، كيف لا وولداي في جبهة الحرب؟.

- حماهما الله، وحمى العراقيّين كلّهم! ما باليد حيلة يا رشيد!.

وأردف قائلاً بمواساة:

- الحرب هي المخرز المنغرس في قلوب العراقيّين جميعهم، ولم يسلم أحد منها.

ثم وجّه كلامه لمديرة المكتبة ليقول لها:

- جئتكم بهديّة لا تردّ.

- وما هي؟

كلّ ما جمعته من كتب خلال ربع قرن، وسيّارة الحمل واقفة في الباب، ولا بدّ من إنزال صناديق الكتب منها.

وغادرت المديرة مكتبها لتنادي الفرّاش وبعض الموظّفين لينزلوا الصناديق، ولكن قبل هذا طلبت أن يفتحوا الباب الكبير لتدخل السيّارة إلى ساحة المكتبة.

ثم عادت إلى مكتبها وهي تردّد:

- هذه مفاجأة عظيمة، لا أعرف كيف أشكرك؟.
- الأمر لا يدعو للشكر، من أحقّ من أبناء مدينتي بكتبي؟ كأنّي جمعتها لهم وليس لي أنا.

ثم جلست وراء مكتبها وهي تردّد وكأنّها تعتذر:

- ولكنّ المكتبة اليوم لم تعد كما كانت، فمن يرتادونها قلّة، وإذا حظينا بخمسة مطالعين في اليوم فهذا مكسب كبير، الكتب تنام على رفوفها كالموتى.

وبعد أن تمّ تفريغ الصناديق جاء السائق وتسلّم أجرته من غسّان ثم غادر.

وانتبه غسّان أنّ رشيدًا كان صامتًا كلّ هذه المدّة. ولكنّه انفجر في بكاء مسموع لم يستمرّ فيه إذ سرعان ما كفكف دموعه وهو يعتذر، ثم قال:

- لقد أبكاني وفاؤك لمدينتك يا غسّان، كثيرون من أبنائها تنكّروا لها وادّعوا نسبًا إلى مدن أخرى ذات حظوة، أمّا أنت فنقيضهم لأنّك متشبّث بها، مصرّ عليها، قرأت حتى أحاديثك الصحافيّة عنها، وقرأته في معظم قصائدك.

وعلّق غسّان:

- يا رشيد يا أرومتنا الأبقى، هذا أنا، وهذا منحدري فكيف أقفزه؟ ومن أجل ماذا؟.

وألقى رشيد بظهره إلى مسند الكرسي وهو يردّد:

- هذه المدينة مدينة عطاء ورفد، من الغناء إلى الأدب إلى السياسة!.

ودخل عليٌّ الذي بقي واقفًا يراقب إدخال الصناديق فقدّمه غسّان:

- أخي عليّ، هو مقيم هنا بينكم بعد أن غادر الحرب بساق واحدة.

ثم حضرت صينيّة الشاي وكاسات الماء البارد، وأخذ الفرّاش يوزّعها على الحاضرين.

وقالت مديرة المكتبة موجّهة حديثها لغسّان:

- هذه الكتب ستعوّضنا عن الكتب التي استولى عليها رجال الأمن قبل أيّام. لكنّنا لا نستطيع تسجيلها إلاّ بعد أن نقدّمها لهم في قوائم، وقد لا يسمحون بالعديد منها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ثم ارتشفت من شايها وأضافت موضّحة:

- كلّ فترة يمنعون كتبًا، وغالبًا ما يكون المنع لاسم الكاتب وليس لكتابه، والأسباب كثيرة فربّما يكون قد صرّح بشيء لا يعجبهم أو كتب ضدّ أمر ما، وأحيانًا تحرق الكتب في ساحة المكتبة ويظلّون يراقبونها حتى تصبح رمادًا!.

وكاد غسّان أن يطلق صيحة فزع ممّا سمع! ووجد نفسه عاجزًا عن النطق بأيّ كلمة تعليقًا على ما سمع.

ولم يمكث غسّان وشقيقه وقتًا أطول إذ سرعان ما استأذنا بعد أن عانق رشيدًا مودّعًا، وطلبت منه مديرة المكتبة تزويدها بعنوانه البريدي لكتابة رسالة شكر له، وهي تقول باسمة:

- وهذا أضعف الإيمان كما يقال.

* * *

رغم كلّ بهاء مبنى المكتبة الجديد وما زوّد به من وسائل تبريد وتكييف إلاّ أنّ مكانه غير ملائم بالمرّة، فهو يقع في طرف المدينة الغربي وكان بالإمكان أن يكون البناء في وسط المدينة الآخذة بالتمدّد والاتّساع. وليس بإمكان روّادها الوصول إليها إلاّ بواسطة سيّارة أجرة أو باص، وهي حالة ترهق الرأس والجيب معًا.

أين هذا المبنى من ذاك؟ في تلك السنوات البعيدة كان للمكتبة مبناها الساحر، قاعة فسيحة جدًّا ورفوف عامرة بالكتب، وروّاد لا ينقطعون أبدًا، وكانت المدينة وقتذاك صغيرة، ليس فيها إلاّ عدد قليل من سيّارات التاكسي وبضع عربات تجرّها الخيول كان الناصريّون يطلقون عليها اسم «الربل».

أمّا تنقّلات الناس بين الناصريّة والمدن الأخرى فكانت تتمّ عن طريق كراج وحيد، يقع غربي المدينة وفي منطقة باب الشطرة على بعد مائتي متر من مبنى المكتبة الجديد.

كان غسّان وعليٌّ يخطوان على أقدامهما بعد أن غادرا مبنى المكتبة، وكان غسّان يباطئ في مشيته حتى لا يرهق أخاه الذي يمشي بساق اصطناعيّة رُكّبت له حديثًا ليستغني عن العكّاز. وقد اكتشف غسّان عند مبيت علي في شقّته الليلة الماضية كم كان هذا الفتى الوسيم يتعذّب. إذ إنّه ينحّيها عند النوم وهذا يضطرّه لفتح اللفافات، التي رُبطت بها، وكان من شأن الحرّ العراقي الممتدّ على أكثر من ثلاثة أرباع شهور السنة أن يحرق لحمه تحت هذه اللفافات، وخاصّة عندما يمشي مسافة فتسبّب الساق الاصطناعيّة جروحًا في ركبته.

وقد أصيب غسّان بالوجوم عندما رأى هذه الساق مركونة قرب الكنبة، حيث بدت له وكأنّها ساق حقيقيّة بترت من جسد صاحبها. وكاد أن يصرخ وكأنّه في محرقة كابوس ثقيل. ولكنّه استعاد تملّكه لنفسه.

سأل غسّان أخاه:

- هل دار الوالد بعيدة؟.
- أنسيت المكان؟.
- تقريبًا، فهذا المكان النائي صار أكثر اكتظاظًا من غيره!.
- الدار أمامنا، تلك ذات الباب الأزرق. يوم اشترى الوالد قطعة الأرض التي بنى عليها الدار كانت في خلاء مقطوع، حتى الكراج لم يكن هنا بل في الجهة الأخرى، ولكنّهم عندما نقلوه إلى هذا المكان جاءت معه المقاهي والدكاكين والمطاعم والبيوت والباعة المتجوّلون وسيّارات التاكسي والعربات اليدويّة، وحلّ الصخب بدلاً من ذلك الهدوء المتناهي، وأخذ أصحاب المقاهي حرّيّتهم في بثّ الأغاني الريفيّة وأغاني الغجر بواسطة مكبّرات الصوت ليسمع الناس أصوات مغنّين ومغنّيات شعبيّين لم تعترف بهم الإذاعة، ولكنّ الذائقة الشعبيّة فرضتهم، حتى أسماؤهم كانت غريبة مثل المنكوب، التايه، ابن العكشة، سلامة الكاولية، غزلان وغيرها من الأسماء التي كانت الأشرطة التي سجّلت عليها أغانيهم تبيع أضعاف أشرطة المغنّين المحترمين.

عندما وصلوا الدار لم يكن الوالد فيها، وأخبرتهما زوجته التي كان الأولاد والبنات ينادونها: ماما، احترامًا، بأنّه ما زال في الجامع وسيعود قريبًا.

وكان الوالد يصرّ على أداء الصلاة في الجامع، فهناك يلتقي بعدد من أصحابه، يؤدّون صلاتهم ويتجاذبون أطراف الحديث، وكان معظمهم يأتون للجامع بعد أن يتوضّأوا في بيوتهم.

وعندما جاء الأب بدأ العناق والسؤال عن الصحّة والأحوال.

ثم جاء أخوة غسّان وأخواته من زوجتي أبيه الثانية والثالثة لتحيّته. وكلّهم كانوا يقبّلون يده احترامًا بصفته الأكبر لهم.

منذ أشهر لم ير غسّان أسرته وأقرباءه، فقد غرق في مشاكله مع زوجته وطلاقه منها، ثم طلبه للتقاعد المبكر وهو لم يبلغ الأربعين الأمر الذي كان مثار استغراب والده الذي عاد ليسأله بعد أن جلسوا:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ألم تعد لعملك؟.
- أبدًا، ولم أفكّر في هذا، كان خروجي قرارًا نهائيًّا. لقد قرفت وأدركت أن لا فائدة، وكأنّ وجودك في أيّ عمل مقترن لا برضى الوزير فقط بل وبرضى زوجتك وأهلها!.

وردّد الوالد وهو يهزّ يده:

- عجيب!.
- أبدًا، ليس هناك ما يثير الاستغراب، وقد جعلوا أبناء الأسرة الواحدة يراقبون بعضهم، الزوجة على زوجها، والولد على أبيه، والأخ على أخيه!.
- ولماذا كلّ هذا؟.
- هذا السؤال لا توجّهه لي، بل للذين هناك. وما كتبته زوجتي عنّي للوزير إصرار على قتلي. هذا ما أخبرني به الوزير نفسه وهو يقول: لو لم أكن أعرفك يا غسّان، وأرسلت ما كتبته زوجتك عنك لدوائر الأمن لضاع خبرك.

وصفّق الوالد بيديه وهو يردّد بصوته الذي لا زال يحمل خشوع الصلاة:

- أعوذ بالله، ألم تفكّر بابنتيها؟.
- الغيرة العمياء، وكذلك حبّ التملّك الأرعن، جعلها لا تضع خطّ رجعة! على أيّة حال لا تصدّع رأسك بهذا الموضوع الذي انتهى الآن!.

كانوا يجلسون في باحة البيت المسقفة، وكانت الجدران البيضاء تضمّ صورًا لمناظر طبيعيّة وآيات قرآنيّة، وهناك صورة كبيرة للوالد بعد عودته من الحجّ عُلّقت على الجدار المواجه للباب، وقد كبّرها رسّام صديق لغسّان له محلّ قريب من سراي المدينة عن صورة صغيرة التقطها الحاجّ عند مصوّر في جدّة، وكان فيها يرتدي شماغه وعقاله وعباءته بطلّته المهيبة التي تفرش الأمان على هذا البيت ومن فيه من أبناء وأحفاد.

ثم جاءهم صوت الوالدة:

- الغداء جاهز.

فما كان من الحاج إلاّ أن قال:

- ربّما غسّان جائع الآن؟.

فردّ عليه:

- جدًّا.

وأثناء الغداء سأل الوالد:

- والحرب؟ ألا نهاية لها؟.

أجابه غسّان:

- يبدو أنّها في مراحلها الأخيرة، لم تعد إلاّ عمليّات قتل وتخريب متبادلة!.

وعرف غسّان غاية والده من هذا السؤال، فهناك اثنان من أبنائه في جبهتها بعد أن أخرج عليّ منها معاقًا، هذا عدا الشبّان من أبناء العشيرة الذين توزّعوا ما بين الأسر والشهادة والبقاء في جبهات الحرب.

بعد أن فرغوا من تناول طعامهم جاء الشاي فشرب غسّان «استكانين» منه، ثم استأذن ليدخل غرفة الضيوف حتى يأخذ قسطًا من الرّاحة. وكان الحاج يضع فيها سريرًا مريحًا تحسُّبًا لقدوم ضيف من أقاربه، حيث لا يذهب إلى فنادق المدينة إلاّ الغرباء الذين لا أقرباء لهم فيها.

وصحا على صوت والده بعد أكثر من ساعتين أمضاهما في نوم عميق مطمئن، وعندما تطلّع من النافذة وجد الغروب وقد مدّ يده ليغطّي صحو المدينة.

مضى صوب المرحاض الشرقي فوجد نفسه عاجزًا عن الجلوس فيه بعد أن اعتاد على المراحيض الغربيّة، ومع هذا قضى حاجته ونهض ليغسل يديه ووجهه حتى جاءته أخته الصغرى إنعام بصينيّة الشاي بعد أن نادت على والدها:

- بُوْيه، حجّي، غسّان صحا، والشاي حاضر.

وخرج الحاجّ من غرفته وجلس جوار ولده لاحتساء الشاي المهيَّل بتلذّذ.

قال غسّان مخاطبًا أخته:

- من خدّر الشاي؟.

ردّت عليه:

- أنا.

- عاشت يدك! من يتزوّجك لن يخسر أبدًا.

وكانت أنعام رغم صغر سنّها على وشك الزواج من قريب لها يقطن «أبو هاون» لتلحق بأختيها الأكبر منها أحلام وأمل اللتين تزوّجتا من قريبين لهما في القرية نفسها.

واستأذن غسّان والده بالخروج وهو يقول له:

- أريد أن أدور في المدينة وأرى بعض أصدقائي القدامى.

- أتتأخّر؟.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- لا.

وجاءه صوت الوالدة:

- العشاء على النار.

وهنا اقترح غسّان على والده أن يرافقه إلى بوتيك شقيقه عليّ الذي افتتحه بعد تسريحه من الجيش وبالإكرامية البسيطة التي تلقّاها تعويضًا عن ساقه.

فاعتذر الحاجّ لقرب موعد الصلاة، ولكنّه نادى على أصغر إخوته ليرافقه إلى هناك.

- 54 -

غادر غسّان المنزل صباح اليوم التالي ماشيًا بخطوات بطيئة محاولاً أن يوقظ ذاكرته ليتعرّف على البيوت والوجوه. وكان يحسّ بإلفة غامضة نحو كلّ ما يراه فكأنّه لم يغادر المكان ولم يتغرّب أكثر من ربع قرن أمضاه في مدن أخرى، بيروت، القاهرة. وقبل هذا وبعده بغداد.

وتطلّع إلى بيت واطئ. تآكل بمرور السنوات ولم يُجرَ له أيّ ترميم، وخمّن أنّه بيت زاهي وزوجته الخرساء المهبولة التي لم يعد يذكر اسمها.

في سنوات الخمسينيّات والستينيّات كانت جلّ بيوت هذه المحلّة مبنيّة من الطين والقصب والبواري، وكانت عرضة للاقتلاع بفعل الرياح الصحراويّة الحاملة معها أثقالاً من الرمل الأحمر، وفي موسم الشتاء كانت تجتاحها مياه الأمطار فلا تقاومها شقوقها فتنزل على أجساد البشر وما امتلكوا من أثاث بسيط.

وضحك غسّان من حديث زاهي معه، والذي كان يمرّ به بين الحين والآخر ليشتري الحمام الذي يمتلك زاهي العشرات منه ليتاجر به، حيث أخبره في إحدى حكاياته المرحة أنّ إشارته لزوجته الخرساء عندما يريد مضاجعتها هي قيامه بفرش عباءته على الأرض، وذات يوم شبّ حريق في طرف من بيتهما فأسرع في فرش عباءته ليحمل الثمين من أغراضهما البسيطة، فما كان منها إلاّ أن انطرحت على ظهرها وفتحت ساقيها!.

وتساءل غسّان:

- ترى أين هما الآن؟ وما الذي جرى لهما؟.

ثم واصل الخطو في الشارع الذي كان يسلكه باتّجاه شارع الهواء، ومنه ينعطف شمالاً ليمرّ ببيت صديقه أمجد الباقري صباحًا في طريقهما إلى المقهى، ومساء إلى شاطئ الفرات، ليتمشّيا ويرتويا من وجوه جميلات المدينة اللواتي تسمح لهنّ أسرهنّ بالخروج وهنّ ملفوفات بعباءاتهنّ السوداء، ومن أرادت إغراء الفتية المكبوتين تتظاهر بأنّ الريح قامت بفتح عباءتها وأظهرت ما خفي من كنوز عنقها وصدرها.

صار وجه غسّان في وجه امرأة عجوز، تجرّ ساقيها جرًّا وصوت لهاثها يتناهى من صدرها. وانتبه إلى الندبة المرتسمة في وسط جبينها، وخمّن أنّها الحاجة فخريّة التي لم يكن زوجها عيدان يرضي شبقها الصارخ فتشكوه لجاراتها كلّما اختلين مع بعضهنّ في مجلس.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عرفها من الندبة على جبينها عندما جاء بها عيدان من سوق الشيوخ بعد أن أغـــراه بياضها الوردي فتزوّجها. وقف غسّان أمامها وحيّاها وهو يسألها:

- أنت الحاجة فخريّة؟.

فأجابته:

- إي، وأنت منو؟.
- أنا غسّان ابن حجّي جابر العامري أتذكرينني؟.

فقبّلته على خدّه وهي تردّد:

- سنوات طويلة، عرفتك طفلاً، لكن وين صرت؟.
- خالة، ببغداد.
- أسأل عنك والدك كلّما التقيته في السوق.

وواصلت الحاجة فخريّة طريقها وهي تردّد كلمات الدعاء بالموفقيّة له، فهـــو ابـــن حلال ما زال يتذكّرها و لم ينسها.

تقترن الحاجة فخريّة عنده بحكاية قديمة، يومها لم تكن حاجّة بل فتاة غضّة فـــائرة، وكان وقتها في السادسة من عمره و لم يكن يفقه شيئًا من أحاديث النساء. وقـــد سمعهـــا تشكو من حكّة في فرجها، وكانت أثناء ذلك ترفع ثوبها إلى أعلى وتواصل حكّ فرجهـــا بأصابعها الخمسة كاشفة عن ساقين لحيمين، وراح غسّان يتأمّل ما تفعله بانشداه، وهنـــا انتبهت له خالته فصاحت به:

- غسّان، اخرج. ولا تصغِ لحكايات النسوان.

لكن إحدى النساء نصحت فخريّة:

- هذه الحكّة لا يشفيها إلاّ عيدان، يدخله بك وترتاحين!.
- عيدان! خلّيني ساكتة..
- إذن، طلّقيه وتزوّجي واحدًا آخر يداوي حكّتك هذه!.

وهكذا بقيت فخريّة في ذاكرته فخذين بضّين وحكّة لا دواء لها إلاّ عضو حمار.

ودخل غسّان في اكتظاظ شارع الهواء الذي لم يعد شارعًا يجلب الهواء من بســاتين النخيل في شرقي المدينة وغربيّها، فنال هذا الاسم، وكذلك بالأشجار العالية التي تتوسّطه على امتداده من محلّة الصابئة إلى المستشفى، حيث قُطعت هذه الأشجار لغرض توسعته في مجزرة كبيرة بكى لها سكّان الشارع الذين كانوا يلوذون إلى أفيائها هربًـــا مـــن حـــرارة الصيف الجنوبـــي المجنون.

كانت روائح المياه الآسنة المتخمّرة في الحُفَر على جانبي الشارع ووسطه تفوح، لذا لا يتنشّق العابر إلاّ عطنها، كما اختنق هذا الشارع بالمارّة والدكاكين وفوضى مرور السيّارات والعربات، وبدا الشارع لغسّان وكأنّه مجرّد زقاق مهمل.

حاول غسّان أن يصل لدار أمجد الباقري بنفسه دون أن يسأل عنها أحدًا، إذ كانت هذه الدار ذات يوم إحدى أجمل الدور في شارع الهواء بلونها الإسمنتي وشبابيكها الواسعة وكذلك بعلوّها الذي جاء بطابقين وسياج.

ثم خمّن أنّ الدار التي يقف أمامها الآن هي دار أمجد حتمًا، ورغبة منه في التأكّد سأل رجلاً هرمًا كان يجلس في ظلّ الدار ممدّدًا ساقيه المشعرين جوار قدم كلّ منهما نعال جلدي متآكل، فأجابه بنعم.

ضغط على الجرس ولم ينتظر طويلاً حتى خرج له فتى في الرابعة عشرة، وخمّن للشبه الكبير أنّه أحد أولاد أمجد، لذا سأله:

- بابا هنا؟.
- إي، من أقول له؟.
- غسّان العامري.

واستدار الفتى عائدًا دون أن يطبق الباب وهو يصيح:

- بابا، صديقك غسّان.

كان هذا الفتى أكبر من والده عندما تعارفا في المدرسة الغربيّة، ولكنّ الشبه بينهما كبير، الشعر الفاحم نفسه الذي كان لأمجد وقتذاك كشعر ممثّل هندي، كما أنّ له العينين الواسعتين والوجنتين العاليتين، ممّا دفع الشاعر قيس لفتة مراد لكتابة عدد من القصائد المتشبّبة به، وكان أمجد يضحك لها فهو يعرف أنّها هويمات شاعر يأكل عزلته وغربته حتى وهو في مدينته. مع أنّه تمتم له:

- سامحك الله، ألم تجد غيري؟.
- بمن تريدني أن أكتب الشعر؟ بعزيز عبد الصاحب مثلاً؟.

وقد ضحكوا من قلوبهم وقتذاك في تلك الجلسة الصباحيّة البيضاء بمقهى التجّار.

لكنّ كثافة الغزل الشعري الغلماني في مدوّنة قيس لفتة مراد انصبّت على فتى أبيض البشرة مجعّد الشعر وله شفتان حمراوان اسمه جميل سامر، وكان يعلن أنّه لا يحبّ في الحياة إلاّ أربعة أشياء هي أمّه والبطيخ وجميل سامر وليلى مراد.

ولم يطل وقوفه في الباب إذ سرعان ما خرج أمجد وقد أربكته المفاجأة، إذ إنّه لم يكن يتوقّع هذه الزيارة من صديق عمره الذي تناهبته المدن والمسافات.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكان قد تبدّل كثيرًا ونال منه الزمن فحوَّل شعره الفاحم السواد إلى رماديّ، لكنّه بقي على كثافته ولم يستحوذ عليه الصلع، كما أنّه ضمر كثيرًا حتّى بدا أطول ممّا كان عليه. وكان يرتدي بيجامة زرقاء لم يجد الوقت لتزريرها، فظهر شعر صدره الذي تحوّل هو الآخر إلى رمادي.

وقف الصديقان أحدهما أمام الآخر برهة كأنّ كلاًّ منهما يريد التأكّد من أنّه أمام صديقه، وليس أمام شخص آخر، قبل أن يتعانقا بذلك الدفق الأخوي الفيّاض الذي لم يطفئه البعد ولا سنوات الغياب.

ثم سحب أمجد صديقه ليدخله إلى الدار ولكنّه اعتذر، وقال:

- ليس هناك وقت، هيّا ارتد ثيابك بسرعة لنتجوّل في المدينة، فبي شوق لهذا.
- اشرب شايًا على الأقلّ؟.
- دعني هنا أتطلّع إلى الشارع وحركة البشر فيه. فنبضه هو بشكل وآخر نبضي.
- أمرك.

كانت جدران الشوارع والأزقّة التي مرّا بها تزدحم باليافطات السوداء التي تنعى الشهداء من شبّان المدينة الذين سقطوا في جبهات الحرب، الأمر الذي يوحي بأنّ المدينة منكوبة فعلاً بهذه الحرب، وكان يقرأ الأسماء بصوت عال وهو يسأل صديقه إن كان هذا الشهيد ابن فلان أو شقيقه من معارفهما فيردّ عليه.

قال أمجد:

- ما تراه من يافطات هو حصيلة معارك الأسبوعين الأخيرين، إذ دائمًا ما ترفع اليافطات القديمة لتوضع بدلاً عنها الجديدة. أتصدّق بأنّني أعزّي أكثر من عشر أسر في اليوم الواحد؟ أخرج من هنا وأذهب إلى هناك، ولكنّني توقّفت فجأة عن هذا العمل، وانسحبت إلى بيتي ولا أغادره إلاّ لأمر طارئ.

ثم بدأت الأسئلة التقليديّة:

- متى جئت؟.
- البارحة.

وأضاف:

- جئت بما حوت مكتبتي هديّة إلى المكتبة العامّة في الناصريّة، سيّارة حمل كبيرة!.
- ولماذا فعلت ذلك؟.
- وماذا أفعل بها وأنا أتهيّأ لمغادرة البلد؟.
- نهائيًّا؟.

- لا أدري، همّي الأوّل اليوم هو المغادرة. أمّا بعدها فلم أفكّر به.
- ولكن هل حدّدت وجهة؟.
- كانت وجهتي الأولى بيروت. لكنّ تأخّري أفشل المشروع، وربّما تكون قبرص وجهتي. لي صديق هناك دعاني للعمل معه، أظنّك تعرفه هو الشاعر اللبناني رعد الطويل، ولكن ربّما أتوجّه إلى بلد لم أبرمجه في هذا الرحيل الملحّ.

ومسح العرق عن جبينه بورقة كلينكس وهو يضيف شارحًا وضعه لصديقه:

- لقد ارتبكت حياتي. ولا حلّ لي إلاّ بالذهاب بعيدًا!
- أنظر أخاك أمجد وهو مكبّل بأسرة من سبعة أبناء عدا أمّهم وهي ربّة بيت ولا همّ لي إلاّ إعالتهم!

وصفّق غسّان بيديه وهو يردّد بأسى:

- كيف نعود لتلك الأيّام حيث كنّا خليين، لا حروب ولا هموم أسريّة؟ أتذكر كيف كنّا نضع يدًا بيد، أو ذراع كلّ واحد على كتف الآخر ونزرع خطانا في الشارع المحاذي للفرات؟ وكنت تطلق صوتك بآخر أغنيات عبد الحليم حافظ التي تنبض بالحبّ الأبيض؟.

وبعد هنيهة صمت قال:

- ترى هل بإمكاننا أن نعيد كلّ ذلك؟ هيّا يا أمجد، أيقظ الماضي، غنّ: صافيني مرّة، على قدّ الشوق، سمراء يا حلم الطفولة، غنّ بتلوموني ليه، بيني وبينك إيه، لا تلمني، كلّ ذلك الحزين البهيّ من أغاني فتوتنا الحالمة!.

وتمتم أمجد وكأنّه ينتحب:

- صدري مخرّب من دخان السكائر ولا يخرج منه إلاّ اللّهاث، وصوتي بُحّ و لم أعد قادرًا على رفعه لمناداة أحد أولادي الذين كبروا، والذي رأيته هو أصغرهم!.

ووجد غسّان نفسه يشاركه بكاءه الصامت الذي نزّت منه الدموع الحزنة.

قال أمجد وهو يسترجع صوته بعد أن تنحنح:

- لولا الترجمة بالنسبة لي، والشعر بالنسبة لك لما كان للحياة التي تطحننا بإيقاعها أيّ مسوّغ؟.

وربت غسّان على كتفه وهو يقول:

- لا تكن يائسًا لهذا الحدّ، ولا تذكّرني بالعمر ولا بالسنوات وأنا أعيش عشقًا متألّقًا مع الشاعرة الرائعة حنان عوّاد.

***

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أوصل غسّان صاحبه إلى منزله معتذرًا عن تناول طعام الغداء معه، فقد ارتبط بأسرته ليتغدّى في البيت، وقد أعدّت له زوجة أبيه سمكة مشويّة بناء على طلبه.

ولكنّه بدلاً من الذهاب إلى البيت، وبعد أن وجد بعض الوقت مضى شرقًا قاطعًا الأسواق المسقفة التي يسمّيها سكّان المدينة «قيصريّات»، ثم اتّجه نحو دار عزيز عبد الصاحب ليرى ما الذي بقي منها!.

لا يدري لماذا تذكّر هذه الدار! وهل بإمكانه العثور عليها؟ وخمّن أنّها لم تبق كما كانت عليه حتمًا، وربّما تكون قد هدّت لتشيّد عليها عمارة هجينة.

كان يخطو بهدوء وقد وضع على عينيه نظّارته الشمسيّة. ومن ورائها يتطلّع إلى الناس الذين لم يعد يعرف أغلبهم، و لم يكن الأمر هكذا قبل أن يغادرها إلى بغداد.

ولكنّه أحسّ في قرارته أنّه برحيله أنقذ نفسه رغم كلّ حبّه لهذه المدينة وأمومتها التي لم يغادره حنانها، ورغم كلّ هذا الأمان النادر الذي يشعر به وهو يخطو في شوارعها التي انقلبت ملامحها الأولى، وكأنّ الروائح العطنة التي خلّفتها مياه الغسيل المرميّة في الشوارع والزبالة المتروكة أكوامًا تستقبلها رئتاه فتصفّيانها وتصبحان لها كالفيلتر المنقّي، فلا يشمّ بعد ذلك إلاّ رائحة الأرض المرشوشة بالماء في باحة بيتهم القديم، حيث تظلّل المكان نخلة باسقة زرعها والده فسيلة واهتمّ بها حتى صارت فرعاء مثقلة بالسعف ورطب «الشويثي»، وهو أغلى أنواع التمر في العراق. ولا يستلذّ الوالد في قيلولته إلاّ تحت ظلّ تلك النخلة الوارف.

إنّه يخطو فوق أرض عرفت خطواته الأولى وهو يرافق والده إلى السوق أو إلى الجامع.

وراقب الناس الذين يمتلئ بهم السوق. شبّان بقمصان ملوّنة. رجال بعُقل وشماغات وعباءات. نساء يرتدين السواد ويغطّين رؤوسهنّ بمناديل سوداء... يافطات كلح لونها لكثرة ما بقيت معلّقة على الجدران. وعندما استدار يمينًا وجد نفسه أمام الدار التي يبحث عنها، دار جدّ عزيز عبد الصاحب الواقعة بين صفوف من دكاكين النجّارين والحدّادين والصاغة، ورغم أنّ الدار قد تداعت إلاّ أنّها لم تفقد شموخها القديم وهيبتها يوم كانت عامرة بالأولاد والأحفاد، وخمّن غسّان أنّها لم تخضع لأيّ ترميم بل بقيت مهملة، وكأنّها خربة مهجورة. وقبالتها تمامًا كان هناك مقهى لذا أسرع للجلوس فيه، وسرعان ما جاءه عامل مصري وهو يمسح يده بطرف جلاّبيّته الواسعة:

- تشرب إيه حضرتك؟.

فردّ حضرته:

- شاي.

وجاءه الشاي بكأس كبيرة على الطريقة المصريّة، فسأله:

- هل عندك استكان؟.

- أيوه.

- عاوز الشاي بالاستكان.

- تؤمر يا بيه.

وحضر الشاي، وبدأ غسّان بارتشافه وهو يتأمّل الدار الهرمة في تداعيها وقنوطها. ثم نادى على النادل وسأله عنها فعرف أنّ فيها بعض الغرف الصالحة للسكنى، وقد استأجرها عمّال مصريّون يعملون في السوق والمحلاّت القريبة. ثم ختم النادل جوابه:

- وأنا واحد من سكّانها.

كانت الوجوه التي تمرّ أمامه أليفة له، لكنّه أضاع الأسماء، بعضهم كان يتطلّع إليه محاولاً التأكّد ثم يتقدّم نحوه مرحّبًا معانقًا، والسؤال نفسه يتكرّر:

- متى جئت؟

ولا يلبث السائل أن يدعوه:

- لو تشرّفنا على غداء أو عشاء، أنت عزيز علينا أستاذ غسّان.

فيعتذر منه ويمضي الرجل ويبقى هو في تأمّله، وعندما تتعب نظراته من تأمّل المارّة يوجّهها إلى باب الدار الذي كان مواربًا. وما زالت المطرقة الحديديّة الكبيرة تتدلّى منه.

وراء الباب هناك بهو طويل يؤدّي إلى داخل الدار، وعلى اليمين مباشرة سلّم في رأسه مرحاض شرقيّ للضيوف، حيث يؤدّي السلّم إلى غرفة خاصّة بهم يزيد طولها على العشرة أمتار كانت تفرش بالسجّاد، والوسائد الصوفيّة المزركشة تتوزّع مركونة إلى حيطانها، و لم يسمح جدّ عزيز لأيّ امرأة بالوصول إلى غرفة الرجال هذه، وبين فترة وأخرى كان ينادي أحد الحمّالين من السوق ليقوم بتنظيفها. وكانت لقاءات عزيز وأصحابه ومناقشاتهم تتمّ بين هذه الجدران.. أمجد الباقري، قيس لفتة مراد، حسين الهلالي، حسين نعمة، عبد الرزّاق رشيد، وغسّان العامري، حتى الأدباء الذين يزورون الناصريّة لا يذهبون إلى الفنادق، بل ينامون في هذه الغرفة! وكم هو عدد الكتّاب الذين أقاموا فيها؟ كان آخرهم القاصّ نزار عبّاس القادم من بغداد بدعوة من عبد الرزّاق رشيد، لكنّ إقامته كانت في غرفة الضيافة الوثيرة هذه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قبل أن يغادر سأل غسّان النادل المصري عن الغرفة الكبيرة في الطابق العلوي فأجابه:

- هي الغرفة الآمنة الوحيدة في البيت! أنت تعرفها حضرتك؟.

***

عندما وصل غسّان إلى البيت أخبرته زوجة أبيه أنّ أخته رحيمة أصرّت على أن يتغدّى عندها. وسألها:

- والحاجّ؟.
- في الجامع. لكنّه سيتغدّى هنا، اذهب وحدك!.
- ولكنّني لا أعرف الطريق؟.

ونادت أخته الصغرى إنعام لتوصله إلى بيت رحيمة الذي لم يكن بعيدًا بل في المنطقة نفسها.

وفي الطريق، سأل أخته إن كانا قريبين من ضريح «المجاهيل» الذي يزوره البسطاء ليتبرّكوا ويشربوا الماء، فقالت:

- المكان هناك على اليسار، لكنّ المقبرة التي كان ضريحهما فيها تحوّلت إلى بيوت!.

وتذكّر غسّان أنّ هذا المكان كان خلاء موحشًا ليس فيه غير قبور الفقراء الترابيّة المتناثرة، التي لم يدفن أصحابها في مقبرة النجف لضيق ذات اليد.

كان بيت رحيمة وزوجها هادي في طور البناء. ولم تنجز منه إلاّ غرفة واحدة. ومع ذلك اضطرّوا للتحوّل إليه، وإنجاز البناء بتمهّل، فالبيت في منطقة جديدة والسرقة لا توفّر الطابوق وأكياس الإسمنت.

احتضنته شقيقته التي كانت قصيرة القامة وكأنّها تتعلّق برقبته لتشمّه وتقبّله وتعاود الكرة، ممّا حدا بزوجها لأن يبعدها بيده ويقول مداعبًا:

- كفى، كأنّك تريدين أن تأكليه!.
- هذا ابن أمّي وأبـي!.

وضحك ابن عمّها عبّاس الضابط المتقاعد الذي كان واقفًا للترحيب بغسّان.

وبعد أن تمّ تبادل التحايا جلسوا على الأرض المفروشة بالسجّاد، كما وضعت وسائد صوفيّة بمحاذاة الجدار لمن يرغب في الاتّكاء.

قالت رحيمة:

- أجلسناك على الأرض، فالبيت لم يكتمل حتى الكهرباء لم تصله لنشغّل المروحة على الأقلّ.

وكانت الريح قويّة بعض الشيء، لذا كانت تذرو الغبار معها الذي لا يعيره هادي وعبّاس أيّ اهتمام، رغم أنّه ينزل في صحن المازة وكأسي العرق اللتين أمامهما.

وعلّق غسّان:

- أراكما مبكرين؟.

وردّ عبّاس:

- ليس هناك ما هو أجمل من سكرة الظهر!.

ثم عرض عليه هادي أن يعدّ له كأسًا، فاعتذر. فما كان من عبّاس إلاّ أن ردّد:

- غسّان صار من أهل بغداد، وهناك لا يشربون إلاّ الويسكو.

وقد حرّف اسم الويسكي متعمّدًا للمزاح، ولكن غسّانًا عاد للقول:

- الشرب هكذا انتحار؟.

فردّ عبّاس ببساطة:

- ومن قال لك إنّنا لا نتمنّى الانتحار؟.

واستكمل هادي التعليق:

- نحن نبحث عن الطريقة المثلى لذلك.. هذا كل شيء.. أمّا المبدأ فنحن متّفقان عليه!.

ثم علم غسّان أنّ ولدي عبّاس كلاهما في الحرب، لقد جُنّدا بعد تخرّجهما من الجامعة، أمّا زوجته فقد فقدها قبل أشهر عندما كانت تمشي غير منتبهة للطريق، وقد جعلتها أخبار الحرب لا تقدر على التركيز أو سماع من يناديها، فدهستها سيّارة فوكس واغن برازيليّة من تلك السيّارات التي تُهدى لأسر الشهداء من الضبّاط.

أمّا هادي فلم يبق له من بصره إلاّ بصيص، ورغم أنّه ميكانيكي سيّارات ماهر ومحلّه يدرّ عليه الأرباح إلاّ أنّه اضطرّ لغلقه بعد أن خانه بصره، وأصبح متعذّرًا عليه إنجاز تصليح السيّارات ورؤية ما فيها من عطب.

ثم حضر الغداء: سمك مشوي ورزّ ومرق باميا، وأرغفة خبز ساخنة خبزتها رحيمة بنفسها في تنّور البيت، وقد أكل غسّان بشراهة غير عابئ بما تحمله الريح من ذرّات غبار وقطع صغيرة من القش. وكانت رحيمة تحثّه:

- كلّ، كلّ، والله لولا هادي والأولاد لرافقتك لبغداد لأهتمّ بك، وأغسل ثيابك، وأطبخ لك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقال هادي:

- ليتك تفعلينها حتى أستبدلك بأخرى!.

فأخذت قوله مأخذ جدّ وهي تعلّق:

- تعملها، يا مؤامنة بالرجال يا مؤامنة بالماي بالغربال!.

وضحكوا من هذا المثل النسائي. بعد ذلك قال غسّان:

- لم تعد هناك مشكلة للعزّاب، المطاعم متوفرة، ومحلاّت غسل الثياب وكيّها كذلك، كما أنّني أستعدّ للسفر خارج العراق، اليوم إن استطعت، ولذا جئت بكتبي هديّة للمكتبة العامّة في الناصريّة.

وانتبه الملازم المتقاعد عبّاس لما قاله، فهتف:

- بارك الله فيك، هذا أحسن عمل!.

وبعد أن فرغوا من الطعام جاء الشاي، وهو تقليد عراقي لا بدّ منه بعد كلّ وجبة طعام.

ثم اعتذر غسّان، فقد حان موعد قيلولته بعد كلّ هذا الطعام الثقيل.

صافحهم وخرج وقد رافقه عبّاس إلى نهاية الشارع، وقبل أن يتصافحا قال عبّاس:

- يبدو أنّهم لم يتركوك لحالك!.

فاستغرب غسّان ممّا سمع:

- من هم؟.

- جماعة الحكومة، أمن، مخابرات، حزب، المهمّ، اذهب الآن لترتاح، وسيحدّثك الحاجّ بكلّ هذا، لقد اتّفقت معه، لا تخش شيئًا، المهمّ أن تنتبه فهم لم يعودوا قادرين على الفرز، ويرون العداء في عيون كلّ العراقيّين وهذه هي المصيبة، حتى أنا الضابط الذي أمضى شبابه في العسكريّة أصبحت بعد تقاعدي تحت المراقبة، فلا تستغرب من شيء!.

عندما وصل البيت كان والده في انتظاره ليتحدّث معه. وهذه عادته، حيث لا يرتوي من رؤية ولده الذي غادرهم فتى ومن الصعوبة إعادته ليعيش بينهم.

وكانت زوجة والده قد أعدّت الشاي المهيّل وحملته إنعام بصينيّة، وسكبت لهما استكانين وجلست في انتظار أن يفرغا حتى تعبّئهما من جديد، لكنّ غسّانًا قال لها:

- يكفيني استكان واحد، لقد شربت في دار رحيمة بعد الغداء.

وكان سؤال والده الأوّل عن ابنتيه وإن كان يراهما، فأجابه:

- أبدًا، أمّهما تمنعهما عن ذلك، وقبل فترة أرسلت محاميها إلى المحامي الذي وكّلته عارضة أن تعود إلى عصمتي حتى لا يقال عنها إنّها مطلّقة ولا تمانع إن تزوّجتُ بغيرها. فرفضت لأنّ الخراب قد تمّ، وهدّم كلّ شيء. وغادرت الوظيفة وليس لي من حلم اليوم إلاّ مغادرة العراق. كما أنّني سمعت من ابن عمّي عبّاس ما أقلقني وحيّرني في الآن نفسه؟.

قال الحاج:

- حتى أنا استغربت!.

وعاد غسّان لإطلاق سؤاله الملحّ:

- قل لي ما هو الموضوع؟ عبّاس لم يُخبرني بشيء، وقال إنّه اتّفق معك على أن تحدّثني عنه أنت؟.

وتنحنح الوالد وهو يرتشف ما تبقّى في استكانه من شاي قبل أن يقول:

- ليس هناك موضوع بمعنى الكلمة، ولكنّ شابًّا من أقربائنا يعمل في جهاز الأمن أخبرني بأن طلب معلومات عنك ورد من مديريّة الأمن العامّة ببغداد؟.

وصفّق غسّان بيديه وهو يردّد:

- عجيب! الآن؟ ألم أكن دبلوماسيًّا؟ ومسؤولاً إداريًّا معتبرًا؟ ولم يسألوا عنّي إلاّ بعد أن غادرت العمل؟.

لقد أصبح الناس يتجسّسون على بعضهم، حتى العوائل نالها الخراب والدمار من وراء الوشايات والمزايدات، ألم ترَ في التليفزيون ذلك الأب الحقير الذي قتل ابنه بحجّة أنّه هارب من العسكريّة، فاستقبله رئيس الجمهوريّة وكرّمه، أرأيت مثل هذا؟.

- وماذا بعد طلب المعلومات؟.

فهزّ الوالد يده وردّد بصوته الحائر:

- لا أدري يا ولدي. هذا كلّ ما عرفته. ولكنّ الشاب قال لي إنّه سيزوّدني بكلّ المعلومات الجديدة لأحذّرك ممّا يبيّتون لك.

وردّد غسّان ومساحة استغرابه تتّسع:

- أرأيت يا والدي؟ إنّني متّهم أمامهم، ولكنّني لا أعرف ما هي تهمتي؟ كأنّني لم أعمل في مؤسّسات الدولة أو تدرّجت فيها، وكأنّني لم أكتب أجمل أشعاري عن الوطن والناس، وكأنّني لم أساهم في مهرجانات ثقافيّة عربيّة وعالميّة ورفعت قدر الإمكان صوت العراق؟.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وانتحب الوالد تأثّرًا بعد أن رأى كيف انعكس الخبر على ولده الكبير.

- أردت في البداية أن لا أخبرك، وقد استشرت ابن عمّك عبّاسًا، الذي رأى أنّ علينا إخبارك حتى تأخذ حذرك وتعرف كيف تتصرّف، فهذا معناه أنّك تحت المراقبة وموضوع ملاحقة!.

ثم أضاف الأب بحكمة الزمن وحنوّ الأب:

- أتعرف أنّهم يوزّعون علينا استمارات بين فترة وأخرى لنعبّئها وفيها معلومات عن الأقرباء من الدرجة الأولى واتّجاهاتهم السياسيّة حتى الموتى منهم؟ أيّ اتّجاهات سياسيّة لفلاّحين بسطاء ماتوا من ذلّ الإقطاع وسنوات الأوبئة والجوع؟.

ردّد غسّان:

- هذه الاستمارات توزّع على كل العراقيّين، من الموصل حتى البصرة!.

وارتفع صوت الوالد المتسائل:

- يسألون عن الموتى! هل يريدون نبش قبورهم ومحاكمة عظامهم؟ هذه مبالغة فوق التصوّر!.

- آه، لو أنّ واحدة من هذه الاستمارات وصلت إلى منظّمات حقوق الإنسان، وأعدك أنّني سأحصل على واحدة، وسأحملها معي إذا غادرت لأفضحهم وأفضح ما يفعلونه بنا؟.

وقال الوالد بابتسامته الفائحة بالحنان:

- لديّ واحدة.

- هاتها، قبل أن أسافر لا بدّ أن تكون في حقيبتي.

وهذا ما كان. إذ إنّ وجوده في الشقّة وفي العمارة التي لا يسكنها إلاّ العمّال المصريّون أراحه من هذا النوع من الاستمارات التي توزّع بمناسبة وغير مناسبة.

- 55 -

عاد غسّان إلى بغداد عن طريق السماوة والديوانيّة وهو الطريق الفراتيّ الأطول، ولكنّ الباصات المكيّفة يسلك أغلبها هذا الطريق.

ومن محطّة الباصات في «علاوي الحلّة» استأجر سيّارة تاكسي نقلته إلى شقّته. كان الوقت عصرًا لذا تمدّد في فراشه بملابسه الداخليّة.

وبعد أن أخذ قسطه من الراحة ارتدى ثيابه وخرج، فصادفه البوّاب صلاح وهو يجلس على كرسي أمام باب العمارة فبادره في السؤال:

- ازّيك يا أستاذ؟ عامل إيه؟.

فأخبره أنّه كان في زيارة لعائلته جنوب العراق، ثم استأذنه ليفتح له مكتب الحاج حتى يكلّم صديقًا له، فنهض صلاح بهمّة وفتح الباب وهو يقول له بترحاب:

- انت تؤمر يا أستاذ غسّان!.

وطلب منزل الدكتور زيد الحبيب فردّت عليه زوجته، وقد أخبرته أنّه بقي طريح الفراش طيلة يومين وقد (وصل إلى الموت) على حدّ تعبيرها، والسبب كما شرحته انخفاض في الضغط أعقب تناوله كميّة من زيت الخروع والحبوب المدرّرة لإنقاص وزنه. وأعقبت ذلك بشتيمة عالية لم يتوقّعها منها وهي على هدوئها المسالم. ولكن يبدو أنّ كأس الغضب قد فاضت.

وطلب منها أن تخبره بأنّه في انتظاره صباح غد ليمرّ به لأمر هامّ.

ثم أغلق الهاتف وشكر صلاحًا وخرج وهو يمسح العرق المتفصّد على جبينه.

لقد جمع كتب المراجع التي ينوي إهداءها إلى مكتبة قسم الدراسات العليا في كلّيّة الآداب بأربعة صناديق من الكارتون. هيّأها مع أخيه عليّ قبل أن يتوجّها إلى الناصريّة.

نظر إلى ساعته فوجد أنّ هناك بعض الوقت للمرور ببريد المنصور، وعندما وصله كان الدوام المسائي على وشك الانقضاء، لذا أسرع وفتح صندوقه فوجد المفاجأة، رسالة من حنان عوّاد، عليها طابع أميركي؛ وأخرى من رعد الطويل عليها الطابع القبرصي، وهناك مغلّف يضمّ ديوان شعر لشاعر شابّ من البصرة.

وأسرع إلى الحديقة الصغيرة التي تقابل البريد وجلس على العشب، وبسرعة فتح رسالة حنان التي تقول له فيها:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(وصلت نيويورك، ويبدو أنّ أخي عرف بأنّني سأمكث هنا فترة طويلة لذا وجد لي عملاً، ولا تستغرب من عملي فهو سكرتيرة لطبيب أميركي من أصل لبناني، لديّ مشكلة مع اللغة الإنكليزيّة حاليًّا ولكنّني سأحلّها. والفرنسيّة هنا ليست مستعملة. الإنكليزيّة هي السيّدة.

غير هذا، أنا حزينة وخائفة من المجهول القادم.. كما أنّ هذه المدينة المرعبة نيويورك التي هجاها كل الشعراء الذين زاروها، تحسّ وكأنّها حيوان خرافي يفتح فمه ليزدردك متمهّلاً.

قلقة عليك جدًّا. سأكتب لك ثانية بعد أن أجد شيئًا من الاستقرار. أنا التائهة بدونك).

أمّا رعد الطويل فيخبره أنّه تلقّى دعوة من نقابة المعلّمين لحضور مؤتمرها بصفته النقيب السابق لمعلّمي لبنان، ولكنّه غير متحمّس للقدوم. وإن فكّر فهذا لرؤية الأصدقاء، غيّاث الإبراهيمي، أبو ريتا. وسأله: بالمناسبة، ماذا يفعل الآن بعد غلق الكافتريا؟ معن الماجد، وعدنان العزيري.

جمع الأوراق ودسّها في جيبه ونهض، ثم انعطف يسارًا سالكًا شارع المنصور، وعن يمينه ساحة سباق الخيل الشهيرة المسمّاة «الريسز» وهي الكلمة الإنكليزيّة لسباق الخيل التي بقي الناس يتداولونها، رغم أنّ المجمّع العلمي قد عرّبها، إلاّ أنّ العامّة لا يهمّهم هذا التعريب، كما عرّب هذا المجمع أسماء ومصطلحات أخرى بشكل غير مبرّر أو مضحك. فأصبحت السينما (سيما) بحذف النون، لماذا؟ ولكن هل هناك عبقري من بين المجمعيّين يستطيع إقناع الناس بأنّ حذف النون يجعل الكلمة عربيّة، كما أنّ هناك تعريبًا آخر للكلمة نفسها هو «الخيّالة» لم يُعنَ به أحد. كما تمّ تعريب التلفيزيون بالتلفاز، فانطبق على هؤلاء المعرّبين مثلُنا العربي القديم (وفسّر الماء بعد الجهد بالماء)، لكنّ هذه الكلمات أخذت طريقها بصرامة لوسائل الإعلام، ولا يسمح لأحد بمخالفتها.. فقانون سلامة اللغة العربيّة - هكذا سُمّي - سيطاله.

وتأتي هذه التصرّفات ضمن مسار ممارسات ثقافيّة وإعلاميّة لا أحد يعرف من يحرّكها ومن يحوّلها إلى حقائق وأوامر ملزمة لها عقوبات زجريّة وماليّة، وما زال أدباء البلد وفنّانوه يتذكّرون الأمر العلوي الذي يلزمهم بعدم كتابة ألقابهم التي عُرفوا بها وتعويضها باسم الأب أو الجدّ؛ وهو أمر يعني بشكل واضح مصادرة هذه الأسماء المعروفة والمنتشرة داخل البلد وخارجه، ورغم أنّ الأمر موجّه أصلاً إلى كبار السياسيّين والحزبيّين الذين

يحملون ألقابًا تحيل على مناطق معيّنة من العراق حتى لا يقال عنهم بأنّهم يستحوذون على كلّ المواقع الكبيرة، لكن من طبّق الأمر سحبه على الأدباء والفنّانين، فصار المرء يقرأ أسماء كأنّه لم يعرفها من قبل.. وهكذا أصبح الشاعر عبد الوهاب البيّاتي (عبد الوهاب أحمـــد»، وعدنان العزيري (عدنان عبّاس)، كما أصبح غسّان العامري (غسّان جابر) والملحّن طالب القرغولي (طالب بريد) وأسماء أخرى من هذا القبيل.

وحصل إرباك، فمن هذا؟ ومن ذاك؟ وقاطع بعض الأدباء هذا القرار الملزم مقاطعـــة صامتة بالكفّ عن النشر في العراق. وقد نقل عدنان العزيري، الذي التقى البيّاتي، لغسّـــان غضبه الكبير، وهو يردّد:

- أخذوا كل شيء منّا، فلماذا يريدون مصادرة أسمائنا؟ هذا الاسم الذي لا أملك غيره هو ثمرة خمسين سنة من الشعر ولن أتخلّى عنه، هم سياسيّون يتصـــارعون بينهم على المناصب فليتركونا لحالنا.

وقد أجابه غسّان:

- الحقّ معه.

ولكن هذا لم يدم طويلاً إذ سرعان ما عادت الأسماء إلى ما كانت عليه، فجلّ الأدباء والفنّانين من الفقراء الذين تعنيهم أسماؤهم التي كوّنوها بجهودهم الشخصيّة، ولا أحد منهم له طموحات في الثراء أو المناصب.

كانت الأفكار تنثال متتابعة في رأس غسّان وهو يجتاز الزحام البشري ليستدير نحـــو مكتبة الممثّل المسرحي المعروف مقداد عبد الرضا فصافحه ثم اشترى منه جريدة الجمهوريّة ومجلّة عربيّة عراقيّة التمويل تصدر من باريس.

ثم استدار متوجّهًا نحو مقهى فندق الساحة، وعبر الصفحة الأولى المكرّسة لمشـــاهد الحرب وبياناتها، وكان يبحث عن صفحة «آفاق» المكرّسة للشأن الثقافي، والتي يشـــرف عليها معن الماجد الذي يعيش فرحة تسريحه من الجيش وهو يكفر باليوم الذي أقدم فيـــه على تغيير سنة ولادته ليبدو أصغر سنًّا، وكم كان يردّد:

- لماذا فعلت هذا؟ زواج وتزوّجت؟ أولاد وأنجبت؟ أمّا المعجبات فلا يطلبن منـــك معلومات عن سنة ميلادك؟

كان هناك مقال على ثلاثة أعمدة كتبه معن الماجد عن كتاب (البـــارود في الحلـــق) الذي ترجمه غيّاث الإبراهيمي ومعه صورة لغيّاث الإبراهيمي - رغم أنّه لا يحبّـــذ نشـــر صورته - وأخرى لغلاف الكتاب، وبدأ غسّان بقراءة المقال بعد أن أخذ رشفة من كوب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

القهوة بالحليب، وكان المقال كما توقّع غسّان متحمّسًا للكتاب، ورغم أنّه عن «بوليفيا» إلاّ أنّ قارئه يستطيع وضع الإسقاطات على ما يجري في العراق. اليوم ومن قبل. مـا دام الوضع الحالي هو حصيلة انقلابات متلاحقة عاشها العراقيّون.

وكما توقّع غسّان، فإنّ كلّ ما كتبه معن الماجد متعاطف مع أهمّيّة نشر هذا الكتاب وأمثاله، فهي تراجع تجارب شعوب أميركا اللاتينيّة ومشاكلها.

ووجد غسّان أنّه هو الآخر مدعو للكتابة عنه ثم إرسال المقال للنشـر في لبنـان أو مصر، لا مجاملة لمترجمه صديقه غيّاث الإبراهيمي بل لأنّ الكتاب جدير بأن يعـرّف بـه وربّما إعادة نشره في لبنان.

وكان غسّان قد بدأ بقراءته قبل سفره إلى الناصريّة وأرجأ ذلك إلى ما بعد عودتـه، وكأنّ مقال معن الماجد قد ذكّره به وحفّزه على قراءته.

أمّا في المجلّة العراقيّة التمويل الباريسيّة الصدور، فهناك موضـوع بعنـوان (هـايتي جمهوريّة الدم)؛ وبدا كأنّه متمّم لمقال معن الماجد.. وهذا النوع من الموضوعات يستوقف غسّانًا حتى أنّه كان يقتطع الموضوعات المشابهة له ويحفظها في ملفّ خاصّ. لا يدري لماذا؟ ولكنّه قد يعود إليه ليستلّ منه موضوعات لقصائد لم يكتبها بعد.

وتوقّف عند عنوان كبير في الموضوع (السجل الأسود لتسع وعشـرين سـنة مـن ديكتاتوريّة الرعب).

وردّد غسّان مع نفسه:

- من حرّر هذا الموضوع ذكي حتمًا، وقد سرّبه للقرّاء العراقيّين في مجلّـة تصـدر بأموال عراقيّة فشكرًا له.

ثم بدأ القراءة وكان يؤشّر بالقلم على بعض الفقرات مثل (هايتي تلك الجزيرة الحالمة وسط المحيط الأطلسي ستظلّ تحتفظ في ذاكرة التاريخ بحكايات أغرب من الخيال. كيـف تحوّلت هايتي من الجحيم إلى النعيم؟ قصّة بدأت فصولها ذات صباح وفي يـوم 7 شـباط 1986 عندما تدفّق عشرات الآلاف من المواطنين من الأحياء الشعبيّة المسحوقة وبأيـديهم المعاول والفؤوس، وهمّ يتحرّكون كالموج الهادر باتّجاه القصر الرئاسي، الذي كان قبـل ساعات قليلة مكانًا مقدّسًا لا يقربه إلاّ المقرّبون فإذا به يتحوّل تحت هدير الشعب وإرادته إلى خراب).

لكنّ التقرير يعود إلى عام 1967 للحديث عن محاولة انقلابيّة جرت وقتـذاك وقـد (أعطى الدكتاتور أمره بدقّ مسامير في أجساد الضبّاط الذين قادوا الانقلاب وإلصـاقهم

بجدران القصر، ثم نزل بنفسه ليحوّل كلّ واحد منهم إلى غربال لكثرة ما أفرغ فيه من رصاص. وقد عمد إلى ما هو أغرب من ذلك، إذ كان يرفع مسدّسه الموضوع أمامه على مكتبه ليطلق النار على أحد وزرائه عندما يسمع منه قولاً لا يعجبه).

ألقى غسّان بالمجلّة قبل أن يتمّ قراءة التحقيق ليعود إلى رسالة حنان عوّاد، يقرأها بتأنّ وهو يتساءل: هل فرغنا ممّا نحن فيه؟ هل هذا هو فراقنا الأبدي؟ وهل ستكون نيويورك الماموث الذي يلتهم سيّدة قلبي حنان عوّاد؟.

دفع الحساب ثم غادر سالكًا شارع المنصور، وعند تقاطعه بشارع 14 رمضان انعطف يمينًا واجدًا لذّة معينة في التمشّي.. وعندما وصل إلى مكتب التسجيلات الغنائيّة والموسيقيّة الذي يعتاش منه أحد أجمل الملحّنين محمّد جواد أمّوري ويديره بنفسه، ارتأى أن يدخل فوجد عنده ابن مدينته المطرب حسين نعمة الذي حضر من الناصريّة لتسجيل أغنية لحّنها له هذا الملحّن الأصيل، فكان عناق وأسئلة عن الصحّة والأحوال وأخبره أنّه كان في الناصريّة لكنّه لم ير أحدًا عدا رشيد مجيد وأمجد الباقري.

أهداه حسين نعمة آخر أشرطته واعتذر عن دعوته له للعشاء، وعاد إلى شقّته ليندسّ فيها مع أفواج آلامه.

ولم يمضِ على وجوده في شقّته إلاّ بضع دقائق عندما سمع طرقًا على الباب، فكان القادم غيّاث الإبراهيمي الذي كان يردّد:

- هل يعجبك بيت الضبع لهذه الدرجة حتى تعود مبكرًا؟.

فضحك غسّان وهو يردّد:

- ليس إعجابًا ببيت الضبع، ولكن ليس لديّ ما أعمله، ثم إنّ نوبات عشق الانزواء تراودني وهي من علل الشعراء.
- أين كنت؟ مررت بك أكثر من مرّة و لم أجدك؟.

فردّ ببساطة:

- كنت في الناصريّة أنسيت؟ لقد أخبرتك بهذا، ثم ألا ترى رفوف الكتب فارغة؟ لقد حملتها إلى هناك هديّة للمكتبة العامّة!.
- فكرة.
- أوحي لنفسي بأنّني سأسافر بين ليلة وضحاها، هكذا أتحرّر من كلّ هذه الممتلكات البائسة، وإن لم يوافقوا لا يبقى أمامي إلاّ الهرب عن طريق الشمال. وعندما أصل تركيا سأدخل مكتب الأمم المتحدة وأرمي مؤلّفاتي أمام مسؤوليه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

علّها تشفع لي بلجوء إنساني، سياسي، وحتى عاطفي، لا فرق! اللجوء العاطفي فقط له وجهة واحدة هي أميركا، حيث حنان عوّاد.

وقبل أن يجلس غيّاث قال له مستحثًّا:

- ارتدِ ثيابك، سنذهب إلى منزل أبو ريتا، إنّه يقيم دعوة لأصدقائه بمناسبة مغادرته إلى كندا بعد غد.

- كندا مرّة واحدة؟!.

- نعم، هي المتاحة الآن، ولديه شقيقان فيها، كما أنّ أسرة زوجته كلّها فيها تقريبًا..

ولم يكن غسّان قد خلع وقتذاك إلاّ قميصه، لذا عاد لارتدائه فأصبح جاهزًا.

وعندما خرجا سأله غسّان إن كان قد قرأ مقال معن الماجد عن كتابه، فأجاب:

- لقد أطلعني عليه قبل نشره، وليس لي اعتراض إلاّ على نشر صورتي.. فأنا لا أحبّ هذا ولا رغبة لي في إظهار وجهي للناس، النرجسيّة داؤكم أيّها الشعراء!.

ولم يكن منزل أبو ريتا بعيدًا فقد اختاره قريبًا من الكافتريا عندما كانت في أيّام زهوها. وفي مدخل شارع الأميرات تحديدًا، وله حديقة واسعة هي ملتقى ضيوفه وأصدقائه في ليالي الصيف البغداديّة الطويلة.

وكانت الحديقة على سعتها مكتظّة بأصدقاء أبو ريتا وزوجته وحتى أسر زميلات ريتا في المدرسة، وكان هناك أيضًا معن الماجد وعدنان العزيري الذي بادره بالقول:

- ظننتك ما زلت هناك في أمّ هاون؟.

- رجعت، لن أترك بغداد لك وحدك، سأنافسك عليها، أفهمت؟.

وجلسوا على مائدة واحدة، وانضمّ إليهم بعد وقت طارق المنصور الذي ردّ على تساؤل غسّان الهامس إن كان هناك أيّ جديد في قضيّة منعم البصري:

- لا جديد، سوى أنّهم نقلوه إلى سجن أبو غريب؛ والمضحك أنّهم طلبوا منه أن يعنى بالسجناء المرضى؟.

شربوا كثيرًا، وضحكوا كثيرًا، ولكنّهم حزنوا كثيرًا لفراق صديقهم أبو ريتا. وكان صوت عدنان العزيري ينطلق:

- كندا مرّة واحدة؟ قل القاهرة، عمّان، الكويت؟ حتى نحلم بلقاء، أمّا كندا فكيف الوصول إلى حماها وليس في الجيب ثمن التذكرة؟!.

ممّا جعل أبو ريتا يردّ بنبرة صدق:

- لو مضت الأمور كما خطّطت لها.. أعدكم كلّكم بأن أرسل لكم تذاكر السفر لتحلّوا في مونتريال ضيوفًا عليّ!.

وهنا رفع عدنان سبّابتيه إلى أعلى، وتطلّع إلى السماء وهو يردّد الدعاء الذي أصبح لازمة له في الأيّام الأخيرة، وكأنّه عجوز مصريّة:

- أشوف فيك يوم!.

ولّما كان غيّاث لم يسمع هذا الدعاء من قبل بادر بالسؤال:

- من هو هذا الذي تتمنّى تشوف فيه يوم؟.

- لا تتدخّل في ما لا يعنيك، هذا دعاء بيني وبين ربّ العالمين.

أوصله عدنان العزيري إلى منزله الذي كان يردّد:

- تجاوزت هذه الليلة كل المحرّمات والممنوعات، شربت كثيرًا وأكلت كثيرًا وسهرت طويلاً وقد.. انتبه إلى قد هذه، أفعلها هناك في البيت إذا كانت المدام صاحية. ولا تستغرب إن وجدوني ميتًا في فراشي صباح غد!.

- يومك بعيد أيّها العذب، ووجودك لا يعني بغداد. بل قل والعراق كلّه. فبدونك وبدون الأصدقاء الجميلين لكان الانتحار أجدى.

وعندما قال له بأنّه سيمرّ به صباح غد، أخبره بأنّه سيرافق زيد الحبيب للكلّيّة لتقديم الكتب الهديّة إلى العميد. ثم أضاف:

- سأحرّرك منّي غدًا، وإذا حصل وفعلتها الليلة ستظلّ في فراشك حتمًا طيلة يوم غد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- 56 -

وصل الدكتور زيد الحبيب مبكرًا إلى شقّة غسّان، وسرعان ما تهالك على الكنبة التي لا يملك عداها لجلوس أصدقائه وأحيانًا لنومه أوقات الظهيرة.

بقي زيد منضبطًا في مواعيده منذ أن تعارفا في بداية الستينيّات، وكان زيد وقتها طالبًا في كلية الحقوق، وكان أصدقاؤه يصفونه بالجندي المحترف في دقّة مواعيده، محاضرة هنا، ندوة، مناقشة رسالة هناك. ورغم الإنهاك الجسدي الذي سكنه وهو في بداية شبابه بعد أن ترهّل جسده، و لم يعد ذلك الممشوق الأنيق الذي يجيد تحريك حاجبيه فترقص نظارته الطبيّة، ومنذ أن ضمّهما لقاء من لقاءات مقهى البلدية في سنوات زهوها أصبحا صديقين متلازمين.

لم يكن غسّان عندما فتح الباب قد دقق النظر في وجه صاحبه، ولكن بعد أن جاءه بفنجان القهوة لاحظ أنّ وجهه الأحمر المرشوش بنمش طفيف قد امتقع وكسته صفرة غريبة، وبدت نظارته الطبيّة وكأنّها أكبر من وجهه لذا هبطت لترتكز على منتصف أنفه.

وعندما تكلّم تأكّد غسّان من إجهاد صوته أنّه يعاني من مشكل صحّي كما أخبرته زوجته، لذا خاطبه:

- لو كنت أعرف أنّك على هذا الحال لأرجأت إيصال الكتب للكلّيّة!.
- لا، أنا الآن بخير تحسّنت كثيرًا، كدت أموت بسبب الوزن اللعين. ليس لديهم ما يفعلونه إلاّ ملاحقة الناس بأوزانها، إسهال وقيء وصداع وهبوط حاد في الضغط.. لو لم يلحق شقيق زوجتي الطبيب ويسعفني لكنت الآن في عداد الأموات؟.

وردّد غسّان باستغراب:

- كل هذا من أجل إنقاص الوزن؟.
- نعم، نعم، والمصيبة أنّني لم أفقد بعد كل هذا الانتحار إلاّ كيلوين اثنين! ولذا رسبت، ومعنى هذا أنّني سأنقص درجة وظيفية، وبدلاً من رئاسة قسم الإعلام سأكون مدرسًا!.
- وشهادة الدكتوراه في الإعلام؟.
- أمسح بها مؤخّرتي.

نهض غسّان وهو يقول:

- لن أتأخّر، البنطلون جاهز، ولكن أقول لك تعليقًا على كل هذه المسرحيات السوداء التي يدخلوننا فيها، إنّني أنقذت نفسي من قانون الوزن هذا عندما خرجت من الوظيفة، ومع هذا أحس بالرعب.. فقد يرى أحدهم أن تطبيقه يجب أن يكون على كل العراقيين ويعتبرونه قرارًا وطنيًا لترشيق الشعب!.
- أنا معك. في الجيش ممكن؛ لكن في الوظائف العادية لماذا؟.

وبعد أن فرغ غسّان من ارتداء ثيابه، خرج لينادي على البواب صلاح الذي يبكّر عادة ليجلس على كرسي أمام باب العمارة وبيده كأس كبيرة مليئة بالشاي، حتى يساعده في إنزال صناديق الكتب الأربعة إلى السيارة ورافقه صلاح ومعه شاب مصري آخر كان يشاركه جلسته.

وتمّ نقل الصناديق بسرعة لتنطلق بهما السيارة. قال زيد بصوته المجهد والساخر معًا:

- حضرت هذا الأسبوع اجتماعًا في وزارة الثقافة بصفتي الأدبيّة، وقد دعي للاجتماع عدد كبير من المتعاطين في الشأن الأدبي.. لماذا لم تأتِ؟.
- لم يدعُني أحد، أنا الآن خارج المعادلة!.
- أحسن.

وبعد أن صفن قليلاً، قال:

- كان اللقاء أشبه بالكوميديا السوداء، لم يكن أحد من الحاضرين يعرف أنّ دعوتهم من أجل أن يتحدّث الوزير عن الجائزة التي استحدثت في البلد أسوة بجوائز عربية مثل جائزة الملك فيصل في السعودية والشيخ سلطان العويس في الإمارات، وتمنح سنويًا تزامنًا مع مهرجان المربد لخمسة أدباء وباحثين ونقّاد.

سعل ثم بلع ريقه وزفر قبل أن يطلق شتيمة على سائق أراد تجاوزه من اليمين، ثم قال:

- كأنّ الجلسة مكرّسة لشتم عبد الوهاب البياتي دون غيره، رغم أنّ الرجل لم يطمح بهذه الجائزة أو يفكّر فيها. أتدري ماذا قال؟ ألم أقل لك إنّها كوميديا سوداء؟ قال بأنّ عددًا من النقّاد اقترحوا عليه أن تمنح للشاعر إيّاه فهو مشهور عالميًّا وعربيًّا، فأجبتهم:
- طز بيه وبشعره الذي يكتبه في مواخير أوروبا!.
- معقول؟!.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- هذا ما قاله بالحرف، وليردفه بقوله إنّه يعتبر كلّ قصيدة يكتبها شاب عن القادسيّة تساوي كلّ ما كتبه هذا الشاعر طيلة سنوات عمره!.

وصفّق غسّان بيديه ثم هزّ رأسه حيرة وغضبًا، قبل أن يقول:

- هذا إسفاف في القول وإساءة للرموز الكبيرة التي تحمل اسم العراق، كأنّهم مصرّون على خسارة المزيد من الأسماء الكبيرة هكذا مجانًا. أسماء لا يمكن تعويضها إلاّ إذا رأوا أنّ سهيل صبري أهل لهذا الدور، رغم أنّه في قرارته مقتنع بأنّه يضحك عليهم؟.

- لا أدري إلى أين نحن ذاهبون؟ وكيف يمكن إيقاف هذا الاستخفاف بإبداع البلد؟.

وعندما وصلوا إلى الكلّية، أوقف زيد سيارته في المرآب الخاص بسيارات المدرّسين، وتوجّهوا نحو مكتب العميد الذي نهض للترحيب بهما ما إن أخبرته السكرتيرة بقدومهما. وكان العميد من الباحثين المعروفين في التراث الأدبي العربي، وله عدد من دواوين الشعر العمودي المنشورة منذ سنواته الجامعيّة.

وبعد أن احتسيا الشاي، قال غسّان:

- دكتور، لا أريد أن آخذ من وقتك الكثير. لقد جئتكم بهدية لمكتبة قسم الدراسات العليا أربعة صناديق من الكتب المراجع!.

ثم مدّ له قائمة بأسماء الكتب، وأخذ العميد يقرأها وقبل أن يفرغ من ذلك، قال:

- مبادرة جميلة لم يقم بمثلها أديب غيرك، شكرًا. شكرًا.

وقال زيد:

- الكتب في سيارتي، نحتاج إلى من ينقلها إلى المكتبة.

وردّد العميد:

- حالاً.

ثم ضغط على جرس جواره وعندما دخلت عليه السكرتيرة قال لها:

- هناك كتب في سيارة الدكتور زيد، ارسلي اثنين من الفرّاشين الشباب ليأتوا بها إلى هنا.

- أمرك.

ثم نهض زيد ليفتح باب السيارة لمن يحمل الكتب، وبقي غسّان في غرفة العميد الذي بادره بالقول ما إن أصبحا لوحدهما:

- أستاذ غسّان، اطلب أي مبلغٍ مقابل هذه الثروة من الكتب التي لن نحصل عليها بسهولة، وسأصرفه لك حالاً، فلديّ صلاحية كاملة بهذا!.

وابتسم غسّان وهو يقول:

- يا دكتور. هي هدية لمكتبة الكلّية. وقد كتبت الإهداء على كلّ نسخة لتبقى ذكرى، فكيف آخذ ثمنها؟.

وسكت العميد بعد أن ردّد المزيد من كلمات الثناء والشُكر. ثم قال:

- سنكتب لك كتاب شكر يوصله لك الدكتور زيد:

- كتاب الشكر أقبله وأُسعد به.

وعندما عاد زيد استأذن بالخروج ودخلا وسط اكتظاظ الطلبة في الممرّات، وشقّا طريقهما بصعوبة، قال زيد:

- لديَّ محاضرة بعد عشر دقائق، أتريد أن تنتظرني في مكتبي حتى أنتهي منها؟.

- إبق مع طلبتك، وسأخرج إلى حيث لا وجهة، سأتبعثر في هذه الشوارع التي كانت لي فيها أجمل الذكريات أيّام الجامعة.

وقبل أن يودّع صاحبه خرج عليهما سهيل صبري من وسط اكتظاظ الطلبة وهو يحمل بيده ملفًا، واندفع نحوهما مصافحًا وأخبرهما أنّه يهيّئ أوراقه للدخول في قسم الدراسات العليا، ثم توجّه إلى غسّان بالسؤال العاتب لأنّه لم يره منذ ليلة زواجه؟ ولم يعرف بماذا يردّ عليه، ثم سأله إن كان يرغب في أن يوصله بسيارته إلى أي مكان يريد؟.

فوافق غسّان بينما انصرف زيد وهو يقول له:

- ستركب المرسيدس بدلاً من سيارتي الفوكس واغن «البرشقة»!.

ثم رجع ليهمس في إذن غسّان:

- ومتى أنهى دراسته الدنيا وفي أية كلّية حتى يتقدّم إلى الدراسات العليا؟.

- علمي علمك فأنت رئيس قسم.

- سابقًا. وقبل الوزن.

ثم ضحكا، وبقي غسّان واقفًا بانتظار عودة سهيل صبري الذي عاد بالاندفاعة نفسها وهو يخاطب غسّانًا من مسافة:

- هيّا، لنذهب.

- هل سلّمت الملف؟.

- طبعًا، أكو ابن قحبة لا يستلمه منّي، وعليه تواقيع السماء والأرض؟.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وفهم غسّان قصده.

ثم انطلقت بهما سيارة المرسيدس البيضاء، سأله غسّان عن زواجه الجديد، فضحك وقال:

- أنا مدمن زواج، هل تصدّق أنّي وفي هذه السن التي لم تصل إلى الثلاثين تزوّجت عدّة مرات، ولن أذكر لك الرقم فربّما تعتقد أنّي أبالغ، هناك زيجات معلنة وأخرى شبه سرّية.

نظر إلى ساعته ليعرف الوقت قبل أن يقول:

- أعرف أنّك متقاعد وليس لديك ما تفعله! ما رأيك بأن أدعوك على فنجان قهوة في فندق الرشيد؟.

وقبل غسّان الدعوة منساقًا وراء فضول لا يرتوي يحسه كلّما رأى سهيل صبري، علّه يدرك شيئًا من حجم الأسرار التي تردّد عنه، لا في الوسط الثقافي فقط، بل وبين عدد كبير من الذين عرفوه يومًا.

كان غسّان يجلس بجانبه وهو يقود السيارة بسرعة مطلقًا الشتائم والكلام البذيء على كل من يضايقه في الطريق. وعندما وصلوا إلى فندق الرشيد أوقف سيارته أمام الباب مباشرة. ولم يعترض أحد على ذلك.

وتوجها نحو كافتريا الفندق التي بكّر بعض روّادها في المجيء لقتل الحرارة واحتساء البيرة والثرثرة.

طلب غسّان قهوة. أمّا سهيل فطلب بيرة بعد أن سأله: لماذا لا يطلب بيرة؟.

وكان جوابه:

- شربت البارحة كثيرًا، صديقنا أبو ريتا صاحب كافتريا المنصور سيغادر إلى كندا.
- ولماذا؟ شغله ماشي هنا؟.
- أي شغل؟ لقد أزاحوا قسمها الأمامي المطلّ على الشارع فاضطرّ لبيع الباقي، وتحول بين ليلة وضحاها إلى محل أحذية.
- والله لم أسمع، ولو عرفت لحاولت أن ألغي الموضوع.
- على أية حال هذا أمر فات وقته، وأبو ريتا قادر على أن يبدأ دائمًا، هذه حكمة تعلمتها من اللبنانيين. وأنا الآن وبعد الأربعين جاهز تمامًا لأبدأ من الصفر.

لمس الزجاجة وأعادها للنادل:

- هذه ليست باردة، أريد بيرة مثلجة، أفهمت؟.
- حاضر يا بيه.

إذ كان النادل من الشباب المصريين.

وعندما حضرت البيرة سكب في كأسه وأفرغها في جوفه دفعة واحدة. ثم قال:

- وصلتني رسالة طويلة قبل أيّام من نصري الأسمر حدّثني فيها عن إقامته المثمرة ثقافيًا - كما سمّاها، في أميركا.. أمسيات شعرية، محاضرات. وقد يصدر جريدته الشعرية «الأدويسيه» من هناك أسوة باللبنانيين الروّاد.

وعلّق غسّان:

- لم يكن أمامه إلاّ أن يلحق بزوجته التي اختارت الهجرة حيث أسرتها. كما أنّه لم يكن يفعل شيئًا كبيرًا وهو يذهب صباح كل يوم إلى مكتبه الصغير في صربا ليترجم ويساهم في وضع الكتب المدرسيّة.. يفعل هذا ليعيش فقط!.

كان سهيل آنذاك يرتدي بدلة كاملة وربطة عنق لعلّ أحدًا من الجهات العليا يطلبه، فهو بدرجة مدير عام ويرأس تنظيمًا ثقافيًا، وانتبه غسّان إلى الصلع المبكّر الذي غزا جبينه فتركه واسعًا لماعًا كأنّه مطلي بالزيت، وكان قد حلق وجهه بعناية مع تشذيب أنيق لشاربيه الناعمين.

أخذ يتأمّله وهو يشرب البيرة بسرعة ليطلب زجاجة ثانية، وتساءل في سرّه:

- ما الذي فيه حتى اقتنع به رئيس الدولة وفي البلد أدباء مهمّون فعلاً؟ هل الشعر وحده يكفي؟ أم أنّ لدى هذا الفتى مواهب أخرى؟.

وكان غسّان عندما يطلق تساؤلاته يحسّ في داخله بأنّه ليس ضدّه، بل إنّه حائر في أمره فقط.

قطع سهيل صمت جليسه بقوله:

- يارا داغر سعيدة بزواجها هكذا علمت.
- كيف عرفت؟.
- أنا اليوم على علاقة قوّية بوالدها، ولكن علاقتنا صارت تجارية، لدينا مصالح مشتركة، وهناك مشروع لإقامة مصنع مشترك بيني وبينه للصابون ومواد التنظيف.

ووجد غسّان نفسه وهو يقهقه بصوت عال لم يعتده، ممّا جعل الحاضرين يلتفتون إليه بشيء من الاستغراب.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- وما العلاقة بين الشعر ومواد التنظيف؟.
- هناك علاقة، الشعر يأتي بالأموال التي ننشئ بها مصانع مواد التنظيف.

كان جوابه سهلاً، وكأنّه يركّب معادلة بسيطة لا تحتاج إلى خبير لحلّها. ثم قال:

- عليك أن تصحو يا غسّان يا شاعرنا الكبير، ادخل في اللعبة، كن جزءًا منها، لا تكن متفرّجًا.. فالمتفرّجون يدفعون ولا يأخذون.

وردّد غسّان بهدوء وهو يرتشف ما تبقّى في كوب القهوة الكبير.

- أنا نسيج آخر يا سهيل، ولا أريد أن أدخل إلى ما سميتها باللعبة أبدًا، ولو فعلت ذلك لن أكون غسّان العامري، وسينقلب كل ما آمنت به إلى نقيضه، سأبدو مهرّجًا فاشلاً.. أنا غير هذا، حتى وأنا موظف دبلوماسي كنت أمينًا على ما كنت أسمّيه ثوابتي.
- على أية حال لست وحدك من له هذا الرأي، عبد الوهاب البياتي كذلك، حتى أصحابك العزيري ومعن الماجد وحيدر الخلف، أنتم جديرون بأن تكونوا في حال أفضل، ولكنّكم تراوحون في مكان واحد.
- مع أنّني لا أحسّ إلاّ بهرقليّة عجيبة تغمر روحي قبل جسدي.
- يا أستاذي، هناك نهب، هكذا أسمّيه، ومن يقدر فليفعل، هذا ما فهمته منذ أن وطأت قدماي الجامعة المستنصريّة لأقرأ قصيدتي أمام وليّ نعمتي حفظه الله، ولم يكن في جيب بنطلوني الجينز آنذاك إلاّ أقلّ من نصف دينار، وبعد أن قرأت استلمت أوّل ألف دينار وأوّل بدلتين في حياتي.
- سرّني أنّك تقول كلّ هذا، ولكنّ عليك أن تعرف بأنّك مكروه، بعض أدباء البلد يودون لو يقطّعونك بأسنانهم.. أنت دخيل عليهم، هكذا يرونك، ولم تدخل الحياة الأدبية بشكل طبيعي وتنمو من خلالها، بل أنت أشبه بالعضو الغريب المزروع فيها، ترفضه ولكنّها تتظاهر بتقبّله خوفًا

وضحك سهيل بانتشاء وهو يعلّق:

- كل الذي تقوله أعرفه، ولذا أحاول إذلال كل من أقرأ الكراهية تجاهي في عينيه، أو ينقل لي أحدهم كلامًا مسيئًا نطق به عنّي، أفعل هذا ما دمت أتحرّك تحت غطاء، وهم يتحرّكون فرادى دون غطاء.

ثم طلب زجاجة بيرة جديدة وهو مسترخ، غير آبه بكلّ ما يقال عنه ما دام سيّده ووليّ نعمته راضيًا عنه.

وسأل غسّانًا:

- حدثني عنك؟.
- كما تراني أنتظر أن أسافر، لا أدري إلى أين؟ ولكن لا معنى لبقائي هنا!.
- حنان عواد في أميركا، لماذا لا تلحق بها؟.
- هل الأمور بهذه السهولة؟
- أخبرني نصري في رسالته أنّه رآها في نيويورك في لقاء ثقافي لبناني!.
- صحيح، وتحاول أن تحصل على البطاقة الخضراء تمهيدًا للجنسية، وهذا حقّها!.
- أما زلت في الشقّة نفسها؟
- وإلى أين أذهب؟ صديقي غياث الإبراهيمي يسمّي شقّتي هذه «بيت الضبع»، أنا في بيت الضبع حتى يأتي ما يخالف ذلك.

وهنا قال سهيل وكأنّه تذكر أمرًا فاته:

- اسمع. لديَّ قصر كبير في طريق المطار. فيه كلّ ما يحتاج المرء، مؤثّث بأحدث الموبيليا والأجهزة الكهربائيّة، ولا أذهب إليه إلاّ مرّة أو مرّتين في الأسبوع مع إحدى صديقاتي، فلماذا لا تتحوّل وتسكن فيه.. ودع عنك بيت الضبع؟.

وكأنّ ما فاه به خنجر مسموم انغرس في قلبه، خنجر غدر لم يتوقّعه. ولم يأخذ حذره منه، اصفرّ وجهه، ازرقّ، ثم احمرّ، ارتجف فكّاه حتى صارا يضربان بعضهما. كأنّ نظام جسده اختلّ، وارتبكت الحواسّ، وتداخلت أدوارها. وأخذت يداه تضربان على الطاولة بهدوء أوّلاً، ثم بسرعة محاولاً أن يجمع نثاره فلم يستطع، حتى جاءه صوت سهيل المتسائل:

- أستاذ غسّان، ما بك؟.

وهنا انفجرت حنجرة غسّان بقهقهة غريبة، صارت تعلو وتعلو حتى استدارت كل أعناق الجالسين وتوجّهت نحوه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

غسّان ووالده في صورة تعود إلى الخمسينات، كان الحاج جابر العامري بكامل أناقته، عباءة من الصوف الناعم وعقال شطري وشماغ. وكان يطوي ذراعه الخارجة من فتحة العباءة على ولده البكر، فهو بداية امتداد جذوره وتواصل نسله.

هذه الصورة حلّت مكان صورته الخالدة التي التقطها زكريان في ليلة عرسه بالكاميرا، التي كانت تعدّ متطوّرة قياسًا إلى الكاميرات التي يملكها وقتذاك أصحاب ستوديوات التصوير ببغداد. وقد رتّشها وصقلها قبل أن يقوم بطبعها ليبدو فيها وكأنّه أصغر من عمره بخمس سنين.

وقد أخفى غسّان الصورة في حقيبة فارغة داخل مظروف كبير، وقد ارتاح عدنان العزيري لإزاحتها، وكأنّه يشعر بالندّية تجاهها رغم أنّ غسّانًا شاكسه بقوله:

- أنت تغار من صورتي لأنّ وسامتي فيها كانت طاغية!
- أيّة وسامة!. وأنت معيديّ نزل عن حماره ودخل المدينة مأخوذًا بما يرى؟

زكريان هناك، حنان عوّاد أيضًا، ثم نصري الأسمر نزيل كاليفورنيا ومنها ينطّ من ولاية إلى أخرى ليحاضر ويقرأ الشعر ولبنان لم يغادره. لكنّه لا يحمل الحلم اللّبناني الأبدي بالثروة والجاه. حلمه الشعر وإعجاب النساء، حنان عوّاد وصلت لتبقى، ربّما ستقترن يومًا بأميركي متغطرس، ينشدّ إلى سمرتها الدافئة وأمواج شعرها الهندية، وربّما ستبقى لاهثة وراء فرصة ما. من أجل أن تأكل وتتطبّب إن مرضت وتدّخر القليل من المال ذخرًا ليوم صعب.

زكريان لا يعلم، ولا يهمّه أن يعلم بأنّ نهري العراق العظيمين دجلة والفرات ينبعان من أرض أرمينيا وليس من الأراضي التركية، ولكنّ الحدود تداخلت. والقوّي زحف على أراضي من هو أضعف منه فضاع كل شيء، وأصبح ما كان لهذا ملكًا لذاك، حتى تاريخ أرمينيا مسخ وضاع وحلّ محلّه تاريخ السلاطين وفتوحاتهم ومذابحهم، هل في هذا الخبر مفاجأة له كما كان مفاجأة لغسّان عندما عرف به؟.

تناول غسّان غداءه في بيته، بيضة مسلوقة وفخذ دجاجة مشوية أخرجه من الثلاجة وسخّنه، ثم صحنًا من البطيخ وكأس لبن حتى أحسّ بكرشه قد انتفخ.

وقد وجد ورقة تركها له غيّاث الإبراهيمي تحت الباب يخبره فيها أنّه مدعوّ للعشاء عنده هذه الليلة مع أصدقاء آخرين، وأنّه في انتظاره بعد الساعة الثامنة.

ردّد غسّان:

- لولا هؤلاء الأصدقاء كيف سأعيش؟ وكيف ستكون حياتي؟.

وهنا تذكر أبا ريتا فشعر بالألم لرحيله، فقد كان الرجل بالنسبة له إحدى المظلات الوارفة في هذه المدينة التي أصبحت غريبة عليه كما هو غريب عليها.

بعد أن غسل يديه تمدّد فوق الكنبة بثيابه الداخلية، ثم فتح جريدة «الثورة» ليقرأ مقالة عدنان العزيري عن كتاب «البارود في الحلق» الذي ترجمه غياث الإبراهيمي، وأسعدته هذه الحفاوة التي قوبل بها كتاب صديقه، وكان غياث قد أخبره أنّ الناشر لم يكن يتوقّع له هذا الانتشار، إذ بيع أكثر من نصف المطبوع منه خلال فترة تقلّ عن الشهر.

وكان عدنان العزيري متحمّسًا للكتاب مؤكّدًا أنّ مشاكل أميركا اللاتينية من خلال نموذج بوليفيا هي قريبة الشبه بمشاكلنا نحن العرب، إذ نعدّ كلّنا من بلدان العالم الثالث رغم بعد المسافة الجغرافية.

اكتشف غسّان أنّه ومنذ عودته من الناصرية ومعرفته بأنّه مرصود، أصبح مرتبكًا ما دام هناك من يتابعه ويطلب معلومات عنه رغم أنّه قد غادر مسقط رأسه منذ أكثر من ربع قرن، صار متوترًا، يسكنه خوف لا يستطيع تحديده. كما أنّه لا يعرف إن كان هناك من يتابعه فهو لا ينتبه إلى ما حوله، ولم يشكّ في أي تصرّف تجاهه من الآخرين.

لكنّه لم يستغرب. فالذي يسأل عن الاتّجاهات السياسيّة للموتى من المتوقّع جدًا أن يسأل عن الأحياء حيث لا يسلم حتى الضباط أو من عملوا كدبلوماسيين من هذا، وبرز أمامه مثال الدكتور منعم البصري المحجوز في سجن أبي غريب ليقوم بمعالجة المرضى من السجناء دون أن يعرف التهمة التي جعلتهم يفعلون هذا به، وبقي كل ما جرى في باب التخمينات ليس إلاّ، لا بل إنّ كلّ يوم جديد يأتي بإشاعة جديدة، حتى جاء من يؤكّد أنّهم أعدموه وسلّموا جثّته لزوجته الفرنسية، ثم أمروها بأن تغادر العراق بعد دفنه.

فتح الراديو فكان هناك برنامج ثقافي، فيه أخبار عن إصدارات وبينها ديوان لشاعر بصريّ، وكان غسّان قد ارتبط معه بصداقة، ونظرًا لكونه عضوًا في الحزب الحاكم عيّن ذات يوم دبلوماسيًا في بلد عربي مغاربي. ولم يمرّ بمرحلة بغداد بل تحوّل من البصرة إلى ذلك البلد. لكنّه عندما نقل إلى بغداد بعد خمس سنوات من العمل في ذلك البلد أصيب بالصدمة، وكان أمر النقل كارثة انتزعته من حلم طويل، حيث عاش مرفّهًا هو وأسرته. وعندما حلّ ببغداد أصبح كلّ همّه أن يجد الفرصة ثانية للعودة إلى مكانه الأوّل أو أي عاصمة أخرى، لذا أخذ يكتب عن أيّة مناسبة ثلاث قصائد يوزّعها على الجرائد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الثلاث المعروفة، واحدة لـ «الجمهورية» وأخرى لـ «الثورة» وثالثة لـ «العراق» فتظهر القصائد الثلاث في الوقت نفسه حتى أصبحت حالته موضوعًا للتندّر بين الشعراء. ولكنّه لم يأبه لما يسمعه فقد كان يخطّط لمسألة أبعد لا يدركها أحد منهم.

وقد نصحه غسّان مرّة عندما التقاه في شارع المتنبي:

- لا تقدّم كلّ أوراقك دفعة واحدة حتى لا تبدو متهالكًا؟.

وكأنّه لم ينصت لهذه النصيحة الصادقة عندما أجاب:

- لا يهمّني ما يقال. ويوم نشر قصائدي أطلب من زوجتي وأولادي أن يصلّوا ويدعوا ربّهم، علّ عين من بيده أمر البلاد والعباد تقع عليها فيبعث عليّ ويكرّمني، وعندما يسألني عن طلباتي لن يكون لي أي مطلب إلاّ العودة للعمل الدبلوماسي.

لكنّ العين التي ظلّ يحلم بأن تقع يومًا على قصائده لم تقع، ولم تنتبه أبدًا.

بعد أن انتهى البرنامج أغلق الراديو وحاول أن ينام، فالعشاء في بيت غياث الإبراهيمي يعني الشرب والسهر حتى الثانية بعد منتصف الليل. ولكنّه ومنذ عودته أصبح نومه قلقًا، صار يحسب للخطوات التي تقترب من الباب حسابها، وكان يحسّ بأنّه يجب أن يعيش وبالطريقة التي يختارها؛ ولا يريد أن يقيَّد ويُرمى في المجهول مثل حالة منعم البصري فيتحوّل إلى لغز ومشجب للشائعات والأقاويل.

تطلّع إلى رفوف الكتب الفارغة التي لم تبق فيها إلاّ عناوين قليلة، وهذا يولّد في داخله راحة كبيرة إذ هي تشكّل بصورة أو أخرى إيحاء بالسفر القريب إلى امتدادات الأرض الواسعة. أمّا ملابسه الزائدة فسيهديها لأخيه وأبنائه ولصلاح البواب وجيرانه من العمّال المصريين ليسافر بحقيبة صغيرة فقط.

وبدأ بتقليب الأشرطة المركونة جوار جهاز الراديو كاسيت. واختار فيروز في آخر شريط حملته معها حنان عوّاد، ضغط عليه فانطلق الصوت الآلهي:

- سافرت البحار

لم تأخذ السفينة

وأنت كالنهار

تشرق في المدينة

ولم يستطع تحمّل ما يسمعه، فقد كان الصوت والشعر يوجعانه، ما دام لم يسافر، ولم ينطلق، بل هو أسير مكانه، أمّا هنا فالهبات متواصلة للشعراء إيّاهم، فبعد الأموال والسيارات والبيوت انضافت أجهزة التليفزيون. وروى منذر الجبوري وهو أحد الشعراء الظرفاء أنّه عندما جاء إلى بيته بجهاز التليفزيون الهدية، قالت له زوجته:

- يا الله شِدْ حيلك، وسوّي قصيدة جديدة. حتى يعطوك ثلاجة فثلاجتنا صارت قديمة!.

وضحك من قلبه عندما تذكّر هذه الحكاية لا سيّما وأنّ الشاعر منذر الجبّوري الذي حصلت له كان يرويها بطرافة وخفة دم عُرف بهما.

نهض نحو الثلاّجة وشرب كأس ماء، ثم توجّه إلى الطبّاخ الغازي ليعدّ فنجان قهوته المسائي. قبل غلق كافتريا المنصور كان يتناوله فيها غالبًا، أمّا اليوم فيعدّ فنجانه في بيته.. فقهوة مقهى فندق الساحة لا طعم لها.

جلس وأمامه فنجان القهوة، ساقاه المشعّرتان العاريتان تتمدّدان أمامه، وهو يحرّكهما وكأنّه يتناغم مع لحن متماوج. ووجد شفتيه تتحرّكان معه. أمّا اللحن فهو لأغنية كارم محمود «مشغول عليك مشغول» التي كان يسمعها مع حنان عوّاد عندما يكونان في سيّارته وهما يجوبان الطرق الجبليّة هائمين. حتى أنّها صارت تبثّها من الإذاعة كلّما كانت تقدّم حصّتها في البثّ المباشر. وقالت له:

- عندما تسمعها اعرف أنّها مهداة لك، ومعها بوسة وكلمة بحبك!.

سكّر قليل، وبنّ كثير، مع حبّة هال يفركها بأصابعه لتغلي مع الماء وتترك رائحتها قبل أن يضع البنّ.

عندما تفوح رائحة القهوة تصهل الأعماق ويتحوّل الجسد المتعب إلى حصان في حمأة طراد.

ارتدى ثيابه وغادر شقّته نازلاً سلالم العمارة بسرعة، لا يدري لماذا يسرع هكذا وكأنّ لديه موعدًا هامًا تأخر عنه.

قابله صلاح بتحيّته المصريّة الودودة:

- إزايّك أستاذ غسّان؟ عامل إيه؟.

ثم أخذ طريقه باتّجاه شارع 14 رمضان، وهناك قابله عبد الستار ناصر، فمضيا باتّجاه المنصور، وبعد سؤال عن الأحوال قال عبد الستار:

- أبحث عن صيدلية. لا بدّ من شراء دواء الضغط لأمّي!.
- وهل تقيم قريبًا؟.
- مع أمّي في أوّل منطقة إسكان غربي بغداد، جئت لأقيم معها بعد طلاق زوجتي الثالثة الصابئيّة، خيّرني أخوها إمّا أن أطلّقها أو أن أسافر معها إلى باريس حيث يقيم، ما دام زواجنا سريًّا لم يعرف به إلاّ قلّة من الأصدقاء!.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- وقد اخترت الطلاق؟.
- طبعًا، فبغداد ليست مدينتي فقط بل أحسّ وكأنّها مرضي المزمن مثل ضغط أمّي. وبعد إطلاق سراحي من سجن قصر النهاية الرهيب كان البعض يتصوّر أنّني سأغادر العراق. ولكنّني بقيت، وجُنّدت وحملت السلاح وأنا لم أذبح دجاجة من قبل.

ثم افترقا ليمضي غسّان في طريقه وعبد الستار إلى الصيدليّة، ولكنّه قال له قبل أن يذهب:

- سأترك لك نسختك من مجموعتي القصصيّة الجديدة في بار المرايا غدًا، ومعها نسخة لعدنان العزيزي طبعًا.

كان غسّان يحثّ خطاه، وهنا جاءته فكرة وألحّت عليه وهي أن يذهب إلى دار والدي أحلام زوجة منعم البصري ما دامت قريبة على مسافة عشرين دقيقة مشيًا في بداية حيّ المأمون.

ثم تساءل: ماذا لو كان هناك من يتابعني ليعرف تحرّكاتي وبمن ألتقي؟.

ورغم كل هذه التساؤلات أصرّ على الذهاب، فهو يعرف الدار حيث كان منعم يوصلها بسيّارته عندما كانا في فترة ما قبل الارتباط.

وعندما وصل قريبًا من الدار توقّف ليستكشف المكان وإن كان هناك من يراقبه، فلم ير غير مجموعة من الأطفال يلعبون الكرة، وهناك سيّارات تنطلق باتّجاه النادي الاجتماعي للضبّاط القريب من البيت.

وقف أمام باب المنزل وضغط الجرس، ولم ينتظر طويلاً حتى خرجت والدة أحلام، وعندما رأته واقفًا عند باب الحديقة عرفته إذ رأته قبل هذا عدّة مرّات في بيت أحلام ومنعم بعد زواجهما. دخلت لتنادي على أحلام التي خرجت لتفتح له الباب.

وقبل أن ينطق بكلمة تحيّة وجد نفسه يشاركها النحيب الذي لم تستطع كبحه.

أدخلته إلى صالة الضيوف فجلس وهو حائر لا يعرف كيف يتصرّف، لكنّه صار يواسيها بكلمات أخويّة صافية، ثم جاءت والدهما لتحيّته وهي تقول:

- هذا حالها منذ اعتقال منعم، إنّني خائفة عليها!.

فقال غسّان:

- عهدي بها قويّة، ومنعم لم يرتكب جريمة.. لا بدّ أنّ هناك خطأ ما في الموضوع؟.

فصاحت:

- أيُّ خطأ يا غسّان؟ هو شخصيّة عامّة. قدّم برامج في التليفزيون، وكان يداوي كبار المسؤولين ويتستّر على أمراضهم، فما الذي حصل؟ هل تكفي لاعتقاله جملة شائعة يردّدها العراقيّون كلّما غضبوا من مسؤول صغير أم كبير: ألعن أبوه وأبو اللي عيّنه؟.

بعد ذلك سألته الوالدة إن كان يحبّ أن يشرب قهوة أم شايًا؟ فردّ:

- شاي.

وقد ترك أحلامًا تُفرغ خزينها من الدموع وهو يجهد من أجل أن يخفّف من مصابها. قالت:

- كل أصدقاء منعم الكبار والصغار الذين لم يكن بيته يفرغ منهم اختفوا. كأنّه لم يكن صديقهم. وأنت الوحيد الذي زارني!.

- أنت تعرفين يا أحلام أنّ منعمًا كان بمثابة أخ لي وليس صديقًا، اهتمّي بابنك، فهو أثمن هدِيّة تشدّكما. بالمناسبة أين هو؟.

- نام قبل مجيئك بحوالى نصف ساعة!.

ثم غادر غسّان عائدًا باتّجاه شارع 14 رمضان جاعلاً خطواته أكثر تمهّلاً حتى عندما يصل إلى منزل غيّاث الإبراهيمي يكون وصوله في الموعد الذي حدّده، تجاوز ساحة «الريسز» عن يمينه واستدار ليسلك شارع الأميرات الواسع الذي يحلو التمشّي به في ساعات المساء، وكم تحدّث عنه جبرا إبراهيم جبرا حتى أنّه سمّى أحد كتبه باسمه.

كانت قدماه تحثانه على مواصلة حفلة المشي المتواصل هذه، كأنّ جسده يناديه ويستحثه على هذا، فقد كان ذات يوم يمارس رياضة الجري حتى في بيروت، على كورنيش المنارة أو ساحة مار تقلا، لأنّه بهذا يحرق ما تكدّس في أوعيته من قهر وثاني أوكسيد كاربون وخوف وقنوط وكسل وكولسترول. أو كأنّه بهذا المشي المتواصل يهرب من شيء فيه، أو من شيء يلاحقه ويجعله يهرب حتى من ظلّه.

كان شارع الأميرات بأشجاره الوارفة هادئًا تقطعه بين الحين والآخر سيارة مسرعة.

ووصل إلى مجموعة عمّال مصريين يشذّبون أشجار الشارع العالية، وعلى مبعدة منهم عمّال آخرون يكنسون الشارع من أوراق الأشجار المتساقطة. انتصب أحدهم واقفًا وهو يسند قامته إلى ذراع المكنسة، وصار يتأمّل غسّانًا وعندما اقترب منه بادر إلى تحيّته فردّ عليه غسّان مبتسمًا، وهو لا يستطيع الجزم إن كان هذا الشاب قد وقف ليسترد أنفاسه قليلاً أم أنّه جار له في عمارة الحاج يندس مع زملائه على الفراش الإسفنجي بإحدى الغرف؟.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

استدار يسارًا بمشية منتشية رغم المشهد المؤلم الذي واجهه في منزل أحلام ومحنتها العصيبة، وهو لا يجد نفسه قادرًا على مدّ يد العون لها.

كان الظلام قد خيّم على الشارع الجانبي واعتلقت أنوار البيوت. وقد تجاوزت الساعة الثامنة بقليل موعده مع غياث الإبراهيمي. كان الهدوء كاملاً في هذا الشارع المعبأ بأشجار اليوكالبتوس والنخيل السامق. ومن وراء أسيجة بيوته تمتدّ أغصان أشجار الحمضيات الحبلى بالثمار.. وفجأة هبّ غسّان، أحسّ وكأنّ هناك من صدمه بدراجته من الخلف بساقه اليمنى. والتفت بشيء من الفزع فإذا بكلب يجري بعيدًا ولم يبدأ النباح إلاّ بعد أن توقّف أمام باب بيت قريب.

انحنى غسّان قليلاً ليتطلّع إلى ساقه فوجد أنّ أسنان الكلب قد اخترقت بنطلونه عندما أراد قضم ربلة ساقه التي بدأ الدم ينزّ منها بقطرات تتكوّن ببطء.

وأكمل غسّان طريقه إلى بيت غياث وهو يرفع بنطلونه إلى أعلى حتى لا يتلوّث بالدم. وكان يضحك في سرِّه من هذا المشهد الذي لم يخطر بباله.

بعد أن ضغط الجرس خرج غياث ليفتح له باب الحديقة التي كانت الجلسة فيها، وعندما رآه وهو يمسك ببنطلونه سأله:

- ما بك؟.

أجابه وهو يضحك:

- عضني كلب جيرانك.

ولم يصدّق غياث ما سمعه، وتصوّر أنّه يمازحه. ومع هذا سأله:

- أيّ كلب؟.

سحبه من يده وهو يشير ناحية البيت:

- أظنّه دخل ذلك البيت.

وهنا قال غياث:

- هذا كلب مدير شركة برازيليّة تعمل في العراق، ولكنّه لم يسبق له أن عض أحدًا من قبل، ويلعب مع أولاد الشارع دائمًا؟.

- ولكنّه اختار أن يعضني عندما أراد أن يجرّب أسنانه وقدرتها على القضم؟.

كان معن الماجد قد وصل قبله بدقائق، لذا خرج. وعندما علم بالخبر أطلق صوته بالضحك لما في الأمر من مفارقة، لذا توجّه له غسّان بالكلام:

- لا تشمت بي، أنا عضني كلب برازيلي مثقّف يتغذّى بالأطعمة المعلّبة.. أمّا أنت فعضك جرذ يعيش في البالوعات القذرة!.

ومع هذا ظلّ معن يضحك وهو يصفّق بيديه. ثم خرجت نادية زوجة غياث مع ولديها. فعلّق الصغير وكان اسمه إبراهيم:

- الكلب اسمه جاك وهو لا يعضّ!.

والتفت غسّان إلى معن ليسأله:

- ما هو اسم الجرذ الذي عضّك؟ أنا عضني كلب محترم اسمه جاك، أنظر الفرق؟.

ومع هذا قال غياث:

- هيا، لنذهب إلى طوارئ مستشفى اليرموك القريب، لا بدّ أن يراك الطبيب.

ورافقهما معن إلى المستشفى وهو ما زال يضحك. ولكنّ غياثًا قال بدعابة:

- يبدو أمورك قد ساءت إلى درجة جعلت هذا الكلب البليد يتجرّأ عليك ويعضّك؟.

فردّ غياث معلّقًا:

- هناك أنواع من الكلاب. أشدّها أذى الكلاب البشريّة، وأظنّك قد نلت كفايتك من عضاتها؟.

وعندما دخلوا العيادة الخارجية أدخلهم الممرّض على الطبيب الليلي الذي فحص أثر الأسنان قائلاً:

- إنّها عضة بسيطة، وسنضمّدها. وأعطيك إبرة للاحتياط.

فشكره غسّان الذي دخل غرفة الطبيب رفقة صديقيه. وعاد الطبيب للقول:

- الواجب في مثل هذه الحالة أن تسجِّل دعوى لدى مركز الشرطة على صاحب الكلب، ولن نعالجك إلاّ بكتاب من المركز.

وهنا قال غياث موضحًا:

- الكلب يعود لمدير شركة برازيليّة وهو جار لي. ولم يسبق للكلب أن عضّ أحدًا؟.

ردّ الطبيب بعد أن زرقه بالإبرة:

- ما دام الكلب لجارك. راقبوه، فإذا مات خلال ثلاثة أيّام فهذا معناه أنّه مريض ويجب أن نزرقك بدورة إبر ضدّ داء الكلب. وهي تُزرق في البطن عادة، أمّا إن بقي حيًّا فلا تهتمّ للموضوع.

وصافحوا الطبيب شاكرين وعادوا إلى البيت وغيّاث يقول له:

- اشرب الويسكي بدون ماء ولا ثلج فهو أحسن معقّم للدم.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وبدأ المدعوُّون بالحضور.. أمّا المناسبة فهي صدور كتاب «البارود في الحلق» الــذي ترجمه غيّاث. وقد وصل عدنان العزيزي متأخرًا وهو يعتذر:

- زوجتي يطاردها كابوس اسمه غسّان العامري، تتصوّر أنّني أتلقّى دورة في العزوبة على يديه، وقد أنسجم معه في حياته فأتشجّع أنا الآخر وأطلّقها؟.

ولكنّه عندما سمع بحكاية عضة الكلب صار يضحك من قلبه، لكنّه التفت إلى معــن الماجد وهو يقول له:

- عضّة كلب برازيلي واسمه جاك أمر فيه وجهة نظر أيضًا. ولكنّها مختلفة تمامًا عن عضّات الجرذان والناس مراتب حتى بالعضّ.

لقد سيطرت عضّة الكلب على كل الجلسة. وقد اضطرّ غسّان لرواية ما جرى عدّة مرّات إذ أنّ كلّ قادم يسأله عن كيفيّة هجوم الكلب عليه! ولماذا لم ينتبه له؟.

وعندما وصل والد نادية زوجة غيّاث وهو طبيب عظام شهير، سمع ما يــدور عــن عضّة الكلب وعضّة الجرذ فسأل:

- هل هناك من عضّة جرذ؟.

ردّ عدنان:

- لا. هناك من عضّ جرذًا؟.

فضحكوا، لكنّ غيّاثًا أخبره:

- حصل هذا لمعن. ولكن حصل العكس، فالجرذ هو الذي مات. وهو كما تــراه في أحسن صحّة وعافية!.

وضحك الدكتور الوقور من قلبه وهو يحاول الاستزادة عن حالة معن وإن كان قــد أخذ علاجًا، فردّ عليه:

- أبدًا، عضّة ثم شفي مكان الجرح ونسيت الأمر و لم أفكّر به!.

- لو جاءتني حالتك لأبقيتك في المستشفى أسبوعًا على الأقلّ؟.

وعلّق عدنان:

- هو ملقّح ضدّ عضّات الجرذان وبنات آوى.

وتواصل ضحكهم الأبيض متناسين ما يدور في البلد الذي تقضم جســده الكــبير عضّات الحرب الجحيميّة المتواصلة، و لم يغادروا منزل غياث إلاّ والساعة قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل. وكانوا منهكين جدًا. ليس من الشراب والسهر بل من الضحك الوافر.

أوصله عدنان وهو يقول له:

- انتظرني غدًا. لا تخرج حتى وإن تأخرت عليك!.
- حرّرني منك غدًا، أريد أن أستجمّ ثلاثة أيام حتى أتأكّد من أنّ الكلب لم يمت!.

وردّ عدنان:

- سأراقب لك البيت، سأعرج من هناك كلّ صباح لأطّلع على أحوال هذا الكلب ابن الكلب!.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- 58 -

صحا غسّان على صوت طرقٍ على باب شقّته، وعندما سأل قبل أن يفتح الباب:

- مَن؟.

جاءه صوت عدنان:

- مَنْ غير أستاذك جاء ليتفقدّك؟.

فتح له الباب مرحّبًا:

- ما هذه المفاجأة؟.

وكان غسّان يرتدي بنطلونًا قصيرًا وأنيقًا ممّا جعل عدنان يعلّق:

- ما هذا؟.

- بنطلون. ألم تر بنطلونًا قصيرًا؟.

- هل هو الزيّ الشعبي في أمّ هاون؟ أو حتى في الناصريّة؟.

- نعم، عندك اعتراض؟

- أعرف أنّهم في أمّ هاون لا يعرفون الملابس الداخليّة، ولذا يرتدون الدشاديش العريضة بدونها؟.

وكانت تعليقات عدنان هذه أمرًا عاديًّا، وعنوانًا لمناكداتهما اليوميّة. بعد ذلك رمى عدنان الجريدة التي كان يطويها في يده. وقال له:

- هل سمعت بيان التليفزيون ليلة أمس؟.

فصاح غسّان ملتاعًا:

- هل توقّفت الحرب؟.

- أيّة حرب؟ هذه الحرب لا تفكّر بانتهائها. ما دام هناك شبّان لم يُقتلوا ومدن لم تُخرّب، لكنّ البيان عن سهيل صبري؟.

- لا، وما به؟.

- هاك، إقرأ.

وفتح له الصفحة التي نُشر فيها البيان، وأخذها غسّان منه ليقرأ البيان الصادر عن ديوان رئاسة الجمهوريّة، وفيه أنّ سهيل صبري المدير العام في المنظّمات الشعبيّة قد اعتدى بالضرب على طبيب في مستشفى مدينة الطبّ أثناء تأديته لواجبه، ممّا اقتضى إلقاء القبض عليه وإحالته إلى المحاكم المختصّة.

وبعد أن فرغ غسّان من قراءة البيان هزّ يده وهو يقول:

- لا أدري، هل المسألة تحتاج إلى بيان من ديوان رئاسة الجمهوريّة؟.

وأضاف عدنان:

- لك أن تتصوّر أنّهم أوقفوا بثّ فيلم السهرة الذي تصدّقوا بــه علــى جمهــور التليفزيون ليبثّوا هذا البيان العجيب، وأعادوه أربع مرّات!.

نهض غسّان وهو يقول:

- سأعدّ القهوة وأغتسل حتى أصحو لأفكّر جيّدًا، لديّ زبدة ومربّى هل تفطر؟.

- الاثنان ممنوعان عليّ طبّيًا.. أنسيت؟ كُلْ أنت. أمّا أنا فأكتفي بالقهوة!.

تناول غسّان فطورًا سريعًا مع قطعة خبز بائتة قام بتسخينها، وشرب بعدها كــأس حليب بارد، ثم وضع ركوة القهوة على النار.

عندما فرغ من إعداد القهوة جاء بالركوة كاملة على الطريقة اللبنانيّــة وبفنجــانين فارغين، وبعد أن بدءا بالاحتساء، قال غسّان:

- لا أدري إن كانوا ينوون البرهنة على مسألة معيّنة من وراء هذا!.

- لعلّهم انتهوا منه. وأنّه قد بالغ في الإساءات متسترًا بمنصبه وعلاقاتــه بالجهــات العليا في البلد؟.

وضحك غسّان وهو يعلّق:

- انتهوا منه؟ سنقول ذلك إذا كانوا قد أخذوا منه شيئًا. ماذا تعني بضعة قصــائد مرّت عابرة ولم يذكرها أحد؟ والصحيح أنّه هو الذي أخذ منهم وربّما كــان هذا البيان في صالحه؟.

- هذا البيان حديث الناس اليوم. كأنّه قد كسر حاجز الخوف. منذ إذاعته وحــتى صباح اليوم تلقّيت عدّة مكالمات شامتة وتتوقّع إنزال المزيد من العقوبات عليه!.

دفع غسّان ظهره إلى الوراء معلّقًا:

- لا أظنّ. لكنّني بشكل أو آخر أرثي له أو قل أتضامن معه. ومســؤوليّة أفعالــه يتحمّلها من شجّعوه عليها وتغاضوا عنه من قبل! هو ضحيّة، فتى مندفع يكتب شعرًا عاديًّا لو أنّهم تركوه ينمو بشكل طبيعي بين أقرانه، يحاورهم يحاورونــه، يشتمهم، يشتمونه. يدرس ويتعلّم، يفعل مثل ما فعلناه، لربّما قدّم شيئًا، أقــول ربّما لأنّني واثق من محدوديّة إمكاناته الشعريّة، موهبته في أمور أخرى لذا فقــد توازنه، أتتذكّر ما سمعناه مرّة أنت وأنا كيف قام بصفع شاعر عربــي يُقــيم في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بغداد وهو في عمر أبيه؟.

- وسمعت أنّه صفع أستاذًا مبجّلاً في كلّيّة الآداب، وقد خشي الرجل حتى من تقديم شكوى عليه لأنّه محميّ والناس تريد الستر، ولا تريد المشاكل خاصّة مع أمثال سهيل صبري!.
- لا تتصوّر أنّني أدافع عنه، لكنّني أسأل الذي جعله يصفع طبيبًا ويعتدي عليه؟ هذا الفتى هو بصورة وأخرى ضحيّة، صدّقني؟.

وهنا قال عدنان يستحثّه:

- هيّا، إلبس لنخرج. ونتوجّه إلى مديريّة الثقافة لنسمع الخبر اليقين وبكثير من التفصيل المملّ!.

وبعد أن ارتدى ثيابه خرجا هابطين السلالم، ثم توجّها نحو السيّارة. قال عدنان قبل أن يدير المحرّك:

- أنا معك.. هناك مبالغة في تكبير حجم الحادث، وربّما فيه رسالة موجّهة إلى جهة ما. لا ندري هذا شغل أمن ومخابرات، ولو لم يكن الحادث أريد به ما لم يكن فيه، لأُلقي القبض عليه وقُدّم للمحاكمة بدون بيان جنجلوتي وكأنّ الحرب انتهت!.

كانت السيّارة تشقّ طريقها، ورغم انتهاء وقت دخول الموظّفين إلى إداراهم، فإنّ الطريق مزدحم بعد أن غرقت مدن العراق كلّها لا بغداد فقط بسيّارات الفوكس واغن البرازيليّة التي توزّع بلا حساب، وكان عدنان لا يكفّ عن إطلاق شتائمه الناريّة كلّما ضايقه أحدهم أثناء السياقة:

- أخو القحبة. كس الأمّ اللي جابتك!.

فيقول له غسّان:

- ما هذا الكلام القبيح في صباح الله الباكر؟.
- وبماذا تريدني أن أخاطب هؤلاء الرعاع الذين يقبضون ثمن أبنائهم وأشقّائهم الشهداء سيّارات برازيليّة؟.
- مع هذا على حفيد جلجامش أن تكون لغته أكثر تهذيبًا.
- كس أمّ جلجامش. أرضيت؟.

فيضحك غسّان ملء صدره وهو يجيبه:

- جدًّا.

وعندما أصبحت السيّارة في الطريق السريع المتوجّه نحو مقبرة الثقافة، كما يحبّ عدنان أن يسمّي مديريّة الثقافة، قال وكأنّه تذكّر شيئًا:

- كلّمني البارحة غيّاث وطلب منّي أن أخبرك أنّ صحّة الكلب أحسن من صحّتي وصحّتك، وهذا يعني أنّك لم تُصَب بداء الكلب.. ولذا سمحت لك بأن تركب سيّارتي وشربت قهوتك.

ردّد غسّان:

- بشّرك الله بالخير!.
- وهل كنت قلقًا فعلاً؟.
- بالطبع.
- على الرّغم من أنّني كنت خائفًا على الكلب المحترم جاك أكثر من خوفي عليك! انظر صاحبك معن الماجد لم تفد معه عضّة جرذ، وإن شاء الله في المرّة القادمة لسعة حيّة كوبرا!.

ويضحك غسّان من قلبه وهو ينصت لتعليقات صاحبه الصباحيّة هذه التي يطلقها ببساطة فكأنّها سجيّة فيه لا يفتعلها!.

سأله غسّان:

- ما سرّ انشراحك اليوم؟ أخبرني!؟.
- ليس هناك سبب. ولا علاقة لهذا بما جرى لسهيل صبري فأنا لا أشمت بمن يقع، ولكن ربّما لأنّ زوجتي تعدّ العدّة لافتتاح مكتبة قرطاسيّة في شارع العمل الشعبي قريبًا من بيتنا. لم أعترض على المشروع، ولكنّ اعتراضي فقط على تخصيص فترة ما بعد الظهر لجلوسي في المكتبة، وحجّتها أنّ الكتابة لم تعد تطعم خبزًا!.
- الحقّ معها. لعلّ المشروع ينجح، لماذا لا؟.
- أنا عدنان العزيري أصبح بائع أقلام ودفاتر!!.
- هذا أمر زوجتك.
- لتغلقها عصرًا، وما تبيعه في الصباح يكفي!.
- اسمع، لا تزعجني، هذا الموضوع حلّه أنت وزوجتك. ودعني أنا!.
- متى أكتب؟ متى أقرأ؟ متى أرى الناس؟.

ثم تطلّع إلى البيوت وبقايا المزارع على جانبي الطريق السريع وعلّق مغيّرًا وجهة الحديث:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- كم تغيّرت الدنيا، الكونكريت يأكل مزارع النخيل والآتي أعظم!.

بعد ذلك لاحت قباب مديريّة الثقافة وقبل أن يوقف محرّك سيّارته في مرآبها، قال:

- اعتبر نفسك لم تسمع بما جرى لسهيل صبري، تظاهر بهذا، لنستمع من الآخرين!.

- اتفقنا.

اختار التوجّه نحو غرفة محرّري مجلّة الأقلام أوّلاً، فوجدا فيها حيدر الخلف، والشاعر الفلسطيني فكري سلّوم المحرّر في المجلّة، ومعهما بعض محرّري المجلّة الآخرين. وكان سهيل صبري كما توقّعوا هو محور حديثهم.

واستمع غسّان وعدنان إلى المزيد من الأحاديث عن تصرّفات سهيل ما دام حاجز الخوف من نفوذه قد انكسر، وبعد الأقلام ذهبا إلى مكتب مجلّة التراث الشعبي فوجدا رئيس تحريرها هاشم عبد العزيز يتحدّث مع اثنين من الموظّفين في الموضوع نفسه.

كان هاشم عبد العزيز أحد المهتمين بنقد القصّة والرواية، وله عدّة كتب نقديّة فيهما.. وسبق له أن كتب عدّة دراسات عن تجربة عدنان العزيري في القصّة والرواية. لذا كان عدنان يناديه بالأستاذ وهو ما يعترض عليه هاشم نفسه. لكن عدنان يردّ:

- كلّ ما نكتبه نضعه بين يديك لتقرأه وتكتب عنه. فنحن ننشد رضاك عنّا يا أستاذ!.

فيقول غسّان بهمس:

- أنت خوش طيز.

- هاشم أستاذك أيضًا!.

- واحد بيك وثلاثة بأستاذك!.

بعد أن يخرج الموظّفان يغلق هاشم الباب ويمسح نظّارته الطبّيّة. فعلّق غسّان وهو يتطلّع إليه:

- هذه المرّة صبغة شعرك ناجحة. كأنّك ابن العشرين والله!.

- هذا شغل الزوجة المصون، صارت تصبغ لي شعري من صبغ شعرها، ربّي يزيد المحبّة!.

وعندما سأله عدنان عن السبب وراء اعتقال سهيل والتشهير به بهذا الشكل، كان ردّه:

- سهيل صبري وما يمثّل لا يساوي عندي قشرة بصل، حكومة وخدمها. هذه هي المعادلة فلتفعل بهم ما تشاء! غدًا يرجعونه إلى عمله وكأنّ شيئًا لم يكن. أمّا ما سمعناه فمجرّد قرصة أذن، أو بعبوص في المؤخّرة، لا فرق.

نطق غسّان:

- جوابك صحيح تمامًا.

ثم توجّه هاشم إلى عدنان يسأله:

- متى تخرج؟.

- بعد قليل.

وأضاف:

- حالتي أنا وأخوك غسّان مثل حالة الشرطي الذي يُحال على التقاعد، هذا الشرطي يظلّ يلازم المقهى المجاور لمركز الشرطة الذي كان يعمل فيه، وربّما يجد في هذا استمرارًا ولو نفسيًّا في ممارسة مهنته الأولى، هكذا نحن، ندور ثم نتوجّه إلى مديريّة الثقافة!.

وقال هاشم موضحًا أسباب سؤاله:

- أريد الذهاب إلى الإذاعة، فهل ستوصلني معك؟.

وهنا هتف عدنان:

- أنت تأمرني، اعتبرني سائقك الخاصّ.

وخرج عدنان وغسّان متوجّهين إلى السيّارة في انتظار أن يلحق بهما هاشم عبد العزيز، وهنا قال غسّان:

- على مهلك حتى لا يصدّق ما تقول.

فالتفت إليه عدنان وهو يقول:

- عليّ مجاملة النقّاد، وهاشم كما تعلم هو تودوروف الأدب العراقي!.

- يعني تُقدّم له رشاوى مسبقة؟

- روايتي على وشك الانتهاء منها، ومن يدري قد يكون هذا القحف خبيرها. وإن لم يكن كذلك فلا بدّ أن يكتب عنها؟.

- تقول عنه قحف؟

- طبعًا. فماذا تريدني أن أقول عنه؟ شجرة موز؟.

ولحق بهما هاشم وهو يحثّ الخطى ويحمل بيمناه حقيبته المعبّأة بالكتب والأوراق ومشاريع البرامج والمقالات والمخطوطات التي تُحال إليه لإبداء الرأي فيها.

قال له غسّان:

- اجلس أنت جوار عدنان، أمّا أنا فسأجلس في الخلف، أريد أن أريح ظهري!.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان هاشم عبد العزيز متوسّط الطول، نحيفًا يميّزه انتفاخ بطنه الذي لا يتلاءم مع نحافته، ولذا كان يدفع ظهره إلى الخلف ليعطي لبطنه حرّيّة الاندلاق أمامه، ومن أجل أن يتوازن كان يمدّ يديه إلى الخلف قليلاً.

بعد أن أخذ كلّ واحد منهما مكانه وتحرّكت السيّارة، تذكّر غسّان المشهد الذي حدّثه عنه حيدر الخلف قبل أشهر عندما ركب هو وهاشم مع عدنان في سيّارته ليحملهما معه إلى الباب الشرقي.

وكانت يد هاشم تتدلّى خلفه وهو يجلس جوار عدنان. وهنا طرأت فكرة لم يتوقّعها أحد في بال حيدر عندما أخرج عضوه ووضعه بيد هاشم فانتفض ملتفتًا وهو في حالة استغراب:

- ما هذا؟.

فردّ عليه حيدر:

- أحببت أن تتلّهى به في الطريق وأن لا تبقى يدك فارغة! اعتبره مسبحة!.

- نذل.

- على أيّة حال أنا أشكرك لأنّك مسكته بيدك وتبرّكت به فهو مقدّس بالنسبة لي.

- نذل، قذارة! سأغسل يديّ بالماء والصابون حتى أنظف وأتطهّر.

وعندما عرف عدنان بما جرى وكان منشغلا بسياقة السيّارة قال:

- لو أنّ هذا حصل في العُزير لاعتُبر مسًّا بالشرف يستحقّ عليه حيدر القتل؟.

فما كان من هاشم إلاّ أن قال له:

- اسكت أبو الهَيْ هَيْ.

تذكّر غسّان الحكاية وانطلق مقهقهًا. فسأله عدنان:

- ما الذي أضحكك؟.

- أبدًا، تذكّرت كيف قام حيدر الخلف بوضع الهديّة الرمزيّة بيد هاشم.

وهنا فهم كلّ من عدنان وهاشم ما عناه فضحكا. ثم قال هاشم:

- لا عتب على حيدر، المهمّ أنّك لا تفعل مثله!.

- أنا أخجل من تصرّفات كهذه. ثم إنّ صاحبي مختبئ!.

وقبل أن تصل السيّارة إلى فندق ميليا منصور لينزل هاشم، قال غسّان بهدوء:

- أتدري بماذا وصفك عدنان؟.

- بماذا؟.

- عندما سألته عن سرّ مجاملته الزائدة لك، قال إنّ روايته اكتملت وأنّه بحاجة لتودوروف الأدب العراقي ووصفك بالقحف!.

فما كان من عدنان إلاّ أن قال:

- لا تشاغب وتوقع بيننا، ثم إنّ القحف يساوي الألوف خاصّة إن وُجد في الحفريّات الأثريّة.. والأستاذ هاشم قحف من جرّة آشوريّة!.

وهنا قال هاشم:

- اعتبر روايتك غير صالحة للنشر. وإن وافق عليها خبير آخر سأتصدّى لها بمقالة نقديّة وأهشّمها!.

فما كان من عدنان إلاّ أن ردّ بسخريّته المعروفة:

- إذا توقّف مصير روايتي عليك فسأعتزل الكتابة. ولن أفكّر فيها!.

فضحك هاشم من قلبه. ثم التفت إلى غسّان متسائلاً:

- أرأيت؟ لن يوقع بيننا أحد، وعدنان صديقي وكنت دائمًا معه!.

وعندما أنزله أمام فندق ميليا منصور القريب من الإذاعة قال له:

- نحن في خدمتك أنا وسيّارتي وهذا!

وأشار بيده إلى وسطه الأمر الذي جعل هاشمًا يمضي وبقايا ضحكته ما زالت عالقة على شفتيه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- 59 -

الحرب توقّفت!.

أخيرًا.. أخيرًا بعد ثماني سنوات توقّفت.

كان اليوم هو الثامن من الشهر الثامن للعام ثمانية وثمانين.

كيف تراصفت هذه الثمانيات لتكون نهاية حرب هي الأبشع والأقسى والأكثر عبثًا؟.

الحرب توقّفت عندما أعلن الخميني قبوله بالقرار الأممي رقم 598 ووصف ما أقدم عليه بأنّه أشبه بتجرّعه للسمّ.

ردّد غسّان:

- ليتجرّع السمّ أو العسل. المهمّ أن تتوقّف هذه الحرب ما دام قرارها بيد الخميني، فالعراق أعلن قبوله بالقرار منذ صدوره!.

ومنذ أن أُذيع البيان لم يتوقّف اندفاع الناس إلى الشوارع والساحات في مظاهرات ابتهاج عفويّة. وانطلقت مكبّرات الصوت مردّدة الهتافات والأناشيد الوطنيّة، وخرج كلّ من يملك سلاحًا إلى الشارع وصار يطلق النار في الهواء. وتعالت نداءات التكبير من المساجد، وأخذت الكنائس تقرع أجراسها بدون توقّف.

وكانت النسوة الثكالى والخائفات على أبنائهنّ وإخوتهنّ وأزواجهنّ المجنّدين في جبهات القتال أو الأسرى يطلقن الزغاريد رغم الدموع المنسكبة من مآقيهنّ الحيرى.

كان غسّان العامري في شقّته عندما جاءه صلاح البوّاب ليهنئه بتوقّف الحرب، ولم يقل له:

- وصلني الخبر قبل هذا.

بل بشّ في وجهه وردّ عليه وهو يقدّم له ورقة نقديّة تردّد في قبولها:

- بشّرك الله بالخير!.

نهض وقام بفتح النافذة والتفت يمينًا وكأنّه يحيّي أبا جعفر المنصور ويقول له:

- أردت بغداد مدينة للسلام، لكنّ الحروب كانت تأخذها. ثم سرعان ما تعود مدينة حبّ وسلام! تأخذها الحروب التي لا تريدها، وغالبًا ما تكون ساحة لها فتذهب المعالم وتسفك الدماء.. ولكنّها تتجاوز كلّ محنها لتكون الأصفى والأجمل بين المدن!.

لوّح غسّان بيده إلى رأس أبي جعفر الرابض على قاعدته، حيث التف حوله المتظاهرون وهم يهزجون ويهتفون بحياة العراق.

وانطلقت منبّهات السيّارات في جوقة فرح عارمة، كأنّ الحرب كانت تكمّم الأفواه وتقيّد الأيدي وتكتم الأنفاس.

تأمّل غسّان أفواج البشر وهو يردّد في سرّه تمتمات متسارعة يحوّلها إلى كلمات، رغم تناثرها وتبعثرها وما يرافقها من تلعثم تبدو فيه وكأنّها هذيان محموم. لكنّه مع هذا لم يوقف ارتجاف شفتيه، فهذا فوق طاقته. وتماشى مع ما هو فيه لعلّه ينضبط مع إيقاع كلمات واضحة تشكّل نواة لهتاف أو لقصيدة. هكذا هو في لحظات احتدامه القصوى عندما تختضّ أضلاعه من سخونة القصيدة وحماها التي تعتصره، يجد يديه تتحرّكان وكأنّه يلوّح لقادم أو مغادر، يظلّ يلوب، يدخل الشقّة، ينطرح على الفراش، ينهض، يغنّي، يقوم بتمرينات رياضيّة. يقف تحت مرشّ الماء عاريًا، يستحمّ، يضحك يفتح الراديو، ثم يخرسه عندما يصفعه صوت المذيع إذ بدتْ كلّ كلماته موجّهة إلى شخص واحد فقط، هو الأوّل والآخر. به ابتدأت الدنيا وبه تواصلت.

أحسّ غسّان بأنّه يقترب من الإمساك بتلابيب قصيدة ما زال يتحرّق إليها مثل مواعيده مع حنان عوّاد.

لا يدري ماذا يفعل؟ وإلى أين يتوجّه وهو في حالة الاحتدام هذه التي لا بدّ أن تثمر خصبًا وجدانيًّا هو وقدة الشعر وعنفوان الفرح الخبيء.

توقُّف الحرب يعني الرحيل بعيدًا، يعني قبرص كمحطّة أولى، حيث رعد الطويل القريب من بيروت والبعيد عنها أيضًا بعد أن أصبح مطلوبًا فيها. وتلك مفارقته وهو يخطو نحو الخمسين حيث تحوّل العمر إلى رحلة مطاردة من الولادة حتى الموت.

جلس غسّان على الكنبة الوحيدة وهو يصغي لنبض الشارع وهدير الجموع وأصوات الرصاص الذي يطلقه العراقيّون في أفراحهم وأتراحهم.

كان حائرًا. لا يدري ماذا يفعل؟ وإلى أين يذهب؟.

وتذكّر والده العجوز وما هو وقع نبأ انتهاء الحرب عليه؟ معنى هذا أنّ ولديه الشابّين خالد وعادل سيعودان. وأنّه قدّم قربانه لهذه الحرب التي ستظلّ لغزًا في بدايتها ونهايتها، قدّم ساق ولده علي الذي لم يعد ذلك الفتى الذي فاز يومًا في سباق القفز بالرمح، أو بالزانة كما يسمّي العراقيّون هذه اللعبة.

توقّفت الحرب، وتجرّع الخميني السمّ كما وصف حالته. فهل هي النهاية؟ أم أنّ توقّف القتال سيعقبه قتال من نوع آخر؟.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

واقتنع غسّان أنّ هذه الأسئلة تمضي بعيدًا، والمهمّ المشهد الحاضر. وفرح الناس دليل على أنّهم لم يكونوا معها بالمرّة، بل كانوا ضدّها ومع هذا لم يهربوا منها. ثمانية أعوام من الدم والمحق وقد خاضوها بجدارة. لكنّ الصواريخ والقنابل لا دور لها إلاّ التخريب. وكان العالم يتفرّج فقط، ويقدّم السلاح للطرفين سرًّا وعلانية. أميركا، إسرائيل، فرنسا، روسيا، المهمّ أنّ مصانع الأسلحة تعمل لتجلب الموت.

ينهض ويتوجّه نحو مطبخه الصغير ليعدّ الشاي، فهو ما زال يجيده وعلى الطريقة العراقيّة، وكما في القهوة فإنّ الهال في الشاي أيضًا، وتذكّر أنّه قرأ قبل أيّام فقط في إحدى الصحف المصريّة التي جاءه بها صلاح البوّاب وهو يقول له:

- الجرنال ده وصل امبارح من مصر!.

فشكره على هديّته، لأنّ العراق لم يعد يستورد الصحف والمجلاّت والكتب، فالعملة الصعبة تذهب كلّها للحرب.

قرأ في الصحيفة أنّ التقديرات الأوّليّة التي وردت في تقرير للأمم المتّحدة حول كلفة هذه الحرب هي أربعمائة وخمسون مليار دولار أميركي، هذا عدا مئات الألوف من البشر الذين قُتلوا وشُوّهوا وأُصيبوا عضويًّا ونفسيًّا ومعنويًّا. وقد علّقت الصحيفة على هذا الخبر بأنّ المبلغ لو وُزّع على سكّان كلّ من العراق وإيران لنال كلّ واحد سواء كان طفلاً أو شيخًا أو رجلاً أو امرأة نصف مليون دولار.

وبعد أن فرغ غسّان من قراءة هذا الموضوع وقتذاك أطلق صيحة فزع كادت أن تحرق بقيّة العقل في رأسه المصدوع.

توقّفت الحرب، وشرب رأسا النظامين في بغداد وطهران السمّ معًا. رفع كلّ منهما كأسه نخب الآخر. لكنّه السمّ البطيء الذي ستحوّله السنوات القادمة إلى وباء وعفن يأكل البلدين ومن عليهما.

وتساءل غسّان عن الخطوات الأخرى التي ستتبع إعلان توقّف الحرب وأيّها الأهمّ؟ تبادل الأسرى مثلاً؟ وقد علم أنّ له أقارب ما زالوا في الأسر رغم أنّ بعضهم مثل ابن عمّه كامل قد أُطلقوا في عمليّات التبادل التي تتمّ بين فترة وأخرى بإشراف الصليب الأحمر. لكنّ بعض الأسرى انحازوا إلى الجانب الآخر ولما شكّله من تنظيمات سياسيّة وعسكريّة من العراقيين المرتدّين هؤلاء، وقد سُمّوا بـ «التوّابين». وعندما سمع غسّان بهذا الاسم لم يعرف عمّن تاب هؤلاء؟ هل تابوا عن عراقيّتهم مثلاً؟.

وتساءل غسّان في سرّه:

- هل سيعود الضبّاط والجنود وأفراد الجيش الشعبي، ذلك الشبح الذي طارد غسّان وخشي أن يجد نفسه يومًا في معسكر النهروان لتدريب أفراد هذا الجيش؟ وكم كان يتردّد عندما يطلب منه أن يملأ استمارة كانت تقدّم له لملئها بين فترة وأخرى يوم كان في الوظيفة.

وفيها فقرة عن عدد قواطع الجيش الشعبي التي ساهم فيها وتواريخها وأماكنها؟ إذ كانت هذه المسألة مثار تفاخر وعنوان تميّز.

وتساءل: هل ستعود البسمات إلى وجوه الأطفال المحرومين من حنان الآباء، الأطفال الذي وُلدوا وكبروا تحت رعب الصواريخ وغياب الآباء في جبهات الحرب الذين قد يطول غيابهم خمسة شهور أو أكثر قبل أن يقوموا بزيارة سريعة لأسرهم.. هذا بالنسبة للأحياء منهم، ولكن غالبًا ما يعود الأب جثّة ملفوفة بالعلم العراقي تحملها سيّارة عسكريّة تتوقّف أمام باب الدار، يسلّمها حاملوها بآليّة ثم ينصرفون، فهذا المشهد لتكراره أصبح روتينيًّا جدًّا.

وخاطب غسّان نفسه وهو يسكب الشاي في «الاستكان»:

- توقّفت الحرب يا غسّان العامري. ومعنى هذا أنّ الكثير من الألم المكبوت سيغادرك، وستتحرّر من هذا الخوف نهائيًّا عندما يُذاع بيان، أو مرسوم جمهوري، أو قرار من مجلس قيادة الثورة يسمح بإطلاق حرّيّة السفر للعراقيين؛ ولكن هل كلّ هذا حلم بعيد المنال؟ وأنّه لا بدّ من سنوات أخرى لإعادة ترتيب ما دمّرته الحرب؟ أمّا حرّيّة السفر فهي مجرّد ترف لا أحد يفكّر به!.

وكوّر قبضته وضرب على ذراع الكنبة وهو يكزّ على أسنانه:

- لا بدّ من فتح كوّة في هذه السماء المقفلة!.

لا بدّ من خلاص يبعدنا عن هذا الجحيم الأبديّ!.

لا بدّ.. وليكن توقّف الحرب مجرّد بداية.

عاد لاحتساء شايه، وبعد أن فرغ من ذلك، نهض بهمّة وارتدى ثيابه ونزل إلى الشارع ودسّ جسده في مظاهرة صاخبة مرّت به، وأصبح واحدًا من المصفّقين والهاتفين فيها.

وتساءل إن كان بعمله هذا قد وجد الطريق إلى القصيدة الحلم، قصيدة الرحيل بعيدًا.. بعيدًا.

ولم ترتسم أمامه حروف جواب.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بدأت كتابتها في 1987/5/12 ببغداد
وفرغت من كتابتها الأولى في 1992/9/19 بتونس،
وتمّت الكتابة الأخيرة في 2007/8/27 بتونس.

نحيب الرافدين

عبد الرحمن مجيد الربيعي

هذه السيرة ـ المسار الحياتي والثقافي في مرحلة لعلها من أعقد مراحل حياتنا وأكثرها شدة وقسوة على إنسانيتنا كمن يؤلف قصصاً أقرب الى القصص المتخيلة منها إلى الواقع لفداحة وقائعها ومضامينها، وهي قصص عن مسيرة ذات طابع متمرد، محاولاً استعادة تمرد شبابك الأول وأنت اليوم في حقبة وقوفك على مشارف الكهولة، إن لم تكن قد دخلتها بمفاجآتها غير السارة. إنك تستعيد، هنا، أطرافاً من طفولتك التي تجدها جميلة، وربما أجمل مما كانت، وأنت تنظر إليها اليوم نظرة استعادة.. كما تستعيد حقبة شبابك الثاني الذي كان، كشبابنا جميعاً، شباباً مدمراً، ومنتهكاً على نحو فادح الثمن، كما دفعناه.. تاركاً كل شيء للعراء، وفي العراء.. ثم تعمد الى تعرية ذاتك، وذواتنا معك، أمام قرائك/قارئنا، مع كل ما لحق بحياتنا هذه من دمار، وما أحاطها من تدمير.. فأنت هنا وإن حاولت أن تبدو صافياً، مرحاً، ومحباً .. مشعاً وجميلاً، لم تستطع إخفاء الجراح التي كشفت عنها صور وحالات ومواقف لم تستطع انتزاعها من عقلك ولا فصدها من دمك.

ولكني ألاحظ هنا أن التذكر، الذي أقمت عليه الجانب الأكبر من عملك هذا، يقترب من «التذكر الأدبي» أكثر من التذكر الحياتي ـ اليومي. وما يبتعث الألم في النفس ويستثير الشجن أن كل ما مرّ بتلك الحياة، أو مرت به، قد تحول في الأخير الى خيبة. أما الفرح القليل، إن بدا هنا أو ظهرهناك، فهو عابر أو وهمي، ما يجعلني أتساءل: هل وقع كل ما وقع لحياتنا مصادفة؟

مكتبة بغداد

ISBN: 978-614-02-1364-7
9 786140 213647

ISBN: 978-9938-90-233-4
9 789938 902334

كلمة KALIMA

دار أوما DAR OMA

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com

الغلاف بريشة الفنان العراقي ستار لقمان

https://telegram.me/maktabatbaghdad